كتاب الروضتين في أخبار الدولتين

تأليف الشيخ الامام العالم الفاضل الصدر الكامل

الاوحد فريد عصره وحيد دهره مجموع الفضائل

شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن اسمعيل

ابن ابراهيم المقدسي الشافعي

تغمده الله تعالى

برحمته

آمين

م

رواه الشيخ الامام مجد الدين أبي المظفر يوسف بن محمد بن عبد الله الشافعي سماعا عنه

﴿الجزء الثاني﴾

(طبعة جديده)

بمطبعة وادي النيل بمصر القاهره

سنة ١٢٨٨

(كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين)
(النوريه والصلاحيه)

بسم الله الرحمن الرحيم

(ثم دخلت سنه أربع وسبعين وخمسمائة) قال العماد وكان شمس الدين ابن المقدم من أكابر الامراء وهو السابق الى مكاتبة السلطان فى تصويب رأيه فى الوصول الى الشام وتدارك امر الاسلام وكان السلطان عند تسلم يعلبك انهم بها عليه وردّ أمورها اليه فاقام بها مستقرا ولاخلاف اعماله مستدرا ولما وصل السلطان فى هذه النوبة الى الشام لم يحضر كما جرت العادة للخدمة والسلام فانه كان نمى اليه ان الملك المعظم مجد الدين شمس الدوله تورانشاه ابن أيوب طلبها من أخيه وانه لايمكنه الردّ خوفا من الحضور ان تتم الامور وروجع فى ذلك مرارا سرا وجهارا والتزم له ان يعوّض عنها ماهو اوفى منها فابى الا ابا وشارف السلطان منه ومن اخيه الحيا وشمس الدولة لايقبل عذرا ولايرى عما طلبه صبرا ثم استأذن أخاه فى التوجه اليها فأذن له وتوجه عز الدين فرخشاه الى حوران لحفظ الثغور وسار السلطان الى حمص ونزل على العاصى عازما على الجهاد ووردت من الفاضل كتب من بعض فصولها (وأما سور القاهرة فعلى ما أمر به المولى شرع فيه رظهر العمل وطلع البنا وسلكت به الطريق المؤديه الى الساحل بالمقسم والله يعمر المولى الى ان يراه نطاقا مستديرا على البلدين وسورا بل سوارا يكون به الاسلام محلى اليدين محلا الضدين والامير بهاء الدين قراقوش ملازم الاستحثاث بنفسه ورجاله لازم لما يعنيه بخلاف أمثاله قليل لتثقيل مع حمله لاعباء التدبير واثقاله) ومنها فى حق نجل القضاء من شرف الدين بن أبى عصرون لما ذهب بصره الى ولده (لن يخلو الامر من قسمين والله يختار للمولى خيرة الاقسام ولاينسى له هذا التحرج الذى لايبلغه ملك من ملوك الاسلام اما ابقاء الامر باسم الوالد بحيث يبقى رأيه ومشاورته وفتياه وبركته ويتولى ولده النيابة ويشترط عليهما المجازاة لاول زله وترك الاقالة لاول عثره فطالما بعث حب المنافسة الراجحه على اكتساب الاخلاق الصالحه واما ان يعوض الامر الى الامام قطب الدين فهو بقية المشايخ وصدر الاصحاب ولايجوز ان يقدم عليه فى بلد الامر هو أرفع طبقة فى العلم منه) ومنها فى اقامة عذر التأخر عن الجهاد (وأما تأسف المولى على أوقات ينقضى عاطلها من الفريضة التى خرج من بيته لاجلها ويجدد العوائق التى لايوصل الى آخر جبلها فللمولى نية رشده وأليس الله العالم بعبده وهو سبحانه لايسأل الفاعل عن تمام فعله لانه غير مقدور له ولكن عن النية لانها محل تكليف

الطاعه وعن مقدور صاحبها من الفعل بحسب الاستطاعه واذا كان المولى آخذا فى أسباب الجهاد وتنظيف الطرق الى المراد فهو فى طاعة قد امتن الله عليه بطول امدها وهو منه على أمل فى نجح موعدها والثواب على قدر مشقته وانما عظم الحج لاجل جهده وبعد شقته ولوان المولى فتح الفتوح العظام فى أقل الايام وفصل القضية بين أهل الاسلام واعداء الاسلام لكانت تكاليف الجهاد قد قضيت وصحائف البر المكتسبة بالمرابطة والانتظار طويت) ومنها فى ذكر أولاد السلطان (وقبل الاجابة عن الفصول فنبشر بما جرت العادة به لاقطع الله تلك العاده من سلامة وصحة وعافية شملت موالينا وأولاده الساده أطاب الله الخبر اليهم عن المولى والى المولى عنهم وعجل لقاءه لهم ولقاءهم له فانهم من بلق منهم بل كل منهم ملك دسته برجه وفارس مهده سرجه فهم بحمد الله بهجة الدنيا وزينتها وريحانة الحياة وزهرتها وان فؤاد اوسع فراقهم لواسع وان قلبا قنع باخبارهم لقانع وان طرفا نام على البعد عنهم لهاجع وان ملكا ملك تصبره عنهم لحازم وان نعمة الله فيهم لنعمة بها العيش ناعم اما يشتاق جيد المولى ان يتطوق بدررهم أما تظمى عينه الى أن تروى بنظرهم أما يحن قلبه على قلبه أما يلتقط هذا الطائر بتقبيلهم ما خرج من حبه وللمولى أبقاه الله تعالى ان يقول

وما مثل هذا الشوق تحمل مضغة ❊ ولكن قلبى فى الهوى متقلب

وفى أخرى (والملوك الاولاد فى كفالة العافية لارفعت عنهم كفالتها وعليهم جلالة السلطنة لافارقتهم جلالتها وكل من الموالى الساده الامراء الاولاد والقاده كلهم جوهر وكلهم المقدم وليس فيهم بحمد الله من يؤخر على ما عود الله من صحة وسلامه وكفاية ووقايه ولزوم المستقل منهم لشهد الكتاب ولموقف الاماج ومخائل الخفر فيهم من تحت ليل الصبا انور دلاله من ضوء السراج والله تعالى يمد فى عمر المولى الى أن يرى من ظهورهم ما رأى جدهم رحمه الله فى أهل بيته من البطن الرابع فوارس الحرب الرائعه وملوك الاسلام التى منهم للاسلام اكاسرة وتبابعه وكافيهم عند العلا صغير وصغير ابنا الكبار كبير نجوم الارض وذرية بعضها من بعض والخلف الصالح المحض وهم فى الدنيا والآخرة فرسان القوة والتقى فى يوم الحرب ويوم العرض) ومنها فى ذم ماء دمشق ووخمها (عرف الملوك من الكتب الواصلة التياث جسم المولى الامير عثمان والحقير مما يسال ذلك الجسم الكريم يوقد فى قلوب الاولياء الاثر العظيم وقليل قذاة العين غير قليل وماذا يقول فى بلد لو صحت الحية من مائه لكانت من أكبر أسباب صحة المحتمى وشفائه فانه ماء يوكل وبقية المياه تشرب ويجد وخامته من ينصف ولا يتعصب) ومنها (وأما المأمور به فى معنى المنكران الظاهرة وازالة أسبابها واغلاق أبوابها وتحصين كل مبتوتة من عصمه وتطهير كل موسومة بوصمه فالله ينيب المولى ثواب من غضب لارضيه بغضبه وحمل الخلق على منهاج شرعه وادبه) ثم أورد العماد فصولا كثيره وقال انما أوردت الفصول الفاضلية لان فى كل فصل منها ذكر سيره وفوائد كثيره

(فصل) قال العماد ومن جملة ما أغفلته ذكر ما أسقطه السلطان من مكس مكة شرفها الله تعالى عن الحاج وتعويض أمرها بجلاب غلة تحمل اليه فى كل سنة وتعيين ضياع موقوفة عليها بالاعمال المصرية كان الرسم بمكة ان يؤخذ من حاج المغرب على عدد الرؤس ما ينسب الى الضرائب والمكوس فاذا دخل حاج حبس حتى يؤدى مكسه ويفك بما يطلبونه منه نفسه واذا كان فقير الايملك فهو يحبس ولا يترك ويفوته الوقفة بعرفة ولا يدرك فقال السلطان نريد ان نعوض أمير مكة عن هذا المكس بمال ونغنيه عنه بنوال وان أعطيناه ضياعا استوعبها ارتفاعا وانتفاعا فلا يكون لاهل مكة فيها نصيب فقرر معه ان يحمل اليه فى كل سنة مبلغ ثمانية آلاف أردب قمح الى ساحل جده فان الامير بها يحتاج الى بيعها للانتفاع باثمانها ويتفق أهل الحرمين من الدولة بدوام احسانها وقرر أيضا حمل الغلات الى المجاورين بالحرمين والفقرا ومن هنالك من الشرفا ووقف لها وقوفا وخلد بها الى قيام الساعة معروفا فسقطت المكوس واغتبطت النفوس وزاد البشر وزال العبوس واستمرت النعمى وزال البوس وذلك فى سنة اثنتين وسبعين ومن كلام الفاضل فى ذلك فى بعض كتبه (من البشائر التى لا عهد للحاج دیار مصر بمثلها ولا عهد لملك من ملوك الديار المصرية بالحصول على فخرها واجرها انقطاع المكاسين عن جدة وعن بقية السواحل ويكفى ان تمام هذه المثوبة موجب الاستطاعة مقيم بحجة الله فى الحج فقد كانت الفتيا على سقوطه مع وجود الحامل وما

أكثر ما اجرى الله للخلائق على يد المولى من الارزاق التي تفضل عن الاستحقاق وما أولاه بان يتوخى بالمعروف مكانه من هذين الحرمين الشريفين المهجورين من اسعاف أهل الاقتدار والمحروم من قدر فيهما على خير فاضاع فرصته بترك البدار وغير خاف عن مولانا همة الفرنج بالقدس برا وبحرا ومركبا وظهرا وسلما وحربا وبعدا وقربا وتوافيهم على حماسه وهو أنف في وجه الاسلام ومسارعتهم الى نصرة أهليه بالارراح والاموال على مر الايام ومعاذ الله ان يستبصر وافي الضلال ونصرف نحن عن الحق ويضيق بنا في التوسعة على أهله سعة المجال والملوك في مستهل رجب بمشيئة الله معول على السفر الى الحجاز لقضاء الفريضة قولا وفعلا والسائرون في هذه السنة بطمعة وقفة الجمعة وبفسحة وضع المكس خلق لا يحصى والمولى شريك في أجرهم فليهنه ان الملوك عمرت بيوتها فخربت وان المولى عمر بيت الله فمن كرمه سبحانه ان يعمر بيت المولى وما أشد خجل الملوك من النبي صلى الله عليه وسلم في التقصير في قوت جيرانه في هذه السنة وما هكذا أوصى للمطيع ولكن للغائب حجته قلت وفي هذه المكرمة التي فعلها صلاح الدين رحمه الله بالحاج يقول الشيخ الفاضل أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الاندلسي من قصيدة له يمدح بها صلاح الدين وستأتي فيما بعد أخبرني بها ثقة نقلها من خطه

رفعت مغارم مكس انجما ❁ زبانعا مكك الشامل الغامر
وأمنت أكناف تلك البلا ❁ دفهان السبيل على العابر
وسحب أياديك فياضة ❁ على وارد وعلى صادر
وحكم لك بالسرق من حامد ❁ وكم لك بالغرب من شاكر
وكم بالدعاء لكم كل عا ❁ م بمكة من معلن جاهر
وقد بقيت حسبة في فلا ❁ ن وتلك الذخيرة للذاخر
يعنف حجاج بيت الاله ❁ ويسطو بهم سطوة الجائر
ويكشف عما بأيديهم ❁ وما شيك من موقف صاغر
وقد وقفوا بعدما كشفوا ❁ كأنهم في يد الآسر
ويلزمهم حلفا باطلا ❁ وعقبى اليمين على الفاجر
وان عرضت بينهم حرمة ❁ فليس لها عنده من ساتر
أليس يخاف غداء رضه ❁ على الملك القادر القاهر
أليس على حرم المسلمين ❁ بذلك المشاهد من غابر
الا حاضر بافع زجره ❁ فيأذله الشاهد الحاضر
الا ناصح مبلغ نصحه ❁ الى الملك الناصر الظافر
ظلوم تضمن مال الزكا ❁ ة لعدت صفقة الخاسر
يسر الخيانة في باطن ❁ ويبدي النصيحة في الظاهر
فاوقع به حادثا انه ❁ يقبح أحدوثة الذاكر
فالمناكير من زاجر ❁ سواك والعرف من آمر
وحاشاك ان لم تزل رسمها ❁ فالك في الناس من غادر
ورفعك أمثالها موسع ❁ رداء فخارك للناشر
وأثارك الغر تبقى لها ❁ وتلك المآثر للآثر
نذرت النصيحة في حقكم ❁ وحق الوفاء على الناذر
وحبك أنطقني بالقريض وما ابتغى صلة الشاعر
ولا كان فيما مضى مكسبي ❁ وبئس البضاعة للتاجر
اذا الشعر صار شعار الفتى ❁ فناهيك من لقب شاهر

وان كان نظمى له نادرا ❊ فقد قيل لاحكم للنادر
ولكنما خطرات الهوى ❊ تعن فلعب بالخاطر
وأما وقد زان تلك العلى ❊ فقد فاز بالشرف الباهر
وان كان منك قبول له ❊ فتلك الكرامة للزائر
ويكفيه سمعك من سامع ❊ ويكفيه لحظك من ناظر
ويزهى على الروض غب الحيا ❊ بما حاز من ذكرك العاطر

قال العماد وفى المحرم من هذه السنة توفى الحكيم مهذب الدين أبو الحسن على بن عيسى المعروف بابن النقاش البغدادى بدمشق وكان كنعته مهذبا ومن الملوك لتفرده بفضله مقربا وهو مبرز فى فنه حتى ان من شدى أشياء من الطب تنجح بانه قرأ عليه وتردد لاستفادته اليه وقد راضته العلوم الرياضيه وأحكمت أخلاقه المعارف الحكميه وفى الثانى عشر من جمادى الاولى توفى الامير نجم الدين بن مصال بمصر وحانعيه ونحن بحمص فجاوزا غمام السلطان برزئه حدّه وجلس فى بيت الحشب مستوحشا وحده وقال لا يخلف الدهر لى صديقا مثله بعده وأحرى ما كان له جميعه لولده وحفظ عهده وكان لجماعة من الاعيان والشعراء والاماثل والادباء بعنايته ووساطته من السلطان رزق ابعاه عليهم كأنه عليه مسحق وفى العشر الاول من ربيع الآخر أغارت طائفة من الفرنج على بلد حماه فخرج اليها متولى عسكر حماه الامير ناصر الدين منكورس بن حمازكسر صاحب حصن برقبيس فأسر المقدمين وسفك بسيفه دم الباقين وجاء الى الخدمة السلطانية بظاهر حمص وساق معه الاسارى فأمر السلطان بضرب أعناقهم وان تولى ذلك أهل التقى والدين من الحاضرين فتقدم امامه الضياء البيرى وضرب عنق بعضهم وتولاه الشيخ سليمان المغربى ثم الامير ايطغان بن يارق واستدعى العماد وأمر بذلك فلم يفعل وطلب ان يملكه السلطان منهم صغيرا فعوّض عنه ثم رحل السلطان على طريق الزراعة الى بعلبك فنازلها محاصرا من غير قتال فطال أمرها ولم يسمح بها صاحبها ودخل فصل الشتاء فرحل السلطان عنها الى دمشق ووكل بها من يحصرها بالمنع من الخروج والدخول من غير قتال وهم جماعة مع طغرل الجاندار ودخل الى دمشق فى العشر الاواخر من رجب وتمادى الامر الى ان رضى ابن المقدم بحمص بعزين وأعماله وبلد كفرطاب وأعيان نواحى وقرى من بلد المعرة وسلم بتسليم بعلبك من المصرة والمعرة وكان الذى أخذه أكثر وأنفع مما خلاه وما حطر بباله ما حصل له ولا ترجاه ولا تمناه

❊ فصل ❊ كالذى قبله فى حوادث متفرقة قال العماد كتب النواب بدمشق الى السلطان ان الاموال ضائعة وان الاطماع فيها رائعة وان فى أرباب الصدقات أغنياء لا يستحقونها ومالهم رنبة من الله ينقونها وان أرباب العنايات استوعبوها وما اسوجبوها وان المصلحة تقتضى افراد جهات لما سخ من مهمات وكانت الصدقات مبلغ أحد عشر ألف دينار فقال لى اكتب عليها جميعها بلا امضاء ولا تكترث على ذوى الآمال موارد العطاء فقلت أما أتلو عليك الاسماء فقال لا بل نزهنى عن هذه الاشياء فبقيت تلك الرسوم دارّة والآمال بها سارّة قال وفى شعبان من هذه السنة توفى متولى المقياس بمصر فتوفى السلطان منصبه الى أخيه قال وهذا المقياس موضع مبنى من عهد خلفاء بنى العباس تعرف زيادة الماء ونقصانه بالمقياس وهناك عمود فى الماء مقسوم بالادرع والادرع مقسومة بالاصابع فى مسجد ينوب فى الجزيرة عن الجامع تصلى فيه الجماعات والجمع ويتولاه من العهد القديم متول من ولد أبى الرداد ممن هو معروف بالنزاهة والعلم والسداد وله راتب دارّ ورسم وقرار قلت بلغنى ان أبا الرداد هذا كان معظما من أهل الصدق والصلاح رتبه جعفر المتوكل على الله فى ولاية المقياس وبقى من بعده على ولده وقرأت فى تاريخ اغربا الذين قدموا مصر لابى سعيد بن يونس قال (عبد الله بن عبد السلام بن الرداد العمى بصرى قدم مصر وحدث بها وكان قد جعل على قياسة النيل توفى بمصر لسبع بقين من رجب سنة ست وستين ومائتين وذكره أبو سعيد فى أهل مصر أيضا وقال فيه ولده وأبو عصر) قال ابن الاثير وفى سنة أربع وسبعين وخمسمائة اشتد الغلاء وعم أكثر البلاد العراق ومصر ودياربكر وديار الجزيرة والشام وغير ذلك من البلاد ودام الى ان انقضى سنة خمس وسبعين وخرج الناس فى البلاد يستسقون فلم يسقوا ثم ان الله تعالى رحم عباده ولطف بهم وأنزل عليهم الغيث وأرخص الاسعار ومن

عجيب ما رأيت تلك السنة انى كنت فى الجزيرة فأقبل انسان تركمانى قد أثر فيه الجوع وكأنه قد أخرج من قبر فبكى وشكا الجوع فأرسلت من اشترى له خبزا فتأخر احضاره لعدمه وهو يبكى ويتمرغ على الارض فتغيمت السماء وجاءت نقط مطر متفرقة وضج الناس ثم جاء الخبز فأكل التركمانى وأخذ الباقى معه ومشى واشتد المطر ودام من تلك الساعة فرخصت الاسعار ووجدت الاقوات بعد ان كانت معدومة ثم تعقب الغلاء وباء شديد كثير وكان مرض الناس شيئا واحدا وهو سرسام فمات فيه من كل بلد أمم لا يحصون كثرة ولقى الناس منه ما أعجزهم حمله ثم ان الله تعالى رفعه فى سنه ست وستين وخمسمائة وقد ضعضع العالم

﴿فصل﴾ فى عمارة حصن بيت الاحزان ووقعة الهنفرى قال العماد وفى مدة مقام السلطان على بعلبك واشتغاله بأمرها انتهز الفرنج الفرصة فبنوا حصنا على محاضة بيت الاحزان وبينه وبين دمشق مسافة يوم وبينه وبين صفد وطبرية نصف يوم وقيل للسلطان متى أحكم هذا الحصن تحكم من الثغر الاسلامى الوهن وغلق الرهن فتقول اذا أتموه نزلنا عليه وهدمناه الى الاساس وجعلناه من الرسوم الادراس فكان الامر بعد سنه على ما جرى لفظه من عدة حسنه فلما انقضى أمر بعلبك وصل السلطان دمشق فأقام بها وأمر الحصن من همه وقصد حصاره من عزمه وكان العام مجدبا والجدب عاما وقيل للسلطان ايس هذه سنة جهاد فان استمحوك السلامة فامنح وان جنحوا للسلم فاجنح فقال السلطان ان الله أمر بالجهاد وكفل بالرزق فأمره واجب الامتثال ووعده مضامن الصدق فنأتى بما كلفنا نفوز بما كفله ومن أغفل أمره أغفله قال ووصل فى هذه السنة رسول دار الخلافة وهو الخادم فاضل وكان من أفضل الخدم ندب بافضل الخدم وفرح السلطان به واستصحبه معه الى الغراه ووقف به على الحصن الذى استجده الفرنج بالمشهد اليعقوبى وتخطف من حوله من الفرنج جماعه وأقام على أهل المعصية بجهاده الطاعه وعاد وقد عرف ما يعزم عليه من أمر فتحه قال وفى مستهل ذى القعدة كانت وقعة هنفرى ومقتله وذلك ان الاخبار تواترت بان الفرنج قد تجمعوا فى جمع عظيم وانهم عازمون على الخروج على المسلمين على غرة ففدم السلطان ابن أخيه فرخشاه على عساكر دمشق وأمره ان يخرج الى الثعرة على وأمره ان علم بخروجهم ان ينفذ الى السلطان يعلمه بذلك ولا يلقاهم بل يتركهم حتى يتوسطوا البلاد فلم يشعر طلائع فرخشاه الا وقد خالطوهم على غرة فوقعت الوقعة فقتل صاحب الناصرة وجماعة من مقدميهم وطلب الملك فطرح حصانه وجرح فرسانه وجاء الهنفرى ليحميه فوقعت فيه جراحات أحدها اصابة وقعت فى مارنه فجذعته ونفذت الى فيه ومزقت بضرسه فقلعه وخرجت من تحت فكه ووقعت أخرى فى مشط رجله فنفذت الى أخمصه وأخرى فى ركبته وضرب ثلاثا فى جنبه فكسر له ضلعين وقتلت عدة من الرجالة والخيالة ورجعت الفرنج بخزى عظيم ليس فيهم الا مجروح وكل يوم تزد البشرى بموت مقدم من جراحة أصابته وردت بطاقة الطير فى ذلك اليوم الى دمشق فخرج السلطان فاوصل الى الكسوة الاوروسهم وأسراؤهم قد جىء بها فرجع مظفرا منصورا وذلت الفرنج بعدها وان كسرت بموت الهنفرى ثم سار السلطان الى الحصن الذى بنوه فأزعجهم وذعرهم وعاد على عزم العود اليه قال ثم وجه السلطان أخاه الاكبر تورانشاه من الشام الى مصر بمن ضعف من الاجناد لاجل محل البلاد فرتب فى بعلبك نوابه وودعه السلطان من مرج الصفر وذلك فى أواخر ذى القعدة ومر على بصرى ومنها الى الازرق ومنه الى الجفر الى الله الى صدر ووصل معه خلق كثير من التجار والرجال والنساء والاطفال

﴿فصل﴾ قال العماد وسافر الفاضل الى الحج فى هذه السنة وركب البحر فكتبت اليه كتابا فيه (طوبى للحجر والحجون من ذى الحجر والحجى منيل الجدا ومنير الدجى ولندى الكعبة من كعب الندى وللهدايا المشعرات من مشعر الهدى وللمقام الكريم من مقام الكريم ومن حاطم فقار العقر للحطيم ومتى رئى هرم فى الحرم وحاتم ما تح زمزم ومتى ركب البحر البحر وسلك البر البر لقد عاد قس الى عكاظه وعاد قيس بحفاظه ويا عجبا لكعبة يقصدها كعبة الفضل والافضال ولقبلة يستقبلها قبله القبول والاقبال) قلت ومدحه أبو الحسن بن الذروى عند عوده من الحج بقصيدة حسنة منها

علم البحر انك الخلق وافا ✻ فامسى حشاه يخفق رعبا

وغدا درّه لديه حقيرا * اذ رأى الدرّ منك ينشأ سحبا
ولو احتاز قطرة منك يا بحـ ـر لاضحى أجاجه الملح عذبا
هائج لم يزل دعاؤك حتى * هوّن الله منه ما كان صعبا
ولقد نام اذ ركبت وللر يح هبوب وجئت أرسيت هبا
حبذا ما صنعته من أياد * عاد جدب الحجاز منهن خصبا
رمت كتمانها فذاعت وهل يقـ ـدر غيث يخفى عن الارض سكبا
فدرأت منك كعبة الله لما * جئتها حاتما وان شئت كعبا
بل رأى منك بيته بيت مجد * أحرم الجود حوله ثم لبى
ورأى الركن من يمينك ركنا * جاء للنعم أبيض اللون رطبا
وزهت زمزم بشربك منها * وعجيب ان يظهر الماء عجبا
وتوجهت للمدينة عن مكـ ـة لما تشاء وكافيك حسبا
وأتيت الشأم تطـ ـوف فتوح * سار شرقا به الهناء وغربا
ان تكن غبت عنه والله يبقيـ ـك لا مثاله فما غبت قلبا
سرت والرأى فيه منك مقيم * وبعثت الدعاء فى الليل كتبا

وتد وقفت على الرقعة التى كتبها القاضى الفاضل رحمه الله بخطه الى السلطان يلتمس منه الاذن له فى سفر الحج فأحببت نقلها هنا وما كتب السلطان رحمه الله عليها وما كتب بسببها الى بعض نوابه نقلت من خط الفاضل رحمه الله (بسم الله الرحمن الرحيم) (كتب المملوك هذه الرقعة بعد ان استخار الله سبحانه من مستهل رجب فى اكثر ليالية والى آخر هذه الساعة وهو ينهى انه قد شارف الاربعين وما يدرى لعلها عقبة اللقاء وفرض الله فى الحج قد تعين ووعد المولى به قد سبق عند ايلة ومدة الغيبة قصيرة والنائب ينفذ ما يحتاج اليه فى السفر والحصر والثقة به حاصلة فى المرادين من الكاتب وهما الكتمان والمعرفة وحظ المولى فى حجه ولله أضعاف حظه فى مقامه لانه ان كان ينفع بها فى الدنيا فهو ينفع هنالك فى الآخرة وان لم يكن أهلا لان يستجاب منه فالله أهل لان يجيب فى المولى والمملوك فما ثمل قط فى سؤال وليس لان المولى لا يقضيها ولكن لانه يغنيه عن السؤال فيها وهذه حاجة الدنيا والآخرة وبعدها يسد

متى يأت هذا الموت لا يلف حاجة * لنفسى الا قد قضيت قضاها

وما أراد المملوك ان يستشفع بمن يشارك المولى فى الاجر وما يريد الا دستورا عن نفس طيبة ورضى ظاهر وباطن ولا يريد خلاف الغرض فما يفى له بقضاء المفترض والله المغير برحمته
الحمد لله وحده وصلاته على سيدنا محمد وآله وسلامه

وعلى رأس الرقعة فى سطر البسملة بخط السلطان رحمه الله ما صورته (على خيرة الله تعالى ياليتنى كنت معكم فافوز فوزا عظيما) نقلته من خطه ونقلت من خط بعض الكتاب ما نقله من خط السلطان رحمه الله الى بعض النواب فصل من كتاب لهم بالخط العالى الناصرى أعلاه (ورد بتاريخ السابع والعشرين من جمادى الاولى سنة اربع وسبعين وخمسمائة) (وصلنى كتاب القاضى الفاضل وهو يذكر انه مصمم على الحج الله يجعله مباركا ميمون ولكن لا أفسح له فيه الا بعد ثنتين واحدة انه لا يركب بحر يسير من العسكر الى ايلة ومنها يتوجه ويقيم العسكر على ايلة ليلة وعلى ارم ليلة ودون ارم ليلة وقاطع ارم ليلة فيكون هو قد بعد وما يبقى عليه خوف ان شا الله تعالى وثانية تأخذ بده وتحلفه براسى انه لا يجاور وثالثة تعطيه من مال الجوالى ثلاثة آلف دينار وتقول له لا بد ان يخرج هذا عنى لاعنك فى المجاورين بمكة والمدينة وفى أهلها هذا أمر لا بد منه فان الناس لا بد لهم من الطلب ولا بد لك من العطا وان قال ان الشئ قليل فانت تقرضنى مثل هذا المبلغ من مالك وتعطيه اياه لا بد والا فلا اذن له فى الرواح الى الحج الا على هذه الشروط التى قد شرطتها وأما مجيئه فيجئ الى الشام فانا ما بقى لى دار الا هى حتى يقضى الله بيننا وبين الفرنج وهو خير

الحاكمين) وكتب الفاضل الى بعض مشايخ مكة بعذر جوعه (سقى الله الحجاز وحيا كعبته وياطول ماترشقى سهام الشوق الذى أصبح الذكر جعبته أهاعلى تلك المواقف وتبالمن رضى ان يكون مع الخوالف فرعيا ونعمى وحسنة وحسنى لمجاورى ذلك الحرم ولعامرى ايامه التى هى الايام لاأيام ذى يزن فياهف الصدور وطول ظمأها الى ورود ماء زمزمه وطوبى لمن استضاء فى مضال الظلم بعلمه ومهما نسيت فلاأنسى برد الكبد بحر صيفها وموسم الانس بثلاث مناها وخيفها

أهاعليها ليال ماتركن لنا ❊ الاالاسى وعلالات من الحلم
عسى الرياح اذا سارت مبلغة ❊ توفى فقد غدر الاحباب بالذمم

ثم قال فاما الطريق المباركة فقد جرى فيها خطوب وشؤون وأحاديث كلها تحجون وكانت العقبى الى سلامة ولما قاربنا الكرك نهض العدو فلم تكن الرجعة ولا التعريج جانبا ثم من الله تعالى بانجلاء النوبة ووصلنا الى بلاد السلطان ولقينا ذلك الوجه فلاعدمنا بشره وذلك الفضل فلا فارقت أعيننا قرة ووجدناه فى العزاة جاهدا وللعدو مجاهدا وأوماته مستغرقه وعزماته محققه

﴿فصل﴾ فيما فعل مع الفرنج فى باقى هذه السنة وأول الاخرى ووقعة مرج عيون قال ابن أبى طى كانت الفرنج قد عمرت بيت الاحزان وكان على المسلمين منه ضرر عظيم فراسل السلطان الفرنج فى هدمه فاجابوا اليه لاسبيل الى هدمه الان يعطينا ماغرمناه عليه فبذل لهم السلطان ستين ألف دينار فامتنعوا وزادهم الى ان بلغ مائة ألف دينار وكان هذا الحصن للداوية وكانوا يقرون من فيه بالاموال والنفقات لقطع الطرقات على قوافل المسلمين فاشار تقى الدين على السلطان ببذل هذا المال لاجناد المسلمين ويخرج بهم الى الحصن ويهدمه ففعل ذلك كما سنذكره قال العماد ولما ودع السلطان أخاه ورجع أغار فى طريقه على بلاد الفرنج وقصد الحصن الذى بنوه ورجع بالاسراء والغنائم وخيم السلطان بمرج السعراء ثم انتقل الى باسماس وبلغت الخيم ان حدود بلاد الكفره وأضرم عليهم لهب النيران المستعره وكان كل يوم يركب بجهة الصيد وينزل على النهر ويجرد فرسان الجلاد والقهر ويسير قبائل العرب الى بلد صيدا وبيروت حتى يحصدوا غلات العدو ومايريح مكانه حتى يعودوا بجمالهم واحمالها موبقة بانقالها حتى جف زرع الكفار قال وفى هذه السنة انتهى رأى الفرنج ان يرعبوا المسلمين فى كل ناحية خوفا من اجتماعهم على جهة واحدة فغدر ابرنس انطاكية واغار على شيزر وغدر القمص بطرابلس بجماعة من التركمان بعد الامان فرتب السلطان ابن أخيه تقى الدين عمر فى ثغر حماه ومعه شمس الدين ابن المقدم وسيف الدين على المشطوب ورتب ابن عمه ناصر الدين فى بعرحمص فى مقابلة القمص وكتب السلطان الى أخيه العادل وهو نائبه بمصر ان ينتخب له من عسكر مصر ألفا وخمسمائة فارس يقوى بهم مع عسكر الشام على العدو

﴿ثم دخلت سنة خمس وسبعين﴾ والسلطان نازل على تل الفاضى بباناس فاجمع رأيه مع بقية المسلمين على ان يقتحموا على الكفار ديارهم ويستوعبوا مابقى فى أيديهم من الغلات فى يوم واحد ثم يرجعوا فرحلوا صوب البقاع فهصوا تلك الميلة وهى ليلة الاحد ثانى المحرم فلما أصبح السلطان جاءه الخبر بان الفرنج قد خرجت فالتقاهم وأنزل الله نصره على المسلمين وأسر فرسانهم وجمعانهم وانهزمت رجالتهم فى أول اللقاء فكان من جملة الاسرى مقدم الداوية ومقدم الاسبتارية وصاحب طبرية وأخو صاحب جبيل وابن الفمصية وابن بارزان صاحب الرملة وصاحب جبنين وقسطلان يافا وابن صاحب مرقية وعدة كثيرة من خيالة انفدس وعكا من البارونية وغيرهم من المقدمين الاكابر مازاد على مائتين ونيف وسبعين سوى غيرهم ثم قدمت الاسارى وهم يتهادون كأنهم سكارى قال العماد وأنا جالس بقرب السلطان استعرضهم بقلمى ومن ألطاف الله تعالى أنا وخواصه الحاضرين لم نزد على عشرين والاسراء قد أنافوا على سبعين وقد أنزل الله علينا السكينه وخصهم بالذلة المستكينه وطلع الصباح ورفع المصباح وقمنا وصلينا بالوضوء الذى صلينا به العشا ثم عرض الباقون من الاسرا ثم نقلوا الى دمشق فاما ابن بارزان فانه بعد سنة بذل فى نفسه مائة وخمسين الف دينار صورية واطلاق ألف أسير من المسلمين وكان الفقيه ضياء الدين عيسى من نوبة الرملة عندهم من المأسورين فالتزم ادراكه وان يؤدى من قطيعة المذكور القطيعة التى قررها فكاكه وأما ابن

القمصية

القمصيه فانه استفكته أمه بخمسة وخمسين ألفا من الدنانير الصوريه وأما أود مقدم الداويه فانه انتقل من سجنه الى سجين فطلبت جيفته فاخذوها باطلاق أسير من مقدمى المؤمنين وطال أسر الباقين فمنهم من هلك وهو عان ومنهم من خرج بقطيعة وأمان وهذه هى وقعة مرج عيون وكان العدو فى عشرة آلاف مقاتل وانهزم ملكهم مجروحا وكان لعز الدين فرخشاه فى هذه الوقعة بلاء حسن حكى حسام الدين تمير لك بن يونس وكان مع عز الدين قال كنا فى أقل من ثلاثين فارسا قد تقدمنا العسكر فشاهدنا خيل الفرنج فى ستمائة فارس واقفين على جبل وبيننا وبينهم الماء فاشار عز الدين بان نعبر النهر اليهم ففعلنا ولحقنا عسكر السلطان فهزمناهم ومن أحسن ما اتفق انه فى اليوم الذى كسرت فيه الفرنج مرج عيون ظفر الاسطول المصرى بعشرة كبيره فاستولى عليها وعلى أخرى وعاد الى الثغر مستصحبا ألف رأس من السبى فما أقرب ما بين النصرين فى المصرين وما أعذب عذاب الفئتين وتجريعهما الامرين الامرّين لقد عم النصر وتساوى فيه البر والبحر ومما مدح به السلطان فى هذا الفتح مدحة سيرها من مصر اليه فخر الكتاب أبو على الحسن بن على العراقى الجوينى أولها

لك رب السماء خير معين ❊ وكفاه بما تحب ضمين
فله الحمد أى نصر عزيز ❊ قد حبانا به وفتح مبين
أدرك النار حين نازله المغـ ـوار حيف الكفار ليث العرين
الهمام الغضنفر الملك النا ❊ صر مولى الورى صلاح الدين
يا مليكا أضحى الزمان يناجيـ ـه بلفظ المذلل المسكين
قذفت أهلها الحصون الى بأ ❊ سك حتى عوضتهم بالسجون
وأراهم رب السماء بأسيا ❊ فك ما لم يجل لهم فى ظنون
لك قلب عند اللقاء مكين ❊ وله من تقاه ألف كمين
يا مليكا يلقى الحروب بحول اللـ ـه مستعصما وصدق اليقين
ان هذا الفتح المبين شفاء ❊ لصدور وقرة لعيون
هو يوم أضحى كيوم حنين ❊ سهل الله نصره فى الحزون

قال العماد وكان تقى الدين غائبا عن هذه الوقعة رائتغل عنها بغيرها وذلك ان سلطان الروم قلج ارسلان طلب حصن رعبان وادعى انه من بلاده وانما أخذه منه نور الدين رحمه الله على خلاف مراده وان الملك الصالح ولده قد انعم به عليه ورضى بعوده اليه فلم يفعل السلطان وكان هذا الحصن مع ابن المقدم فارسل قلج ارسلان عسكرا مجمعا فى عشرين ألفا فحاصروا الحصن فلقيهم تقى الدين ومعه سيف الدين على المشطوب فى ألف مقاتل فهزمهم قال ولم يزل تقى الدين يدل بهذه النصرة فانه مرة باحاد ألوفا وارغم باعدادهم من الاعداء أنوفا وقال ابن أبى طى واتصل بالسلطان ان قلج ارسلان قد طمع فى أخذ رعبان وكبسون فلما دخل دمشق وصله رسوله يطلبهما منه ويدعى ان نور الدين ابن زنكى اغتصبهما منه وان الملك الصالح قد أنعم عليه بهما فاغتاظ السلطان وزجر الرسول وتوعد صاحبه فعاد الرسول واخبر قلج ارسلان فغضب وسير عسكرا الى رعبان فحاصرها وسمع السلطان فندب تقى الدين عمر فى عساكر فارس فسار فلما قارب رعبان أخذ معه جماعة من اصحابه مقدار مائتى فارس وتقدم عسكره وسار حتى أشرف على عسكر قلج ارسلان ليلا فرآهم قد سدوا الفضاء وهم غارون آمنون وادعون فقال تقى الدين لاصحابه هؤلاء على ما ترون من الطمأنينة والامن والغفلة وقد رأيت ان نحمل الساعة فيهم بعد ان نتفرق فى جوانب عسكرهم ونصيح فيهم فانهم لا يثبتون لنا فاجابوه الى ذلك فانفذ واحدا من أصحابه الى باقى عسكره وامرهم ان يتفرقوا أطلابا وان يجعل فى كل طلب قطعة من الكوسات والبوقات فاذا سمعوا الضجة ضربوا بكوساتهم وبوقاتهم وجدوا فى السير حتى يلحقوا به ففعلوا ما أمرهم ثم انه حمل فى عسكر قلج ارسلان وصرخ اصحابه فى جوانبه وكان عدة عسكر قلج ارسلان ثلاثة آلاف فارس فلما سمعوا الضجة وحس الكوسات والبوقات وشدة وقع حوافر الخيل وجلبة الرجال واصطكاك اجرام الحديد هالهم ذلك وظنوا ان قد فوجئوا بما عظيم فلم يكن لهم الا ان جالوا فى كواثب خيولهم

عريا وطلبوا النجاة وأخذتهم السيوف فتركوا خيامهم واثقالهم بحالها وأكثرتقى الدين فيهم القتل والاسر وحصل على جميع ماتركوه فلما أصبح جمع المأسورين ومن عليهم باموالهم وكراعهم وسرحهم الى بلادهم قال وقيل ان الخبر بهذه الكسرة وصل الى السلطان فى اليوم الذى كسر فيه السلطان الفرنج على مرج عيون فتوافت البشارتان الى البلاد قال وقد مدح ابن التعاويذى السلطان الملك الناصر بقصيدة أنفذها اليه من بغداد ذكر فيها وقعة مرج عيون يقول فيها

كاد الاعادى ان يصيبك كيدها * لولم تكدك برأيها المأفون
تخفى عداوتها وراء بشاشة * فتشف عن نظر لها مشفون
دفنت حبائل مكرها فرددتها * تدرى بغيظ صدورها المدفون
وعلمت ما أخفوا كأن قلوبهم * أفضت اليك بسرها المخزون
كنواوكم لك من كمين سعادة * فى الغيب تظهر من وراء كمين
فهوت نجوم سعودهم وقضى لهم * بالنحس طائرهم بمرج عيون

قلت هكذا أنشده وهو حسن وقد كشطته فى نسخة من ديوان ابن التعاويذى فوجدت آخر هذا البيت (طائر جدك الميمون) وأول هذه القصيده

ان كان دينك فى الصبابة دينى * فقف المطى برملتى بيرين

ثم قال بعد تمام الغزل

ليت الضنين على المحب بوصله * لقى السماحة من صلاح الدين
ملك اذا علقت يد بذمامه * علقت بحبل فى الحفاظ متين
فاذا الجياد معاقلا وان اكتفى * بعاقل من رأيه وحصون
سهرت جفون عداه خيفة ماجد * خلقت صوارمه بغير جفون
لوان لليث الهزبر سطاه لم * يلجأ الى غاب له وعرين
أضحت دمشق وقد حلات بجوّها * مأوى الطريد وموئل المسكين
لك عفة فى قدرة وتواضع * فى عزة وشراسة فى لين
وأريتنا بجميل صنعك ما روى الـ * ـراوون عن أمم خلت وقرون
وضمنت ان يحيى لنا ايامهم * بالمكرمات فكنت خير ضمين

قال ابن أبى طى نزل السلطان على تل الفاصى بانياس على المرج الذى يعرف بمرج عيون وأنفذ فى ثانى المحرم قطعة من عسكره مع عز الدين فرخشاه لشن الغارة على بلاد الفرنج فلما أصبح ركب يسنو قف اخبار فرخشاه فاذا هو الا ان خرج من الخيم حتى رأى اغنام بانياس قد أقبلت من المراعى هاجة على وجوهها من الغياض والاودية فقال هذه غارة فأمر بلبس السلاح والاستعداد للحرب فوصل بعض الرعاة فأخبر ان الفرنج قد عبروا وصاروا قريبا منه على هيئة المتقفلة فسار حتى أشرف على الفرنج فاذا هم فى ألف رمح فأخذتهم السيوف والدبابيس حتى فرشت الارض منهم والتى جماعة منهم سلاحهم وسلموا أنفسهم اسارى وبحا ملك الفرنج هنفرى هاربا ويقال انه وقع به فرسه فحمله أحد خياليته على ظهره ثم رجع السلطان الى معسكره وسيفه يقطر ما وجلس لاستعراض الاسارى فذكر نحو ما سبق وفى كتاب الفاضل الى صاحب له بمكة وقد سبق بعضه قال (وجرت نوب منها قتل الهنفرى لعنه الله وتمام سبعين فارسا من كبار الخيالة وطرح ملك الفرنج من على ظهر دابته وقتل ملك بآخر رمق مع بقية من نجا من خيالته ومنها نوبة وادى الحريق وقد جمع الله العدو فارسه وراجله ومنها نصر الله الذى ما كان قبله لملك من ملوك الارض قتل ابن بارزان ومقدم الداويه وابن صاحب طبريه وأخو اسقف صور وصاحب جبيل وأصحاب الحصون والقلاع ومقطعو الاقاليم والضياع وحصل تحت اليد الناصرية أعلاها الله مائة وسنون كاهم تثنى عليهم الخناصر وتقطر بهم العساكر ومنها دخول العساكر الى عمل بيروت وصور وغارتها على غرة من أهلها وقطع كل شجرة مثمرة من أصلها قال

وكانت الاساطيل المنصورة قد تضاعفت عدتها الى أن بلغت ستين شينيا وعشرين طريدة فسارت الشوانى خاصة فدخلت البلاد الروميه ودوخت السواحل الفرنجيه وأسرت ألف علج احضرتهم اسرى فى قيد الاسار وقتلت الرفاق الكبار وغنمت من هذه الغزوة أقوام كانت أعينهم لا تعرف عين الدرهم ولا وجه الدينار)

(فصل) فى تخريب حصن بيت الاحزان وذلك فى سهر ربيع الاول قال العماد جمع السلطان جموعا كثيرة من الخيالة والرجاله فوصل الى المخاضة يوم السبت تاسع عشر الشهر والحصن مبنى دونها من الغرب فخيم منها بالقرب وضاق ذلك المرج عن العسكر واحتاج الى نصب ستائر لاجل المنجنيقات فركب السلطان بكرة الاحد الى ضياع صفد وكانت قلعة صفد يومئذ للداويه وهو عشر البليه وأمر بقطع كرومها وحمل أخشابها فأخذ كل ما احتاج اليه ورجع بعد الظهر وزحفوا الى الحصن بعد العصر فما أمسى المساء الا وهم قد استولوا على الباشورة وانتقلوا بكليتهم اليها وباتوا طول الليل يحرسون وخافوا ان يقحم الفرنج الابواب ويغيروا عليهم على غرة واذا بالفرنج قد أوقدوا خلف كل باب نارا ليأمنوا من المسلمين اغترارا فاطمأن المسلمون وقالوا ما بقى الا نقب البرج ففرقه السلطان على الامراء فأخذ فرخشاه الجانب القبلى وأخذ السلطان الجانب الشمالى وقصد ناصر الدين بن شيركوه بقربه نقبا وكذلك تقى الدين وكل كبير فى الدولة جعل له قسما وكان البرج محكم البناء فصعب نقبه لكن ما انقضى يوم الاحد الا وقد تم نقب السلطان وعلق وحشى بالحطب ليلة الاثنين وحرق وكان النقب فى طول ثلاثين ذراعا فى عرض ثلاث أذرع وكان عرض السور تسع أذرع فما تأثر ذلك فاحتاج السلطان صبيحة يوم الاثنين الى اطفاء النيران ليتم نقبه وقال من جاء بقربة ماء فله دينار قال العماد فرأيت الناس للقرب حاملين ولاوعية الماء ناقلين حتى اغرقوا تلك الثقوب فحمدت فعادتقانوها وقد بردت فحرقوه وعمقوه وفتحوه وفتقوه وسقوا حجره وفلقوه ثم حشوه وعلقوه واستظهروا فيه يوم الثلاثاء والاربعاء ثم أحرقوه واشتد الحرص عليه لان الخبر أتاهم بان الفرنج قد اجتمعوا بداربريه فى جمع كثير فلما أصبح يوم الخميس الرابع والعشرين من ربيع الاول وتعالى النهار انقض الجدار وتباشرت الابرار وكان الفرنج قد جمعوا وراء ذلك الواقع حطبا فلما وقع الجدار دخلت الرياح فردت النار عليهم وأحرقت بيوتهم وطائفة منهم فاجتمعوا الى الجانب البعيد من النار وطلبوا الامان فلما خمدت النيران دخل الناس وقتلوا وأسروا وغنموا مائة ألف قطعة من الحديد من جميع أنواع الاسلحة وشيئا كثيرا من الاقوات وغيرها وجىء بالاسارى الى السلطان فمن كان مرتدا أو راميا ضربت عنقه وأكثر من أسر قتل فى الطريق الغزاة المطوعة وكان عدة الاسارى نحو سبعمائة وخلص من الاسر أكثر من مائة مسلم وسيق باقى الاسارى الى دمشق وأقام السلطان فى منزلته حتى هدوا الحصن الى الاساس وطم جب ماء معين كان حفروه فى وسطه ورمى فيه القتلى وكان عند السلطان رسول القمص معه فى وهو يشاهد بليه أهل ملته وقد كان السلطان بذل لهم فى هدمه ستين ألف دينار فلم يفعلوا فزادهم حتى بلغ مائة ألف فأبوا وكان مدة المقام على الحصن فى أيام فتحه وبعدها أربعة عشر يوما وبعد ذلك سار السلطان الى اعمال طبريه وصور وبيروت وغيرها فأغار عليها وأرجف تلوبهم بوصوله اليها ورجع السلطان الى دمشق يوم الاربعا ومرض جماعة من دلك الوبا لان الحر كان شديدا وأنتنت جيف القتلى وطول السلطان المقام عليه بعد فتحه لاجل تتميم هدمه فتوفى اكثر من عشرة أمرا وعاد المشهد اليعقوبى كما كان مزورا وبتكبير المسلمين وصلاتهم معمورا وهنأ الشعراء السلطان بفتح هذا الحصن فى ذلك ما أنشده نشو الدولة أحمد بن نقادة الدمشقى من جملة مدائحه

هلاك الفرنج اتى عاجلا * وقد آن تكسير صلبانها
ولولم يكن قد دنا حتفها * لما عمرت بيت احزانها

ولابى الحسن على بن محمد بن رستم الساعاتى الخراسانى ثم الدمشقى من قصيدة أولها

بجدك اعطاف القنا تتعطف * وطرف الاعادى دون مجدك يطرف
شهاب هدى فى ظلمة الشك ثاقب * وسيف هدى فى طاعة الله مرهف
وقفت على حصن المخاض وانه * لموقف حق لا يوازيه موقف
فلم يبد وجه الارض بل حال دونه * رجال كآساد الشرى وهى ترجف

وجرداء سلهوب ودرع مضاعف ❁ وأبيض هنـــدى ولدن مقصف
ومارجعت اعلامك الصفر ساعة ❁ الى ان غدت اكبادها السود ترجف
كبا من أعاليه صليب وبيعة ❁ وشاد به دين حنيف ومصحف
صليبة عباد الصليب ومنزل الـــنزال لقد غادرته وهو صفصف
أيسكن أوطان النبيين عصبة ❁ تمين لدى ايمانها وهى تحلف
نصحتكم والدين فى النصح واجب ❁ دروايت يعقوب فقد جاء يوسف

ومن قصيدة لسعادة الصرير الحمصى

حللت فكنت الالمعى المسددا ❁ وسرت فكنت الشعرى المؤيدا
وقمت باعباء الممالك ناهضا ❁ فأقعدت اعداء ولم تخش مقعدا
تعودت ضرب السيف والطعن بالقنا ❁ وكل امرء مغرى بما قد تعودا
نصرت الهدى لما تخاذل حزبه ❁ فعاد الحزب الله ياناصر الهدى
غضبت لدين أنت حقا صلاحه ❁ فارضيت لما ان غضبت محمدا
فيا يوسف الخير الذى فى يمينه ❁ من الخير ما قد غار فينا وأنجدا
وصلت لدى سلم وصلت لدى وغى ❁ فعمت جميع الناس بالبأس والندى
وقدت الى الاعداء جيشا عرمرما ❁ اذا أبرقت فيه الصوارم أرعدا
فلم تبق للطغيان شملا مجمعا ❁ ولم تبق للايمان سعلا مبددا
فناهيك من جيش نهضت بعبئه ❁ فأقعدت لما ان نهضت به العدى
حللت ذبالا فى ذوابل سمره ❁ فلما دجى ليل الجماجم توقدا
وزرت به الحصن الذى لو تحصنت ❁ فوارسه بالنجم أوردته الردى
قصمت به صلب الصليب ورعته ❁ وشهدته لما غفا فتشهدا
هبيت اليه هبة يوسفية ❁ تعيد هباء كل ما كان جلمدا
وفض بما قد فضه من سهامه ❁ نواحد ثغر المنبرى وقدا

قال ومنهم الامير نجم الدين محمود بن الحسن بن نبهار العراقى من أهل الحلة المزيدية وكان حاضرا فى نوبة ابن بارزان له من قصيدة أولها

هنيئا صلاح الدين بالصحو والدهر ❁ ونيل الامانى الغر والعكة البكر
وماحزت فيها من فخار ومن علا ❁ وحسن ثنا يبقى الى آخر الدهر
سموت لها بالمشرفيـــة والقنا ❁ سموا بى لاينام عـــلى وتر
وصلت بها حبل المفاخر صلبا ❁ قطعت بها يوم الوغى دابر الكفر
سلكت بياض الصبح وهو صوارم ❁ وخضت سواد الليل وهو دم يجرى
وقد عرف الافرنج بأسك فى الوغى ❁ وجرعتهم منه أمر من الصبر
وظنوا بناء الحصن صونا لملكهم ❁ فأصبح بالسعواء منهتك الستر
فما قبضت منهم يد الغدر قطعت ❁ أنامل ها الاعلى صفقة الخسر
هى الفتكة الغراء لازلت فاعلا ❁ بها مثالها الدين فى السر والجهر
وأصبح فى أقصى خراسان ذكرها ❁ وفى كل قلب منه جيش من الذعر
فلا ترض منهم بعدها بدل طاعة ❁ فما خلقوا الا على شيمة الغدر
فسر واملك الارض التى لو تركتها ❁ لاغضت عيون المجد منها على أمر
فيا آل أيوب حويتم مناقبا ❁ باخمصها تعلو على الانجم الزهر

اذا عـــدّ أرباب الفخار فانتم ❁ ذوو الفعلات الغر والنائل الغمر
وأنت الذى أصبحت بالبأس والتقى ❁ وبذل اللهى عالى السناء عطر الذكر

من كتاب فاضلى الى بغداد فى وصف الحصن (وقد عرض حائطه الى ان زاد على عشر أذرع وقطعت له عظام الحجارة كل فص منها من سبع أذرع الى ما فوقها وما دونها وعدتها تزيد على عشرين ألف حجر لا يستقر الحجر فى مكانه ولا يستعمل فى بنيانه الا بأربعة دنانير فما فوقها وفيما بين الحائطين حشو من الحجارة الصم المرغم بها انوف الجبال الشم وقد جعلت سقيته بالكلس الذى اذا أحاطت قبضته بالحجر مازجه بمثل جسمه وصاحبه باوثق وأصلب من جرمه وأوعز الى خصمه من الحديد بان لا يتعرض لهدمه) ومنه فى وصف النار قال (وبات الناس فى ليلة الجمعة مطيفين بالحصن والنار به مطيفة وعليه مشتملة وعدبات ألسنتها على تاجه مسدلة ومن خلفه مسبلة ونارهم قد اطفأها الله بتلك النار الواقده ومنعتهم قد أذهبها الله بتلك الابرجة الساجده وبتسبيح الظلماء قد استحال جلنارا والشفق قد عم الليله فلم يختص آصالا ولا اسحارا ونخاتها حميمة وقودها الناس والحجاره والمنادى ينادى بلسان مصابها اياك أعنى فاسمعى ياجاره فولجت النار والج يصيق منها الفكر ويعجز عنها الابر ونقلت النبأ من العين الى الاثر وقال الكفر انها لاحدى الكبر وخولف المثل ان السعاده لتلحظ الحجر وأغنى ضوءها لسان كل اتمعة ان يسأل هذا وهذا ما الخبر وقد فت بشرر كالجمالات الصفر ورفرت بغيظ تعمر له خدود الجبال الصعر وتلحقها بالكثيب العفر وبات الليل والنهار ينله وكلما أعمده الجمود جعل الوقود يسله الى ان بدا الصباح كأنه منها امتار الانوار وانشق الشرق ومن عصفرها صبغ الازار فحينئذ تقدم الخادم فاقلع بيده الاحجار من أسها ومحا حروف البنيان من طرسها وتبعه الجيش ورماقه وكافة من اسفل عليه نطاقه) وفى كتاب آخر (وكان مبنيا على تل وفيه صهريج لما فتح المسلمون الحصن رموا فيه ما يناهز ألف قتيل ودابة محرقة بالنار فاسدت عرصته ولا ملأت حفرته وكان فيه نحو الف زردية والمعاتلة ثمانون فارسا بعلمانهم وخمسه عشر معدما للرجال مع كل مقدم خمسون رجلا هذا الى الصناع من بناء ومعمار وحداد ونجار وصيقل وسيوفى وصناع أنواع الاسلحة وكان به من أسرى المسلمين ما يزيد على مائة رجل نزعت القيود من أرجلهم وجعلت فى أرجل الفرنج وكانت فيه أقوات لعدة سنين وأنواع اللحوم الطيبة والخبيثة فيها بلاغ ومتاع الى حين ولما قوتل أول يوم هجم حوشه وفيه جماعة من المقاتلة فضربت رقابهم وأحدت دوابهم وفى الحال علت النقوب على خمس جهات وحشيت بالنيران وتأخر وقوع الجدران لفرط عرض البنيان ولم تزل النار توقد ثم تخرج ثم تشعل ثم تخمد الى ان تمكنت النقوب وحشيت بالاحطاب وأطلقت فيها النيران فى يوم الخميس فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت الارض فهى يومئذ واهيه وملك المسلمون الحصن بما فيه ومن فيه واشتعلت النيران فى أرجائه ونواحيه وكان الطاغيه مقدم الحصن شاهد ما حل بنيانه ونازل من البلاء باصحابه وأعوانه ولما وصلت النار الى جهته ألقى نفسه فى خندق نار صابرا على حرها ففى الحال نقلته هذه النار الى تلك النار ولما أخذ أسارى الفرنج وهم عدة تزيد على ستمائة بعد المقولين وما يقصر عدتهم عن مثلها توفرت الهمة على هدم هذا الحصن وتعميه أثره وازالة ضرره فاحاطت أعاليه بقواعده وصار أثرا بعد عين فى مشاهدة عين هذا والفرنج مجتمعون فى طبرية يشاهدون الامر عيانا وينظرون الى الحصن وقد ملئ نارا وانفعد دخانا وسارت العساكر الى اعمال صيدا وبيروت وصور فانثنت مغيرة فاستنارت كل غامضه ووصلت الى كل ذخيره وصارت بلاد الفرنج لا يسكن فيها الا قلعة أو مدينه ولا يقيم فيها الا مرتفعه واشتد الخوف معتقلا فى نفسه أو مشحونه) ومن كتاب آخر عاصلى عن السلطان الى وزير بغداد (تأخر فلان لضرورات منها أمراض كانت قد عمت بها البلوى وكثرت بها الشكوى وكان أكثرها خاصا بالعائدين من العساكر من نزبة صهيح الحصن وكان خادما المجلس السامى ابن أخيه تقى الدين وابن عمه ناصر الدين قد جهدا وأتخنا وبلغ جدا اليأس وامحنا وكادا يسقطان من ضمير المنى فمن الله تعالى بالشفا وهذه البشرى بفتح الحصن وان كانت شريفة مواقعها عامة منافعها فقد تجددت بعدها بشارة طلعت بشارة رائقه وجاءت فى مكان الرديف لاخرى لا فرق بينهما الان تلك سابقه وهذه لاحقه وذلك ان الاسطول المصرى غزا عزوة ثانية غير الاولى وتوجه عن السواحل الاسلامية مرة أخرى من الله فيها منة أخرى وكانت عدته فى هذه السنة قد أضعفت وقويت واستفرغت فيها عزا

الجهاد واستقصيت واحتلت به الرجال الذين يعملون فى البحر ويفتكون فى البر ومن هو معروف من المغاربة بغزو بلاد الكفر فسارت على سوارهى كأنها الا انها تمرق مروق السهام وروا كدهى مدائن الا انها تمر مر السحاب غير الجهام فلا أعجب منها تسمى غرابا وتنشر من ضلوعها أجنحة الحمام وتسمى جوارى وكم بشر مجريها من النصر بغلام فطرقت فى الاحد حادى عشر جمادى الاولى مينا عكا وهى قسطنطينية الفرنج ودار كفرهم أبدها الله من الكفر اسلاما وخلع عنها الشرك البالى وخلع عليها من التوحيد اعلاما وكانت مفروسة فاصبحت مفترسه وباتت جميع الفرنج محترسه وغدت مترسه فهى الان حذفت والجة على المينا وفيه المراكب والبضائع فاستولت على عدة من المراكب تحطيما وتكسيرا ونطاحا يقل لقل ولو كان ثبيرا واخلت ساحل الفرنج بقتالها وباشرت مثل الماء بنزولها ونزالها وهذا مما لم يعهد من الاسطول الاسلامى مثله فى سالف الدهر لا فى حالة قوة اسلام ولا ضعف كفر ومما سبيله ان تطرز السير الكريمة بفخره كما طرز الله الصحيفة الشريفة باجره وقتل على قلعة عكا ثلاثة نفر بألم السهام أبعد ما كانوا وقفوا عنها وآمن ما كانوا منها فصرعتهم الايدى والافواه وخروا سجدا على الجباه سجودا لا يرفعون منه الرؤس ولا ينتقلون منه الى حالة الجلوس ولا يرفع فيما يرفع لهم من عمل ولا لهم فيه من قبلة ولا لهم به من قبل وأقامت المراكب يومين تقابلها وتقاتلها وتناضلها)

(فصل) فى باقى حوادث هذه السنة منها حجة الفاضل الثانية ووفاة الخليفة المستضىء بالله وغير ذلك قال العماد وفى العشر الاخير من شوال سنة خمس وسبعين خرج الفاضل من دمشق الى الحج ثم عاد الى مصر من مكة قلت وقفت على نسخة كتاب الفاضل الى الصفى بن القابض يصف له ما لقى فى طريقه الى مصر وركوب البحر وكانت جماله ذهبت بمكة فى خامس عشر ذى الحجة فقال (خرجنا من مكة شرفها الله يوم الخامس والعشرين من ذى الحجة وفى هذه الايام زاد تبسط المفسدين واسراف المسرفين وظهر من هوان أمير الحاج العراقى ومن ضعف نفسه وانخفاض جناحه ما أطمع المفسد وأخاف المصلح ووصلنا الى جدة يوم الاحد السابع والعشرين من ذى الحجه وركبنا البحر فى يوم الثلاثا التاسع والعشرين منه وبتنا فيه ليلتى الاربعاء والخميس ورمتنا الريح الى جزيرة بالغرب من بلاد اليمن تسمى دبادب وكانت احدى الليلتين فى البحر من ليالى البلاء وبالله أقسم لقد شاب بعض رؤس أصحابنا فى تلك الليلة وايسوا من الانفس وتمنوا معاجلة الامر وتقصير العذاب وظنوا انهم أحيط بهم وعاتبوا أنفسهم ثم احتجوا عليها بالاقدار التى لا حيلة فيها وصبرنا الى ان فرج الله سبحانه ونزلنا البرية حيث لا ماء يشرب ولا جمل يركب وانفذنا الى النجاة النازلين على ساحل البحر فاحضروا جمالا ضعيفة أجرتها أكثر من ثمنها وثمن ما تحمله فركبناها ووصلنا الى عيذاب بعد عشرة أيام وقد هلكنا ضعفا وتعبا وجوعا وعطشا لان الخلق كانوا كثيرا والزاد يسيرا وركبنا البرية من عيذاب الى اسوان فكانت أشق من كل طريق سلكناها ومن كل مسافة قطعناها لا ماء ورد نا الماء فى احدى عشر ليلة مرتين وكانت الهمة قاصرة فى المزاد فكانت البلوى عظيمة فى العطش فاما الحزون والوعور فهى تزيد على ما فى برية الشام بكونها طريقا بين جبال كالدرب المتضايق والزقاق المتقارب وحر الشمس شديد وقريب الوعد بينهما بعيد ولطف الله الى ان وصلنا مصر فى السابع عشر من صفر قلت وللوجيه بن الذروى فى الفاضل

لك الله اما حجة أو وفادة ❁ فى مشهد يرضى الاله وموسم
ترى تارة بين الصوارم والقنا ❁ وطورا ترى بين الحطيم وزمزم
وكم لك يا عبد الرحيم مآثر ❁ لها فى سماء الفخر اشراق انجم
كأنك لم تخلق لغير عبادة ❁ واظهار فضل فى الورى وتكرم

قال العماد وفى هذه السنة طهر الملك العزيز أبو الفتح عثمان عماد الدين ابن السلطان وكان أحب أولاده اليه وهو الذى قام بتدبير الملك بعده وولد بمصر ثامن جمادى الاولى سنة سبع وستين وخمسمائة كما سبق ذكره وكان السلطان لما قدم الشام زاد شوقه اليه فاستقدمه فقدم عليه عاشر رجب سنة احدى وسبعين وأنشد العماد السلطان عند قدومه قصيدة منها

يا أسدا يحمى عرين العلى ❁ هنئت جمع الشمل بالشبل
عثمان ذى النورين بين الورى ❁ من سودد سام ومن فضل
يحكيك اقداما وبأسا فما ❁ أشبه هذا الفرع بالاصل
مخائل الرشد على بشره ❁ شاهدة بالفضل والنبل
ملك قضى الله له انه ❁ على ملوك الارض يستعلى
بالملك الناصر سلطاننا ❁ طالت يد الاحسان والعدل

ثم لم يفارقه واستصحبه الى مصر فى سنة اثنتين وسبعين ثم عاد به معه الى الشام فى شوال سنة ثلاث وسبعين واتخذله معلما من مصر وهو نجم الدين يوسف بن الحسين المجاور فحصل من صحبته رزقا واسعا لاسيما فى عام الطهور فانه عم فيه السرور والحبور وكان متولى الانفاق فى الطهور صفى الدين بن القابض لانه كان متولى الخزانة والديوان والاعمال بدمشق قال وحج يعنى ابن القابض سنة أربع وسبعين وفيها حج الفاضل من مصر يعنى حجته الاولى وعاد الى الشام ومعه ابن القابض قلت فلما رجع عاد معه فى حجة الفاضل الاولى الى الشام ثم انفرد الفاضل بالحج ثانيا من العام المقبل وهو سنة خمس وسبعين وتم له فى رجوعه ماتم كاتبه بالكتاب الذى سبق ذكره يصف له ما لقى فى رجوعه وكانت حجة الفاضل الاولى من مصر ورجع الى الشام وكانت الثانية من الشام ورجع الى مصر وفى هذه السنة توفى الملك المنصور حسن ابن السلطان صلاح الدين وقبره القبر القبلى من القبور الاربعة بالقبة التى فيها شاهنشاه بن أيوب بالمقبرة النجمية بالعوينة ظاهر دمشق قال العماد وفيها خرجوا الى بعلبك لتسليمها الى عز الدين فرخشاه فسلكوا طريق الروديف وهى طريق شاقة وفيها أغار عز الدين على صفد ثامن عشر ذى القعدة وكان قد جمع لهم من رجال بانياس وماحولها وجمع غاما سالما قال وفى مستهل ذى القعدة أو بانيه توفى ببغداد الخليفة الامام المستضىء بالله أمير المؤمنين واستخلف ولده الناصر لدين الله أبو العباس أحمد وكان رسول السلطان صياء الدين الشهرزورى حاضرا فحضر وبايع وأخبر بجلية الحال فبادر السلطان الى الخطبة له فى جميع البلاد ومضى صدر الدين شيخ الشيوخ عبد الرحيم بن اسماعيل من بغداد رسولا الى بهلوان وألزمه حتى خطب بهمذان وأصفهان وعمت الدعوة الهادية فى جميع بلاد خراسان ثم لما رجع شيخ الشيوخ جاء الينا رسولا فى سنة ست وسبعين وأخذه السلطان معه الى مصر وحج منها وركب البحر كما سيأتى ذكره وللعماد فى مدح الامام الناصر قصائد منها قصيدة بائية مدحه بها سنة فتح القدس وسيأتى منها ابيات عند ذكر فتحه ومنها

الدهر ينصرنى مادام ينسبنى ❁ لخدمة الناصر المنصور نساب
بطاعة الناصر بن المستضىء أبى العباس أحمد للايام اصحاب

وقال محمد بن القادسى فى تذييل تاريخ أبى الفرج بن الجوزى مولد المستضىء ثالث عشرى شعبان من سنة ست وثلاثين وكانت خلافته تسع سنين وستة أشهر وواحدا وعشرين يوما وبويع تاسع ربيع الآخر سنة ست وستين وكان كريما رحوما بارا بالرعية يعفو عن الجرائم الكبار عادلا ظهر يوم مبايعته من رد المظالم والاملاك المقبوضة والافراج عن المسجونين واسقاط الضرائب والمكوس ما شاع واشتهر قال وتقدم الى شيخ الشيوخ عبد الرحيم والى عبد الرحمن بن الجوزى فصليا عليه ثم بايع الناصر أخو الامير أبو منصور هاشم ثم بنو أعمامه وخواصه ثم الولاة وأرباب المناصب والاعيان والوافدون للحج من بلاد خراسان وغيرهم وكان والده المستضىء قد عهد اليه قبل وفاته بيوم واحد قلت كذا نقلته من خطه ولعله أراد باسبوع واحد فسبق به قلمه فان ابن الدبيثى ذكر انه خطب للناصر بولاية العهد يوم الجمعة الثانى والعشرين من شوال ثم قال ابن القادسى وفى سابع ذى القعدة قبض على صاحب المخزن ظهير الدين أبى بكر بن العطار ووكل به وتتبع أصحابه ومن يتعلق به وقتل النقيب مسعود الذى كان بين يديه وكان أحد الاعوان بباب النوى قد نزعت الرحمة من قلبه فقطع قطعا وشد فى رجله حبل وسحبته العامة فى الدروب ثم أحرقوه بعد ذلك قال وفى حادى عشره حمل ابن العطار ميتا وعلم به العامة فرجموا تابوته بالآجر فألقاه الحمالون وهربوا فأخذه العامة وشدوا فى رجله شريطا وسحب فى جميع بغداد ومنافذها ودروبها ومحالها

وقطع لحمه قطعا قال وتوجه شيخ الشيوخ أبو القاسم عبد الرحيم الى البهلوان بن ايلدكز شحنة همذان لاجل الخطبة فتوقف عن ذلك فهاجت العامة عليه ووثب أهل المذكور وخطبوا وجاء كتاب شيخ الشيوخ الى الديوان سطرها فلان والحال في الجنوح كقصة نوح من قرأ السوره عرف الصوره قال وفي هذه السنة استد الغلاء وكثر الوباء ببغداد وغيرها من البلاد وذكر ان رجلا بواسط ذبح بنته وأكلها وآخر بقريطن صبي وأخذ كبده وشواها وأكلها قال وفي رابع عشر ربيع الآخر زلزلت الارض بعد العتمة فوق بلاد اربل فلما أصبح الناس عادت الزلزلة في الجبال فتصادمت ووقع منها الحجارة وسقطت قلاع كثيرة وهلكت قرى بمن فيها وكان يكون بين الجمل والجمل عشرون ذراعا فقذفهما الزلزلة فيتصادمان ويعودان الى مكانهما قال ابن أبي طي وفيها أحرق الاسماعيلية أسواق حلب وافتقر أهلها بذلك وكانت احدى الجوائح التي أصابت حلب وأهلها قال وفيها خرج قراقوش التقوى الى طرابلس المغرب ففتح بلادا وصلى حروبا مع ابراهيم السلاحدار الذي دخل بلاد المغرب أيضا مع أصحاب تقي الدين لان نفسه أطمعته ان يفعل فعل قراقوش في تملك البلاد ثم أصلح بينهما

﴿ ثم دخلت سنة ست وسبعين ﴾ ففيها توفي الحافظ أبو طاهر السلفي رحمه الله بالاسكندرية وقد زرت قبره بها داخل الباب الاخضر قال العماد وفيها هادن السلطان صلاح الدين الفرنج وتوجه الى بلاد الروم فاصلح بين نور محمد بن قرا ارسلان بن داود بن أرتق صاحب حصن كيفا وبين زوج ابنته السلطان عز الدين قلج ارسلان بن مسعود بن قلج ارسلان واجتمعوا على نهر يقال له كوك سو وكثرت ثم الهدايا والدعوات والافراح والهبات وفيها دخل السلطان بلاد الارمن لقمع ملكهم ابن لاون لانه كان استمال قوما من التركمان حتى برعوا في مراعي بلاده بالامان ثم صبحهم بغدره وحصلوا بامرهم في أسره فدخل السلطان بلاده وأذل أعوانه وأجناده ونصر الله المسلمين بالرعب وأحرق من الخوف قلعة شامخة تعرف بالمناقير وبادر المسلمون الى اخراج ما فيها من الآلات والغلات فتفوّوا بها ونموا هدمها الى الاساس قال ابن أبي طي ووجد المسلمون في أرضها صهريجا مملوءا آلات نحاس وفضة وذهب لها زمن طويل قال وبذل للسلطان جملة من المال وانه يطلق من عنده من الاسارى فلم يرض السلطان بما بذله فزاد في المال وانه يشترى خمسمائة أسير من بلاد الفرنج ويعتقهم فأجاب السلطان وأخذ منهم رهينة على ذلك قال العماد وأدعى الارمني وذل وأطلق ما بيده من الاسارى ورجع السلطان مؤيدا منصورا ووصل الى حماه في أواخر جمادى الآخرة وكان الجمال الواسطي أبو غالب محمد بن سلطان بن الخطاب المقرئ شاهد اهذه الغزاة فنظم قصيدة في السلطان منها

لقد جمل الله منك الورى ❊ بأوفى مليك وفي همحان
تهش الى نغمات السيو ❊ ف في الهام لا نغمات القيان
أزرت ابن لاون لأواءه ❊ فاضحى به خبرا عن عيان
ودان من الذل لا يرعوى ❊ حذارا من الراعمات اللدان
فلا قدم عنده للثبا ❊ ت وليس له بسطها كيدان
وأخليت اليكم مناقيره ❊ وعادر للهدم تلك الميانى
وأرسل بالاسراء انعنا ❊ ة يسأل اطلاقه فهو عانى
رتقت بعزمك والمكرما ❊ ت فوه ما الارتقى الهجان
ورعت ابن سلجوق في ملكه ❊ ففعفع من رعبه بالشنان

قال ولما وصل السلطان الى حمص وخيم بالعاصي أتاه الفقيه مهذب الدين عبيد الله بن أسعد الموصلي وأنشده وله في السلطان مدائح منها قصيدة غراء مطلعها

أما وجفونك المرضى الصحاح ❊ وسكرة مقلتيك وأنت صاحى
لقد أصبحت في العشاق فردا ❊ كما أصبحت فردا في الملاح
يهز الغصن فوق نقى ويرنو ❊ بحد ظبي ويبسم عن اقاح
وقد غرس القضيب على كثيب ❊ فاثمر بالظلام وبالصباح

ومال

ومال مع الوشاة ولا عجيب ❁ لغصن ان يميل مع الرياح
قطعنا الليل فى عتب وشكوى ❁ الى ان قيل حىّ على الفلاح
ولاح الصبح يحكى فى سناه ❁ صلاح الدين يوسف ذا الصلاح
ولما ضاق حد عن مداه ❁ لفيناه بآمال فساح
فمن هرم وكعب وابن سعدى ❁ رعاء الشاء والنعم المراح
جواد بالبلاد وما حوته ❁ اذا جادوا بألبان اللقاح
ليفد حياء وجهك كل وجه ❁ اذا سئل الندى جهم وقاح
ملوك جلهم مغرى بظلم ❁ ومشغول بلهو أو مزاح
اذا ما جالت الابطال ولّى ❁ ويقدم نحو حائلة الوشاح
وبون بين مالك بيت مال ❁ ومالك رق املاك النواحى
هم جمعوا وقد فرّقت لكن ❁ جمعت به الرجال مع السلاح
وما خضع الفرنج لديك حتى ❁ رأوا أمرا لا يطاق من الكفاح
وما سألوك عقد الصلح ودا ❁ ولكن خوف معملة رداح
ملات بلادهم سهلا وحزنا ❁ أسودا تحت غابات الرماح

وقال ابن شداد لما عاد السلطان بعد الكسرة يعنى كسرة الرملة الى الديار المصرية وأقام بها يجمع الناس شعثهم وعلم تخبط الشام عزم على العود اليه وكان عوده للغزاة فوصله رسل قلج ارسلان يلتمسون منه الموافقة ويستغيث اليه من الارمن فاحتمل نحو بلاد ابن لاون لنصرة قلج ارسلان عليه ونزل يقرا حصار وأخذ عسكر حلب فى خدمته لانه كان قد اشترط فى الصلح ذلك واجتمعوا على نهر الازرق بين بهسنى وحصن منصور وعبر منه الى النهر الاسود طرف فلاد ابن لاون فأخذ منهم حصنا وأخربه وبذلوا له أسارى والتمسوا منه الصلح وعاد عنهم ثم راسله قلج ارسلان فى صلح الشرقيين باسرهم واستقرّ الصلح فى عاشر جمادى الاولى سنة ست وسبعين ودخل فى الصلح قلج ارسلان والمواصلة واهل ديار بكر وكان ذلك على نهر شيخه وهو نهر يرمى الى الفرات وسار السلطان نحو دمشق

(فصل) فى وفاة صاحب الموصل قال العماد وفى أوائل هذه السنة توفى صاحب الموصل سيف الدين غازى بن مودود بن زنكى صاحب الموصل والسلطان مخيم على كرك سوم من حدود بلاد الروم وجلس مكانه أخوه عز الدين مسعود ابن مودود وجاء رسول مجاهد الدين قايماز وهو الشيخ الفقيه فخر الدين أبو شجاع ابن الدهان البغدادى الى السلطان وطلب منه ان يكون معه كما كان مع أخيه من ابقاء سروج والرها والرقة وحرّان والخابور ونصيبين فى يده فلم يفعل السلطان وقد كانت له باطلاق الخليفة واما جعلها فى يد سيف الدين غازى بالشفاعة على شرط انه يقوّى السلطان بالعساكر فلما مات سيف الدين كتب السلطان الى الخليفة الناصر يعلمه بذلك وان هذه البلاد لم تزل تتقوّى بها ثغور الشام ففوّضت اليه على ما أراد وكان الكتاب الى صدر الدين عبد الرحيم شيخ الشيوخ من انشاء العماد وفيه (قد عرف اختصاصنا من الطاعة والعبودية للدار العزيزة النبوية بما لم يختص به أحد وامتدّت اليدنا فى اقامة الدعوة الهادية بمصر واليمن والمغرب بما لم يمتدّ اليه يد وأزلنا من الاقاليم الثلاثة أدعيا وخلفناهم للردا حيث دعوا بلسان الغواية خلفا ولاحفاء ان مصرا قايم عظيم وبلد كريم يقيت مائتين وخمسين سنة مصيفه وعانت كل هضيمه وعاينت كل عظيمه حتى أنقذها الله عز وجل بنا من عبيد بنى عبيد وأطلقها بمطلقات أعنتنا اليها من عناء كل قيد وفيها شيعة القوم وهم غير مأمونى الشر الى اليوم وطوائف أقاليم الروم والفرنج من البرّ والبحر بها مطيفة فمن حقها ان يتوفر عسكرها فلو حصل والعياذ بالله بها فتق لا عضل رتقه واتسع على الراقع خرقه واحتجنا فى حفظ بلاد الشام وثغور الاسلام الى استصحاب العسكر المصرى اليها وله مدة خمس سنين فى بيكارها منتقما من كفارها متحملا لمشاقها على غلاء اسعارها وانما أحوج الى ذلك ان بلاد هذا الثغر قد اقتطعت عنه وعساكرها اخذت منه وكانت فى تولى نور الدين رحمه الله ثم ذكرها كما سبق ففوضت اليه كما سيأتى وقال ابن الاثير توفى

سيف الدين يوم الاحد ثالث صفر سنة ست وسبعين وكان مرضه السل وطال به فقال ومن العجائب ان الناس لما خرجوا يستسقون بالموصل سنة خمس وسبعين للغلاء الحادث في البلاد خرج سيف الدين في موكبه فثار الناس وقصدوه مستغيثين به وطلبوا منه ان يأمر بالمنع من بيع الخمر فاجابهم الى ذلك فدخلوا البلد وقصدوا مساكن الخمارين وخربوا ابرابها ونهبوها وأراقوا الخمور وكسروا الاواني وعملوا ما لا يحل فاستغاث أصحاب الدور الى نواب السلطان وخصوا بالشكوى رجلا من الصالحين يقال له أبو الفرج الدقاق ولم يكن له في الدنى فعله الناس من النهب فعل اغاها وأراق الخمور ولما رأى فعل العامة نهاهم فلم يسمعوا منه فلما سكى احضر بالقلعة وضرب على رأسه فسقطت عمامته فلما اطلق لينزل من القلعة نزل مكشوف الرأس فاراد واتغطيته بعمامته فلم يفعل وقال والله لا غطيته حتى ينتقم الله ممن ظلمني فلم يمض غير قليل حتى توفي الدزدار المباشر لاذاه ثم تعقبه مرض سيف الدين ودام مرضه الى ان توفي وكان عمره نحو ثلاثين سنة وكانت ولايته عشر سنين وشهورا وكان من أحسن الناس صورة تام القامة ملمح الشمايل ابيض اللون مستدير اللحية متوسط البدن بين السمين والدقيق وكان عاقلا وقورا قليل الالتفات اذا ركب واذا جلس عفيفا لم يذكر عنه شئ من الاسباب التي تنافي العفة وكان غيورا شديد الغيرة لم يترك أحدا من الخدم يدخل دور نسائه اذا كبر اما دخل عليهن الخدم الصغار وكان لا يحب سفك الدماء ولا أخذ الاموال مع سمح فيه قال ولما اشتد مرضه اراد ان يعهد بالملك لولده معز الدين سنجرشاه فخاف من ذلك لان صلاح الدين يوسف بن ايوب كان قد تمكن بالشام وقويت شوكته وامتنع أخوه عز الدين من الاذعان والاجابة الى ذلك فأشار الامراء الكبار ومجاهد الدين قايماز بان يجعل الملك بعده في اخيه لما هو عليه من كبر السن والشجاعة والعمل وقرد النفس وحسن سياسة الملك وان يعطي ابنيه بعض البلاد ويكون مرجعهما الى عمهما عز الدين ليبقى لهما ذلك ففعل ذلك وحلف الناس لاخيه فلما توفي سيف الدين كان مجاهد الدين هو المدبر للدولة والنائب فيها والمرجع الى قوله ورأيه فركب الى الخدمة العزية وعزاه وركبه الى دار المملكة راجلا فدخلها وجلس للعزاء وكانت الرعية تخافه قبل ان يملك لاقدامه وحراءته وحدته كانت فيه وكان لا يلتفت الى أخيه سيف الدين اذا أراد أمرا فلما ولي تغيرت اخلاقه وصار رفيقا بالرعية محسنا اليهم قريبا منهم قال ابن شداد وفي عاشر المحرم سنة ست وسبعين بلغ الملك الصالح بن نور الدين عصيان غرس الدين قليج بتل خلدا فخرج اليه العسكر ثم بلغه وفاة ابن عمه صاحب الموصل ثالث صفر

﴿فصل﴾ في وفاة شمس الدولة بن أيوب اخي السلطان الاكبر وقدوم رسل الديوان بالتفويض الى السلطان فيما طلبه قال ابن أبي طي كان السلطان قد أنفذ اخاه شمس الدوله الى الاسكندرية وجعل اليه ولايتها فلما حصل بها لم توافقه وكان يعتاده القولنج فهلك به ودفن بقصر الاسكندرية وكان أحد الاجواد الكرماء الافراد شجاعا باسلا عظيم الهيبة كبير النفس واسع الصدر ممدحا فيه يقول ابن سعدان الحلبي من قصيدة

هو الملك ان تسمع بكسرى وقيصر ❊ فانهم في الجود والبأس عبداه
وما حاتم ممن يقاس بمثله ❊ لخذما رأيناه ودع ما وروياه
ولد بذراه مستجيرا فانه ❊ يجيرك من جور الزمان وعداه
فلا تحمل للسحائب منة ❊ اذا خجلت جودا سحائب جدواه
ويرسل كفيه بما اشتق منهما ❊ فلليمن يمناه ولليسر يسراه

وقال العماد وفيها في المحرم توفي بثغر الاسكندرية تورانشاه أخو صلاح الدين ووصل الخبر بذلك الى السلطان وهو نازل بظاهر حمص فحزن عليه حزنا شديدا وجعل يكثر انشاد أبيات المراثي وكان كتاب الحماسة من حفظه وكان صلاح الدين لما ملك مصر أرسله الى اليمن فملكها ثم استناب فيها وقدم الشام سنة احدى وسبعين فما وصل تهاجأ منه كتاب وفيه أبيات لشاعر ابن المنجم منها

فهل لاخي بل مالكي علم انني ❊ اليه وان طال التردد راجع
واني بيوم واحد من لقائه ❊ لملكي على عظم المزية بائع
ولم يبق الا دون عشرين ليلة ❊ وتجفى المنى أبصارنا والمسامع

لدى ملك تعنو الملوك اذا بدا ❊ وتخشع أعظاماله وهو خاشع
كتبت واشواقى اليك ببعضها ❊ تعلمت النوح الحمام السواجع
وما الملك الا راحة انت زندها ❊ تضم على الدنيا ونحن الاصابع

قلت وقبر انشاه الآن بالتربة الحسامية بالعوينة ظاهر دمشق نقلته اليها اخته ست الشام بنت أيوب وبنت القبر عليه وعلى زوجها ناصر الدين محمد بن شيركوه وهو ابن عمها وعلى قبرها وقبر ابنها حسام الدين عمر بن لاچين وسيأتى ذكره واليه تنسب التربة فهى ثلاثة قبور القبلى لنور انساه والاوسط لابن شيركوه والشامى لست الشام وابنها رحمهم الله قال العماد وفيها فى رجب وصلت رسل الديوان العزيز الناصرى صدر الدين شيخ الشيوخ ابو القاسم عبد الرحيم ومعه شهاب الدين بشير الحاجب بالمفوبض والمقلد والتشريف الجديد فتلقيناهم بالتعظيم والتمجيد وركب السلطان للتلقى وعلى صفحاته بشائر النرى فلما تراءى له الرسل الكرام ووجب لهم الاجلال والاعظام نزل وترجل وابدى الخضوع وتوجل ونزل الرسل اليه وسلموا عن أمير المؤمنين عليه فتقبل الفرض وقبل الارض ثم ركبوا ودخلوا المدينه قال ابن أبى طى وكانت هذه أول خلعة قدمت من الامام الناصر على الملك الناصر وكانت ثوب أطلس أسود واسع الكم مذهب وبيقار أسود مذهب وطيلسان أسود مذهب ومشدة سوداء مذهبة وطوق ونخت وسرفسار وجواد كميت من مراكب الخليفة عليه سرج أسود وسلال أسود وطوق مجوهر وقصبة ذهب وعلم أسود وعدة خيول وبقج وركب السلطان بالخلعة وزينت له دمشق وكان يوما عظيما قال العماد وظفر السلطان من صدر الدين بصدق صدوق وكان قد عزم على قصد الديار المصريه وسلوك طريق ايلة والبريه فحسن لشيخ الشيوخ مصاحبته ورغبه زيارة قبر الشافعى رضى الله عنه فقال قد عزمت فى هذه السنة على الحج فاصل معكم الى القاهرة بشرط اقامة يومين ولا أدخلها وانما أسكن بالتربة الشافعية واسير منها الى بحر عيذاب فلعلى ادرك صوم رمضان بمكة فالتزم له ذلك واعاد أصحابه ليأتوه من طريقها الى الحجاز ورجع شهاب الدين يسير فى جواب رسالته ومعه رسوله ضياء الدين ابن الشهرزورى وأنشأ العماد كتابا فى الجواب الى الديوان وفيه (وقد توجه الخادم الى الديار المصرية لتجديد النظر فيها ثم يستخير الله فى الحج وادائه ويعود الى مجاهدة اعدائه)

❊(فصل)❊ فى رجوع السلطان الى مصر مرة ثانية قال العماد ولما عزم السلطان على الرحيل استناب بالشام ابن اخيه عز الدين فرخشاه وكان عزيز المثل غزير الفضل وقال فيه العماد عند توديعه قصيدة منها

اسأل الله ذا العلى ان تعيشا ❊ الف عام لنصره مستحيشا
لست أكدى شيأ سوى فرقة منـ ـك وابغى لسفرتى اكديشا
كيف يخلو من دف ء ظهر وظهر ❊ سالك طرق ايلة والعريشا

ووقفت على ثلاثة كتب للفاضل عن الملك العادل الى الولاة باليمن يعلمهم ان ملوك الشرق قد دخلوا فى طاعة السلطان وانه عازم على القدوم الى مصر وصوم رمضان بها والحج الى بيت الله الحرام منها ويأمرهم بالاستكثار مما يحمل لاجله الى مكة من المال والازواد والحلع مما تشتمل عليه تلك الاعمال ووقفت على كتابين آخرين أحدهما الى أمير مكة والآخر الى أمير ينبع يعلمهما بذلك لينأهبا لقدومه ووقفت على كتاب سادس للفاضل الى السلطان فى ذلك يقول فيه (جعل الله الملوك دمة لسيفه وشرد منام الاعداء منهم بطيفه وامن أهل الاسلام بعدله من جور الدهر وحيفه واشهده موقف الحج الاكبر وزان بمحضره مشهد خيفه وجعل وفدة الانام وضيف بيته فى هذه السنة فى وفده وضيفه) ثم هنأه بما فتح الله عليه من محبة الجهاد وما أثره فى بلاد الارمن وغيرها من البلاد وما تبع ذلك من نية الحج بلغه الله منه المراد ودخول السلطان بلاد الارمن كان فى هذه السنة كما سبق فلعله سنح له الحج مع شيخ الشيوخ ثم حصل له ما منعه منه قال العماد ورحل السلطان الى مصر يوم الاثنين ثامن عشر رجب ومعه صدر الدين شيخ الشيوخ فاقام يومين كما ذكرونا وجه منها الى مكة على البحر فادرك الصوم قال العماد ووصلنا الى القاهرة على طريق ايلة ثالث عشر سعيان واستقبلنا اهلها ولقينا الاكابر والاعيان والملك العادل اخو السلطان حينئذ بها فانابه وتلقتنا

مواكبه ومواهبه وخدمته بقصيدة ذكرت فيها المنازل والمناهل من يوم الرحيل من دمشق الى الوصول بالقاهرة منها

احبة قلبي طال ليلي بعدكم * اسى فتى ألقى بوجهكم الفجرا
فقدت حياتي مذ فقدت لقاءكم * فهل بحياتي منكم نشأة اخرى
اجيران جيرون المجبرون جارهم * من الجور حوزوا في مشوقكم الاجرا
محبكم قد خانه الصبر فاطلبوا * محبا سواء عنكم يحسن الصبرا
ومذ غبت عن مقرى مقرى قد نبا * سقى ورعى ربى مقرى في مقرى
احن الى عذرا وعذرى واضح * لان الهوى العذرى مني في عذرا
اذا القدر المحتوم من جلق بنا * الى مصر اسرى فالقلوب بها أسرى
رحلنا فما باحت باسرارنا سوى * عبارة عين خوف يوم النوى عبرى
تركنا دمشقا والجنان وراءنا * وقد أمنا بالكسوة الرفقة السفرا
وجئنا الى المرج الذي طاب نشره * فلا زال مى أحبابنا طيبا نشرا
رحلنا بمرج الصفر بالعيس غدوة * فسارت وحطت في محجتها ظهرا
وقد قطعت تبنا الى الدير بعدها * وما عرست حتى اناخت على بصرى
نزلنا الدناح والجلاعب بعدها * وبعدهما غدر البسامية الغزرا
ورأس الحشا والقريتين وكلها * موارد فيها السحب قد غادرت غدرا
وردنا من الزيتون حسمى وايلة * وجزنا عقابا كان مسلكها وعرا
الى قلة الراعي الى نابع الى * جراول فالنخل الذي لم يزل قفرا
الى منزل في روضة الجمل اغتدت * به عيسنا في صدر شارحه صدرا
ودون حثالما حثثنا ركابنا * عيون لموسى لم يزل ماؤها مرا
هنالك تلقانا الوفود ببرهم * فسرنا وابنا نفسا وزادوا بنا بشرا
قطعنا الى بحر الندى بحر تلزم * ومن قصده بحر الندى يقطع البحرا
عبرنا الى من كاثر الرمل جوده * وجزنا اليه ذلك الرمل والجسرا
ولم يروناماء الثماد بعرد * ولم يقتنع بالقل من يأمل الكثرا
وجبنا البويب والمصانع قبله * الى بركتا الجب التي قربت مصرا
الى عزمة في المجد غير قصيرة * وكان قصارى أمرنا ان نرى القصرا
ولما نزلنا مصر في شهر طوبة * وردنا بكف العادل النيل في مسرى
غداة قاصرا عن قصره قصر قيصر * وايوان كسرى عند ايوانه كسرا

قال العماد وفي هذه السنة بمصر عربت كتاب كيمياء السعادة تصنيف الامام أبي حامد الغزالي في مجلدين وفزت من تعريبه وعلم ما فيه بسعادتين وذلك بامر فاضلي لزمني امتثاله وشملني في انعامه اقباله قال وفيها في خامس عشرى شوال توفي صاحبي المعتمد ابراهيم بدمشق وأنا بمصر قلت وهذا غير والي دمشق المعروف بالمبارز ابراهيم بن موسى ويلقب أيضا بالمعتمد ورثى العماد صاحبه بقصيدة منها

أرى الحزن لا يجدي على من فقدته * ولو كان في حزني مزيد لزدته
تغيرت الاحوال بعدك كلها * فلست أرى الدنيا على ما عهدته
عقدت بك الايمان بالنجح واثقا * فحلت يد الاقدار ما قد عقدته
وكان اعتقادي انك الدهر مسعدي * فخانتني الايام فيما اعتقدته
أردت لك العمر الطويل فلم يكن * سوى ما أراد الله لا ما أردته

وداع دعانى باسمه ذاكراله * فاطربنى ذكراسمه فاستعدته
فقدت أحب الناس عندى وخيرهم * فمن لاثمى فيه اذا مانشدته

قال ورثيته ببيتين وذكرت العناصر الاربعة فى بيت واحد منهما

لهفى على من كان صبحى وجهه * فعدمت حين عدمته أنواره
سكن التراب وغاض ماء حياته * فاطفأت ريح المنية ناره

قال ابن أبى طى وفى هذه السنة سافر قراقوش الى قابس فذكر محاصرته لجملة من القلاع وقتله جماعة من البربر ومما ذكره انه أسر جماعة على حصن وأمر بقتلهم وفيهم صبى أمرد فبذل فيه أهل القلعة عشرة آلاف دينار على ان لايقتله فأبى فزادوه الى مائة ألف فابى وقتله فلما استتم قتله حتى نزل شيخ من القلعة ومعه مفاتيحها وقدمها لقراقوش فسأله عن الخبر فقال هذا الصبى الذى قتلته ولدى ولم يكن لى سواه ولاجله كنت أحفظ هذه القلعة فلما قتلته علمت ان بقيت هذه القلعة فى يدى ومت صارت الى أولاد أخى وأنا أبغضهم فردّه الى القلعة وأخذ منه أموالا

﴿ثم دخلت سنة سبع وسبعين﴾ قال العماد والسلطان مقيم بالقاهرة وقد عين لسماع الاحاديث النبوية بقراءة الامام تاج الدين النبدهى المسعودى ميقاتا وجمع به من أهل العلم والعلماء عنده اشتاتا وورد كتاب عز الدين فرخشاه من الشام يذكر مامنّ الله به على الانام من الانعام بكثرة ولادة الدوام فى ذلك العام وجبر الله به ما كان قبله من الوباء وتفألوا بالخصب بعد الجدب والغلاء قال ودخلت الحمام الذى بناه زين الدين أبو الحسن على بن نجاء الواعظ فى داره خارج باب زويلة بالقاهرة فى ذى القعدة فقلت

مامنزل من يرى فيه غير عار فعار * به تماط الاذايا * وترحض الاوضار
والعيش فيه قرير * والطيش فيه وقار * والسبت فى كل يوم * لمن يرى مختار
نار تطيب الاأعجب * لجنة هى نار

وله فيه

ومنزل يدخله * لشغله كل أحد * يوجد فيه السبت فى * كل خميس واحد

﴿فصل﴾ فى ذكر وفاة الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين رحمهما الله ومماتم فى بلاده بعده وذلك بحلب قال ابن شدّاد وكان مرضه بالقولنج وكان أوّل مرضه فى تاسع رجب وفى الثالث والعشرين منه أغلق باب قلعة حلب لشدّة مرضه واستدعى الامراء واحدا واحدا واستحلفوا لعز الدين صاحب الموصل وفى الخامس والعشرين منه توفى رحمه الله وكان لموته وقع عظيم فى قلوب الناس وقال ابن أبى طى كان سبب موته ان علم الدين سليمان بن جندر سقاه سما فى عنقود عنب وهو فى الصيد وقيل الذى سقاه ياقوت الاسدى فى شراب وقيل انه أطعمه خشكانكه وهو فى الصيد قال ودفن بالمقام الكبير الذى فى القلعة وحزن الناس له حزنا عظيما وكان من أحسن الناس صورة والبسهم اعطافا قلت وبلغنى انه كان يقال ان موت الملك الصالح صغيرا كان من كرامات نور الدين رحمه الله فانه سأل الله تعالى ان لايعذب شيئا من أجزائه بالنار وولده جزؤه فمات قبل ان يطول عمره على أحسن سيرة وحالة رحمهما الله قال ابن الاثير ولم يبلغ عشرين سنة ولما اشتدّ مرضه وصف له الاطباء شرب الخمر تداويا بها فقال لاأفعل حتى استفتى الفقهاء وكان عنده علاء الدين الكاسانى الفقيه الحنفى بمنزلة كبيرة يعتقد فيه اعتقادا حسنا ويكرمه فاستفتاه فافتاه بجواز شربها فقال له ياعلاء الدين ان كان الله سبحانه وتعالى قد قرب أجلى ليؤخره شرب الخمر قال لا والله قال والله لالقيت الله تعالى وقد استعملت ماحرمه على قلت يحتمل انه ذكر له ان من العلماء من ذهب الى جواز ذلك لانه كان يرى ذلك فان مذهبه بخلافه والله أعلم ثم قال ابن الاثير فلما ايس من نفسه أحضر الامراء كلهم وسائر الاجناد واستحلفهم لابن عمه أبابك عز الدين وأمرهم بتسليم مملكته جميعها اليه فقال له بعضهم ان ابن عمك عز الدين له الموصل وغيرها من البلاد من همذان الى الفرات فلو أوصيت بحلب للولى عماد الدين ابن عمك لكان أحسن ثم هو تربية والدك وزوج أختك وهو أيضا عديم المثل فى الشجاعة والعقل والتدبير وشرف الاعراق وطهارة الاخلاق والخلال التى تفرد بها فقال ان هذا لم يغب عنى ولكن قد علمتم تغلب صلاح الدين على

عامة بلاد الشام سوى ما بيدى ومعى فان سلمت حلب الى عماد الدين يعجز عن حفظها من صلاح الدين فان ملكها صلاح الدين فلا يبقى لاهلنا معه مقام واذا سلمتها الى عز الدين أمكنه ان يحفظها لكثرة عساكره وبلاده وأمواله فاستحسن الحاضرون قوله وعلموا صحته وعجبوا من جودة رأيه مع شدة مرضه ومن أشبه أباه فما ظلم فلما توفى أرسل دزدار حلب وهو شاذبخت وسائر الامراء الى أتابك عز الدين يدعونه الى حلب ليسلموها اليه فورد الخبر ومجاهد الدين قايماز قد سار الى ماردين لمهم عرض فلقى القاصدين عندها فاخبروه الخبر فسار الى الفرات وأرسل الى أتابك عز الدين ويشير بتعجيل الحركة وأقام على الفرات ينتظره فسار أتابك مجدا فلما وصل الى المنزلة التى بها مجاهد الدين أقام معه وأرسل الى حلب يستحضر الامراء فحضروا كلهم عنده وجددوا اليمين له فسار حينئذ الى حلب ودخلها وكان يوما مشهودا ولما عبر الفرات كان تقى الدين عمر بن أخى صلاح الدين بمدينة منبج فسار عنها هاربا الى مدينة حماه وثار أهل حماه ونادوا بشعار أتابك وكان صلاح الدين بمصر فأشار عسكر حلب على عز الدين بقصد دمشق وأطمعوه فيها وفى غيرها من البلاد الشامية وأعلموه محبة أهلها للبيت الاتابكى فلم يفعل وقال بيننا يمين فلا نغدر به وأقام بحلب عدة شهور ثم سار منها الى الرقة فاقام بها وجاءه رسول أخيه عماد الدين يطلب ان يسلم اليه حلب ويأخذ منه عوضها مدينة سنجار فلم يجبه الى ذلك وبلغ عماد الدين وقال ان سلمتم الى حلب والا سلمت انا سنجارا الى صلاح الدين فاشار حينئذ الجماعة بتسليمها اليه وكان أكبرهم فى ذلك مجاهد الدين قايماز فانه لج فى تسليمها الى عماد الدين ولم يمكن أتابك عز الدين مخالفته لتمكنه فى الدولة وكثرة عساكره وبلاده فوافقه وهو كاره فسلم حلب الى أخيه وتسلم سنجار وعاد الى الموصل وكان صلاح الدين بمصر وقد أيس من العود الى الشام فلما بلغه ذلك برز عن القاهرة الى الشام فلما سمع أتابك عز الدين بوصول صلاح الدين الى الشام جمع عساكره وسار عن الموصل خوفا على حلب من صلاح الدين فاتفق ان بعض الامراء الاكابر مال الى صلاح الدين وعبر الفرات اليه فلما رأى أتابك ذلك لم يبق بعده الى أحد من أمرائه اذ كان ذلك الامير اوثقهم فى نفسه فعاد الى الموصل وعبر صلاح الدين الفرات وملك البلاد الجزرية ونازل الموصل فلم يتمكن من النزول عليها وعاد الى حلب وحصرها فسلمها عماد الدين اليه وسبب ذلك ان عز الدين لما تسلم حلب لم يترك فى خزائنها من السلاح والاموال شيئا الا نقله الى الموصل وتسلمها عماد الدين وهى كما يقال بطن حمار فهو كان السبب فى تسليمها قال ابن شداد ولما توفى الملك الصالح سارعوا الى اعلام عز الدين مسعود بن قطب الدين بذلك وبما جرى له من الوصية اليه وتحليف الناس له فسارع سائرا الى حلب مبادرا خوفا من السلطان فكان أول قادم من أمرائه الى حلب مظفر الدين بن زين الدين وصاحب سروج ووصل معهما من حلف الامراء له وكان وصولهم فى ثالث شعبان وفى العشرين منه وصل عز الدين الى حلب وصعد القلعة واستولى على خزائنها وذخائرها وترقح أم الملك الصالح فى خامس شوال من السنة المذكورة ثم أقام عز الدين بقلعة حلب الى سادس عشر شوال وعلم انه لا يمكنه حفظ الشام مع الموصل لحاجته الى ملازمة الشام لاجل السلطان والح عليه الامراء فى طلب الزيادات ورؤا أنفسهم انهم قد اختاروه وضاق عطنه وكان صاحب أمره مجاهد الدين قايماز وكان ضيق العطن لم يعتد مقاساة أمر الشام فرحل من حلب طالب الرقة وخلفه ولده ومظفر الدين ابن زين الدين بها فاتى الرقة ولقيه أخوه عماد الدين عن قرار بينهما واستقر مقايضة حلب بسنجار وحلف عز الدين لاخيه عماد الدين على ذلك فى حادى عشرى شوال وسار من جانب عماد الدين من تسلم حلب ومن جانب عز الدين من تسلم سنجار وفى ثالث عشر المحرم سنة ثمان وسبعين صعد عماد الدين قلعة حلب قلت ووقفت على كتاب فاضلى عن السلطان الى عز الدين فرخشاه وهو نائبه بدمشق (وقفنا على كتابه وعلمنا ما تجدد من الخبر مرض الملك الصالح واشتداد حاله وانقطاع الداخل عليه) ثم أشار بتنفيذ عسكر الى جهة أخيه تقى الدين على اظهار فاعدة النظر فى القضية الحادثة بين ديار بكر وابن قرا أرسلان والتوجه لفصلها قال (فيكون ظاهر حركة العسكر لهذا السبب المتقدم وباطنها لهذا السبب المتأخر وقد كتب الولد تقى الدين ان يتوجه الى منبج على الظاهر والباطن المذكورين وان يحفظ المغازى ويرابط الفرات ويمنع المعابر ولنا بالس وقلعة جعبر ومنبج وتل باشر وهى جمهور الطرق بل كلها وقد أوعدنا الى تقى الدين بأن يكون حمام حماه فى حلب وحمام دمشق فى حماه والى الاجل ناصر الدين بأن يكون حمام دمشق فى حمص وحمام حمص فى حلب وولدنا

عزالدين يؤمر بأن يكون حمام بصرى فى دمشق وقد بعثنا نجابا بن يكونون منيخين ببصرى فان تحققت الوفاة فنحن اسبق اليكم من الجواب قولا وفعلا ووعدا ونجحا فالعلة مزاحه والعساكر مستريحه والظهر قد استعد والمصلحة فى الحركة ظاهره و يج انتقاد المنتقدين فى هذه القضية ساقطه) وقال العماد كان قصد السلطان اصلاح حال الملك الصالح وانه القائم مقام أبيه فصده عنه مماليكه فأخذت بلاده بلجاجهم ومرضت دولته لسوء علاجهم فاتمنع بحلب الى ان توفى ووصل ابن عمه عزالدين مسعود صاحب الموصل الى حلب فجمع ظاهره وباطنه واخذ خزائنه واستخرج دفائنه وأخلى كائنه ثم عرف انه لا يستقر له بها أمر فرغب أخاه عماد الدين زنكى صاحب سنجار فى تعويضها له بحلب فمال الى بذله ورغب ولما سمع السلطان فى مصر بوفاة الملك الصالح تحرك عزمه وندم على النزوح من الشام مع قرب هذا المرام فكتب الى ابن أخيه تقى الدين وهو يتولى له المعره وحماه وأمره بالتأهب للنهوض وكذلك سحذ عزائم نوابه بالشام بتحديد المكانبات لهم و بعثهم على الاستعداد وحملهم وكان نائبه بدمشق ابن أخيه عزالدين فرخشاه قد نهض فى مقابلة الفرنج بالكرك فان الابرنس الكركى كان يحدث نفسه بقصد تيما فى البرية فازال فرخشاه فى مقابلته حتى نكص اللعين على عقبيه ذليلا ولم يجد الى ما حدثته به نفسه سبيلا فعرف السلطان اشتغاله بهذا المهم فكتب كتابا يشرح الحال الى بغداد باللفظ العمادى يقول فيه (وشاع الخبر بغارة فرنج انطاكية على حارم وأنوامس السبى والنهب بالعظائم وشاع أيضا ان عسكر حلب أغار على الراوندان وهى فى عملنا ورسولهم عند الفرنج يستنجدهم و يغريهم بنا وقد راسلوا الحشيشية والمراد من الرسالة غير خاف والعلم بالمعتاد منه كاف وابن أخى غائب فى أقصى بلاد الفرنج فى أول برية الحجاز فان طاغية منهم جمع خيله ورجله وحدثته نفسه الخبيثة بقصد تيما وهى دهليز المدينة على ساكنها السلام واغتنم كون البرية معشبة مخصبة فى هذا العام والعجب انا نحامى عن قبر النبى صلوات الله عليه وسلامه مشتغلين بهمه والمذكور (يعنى صاحب الموصل) ينازع فى ولاية هى لنا ليأخذها بيد ظلمه وكم بين من يحارب الكفر و يحمل اليهم قواصم الآجال وبين من يتخذهم بطانة دون المؤمنين و يحمل اليهم كرائم الاموال هذا مع ما نعد فى الدولة الحنيفية والدولة الهادية العباسية من آثار لا يعدمثلها أولا لأبى مسلم لانه أقدم ثم خامر و والى ثم ولى ولا آخرا لطغرلبك فانه نصر ونصب ثم حجر وحجب وقد عرف ما فضلنا الله به عليهما فى نصر الدولة وقطع من كان ينازع الخلافة رداءها وتطهير المنابر من رجس الاعداء ولم نفعل ما فعلنا لاجل الدنيا غير ان التحدث بنعمة الله واجب والتبجح بالخدمة الشريفة والافتخار بالتوفيق فيها على السجية غالب ولا غنى عن بروز الاوامر الشريفة الى المذكور بأن يلزم حده ولا يتجاوز حقه فان دخول الايدى المختلفة عن الاعداء المتفقة شاغل و يحتاج الى مغرم ينفق فيه العمر بغير طائل فان الاعمار تمر مر السحاب والعرض تمض ومض السراب وبقاؤنا فى هذه الدار القليل اللبث القصير المكث يؤثر ان نغنمه فى مجاهدة العدو الكافر الذى صار به البيت المقدس محلا للارجاس ومضت عليه دهور وملوك لم يحصلوا من رجاء تطهيره الا على الياس وان كان القوم قد بدلوا للدار العزيزة بدولا معارة فقد أسلف الخادم خدمات ليست بعوار فانهم لو بدلوا بلادهم كلها ما وفت بفتح مصر التى رحل عنها أساءى الادعيا الراكبة أعوادها وأعاد الى عنها بعد بياض عمائها من نور الشعار العباسى سوادها فان اقتضت الاوامر الشريفة ان يوعز للمذكور فى حلب بتقليد فالاولى ان يقلد الجميع فلا رغبة فيما لا يؤمن معه شر الشريك ولما لك الامر الحكم فى ممالك المماليك) وكان فى الكتاب أيضا ما معناه ان حلب من جملة البلاد التى استقل عليها تقليد أمير المؤمنين المستضىء بأمر الله له وانما تركها فى يد ابن نور الدين لاجل أبيه والآن فليرجع كل الى حقه وليقنع برقه ومن ذاب فاضمحل (فقد صرف وجهنا فى هذا الوقت عن جهاد لو تكابده وعن فرض لو وصلنا يومه بغده لكان الاسلام قد أعفى من شركة الشرك وانفك أهله من ربقة أهل الافك ولكانت الاسماء الشريفة قد قرعت منابر طالما عزلت الصلب خطباءها ولكان الدين الخالص قد خلص الى بلاد صار المشركون متوطنيها والمسلمون غرباءها) وفى كتاب آخر له (وقد علم الله انا لهدنتهم كارهون وفى مصلحة أهل الاسلام وفى مصالحهم راغبون ولكنا بلينا بقوم كالفراش أو أخف عقولا وكالانعام أو أضل سبيلا ان بنى معهم فعلى غير أساس وان عقد الغدر منهم فهو أكثر من الانفاس) وفى كتاب آخر (والحمد لله يعد سوابق فى الاسلام والدولة العباسية لا يعدها أولية أبى مسلم لانه

والى ثم وارى ولا آخر به طغرلبك لانه بصر ثم حجر والخادم بحمد الله خلع من كان ينازع الخلافة رداءها وأساغ الغصة التي ذخر الله للاساغة في سيفه ماءها فرحل الاسماء الكاذبة الراكبة على المنابر وأعز بتأييد ابراهيمي فكسر الاصنام الباطنة بسيفه الظاهر لا الساتر وفعل وما فعل للدنيا ولا معنى للاعتداد بما هو متوقع الجزاء عنه في اليوم الآخر) ومن كتاب آخر عند دخول صاحب الموصل حلب واستيلائه عليها وكانت داخلة في تقليد السلطان السابق فقال (دخل حلب مستوليا وحصل بها معتديا وعقود الخلفاء لا تحل والسيوف في أوجه أوليائهم لا تسل وانه ان فتح باب المنازعة أدنى من ندامه وأبعد من سلامه وخرق ما يعيي على الراقع وجذب الرداء فلم تغن فيه الاحيلة الخالع وليس الاستيلاء بحجة في الولايات لطالبها ولا الدخول الى الدار بموجب ملك غاصبها الا ان تكون البلاد كالديار المصرية حين فتحها الخادم وأهله حيث الجمعة مستريبه والخلافة في غير أهلها غريبه والعقائد لغير الحق مستجيبه فتلك الولاية أولى من منحهامن فتحها وكان سلطانها من أدخل في كان شيطانها وأما حلب فان الكلمة فيها عالية والمنابر فيها بالاسم الشريف حالية فانما تكون لمن قلدها لا لمن تورد ها ولمن بالحق تسلمها الا لمن بالباطل تسنمها ولو كانت حلب كما كانت مصر لدخلها الخادم ولم يشاور ولوجها ولم يناظر ولكنه أتى البيوت من ابوابها واستمطر القطار من سحابها) ثم ذكر ان المواصلة راسلوا الملاحدة الحشيشية واتخذوهم بطانة من دون المؤمنين وواسطة بينهم وبين الفرنج الكافرين ووعدوهم بقلاع من يد الاسلام تقلع وضياع من في المسلمين توضع وبدا ردعوة بحلب ينصب فيها علم الضلالة فيرفع ويالله العجب من الحصم يهدم دولة حق وهي تبنيه ومن العبد يبني ملكها بنفسه وماله وذويه وهي تراقب أعلاه فيه ودعواه في رسائلهم وغوائلهم ليست بدعوى لا يقوم شاهدها ولا هي بشناعة لا يهتدى فائدها بل هذا رسولهم عند سنان صاحب الملاحدة ورسولهم عند القمص ملك الفرنج وهذه الكتب الواصلة بذلك قد سيرت ولاستيجاب الولاية طرق أما السبق الى التقليد فللخادم السبق وأما العدالة والعدل فلو وقع الفرق لوقع الحق وأما بالايثار بالطاعة فله فيها ما لولا معونة الخالق فيه لقصرت عنه أيدي الخلق ومتى استمرت المشاركة في الشام افضت الى ضعف التوحيد وقوة الاشراك وترامت الى اخطار يعجز عنها خواطر الاستدراك واحوجت قابض الاعنة الى ان يعليها الجدد ويرسلها العراك وطريق الصلاح والمصالحات الايمان والمشار اليهم لا يلتزمون ربقتها ولا يوجبون صفقتها وكفى بالتجريب ناهيا عن الغره ولا يلدغ المؤمن الا مره واذا اجتمعت في الشام أيد تلاث يد عادية ويد ملحدة ويد كافرة نهض الكفر بتمليكه وقصرت عن الاسلام يد مغيثه ولم ينفع الخادم حينئذ تصحيح حسابه وتصديق حديثه وما يريد الخادم الا من تكون عليه يد الله وهي الجماعه ولا يؤثر الا ما يتقرب به اليه وهو الطاعه ولا يتوخى الا ما يقوم به الحجة اليوم ويوم تقوم الساعه) ومن كتاب آخر (قد أحاط العلم بما طالع به أولا عند وفاة ولد نور الدين رحمه الله ان التقليد الشريف المستضيء لما وصله بالبلاد وكان قد فتح أكثرها قلاعا وأمصارا وحصونا وديارا ولم يبق الا قصبة حلب وهو على أخذها عدل ولد نور الدين عن القتال الى النوال وعن النزال الى الاستنزال وقصد القصد الذي ما أوجبت المحافظة ان يتلقى بالرد فاقره على الولاية فرعا لا أصلا ونائبا لا مستقلا وسلم اليه البلاد ويده الغالبة لا المغلوبه وسيوفه السالبة لا المسلوبه ومشى الامر معه مستقيما رمائلا وجائرا وعادلا الى ان قضى نحبه ولقي ربه فبدأ من المواصلة نقض الايمان والابتداء بالعدوان والتعرض للبلاد والتصرف فيها بغير حجة يكون عليها الاعتماد فطالع الديوان بالقضيه واستشهد بدلالات قوانينه الجليه في هذا التقليد الذي تهادته المحاضر وأشاعته المنابر وسرت الى الشرق والغرب نسخه وغلت الايدي التي تحدث أنفسها انها نسخه)

(فصل) قال العماد ونوجه السلطان بعد شهر رمضان الى الاسكندرية على طريق البحيرة وخيم عند السواري وشاهد الاسوار التي جددها والعمارات التي مهدها وأمر بالاتمام والاهتمام وقال السلطان يغتنم حياة الشيخ الامام أبي طاهر بن عوف فحضرنا عنده وسمعنا عليه موطأ مالك رضي الله عنه برواية عن الطرطوشي في العشر الاخير من شوال وتم له ولاولاده ولنابه السماع والوالي يومئذ بها فخر الدين قراجا قلت ووجدت للقاضي الفاضل كتابا كتبه الى السلطان يهنيه بهذا السماع يقول فيه (أدام الله دولة المولى الملك الناصر صلاح الدنيا والدين سلطان الاسلام والمسلمين محيي دولة أمير المؤمنين وأسعده برحلته للعلم وأثابه عليها وأوصل ذخائر الخير اليه وأوصله اليها وأوزع الخلق شكرا لنعمته

لنعمته فيه فانها نعمة لا توصل الى شكرها الا بايزاعه وأودع قلبه نور اليقين فانه مستقر لا يودع فيه الا ما كان مستندا الى ايداعه ولله فى الله رحلتاه وفى سبيل الله يوماه ومامنهما الا أغر محجل والحمد لله الذى جعله ذا يومين يوم يسفك دم المحابر تحت قلمه ويوم يسفك دم الكافر تحت علمه ففى الاول يطلب حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم فيجعل أثره عينا لا تستر وفى الثانى يحفل لنصرة شريعة هداه على الضلال فيجعل عينه أثرا لا يظهر وقد استغرق الناس هم العلماء فى رحلتهم لنقل الحديث وسماعه والموالاة فى طلب ثقته وانتجاعه وصنفوا فى ذلك تصانيف قصدوا بها التحريض للهمم والتنبيه والرفع من اقدار أهله والتنويه فقالوا رحل فلان لسماع مسند فلان وسار زيد الى عمرو على بعد المكان هذا وصاحب الرحلة قد نصب نفسه للعلم وشغل به دهره ووقف عليه فكره فلا يتجاذب عنان همته الكثير فما القول فى ملك خواطره كتوابه مطروقه وأمور خلق الله كأمور دينه به معذوقه اذ هاجر الى بقية الخير فى أضيق أوقاته وترك للعلم أشد ضروراته ووهب له أياما مع اله فى الغزاة يحاسب لها نفسه على لحظاته وساعاته وما يحسب المملوك ان كاتب اليمين كتب قط لملك رحلة فى طلب العلم الا للرشيد هارون رحمة الله عليه على انه خلط زيارة نبوته بطلب ورحل بولديه الى مالك رحمة الله عليه لسماع هذا الموطأ الذى اتفقت الهمتان الرشيدية والناصرية على الرغبة فى سماعه والرحلة لانتجاعه وقد كان الرشيد سام مالكا رحمه الله ان يجعل له ولولديه الامين والمأمون مجلسا خاصا لاسماع مصنفه فقال له ما معناه انها سنة ابن عمك صلى الله عليه وسلم وغيرك من سترها ومثلك من نشرها فهذه رحلة ثانية فى الزمان وأولى فى الايمان يكتبها الله للمولى بقلم كاتب اليمين ويقوم فيها مقام الرشيد ويقوم عليه وعثمانه مقام ولديه المأمون والامين وكان أصل الموطأ بسماع الرشيد على مالك رحمة الله عليه فى خزانة الكتب المصريه فان كان قد حصل بالخزانة الناصريه فهو بركة عظيمه ومنقبة كريمه وذخيرة قديمه والا فليلتمس وكذلك خط موسى بن جعفر فى فتيا المأمون رحمهما الله كان أيضا فيها وكلاهما يتبرك بمثله ويعلم به فضل العلم لا خلا المولى أبقاه الله من فضله وقف المملوك على ما بشر به من صنع المولى وتوفيقه وصحة مزاجه فى طريقه وانقطاع ما كان من دم واستراح القلب من كل هم وقد استفتحت هذه الطريق بكل قال مباركة البكر والفال مأثورة عن سيد البشر فمن ذلك صحة جسمه فلتهنه الصحه وفسحة قلبه دامت له الفسحه وانقطاع الدم وطريقة الى الشام ينقطع بها الدم ويتصل النصر له وينتظم السلم وأخرى انه رحل الى الموطأ رحم الله مالكه ويرحل فيما يطلب من الشام الى الموطأ أسعد الله به مالكه والله تعالى يحقق الخير وينصرف الضير ويبارك للمولى فى المقام والسير ان شاء الله قلت هكذا يقع فى كتب الفاضل رحمه الله كثيرا وهو يختمها بالادعية متصلة بقوله ان شاء الله والتعليق بالمشيئة غير لائق بالادعية ففى الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقل أحدكم اللهم اغفر لى ان شئت اللهم ارحمنى ان شئت اللهم ارزقنى ان شئت ليعزم مسئلته فانه يفعل ما يشاء لا مكره له

(فصل) فى أمور تتعلق بولاة اليمن فى هذه السنة قال العماد كان الامير مجد الدين سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ نائبا لشمس الدولة أخى السلطان بزبيد وحصل له من أموالها الطريف والتليد ثم ابتاع من السلطان الناحية المعروفة بالعدوية بمصر لما عاد اليها وبقى أخوه حطان بزبيد واليا عليها فصنع دعوة عظيمة بها ذكر العماد انه حضرها هو وغيره من الفضلاء الاعيان فبينما هم عنده فى أسر حال اذ أحدق بهم الامير بهاء الدين قراقوش فقبض على سيف الدولة واعتقل بالقصر وكان سببه ان أقارب السلطان وخواصه اكثروا عليه عنده انه استوعب مال زبيد وان له كنوز الاتبيد وأشاروا عليه بقبضه وهو يدافع عنه الى ان أكثروا وقيل فيه ان لم تدركه فات فأمر به فاعتقل فسمح للسلطان خاصة من النقد المصرى بثمانين ألف دينار لم يظهر فيها بيع متاع ولا استدانة من تجار وغرم لاخوى السلطان العادل وتاج الملوك ما حافظ به على نهج الكرم المسلوك وخرج مشرفا مكرما مصرفا محترما وزاد السلطان فى تكرمته وانفذ اليه بما قبضه منه خط يده بأن المبلغ دين فى ذمته ثم باعه املاكا بمصر بتقدير ثلاثين ألف دينار وبذل له كل ما طلب عن ايثار واختيار وزاد فى اقطاعه وبارك الله له فى أشيائه وأشياعه قال العماد وكان هذا الامير من رجاحة عقله وحصافة فضله ما سمعت منه شكوى ولا حكاية فى بلوى وقتل أخوه حطان بزبيد وأخذ ماله فلم يظهر منه للسلطان كراهه وكل شيمته نزاهة ونباهه قال وكان لما توفى الملك المعظم شمس الدولة أشفق

السلطان من نوابه باليمن وذكر ما بين ولاتها من الاحن ووصل الخبر بما يجرى بين الامير عثمان بن الزنجيلى والى عدن وبين الامير حطان والى زبيد من الفتن فندب الى زبيد عدة من الامراء لحفظ البلاد واصلاح الامور التى يخشى عليها من الفساد ومن جملتهم والى مصر صارم الدين خطلبا وبقيت الولاية له بها فى غيبته يقوم بها نوابه ويرجع الى رأى أهل أصحابه فسرعت زوجته فى عمارة دار عظيمة سنيه وذكر العماد انه حصل له ولغيره من الاعيان بها ضيافة جليلة اتفاقيه وقال ابن أبى طى كانت نفس سيف الاسلام طغتكين أخى السلطان تشرئب الى اليمن من حيث مات أخوه شمس الدولة ويشتهى ان يصير اليها فامر ابن سعدان الحلبى ان يعمل قصيدة يعرض فيها بانفاذ سيف الاسلام الى اليمن فعمل القصيدة التى يقول فيها

جرّدها السيف الصقيل فتنة ❁ فالسيف لا يذخر الا للفتن
شدّ به أزر العلى فانه ❁ نعم فتى من شرع الجود ومن
القائل المسمع فى مقاله ❁ والصادق الندب الامير المؤتمن
بادى الفؤاد كيفما سيرته ❁ حسن الى دار الوغى ثمت ان

وفيها يقول

يا ابن الكرام النجباء والذى ❁ تلقف العلياء فيها ولقن
لا تعد عيناك عن الملك فما ❁ يخاطب العلياء الا من ومن
قد فسد الملك وقد طال العدى ❁ واقتسموا بعدك أموال اليمن

قال فلما سمع السلطان هذه القصيدة أذن لسيف الاسلام فى المسير الى اليمن وقال العماد وفى هذه السنة تقرر مع سيف الاسلام ظهر الدين طغتكين بن أيوب ان يمضى الى بلاد اليمن وزبيد وعدن وان يقطع بها الفتن ويتولاها ويولى ويعزل ويحسن ويعدل فسار بعد مسيرنا الى الشام وجرت مملكته فيها على أحسن نظام وذلك فى سنة ثمان ووصل الى زبيد وحط حطان عن رتبته وأمنه وطمنه ثم أذن له فى الانفصال الى الشام فجمع حطان كل ماله من سبد ولبد ومطرف ومتلد ولجين وعسجد وياقوت وزبرجد وآلات وعدد وحصن وحجور عراب ومال اعتقده من اليمن بغير حساب ثم أباح جماله ورحل عليها احماله وقدّم قدامه اثقاله وظن انه نجا وفاز وركب الاوفاز فردّ اليه ليودّعه ثم يشيعه وركب معه فلما دخل عليه اعتقله وسير وراء ماله من أقفله والى خزانته نقله ثم أنفذه الى بعض معاقله فحبسه ثم قتله وفيما ذكر للسلطان من خبر ذهبه وماله الداهب ما يعيى بحصر تفاصيل جمله أمل الحاسب ان نيفا وسبعين غلافا من غلف الزرد كانت مملوءة بالذهب الاحمر المنقد وتوم المأخوذ بقيمة ألف ألف دينار وأما صاحب عدن الامير عز الدين عثمان بن الزنجيلى فانه لما سمع بسيف الاسلام توجه الى الشام قلت ولهذا الامير أوقاف وصدقات بمكة واليمن ودمشق فاليه تنسب المدرسة والرباط المتقابلان بباب العمرة بمكة والمدرسة التى خرج باب توما بدمشق رحمه الله ومن كتاب فاضلى عن السلطان اليه (البلاد لك فيها عدة سنين وأنت فيها مؤتمن على مال الله فاده الى من يجاهد به أعداء الله ويقيم به كلمة الله ويحفظ به البيضة ويذب به عن الملة ويقاتل به أعداء القبلة ويضرب بالاسداد بين الكفر والاسلام وينصب وجهه بين الهجير والزمهرير عاما فى أثر عام وما نطلب منك الباطل الذى لا يجوز لنا ان نطلبه ولا لك ان تدفعه ولا نريد الا الحق الذى لا يحل لنا ان نتركه ولا لك ان تمنعه)

(فصل) فى باقى حوادث هذه السنة قال العماد وفى هذه السنة وصل السلطان من دمشق العلم خطيب المزة وكان قد زوّر على السلطان مثالا يتضمن له منالا ورفعه الى عز الدين فرخشاه فاخفى تزويره عليه وهم بالايقاع به فقصد السلطان بمصر واطلعه على حاله فاكترث به وقال تحقق ما زوّرت وأمر ان يكتب له توقيع بضعف ذلك الادرار قال وكان له امام يصلى به وهو يكتب مثل خطه فاطلق به اموالا وأصلح وأنجح بتزويره لاصدقائه أحوالا وما يشك صاحب ديوان ولا متولى خزانة فى انه صحيح فلما دام سنين انكشف وشارف التلف وجلس اخوه السلطان وأمر اؤه عنده يغرونه به فقلت له بالعجمية سراتهبه للقرآن فقال نعم فنفس من خناقه وأمر باطلاقه وأبقى عليه خيره حتى استبدل به غيره وصار بعده للعادل اماما وبقى شغله معه مستداما قال وفيها غدر الفرنج ونقضوا عهدهم واستولوا على تجار فى البحر

وغيرهم وسهل الله تعالى بطاشة لهم عظيمة من المراكب الفرنجية مقلعة من بلدهم يقال له بوليه تحتوى على الفين وخمسمائة نفس من رجال القوم وابطالهم فالقتهم الريح الى ثغر دمياط فغرق منهم الشطر وشمل الباقين الاسر فحصل فى الاسر منهم زهاء ألف وستمائة وست وسبعين نفسا واتفق ذلك امام الاهتمام بالمسير الى الشام قال ابن أبى طى وفيها ولد للسلطان الملك المعظم تورانشاه والملك المحسن أحمد بينهما سبعة أيام واتصل الفرح بهما أربعة عشر يوما وفيها سار قراقوش الى افريقية فاوغل فى بلاده واوانتهب ماقدر عليه وحارب عسكر ابن عبد المؤمن بالقيروان ثم بلغه ان ابراهيم السلاح دارا حتوى على أهل قراقوش وبلده فرجع اليه فهرب ابراهيم وسار الى خدمة ابن عبد المؤمن وملك قراقوش ماكان بيد ابراهيم قال ابن القادسى وفيها عشية الخميس ثامن شعبان توفى الامام كمال الدين أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن ابى السعادات الانبارى النحوى وكان فقيها نحويا زاهدا عابدا حسن العيش صبورا على الفقر وكان يسرد الصوم ولا يقبل من أحد شيئا وكان يحضر فى نوبة الصوفية بدار الخلافة المعظمة فى الوقت فينفذ اليه بالتشريف والذهب فيعيده ولا يقبله وكان يجتهد به الوزير ابن رئيس الرؤساء ان يقبل لولده شيئا فما كان يفعل وكان يفطر على الخبز الخشكار ويبتاع برغيف أرزا وماشا وكان بابه مفتوحا لطالبى العلم يعلمهم لوجه الله تعالى وكان اذا أحضر أحدهم فى الصيف مروحة يتروح بها فاذا خرج يقول له خذ مروحتك معك فيجتهد به ذلك ان يجعلها عنده الى غد فما يفعل وصنف تصانيف كثيرة ودفن فى تربة أبى اسحاق الشيرازى رضى الله عنه قلت وفيها توفى بمصر الشاعر ابن الذروى وهو أبو الحسن على بن يحيى المصرى وسنه حول الاربعين وقد تقدم من شعره فى حج الفاضل وفى مدح ابن منقذ وغيرهما ومن ظريف شعره قوله فى أحدب

يا أخى كيف غيرتنا الليالى ❁ كيف حالت ما بيننا بالمحال
حاش لله ان أصافى خلا ❁ فيرانى فى وده ذا اختلال
زعموا انى اتيت بهجو ❁ فيك فقته بسم حلال
كذبوا انما وصفت الذى حز ❁ ت من النبل والسنا والكمال
لا تضن حدبة الظهر عيبا ❁ فهى للحسن من صفات الهلال
وكذاك القسى محدودبات ❁ وهى انكى من الظبا والعوالى
ودنانى القضاة وهى كما تعـ ـلم كانت موسومة بالجمال
واذا ما علا السنام فعيب ❁ لقروم الجمال أى جمال
وارى الاحنماء فى منشر الكـ ـكاسر يلقى ومحلب الريال
وأبر الغصن أنت لا شك فيه ❁ وهو رب الهوام والاعتدال
قد تحليت بالحنماء فانت الـ ـراكع المستمر فى كل حال
وتجلت حمل وزرك فى الظهـ ـر فقام فى موقف الاهوال
ان حمل الذنوب اهون فى الدنـ ـيا على انه من الاثقال
كون الله حدبة فيك ان شئت من الفضل او من الافضال
فاتت ربوة على طود حلم ❁ منك او موجة بحر نوال
ما رأتها النساء الا تمنت ❁ لو غدت حلية لكل الرجال
عد الى ودنا القديم ولا تصـ ـغ لقيل من الوشاة وقال

(فصل) فى عود السلطان من الديار المصرية الى الشام قال العماد وعدنا من الاسكندرية الى القاهرة فى ذى القعدة وشرع السلطان فى الاستعداد لسفر الشام فجمع العساكر والسلاح واستصحب نصف العسكر وأبقى النصف الآخر يحفظ ثغور مصر وأمر قراقوش باتمام الاسوار الدائرة على مصر والقاهرة قال وكان السلطان عشية توديعه لاهل مصر جالسا فى سراداقه وكل ينشده بيتا فى الوداع فاخرج أحمد مودبى اولاده رأسه وانشد مظهرا له فضله ورافعا به محله

تمتع من شميم عرار نجد ❁ فما بعد العشية من عرار

فلما سمعه خمد نشاطه وتبدل بالانقباض انبساطه ونحن ما بين مغضب ومغض ينظر بعضنا الى بعض ولا يقضي العجب من مؤدب ترك الادب فكأنه نطق بما هو كائن في الغيب فانه ما عاد بعدها الى الديار المصريه حتى اتصل بنجح المنى الى المنيه قال ومن جملة تسمح المعلمين في القول ما حكاه لنا شيخنا ابو محمد بن الخشاب قال وصلت الى تبريز فاحضرني يوما رئيسها في داره وأجلس ولده ليقرأ بعض ما تلقنه على فقلت فرخ البط سابح فقال معلمه وكان حاضرا نعم وجروا الكلب نابح فخجلت من خطاء خطابه واذابه على دابه في سوء آدابه ومقصوده ان يذكر قرينه ولا يبالي بعينه قريرة ام سخينه ودأب أدباء اولاد الملوك لاجترائهم على أعزة أولادهم الاجتراء على الاباء ويحتمل ما يصدر منهم لعزة الابناء وانما يصلح لمجالسة الملوك من يتحفظ في كلامه ويتيقظ حتى في منامه

(ثم دخلت سنة ثمان وسبعين) قال العماد في المحرم منها دخل السلطان من البركة قاصدا الى الشام ولم يعد بعدها الى مصر حتى أدركه الحمام وأخذ على طريق صدر وايلة في المفاوز فبات بالبويب ثم كانت منازله على الجسر ووادي موسى وحثا وصدر وبعد خمس ليال وصل عقبة ايلة وهناك سمع باجتماع الكفار بالكرك لقصد قطع الطريق فاحترز بحفظ الاطراف وانحاز بجمعي ثم عقبة شتار ثم القريتين وأغار في تلك الايام على اطراف بلاد العدو ثم تجرد السلطان في كماته وسلك بهم سمت الكرك الى الحسى وأمر أخاه تاج الملوك بوري على الناس وأمره بان يسير بهم يمنة منه ثم اجتمعوا بالسلطان بالازرق بعد أسبوع ووصل الخبر بظفر الملك المنصور عز الدين فرخشاه قال العماد ويلقب أيضا معز الدين بما غنمه ايضا من بلاد العدو وذلك ان الفرنج لما سمعوا بمسير السلطان من مصر ومعه خلق من التجار اجتمعوا بالكرك للقرب من الطريق لعلهم ينتهزون فرصه فيقتطفون من القافلة قطفه فخرج فرخشاه من دمشق واغتنم خلو ديارهم فاغار على بلاد طبرية وعكا وفتح دبوريه وجاء الى حبيس جلدك بالسواد وهو شقيف يشرف على بلاد المسلمين فوجدوا سكانه المسلمين فبقي عينا على الكفار بعدما كان لهم ورجع بالاسرى والغنائم مظفرا منصورا ومعه ألف أسير وعشرون الف رأس من الانعام ثم وصل السلطان بصرى ودخل دمشق سابع عشر صفر قال وفي العشر الاول من شهر ربيع الاول خرج السلطان وأغار على بلاد طبرية وبيسان والتحم بينهم القتال تحت حصن كوكب واستشهد جماعة من المسلمين ولكن كانت الدائرة على الكافرين ورجع السلطان بحمد الله ظافرا وكتب بالمثال العاصلي الى الديوان (كان الخادم طالع بخروجه من مصر طالبا للغزاة المفروضة والمسافة بين مصر والشام لمن يرفق في المسير لا تقصر عن ثلاثين يوما فحشد الفرنج ونزلوا بالكرك على ارجاف بالمصاف ولم يزل الخادم على مداومة الاعمال الى اوساط الاعمال فحل بها وشن الغاره فابعد واذكى النار فاوقد وطلب الماء المحمى أزرقه بازرقهم فاورد وسفك دم الخضب بالنار وأخذ وفيها عدل السيف الجار بالجار وعلم ان الفرنج قد تسللوا لواذا وتعللوا بالحصون احتجازا ولياذا وانهم لا يقاتلون الا في قرى محصنه ولا يقاتلون الا على نجاة متيقنه وسرح الخادم الى تلك الدراري واستقرها من كل فرقة منهم طائفه وساروا في طريق على العدو غير خافية ومنهم غير خائفه وركب هو وحمية الاسلام الحاميه التي تستنهض ارواح الكفر الى نار الله الحاميه وسلك البلاد المؤدية اوديتها الى سيول الشرك الطاميه وسيوف الضلال الدامية فجنموا جثوم الكسير وجذعوا أنوف الانف جذعا قصر فيه رأي قصير وجاز الخادم المسافة المقابلة لهم التي كانت تجاز في يوم واحد في أيام واورد عليهم طيف الخوف غير لابس ثياب الاحلام ويسر الله الوصول ورفاب عصبة الكفر تكاد تتوثب عليها رقاقها وعيون الاعيان منهم قد قيدها الذل أطواقها وتوجه يوم الاثنين سابع شهر ربيع الاول ونزل امام طبرية ليلة الثلاثاء تاسع عشر ربيع الاول فجاءه الخبر بان الفرنج رحلوا في ليل ركبوه جملا ولبسوه سترادون اللثام مسبلا وأصبحت الاطلاب الاسلامية طالبة الاردن وأشرف عليهم المملوك فرخشاه وكان على ميرة الاسلام فاخرج منهم من أخرج كفا ولا تطرف منهم من اجال طرفا ولا ركض طرفا ولم يزل الخادم مقيما ينادي للخروج الصم الذين لا يسمعون الدعاء الى ان طوى النهار ملاءته ومد عليهم كلاءته فانه رعى ما بينه وبين مناسبة وجوههم وصحائفهم بسواده ولأن الليل يدعى كافر افهداهم وخبأهم في فؤاده وانبرى لهم من المماليك ذوو سهام كل رمية منها طعنه وكل انة من قوسها تجاوبها للحين انه فاستخرجوا ضمائر كنائنهم

وقصدوا بها ضمائر ضغائنهم فرت كأن التوفيق يقودها الى حيث أمت فاماتت وطارت جرادا ترعى زرع الحياة فبتت وما أبانت ولم يروا مضاجع ذوات حسك كمضاجع حسكها السهام ولا ليلة لهم ذات أحلام كليلة حلمها يقظه الحمام وأصابت خيولهم صوائبها وتعلقت نصالهم بدهمها فكأنهم فى ظلماتها كواكبها فلما انشق الصبح غيظا من شقاق كفرهم شوهد وانازلين من حصنهم الذى كانوا اليه آوين وطالبى التباعد عنه الى حصن الطور الذى كانوا اليه ناوين فساقت اليهم اطلاب المنية صحبة الملوك فرخشاه وساق الملوك عمر من الميتة طالبا لحومة القتال فرأوا الخطة عليهم متضايقه وشهادات البلاء الى فئتهم متناسقه وأنزل الله النصر من سمائه على مطيعه فى أرضه ومنح نافلة الموهبة لمن قام فى الجهاد بفرضه وتوالت من الفرنج حملات ألجأهم اليها الاضطرار لا الاختيار وثبت من دنا منهم من المسلمين من الاطلاب ولقوهم وهم الاعداء لقاء الاحباب وتعانقت لغير الوداد فصارت أيديها أوشحه وطارت الى أقرانها فصارت أرجل الخيل لها أجنحه وصرعت للفرنج أبطال وخياله وتمت الحملة الاسلامية على من كان وراءهم من الرجاله فأخذ القتل كثيرا وقليلا نزك وفرت روح الكافر من الجسد وعلت النارايه سلك والجأهم البلا الى حصن يعرف بعفربلا وسع الخوف منه ما هو ضيق وتعلق بالحياة منهم من هو متعلق ولم تتصرف صدور الخيل دون ان اعتقلتهم فى سجنه وألزمتهم به فصاروا قرطا فى أذنه وكان ذلك اليوم من الايام الذى اضطرمت فيها نيران الجحيم ارتياحا لمن قدمها من أرواح الكفار وكان قائم الطهيرة فى الغورة ممنع من استتمام عودة المغار ومورد الماء بعيد من غريمه والرى ولوانه من حميم أحب الى المرء من حميمه فمالت الجنود الى المناهل متفرقة عليها ومنصرفة اليها وحافة بها من حواليها وأذعن الكفار بالحصر والتعادى من الاصحار والاعتماد على المطاولة والاضجار والاستعصام بما لا يطاق من أنفاس الهجير الجرار وبات الخادم والمسلمون على الحصر المذكور الذى يأتونه نازلين قد حققوا من أحوال اللقاء ما كانوا به جاهلين وفعل الله سبحانه وتعالى فى هذه النوبة ما عواقبه مسفرة عن المراد ودلائله محققة لقوله تعالى لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد وان الكفر مذ قام قائمه والشام مذخلة ظالمه لم يعبر أحد من ولاة الامر هذا الجدالا على حين غفلة من أهله ولم يواجه الكفر وهو مجتمع فى خيله فضلا عن رجله ولم يهدد العدو بضرب مصاف الا واستكانت العزائم لتهديده ولم يجمع أمره على اللقاء الا صرفه عنه الامر يصرف ذهبه لا بحديده فاما الآن فقد أنس المسلمون بحربه وتمرنوا بحربه

(فصل) فى مسير السلطان الى بلاد الشرق مرة ثانية قال العماد ثم ان السلطان عزم على المسير الى حلب وبلغه ان المواصلة كاتبوا الفرنج ورغبوهم فى الخروج الى الثغور ليشغلوا السلطان عن قصدهم فتوجه على سمت بعلبك وختم بالبقاع وكان قد واعد اسطول مصر ان يتجهز الى بلاد الساحل فبلغه الخبر انه وصل الى بيروت فبادره السلطان بعسكره جريدة قبل ان يفوت فلما وصل رأى ان أمر بيروت يطول وكان قد سبى الاسطول منها وسلب وظفر من غنيمتها بما طلب فأغار السلطان على تلك البلاد ورجع وأعاد فرخشاه الى دمشق ورحل الى بعلبك ومنها الى حمص فخرج الفقيه المهذب عبيد الله بن أسعد بن الدهان وله فى السلطان مدائح منها قصيدة أولها

أعملت بعدك وقفتى بالاجرع * ورضى طلولك عن دموعى الهمع
مطرت غضا فى منزليك فذاويا * فى أربع ومؤججا فى أضلع
هل يعلم المتحملون لنجعة * ان المنازل أخصبت من أدمعى
دعنى وماشاء التلذذ والاسى * واقصد بلومك من يطيعك أو يعى
لا تلم لى فاعى المسلام فانى * أودعته بالامس عند مودعى
قل للبخيلة بالسلام توزعا * كيف استجبت دمى ولم تتورعى
وبديعة الحسن التى فى وجهها * دون الوجوه عناية للمبدع
ما بال معتمر بربعك دائبا * يقضى زيارته بغير تمتع

ومنها

ووعدتنى ان عدت عود وصالنا * هيهات ما أبقى الى ان ترجعى

هل تسمحين ببذل أيسر نائل ❊ ان اشتكى وجدى اليك وتسمعى
فتيقبني الى بحبك مغرم ❊ ثم اصنعى ماشئت بى ان تصنعى

ومنها

عفى الربيع الجون ربعا طالما ❊ أبصرت فيه البدر ليلة أربع
ولو استطعت سقيته سيل الغنى ❊ من كف يوسف بالادر الانفع
بيدى فتى لو ان جود يمينه ❊ للغيث لم يك ممسكا عن موضع
فاذا تبسم قال ياجود ادفق ❊ فيضا ويا سحب الندى لا تقلعى
واذا تغمر قال يا أرض ارجفى ❊ بالصاهلات ويا جبال تزعزعى
واذا علا فى المجد أعلى غاية ❊ قالت له الهمم الجسام ترفع
كم وقفة لك فى الوغى محمودة ❊ أبدا وكم جود حميد الموقع
والناس بعدك فى المكارم والندى ❊ رجلان اما سارق أو مدّعى

قال ثم رحل السلطان الى حماه واستصحب معه ابن أخيه تقى الدين فلما قرب من حلب أقبل مظفر الدين كوكبرى بن على كوجك صاحب حران حينئذ فاجتمع بالسلطان وسار فى خدمته من جملة الاعوان وأشار عليه ان يعبر الفرات ويجوز ماورا هما ويترك حلب الى ما بعد ذلك اشلا تشغله عن غيرها فاستصوب السلطان رأيه وعبر الفرات وقال القاضى ابن شدّاد نزل السلطان على حلب فى ثامن عشر جمادى الاولى سنة ثمان وسبعين فأقام ثلاثة أيام ورحل فى الحادى والعشرين منه يطلب الفرات واستقر الحال بينه وبين مظفر الدين ابن زين الدين وكان صاحب حران وكان قد استوحش من جانب الموصل وخاف من مجاهد الدين فالتجأ الى الملطان وعبر اليه فاطمع الفرات وقوى عزمه على البلاد وسهل أمرها عنده فعبر الفرات وأخذ الرها والرقة ونصيبين وسروج ثم شحن على الخابور وأقطعه وقال ابن أبى طى فى أوّل السنة أراد مظفر الدين بن زين الدين وكان اليه شحنكية حلب الاستيلاء على قلعة حلب بأن يهجمها فلم يمكن وظهر أمره وبعد هذه الوقعة اجتمع الاخوان عز الدين وعماد الدين على الرقة وتحالفا على بساط واحد وسلم عماد الدين ما كان بيده من سنجار وغيرها الى عز الدين وسلم عز الدين اليه حلب فسار اليها ودخلها فخرج مظفر الدين عنها وصار الى الفرات فلما اتصل به قصد السلطان حلب سار الى خدمته واجتمع به على جباب التركمان وأشار على السلطان بعبور الفرات والاستيلاء على بلاد الشرق وتأخير أمر حلب ففعل ورحل عن حلب بعد ان أقام عليها ستة أيام وأقام على تل خالد ثلاثة أيام ثم رحل الى البيرة وفيها شهاب الدين محمد بن الياس الارتقى فنزل اليه وقبل الارض بين يديه وسأله الصعود الى قلعة البيرة فأجابه وقدّم له مفاتيح القلعة فردّها اليه ووعده باستخلاص ما كان صاحب ماردين ردّه عليه ورحل السلطان الى سروج فنزل اليه صاحبها ابن مالك مستأمنا فأعاده الى بلده وراسل صاحب ماردين فى ردّ ما كان تغلب عليه من أعمال البيرة ففعل ثم أخذ الرها ثم الرقة ثم سلم الرها الى ابن زين الدين والرقة الى صاحب الرها لانه سأل ان يكون فى خدمة السلطان ومن كتاب فاضلى عن السلطان الى عز الدين فرخشاه يعلمه بالحال وفى آخره (ولتعجل بحمل ماهنالك من الاموال فكلما فتحت البلاد أبوابها قد فتحت المطامع أفواهها واستوعبت الخزائن اخراجا وانفاقا واستنفدت الحواصل اعطاء واطلاقا وقدمنا على بحر لا يسده الا بحر وعلى أيدان كان بها الغنى ففى أنفسها الفقر) ومن كتاب آخر الى العادل (يعلم مقدار الحاجة الى الانفاق وكثرة الخرج الذى اشترك فيه أهل الآفاق وانه متى نصبت المواد وقعت الامور التى قد شارفت نهايتها وتفرقت الجموع التى تناذرت الاعداء فكايتها ومادون تملك البلاد الا الوصول اليها والنزول عليها) قال العماد وقال مظفر الدين للسلطان مازلت شوقا اليك فى حران والى الرى من ورد خدمتك ظمآن وهى لك مبذولة وبأوليائك من أهل الدين والدنيا ماء هوله والرها لا يعسر أمرها والرقة لرقك وبعض حقك والخابور فى انتظار خبرك ودارا دارك ونصيبين نصيبك وملك الموصل موصلك الى الملك وما هذا أوان الونا فادن الينا وكل بعيد قد دنا قال ووصل البحر الى الفرات وخيم عليها من غربى البيرة ومدّ الجسر وكانت البيرة قد طمع فيها صاحب ماردين واستولى

على مواضع من أعمالها فلما سمع بالسلطان تخلى عنها فأعاد اليها صاحبها شهاب الدين محمد بن الياس الارتقى وكتب السلطان بالمثال العاضلى الى الديوان عند عبور الفرات كتابا فائقا طويلا يقول فيه (خدم الخادم متوالية الى الابواب الشريفة خلد الله سلطانها شارحا لاحواله ومعتدا بها من صالح أعماله ومتوقعا من الاجوبة عنها ما يهيء له من أمره رشدا ويفرق الاعداء اذ كادوا يكونون عليه لبدا فان الاراء الشريفة لو لم تفصح عنها الانشاآت وتتضمنها الاجابات والابتداآت لافصحت عنها موالاة الخادم التى استفتحت الدولة بعقائل الفتوح قبل خطبتها وردت الاسماء الشريفة الى أوطانها من المنابر بعد طول غربتها فتلك الاعمال كالهجرة ولكل مهاجر ما هاجر اليه ونية المرء ثوبه فلا يلبس الا ما خلعته النية عليه وكتاب الخادم الآن من البيرة بعد ما قطع الفرات وكان من لا تقرب عليه العزائم ما هو بعيد ولا يلقى السمع وهو شهيد بظن ان ساكن النيل يحول الفرات بينه وبين قصده وانه ينسى عزيمة رأيه اذا ذكر طول مدته وهول مده وكيف ما كان هذا المخرج المخرج فقد أحسنت الى الخادم اساءته اليه وقربه من محل دار السلام بل الاسلام فما أكثر ما قال السلام عليه واستشرف حنانه من جنابه امنا وذعرا أوجبتهما الموالاة والمهابة وطالعت عينه أنواء وانوارا تنسب الى بركاتها كل سحابه وكاد ينزل عن السروح والاكوار ويقبل الثرى لاجل شرف الجوار ويستنفد علته ماء الفرات لانه يمر بتلك الديار ويقر أمن صفائه صفاء تلك الخواطر العظيمة الاخطار ومن عذوبته عذوبة ذلك الانعام الذى هو أعم وأغر للاقطار من القطار وتنور دار السلام من منزلته فأدناه النظر العالى واسلفته ماله حوز الفوز بما قربه والآمال أمالى والله تعالى يشرف أرضا هو واطيها ويرعى سروحا هو كالئها ويسعد به امة هو بارها بطاعة من هو باريها ولما تحقق الخادم ان المواصلة قد واصلوا الفرنج مواصلة أخلصوا فيها الضمائر ولم يستطيعوا فيها اكتمان السرائر وخصتهم خطوط الايدى المتمسكة بعصم الكوافر وعقدوا معهم عقدا أشهد من هو حاضره ونقله الى من سمعه من هو ناظره وكان عقدهم احدى عشرة سنة والمستقر لهم فى كل سنة عشرة آلاف دينار على ان تسلم ثغور المسلمين الى الكفار منها بانياس وشقيف تيرون وحبيس جلدك وأسارى الفرنج فى كل بلدة بأيديهم وفى كل بلد يسترجعونه من الخادم مساعدة الفرنج ولما تم لهم هذا العقد وحملوا الى الفرنج ذلك النقد ظنوا ان الحق يجادله الباطل فيدحضه وان يد الكفر تنبسط الى الاسلام فتقبضه وان الخادم لا يمكنه أن يتوجه اليهم الا ان يكون للفرنج سلما ولا يستطيع أن يقسم العساكر فيجعل بازاء الفرنج قسما وبازائهم قسما وعملوا على هذا الوهم وبنوا على هذا الحكم استنهضوا الفرنج على تناقل الخطوه واستخرجوهم على ما بهم من كلوم الغزوه بعد الغزوه فتحاملت أرجل الكفار على ظلعها وخرجت على طمعها الى فزعها وانفقت فى رجالها ما لا حملوه اليهم جما وجرت الى الاسلام جيشا جهزه من يدعى الاسلام لفظا ويفارقه حكما وتواعد المواصلة مع الفرنج ليطلبوا ولاية الخادم من جانب ويطلبها الفرنج من جانب ونظروا فيما يوصل المشاة الى الخادم ولم ينظروا للاسلام فى العراقب فوصل المواصلة الى نصيبين مجدين محملين وحركوا الفرنج للخروج الى الشام متطرفين ومتوغلين فلا جرم ان أمراء جانبهم وخواص صاحبهم لم يسعهم المروق من الدين ولا الخروج عن امرة الموحدين فارضوا الله باسخاطهم واشفقوا على دينهم اشفاقا دل على تحرزهم له واحتياطهم فاتبعوا الحق وسلكوا سبيله ورفع لهم الهدى مناره فاقتفوا دليله لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الاخر يوادون من حاد الله ورسوله فاستعان الخادم عليهم بالله الذى استعانوا على دينه باعدائه ولما رأى انهم قد أملوا النصر من أرضهم أمله من سمائه فرتب الخادم فى رأس الماء بدمشق بازاء الفرنج الملوك فرخشاه ابن أخيه وابقى عسكر الشام وحاميه فيه واستنهض أخاه من مصر الى ما يليه من بلاد الكفر فنهض وقام الخادم بما أقامه له ولله عز وجل بما فرض وسار الخادم بالعسكر المصرى الى هذا الجانب الذى هو الآن فيه وكان أيسره يكفيه وتثاقل فى الطريق انتظارا لان يأتوا البيوت من أبوابها ويفرجوا عن الولاية أيدى اغتصابها ويعتدروا الى السيف بالسنة يشفق على رقابها فأبوا الا الاباء وراوا الملك ارثا ما ادعوا فيه تقليد الخلفا بل الاباء ولما قرب الخادم من الفرات وصل اليه صاحب حران ابن زين الدين على كوجك ومقدم عسكرهم وابن أمير معشرهم وكذلك صاحب سروج وصاحب البيرة وكل بيده مفاتيح بلده وأمامه أمان الخادم له فداستبدله من مقلده ووراءه عسكره على كمال عدده وعدده وتوالت كتب أمرائهم الذين يأخذون اقطاعاتهم خدما ومصانعات ورعاياهم الذين يأخذون أموالهم جبايات

ومقاطعات ومكوسا وعشورا واحتكارات يرغبون الى الخادم فى الانفاذ ويحثونه فى المسير على الاغذاذ ويشكون انهم مع جوار دار الخلافة المعظمة لا يسلك فيهم سننها ولا يقتفى فيهم شرائعها وسننها ونمى الى الخادم من تفاصيل المغارم التى تلزم الفريقين ويعدل بها عن أقصد الطريقين ما يروع السامع ويسمع الرائع ويسجل عليهم بالخلاف ويشهد لهم بالاعتراف لانهم ان ادعوا تقليدا فقد نقضه كونهم ابتدعوا وما اتبعوا ونقضوا وما اقترضوا ومثلوا بالحق وما امتثلوا وأمروا بكف الايدى وقد بسطوها وبأخذ الاموال من حلها وقد خلطوها وبرعاية امة النبى صلى الله عليه وسلم وقد اسخطوه فيها واسخطوها وابن الدعوة العباسية من رعاها لا من ادعاها والعهود وصايا وما الاولى بها من سمعها بل من وعاها وأى عهد لمن لا عهد له بالطاعه وأى ولاية لمأمور بأن يجمع أهل الفرقه ففرق أهل الجماعه فالجندى توكل الارض باسمه ولا شئ بيده والعامى يرفع الى السماء استغاثة ما لا يمهل الله عليه ولقد أعجب الخادم من اشغاف الانفس الغنية الا انها فقيره والارتفاق بتلك الطعم الجليله وهى على الحقيقة الحقيره يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم الآية هذا الى طامة أخرى لا تقر عليها الجنوب ولا تدر عليها الحلوب ولا ينام على سهر بارقها وان كان الحلوب وديوان الخادم بلغه انهم كاتبوا جهة من الجهات التى الدولة منحرفة عنها وبدلوا الطاعة لها وقد أمروا بالامتناع منها وهذا نص فى الخلاف لا يدخله التأويل وقول قد أحاط به العلم فلا يختلجه التقويل وكل صغيرة من هذه الكبائر وكل واحد من هذا الجمع المتكاثر ينقض الولايه ويجرح العداله ويسلب الرشد ويثبت الضلاله ويمضى نية الولى فيما هو له ماض ويبعث عزمه فيقضى ما هو قاض ويسخطه وكيف لا يسخط والمولى غير راض ويغيظه بما لا عذر له لمغتاظ متغاض وما انهى الخادم مما اتصل به الا الاوائل والاطراف وما عول الا على ما صححته النفس دون ما خيله الارجاف واذ قد ساق الله الى هذه الولاية حظها من معدلة كان الزمان بها طويلا مطله وانشأها سحاب احسان كان بعيدا عليها هطله فقد كفيت الخواطر الشريفة ما كانت به على اهتمامها كما يجب للامة على امامها واليه بتفويض الله يرجع أمرها وبيده يجلب نفعها ويجلى ضرها وقد تجددت للدولة الشريفة قوه واستظهار وبسطه واقتدار وسيف به بناضل من يسئ الجوار ولسان يجادل به من يريد الدار وكان الخادم طالع بوصول الاسطول المصرى الى الشام الفرنجى وما فعله فى موانيه وسواحله وما غنمه من مراكبه وقوافله وورد كتاب من مصر بأنه كسب بطشة فرنجيه خرج من فيها هاربا من القسطنطينيه لفتنة وقعت فيها بين رومها وفرنجها فقتل منهم خمسون ألف فرنجى وافلتت منهم بطش منها هذه البطشه وفيها رجال أكابر ومقدمون لهم ذكر سائر وغنم المجاهدون منهم ما ملأ أيديهم من سبى وذخائر وانقلبوا بنعمة من الله وفضل وحازت القبضة من الاسارى ما يزيد على أربعمائة بعد من درج بالقتل

﴿فصل﴾ قال العماد ثم كاتب السلطان الملوك بالوفود للاتفاق فمن جاء مستسلما سلمت بلاده على ان يكون من اجناد السلطان واتباعه فى جهاد الكفار فجاء رسول صاحب حصن كيفا بالاذعان وهو نور الدين محمد بن قولا ارسلان ثم رحل السلطان من البيرة ونزل على الرها وكان فيها فخر الدين مسعود بن الزعفرانى فاذعن وانقاد وتسلمها مظفر الدين مضافة له الى حران ثم وصل السلطان الى حران فرتبها وانفصل منها الى الرقة وفيها الامير قطب الدين ينال ابن حسان فاذعن أيضا وسلم ولم يوافق مراعاة لصاحبه فاصلحها السلطان ورحل منها الى مشهد الرمان ثم الى عرابان فتسلمها وأصلح من شأنها وتواصلت أخبار وصول السلطان بالخابور وما نشر من العدل فى البلاد التى فتحها فافتتحت رأس عين ودورين وماكسين والشمسانيه والغدين والمجدل والحصين قال وقطعنا نهر الخابور على قنطرة التنبنير الى نصيبين فاستعصت قلعتها أياما ثم فتحت استسلاما وولاها السلطان حسام الدين أبا الهيجاء السمين وولى الخابور جمال الدين خوشترين ثم سرنا الى الموصل وقطعنا الاعمال بين النهرين ثم أعمال البقعه ثم سرنا الى بلد وأشرفنا على دجله وكنا أوردنا خيلنا فى أشهر من تلك السنه نيل مصر والفرات ودجله ثم صممنا على قصد الموصل فلما قربنا من الوصول كبر ناكبير من ظفر بالسول وتقدم السلطان فى الامراء ذوى الاراء ودار حول السور وعين لكل مقدم مقاما فنزل هو وراء البلد وتقى الدين من شرقيه وأخوه تاج الملوك بورى عند باب العمادية فحصلت المحاصرة والمضايقه وتولى مجاهد الدين قايماز حفظ البلاد بأحسن تدبير وكاتب الديوان العزيز فى ان يشفع لهم

الى

الى السلطان فقدّم فى ذلك صدر الدين شيخ الشيوخ وشهاب الدين بشير فى الشفاعه فرحل السلطان عنها فى شعبان وقصد سنجار وتقدّم أمامه تقى الدين وقال القاضى ابن شداد كان نزول السلطان على الموصل فى هذه الدفعة يوم الخميس حادى عشر رجب سنة ثمان وسبعين وكنت اذذاك بالموصل فسيرت رسولا الى بغداد قبيل نزوله بأيام قلائل فسرت مسرعا فى دجلة وأتيت بغداد فى يومين وساعتين من اليوم الثالث مستنجدا بهم فلم يحصل منهم سوى الانفاذ الى شيخ الشيوخ وكان فى صحبته رسولا من جانبهم يأمرونه بالحديث معه وتلطيف الحال معه وسير الى بهلوان رسول من الموصل يستنجده فلم يحصل من جانبه سوى تشرط كان الدخول تحته أخطر من حرب السلطان ثم أقام السلطان على الموصل أياما وعلم انه بلد عظيم لا يتحصل منه شئ بالمحاصرة على هذا الوجه ورأى ان طريق أخذه أخذ قلاعه وما حوله من البلاد واضعافه بطول الزمان فرحل عنه ونزل على سنجار فى سادس عشر شعبان فأقام يحاصرها وفيها شرف الدين ابن قطب الدين وجماعة واشتدّ عليه الامر حتى كان ثانى شهر رمضان فأخذها عنوة وخرج شرف الدين وجماعته محترمين محفوظين الى الموصل وأعطاها السلطان ابن أخيه تقى الدين ورحل عنها الى نصيبين وقال العماد لما قصد السلطان سنجار نزل بارنجان فوجد عسكر امن الموصل سائرا اليها فأحاط به وأخذ خيلهم وعددهم وردهم الى الموصل رجالة ووصل الى سنجار ومعه رسل دار الخلافة ونور الدين صاحب حصن كيفا وكان فى سنجار شرف الدين أخو صاحب الموصل فامتنع من تسليمها فحصروه ورميت القلعة بالمنجنيق فانهدم منها ثلمة من السور فوكل بها من يحفظها ودخل شهر رمضان فكف السلطان عن القتال ثم جاءه الخبر ليلة ان الموكلين بحفظ تلك الثلمة نيام فأرسل اليهم من أوثقهم وحملهم اليه وكان فيهم جماعة من المقدّمين والاعيان فلما أصبح صاحب سنجار اذعن وسلم ورحل بأهله وماله ودخل السلطان القلعة ورتبها وأمر بعمارتها وولاها الامير سعد الدين مسعود بن انر وكان السلطان يعتمد عليه وأخته ابنة معين الدين كانت فى حبالة السلطان وكان رئسا سنجار بنى يعقوب فترك الرياسة فيهم وولى القضاء منهم نظام الدين نصر بن المظفر بن محمد بن يعقوب ثم رحل السلطان الى نصيبين فأقام بها الان الايام كانت باردة ومنها ودّع رسل دار الخلافة وشكا أهل نصيبين من أميرها أبى الهيجاء السمين فاستصحبه السلطان معه وسار الى دارا وأميرها صمصام الدين بهرام الارتقى فتلقى السلطان بأحسن ملتقى فأكرمه وسار الى حران وأقام بها للاستراحة وعاد كل الى بلده وسار تقى الدين الى حماه هذا والمواصلة فى جدّ من جمع الجموع وابتغاء الغوائل للسلطان

﴿فصل﴾ فى وفاه فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب قال العماد وفى هذه السنة فى جمادى الاولى توفى بدمشق الملك المنصور عز الدين فرخشاه ووصل خبره الى السلطان عند عبوره الفرات فأقر السلطان ولده الملك الامجد بهرامشاه على بعلبك وأعمالها مكان أبيه وانفذ شمس الدين ابن المقدم واليا مكانه على دمشق وأعمالها قال ابن أبى طى كان فرخشاه من أكرم الناس يدا وأطهرهم اخلاقا وأسدهم رأيا وأشجعهم قلبا ومما يحكى من كرمه انه دخل الحمام يوما فرأى رجلا قد عبد الزمان وكان يعرفه من أهل اليسار وشاهد عليه ثيابا رثة يبين منها بعض جسده فاستدعى بجميع ما يحتاج الرجل الى لبسه وأمر له بغلام وبغلة مسرجة وبألف دينار وقال لبعض غلمانه اجعل هذا كله فى موضع ثياب الرجل وخذ ثيابه واجعل هذا الغلام والبغلة له ففعل فلما تغسل الرجل وخرج رأى موضع ثيابه تلك الثياب وسأل الحمامى عن ثيابه فقال انبدلت بهذه الثياب فتقدم اليه الغلام وأخبره بجميع ما صنعه عز الدين وأخبره بأنه قد أجرى عليه معيشة عشرين دينارا فى كل شهر فلبس الثياب وخرج من الحمام وهو من أغنى الناس قال وكان فرخشاه ممدّحا مدحه ابن سعدان بعدّة قصائد من جملتها التى يقول فيها

تخذ السابرى لبدا وعودا ... زان ناباه والهند وانى ظفرا
أعجمى الانساب قصرت الاعـ ... ـراب عنه سجعا ونظما ونثرا
هزمت كتبه الكتائب جفلا ... وأعادت دجى الحوادث فجرا
فهو كالمازنى علما وكالاحـ ... ـنف حلما وكالفرزدق شعرا

قال وكان فرخشاه مضافا الى شجاعته كونه عالما متفننا كثير الادب مطبوع النظم والنثر فمن شعره قوله

أنا فى أسر السقام * من هوى هذا الغلام ❁ رشأ ترشق عينا * ه فؤادى بسهام
كلما أرشفنى فا * ه على حر الاوام ❁ ذقت منه الشهد فى الثلج المصفى فى المدام

قلت ونبغ ابنه الامجد أيضا شاعرا وكان السلطان كثير الاعتماد على فرخشاه وفى بعض الكتب الفاضلية عن السلطان اليه (وصل كتابه يتضمن خروج الفرنج وما دبره من الاحوال واعده من مكائد القتال ولسنا نستبعد ان يدنى الله به كل بعيد من المراد وان يقلل بتدبيره تقلب الدين كفروا فى البلاد وان يجرى على يده أول النحل الذى توعد به اخرصا وان يصب به على المشركين صوت عذاب ان ربك لبالمرصاد) وقال العماد كان عز الدين فرخشاه من أهل الفضل وانتفضل على أهله يغنى الكرام عن الابتذال بكرم بذله ومن أخص خواصه وذوى اصطفائه واستخلاصه الصدر الكبير العالم تاج الدين أبو اليمن الكندى أوحد عصره وشيخ وحده وقريع دهره وعلامة زمانه وحسان احسانه ووزير دسته ومشير وقته وجليس أنسه ورفيق درسه وشعاع شمسه وحبيب نفسه ولى فى هذا الملك قصائد منها قصيدة هائية موسومة مدحته بها فى أول سنة صحبت فيها السلطان الى مصر وهى سنة اثنتين وسبعين وعارضها تاج الدين أبو اليمن بكلمة بديعة فى وزنها ورويها وحسن رويها فأما كلمتى فهى

بين أمر حلاوة العيش الشهى ❁ وهوى احال غضارة الزمن البهى
وصبابة لا استقل بشرحها ❁ عن حصرها حصر البليغ المدره
أأحبتى ان غبت عنكم فالهوى ❁ دان لقلب بالغرام موله
انهى اليكم ان صبرى منتئ ❁ بل منته والشوق ليس بمنتهى
أما عقود مدامعى فقدوهت ❁ وأبت عقود الود منى ان تهى
ولقد ذهبت بينكم فاستقتكم ❁ يا من لمستاق بينكم دهى
فى شوقكم أبد الزمان تفكرى ❁ وبذكركم عند الكرام تفكهى
لو قيل لى ما تشتهى من هذه الـ ـدنيا لقلت سواكم لا أشتهى
ما كان أرفه عيشتى والدها ❁ من ذا الذى يبقى بعيش أرفه
ومن السفاهة اننى فارقتكم ❁ من أين ذو الحلم الذى لم يسفه

ومنها

وعقاب ايله ما يفارق جلقا ❁ أحدا اليها غير غرابله
مالى ومصر والمطامع انما ❁ ملكت قيادى حيث لم أتنزه
لا تنهنى يا عاذلى فأنا الذى ❁ تبع الهوى وأتى بما عنه نهى
قد قلت للحادى وقد نادته ❁ فى مهمه اقصر وصلت مهمه
حتام جذبك للزمام فأرخه ❁ فلقد أنخت الى ذرى فرخشه
متكرم بالطبع لا متكره ❁ شتان بين تكرم وتكره
احسان ذى مجد وهمة ماجد ❁ مجد وتقوى عابد متأوه

وهى ثلاثة وثمانون بيتا والقصيدة التاجية تسعة وأربعون بيتا أولها

هل أنت راحم عبرة وتوله ❁ ومجير صب عند ما منه دهى
هيهات يرحم قاتل مقتوله ❁ وسنانه فى القلب غير مهنه
من بل من رداء الغرام فانى ❁ مذ حل بى مرض الهوى لم أنقه
انى بليت بحب أغيد ساحر ❁ بلحاظه رخص البنان برهره
أبغى شفاء تدلهى من دله ❁ ومتى يرق مدلل لمدله
يا مفردا بالحسن انك منته ❁ فيه كما أنا فى الصبابة منتهى
قد لام فيك معاشرا فانتهى ❁ باللوم عن حب الحياة وانت هى

ابكى لديه فان أحس بلوعة ❁ ويشهقة أومايطرف مقهقه
اما من محاسنه وحالى عنده ❁ حيران بين تفكه وتفكه
ضدان قد جمعا بلفظ واحد ❁ لى فى هواه بمعنيين موجه

قلت يقال تفكهت بالشئ أى تمتعت به وتفكهت تعجبت ويقال أيضا تفكهت تندمت ومنه قوله تعالى فظلتم تفكهون فهو فى تفكه أى تمتع بالمحاسن وفى تعجب من حاله وتندم عليها ثم قال

أنا عبد من شهد الزمان بعجزه ❁ عن ان يجىء له بند مشبه
عبد لعز الدين ذى الشرف الذى ❁ ذل الملوك لعز عبد فرخشه
طابت موارده فغص فناؤه ❁ وشدا الحداة بذكره فى المهمه
يفديك كل مملك متتابه ❁ أبدا بالسنة الرعاع ممده
لا يفقه النجوى اذا حدثته ❁ واذا اتى بحديثه لم يفقه

قلت وذكر العماد فى ديوانه أبياتا حسنة فى مدح الشيخ تاج الدين أبى اليمن رحمهما الله قال

تذاكر من وراد مصر عصابة ❁ حديث فتى طاب الندى بذكره
وقالوا رأينا فاضلا ذا نباهة ❁ أديبا يفوق الفاضلين بفخره
يدين حبيب والوليد لنظمه ❁ ويحمده عبد الحميد لنثره
ولو عاش قس فى زمان بيانه ❁ لكان منيبا فى البيان بشكره
فضائله كالشمس نورا ولم تزل ❁ مناقبه فى الدهر اعداد زهره
بيان هو السحر الحلال واننا ❁ نرى معجزا من فضله حل سحره
ذوو الفضل هم عند الحقيقة أبحر ❁ ولكنهم أضحوا جداول بحره
يضوع مهب الحمد من عرف عرفه ❁ وتأرج ارجاء الرجا بنشره
فقلت لهم هذا الذى تصفونه ❁ أبو اليمن تاج الدين أوجه عصره

قلت وبلغنى ان أول معرفة فرخشاه به انه كان فى مجلس القاضى الفاضل بالقاهرة فجاء فرخشاه الى الفاضل فجرى ذكر بيت من شعر أبى الطيب المتنبى فتكلم فيه تاج الدين بما يليق به فأعجب فرخشاه وسأل القاضى الفاضل عنه فقال هذا فلان وعرفه بفضله فلما قام فرخشاه من مجلس الفاضل أخذ بيد الشيخ تاج وخرج به ولزمه الى ان توفى رحمهم الله أجمعين

(فصل) فى أخذ السالكين البحر لقصد الحجاز قال العماد وفى شوال سنة ثمان وسبعين كانت نصرة الاسطول المتوجه الى بحر القلزم والمقدم فيه الحاجب حسام الدين لؤلؤ لطلب الفرنج السالكين بحر الحجاز وذلك ان الابرنس صاحب الكرك لما صعب عليه ما توالى عليه من نكاية أصحابنا المقيمين بقلعة ايلة وهى فى وسط البحر لا سبيل عليها لاهل الكفر أفكر فى أسباب احتياله وفتح أبواب اغتياله فبنى سفنا ونقل أخشابها على الجمال الى الساحل ثم ركب المراكب وشحنها بالرجال وآلات القتال ووقف منها مراكبين على جزيرة القلعة فمنع أهلها من استقاء الماء ومضى الباقون فى مراكب نحو عيذاب فقطعوا طريق التجار وشرعوا فى القتل والنهب والاسار ثم توجهوا الى أرض الحجاز وتعذر على الناس وجه الاحتراز فعظم البلاء وأعضل الداء وأشرف أهل المدينة النبوية منهم على خطر ووصل الخبر الى مصر وبها العادل أخو السلطان فأمر الحاجب حسام الدين لؤلؤ فعمر فى بحر القلزم مراكب بالرجال البحريه ذوى التجربة من أهل النخوة للدين والحمية وسار الى ايلة فظفر بالمركب الفرنجى عندها فخرق السفينة وأخذ جندها ثم عدى الى عيذاب وشاهد بأهلها العذاب ودل على مراكب العدو فتبعها فوقع بها بعد أيام فأوقع بها وواقعها وأطلق المأسورين من التجار وردّ عليهم ما أخذ لهم ثم صعد الى البر فوجد اعرابا قد نزلوا منه شعابا فركب خيلهم وراء الهاربين وكانوا فى أرض تلك الطرق ضاربين فحصرهم فى شعب لا ماء فيه فأسرهم بأسرهم وكان ذلك فى أشهر الحج فساق منهم أسيرين الى منى كما يساق الهدى وعاد الى القاهرة ومعه الاسارى فكتب

السلطان اليه بضرب رقابهم وقطع أسبابهم بحيث لا يبقى منهم عين تطرف ولا أحد يخبر طريق ذلك البحر أو يعرف قلت ولابى الحسن ابن الذروى فى الحاجب لؤلؤ بسبب هذه الوقعة اشعار منها

مر يوم من الزمان عجيب ❁ كاد يبدى فيه السرور الجماد
اذ أتى الحاجب الاجل باسرى ❁ قرنتهم فى طيها الاصفاد
بجمال كانهن جبال ❁ وعلوج كانهم أطواد
قلت بعد التكبير لما تبدى ❁ هكذا هكذا يكون الجهاد
حبذا لؤلؤ يصيد الاعادى ❁ وسواه من اللآلى يصاد

ومنها

قلت وقد سافرت يا من غدا ❁ جهاده يعضد من حجه
اذ قيل سار الحاجب المرتجى ❁ فى البحر يارب اسمعا نجحه
البحر لا يعدو على لؤلؤ ❁ لانه كون من ثلجه

ومنها

ياحاجب المجد الذى ماله ❁ ليس عليه فى الندى حجبه
ومن دعوه لؤلؤا عندما ❁ صحت من البحر له نسبه
لله ما تحمل من صالح ❁ فيه وما تظهر من حسبه
كفيت أهل الحرمين العدا ❁ وذدت عن أحد والكعبه

ومنها

لئن كنت من ذا البحر باللؤلؤ العلى ❁ نحت فان الجود فيك وفيه
وان لم تكن منه لاجل مذاقه ❁ فانك من بحر السماح أخيه

ومنها

اها أنت لولؤ للعالى ❁ جاء من أبحر السماح العذاب

وكتب السلطان الى العادل من كلام الفاضل (وصل كتابه المؤرخ بخامس ذى القعدة المسفر عن المسفر من الاخبار المنبسم عن المتبسم من الآثار وهى نعمة تضمنت نعما ونصرة جعلت الحرم حرما وكفاية ما كان الله ليؤخر معجزة نبيه صلى الله عليه وسلم بتأخيرها وعجيبة من عجائب البحر التى يحدث عن تسييرها وتسخيرها وما كان الحاجب لؤلؤ فيها الا سهما أصاب وحد مسدده وسيفا قطع وتكرم مجرده ورسولا عليه البلاغ وان لم يحهل ما أثرته يده وقد غبطناه باجر جهاده ونجيح اجتهاده ركب السبيلين برا وبحرا وامتطى السابقين مركبا وظهرا وخطا واسع الخطو وغزا فانجح الغزو وحبذا العنان الذى فى هذه الغزوة أطلق والمال الذى فى هذه الكرة أنفق وهؤلاء الاسارى قد ظهروا على عورة الاسلام وكشفوها وتطرقوا بلاد القبلة وتطوفوها ولو جرى فى ذلك سبب والعياذ بالله لضاقت الاعذار الى الله والحلق وانطلقت الالسن بالمذمة فى الغرب والشرق ولا بد من تطهير الارض من ارجاسهم والهواء من انفاسهم بحيث لا يعود منهم مخبر يدل الكفار على عورات المسلمين وان هذا العدد القليل قد نال ذلك المنال الجليل وهذا مقام ان روعى فيه حراسة الظاهر والوفاء للكافر حدب الفتق الذى لا يمكن فى كل الاوقات سده ورتقه ولدغ المؤمن مرتين والاولى تكفى لمن له فى النظر تفقه) وفى كتاب آخر الى العادل أيضا (ونحن نهنى المجلس السامى بظفره ولم لا يكمله وينصره ولم لا يجمله ويشكره وليس فى قتل هؤلاء الكفار مراجعه ولا للشرع فى ابقائهم فسحه ولا فى استبقاء واحد منهم مصلحه ولا فى التغاضى عنهم عند الله عذر مقبول ولا حكم الله فى أمثالهم عند أهل العلم بمشكل ولا بمجهول فليمض العزم فى قتلهم ليتناهى أمثالهم عن فعلهم وقد كانت عظيمة ما طرق الاسلام بمثلها وقد أتى الله بعدها بلطيفة أجراها على يد من رآه من أهلها) وفى كتاب آخر أيضا الى العادل (قد تكرر القول فى معنى أسارى بحر الحجاز فلا تذر

على الارض من الكافرين ديارا ولا توردهم بعد ماء البحر الا نارا فاقلهم اذا بقى جنى الامر الاصعب ومتى لم تعجل الراحة منهم وعدت العاقبة بالاشق الاتعب) ومن كتاب آخر الى بغداد (وسارت المراكب الاسلامية طالبة شوكة المراكب الحربية المتعرضة للمراكب الحجازية واليمنية وكانت مراكب العدو قد أوغلت فى البحر ودلها على عورات الساحلين من العرب من أشبه ركابها فى الكفر فوصلت الى عيذاب فلم ينل منها مرادا غير ان ما وجدته فى طريقها أو فى فرضة عيذاب نالت منه وشعثت وافسدت فيه وعثت وتمادت فى الساحل الحجازى الى رابغ الى سواحل الحوراء وهناك وقع عليها أصحابنا وأوقعوا بها اشد ايقاع وأخذوا المراكب الفرنجية على حكم البدار والاسراع ففر فرنجها الى الساحل فركب أصحابنا وراءهم خيول العربان التى وجدوها وأخذوا الكفار من شعاب وجبال اعتصموا بها وقصدوها وكفى المسلمون أشد فساد فى أرضهم وأقطع قاطع لفرضهم وانبسطت آمالهم بقبضهم وعميت على الكفار هذه الطريق التى لو كشف لهم غطاؤها قدسا ولو أحاطوا بها علما لاشتطت نكايتهم واشتدت جنايتهم وعز على قدماء ملوك مصر ان يصرعوا هذه الاقران ويطفئوا هذه النيران ويركبوا غوارب اللجج ويرخصوا غوالى المهج ويقتنصوا هذا الطائر من جوه الذى لا يدرك لوحه ويدركوا هذا العدو الذى لا يدرك الا ان تستخدعليه ملائكة الله وروحه) وفى كتاب آخر الى بغداد (كان الفرنج قد ركبوا من الامر نكرا وافتضوا من البحر بكرا وعمروا مراكب حربية شحنوها بالمقاتلة والاسلحة والازواد وضربوا بها سواحل اليمن والحجاز واثخنوا وأوغلوا فى البلاد واشتدت مخافة أهل تلك الجوانب بل أهل القبلة لما أومض اليهم من خلل العواقب وما ظن المسلمون الا انها الساعة وقد نشر مطوى اشراطها والدنيا وقد طوى منشور بساطها وانتظر غضب الله لفناء بيته المحرم ومقام خليله الاكرم ونران أبيائه الاقدم وضريح نبيه الاعظم صلى الله عليه وسلم ورجوا ان تشحذ البصائر آية كآية هذا البيت اذ قصده أصحاب الفيل ووكلوا الى الله الامر وكان حسبهم ونعم الوكيل وكان للفرنج مقصدان أحدهما قلعة ايلة التى هى على فوهة بحر الحجاز ومداخله والآخر الخوض فى هذا البحر الذى تجاوره بلادهم من ساحله وانقسموا فريقين وسلكوا طريقين فاما الفريق الذى قصد قلعة ايلة فانه قدر ان يمنع أهلها من مورد الماء الذى به قوام الحياة ويقاتلهم بمبارد العطش المشبوب الشباه وأما الفريق القاصد سواحل الحجاز واليمن فقدر ان يمنع طريق الحاج عن حجه ويحول بينه وبين لجه ويأخذ تجار اليمن واكارم عدن ويلم بسواحل الحجاز فيستبيح والعياذ بالله المحارم ويهيج جزيرة العرب بعظيمة دونها العظائم وكان الاخ سيف الدين بمصر قد عمر مراكب وفرقها على الفرقتين وأمرها بان تطوى وراءهم السقتين فاما السائرة الى قلعة ايلة فانها انفضت على مرابطى الماء انقضاض الجوارح على بيات الماء وقذفتها قذف شهب السماء مسترق سمع الظلماء فاخذت مراكب العدو برمتها وقتلت أكثر مقاتلتها الا من تعلق بهضبة وما كاد أو دخل فى شعب وما عاد فان العربان اقتصوا آثارهم والتزموا احضارهم فلم ينج منهم الا من نهى عن المعاوده ومن قد علم ان أمر الساعة واحده وأما السائرة الى بحر الحجاز فمادت فى الساحل الحجازى الى رابغ سواحل الحوراء فاخذت تجارا وأخافت رفاقا ودلها على غوارب البلاد من الاعراب من هو أشد كفرا ونفاقا وعمالك وقع عليها أصحابنا وأخذت المراكب بأسرها وفر فرنجها بعد اسلام المراكب وسلكوا فى الجبال مهاوى المهالك ومعاطن المعاطب وركب أصحابنا وراءهم خيل العرب يشلونهم شلا ويقتنصونهم اسرا وقتلا ومازالوا يتبعونهم خمسة أيام خيلا ورجلا نهارا وليلا حتى لم يتركوا عنهم خبرا ولم يبقوا لهم أثرا وسيق الذين كفروا الى جهنم زمرا وقيد منهم مائة وسبعون أسيرا) ومن كتاب آخر (ومن جملة البشائر الواصلة من مصر عود الاسطول مرة ثانية كلسرا كاسبا غانما غالبا بعد نكايته فى أهل الجزائر واخراب ما وجده فيها من الاعمال والعمائر ومن جملة ما ظفر به فى طريقه بطشته من مراكب الفرنج تحمل أخشابا منجورة الى عكا ومعها نجارون ليبنوا منها شواني فاسر النجارون ومن معهم وهم نيف وسبعون وأما الاخشاب فقد انتفع بها المجاهدون وكفى شرها المؤمنون وللخادم فى المغرب عسكر قد بلغت اقصى افريقية فتوجه وعاود به شخص الدين فى تلك البلاد روحه

(فصل) فى باقى حوادث هذه السنة قال العماد وفى هذه السنة وهى سنة ثمان وسبعين انعم السلطان على نور الدين

محمد بن قرا أرسلان باعمال الهيثم وكانت جارية فى عمل الموصل فلما تسلمها جعلها من نصيبه وقد كان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى رحمه الله حين توجه الى الموصل فى أوائل سنة ست وستين عند وفاة أخيه مودود وعد ابن قرا ارسلان بقلعة الهيثم ثم سلمها اليه دون اعمالها تحله لميمنه ووفاء بوعده الكريم ودينه ولما جاء لمساعدتنا فى هذا العام خصه السلطان عاجلا بهذا الانعام ثم وهب له قلعته الجديده وهى قريبة من نصيبين ووعده بفتح أمد له فوفى بوعده كما سيأتى قال وكان شاه أرمن صاحب خلاط ظهير الدين سكمان وهو خال صاحب ماردين ابغلازى بن ايلبى بن تمرتاش وصاحب ماردين هذا هو ابن خال صاحب الموصل عز الدين بن مسعود بن مودود بن زنكى فانفذ شاه أرمن يشفع الى السلطان فى الموصل وسنجار وهو على سنجار وأرسل اليه سيف الدين وهو من أعز أصحابه عليه فلم يسمع السلطان شفاعته فاجتمع هو وصاحب ماردين وصاحب الموصل وصاحب ارزن وبدليس وغيرهم من عسكر حلب وجمعوا جموعا وعزموا على لقاء السلطان ونزلوا ضيعة من أعمال ماردين يقال لها حرزم فجمع السلطان عساكره وجاءه تقى الدين من حماه الى حران فى خمس ليال فساروا اليهم بعد العيد الاكبر فلما وصل السلطان رأس عين وسمعوا بمجيئه فرقوا وافترقوا وعاد الخلاطى الى خلاطه باختلاطه ورجع الموصلى الى موصله لما وصلة احتياطه واعتصم الماردى بحصنه المارد وهتكوا حرز حرزم للصادر والوارد وهاب عسكر حلب العود اليها ونحن على طريقه فاذن جمعه بتفريقه ومضى معظمهم الى الموصل فعبر الفرات عند عانه ولم يجدوا اعانه ونسفتهم ريحنا وهم جبال وذهبوا بقلوب النساء وقد جاؤا وهم رجال ثم نزل السلطان منزلة القوم بحرزم وفيها قصر لصاحب ماردين كان يتنزه فيه فاقام فيه تاج الملوك أخو السلطان قال ابن أبى طى وفى هذه السنة نزل قراقوش على بلدز الوت وقاتله الى ان انهزم منه أهله ودخل المدينة ليقضى بها أيام الشتاء فاصبح يوما فاذا حول المدينة عسكر مقداره خمسة آلاف رجل فقام واقعد أصحابه فلم يجد الا جماعة من البوابين والركابدارية وباقى الناس سكارى ورأى أحد البوقية فامره ان يضرب بالبوق وفتح الباب وخرج فظن العسكر ان قراقوش وعسكره قد شعروا بهم فانهزموا قال ثم انه قصد طرابلس فحاصرها وضيق عليها وكان شيخها عبد المجيد ابن مطروح قد راسل قراقوش وطلب منه الامان وسأله ان ينفذ اليه قوما يقرر معهم أمر التسليم فانفذ اليه وزيره وثلاثة من وجوه أصحابه فأخذهم عبد المجيد وأنزلهم فى دار أخلاها لهم وأمر لهم بجميع ما يحتاجون اليه فلما خلا لهم الليل أخذوا المحاد وتصافعوا بها حتى قطعوها وقام بعضهم الى صهريج مملوء ماء للشرب فأحدث فيه فأخبرت الرقباء عبد المجيد بما كان منهم فأحضر وجوه البلد وقص عليهم ما كان منهم وقال اذا كان هؤلاء خيارهم فما ظنكم بشرارهم وكان أهل البلد قد أشاروا على عبد المجيد بتسليم البلد فامتنعوا حينئذ وحضر ابن مطروح من الغد اليهم الى الدار ومعه وجوه البلد فقال لصاحب ضيافته لم أحضرت لهؤلاء السادة محادا مقطعه فقال ما أحضرت لهم الا محادا جددا ولكن القوم أكلوا طعام الصوفية الذى لا نعرفه فى بلادنا فاستحيى القوم وعلموا انهم قد فطنوا بحالهم ونزل رجل الى الصهريج فرأى العذرة على وجه الماء فقال من فعل فلم يرد واحد منهم جوابا فقال ابن مطروح ياقوم ما أدخلناكم الينا الا عازمين على تسليم البلد اليكم وان نكون لكم رعايا وقد شاهدنا منكم افعالا ما نرضاها فان قلتم ان هذا الفعلة من غلماننا وعبيدنا فما أقبح هذه الاحدوثة عن خيار أصحاب هذا الرجل وان كان عنده من هو خير منكم فلم يبعثكم الينا هذا طعن فى عقله ثم أمر باخراجهم فأخرجوا من المدينة فلما صاروا الى قراقوش وعلم القصة عظم عليه الامر وأراد الفتك بهم وعلم انهم قد فتقوا عليه فتقا لا يمكنه رقعه أبدا وتيقن انه لا يملك البلد أبدا وأنفذ عبد المجيد الى قراقوش انك لست بقادر على أخذ هذا البلد لاجل ما نفر به أصحابك قلوب أهله فان رأيت ان تجعل لك جعالة نحملها اليك فى كل سنة وترحل عنا ففعلنا فأجاب الى ذلك ورحل عنهم بعد ان احتوى عليهم قال وتوافت اليه الفرسان من مصر حتى صار فى ثمانمائة فارس من الاتراك وسار من جبل نفوسه الى قابس فى يومين ثم الى قصر الروم وغيره من المواضع والقلاع فوجم ونهب وغنم وغلب وخافه أهل تلك النواحى

(فصل) فى فتح آمد قال العماد ثم سار السلطان الى آمد ونزل عليها يوم الاربعاء سابع عشر ذى الحجة بعد ان استأذن الخليفة فى ذلك فأذن له فنصب السلطان عليها المجانيق وضايقهم وطال حصارهم ثم أخذها فى السنة الآتية كما سيأتى

﴿ثم دخلت سنة تسع وسبعين﴾ قال ابن أبى طى والسلطان منازل لآمد واشتد قتال العامة بها فأمر السلطان بكتب رقاع فيها ابراق وارعاد ووعد ووعيد وان داموا على القتال لنستأصلن شافتهم وان اعتزلوا وسلموا البلد لنحسنن اليهم ولنضعن ما عليهم من الكلف والضرائب وأمر أن تعلق تلك الرقاع على السهام وترمى الى آمد فرمى من ذلك شئ كثير فكفوا عن القتال وأشاروا على ابن تيسان بطلب الامان فأومن على أن يخرج بجميع أمواله دون الذخائر والسلاح وامهل ثلاثة أيام فلما عول على نقل أمواله قعد به أصحابه فأرسل الى السلطان فأنفذ اليه غلمانا ودواب وضربت له خيمة بظاهر آمد وجعل ينقل ما يقدر على نقله من المال والقماش وآلات الذهب والفضة مدة ثلاثة أيام بعالم عظيم كانوا يزيدون على ثلثمائة انسان ولم ينقل عشر ما كان له وسرق من أمواله أكثر مما حصل له لانه ما أخرج أحد شيأ الا وأخذ نصفه أو أكثر وكان ابن تيسان قد حصل فى آمد أشياء كثيرة لا يمكن وصفها من الاسلحة والاموال والغلال والكتب ولما انقضى الاجل أخذ ما حصل وسار قاصدا بلاد الروم وتسلم السلطان مدينة آمد بأموالها وذخائرها ونصبت أعلامه على أسوارها وذلك فى رابع عشر المحرم ووجد فيها من الغلال والسلاح وآلات الحصار من المجانيق واللعب والزوادات أشياء كثيرة لا يمكن أن يوجد فى بلد مثلها ووجد فيها برج من ابراجها فيه مائة ألف شمعة وبرج مملوء بنصول النساب وأشياء يطول شرحها وكان فيها خزانة كتب كان فيها ألف ألف وأربعون ألف كتاب فوهب السلطان الكتب للقاضى الفاضل فانتخب منها حمل سبعين حمارة ويقال ان ابن قرا ارسلان باع من ذخائر آمد وخزائنها مما لا حاجة له به مدة سبع سنين حتى امتلأت الارض من ذخائرها وكان السلطان لما تسلم آمد وهبها لنور الدين محمد ابن قرا ارسلان بما فيها وكتب له بها وبأعمالها توقيعا ووفى له بما وعده به وقيل للسلطان انك وعدته بآمد وما وعدته بما فيها من الاموال والذخائر وفيها من الذخائر ما يساوى ثلاثة آلاف ألف دينار فقال لا أضن عليه بما فيها من الاموال فانه قد صار من اتباعنا وأصحابنا قال وفى فتح آمد يقول سعيد الحلبى من قصيدة فى السلطان

رمى آمدا بالصافنات فأذعنت ❁ له طاعة آكامها ووعورها
فما عز ناديها ولا اعتاص ثغرها ❁ ولا جاش طاميها ولا ردسورها
وأنزلت بالكره ابن تيسان محرجا ❁ كما أنزل الزباء كرها قصيرها
نهضت لها حتى اذا انقاد صعبها ❁ تقضى على طول الشماس نفورها
سمحت بها جودا لمن ظل برهة ❁ يغاورها طورا وطورا يغيرها
وملكت ما ملكت منها تحولا ❁ وكان قليلا فى نداك كثيرها
وان بلادا نجد تك ملوكها ❁ لاجدران يرجوندالك فقيرها

وقال ابن سعدان الحلبى يذكر فتح آمد

فياساكنى الزعناء من سفح آمد ❁ أرى عارضا ينهل بالموت هاطله
لئن غضبت يوما عليكم عروشها ❁ فهذا ابن أيوب وهذى معاقله
ولو رامها يوما سواه لقطعت ❁ أباهره من دونها وأباجله

قلت وقال آخر

لو عرفت آمد من جاءها ❁ يخطب فى الاسلام تسليمها
لصيرت أعلى شراريفها ❁ لمن على الارض سلاليمها

قال العماد وأما آمد فحصل فتحها يوم الاحد فى العشر الاول من المحرم وكان مدبر آمد ابن تيسان فهو رئيسها والقائم بأمرها وكان لآمد أمير قديم يقال له ايكلدى من أيام السلاطين القدما وولده محمود شيخ كبير عنده يطعمه ويسقيه ويدعى انه من غلمانه ومصطنعيه وانه يحفظ البلد له وانه لا يغدر به ولا يؤثر بدله واذا جاء رسول يحضره عند أميره ويسند ما يدبره الى تدبيره ويقول انه غلام ومامعه كلام وحافظ على سرهذه السريره وآمن باحتياطه من جور الجيره بل ما منهم الا من يخاف مكره ويحفظ منه وكره وينكر عرفه ويعرف نكره ولم يزل الحصار عليهم الى أن

أذعنوا للانقياد وخرجت نساؤهم بحرا الى المخيم الفاضلي يطلبن الامان فأمنهم السلطان على انهم يخرجون بعد ثلاث ويحملون ما قدروا عليه من المال والاثاث وأعانهم السلطان على نقل الاموال بالدواب والرجال فلما انقضت مدة الامان تسلمها السلطان وسلمها الى نور الدين بن قرا ارسلان بأعمالها وما فيها وكان السلطان وعده بها قبل ذلك فأنجزله الوعد وقد كان أبوه عاناها مدة وتمناها فما قدر عليها ثم وصف العماد ما كان في قلعة آمد من الذخائر والاموال والحواصل والامتعة وان أصحابها لم يقدروا في تلك الايام الثلاثة الا على تحويل ما خف منها واستغنى المساعدون لهم في تحويلها اليهم وكتب الفاضل عن السلطان الى الديوان ببغداد (ورد الى الخادم التقليد الشريف بولاية آمد فلما رآه مستقرا عنده قال هذا مفتاحها وسمع الوصايا فاستضاء بها في ظلمات القصد وقال هذا مصباحها وتناوله فما ظنه الا كتابا أنزل عليه من السماء في قرطاس وما تيقنه الا نورا يمشي به في الناس فسار به ولولا العادة لما استصحب جندا ولا عول عليه ولولا الرتبة لما تقلد هندوانا وطرق بابه باقليده ولولاه ما استطاع للاولياء أن يظهروه وما استطاع والله نقبا وناشد المقيم بتعليده ثلاثة أيام بثلاث رسائل فلو كان ذا سمع أصغى ولو كان ذا لب لبى فلما انقضت ضيافة أيام النذاره واحتقرمن بآمد دار الحرب جاهلان وقودها الناس الحجاره عمدها في اليوم الرابع فزلزل عمدها وقاتلها فأزال جلدها وزيل جلدها ثم رأى ان الشوكة ربما أصابت غير ذات الشوكة من جندها وان المسلم قد لمن عذاب الحريق ولا يأمن أن تحرقه القسي من السهام بشرار زندها فعدل الى منجنيقه الذي أمل صاحبها منه منجا نيقه ورأى ان سوط سطوته يضرب الحجر ويضرب عن أن يباشر البشر وتلك الابرجة قد شمخت بأنفها ونأت بعطفها وتأهت على وامقها وغضت عين رامقها فهي في عقاب لوح الجو كالطائر الا أن المنجنيق أغرى بها عقابيه وضغمها مخلبيه وخصم امامها يخاصمها وقام الى الغير يحاكمها ويضرب بعصاه الحجر فتنبجس من النقوب أعين لا ترسل الماء ولكن تروى العطاش الى منهل المدينة وتنهل الطمأى كذلك أياما حتى محى من الشرفات شنب ثغرها وتناوبها كأس فتك تبسين بهزابراجها آثار سكرها وعلت الايدي الرامية لها وغلت الايدي المحامية عنها فلم يبق على سورها من يفتح جفنا وشن المجنيق عليها غارته الى أن صارت شنا وفضت صناديق الحجارة المقفله وفصلت منها اعضاء السور المتصله ووجب القتال لئلا يظن بالخادم ان لا جند له الا جنده فأوعزنا التقدم اليها ودخول النقابين فيها فانخنت جراحا بالنقوب وهتك الحجاب من أضالع البلد فكاد يتصل الى ما وراءها من القلوب وخشيت معرة الجيش في وقت هجمه ووسل صاحبها بأنه كشف له الخذلان حتى نصر على شكه بعلمه فاعاد الرسول مستنكها تحجب النحاد بارسال دوات الحجاب وابرازهن رمستكا باليد العمل بمن لم يكن جوابه غير احرازه واحرازهن ولم يعارض في نفسه ولا في قومه ولا في أمراله وهي ما هي ذخائر موفره ومكاسب من أرباح مخسره كانت الحقوق عنها مذوده والامال دونها مطروده وغض الخادم كل عين عن عينه وورقه وصانه في مخيمه من الفقر صيانته في ذات سوره وخندقه واستوفى شرط الوفاء بما أعطاه من موثقه وهذه آمد فهي مدينة ذكرها بين العالم متعالم وطالما صادم جانبها من تقادم فرجع مجذوعا أنفه وان كان خفلا وقرعها فريدا لهمة واستصحب جفلا ورأى حجرها فعذر انه لا يفك له حجر وسوادها فحسب انه لا ينسخه مجر وحمية أنف أنفها فاعتقد انه لا يستجيب لزجر من ملوك كلهم طوى صدره على الغليل الى موردها ووقف بها ووقوف المحب المسائل فلم يفز بما أمل من جواب معهدها) ثم ذكر تسليمها الى ابن قرا ارسلان ثم قال (ولما رأى صاحب ميافارقين ان اخت صاحبته قد ابتنى بها خاف ان تجمع له بين الاختين فراسل ببذل الخدمة التي يكون فيها لنور الدين ثاني اثنين) ثم ذكر اجتماع المواصلة وشاه أرمن وصاحب ماردين وصاحب أرزن وبدليس وغيرهم على قصد الخادم ونزلوا تحت الجبل فلما صبح عندهم قصده ظنوا انه واقع بهم فأخذوا عنه الفرار بقوة ودكروا ما في لقائه من عوائد كانت عندهم مخوفة وعنده مرجوة وسار كل فريق على طريق بنية عدو وفعل صديق والخادم يقول مهما أرادت فيه الاراء الشريفة أتاه ومهما نوت فيه من احسان قرب عليه ما نواه فهذه آمد لما أرسل اليه مفتاحها وهو التقليد فتحها وهذه الموصل لما تأخر عنه المفتاح منعها وما منحها ولو أعين به لعظمت على الاسلام عائدته وظهرت في رفع مناره فائدته لان اليد كانت تكون به على عدو الحق واحده والهمة لآلات النصر واجده فان رأى أمير المؤمنين ان يميز بين أوليائه وينظر أيهم أبر بأوليائه وأشد على أعدائه وأقوم بحقه وحق

ائه

آبائه وأيهم أترك للفراش الممهد واهتك للطريق الممدد واهجر فى سبيل الله لراحه واصبر فى جهاد عدو الله على مضض جراحه واسلى عن ريحانة فؤاد وأكثر ممارسة لحية واد فيختار لهذه الامة التى جعله الله لها اماما وأماما أسعد من اجرى فى طاعته ضامرا وملأ بولايته ضميرا فمن عدله أن يولى عليها العدل الذى يقر عينها ومن فضله ان لا ينسى الفضل بينها وقد ورد ذلك المنشور بآمد فاورد الميسور فان ورد المنشور المشار اليه بالجزيرة وماوسعت فانه نور على نور وما يحسب الخادم ان كيدا للعدو الكافر أكيد ولا جهدا لاهل الضلال اجهد ولا عائدة بغيظ رئساء أهل الالحاد أعود من تفخيم أمر الخادم بمزيد الاستخدام والافلينظر هل يشق على الكفار مزيد أحد سواه من ولاة الاسلام فكل ذى سلطان هو الطاعم الكاسى المحمى بالماضل لا الحامى المكفى لا الكافى يقضى عمره وهو لا يشهد الطعن الا فى الميدان ولا يمل الهام طائرا لولا الكرة فى الصولجان ولا يشقى بسهمه الا قرطاسه ولا يحظى برفده الا أكياسه فأعاد الله بأمير المؤمنين هذا الدين الى معالم حقه الاولى وأطال يد سلطانه الطولى الى ان تأخذ الامور مأخذها عدلا واعتدالا وسلما وقتالا فيعود الى الاسلام عوايد ارتياحه وأيام منصوره وسفاحه) ومن كتاب آخر فاضلى عن السلطان الى وزير بغداد (أصدر هذه الوسيلة الى المجلس السامى معولا على كرمه فيما حملته من اللبانه مستغنيا بشهرة الحال المتجددة عن الابانه فان آمد قصر الامد فى الظفر بها وانقاذها من المظالم التى كانت تلبس نهارها بقبة غيهبها وسار اليها بقية العساكر بعد الذين ساروا الى الشام وأقاموا قبالة الكفار بعدة اقتصر عليها أكثرها من عساكر الديار المصرية على بعد تلك الديار ليظهر لمن نوى المناواه ويتبين لمن كان على منافاة الملاقاه ان رجالا من مصر فتحوا آمد بعد سنة من البيكار وبعد غزوتين قد طولع بهما فى توار يخهما الى الكفار ففى ذلك ما يغص الحاسد ويغض الحاقد ويعلم ان فى أولياء الدولة مارد كل مارد فلما حل بعقوتها أراد ان يجرى الامر على صوابه ويلج الامر من بابه وان ينذر المغتر ويوقظه ويعظه بالقول الذى رأى من الرفق ان لا يغلظه فبعث اليه ان يهب من كراه ويعد لضيف التقليد قراه وينجو بنفسه منجأ الذئاب ولا يتعرض بان يكون منتجأ للذباب فاذا عريكته لا تلين الا بالعراك وطريدته لا تصاد الا بالاشراك فهنالك رأى عاجلا ما هنالك وقوتل حق القتال فى يوم واحد عرف ما بعده من الايام ووقع الاشفاق من روعة الحريم وسفك الحرام ونصب المنجنيقات فأرسل عارضها مطره وفطر السور بقدره الذى فطره وخطب امامها خطيب خطبه وأغمد الصارم اكتفايضر به وترفه أهل الحرب لحسن المناب منه عن حزبه فصار فى أقرب الاوقات جبلها كثيبا مهيلا وعفرت الابرجة وجهاتر ا ونظرت القلعة نظرا كليلا حتى اذا أمكنت النقوب ان تؤخذ وكبد السوران تفلذ رأى الذى لا يصبر على بعضه واعتذر اليه البناء الذى بناه ان لم يقضه فلا بد من نقضه وسأل فأجيب الى الامان على نفسه وخرج منها وانما أخرجه الظلم وسلم وهو يرى السلامة اما من الحلم واما من الحكم) ثم قال (ولولا تقليد أمير المؤمنين لما فتح له الباب الذى قرعه ولا أنزل عليه النصر الذى أنزل معه ولا ساعد سيفا ساعد ولا نالت يد مدت من مصر فأخذت آمد ومن بآمد ولو قبلت مسألته فى تقليد الموصل لكان قد وجها ولو بدجلة أدلجها وأخذها ولو بحصاة نبذها وهو يتوقع فى جواب هذا الفتح ان يمد بجيش هو الكلام ورماح هى الاقلام ونصر هو وافد الامر وترشيد هو فك الحجر وليس ذلك لوسائل من دولة أقامها بعد ميل عروشها ولا لداعوة قام فيها بما تصاغرت دونه جيوشها ولكن لان هذه الجزيرة الصغيره منها تنبعث الجزيرة الكبيره وهى دار الفرقه ومدار الشقه ولو انتظمت فى السلك لانتظم جميع عسكر الاسلام فى دار الشرك ولكان الكفر يلقى بيديه وينقلب على عقبيه ويغشاد الاسلام من خلفه ومن بين يديه ويغزى من مصر برا وبحرا ومن الشام سرا وجهرا ومن الجزيرة مدا وجزرا ويكون خادمه قد وجب ان يمثل بقوله تعالى ولقد منناعليك مرة أخرى) ومن كتاب آخر (كتبنا هذا والمدينة قد فتحت أبوابها وعذقت بدولتنا أسبابها وتكلم لسان علمنا فى فم قلعتها وبعد ان لبست هادولتنا وفينا بموعد خلعتها فالحمد لله الذى تتم النعم بحمده ويفتح الامل بقصده ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده) قال العماد ثم دخل السلطان مدينة آمد وجلس فى دار الامارة وحلف نور الدين بن قرا ارسلان على انه يظهر بها العدل ويقمع الجور ويكون سامعا مطيعا للسلطان من معاداة الاعداء ومصافاة الخلان فى كل وقت وزمان وانه متى استمد من آمد لقتال الفرنج وجده لذلك يقظان

واليه عطشان قال وكان هذا نور الدين فى خدمة السلطان بنفسه وعسكره منذ عبر الفرات ثم ان رسل ملوك الاطراف اجتمعت عند السلطان كل يطلب لصاحبه الامان وان يتخذه من جملة الاعوان منهم صاحب ماردين وصاحب ميافارقين وهما قريبا ابن قرى أرسلان فرد السلطان كل رسول بسوله وأجاب اقباله بقبوله ثم رحل السلطان من آمد وعبر الفرات لقصد حلب وولايتها فتسلم فى طريقه تل خالد بالرعب ولم تكن منهم بالقرب فأقر أهلها فيها ثم نزل على عين تاب فبادر صاحبها ناصح الدين محمد بن خمارتكين الى خدمة السلطان فأعاده الى مكانه بالاحسان وقال ابن أبى طى تسلم السلطان تل خالد فى رابع عشر المحرم وسلمها الى بدر الدين دلدرم ومن كتاب فاضلى (نزلنا تل خالد يوم الثلاثا ثانى عشر المحرم وكان قد تقدمنا الاجل تاج الملوك اليها وأناخ عليها وقابلها وقاتلها وعالجها ولو شاء لعاجلها ولما أظلت عليها رايتنا ألقى من فيها بيده وانجز النصر صادق موعده وأرسلتها حلب مقدمة لفتحها وقد أنعم الله علينا بنعم لا نحصيها تعدادا ولا نستقصيها اعتدادا ولا نستوعيها ولو كان النهار طرسا والبحر مدادا ورايتنا المنصورة قد صارت مغنا طيس البلاد تجذبها بطبعها وسيوفنا قد صارت مفاتيح الامصار تفتحها بنصر الله لا بحدها ولا بقصبها قلت وما أحسن ما قال البلغوى من قصيدة له فى السلطان

قل للملوك انحوا عن ممالككم ❊ فقد أتى آخذ الدنيا ومعطيها

(فصل) فى فتح حلب قال القاضى ابن شداد لما عاد السلطان بدأ بتل خالد فنزل عليها وقاتلها وأخذها فى ثانى عشر المحرم سنة تسع وسبعين ثم سار الى حلب فنزل عليها فى سادس عشرى المحرم وكان أول نزوله بالميدان الاخضر وسير المقاتلة يقاتلون ويباسطون عسكر حلب بباقوسا وباب الجنان غدوة وعشيه وفى يوم نزوله جرح أخوه تاج الملوك وكان عماد الدين زنكى قبل ذلك قد خرج وخرب قلعة عزاز فى تاسع جمادى الاولى سنة ثمان وسبعين وخرب حصن كفرلاثا وأخذها من بكمش فانه كان قد صار مع السلطان وقاتل تل باشر فلم يقدر عليها وجرت غارات من الفرنج فى البلاد بحكم اختلاف العساكر قال ولما نزل السلطان على حلب استدعى العساكر من الجوانب فاجتمع خلق كثير وقاتلها قتالا شديدا وتحقق عماد الدين زنكى انه ليس له به قبل وكان قد ضرس من افتراح الامراء عليه وجبههم اياه فأشار الى حسام الدين طمان ان يسفر له مع السلطان فى اعادة بلاده وتسليم حلب اليه واستقرت القاعدة ولم يشعر أحد من الرعية ولا من العسكر حتى تم الامر ثم أعلمهم وأذن لهم فى تدبير أنفسهم فأنفذوا عنه عز الدين جرديك وزين الدين يلك فبقوا عنده الى الليل واستخلفوه على العسكر وعلى أهل البلد وذلك فى سابع عشر صفر وخرجت العساكر الى خدمته الى الميدان الاخضر ومقدموا حلب وخلع عليهم وطيب قلوبهم وأقام عماد الدين بالقلعة يقضى اشغاله وينقل أفشته وخزائنه الى يوم الخميس ثالث عشرى صفر وفيه توفى تاج الملوك أخو السلطان من الجرح الذى كان أصابه وشق عليه أمر موته وجلس للعزاء قلت وكان أصغر أولاد أيوب ذكر ابن القادسى ان مولده سنة ست وخمسين فى ذى الحجة فيكون عمره اثنتين وعشرين سنة وشيئا وأنشد له شعرا وقال العماد الكاتب فى كتاب الخريدة انه لم يبلغ العشرين سنة وله نظم لطيف وفهم شريف ثم قال القاضى أبو المحاسن وفى ذلك اليوم نزل عماد الدين الى خدمته وعزاه وسار معه بالميدان الاخضر وتقررت بينهما قواعد وانزله عنده بالخيمة وقدم له تقدمة سنية وخيلا جميلة وخلع على جماعة من أصحابه وسار عماد الدين من يومه الى قراحصار سائرا الى سنجار وأقام السلطان بالمخيم بعد مسير عماد الدين غير مكترث بأمر حلب ولا مستعظم لشأنها الى يوم الاثنين سابع عشرى صفر ثم صعد فى ذلك اليوم قلعة حلب مسرورا منصورا وعمل له حسام الدين طمان دعوة سنيه وكان قد تخلف لاخذها تخلف لعماد الدين من قماش وغيره وقال العماد وصل السلطان الى حلب وفيها عماد الدين زنكى بن مودود الذى كان صاحب سنجار وقد تحصن بكثرة الاجناد والعدد وأراد مقابلة السلطان ومقاتلته وأراد السلطان ان يظفر بها بدون ذلك من القتال وعداوة الرجال لكن الشباب وجهال الاصحاب راموا القتال وأحبوا النزال وتقدموا وأقدموا والسلطان ينهاهم فلا ينتهون وكان فيهم تاج الملوك بورى أخو السلطان فطعن فى نخذه ثم مات بعد ذلك بأيام بعد فتح البلد وكان السلطان ذلك اليوم قد صنع وليمة لعماد الدين زنكى وكان السلطان أول ما نزل على حلب نزل فى صدر الميدان الاخضر وذلك فى زمن الربيع الانضر ثم رحل ونزل على جبل جوشن ونهى عن القتال وقال نحن ها هنا

نستغل البلاد وما علينا من الحصن الذى بلغ منه هذا العناد وانفذ رسل الترهيب اليهم ففكر عماد الدين زنكى فى أمره ورأى ان الصواب مصالحة السلطان فانفذ سرا اليه حسام الدين طمان وصالحه وحلفه على أن يسلم اليه حلب ويرد عليه بلده سنجار ففعل وزاده الخابور ونصيبين والرقة وسروج واشترط عليه ارسال العسكر فى الخدمة للغزاة ومن كتب فاضليه (تسلمنا مدينة حلب وقلعتها بسلم وضعت بها الحرب أوزارها وبلغت بها الهمم أوطارها وعوض صاحبها بما لم يخرج عن اليد لانه مشترط عليه به الخدمة بنفسه وعسكره ومختلط بالجملة فهو أحد الاولياء فى مغيبه ومحضره وعوض عماد الدين عنها من بلاد الجزيرة سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج فهو صرف بالحقيقة اخذنا فيه الدينار وأعطينا الدراهم ونزلنا عن المنيحات وأحرزنا العواصم وسرنا انها انجلت والكافر المحارب والمسلم هو المسالم واشترطنا على عماد الدين الخدمة والمظاهره والحضور فى مواقف الغزو والمصابره فانتظم الشمل الذى كان نثيرا وأصبح المؤمن بأخيه كثيرا وزال الشغب وأخمد اللهب واتصل السبب وأخذت للغزاة الاهب ووصلت الى غاية همة الطلب والالفة واقعه والمصلحة جامعه واشعة أنوار الاتفاق شائعه) ومنها (فتحنا مدينة حلب بسلم ما كشفت بحرمتها قناعا وتسلمنا قلعتها التى ضمنت أن تتسلم بعدها بمشيئة الله قلاعا وعوض صاحبها من بلاد الجزيره ما اشترط عليه به الخدمة فى الجهاد بالعدة الموفوره فهى بيدنا بالحقيقة لان مرادنا من البلاد رجالها لا أموالها وشوكتها لا زهرتها ومناظرتها للعدو لا نضرتها وان يعظم فى العدو الكافر نكايتها لا ان تعذق بالولى المسلم ولايتها والاوامر بحلب نافذه والرايات بأطراف قلعتها آخذه وجاء أهل المدينة يستبشرون وقد بلغوا ما كانوا يؤملون وامنوا ما كانوا يحذرون وعوض صاحبها بلادا من الجزيرة على أن تكون العساكر مجتمعة على الاعداء مرصدة للاستدعاء فالبلاد بأيدينا انما غنمها ولغيرنا مغرمها وفى خدمتنا ما الانسمح به وهو عسكرنا وفى يده ما الانضن به وهو درهمنا شرطنا على عماد الدين النجدة فى أوقاتها والمظاهرة على العداة عند ملاقاتها فلم يخرج منا بلدا الا الينا عاد عسكره وانما استنبنا فيه من يحمل عنا مؤنته ويدبره وتكون عساكره الى عساكرنا مضافه وتمتثل قوله سبحانه وتعالى (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافه) ومنها (نستعير الامير بما منّ الله به من فتح مدينة حلب التى هى مفتاح البلاد وتسلم قلعتها التى هى أحد مارست به الارض من الاوتاد فلله الحمد واين يقع الحمد من هذه المنه ونسأل الله الغاية المطلوبة بعد هذه الغاية وهى الجنه وصدرت هذه البشرى والموارد قد أمضت الى مصادرها والاحكام فى مدينة حلب نافذة فى باديها وحاضرها وقلعتها قد أزاف لواؤنا على أنفها وقبضت على عقبه بكفها واعتذرت من لقائه أمس برشقها ورأينا آن نتشاغل بما يورك لنا فيه من الجهاد وان نوسع المجال فيما نضيق به تقلب الذين كفروا فى البلاد) قلت ولابى الحسن بن الساعاتى فى مدح السلطان عند ارادة فتح حلب قصيدة منها

ما بعد لقياك للعافين من أمل ❁ ملك الملوك وهذى دولة الدول
فانهض الى حلب فى كل سابغة ❁ سروجها قلل تغنى عن القلل
ما فتحها غير اقليد الممالك والـ ـداعى اليه جميع الخلق والملل
وما عصت منعة لكنه غضب ❁ علام أهملتها اهمال مبتذل
غارت وحقك من جاراتها فشكت ❁ ما باله فيصاصى غير محتفل

وللقاضى السعيد بن سناء الملك من قصيدة

بدولة الترك عزت دولة العرب ❁ وبابن أيوب ذلت بيعة الصلب
ان العواصم كانت أى عاصمة ❁ لنفسها بتعالـ ـيها عن الرتب
جليسة النجم فى أعلى مراتبه ❁ وطالما غاب عنها وهى لم تغب
ومانعته كمعشوق تمنعه ❁ أحلى من الشهد أو أشهى من الضرب
فرعنها بلا غيظ ولا حنق ❁ وسار عنها بلا حقد ولا غضب
تطوى البلاد وأهليها كاتبه ❁ طيا كما طوت الكتاب للكتب
أرض الجزيرة لم تظفر بمالكها ❁ بمالك فطن أو سائس درب

ممالك لم يدبرها مدبرها ❁ الا برأى خصى أو بعقل صبى
حتى أتاها صلاح الدين فانصلحت ❁ من الفساد كما صحت من الوصب
وقد حواها وأعطى بعضها هبة ❁ فهو الذى يهب الدنيا ولم يهب
ومذ رأت صدّه عن ربعها حلب ❁ ووصله لبلاد الغير بالحلب
غارت عليه ومدت كف مفتقر ❁ منها اليه وأبدت وجه مكتئب
واستعطفته فوافتها عواطفه ❁ وأكثب الصلح اذ نادته عن كثب
وحل منها بأفق غير منخفض ❁ للصاعدين وبرج غير منقلب
فتح الفتوح بلا مين وصاحبه ❁ ملك الملوك ومولاها بلا كذب

وقال ابن أبى طى وكان كثير من الشعراء يحرضون السلطان على فتح حلب منهم أبو الفضل بن حميد الحلبى له من قصيدة

يا ابن أيوب لا برحت مدى الدهر رفيع المكان والسلطان
حلب الشام نحو مرآك ولهى ❁ وله الصب ربع بالهجران

وقال ابن سعدان الحلبى من قصيدة

دونك والحسناء أم القرى ❁ ونارها الاشهب والطود الاشم
واركب الى العلياء كل صعبة ❁ أبيت لعنا وخلاك كل ذم
وارم فكل الصيد فى جوف العرى ❁ لا صارم السهم ولا نابى الحكم
مد الى أخت السماء زورة ❁ لا فرق يعقبها ولا ندم
فيا لها شماء مشمخرة ❁ تطارح البرق وساحات الديم
ايه صلاح الدين شد ازرها ❁ واعزم عليها فالزمان قد عزم
ودونك المنعة من قبابها ❁ وبابها المغلق فى وجه الامم

قال وفى آخر يوم السبت ثامن عشر صفر نشر سحق السلطان الاصفر على سور قلعة حلب وضربت له البشائر وفى ذلك الوقت تخفى عماد الدين وخرج من القلعة ليلا الى المخيم وأخذ فى اخراج ما كان له بالقلعة من مال وسلاح وأثاث وكان استنابه الامير حسام الدين طمان فى القلعة حتى توافى رسله بتسليم سنجار ونصيبين والخابور الى نوابه وأعطى السلطان طمان الرقة لوساطته فى أمر عماد الدين وكان السلطان شرط انه ما يريد من حلب الا الحجر فقط وأذن لعماد الدين فى أخذ جميع ما فى القلعة وما يمكنه حمله فلم يترك عماد الدين فيها شيأ وباع فى السوق كل ما لم يتمكن من حمله وأطلق له السلطان بغالا وجمالا وخيلا برسم حمل ما يحتاج الى حمله وعمل له يوم الاحد تاسع عشر صفر دعوة عظيمة فى الميدان الاخضر وأحضرها جميع الامراء ومقدمى حلب قال وبينما السلطان على لذته بالدعوة والاخذ والاعطا والانعام والحبا اذ حضر اليه من عرفه وفاة أخيه ناج الملوك بسبب الضربة التى أصابته على حلب فلم يتغير لذلك ولا اضطرب ولا انقطع عما كان عليه من البشاشة والفرح وبذل الاحسان وأمر بستر ذلك وتوعد عليه ان ظهر وكظم حزنه وأخفى رزيته وصبر على مصيبته ولم يزل على طلاقته وبشاشته الى وقت العصر وفى ذلك الوقت انقضت الدعوة وتفرق الناس فحينئذ قام رحمه الله واسترجع وبكى على أخيه ثم أمر به فغسل وكفن وصلى عليه وأمر به فدفن بمقاء ابراهيم صلى الله عليه وسلم بظاهر حلب ثم حمله بعد ذلك الى دمشق ودفنه بها قال وكان تاج الملوك شابا حسن الشباب مليح الاعطاف عذب العبارة حلو الفكاهة مليح الرمى بالقوس والطعن بالرمح وكان شجاعا باسلا مقداما على الاهوال وكان قد جمع الى ذلك الكرم واليمن فى الادب وله ديوان شعر حسن متوسط فمنه

يا هذه وأمانى النفس قربكم ❁ يا ليتها بلغت منكم أمانيها
ان كانت العين مذ فارقتكم نظرت ❁ الى سواكم فخانتها أماقيها

قال ولما انقضت تعزية السلطان بأخيه خلع على الناس فى اليوم الرابع وفرق فى وجوه الحلبيين الاموال وفى

سادس عشرى صفر ورد أصحاب عماد الدين وأحضروا اليه العلائم بتسليم سنجار ونصيبين والخابور ففى ذلك اليوم تسلم قلعة حلب وانزل منها الاميرطمان وأصحابه ولما سلمها الى نواب السلطان ركب عماد الدين فى وجوه أصحابه وأمرائه وخرج الى خدمه السلطان ظاهرا وركب السلطان الى لقائه فاجتمعا عند مشهد الدعاء الذى بظاهر حلب من جهة الشمال فتساما ولم يترجل أحد منهما لصاحبه ثم جاء بعد عماد الدين ولده قطب الدين فترجل للسلطان وترجل السلطان له واعتنقه وعاد افركبا وسارهو وأبوه فى خدمة السلطان الى المخيم بالميدان الاخضر فأجلس السلطان عماد الدين معه على طراحته وقدم له تقدمة حسنة عشرين بقجة صفر فيها مائة ثوب من العتابى والاطلس والمعتق والممرس وغير ذلك وعشرة جلود قندس وخمس خلع خاص برسمه ورسم ولده ومائة قباء ومائة كمه وحجرتين عربيتين باداتهما وبغلتين مسروجتين وعشرة اكاديش وخمس قطر بغال وثلاث قطر جمال عربيات وقطار بخت ولما فرغ السلطان من عرض الهدية قدم الطعام فلما أصاب منه عماد الدين نهض للركوب وخرج السلطان معه وركب لوداعه وسار معه الى قريب من بابلى وودّعه وعاد وسار عماد الدين الى بلاده قال وفى يوم الاثنين سابع عشرى صفر ركب السلطان وصعد الى قلعة حلب وكان صعوده اليها من باب الجبل وسمع وهو صاعد الى قلعة حلب يقرأ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء الآية وقال والله ما سررت بفتح مدينة كسرورى بفتح هذه المدينة والآن قد تبينت انى أملك البلاد وعلمت ان ملكى قد استقرّ وثبت وقال صعدت يوما مع نور الدين رحمه الله تعالى الى هذه القلعة فسمعته يقرأ قل اللهم مالك الملك الآية قال ولما بلغ السلطان الى باب عماد الدين قرأ أورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطؤوها ثم صار الى المقام فصلى ركعتين ثم سجد فأطال السجود ثم خرج ودار فى جميع القلعة ثم عاد الى المخيم وأطلق المكوس والضرائب وسامح بأموال عظيمة وجلس للهناء بفتح حلب وأنشده جماعة من الشعراء منهم يوسف البراعى له من قصيدة

شرفت بسامى مجدك الشهباء * وتجللتها بهجة وضياء
ألفت اليك قيادها وبها على * كل الملوك ترفع واباء

ومنهم سعيد بن محمد الحريرى له من قصيدة وتقدم بعضها

وصبحت شهباء العواصم مصلتا * قواضب عزم لا يفل شهيرها
فاطيت منها غاربا فيك راغبا * وعاد يسيرا فى يديك عسيرها
وأوطأت منها الخصيك تنوفة * يعز على الشعرى العبور عبورها
وردّ اليها روح عدلك روحها * وكانت رميما لا يرجى نشورها

قال وقال والدى أبو طى النجار من قصيدة

حلب شامة الشام وقد زيد * ت جلالا بيوسف وجمالا
هى اس الفخار من نال أعلا * ها تعالى فخامة وتغالا
ومحل العلاء من حل فيها * تاه كبرا وعزة وجلالا
من حواها ملكا ملك الار * ض اقتسارا سهولة وجبالا
فافترعها مهناء بحل * سمك الانجم الوضاء وطالا

قال وحدّثنى جماعة من الحلبيين منهم الركن بن جهبل العدل قال كان الفقيه مجد الدين بن جهبل الشافعى الحلبى قد وقع اليه تفسير القرآن لابى الحكم المغربى فوجد فيه عند قوله تعالى الم غلبت الروم الآية ان أبا الحكم قال ان الروم يغلبون فى رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ويفتح البيت المقدّس ويصير دار الاسلام الى آخر الابد واستدل على ذلك بأشياء ذكرها فى كتابه فلما فتح السلطان حلب كتب اليه المجد بن جهبل ورقة يبشره بفتح البيت المقدس على يديه ويعين فيه الزمان الذى يفتحه فيه واعطى الورقة للفقيه عيسى فلما وقف الفقيه عيسى عليها لم يجاسر على عرضها على السلطان وحدّث بما فى الورقة لمحيى الدين بن زكى الدين القاضى الدمشقى وكان

ابن زكى الدين واثقا بعقل ابن جهبل وانه لا يقدم على هذا القول حتى يحققه ويثق به فعمل قصيدة مدح السلطان بها حين فتح حلب فى صفر وقال فيها

وفتحكم حلبا بالسيف فى صفر ❊ قضى لكم بافتتاح القدس فى رجب

ولما سمع السلطان ذلك تعجب من مقالته ثم حين فتح البيت المقدس خرج اليه المجد بن جهبل مهنئا له بفتحه وحدثه حديث الورقة فتعجب السلطان من قوله وقال قد سبق الى ذلك محيى الدين بن زكى الدين غير انى أجعل لك حظا لا يزاحمك فيه أحد ثم جمع له من فى العسكر من الفقهاء وأهل الدين ثم أدخله الى القدس بعد ما خرج الفرنج منه وأمره ان يذكر درسا من الفقه على الصخرة فدخل وذكر درسا هنالك رحظى بما لم يحظ به غيره تلت وسيأتى فى فتح بيت المقدس فى فصل المنبر ذكر ما قاله أبو الحكم فى تفسيره وغيره مما يناسبه وبالله التوفيق وقال العماد ثم فتح حلب فى صفر من هذه السنة ومدح القاضى محيى الدين بن الزكى السلطان بأبيات منها

وفتحكم حلبا بالسيف فى صفر ❊ مبشر بفتوح القدس فى رجب

فوافق فتح القدس كما ذكره فكأنه من الغيب ابتكره قال ويشبه هذا انى فى سنة اثنتين وسبعين طلبت من السلطان جارية من سبى الاسطول المنصور فى أبيات وهى

يؤمل الملوك مملوكة ❊ تبدل الوحشة بالانس
تخرجه من ليل وسواسه ❊ بطلعة تشرق كالشمس
فوحده العزبة قد حركت ❊ سواكن البلبال والمس
فلا تدع يهدم شيطانه ❊ ما أحكم التقوى من الاس
فوقع اليوم بمطلوبه ❊ مما سبى الاسطول بالامس
لازلت وهابا لما حازه ❊ سيفك من حور ومن لعس
وانى امل من بعدها ❊ كرائم السبى من القدس

فال فجاء الامر على وفق الامل فوهب لى ما أملت تمام القدس

﴿فصل﴾ فيما جرى بعد فتح حلب قال ابن أبى طى كاتب الوالى بحارم الفرنج واستدعاهم اليه مطمعا لهم فى الاستيلاء على حارم بشرط ان يعصموه من الملك الناصر وعلم الاجناد بقلعة حارم مما عزم عليه فتؤامروا بينهم فى القبض عليه وكان هذا الوالى ينزل من القلعة ويصعد اليها فى أموره ولداته فاتفق انه نزل منها لبعض شأنه فوثب أهل القلعة لما خرج وأغلقوا بابها ونادوا بشعار السلطان وكان السلطان راسل والى حارم وبذل له فى تسليم حارم اليه فى أشياء كثيرة منها ولاية بصرى وضيعة فى دمشق يملكها اياها ودار العقيقى التى كان نجم الدين أيوب والد السلطان يسكنها وحمام العقيقى بدمشق وثلاثون ألف دينار عينا ولاخيه عشرة آلاف دينار فاشتط فى السوم وتغالى فى العوض فأنفذ اليه السلطان وتوعده وتهدده فكاتب الفرنج يطلب نجدتهم وقيل ان نقيب القلعة أراد ان تنفق سوقه عند السلطان ويتحصل منه شيأ فكاتب السلطان بالعمل على الوالى فكتب اليه السلطان بتتميم ذلك ووعده بأشياء سكن اليها وجرى الامر على ما ذكرناه من اغلاق الباب فى وجه الوالى وقيل ان النقيب وأهل القلعة لما أغلقوا الباب فى وجهه شنعوا عليه بمكاتبة الفرنج ولم يكن فعل ذلك اقامة لعذرهم وتذفوذ بالحجارة ونادوا بشعار السلطان ولما اتصل بالسلطان هذه الاحوال أنفذ تقى الدين الى حارم ليتسلمها فامتنع النقيب وأهل القلعة من تسليمها اليه فرحل السلطان اليها بنفسه جريدة فلما أشرف عليها نزل اليه النقيب ووجوه القلعيين وسلموها اليه فى تاسع عشر صفر ولما حضروا عند السلطان حدثوه بكيفية الحال وكان بدر الدين حسن ابن الداية حاضرا فقال للسلطان يا مولانا لا تلتفت الى هؤلاء فانهم آذوا هذا الوالى وكذبوا عليه حتى فوتوه ما كان السلطان وعده به وما قلت هذا الا عن تجربة فانى لما كنت متوليا لهذه القلعة جرى على من كذبهم فى حقى وتحرضهم على أمور كدت بها أهلك مع نور الدين وهم كانوا سبب خروجى من هذه القلعة وانا أرى ان السلطان يقرهم فى القلعة على هذه التجربة فضحك السلطان وأمر لهم بما كان وعدهم به وأفضل عليهم وولى فى القلعة غيرهم وقال لابن الداية

ان بين أيدينا أمكنة نريد أخذها ومتى لم نف بما نعد ونحزل العطاء لم يثق بنا أحد وبات السلطان بقلعة حارم ليلتين وعاد الى حلب فى ثالث ربيع الاوّل فرتبها وقرر ولده الظاهر سلطانا بها وقرر له فى كل شهر أربعة آلاف درهم وعشرين كمه وقباء وما يحتاج اليه من الطعام وغيره وجعل معه والياسيف الدين أزكش الاسدى وولى حسام الدين بيرك الحليفتى شحنة حلب وولى الديوان ناصح الدين اسماعيل بن العميد الدمشقى ودار الضرب فضرب الدرهم الناصرى الذى سكته خاتم سليمان ونقل الخطابة من بنى العديم الى أبى البركات بن الخطيب هاشم بسفارة القاضى الفاضل وولى القضاء لمحيى الدين ابن زكى الدين الدمشقى فاستناب فيه ابن عمته أبا البيان نبأ بن البانياسى وولى الجامع والوقوف لابى على بن العجمى وقال العماد كان فى قلعة حارم مملوك من مماليك نور الدين فعصى وتأبى عن تسليمها فأخرجه منها أهلها لما أتهموه بمكاتبة الفرنج وأرسلوا الى السلطان فتسلمها ودبر أمرها وأحكمها وقال ابن شداد انفذ الى حارم من يتسلمها ودافعهم الوالى فأنفذ الاجناد الذين بها يستحلفونه فوصل خبرهم اليه يوم الثلاثاء من عشرى صفر فخلف لهم وسار من وقته الى حارم فوصلها تاسع عشرى صفر فتسلمها وبات بها ليلتين وقرر قواعدها وولى فيها ابراهيم بن شروه وعاد الى حلب فدخلها ثالث ربيع الاوّل ثم أعطى العساكر دستورا فسار كل منهم الى بلده وأقام يقرر قواعد حلب ويدبر أمورها قال العماد ورجفت انطاكية بعد ذلك رعبا فأرسل صاحبها جماعة من أسارى المسلمين وانقاد وسارع الى أمان السلطان وولى السلطان القضاء بحلب محيى الدين بن الزكى فاستناب فيها زين الدين نبأ بن الفضل بن سليمان المعروف بابن البانياسى وكشف السلطان عن حلب المظالم وأزال المكوس وولى قلعتها سيف الدين يازكوج وولى الديوان ناصح الدين اسماعيل بن العميد وجعل حلب باسم ولده الملك الظاهر غازى وكان استصحبه من مصر عند وصوله الى الشام وأقر عين تاب على صاحبها وأعطى تل خالد وتل باشر بدر الدين دلدرم بن بهاء الدولة بن ياروق وأعطى قلعة عزاز علم الدين سليمان بن جندر تلت وفى توقيع اسقاط المكوس بحلب من كلام الفاضل عن السلطان (وانتهى الينا ان بمدينة حلب رسوما استمرت الايدى على تناولها والالسنة على تداولها وفيها بالرعاة ارفاق وبالرعايا اضرار ولها مقدار الا عند من كل شئ عنده بمقدار منها ما هو على الاثواب المجلوبه ومنها ما هو على الدواب المركوبه ومنها ما هو فى المعايش المطلوبه وقد رأينا بنعمة الله ان نبطلها ونضعها ونعطلها وندعها ونضرب عنها فى أيامنا ونضرب عليها بأقلامنا ونسلك ما هو أهدى سبيلا ونقول ما هو أقوم قيلا ونكره ما كره الله ونحظر ما حظره الله ونتأجره سبحانه فانه من ترك شيئا لله عوضه الله أمثاله وأربح متجره فى الرعية اليوم بما يوضع عنهم من أصرها ولنا غدا مشيئة الله ما يرفع من أجرها فعلى كافة أوليائنا وولاتنا وأمرائنا والمتصرفين من قبلنا ان لا يهووا اليها يدا ولا يردوا ولو بلغ الظمأ منهم موردا ولا يثقلوا بها ميزان المآل فتخف ميزان الاعمال ولا يرغبوا فى كثير الحرام فان الله يغنى عنه بقليل الحلال وليعلم ان ذلك من الامر المحكم والقضاء المبرم والعزم المتمم) وفى منشور أهل الرقة بمثل ذلك (ان أشقى الامراء من سمن كيسه وأهزل الخلق وأبعدهم من الحق من أخذ الباطل من الناس وسماه الحق ومن ترك لله شيئا عوّضه ومن أقرض الله قرضا حسنا وفاه مما أقرضه ولما انتهى أمرنا الى فتح الرقة أشرقنا منها على سحت يؤكل وظلم مما أمر الله به ان يقطع وأمر الظالمون ان يوصل فأوجبنا على أنفسنا وعلى كافة الولاة من قبلنا ان يضعوا هذه الرسوم بأسرها ويلفوا الرعايا من بشائر أيام ملكنا بأسرها ونعتق بلد الرقة من رقها ونثبت أحكام المعدلة فيها بمحو هذه الرسوم ومحقها وقد أمرنا بأن نسد هذه الابواب وتعطل وتنسخ هذه الاسباب وتبطل وستمطر سحائب الخصب بالعدل وتستنزل ويعفى خبر هذه الضرائب من الدواوين ويسامح بها جميعها جميع الاغنياء والمساكين مسامحة ماضية الاحكام مستمرة الايام دائمة الخلود خالدة الدوام تامة البلاغ بالغة التمام موصولة على الاحقاب مسنونة فى الاعقاب ملعونا من بطمح اليها ناظره وتتناولها يده او يمسك عنها اليوم على طمع لا يوصله اليه غده) قال العماد وورد على السلطان وهو بازل على حلب بشارتان احداهما ان الاسطول المصرى غزا فى خامس عشر المحرم ورجع بعد تسعة أيام وقد ظفر ببطشة مقلعة من الشام فيها ثلثمائة وخمسة وسبعون علجا من خيالة وتجار والثانية ان فرنج الداروم نهضوا فنذر بهم والى الشرقية فخرج اليهم فالتقوا على ماء يعرف بالعسيله فاستولى عليهم المسلمون بعد أن كادوا يهلكون عطشا لان الفرنج كانوا قد ملكوا الماء فاراهم الله بماء

السماء قلت وكتب الفاضل عن السلطان الى بغداد ابياتين البشارتين وبفتح حلب وحارم كتابا شافيا أوله (أدام الله أيام الديوان العزيز ولازالت منازل مملكته منازل التقديس والتطهير والوقوف بأقصى المطارح من أبوابه موجبا للتقديم والتصدير والامة مجموعة الشمل بأمامته جمع السلامة لا جمع التكسير الخادم ينهى ان الذى يفتتحه من البلاد ويتسلمه اما بسكون التغمد أو بحركة ما فى الاغماد انما يعده طريقا الى الاستنفار الى بلاد الكفار ويحسبه جناحا يمكنه به المطار الى ما يلابسه الكفار من الاقطار وعلى هذه المقدمة فهو يستفتح بذكر ظفرين للاسلام برى وبحرى شامى ومصرى أحدهما وهو البحرى عود أحد الاسطولين اللذين أغزاهما أخوا الخادم أبو بكر بمصر وكانت مدة غيبته من حين خروجه الى وقت عوده الى دمياط تسعة أيام فظفر ببطشة مقلعة من الشام فيها ثلثمائة وخمسة وسبعون علجا منهم خيالة ذوو شكة وازعه وتجار اولو ثروة واسعه والثانى وهو البرى نهوض فرنج الدار وم الى أطراف بعيدة فنذر بهم والى الشرقية فركب اليهم الليل فرسا كما ركبوه جملا وسروا يقتلا وسروا زملا فتوافى الفريقان الى ما يعرف بالعسيلة سبق الفرنج الى موردته والسابق الى الماء محاصر للمسبوق وورد وا ارزقه فتعصب لارزقهم فظن المؤمن ان الكافر مرزوق واشتد بالمسلمين العطش ثم ثابوا الى الفرنج بقوة انجاد السماء بالماء فلم ينج من الفرنج الا رجلان احدهما الدليل والثانى الدليل وعاد المسلمون برؤس عدوهم فى رؤس القنا وقد اجتنوا ثمراتها وباروا حهم فى رؤس الظبا وقد أطفأوا بما ئها جمراتها) ثم قال (ويثنى الخادم بذكر ما امتثله من الاوامر العليه فى اغماد سيف مجرده من استدعى تجريده وموردة من عرض له وريده) ثم (ذكر تسلمه حلب وانه لا يؤثر الا ان تكون كلمة الله هى العليا لا غير وثغور المسلمين لها الرعاية ولا ضير ولا نختار الا ان تغدو جيوش المسلمين متحاشدة على عدوها لا متحاسدة بعتوها ولو ان أمور الحرب تصلحها الشركة لما عز عليه ان يكون كثير المشاركين ولا أساء ان تكون الدنيا كثيرة المالكين وانما أمور الحرب لا تحتمل فى التدبير الا الواحده فاذا صح التدبير لم يحتمل فى اللقاء الا العده فعوض عماد الدين من بلاد الجزيرة سنجار وخابورها ونصيبين والرقة وسروج على ان المظالم تموت فلا ينشر مقبورها والعساكر تتشرر أية غزوها فلا يطوى منشورها وأجاب الخادم عماد الدين الى ما سأل فيه من ان يصالح المواصلة مهما استقاموا لعماد الدين لانه لم يشق بهم وان كان لهم أخا ولم يطمئن الى مجاورتهم الى ان يضرب بينه وبينهم من عنايته برزخا فليح الآن عذرا الاجنبى اذا لم يشق ولتكن هذه نصيحة من عوتب فى شكره بحسن الطن فلم يفق ومن شرطه على المواصلة المعونة بعسكرهم فى غزواته والخروج من المظالم فما زاد على ان قال سالموا مسلما وحاربوا كافرا واسكنوا لكون الرعية ساكنة وأظهروا ليكون حزب الله ظاهرا وهذه المقاصد اللائقة الجهاد فى سبيل الله والكف عن مظالم عباد الله والطاعة لخليفة الله هى مراد الخادم من البلاد اذا فتحها ومغنمه من الدنيا اذا منحها والله العالم انه لا يقاتل لعيش ألين من عيش ولا لغضب يملأ العيان من نزق ولا طيش ولا يريد الا هذه الامور التى قد توسم انها تلزم ولا ينوى الا هذه النية التى هى خير ما يسطر فى الصحيفة ويرقم وكتب الخادم هذه الخدمة بعد ان بات بحلب ليلة وخرج منها الى حارم وكانت استحفظت مملوكا لا يملكه دين ولا عقل غرما هذبته نفس ولا أهل فاعتقد ان يسلمها الى صاحب انطاكية يسر الله فتحها اعتقادا صرح بفعله وشهره بكتبه ورسله وواطأ على ذلك نفرا من رجال يعرفون بالسيمة ولا يعرفون خالقا الا من عرفوه رازقا ولا يسجدون الا لمن يرونه فى نهر النهار سابحا وفى بحر الظلام غارقا فشعر به من فيها من الاجناد المسلمين فشردوه ومن تابعه على فعله وظفر به الملوك عمر بن أخيه فى ضواحى البلد فأخذه وأرسله الى قلعة حلب وسار الخادم اليها فتسلمها ورتب بها حامية ورابطه ولم يعمل على انها للعمل طرف بل انها للعقد واسطه والخادم كما طالع بماضيه الذى حازه الامس المذكور يطالع بمستقبله الذى ينجزه بمشيئة الله الغد المشكور فهو متأهب للخروج نحو الكفار لا تسأم رايته النصب ولا جهة سيره الرفع ولا جيشه الجر ولا يصغى الى قول خاطر الراحة المفند لا تنفر وا فى الحر ولا يجيب دعوة الفراش المهد ولا يعرج على الظل الممدد ولا دمية القصر المشيد ولا يعطف على ريحانة فؤاد يفارقه حولا ويلقاه يوما ولا يقيم على زهرة ولد استهل فتى ذكره الفطر على راحته قال انى نذرت للرحمن صوما) (ومن كتاب آخر أنفذه من نصيبين سنة ثمان وسبعين الى بغداد (سبيل الخادم ان يبنى ولا يهدم ويوفر جانبه ولا يثلم وان يفرق بينه وبين من يمسكون أعنة الجياد المسومة ولا يطلقونها

ويكنزون

ويكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فقد علم ان الخادم بيوت أمواله فى بيوت رجاله وان مواطن نزوله فى مواقف نزاله ومضارب خيامه أكنة ظلاله وانه لا يذخر من الدنيا الا شكسته ولا ينال من العيش الا مسكته وعدو الاسلام شديد على الاسلام كلبه مضطرم على أهله لهبه زجل اذا أصغت اسماع انتأمل لجبه ولوان أحد من يدعى الملك ميراثا ويعد البلاد له تراثا دفع الى مدافعة هذا العدو الكافر والى منافرة هذا الفريق النافر لعرفته الايام ما هو جاهله ولقلدته الحرب ما هو قاتله ولحلته الاحوال ما تحوز تحته محابله) وفى كتاب آخر (واذا أولاه أمير المؤمنين ثغرا لم يبت فى وسطه وأصبح فى طرفه واذا سوغه بلدا هجر فى ظل خيمه ولم يقم فى ظل غرفه واذا بات بات بسيفه له ضجيعا واذا أصبح أصبح ومعتركه القتال له ربيعا لا كالذين يغبون أبواب الخلافة اغباب الاستبداد ولا يؤامرونها فى تصرفاتهم مؤامرة الاستعباد وكأن الدنيا لهم اقطاع لا ايداع وكأن الامارة لهم تخليد لا تقليد وكأن السلاح عندهم زينة لحامله ولابسه وكأن مال الخلق عندهم وديعة فلا عذر عندهم لمانعه ولا لحابسه وكأنهم فى البيوت دمى مصورة فى لزوم جدرها لا فى مستحسنات صورها راضين من الدين بالعروة اللقبيه ومن اعلى كلمته بما يسمعونه على الدرجات الخشبيه ومن جهاد الخارجين على الدولة باستحسان الاخبار المهلبيه ومن قتال الكفار بانه فرض كفاية تقوم به طائفة فيسقط عن الاخرى فى أخراها ومن طاعة الخلافة بذكر اسمها والخروج عن سيماها فلا يقنعون بانهم لا يجاهدون الى ان يمنعوا من يجاهد عنهم ويثاغر وبانهم لا يساعدون المسلمين الى ان يساعدوا عليهم عدوهم الكافر فقد توالوا الشيطان تليدا وطريفا ووطئوا الاسلام وأهله وطاء عنيفا فاذا جاء وعد الآخرة جاء الله بهم فى زمرة الشيطان لفيفا) وقال فى هذا الكتاب (ان المواصلة ما فزعوا الى دار الخلافة الا بعد ان فرعوا والافطال ما طمع اولهم كما طمعوا وقد بما دعوا الى طاعتها فما سمعوا وسمعوا فما اتبعوا حتى ان الاولين منهم عاملوا أولياء الدولة من الاتراك ضد ما جبلت اخلاقهم عليه من عقوقها وسنوا لهم اضاعة حقوق الله باضاعة حقوقها فاين كان التعلق بالدار العزيزة وهم يحاصرون دار السلام باحزابهم ويرامون التاج الشريف بنشابهم ويمدون محاصرتها بالاسلحة والمنجنيقات والازواد والاقامات ويصافون الخلفا مصافة المواقف ويكاشفونهم مكاشفة المخالف ويعززون دزدار تكريت وهى من أهون بلاد الله بجورا لجوار ويجعلونها سجنا لمماليك الخلافة ذوى الاقدار ولو تحرك اليوم متحرك لكانوا له كأنه ولكانت بلادهم له خزانه ويرجوا الخادم بالموصل ان يكون الموصل الى القدس وسواحله ومستقر الكفر من القسطنطينية على بعد مراحله وبلاد الكرج فلوان لهم من الاسلام جار الاستباح الدار وبلاد أولاد عبد المؤمن فلوان لها ماء سيف لاطفاء ما فيها من النار الى ان تعلو كلمة الله العليا وتملأ الولاية العباسية الدنيا وتعود الكنائس مساجد والمذابح المستعبدة معابد والصليب المرفوع حطبا فى المواقد والناقوس الصاهل أخرس اللهجة فى المشاهد ويضيف الى الديوان بمشيئة الله تعالى ما يجاور اكنافه ويمد اطرافه مثل تكريت ودقوقا والبواريج وخوزستان وكيش وعمان والذى وقع أعظم من الذى يتوقع والذى طلع أكثر من الذى يتطلع والذى رؤى أمس أكثر من الذى يسمع) قلت يعنى ان ما فتحه من البلاد أعظم من هذه التى يرجوها وأشار بفعل المواصلة الى ما سبق من فعل زنكى فى حصار بغداد ومساعدته للسلجوقية على العادة فى ذلك الزمان والله أعلم وفى آخر كتاب فاضلى الى حطان بن منقذ باليمن عن السلطان (فتح الله علينا ممالك وأضافها وبلادا آمنها بنا مما أخافها وبلغنا غرائب صنع لا يبلغ أحد أوصافها منها بلاد الشام بأسرها ومملكة حلب بجملتها والمدينة بقلعتها وبلاد الجزيرة بدجلتها فمنها ما أعيد على من اشترط عليه استخدام عسكره فى بيكارنا ومنها ما استقر فى اليد وولاته من أوليائنا وأنصارنا ولما لم يبق فى البلاد الاسلامية الا ما هو فى يدنا أويد مطيع لنا كان من شكر هذه النعمة ان نصرف القوة ونثنى العزمه ونحد الشوكه ونلبس الشكه للفرنج الملاعين فننازلهم ونقارعهم ونخاصمهم الى الله وننازعهم فنطهر الارض المقدسة من رجسهم بدمائهم الى ان ترق السيوف للصخرة الشريفة لما مر بهم بها من قسوة كفرهم واعتدائهم فنحن نرجوان نكون عين الطائفة من الامة التى أخبر نبينا صلوات الله عليه انها لا تزال على الحق ظاهره وبثواب الله وعدوه ظافره والله تعالى يعيننا على ما يعنينا ويلهمنا الاستجابة لدعوته الى ما يحيينا

(فصل) في رجوع السلطان الى دمشق وخروجه منها للغزاة بمخاضة الاردن رحل السلطان من حلب فمر على حماه ثم حمص ثم بعلبك ثم دمشق قال القاضي ابن شداد لم يقم السلطان في حلب الا الى يوم السبت الثاني والعشرين من ربيع الآخر وانشأ عزما على الغزاة فخرج في ذلك اليوم الى الوضيحي مبرزا نحو دمشق واستنهض العساكر فخرجوا يتبعونه ثم رحل في الرابع والعشرين منه الى حماه فوصلها ثم رحل في بقية يومه ولم يواصل بين المنازل حتى دخل دمشق في ثالث جمادى الاولى فاقام بها متأهبا الى السابع والعشرين منه ثم برز في ذلك اليوم ونزل على جسر الخشب وتبعته العساكر مبرزة وأقام به تسعة أيام ثم رحل في ثامن جمادى الآخرة حتى أتى الفوار وتعبى فيه للحرب وسار حتى نزل القصير فبات به وأصبح على المخاض وعبر وسار حتى أتى بيسان فوجد أهلها قد نزحوا عنها وتركوا ما كان من ثقيل الاقمشة والغلال والامتعة بها فنهبها العسكر وغنموا وأحرقوا ما لم يمكن أخذه وسار حتى أتى الجالوت وهي قرية عامرة وعندها عين جارية فخيم بها وكان قد قدم عز الدين جرديك وجماعة من المماليك النورية وجاولي مملوك أسد الدين حتى تكشفوا خبر الفرنج فاتفق انهم صادفوا عسكر الكرك والشوبك سائرين نجدة للفرنج فوقع أصحابنا عليهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأسروا منهم زهاء مائة نفر وعادوا ولم يفقد من المسلمين سوى شخص واحد يدعى بهرام الشاووس فوصل اليه في بقية يوم الكسرة الواقعة وهو العاشر من جمادى الآخرة وفي حادي عشره وصل الخبر الى السلطان ان الفرنج قد اجتمعوا في صفوريه ورحلوا الى الفولة وهي قرية معروفة وكان غرضه المصاف فلما سمع ذلك تعبى للقتال وسار للقاء العدو فالتقوا وجرى قتال عظيم وقتل من العدو جماعة وجرح جماعة وهم ينضم بعضهم الى بعض يحمي راجلهم فارسهم ولم يخرجوا للمصاف ولم يزالوا سائرين حتى أتوا العين فنزلوا عليها ونزل السلطان حولهم والقتال والجرح يعمل فيهم ليخرجوا الى المصاف وهم لا يخرجون لخوفهم من المسلمين فانهم كانوا في كثرة عظيمة فرأى السلطان الانتزاح عنهم لعلهم يرحلون فيضرب معهم مصاف فرحل نحو الطور سابع عشر جمادى الآخرة فنزل تحت الجبل مترقبا رحيلهم ليأخذ منهم فرصة فاصبح الفرنج راجعين وعلى اعقابهم ناكصين فرحل رحمه الله نحوهم وجرى من رمي النشاب واستنهاضهم للمصاف أمور عظيمة فلم يخرجوا ولم يزل السلطان حولهم حتى نزلوا الفولة راجعين الى بلادهم وعاد السلطان منصورا وقد نال منهم قتلا وأسرا وخرب كفربلا وبيسان وزرعين وقرى عديدة فنزل الفوار وأعطى الناس دستورا فسار من آثر المسير وأتى هو دمشق يوم الخميس الرابع والعشرين من جمادى الآخرة قال فانظر الى هذه الهمة التي لم يشغلها عن الغزاة أخذ حلب ولا الظفر بها بل كان غرضه رحمه الله عليه الاستعانة بالبلاد على الجهاد والله يحسن جزاءه في الآخرة كما وفقه للاعمال المرضية في الدنيا

وقال العماد خرج السلطان الى الغزو ورابط العدو بعين الجالوت وعبر المخاضة الحسينية تاسع جمادى الاخرة فوصل الى بيسان وقد أخلاها أهلها فاطلق الناس فيها النيران ونهبوا ما فيها وكذلك فعلوا بابراج وتلاع غيرها وصادفت مقدمة العساكر خيلا ورجلا للفرنج عابرين من نابلس ومقدمهم ابن هنفري فقتل منهم وأسر وتوغل الباقون في الجبال ووصل الخبر بان الفرنج قد أقبلوا في ألف وخمسمائة رمح ومثله تركبلي وخمسة عشر آلاف راجل فاتاهم المسلمون وذلك على عين الجالوت فاخذهم الرعب وتحاموا عن الاقدام عليهم فخندقوا أحوالهم وأسندوا ظهورهم الى الجبل وأقاموا كذلك خمسة أيام فلما رأى المسلمون منهم ذلك رجعوا عنهم فتنفس خناقهم ونكصوا على اعقابهم الى الناصرة وعاد المسلمون بالغنائم والاسارى لم يخلص العدو منها شيأ وذلك يوم الخميس سادس عشر جمادى الاخرة وقد كانوا مدة مقامهم يتخطفهم المسلمون من كل جانب ويرمونهم بالنبل وينتظرون ان يحملوا أولا كما هو عادتهم فما فعلوا ومن كتاب فاضلي عن السلطان الى بغداد (لما كان بتاريخ الثامن من جمادى الاولى سار الخادم من أدنى المنازل من بلاد الاسلام الى بلاد الكفر وقد تكاملت جنود الاسلام وتعبت ميامنه ومياسره وأخذت أهبه وشحذت قضبه وباعوا الله ما اشتراه ومثل لاعينهم ثوابه فكانها تراه وساروا تحت ليل عجاج ستر السائر تحته سراه وأصبح الخادم واياهم بعين الله في سبيله على ماء الاردن وهو النهر الفاصل بين الاسلام والكفر والمخاضة المضروب منها بسور على ذلك القطر فخاض ذلك البحر وذلك النهر وامدته نطف الحديد فاذا الماء يرمى بالشرر ويقذف بالجمر وذلك يوم الخميس ثاني يوم المسير وهو تاسع الشهر ولما جاز المخاضة أخذ البلاد ضرب المخاض ورلزلت أرضها فهي بالقوم ترض وللغنيمة

تراض وأخذت رجال الاسلام تنقص الارض من أطرافها وتقلع قلاع الجبال وتطير رؤسها من أكافها فاذا البلاد قد انهزم أهلها فالحقها المسلمون مساكنها فى الهزيمه وعوّلوا فيها على سيوف المعاول فاذا هى راحلة وكأنها مقيمه وهذه البلاد مدن ما كان عزم قبل منها مدنيا وعمارات ما كان أمل اليها مفضيا بل طال ما كان عنها مغضيا مثل بيسان وكفربلا وزرعين وجينين كلها بلاد مشاهير لها قرى مغله وبساتين مظله وأنهار مقله وقلاع مطله وأسوار قد ضربت على جهاتها وأحاطت بجنباتها واتخذتها المدن سياجا على قصباتها فغنم المسلمون ما فيها من أقوات مختزنه وشفوا منها حزازات القلوب المضطغنه وأحرقوا أوعيه كهرها بالنار وعذبوها عذاب أهلها من الكفار وقتلوها وكأنّ الضرام كان لها دما وكتبوا عليها الخراب وكأن السيف كان فيها قلما فاجلوا عن حماها حما وتساقطت جدرها فكأنما أسارت فيها النوى لما ولما كان يوم السبت الحادى عشر ورد الخبر بان عسكر الكافرين قد ركب من مكان مجتمعه وزحف بلابسه ومدرّعه فركب الخادم وسوى المؤمنين فى مواقف القتال ومنازل النزال فمن متسرّع يطوف عليهم بصفاح ليطاف عليه بصحاف ومن متثبت يمشى الى الموت مشى العروس ساعة الزفاف وهنالك منظر ودّ المؤمنون لو ان أميرهم له ناظر كما هو به آمر ولا غرو ان يصفه الخادم ليسر المخدوم لا ليوصف الخادم ومن وصف ضربة السيف فانما وصف الضارب ولم يصف الصارم ونزل العدوّ الى الارض منحطا عن سرجه ومنحازا عن فجه وسالكا نهجا غير نهجه وأحدق به راجله وهو زهاء عشرين ألف راجل وركز صليب صلبوته فاستوى فى العجز المحمول والحامل ونزل محصورا وخندق فكانما أصبح الكافر فى حفر ذلك الخندق مقبورا وأقام بازائه خمسة أيام تماسيه الوقائع وتصابحه وتماشيه الروائع وتصافحه ويفزع فيها الى الحفير ويتكرر اليه فى اليوم الواحد النفير ويبعث اليه السهم وهو فى الحرب السفير فيقبل تحية الضرب متردّدة ولا يردّها وتتبسم اليه صفيحة النصل متودّدة فلا يودّها ويجتهد فى استخراجه وقد رأى العزائم ولم يخرج لدعوتها والمكارم ولم يرحل لبغيتها) ومن كتاب آخر الى وزير بغداد (اثاروا على يوم الكفر ليلة عجاج جعلت ليل من ورا هم من الاسلام سكنا وصبروا وصابروا فكأنما كان السيف لهم أليفا وكان المعترك لهم وطنا وأخذت فى البلاد النار ماخذها ونفذت فيها العير منافذها وثلت عروشها وتلت غروسها وجليت فى مصبغات النيران عروسها وأصبحت تناجى العيون ثراكلها وتصف النوازل منازلها دمنا على الاطلال مطلوله وصرعى بسيوف البلاء مقتوله وجاء العدوّ فأحدقت به الابطال وتنجزت عادة حمله فطلت وما كان خلقها المطال فلما كثر الله المسلمين فى عيونهم ورأوا بهم ما لم يكونوا يرونه قبلها بظنونهم واستمدوا مغالى الشكوى لتبوح بها ألسنتهم اذا خلوا الى شياطينهم فأخلدوا الى الارض نازلين وقعدوا عن الجلة تاكلين واتقى فارسهم براجله ورامحهم بنابله ولا ذسيفهم بجفنه ولا خير فى حامله ولا ذجفنه باطرافه خوفا من كحل بسهم قاتله وأقاموا محصورين لا يستطيعون ورادا ولا صدرا ولا يجدون متقدما ولا متأخرا فما كان للكفر فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا وعرف النصل فى لحن السيف ان الشجاعة والنكول أمران يقدفهما الله فى القلوب فلا يقل الناس كيف

(فصل) فى ولاية الملك العادل حلب وولاية تقى الدين مصر وغير ذلك قال العماد وقد كان العادل نائبا بمصر فلما فتح السلطان حلب كتب العادل اليه يطلبها منه مع أعمالها ويدع الديار المصرية فكتب السلطان اليه ان يوافيه الى الكرك فانه سائر الى نحوه فأشار القاضى الفاضل على السلطان ان يستنيب فى الديار المصرية موضع أخيه العادل ابن أخيه تقى الدين فاستصحبه السلطان معه فى رجب الى الكرك هذه السنة وحاز فى طريقه قبل وصوله اليها غنائم وخيم على الربة ثم حصر الكرك ورماه بالمجانيق صباحا ومساء وتناوب عليه الامراء حتى خرج شهر رجب وما حصل منه الطلب لكن عظمت النكاية فى الكفار بأخذ أموالهم وتخريب الديار ووصل الخبر ان الفرنج قد استجمعوا وتجمعوا بالموضع المعروف بالواله على قصد المسلمين وخلاص الكرك من أيديهم ورأى السلطان ان أمر حصره يطول فعوّل على الرحيل الى دمشق ووصل العادل الى السلطان وهو بعد على الكرك فجهز تقى الدين الى الديار المصرية واليا عليها وقرى عضده بصحبة القاضى الفاضل له وتولى العادل حلب وأعمالها ومنبج وجميع قلاعها فسار اليها فى رمضان ورجع منها الى دمشق الملك الظاهر ونواب السلطان قلت وكتب العادل الى الفاضل

يستشيره فى التعوّض عن مصر بحلب فكتب اليه الفاضل كتابا فيه

انما أنت كغيث ماطر * حيثما صرفه الله انصرف

(والمولى أعلم وبسياسة الدنيا أقوم وقد تكرر الكتاب الناصرى اليه بما نص عليه وكشف له الغطاء وسنى له العطاء وقالت له المخطوبة هيت لك وأدّى اليه مالك الامر ما قد مالك فلا زالت سعادته أنور من شمس وأدور من فلك ولا زال رابحا على الدهر ان امرء خسر وباقيا ان امرء هلك) ومن كتاب آخر اليه (أدام الله دولة حامى الحمى وثبت الدولة الناصرية التى يقوم بها ملكان هما مان هما هذا صلاح يمنع فسادا وهذا سيف يحقن دما) قال ابن أبى طى كان السلطان يعظم الملك العادل ويعمل برأيه فى جميع أموره ويتيمن بمشورته ولا يعلم بانه أشار على السلطان بأمر فخالفه حدّثنى قاضى اليمن جمال الدين قال كان السلطان يجمع الامراء للمشورة فان كان العادل حاضرا سمع من رأيه وان لم يكن حاضرا لم يقطع أمرا فى المهمات حتى يكاتبه بجلية الاحوال ثم يسمع رأيه فيها قال وحدّثنى أبى قال حدّثنى جماعة قالوا كان السلطان ليس له غناء عن العادل ولا عن رأيه فلما حصل العادل بمصر وبعد عن السلطان هناك صار السلطان يتكلف فى مكاتبته بالاخبار ويؤخر الامور الى ان يرد عليه جوابه فيفوته بذلك كثير من المنافع الحاصلة للدولة وللجهاد فلما حصر الكرك فى هذه السنة كاتبه بالحضور اليه بعياله وأمواله وجميع أصحابه وولى مصر تقى الدين ولما حصل العادل عند السلطان وقع فى نفسه ان يعوّضه عن ولاية مصر ثم حار فى ولاية يوليه اياها قال وحدّثنى علم الدين قيصر الصلاحى قال انما أقدم السلطان العادل من مصر لاجل ولاية حلب وبذلك كاتبه ولهذا خرج العادل باملاكه وعياله وأثقاله قال وحدّثنى غيره قال لما حصل العادل عند السلطان بأمواله وأثقاله كانت الاموال قد قلت على السلطان وقد حصلت عنده عساكر عظيمة فأحضر العادل ليلا وقال أريد ان تقرضنى مائة وخمسين ألف دينار الى الميسور فقال السمع والطاعه ثم قام وخرج من عنده وكتب اليه يقول أموالى جميعها بين يديك وأنا مملوكك وأشتهى ان أحمل هذا المال الى خدمة السلطان ويكون عوضا عنه مدينة حلب وقلعتها فأحابه السلطان انى والله ما أقدمتك الا لاوليك حلب واذ قد افترحت ذلك فقد وافق ما عندى فلما أصبح العادل أنفذ وسأل السلطان ان يكتب له بمدينة حلب كتابا ويجعله كالكتاب البيع والشراء فامتنع السلطان وقال انما تكون حلب اقطاعا والمال على له فاعتذر العادل الى السلطان ولما اجتمعا قال له السلطان أظننت ان البلاد تباع أو ما علمت ان البلاد لاهلها المرابطين بها ونحن خزنة للمسلمين ورعاة للدين وحراس لاموالهم أو ما علمت ان السلطان ملك شاه السلجوقى لما وقف طبرية على جامع خراسان لم يحكم به أحد من القضاة ولا من الفقهاء ثم قرّر السلطان ولاية العادل لحلب وأعمالها الى رعبان الى الفرات الى حماه وكتب له التوقيع وقرّر عليه مالا يحمله برسم الزردخانات وخزانة الجهاد ورجالة من الحلبيين ورحل السلطان الى دمشق واستدعى ولده الظاهر من حلب فلما حضر أمره بالعود الى حلب وتسليمها الى عمه العادل ففعل وعاد الى دمشق وسار العادل الى حلب فالتقيا بالرستن وباتا فيه فكانت ولاية الظاهر بحلب فى هذه النوبة نحو ستة أشهر ولما وصل الظاهر الى دمشق أقبل على خدمة والده والتقرّب اليه الا ان الانكسار لخروج حلب عنه ظاهر عليه وهو مع ذلك لا يظهر شيئا الا الطاعة لوالده والانقياد الى مرضاته حدّثنى أبى عن مجد الدين بن الخشاب قال حدّثنى الملك الظاهر قال ما بلغنى ان السلطان أعطى حلب للملك العادل جرى على ما قدم وما حدث وأصابنى من الهم ما لم أقدر على النهوض به ووددت انى لم أكن رأيتها ولا دخلت اليها الان قلبى أحبها وقبلها وطاب لى هواؤها ولما فارقتها كنت أحنّ اليها وأشتاقها قال ودخل العادل حلب فى رمضان وخلع على المقدّمين والاعيان وكان قد قدّم بين يديه كاتبه المعروف بالصنيعة لتسلم حلب وقلعتها من الملك الظاهر وولى القلعة صارم الدين برغش وولى الديوان والاقطاعات شجاع الدين بن البيضاوى صباغ ذقنه وولى الانشاء وما يتعلق بأمور السر للصنيعة ابن النحال وكان نصرانيا ثم أسلم على يد العادل فولى ابن النحال الوظائف لجماعة من النصارى وفى ذلك يقول الشاعر

فاق دين المسيح فى دولة العا * دل حتى علا على الاديان

ذا أمير وذا وزير وذاوا * لوذا مشرف على الديوان

قال ولم يزل الملك العادل يهذب أمور حلب الى سادس عشرى ذى القعدة ثم خرج متوجها الى دمشق بسبب ان السلطان اجتمع عنده فى ذى القعدة عدة رسل منهم رسل الخليفة ورسل طغرابن البهلوان ورسل قزل أخى البهلوان ورسل شاه أرمن صاحب خلاط ورسل المواصلة ورسل عماد الدين صاحب سنجار ورسل قليج ارسلان صاحب الشمال فاراد السلطان احضار العادل لسماع الرسائل ولحضور الاجوبة عنها ولتقرير أمور الفرنج ويوم وصل العادل الى دمشق أحضره السلطان لسماع الرسائل وسمع ما عنده فى الاجوبة ولما قضى أجوبة الرسل ودع السلطان وعاد الى حلب قال ولما بلغ سيف الاسلام ان السلطان كتب لتقى الدين عهدا بولاية مصر عتب لاجل ذلك فكتب السلطان له عهدا ببلاد اليمن جميعها قال وأقطع السلطان تقى الدين الاسكندرية ودمياط وجعل لخاصته البحيرة والفيوم وبوش ثم عوضه عن بوش بمنود وحوف دمسيس وذكر غير ذلك قال العماد أنعم السلطان على تقى الدين بالاعمال الفيومية وسائر نواحيها بجميع جهاتها وحوالبها وزاده القبيبات وبوش وأبقى عليه بالبلاد الشامية مدينة حماه وقلعتها وجميع أعمالها ولما وصل تقى الدين الى مصر اقتدى بالتدبير الفاضلى وكان السلطان لا يؤثر مفارقته فلما لم يجد من توحيه تقى الدين الى مصر بدا وكانت فيه حدة لم تكن فى العادل احتاج فى تقويمه الى تدبه الاجل الفاضل قال القاضى ابن شداد وقتل على الكرك فى هذه الكرة شرف الدين برغش النورى شهيدا رحمه الله ثم رحل السلطان عنها مستصحبا أخاه العادل الى دمشق فدخل دمشق فى رابع عشرى شعبان وأعطى العادل حلب فى ثانى شهر رمضان فسار فى ذلك اليوم نحوها فوصلها وصعد القلعة فى يوم الجمعة الثانى والعشرين من رمضان وكان بها ولد السلطان الملك الظاهر ومعه سيف الدين يارکوج يدبر أمره وابن العميد فى البلد وكان الظاهر أحب أولاده الى قلبه لما قد خصه الله به من الشهامة والفطنة والعقل وحسن السمت والشغف بالملك وظهور ذلك عليه وكان من أبر الناس بوالده وأطوعهم له ولكن أخذ منه حلب لمصلحة رآها فخرج من حلب لما دخلها عمه العادل ويارکوج سائرين الى خدمة السلطان فدخل دمشق يوم الاثنين ثامن عشرى شوال فأقام فى خدمة والده لا يظهر له الا الطاعة والانقياد مع انكسار فى باطنه لا يخفى عن نظر والده قال وفى ذلك الشهر وردنا على السلطان رسلا من جانب الموصل وكنا قد ترسلنا الى الخليفة الناصر لدين الله فى انفاذ شيخ الشيوخ صدر الدين رسولا وشفيعا الى السلطان فسيره معنا من بغداد وكان عزيز المروءة عظيم الحرمة فى دولة الخليفة وفى سائر البلاد وكانت مكانته عند السلطان بحيث يتردد اليه اذا كان عنده فى معظم الايام قال وكان الشيخ قد وصل الى الموصل وسار منها بعد ان سار فى صحبته القاضى محيى الدين بن كمال الدين وكان بينهما صحبة من الصبا وكنت مع القوم وسرنا حتى أتينا دمشق وخرج السلطان الى لقاء الشيخ ونحن فى خدمته وأقمنا أياما نراجع فى فصل حال فلم يتفق صلح فى تلك الدفعة وخرجنا راجعين الى الموصل وخرج السلطان الى وداع الشيخ الى القصر واجتهد وافى ذلك اليوم ان ينقضى شغل فلم يتفق وكان الوقوف من جانب محيى الدين فان السلطان اشترط ان يكون صاحب اربل والجزيرة على خيرتهما فى الانتماء اليه أو الى صاحب الموصل فقال محيى الدين لا بد من ذكرهما فى النسخة فوقف الحال وكان مسيرنا يوم الخميس سابع ذى الحجه قال وفى تلك الدفعة عرض على السلطان مواضع اليها بصر على لسان الشيخ فاعتذرت ولم أفعل خوفا من ان يحال توقف الحال على ومن تلك الدفعة ثبت فى نفسه الشريفة منى أمر لم أعرفه الا بعد خدمتى له وأقام السلطان بدمشق ترد عليه الرسل من الجوانب فوصله رسول سنجرشاه صاحب الجزيرة فاستحلفه لنفسه وانتمى اليه ورسل اربل وحلف لهم وسار واووصل اليه أخوه العادل يوم الاثنين رابع ذى الحجه فأقام عنده وعيد وعاد الى حلب قال العماد وصلت رسل صاحب الجزيرة معز الدين سنجرشاه بن سيف الدين غازى بن مودود بن زنكى ورسل صاحب اربل زين الدين يوسف ابن على كوجك بن بكتكين ورسل صاحب الحديثة وتكريت يشكون من صاحب الموصل ويطلبون ان يكونوا من أولياء السلطان المنتمين اليه ففعل السلطان ذلك وكان أبو سنجرشاه سيف الدين غازى هو صاحب الموصل بعد والده مودود كما تقدم ذكره فعهد الى ابنه سنجرشاه بها فغلبه عليها عمه عز الدين مسعود بن مودود فبقيت الجزيرة بيد سنجرشاه وهو من تحت يد عمه وفى تلبه منه ما فيه وكانت اربل وأعمالها وما يليها كلها مضافة الى الموصل وصاحب الموصل هو الحاكم على جميعها فمن ثم طلبوا الانحياز الى خدمة السلطان فأجابه وسمع بذلك صاحب الموصل

فاستشفع بدار الخلافة الى ان أرسل منها شيخ الشيوخ وشهاب الدين يشير الى السلطان ان يجدد لصاحب الموصل الايمان ويكون له من جملة الاعوان حربا لمن حاربه سلما لمن سالمه وجاء رسول صاحب الموصل قاضي القضاة محيي الدين أبو حامد محمد بن قاضي القضاة كمال الدين محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري وترفع في أداء الرسالة وأغلظ في الكلام فالان له السلطان وقال أنا أقضي حاجته على ما أورد ولكن قد سبق مني يمين لاولئك السلاطين فانا استثنيهم وأردهم الى اختيارهم لي أوله فابى ذلك وأرادان تكون الصداقة له دون سائر ذوي الممالك وأشار الى ان لهم من ينصرهم من جهة البهلوان ملك العجم فعظم ذلك على السلطان وكان ذلك محرّكا له الى ان يعود الى الموصل ورجعت الرسل على ذلك غير ظافرين بطائل وكان منزل شيخ الشيوخ بالرباط على المنيبع ومنزل القاضي محيي الدين في جوسق بستان الخلخال وشهاب الدين بشير بجوسق الميدان وتوفي ولد شيخ الشيوخ بدمشق وكان في صحبته فدفنه في المقبرة المحاذية للرباط وحضر عنده السلطان وجماعة الامراء للعزاء

﴿فصل﴾ في باقي حوادث هذه السنة قال العماد وكانت شتوة هذه السنة كثيرة الامطار وكثرت مكاتبات العماد للفاضل وأورد في بعضها أبياتا منها

عذر الزمان بأي وجه يقبل ❁ ومحبكم بالصد فيه يقتل
مالي سوى انسان عيني مسعدا ❁ بالدمع انسان عليه أعول
الدهر ليل كله في ناظري ❁ لاصبح الا وجهك المتهلل
خير تم بين المنية والمنى ❁ لاتهجروا فالموت عندي أسهل
ياغائبين وهم بفكري حضر ❁ ياراحلين وهم بقلبي نزل
ماللسلو الى فؤادي منهج ❁ ماللصبابة غير قلبي منهل
لاتعدلوا عني فما لي معدل ❁ عنكم وليس سواكم لي موئل
كل الخطوب دفعتها بتجلدي ❁ الا التفرق فهو حطب معضل
ان لم يجدني طيفكم في زورة ❁ فلانني منه أدق وأنحل
لاصبر لي لاقلب لي لاغمض لي ❁ لاعلم لي بالبين ماذا أفعل

قال ابن الاثير وفي جمادى الاولى من سنة تسع وسبعين قبض عز الدين أتابك على مجاهد الدين قايماز وهو حينئذ نائبه في بلاده واتبع في ذلك هوى من أراد المصلحة لنفسه ولم ينظر في مضرة صاحبه وكان الذي أشار به عز الدين محمود زلفندار وشرف الدين أحمد بن أبي الخير الذي كان أبوه صاحب الغراف وهما من أكابر الامراء فلما قبضه كان بيده أربل وشهرزور ورودقوفا وجزيرة ابن عمر وكان بها معز الدين سنجرشاه بن سيف الدين صغيرا والحكم فيها الى مجاهد الدين ولهم أيضا قلعة العقر فحين قبض امتنع زين الدين يوسف بن زين الدين على باربل وكان فيها الحكم له مع مجاهد الدين وامتنع معز الدين بالجزيرة وأرسل الخليفة الناصر لدين الله عسكرا حصر دقوقا فملكها ولم يحصل لعز الدين الا شهرزور وصارت هذه البلاد التي كانت بيده أضر شئ على الموصل وبقي مقبوضا فاخرجه وأعاده الى ولاية قلعة الموصل الا ان الذي أخذ من البلاد لم يعد الى طاعته وقبض عز الدين على من كان أشار عليه بقبض مجاهد الدين قال ابن الاثير وعلى الحقيقة ليس على الدول شئ أضر من ازالة مدبر لها واقامة غيره فان الاول يكون كالطبيب الحاذق العارف بمزاج الانسان ومرضه وعلاجه وما يوافقه ويؤذيه فالى ان يعرف حاله ينفسد أكثر مما يصلح قال ابن القادسي وفي هذه السنة في جمادى الآخرة توفي الابله الشاعر وهو من أسماء الاضداد واسمه أبو عبد الله محمد بن يختيار بن عبد الله وكان فصيحا هجاء وله أشعار رقيقة منها

زار من أحيا بزورته ❁ والدجى في لون طرته
يالها من زورة قصرت ❁ فأماتت طول جفوته

﴿ثم دخلت سنة ثمانين﴾ قال العماد وقد تقرّاص البرد فلما طاب الزمان تجهز السلطان بالعساكر المنصورة الى الكرك مرة أخرى وأرسل الى تقي الدين فجاء بالعساكر المصرية والاجل الفاضل وتتابعت العساكر المشرقية والملك العادل

وجاء نور الدين بن قرا ارسلان صاحب الحصن وآمد وصاحب دارا وأخوصاحب سنجار وعسكر ماردين فاجتمعت العساكر برأس الماء وأشفق السلطان على ابن قرا أرسلان من اقتحام المشاق فأقامه برأس الماء بحوران الى حين العود وأمر العادل بالاقامة معه وقال القاضى ابن شداد سير السلطان الى العساكر يطلبها فوصل ابن قرا ارسلان نور الدين الى حلب ثامن عشر صفر فأكرمه الملك العادل اكراما عظيما وأصعده القلعة وباسطه ورحل معه طالبا دمشق وكان السلطان قد مرض أياما ثم شفاه الله تعالى وما بلغه وصول ابن قرا ارسلان خرج الى لقائه وكان رحمه الله يكارم الناس مكارمة عظيمة فالتقاه على الجسر بالبقاع فى تاسع ربيع الاول ثم عاد الى دمشق وخلف نور الدين واصلا مع العادل فتأهب للغزاة وخرج مبرزا الى جسر الخشب ووصل العادل وابن قرا ارسلان دمشق فأقاما بها أياما ثم رحلوا ليلتحقوا بالسلطان ورحل السلطان من رأس الماء ثانى ربيع الآخر طالبا للكرك فأقام قريبا منها اياما ينتظر وصول الملك المظفر من مصر الى تاسع عشر الشهر فوصل تقى الدين واجتمع به ومعه بنت العادل وخزائنه فسيرهم اليه وتقدم اليه والى بقية العساكر بالوصول اليه الى الكرك فتتابعت العساكر الى خدمته حتى أحدقوا بالكرك فى رابع عشر جمادى الاولى وركب المجانيق عليه وقد التقت العساكر المصرية والشامية والجزرية وما بلغ الفرنج ذلك خرجوا برا جلهم وفارسهم الى الدب عن الكرك وكان على المسلمين فيه ضرر عظيم فانه كان يقطع عن قصد مصر بحيث كانت القوافل لا يمكنها الخروج الا مع العساكر الجمة فاهتم السلطان بأمره لتكون الطريق سابله ويسر الله ذلك وله الحمد والمنه ولكن كان فتحها بعد ذلك وما بلغ السلطان خبر خروج الفرنج تعبئ للقتال وأمر العساكر ان تخرج الى ظهر الكرك وسير الثقل نحو البلاد وبقى العسكر جريدة ثم سار السلطان يقصد العدو وكان الفرنج قد نزلوا بموضع يقال له الوالة وسار حتى نزل بالبلقاء على قرية يقال لها حسبان قبالة الفرنج فى طريقهم ورحل منها الى موضع يقال له ماء عين والفرنج مقيمون بالوالة الى السادس والعشرين من جمادى الآخرة ثم رحلوا قاصدين الكرك فسار بعض العسكر وراءهم فقاتلوهم الى آخر النهار ولما رأى رحمه الله تصميم الفرنج على الكرك أمر العسكر ان يدخل الساحل لخلوه عن العساكر فهجموا على نابلس ونهبوها وغنموا ما فيها ولم يبق فيها الا حصاها وأخذوا جبنين والتحقوا بالسلطان برأس الماء قلت وقد وصف القاضى الفاضل حصن الكرك فى بعض كتبه فقال (هو شجا فى الحناجر وقذا فى المحاجر قد أخذ من الآمال بمخنقها وقعد بارصاد العزائم وطرقها وصار ذئبا للدهر فى ذلك الفج وعذرا لتارك فريضة الله من الحج وهو وحصن الشوبك يسر الله الآخر كبيت الواصف للاسدين

ما مر يوم الا وعندهما * لحم رجال أو يولغان دما

وفى كتاب آخر (وأما الكرك فكفات المنجنيقات عليه متناوبه وحجارتها على من فيه حاجره وقد جذعت انوف الابرجه وأسبلت قناع الستائر وجوهها المتبرجه وكل جوانبها وعرة المرتقى صعبة المحتظى والسلطان يستعذب المشقات التى تتصادى منها الهمم ويباشر جمرات الشتاء الكالح بوجهه المبتسم) ومن كتاب آخر (وقد جمعت الحجارة فى الاسقاط بين رؤس الابراج ورؤس الاعلاج فرمت الشرايف والواقفين عليها لحمايتها وأرت الفرنج باهتدائها الى ارداتها غاية غوايتها فما أخرج أحد منهم رأسا الا دخل فى عينه نصل وما هجر قراب الاسلام سيف الا وله مع رقاب الكفر غمد قطعها وصل وما على الحجر فى الاسراف والتبذير حجر ولكل ليلة من نقع الحوافر ومن سنا الاسنة فجر ولقد أخذنا من العدو بالمخنق وشرعنا فى طم الخندق والحائط واقع والواقعة بهم محيطه والدروع بالسيوف مفصله وبالجروح محيطه) ومن كتاب آخر (عذاب الله بالحصن وأهله واقع ماله من دافع وان دليل النصر قد ظهر وما دونه من مانع وأما المنجنيقات فقد نكأت فى الابراج بالهدم وفى الاعلاج بالهتك فلم تبق لها الحجارة الطائرة اليها حجارة قائمه وان لها من امطارها عليها ليلا ونهارا ديمة دائمه واطفنا عليها بالزرجون حتى وقعت الاسوار من سكرها وضربنا دونها الستائر حتى ترمت لصخرها وعاطتها كفة المنجنيق عقار عقرها فالسور المقابل للمنجنيقات قد انهدمت ابراجه وأبدانه وانهدت قواعده وأركانه ولولا الخندق الذى هو وادمن الاودية واسع عميق لما تعذر الى الزحف اليهم والهجم عليهم طريق) ومن كتاب آخر (الحصن الذى نحن حاضروه وحاصروه فى حصانة الحصانة

قد هدّت الحجارة منه ما أحكموه بالحجاره وعداعليه بالتخريب ما أعدّوه للعماره فعسى المنجنيقات ترمى ولا ترمّ سهامها ويستديم من أعداء الله ومعقلهم بالقتل والهدم انتقامها فما قابل المنجنيقات من الابراج والابدان قد أتى التخريب على ما فيه من العمران فلم يبق الا طم الخندق والاخذ بعد ذلك من العدوّ بالمخنق والقلوب واثقة بحصول الفتح وقد علم كل واحد منا ان متجره قد فاز بالربح فما يسمع منا بحمد الله من أحد ملل ولا ضجر ولا تسفر هذه النوبة ان شاء الله تعالى الا عن نصر وظفر) وقال العماد رحل السلطان من رأس الماء على طريق الظليل والزرقا وعمان والبلقا ثم الرقيم وزيرا والنقوب واللجون ثم أدر ثم الرّبة وذلك فى بلد ماب فلما تلاحقت العساكر نزل على وادى الكرك ونصب عليها تسعة مجانيق صفا قدام الباب فهدمت السور المقابل لها ولم يبق مانع الا الخندق الواسع العميق وهو من الاودية الهائله والمهاوى الحائله والمهالك الغائرة الغائله ولم يكن فى الرأى الا طمه وملؤه بكل ممكن وردمه فعد ذلك من الامور الصعاب وتعذر لحزونة الارض وتحجرها حفر الاسراب فأمر السلطان بضرب اللبن وجمع الاخشاب وبناء الحيطان المقابلة من المربض الى الخندق وتسقيفها وتلفيق ستائرها وتأليفها فتمت دروبا واسعة لا يزحم فيها الجائى الذاهب وتوافدت رجال العسكر واتباعه وغلمانه وأشياعه على نقل ما يرمى فى الخندق وهان طم الخندق بالدبابات التى قدمت والاسراب التى بنيت وأحكمت فوجد الناس الى الخندق طريقا مهيعا فهم يزدحمون آمنين من الجراح عاملين بالاشراح والناس بجب القلعة على سفير الخندق لا يستشعرون حذرا ولا يخشون سهما ولا حجرا وقد امتلأ الخندق حتى ان أسيرا مقيدا رمى بنفسه اليه ونجا بعد ما توالى من رمى الفرنج رمى الحجارة عليه) وفى بعض الكتب العمادية (لولا الخندق المانع من الاراده وانه ليس من الخنادق المعناده بل هو وادمن الاوديه واسع الافنيه لسهل المشرع وهجم الموضع فلم يبق الا تدبير طم الخندق والاخذ بعد ذلك من العدوّ بالمخنق فعملنا دبابات قدمناها وبنينا الى شفير الخندق ثلاثة أسراب باللبن سقفناها وأحكمناها فصارت منها الى طرف الخندق طرق آمنه وشرع الناس فى طم الخندق منها ونفوسهم مطمئنة وقلوبهم ساكنه وكان الشروع فيه يوم الخميس سابع جمادى الاولى وقد تسنى طمه وتهيأ ردمه وتسارع الناس اليه وازدحموا عليه ولم يبق صغير ولا كبير الا وهو مستبشر بالعمل منتظر لبشرى نجح الامل وقد تجاسروا حتى ازدحموا تحت القلعة نهارا كازدحامهم فى المصلى يوم العيد وليلا كحضورهم فى جامع دمشق ليلة النصف السعيد وهم بحمد الله من الجراح سالمون وبالنصر موقنون عالمون وان أبطأ العدوّ عن النجدة فالنصر سريع والحصن ومن فيه صريع قد خرقت الحجارة حجابه وقطعت بهم اسبابه وناولته من الاجل كأبه وجرت لسام سوره وحلت نقابه فاناف الابرجة مجدوعه وثنايا الشرفات مقلوعه ورؤس الابدان محززه وحروف العوامل مهموزه وبطون السقوف مبقوره واعضاء الاساقف معقوره ووجوه الجدر مسلوخه وجلود البواشر منسوره. والنصر أشهر من نار على علم والحرب أقوم من ساق على قدم قال واشرف السلطان على أخذها فوصل الخبر ان الفرنج قد تجمعوا وجاؤا منجدين لاهل الكرك ليزحزحوه عن حصارها فنى السلطان عنان العزم اليهم وكانوا فى منزلة الواله وتلك المواضع ضيقة صعبة المسلك فانتظر السلطان ان يخرجوا الى البلقا وتقدم عنهم بامياله فرجعوا وتفرقوا ولم يقدموا وعلى قصد الكرك عزموا ولما رأى السلطان ان الفرصة من الفئتين فاتت مرّ على نابلس فاغار وغنم وفى طريق عوده نزل على سبسطيه وفيها مشهد زكريا عليه السلام وقد اتخذه الفرنج كنيسة وأودعوها امتعة نفيسه وبها من الفرنج اسقف وقسس ورهبان ففدوها باسارى مسلمين ولاذوا بالامان معتصمين ثم أناخ على جينين فاهبط اوجها وهدم برجها وآب بالنهاب والسبايا والمرباع والصفايا واجتمع باصحابه على الفوار وتحدث بالايجاد لحوادث الغور فى الغوار

(فصل) ثم رحل السلطان الى دمشق للاجتماع برسل الخلافة شيخ الشيوخ وبشير وكانوا وصلوا والسلطان محاصر الكرك فاجتمع بهم وأكرمهم وكانوا قد مرضوا ومات جماعة من أصحابهم وعاد السلطان شيخ الشيوخ كل يوم وليلة فى الرباط بالمنيبع واستأذنوا فى العود قبل الشفاء فضاقت الصدور بصدر ذلك الصدر على تلك الحاله وعجزت تلك العثرة كما شاء الله عن الاقاله ثم استقل مودعا وداع الابد وكان حسام الدين طمان مقدم عسكر سنجار مع السلطان حاضرا فى الجهاد فاذن له فى العود وأمره بمرافقة صدر الدين والرسل معه والرفق بهم فى مسيرهم فساروا

على

على سمت الرحبه فاغتنم الامير طمان بركة تلك الصحبه فادركت المنية شهاب الدين بشيرا بالسخنه ووصلوا بشيخ الشيوخ الى الرحبه وهناك لقى ربه قال ولقد توفاه الله على الوفاء بعهده والوفاق لعقده مشيم الكرم كريم الشيم صالح العمل ناجح الامل مفارقا للدنيا فى حياته مقبلا على الآخرة قبل وفاته فهو ممن رفعت سريره الملائك ووضعت له فى عليين الارائك وكانت وفاته فى شعبان بوّأه الله الجنان قلت كان صدر الدين هذا أحد السادة وأبوه وجده من أكابر الاعيان وشيوخ مشايخ الزمان وهو عبد الرحيم بن اسماعيل بن أبى سعد احمد بن محمد النيسابورى وقد ذكرت ترجمة والده فى تاريخ دمشق والحقتها من أخبار جدّه بما ذكره أبو سعد السمعانى فى تاريخه وقال ابن القادسى توفى صدر الدين فى رجب برحبة مالك بن طوق ودفن فى قسة الى جنب قبر الشيخ موفق الدين محمد بن المتقنة الرحبى وكان مولده فى ذى الحجة سنة ثمان وخمسمائه وكان شيخا طائلا فى العلم والدين والسداد ثابت الجنان فى الحوادث المزعجه والوقائع الباغتة المجلجه سديد البديهة صافى الفكره جمع بين نظم الشعر ونثر الترسل وكان يرسل الى الاطراف ورتب فى مشيخة الشيوخ منذ توفى والده فى جمادى الاولى سنة احدى واربعين وخمسمائه ولم يزل على ذلك الى أن توفى وتولى بعده مشيخة الرباط صفى الدين اسماعيل ومن شعره يعنى صدر الدين

ولم أخضب مشيبى وهو زين ❊ لايشارى جهالات التصابى
ولكن كى يرانى من أعادى ❊ فارهبه بوثبات الشباب

قلت ووقفت على كتاب فاضلى اليه جوابا عن كتاب عتب فيه (وقف على التحية الطيبه والكرامة الصيبه والالفاظ العذاب الانها الغضاب والنعيم الا انه العذاب والمسامحة الا انها الحساب والمتشابهات اللواتى أوّلها أحسن تأويلها والمحكمات اللاتى هن أم الكتاب ويكفى انه مزج الصاب بعسله وارعف قلمه بما لا يرعفه الشجاع من انوف أسله وهذا باب قد آن سده وسبيل قد وجب صدّه وعين دهر أصابت هذه المودة وقد آن لها أن تنطرف وتنصرف وبادرة هم قد حان ان تنكشف وتنكسف فلا نظر يعدها للعين التى اصابت ولا خط فى أثرها للخطرة التى آبت ولا كان للا بام فى فضل سيدنا على عبده نصيب ولا عدا أبدا على شباب الرضى عنه مشيب ولا تمكن من حبيب ودّه الى القلب رقيب ولا ملك رقه غير تلك اليد الكريمه ولا سمعت حديث الحوادث تلك المودّة القديمه) قال العماد وخرجنا من دمشق فى شعبان وخيمنا على سعسع ودعا تقى الدين فأمره ان يرجع بالعسكر الى مصر فسار فى منتصف الشهر ثم رجعنا من فرض الجهاد الى فرض الصيام بدمشق ورجع كل عسكر الى مركزه ومدح العماد تقى الدين فى هذه الكرة بقصيدة نائية نحو خمسة وثمانين بيتا أوّلها

اذا سئمتما عن غير قلبى تحدثا ❊ فما حل فيه الهم الا ليلبثا
خذا ناهدى صدقى على صحة الهوى ❊ ضناسا كامنى ووجدا محدثا
مريضكما أشفى على الناس سقمه ❊ فلا تجعلا فى أمره وتربثا
رثى لى عدوّى من جفاء احبتى ❊ وناهيك من حال عدوّى لها رثى
عهود كم بعد النوى ما تنعنت ❊ وحاشى لذاك العهد ان يتنعثا
واملك بالملك المظفر ظافرا ❊ من الجدّ والجدوى قديما ومحدثا
مخوف السطا صعب الاباحس النا ❊ مرجى الندى سهل الرضى طيب النثا
صفا آخر العمرين من عمر الذى ❊ به العمران اليوم بالعدل ثلثا
هم أحدثوا قمع الضلالة بالهدى ❊ فذ ملكوا لم تلق فى الدين محدثا
غنائى وغنى انت حامل نقصه ❊ بفضلك ان البحر يحتمل الغثا

ومنها فى وصف القصيده

وقد سهلت والثناء أوعر مرتقى ❊ فلا فرق عندى بين تاء وبين ثا

(فصل) يحتوى على ذكر المفاضلة بين مصر والشام والتعريف بحال زين الدين الواعظ الذى كان صلاح الدين

يكاتبه بوقائعه وهو الذى هم على عمارة وأصحابه بما كانوا عزموا عليه من قلب الدولة الناصرية مصرية كما سبق وسبب ذكره هنا انه هو الذى شرع فى تفضيل مصر بكتاب كتبه الى السلطان فى هذا العام وقد تقدم للقاضى الفاضل كلام فى تفضيل مصر وذم الشام فى أوائل أخبار سنة أربع وسبعين وله من كتاب آخر (فدعونا من بعلبك البلد الاعسر ومن رأس عينها الضيقة المحجر ومن ثلجها الذى تنفش الجبال بعهنه ومن بردها الذى لا يشفع الجمر عنده الا باذنه وعودوا الى ما انزرفتم فيه ومساكنكم فانها قد علتها وحشة لقطينها فسألت مطالع دسوتها عن أقمار سلاطينها واذكروا النيل الذى وفى لكم فى هذه السنة بنقصه وأبى ان يكون ماؤه ذخيرة لغير جودكم الذى أحصاه الله ولم نحصه واذكروا فيضها وماء طوبتها فقد كان يقيم الحجة على ثيخ الشام ووخمه ويتغلغل برده فيسرى الى قلب العليل وكان جاريا على غير طريق فمه واذكروا صحة هوائها وتعصبه لا يامكم حتى أنعم الله عليكم قبل صحة أجسامنا بصحة اجسامكم) ومن كتاب آخر (وأما أحوالى فانى لم أزل ملتاثاما ندخلت دمشق لتغير مائها وهوائها وابنيتها وأبنائها وأوديتها وادوائها وقراها وقرنائها ومن لى بمصر فانى أقنع بما تنبته أرضها من بقلها وقثائها واتيع بردى وماعساه بشربة من مائها وامتطى متن السيف فى هجر سوادها وسودائها فالدلل هائل ولا طائل وما كانسمع به من تلك الفضائل متضائل حتى اذا جاءه لم يجده شيأ فهى بلاد تستجدى ولا تجدى وفعل المال بها لازم التعدى) وقال العماد هذا زين الدين على بن نجا الواعظ من أهل دمشق ومن ساكنى مصر وهو ذو لهجة فى الوعظ فصيحه وبهجة للفصل صحيحه وقبول من القلوب وفصول فى فصل الخطاب للخطوب وقد تأثث وتأثل وقبل وأفبل وأحسن السلطان اليه بالاعطيات والاقطاعات وأجل واعطاه واجزل وأتم له مراده واكمل وكان السلطان يستشيره ويروقه تدبيره ويميل اليه لقديم معرفته وكريم سجيته ووصل فى هذه السنة منه كتاب الى السلطان يشوقه الى مصر ونيلها ونعيمها وسلسبيلها ودار ملكها ودارة فلكها وبحرها وخليجها ونشرها واريجها ومقسمها ومقياسها وانيسى ناسها وقصور معزها ومنازل عزها وجيزتها وجزيرتها وخيرتها وجيرتها وبركتها وبركتها وعدوتها وعدويتها وتعلق القلوب بقليوبها واستلاب النفوس باسلوبها وملتقى البحرين ومرتقى الهرمين وروضة جنانها وجنة رضوانها ومساجدها وجوامعها ومشاهدها ومرابعها ونواظر بساتينها ومناظر ميادينها وساحات سواحلها وآيات فضائلها ورحاب شوارعها وحلاب مشارعها وشروق غربيتها وغروب شرقيتها وطيب طويتها ومسار مسراها ومجرى فلكها ومرساها وعجائب بناها وغرائب مبناها وبيان عيانها باسان بلسانها وكياسة أخلاقها ونفاسة أعلاقها وشتاؤها فى الفضل ربيع نضير وغبارها عبير وماؤها كوثرى وترابها عنبرى ثم وصف العماد غير ذلك ثم قال وذكر زين الدين الواعظ فى كتابه ما دل به على فضيلة تلك الديار من الآيات والاحبار والاداب والآثار ولو ظفرت به لاوردته بلفظه وجلوته بوعظه لكننى فقدته فعزمت معانيه وأحكمت مبانيه قال فكتبت الى زين الدين الواعظ فى جوابه عن السلطان (عرفنا طيب الديار المصرية ورقة هوائها ونحن نسلم له المسئلة فى طيبها وتوفير نصيبها ورقة نسيمها ورائق نسيبها لكن لا ريب ان الشام أفضل وان اجرساكنه أجزل وان القلوب الى قلبه أميل وان الزلال البارد به أعل وانهل وان الهواء فى صيفه وشتائه أعدل وان الزهر به اشب والنبت به أكمل وان الجمال فيه أكمل والكمال فيه أجمل وان القلوب به أروح والروح به أقبل ودمشق عقيلته المشوطه وعقلته المنشوطه وحديقته الناضره وحدقته الناظره وهى عين انسانه بل انسان عينه وصير فى نقوده فى عين نضاره ولجينه فستامها مستهام وما على محبها ملام ومافى ربوتها ريبه وفى كل حبوة حبيبه ولكل شائب من نورها شبيبه وعلى كل ورقة ورقا وعلى كل معانقة من قدود البانات عنقا وشادياتها على الاعواد تطرى وتطرب وساجعاتها بالاوراد تهجم وتعرب وكم فيها من جوار ساقيات وسواق جاريات واثمار بلا اثمان وروح وريحان وفاكهة ورمان وخيرات حسان وجميع ما فى سورة الرحمن ونحن نتلو عليه الآها الى ان يرجع الينا فنتلو على منكرها فبأى آلاء ربكما تكذبان وقد تمسكنا بالآية والسنة والاجماع وغنينا بهذه الادلة عن الاختراع والابتداع اما أقسم الله تعالى بدمشق فى قوله (والتين والزيتون) والقسم من الله لها أدل دليل على فضلها المصون أما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الشام خيرة الله من أرضه يشوق اليها خيرته من عباده) هذا أوضح برهان قاطع على انه خير بلاده أما الصحابة رضوان الله عليهم أجمعوا على اختيار السكنى بالشام أما فتح

دمشق بكر الاسلام ومانكران الله تعالى ذكر مصر وسماها أرضا فالذكر والتسمية فى جنب فضيلة القسم ولا الأخبار عنها دليلا على الكرم وانما اكتسبت الفضيلة من الشام بنقل يوسف الصدّيق اليها عليه أفضل الصلاة والسلام ثم المقام بالشام أقرب للرباط وأوجب للنشاط وأجمع للعساكر السائرة من سائر الجهات للجهاد وأين قطوب المقطب من سناء سنير وأين ذرى منف المشرف من ذروة الشرف المنيف المنير وأين الهرم الهرم من الحرم المحترم وبينهما الرق ما بين الفرق والقدم وهل للنيل مع طول نيله وطول ذيله واستطالة سيله برد بردى فى نقع الغليل ونفع فعليل ومالذاك الكثير طلاوة هذا القليل وسيل هذا السلسبيل واذا فاخرنا بالجامع وقبة النسر ظهر عند ذلك قصر القصر على ان باب الفراديس فى الحقيقة باب النصر وما رأس الطابية كباب الجابيه ولو كان لناسها باباس لم يحتاجوا الى قياس المقياس ونحن لانجفو الوطن كما جفاه ولا تأبى فضله كما أباه وحب الوطن من الايمان ومع هذا فلاننكر ان مصر اقليم عظيم الشان وان مغلها كثير وماءها غزير وان عدّها غير وان ساكنها ملك أو أمير ولكن نقول كما قال المجلس السامى الاجلى الفاضلى اسماه الله ان دمشق تصلح ان تكون بستانا لمصر ولا شك ان أحسن ما فى البلاد البستان وزير الدين وفقه الله قد تعرض للشام فلم يرض ان يكون المساوى حتى شرع فى عدّ المساوى ولعله يرجع الى الحق ويعيد سعدا سعاده ووفاقه الى الاوفق ان شاء الله) قلت وقد قيل فى وصف دمشق ومدحها شئ كثير من النظم والنثر واشتمل ما جمعته فى أوّل تاريخ دمشق على قطعة كبيرة حسنة من ذلك ما وصف شيخنا أبو الحسن على بن محمد السخاوى رحمه الله فى مقامة تشتمل على المفاخرة بين دمشق ومصر ووصف كلا من البلدين بما يليق به وكان أوّل ما قدم دمشق يذمها فى مكاتباته الى مصر نظما ونثرا حبا للوطن ثم لما استقر فيها قرت عينه وفضلها فى بعض مكاتباته وقد ذكرت كل ذلك فى جزء مستقل به وأما القاضى الفاضل رحمه الله فقد قال فى بعض مكاتباته الى مصر (ومما أسر به قلبه الكريم اننى وصلت الى دمشق المحروسة حين شرد بردها وورد وردها واخضرّ نبتها وحسن نعتها وصفا ماؤها وصفد واؤها وتغنت أطيارها وتبسمت ازهارها وافتر زهرا قحوانها فحكى ثغور غزلانها ومالت قضب بانها فاننت تثنى ولدانها فلما قربت من بساتينها ولاح لى فيح ميادينها وتوسطت جنة واديها ورأيت ما أبدعه الله فيها سمعت عند ذلك حماما يغرد وهزارا يشدو ويردّد وقريا ينوح وبلبلا باشجانه يبوح فوقفت اثنى على باديها وأكاد بالدمع أبادرها أسفا على أيام خلت بعد ما حللت منها وفيها فعند ذلك عادت روحى وزال أنينى ونوحى

وكانت النفس قد ماتت بغصتها ❊ فعند ذلك عادت روحها فيها

قلت ووصف أيضا دمشق من أهل مصر من يرجع الى قوله ويرضى بحكمه لفضله وفضله وهو الوزير العادلى صفى الدين أبو محمد عبد الله بن على المعروف بابن شكر فى كتاب البصائر له فقال (دمشق نزهة الابصار وعروس الامصار ومجرى الانهار ومغرس الاشجار ومعرس السفار ومعبد الابرار المستغفرين بالاسحار ظلها الممدود ومقامها المحمود وماؤها المسكوب وعيبها المسلوب ومحاسنها المجموعه وفضائلها المروية المسموعه ودرجتها المرفوعه وفاكهتها الكثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعه ونسيمها العليل وهجيرها الاصيل وماؤها السلسبيل وقد شرفها الله تعالى بالذكر فى كتابه وآوى اليها من اختار من أنبيائه وأحبابه فقال تعالى فى كتابه المبين (واويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين) ولم تزل مقر البركات ومعدن النبوات ومنزل الرسالات ومسكن ارباب الكرامات وورد فى تفضيل بقعتها من الاخبار ما لا يشك فى صحة اسناده قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الشام صفوة الله من بلاده فيها خيرة الله من عباده) ونبه فى خبر آخر على عظم فضله فقال ان الله تكفل لى بالشام وأهله وبارك فى سكناها وركب فى سكانها أهل الاسلام بقوله عليه السلام (البركة فى الشام) وذهب بعض المفسرين من أهل الاجتهاد الى انها ارم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد) قال (ولما أنعم الله تعالى على باسكانى فى فنائها وتخيرى لبنائها ونزهتى فى افنانها وانسى بانسانها مضيت الى جامعها الجامع وشفعت بادراك البصر منه ادراك المسامع فلما وصلت اليه وحللت الحبى لديه رأيت مرآى صغر الروايه ورونقا حصل من الحسن على النهايه ونورا يجلو الابصار وجمعا يفضل

على جموع الامصار وعبادة موصولة على الاستمرار وقرآنا يتلى فى آناء الليل وأطراف النهار ومنقطعين اليه قد انفقوا فى الاعتكاف به نفائس الاعمار والبركات تحف بجوانبه والعلوم تنشر فى زواياه ومحاربه والاحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسند وترى والمصاحف بين ايدى التالين تنشر فلا تطوى واعلام البر فيه ظاهرة فلا تخفى ولا تزوى والخلق منقسمون الى حلق قد نبذ أهلها ما وراءهم من العلق والاسلام فيه فاش والجهل به متلاش وهو مما بناه الاولون لعبادتهم وجعلوه ذخرا لآخرتهم وسارح معبدا لكل ملة اتخذته المجوس واليهود والنصارى قبل الاسلام هيكلا وقبله وهو بيت المتقين وسوق المتصدقين ليله للمتهجدين ونهاره للعلماء المجتهدين) قال (وعاشرت أهلها وباشرتهم ثم كاثرتهم وكاشفتهم فرأيت سادة ادباء وعلما نجباء رأيتهم يتناظرون فى الفقه مناظرة الوالد مع ولده ويقفون عند كتاب الله فلا يعدلون عن واضح جدده ويفسرونه عن علم واستبصار ويحتاطون فى علمهم بصحيح الاخبار ويتبعون ما وردت به ثقاة الآثار وعامتهم مشغولون بالمعاش آخذون من زينتهم عند كل مسجد أفضل الرياش لا يخوضون فى لغط ولا أكدار ولا يجتمعون على فساد نية فى مقبم ولا بعيد الدار) قال (فأقمت منها فى أشرف البلدان التى هى انموذج الجنان وعنوان الدار التى خازنها رضوان والقلوب فيها عند ذكر الله حاضره والنفوس بالخير دون الشر آمره)

(فصل) فى باقى حوادث هذه السنة قال العماد كانت أربل وما يجرى معها من البلاد والقلاع من ولايات الموصل معدودة فى ولاية السلطان فأراد صاحب اربل ان ينفرد عنه ويستبد بالبلاد فاذعن الى السلطان وكاتبه وطلب منه منشورا ببلاده فكتبه له وفيه (ان الله لما مكن لنا فى الارض ووفقنا فى اعزاز الحق واظهاره لاداء الفرض رأينا ان نقدم فرض الجهاد فى سبيل الله فنوضح سبيله ونقيل على اعلاء كلمة الدين وننصر قبيله وندعو أولياء الله من بلاد الاسلام الى غزو اعدائه ونجمع كلمتهم فى رفع كلمته العليا فى أرضه على استنزال نصر من سمائه فمن ساعدنا على اداء هذه الفريضه واقتناء هذه الفضيله يحظى من عوارفنا الجزيله بحسن الصنيعة ونجح الوسيله ومن أخلد الى الارض واتبع هواه وأعرض عن حق دينه بالاقبال على باطل دنياه فان اناب قبلناه وان أصر على غوايته ارلنا يده وعزلناه) وتفصيل ما كتب فى منشوره اربل وقلعتها وأعمالها جميع ما قطعه الزابى الكبير شهرزور وأعمالها معايش بيت قنجاق معايش بيت الفرابلى الدست والزرزاريه قال وفى هذه السنة مستهل جمادى الآخره توفى صاحب ماردين وهو قطب الدين ايلغازى بن البى بن تمرتاش بن ايلغازى ابن ارتق والامراء الارتقيه هم الذين رتقوا فتوق الاسلام أولا وكانوا يتولون بيت المقدس وحموه من الافرنج قبل المصريين وانما أخذه الفرنج سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة من المصريين فبقى الساحل كله مع أهل الشرك فحمت الارتقيه ديار بكر وما والاها وحلب وأعمالها وتوارثوا ديار بكر كابرا عن كابر الى ان انتهى الى هذا قطب الدين أعمال ميافارقين وماردين فلما مات بقيت على ولده وله عشر سنين وانتهى الى ابن عمه نور الدين محمد بن فرا ارسلان ابن داود بن سليمان بن ارتق حصن كيفا وخرتبرت والبلاد التى تناسبها وأضاف السلطان اليه أمد وقد كان قطب الدين أولا على مصافاة صاحب الموصل لما بينهما من القرابه ثم أذعن للسلطان ودخل تحت طاعته قلت وفى هذه السنة أيضا توفى خليفة المغرب يوسف بن عبد المؤمن بن على وولى ابنه يعقوب قال القاضى ابن شداد وبعد عود السلطان من حصار الكرك وصل رسل الخليفة ومعهم الخلع فلبسها السلطان وألبس أخاه العادل ابن أسد الدين خلعا جاءت لهما ثم خلع السلطان خلعة الخليفة على نور الدين بن فرا ارسلان وأعطاه دستورا فسار الى بلاده ووصلت رسل زين الدين مستصرخا الى السلطان يخبران عسكر الموصل وعسكر قزل نزلوا على اربل مع مجاهد الدين قايماز وانهم نهبوا وحرقوا وانه نصر عليهم وكسرهم فلما سمع ذلك سار من دمشق يطلب البلاد وتقدم الى العساكر فتبعته وسار على طريق المغار ويبوس البقاع الى بعلبك ومرض العماد فانقطع بها وسار السلطان الى حمص ثم الى حماه فأقام بها الى ان شفى العماد ولحقه بها وكان الاجل الفاصل بدمشق فأرسل الحكيم ابن المطران واسمه أسعد بن الياس الى العماد ببعلبك لما سمع بمرضه فسار من دمشق الى بعلبك فى يوم وليلة وعمل معه عمل من طب لمن حب فبرئ بعون الله تعالى فرجع الى دمشق فلما استقام مزاجه رحل الى السلطان فوافقه بحماه

(ودخلت سنة احدى وثمانين) فقال العماد والسلطان مخيم بظاهر حماه فسار الى حلب وتلقاه أخوه العادل واجتمعت له بها العساكر فخرج منها فى صفر لقصد الموصل فسار وقطع الفرات وأقام العسكر ثلاثة أيام للعبور بها وكان السلطان قد سير الى معاقل الفرات وقلاعه ونواحيه وضياعه وأمر أهلها بعمارة كل سفينة فى الفرات وزورق ومركب وجمعها من كل مشرق ومغرب ثم وصل الى حران وفيها مظفر الدين بن زين الدين وهو أخو زين الدين يوسف صاحب اربل وقد كان أول من دخل فى خدمة السلطان وأول ما قصد تلك البلاد فى المرة الاولى واقتدى به أخوه وغيره من أصحاب الاطراف فى الانتماء الى السلطان وحضر معه حصار عدة بلاد كالموصل وسنجار وآمد وحلب وأظهر من المودة فوق ما كان فى الحساب وكان كثير الحث للسلطان على المسير الى الموصل هذه المرة برسوله وكتابه وقال رسوله للسلطان ان مظفر الدين اذا عبرتم الفرات يستدرك كل ما فات ويقوم بكل ما يحتاج اليه فى تلك البلاد من النفقات والغرامات والازواد وتقدم يوم الوصول الى حران خمسين ألف دينار وكتب خطه بذلك فلما وصل السلطان الى حران لم ير منه ما التزمه الرسول فارتاب به وظن انه مال مع المواصلة ووشت الاعداء فيه بذلك وأن نيته قد تغيرت فخلا للسلطان انه لم يتغير وان ما التزمه الرسول لم يكن بأمره وهو ابن ماهان فانعزل عنده عن مرتبته وهان فقبض السلطان على مظفر الدين ليتبين أمره وتشاور فيه أصحابه فأشار بعضهم باتلافه وبعضهم باستبقائه واستتلافه فعفا السلطان عنه على ان يسلم اليه قلعتى الرها وحران ففعل ذلك وهو مسرور ببقاء نفسه ثم أعيدت اليه القلعتان فى آخر السنة لما رأى السلطان من حركاته المستحسنة قال القاضى ابن شداد وسار السلطان حتى أتى حران على طريق اليه والتقاه مظفر الدين بالبيرة فى ثانى عشر المحرم وكان قد وصل اليه عز الدين بن عبد السلام يعنى الموصلى رسولا واسمه ابراهيم بن على بن عبد السلام ويكنى بأبى الخليل فلقيه بحماه يعتذر مما جرى فأعطاه دستورا بعد ان أكرمه وسار من غير غرض قلت وصحب ابن عبد السلام فى هذه السفرة من الموصل عمر بن محمد المعروف بابن الشحنة فمدح السلطان بقصيدة أولها

على الحى من وادى الغضا اذ تفرقوا ❊ سلام مشوق قد براه التشوق

فلما بلغ مديحها الى قوله

وقالت لى الآمال ان كنت لاحقا ❊ بابناء أيوب فانت الموفق

قال له السلطان لقد وفقت وأجازه جائزة سنية ثم قال القاضى وتقدم السلطان الى سيف الدين المشطوب ان يسير فى مقدمة العسكر الى رأس عين ووصل السلطان حران فى الثانى والعشرين من صفر وفى السادس والعشرين منه قبض على مظفر الدين لشئ كان جرى منه وحديث كان بلغه عنه رسوله ولم يقف عليه وأنكره وأخذ منه حران والرها ثم أقام فى الاعتقال نأديبا له الى مستهل ربيع الاول ثم خلع عليه وطيب قلبه وأعاد عليه قلعة حران وبلاده التى كانت بيده وأعاده الى قانونه فى الاحترام والاكرام ولم يتحلف له سوى قلعة الرها ووعده بها ثم رحل السلطان ثانى ربيع الاول من حران الى رأس عين ووصله فى ذلك اليوم رسول قلج ارسلان يخبره ان ملوك الشرق بأسرهم قد اتفقت كلمتهم على قصد السلطان ان لم يعد عن الموصل وماردين وانهم على عزم ضرب المصاف معه ان أصر على ذلك فرحل السلطان يطلب دنيسر فوصله ثامن ربيع الاول عماد الدين بن قرا ارسلان ومعه عسكر نور الدين فالتقاهم السلطان واحترمهم ثم رحل من دنيسر نحو الموصل حتى نزل بموضع يعرف بالاسماعيليات فرتب الموصل بحيث يصل من العسكر كل يوم نوبة جريدة تحاصر الموصل فبلغ عماد الدين بن قرا ارسلان موت أخيه نور الدين فطلب من السلطان دستورا طمعا فى ملك أخيه فأعطاه دستورا وقال العماد خرج السلطان من حران فى ربيع الاول فرعى رأس عين ودارا فخرج أميرها بأصحابه فى الخدمة وقدم عماد الدين أبو بكر بن قرا ارسلان بعساكر ديار بكر وآمد نيابة عن أخيه نور الدين فانه كان مريضا ثم رحل الى نصيبين وقدم صاحب الجزيرة سنجر شاه ابن أخى صاحب الموصل فأكرمه السلطان ثم سار من أقرب الطرق من دجلة وتنكب طريق الدولعية فنزل على بلد آخر ربيع الاول ثم توجه الى الموصل ونخيم على الاسماعيليات وقدم على السلطان زين الدين صاحب اربل وأول ما بدأ به السلطان يوم نزوله على بلد قبل

الاسماعيليات ارسال ضياء الدين أبي الفضائل القاسم بن يحيى بن عبدالله الشهرزوري الى الخليفة بما عزم عليه من حصر الموصل فان أهلها مواصلون الاعاجم وخاطبون لسلطانهم القائم وناقشوا اسمه في الدنانير والدراهم وانهم يتعززون بالبهلوان ويجزون الاعن الطاعة والاذعان وانهم يراسلون الى الفرنج ويقوون نفوسهم على قصد الثغور وتفريق الجمهور وانه ماجاء طمعا في استضافة ملك ولا استزادة سلك ولا تلمع ثبت قديم ولا قطع أصل كريم وانما مقصوده الاصلي ومطلوبه الكلي ردهم الى طاعة الامام ونصرة الاسلام وكشف ما اعتادوه واعتدوه من الظلم والظلام وكظمهم عن استحلال الحرام وقطعهم عن مواصلة الاعجام والزامهم مما يجب عليهم من حفظ الجار وصلة الارحام فهذا صاحب الجزيرة وهو ابن أخي صاحب الموصل ولي عهد أبيه لم يرع فيه ذمة أخيه وأبعده عما استحقه بالارث والتوليه وحرمه ما يستوجبه من التربية والتلبيه وأخاف حرمه وقطع رحمه ولو تمكن منه لاطاح دمه ولولا خوفه من جانبه وتوقيه من دبيب عقاربه لما التجأ الى هذا الجانب ولما اختار الاجانب على الاقارب وهذا صاحب اربل جار الموصل أبوه زين الدين علي هو الذي حفظ بيتهم وخلف في أحيائهم ميتهم وهذا ولده في جوارهم مسكوه بجورهم وحديث صاحب الحديثة في حادثة لا تخفى وعين من بتكريت من مخافتهم وآفتهم لا تكرى قلت وفي بعض الكتب الفاضلية عن السلطان الى الديوان (وكان قد تحجب الى الخادم في وقت حركته صاحب تكريت والحديثة وهو يستأذن في استتباعهما بحكم التقليد الذي تناول هذا وغيره ولم يستأذن في ذلك استئذانا مخصصا الا لمحلهم من جوار دار الخلافة ولانهما يريان الخادم اضافه الى ما يجري في خاص الديوان العزيز مع غيرهما مما يجري مجراهما في القرب من الجوار والدخول في زمام شرف تلك الدار فان أذن له استثنائهما في صلح ان تم معهم أو حماهما مع مباينيه ان اختار المشار اليهم البقاء عليهما وهذا بر دشرف قد أعوزه عمله وتاج اذا أسلمه الخط الشريف نظم العمار منتظمه) وفي كتاب آخر (وما كنا بشهادة الله في قتال المذكورين الا كقاطع كفه ليسلم سائر جسمه وكراكب حد السنان مضطرا في حكمه) وأصحب العماد الرسول قصيدة مدح بها الصاحب مجد الدين أبا الفضل أولها

قضى الوجد لي ان لا أفيق من الوجد ❊ فيا ضلة اللاحي اذا ظن ان يهدي
محبكم جلد على كل حادث ❊ ولكن على هجرانكم ليس بالجلد
ببغداد حط وارحلكم ليخصكم ❊ أبو الفضل مجد الدين بالفضل والمجد
رآه الامام الناصر الدين ناصرا ❊ فحاول تعويلا على نجده المجدي

ومنها

اليك صلاح الدين الجاء أمره ❊ فحط ركنه والعقد بالشد والشد
مليك على حرب العدو مصمم ❊ ومازال فيه غالب الجد والجند
تساور أفواه الجراح رماحه ❊ مساورة الاميال للاعين الرمد
يحل المنايا الحمر بالكفر محمرا ❊ دم الاصفر الرومي بالابيض الهندي
ومن لامير المؤمنين كيوسف ❊ فتى في مراضيه بهجته يندي

قال وشرع السلطان في اقطاع البلاد والتوقيع بها على الاجناد وسير الامير سيف الدين علي بن أحمد المعروف بالمشطوب الهكاري ومعه الامراء من قبيلته والاكراد من شيعته الى بلد الهكاريه وجماعة من الامراء الحميديه الى العقر وأعمالها لاستفتاح قلاعها واستغلال ضياعها ونصب الجسر وملك الامر وعبر مظفر الدين صاحب حران وغيره من الامراء وخيموا بالجانب الغربي وكان الحر اذ ذاك شديدا فأمر السلطان بالصبر عن القتال الى ان يطيب الزمان وأهل الموصل في الحصار وأشير عليه بتحويل دجلة وكان ماؤها قد قل بطريق ذكره خبير بها زعم انه يمكن سد دجلة وسكرها وثبق فرضة أخرى وكسرها ونقلها وتحويلها الى دجلة نينوى وتعطش الموصل اذا الماء عنها انزوى وعرض ذلك على رأي الفقيه العالم فخر الدين أبي شجاع ابن الدهان البغدادي وكان مهندس زمانه وانسان عين الفضل وعين انسانه وكان منذ عهد قديم سكن الموصل في ظل كبير من أصحاب زين الدين علي ولما سمع بكرم

السلطان تفيأ بظله وتعرف الى فضله فصدق المشير بذلك وقال هذا ممكن ولا يتعذر ويتيسر ولا يتعسر ومن كتاب عمادى الى بغداد (وذكر المهندسون أهل الخبرة انه يسهل تحويل دجله الموصل عنها بحيث يبعد مستقى الماء منها وحينئذ يضطر أهلها الى تسليمها بغير قتال ولا حصول ضرر فى تضييق ولا نزال)

(فصل) فيما فعل السلطان فى أمر خلاط وميافارقين وغيرهما من البلاد قال العماد ثم وصل خبر وفاة شاه أرمن صاحب خلاط فتحول اليها العزم وترجح بها الحزم وكان ورود خبر موته فى العشرين من ربيع الآخر وكان موته فى التاسع منه ولم يخلف ولدا ولا ذا قرابة يكون خلفا له فيها ووردت كتب الاولياء من أهل بدليس وغيرها الى السلطان يخطبونه لها وهم خائفون من العجم ان يتولوها فاختلف الناس على السلطان فمن مشير بالاقامة الى انفصال أمر الموصل ومن مشير بالمسير الى بلاد الارمن فان الموصل غير فائتة ومن قائل بانقسام العسكر فى الجهتين فترجح رأى السلطان على المسير اليها فكتب الى الخليفة يطلب منه كتاب تقليد ببلاد الارمن وديار بكر والموصل فجاءه بعد فتح ميافارقين مثال شريف بتقليده النظر فى أمر ديار بكر والنظر فى مصالح أيتام ملوكها ثم رحل السلطان عن الموصل فى أواخر شهر ربيع الآخر وقدم فى مقدمته ناصر الدين محمد بن شيركوه ابن عمه ومظفر الدين صاحب حران وأمرهما ان يسيرا الى خلاط من أقرب الطرق فلما وصلا وجدا سيف الدين بكتمر أحد مماليك شاه أرمن قد دخلها وحماها وتغلب عليها وجاء بهلوان فى عساكر السرق وهو شمس الدين أبو جعفر محمد بن ايلدكز متولى تلك البلاد فنزل من الجانب الآخر وكان وزير خلاط مجد الدين بن الموفق بن رشيق يظهر للسلطان المودة والمناصحة وهو على خلاف ذلك وكتب الى ناصر الدين ان يقيم على القرب فهو أشد للارهاب والرعب ففعل ولو خلا به لسبق اليها وقيل ان هذا الوزير أيضا انفذ الى بهلوان وأمره بالاتيان وأظهر له المودة والاحسان وللعادى الزمان وقرب منها البهلوان راسله بكتمر وحمل اليه مع ابنته زوجة شاه أرمن الاموال التى أودعت المخزن وندب السلطان اليها الفقيه ضياء الدين عيسى فدخلها وتخللها وتأملها وتكلم مع الوزير وشاور فأحال الحال على البهلوان وانه جاء ليتملك المكان ولو استعجلتم لسهل ما صعب الآن وهان ثم جرت مراسلة بين السلطان والبهلوان وانفصل الامر كأنه ما كان وقال القاضى ابن شداد وفى ربيع الآخر توفى صاحب خلاط وولى بعده غلام له يدعى بكتمر وهو الذى كان وصل رسولا الى خدمة السلطان بسنجار فعدل وأحسن الى أهل خلاط وكان متصونا فى طريقته فأطاعه الناس ومالوا اليه ولما ملك خلاط امتدت نحوه الاطماع فسار نحوه البهلوان بن ايلدكز فلما بلغه ذلك سير الى خدمة السلطان من يقرر معه تسليم خلاط اليه وابدر اجه فى جملته قطع السلطان بخلاط وارتحل عن الموصل متوجها نحوها وسير اليه الفقيه عيسى وغرس الدين قليج لتقرير القاعدة وتحريرها فوصلت الرسل و بهلوان قد قارب البلاد جدا فخوف بهلوان من السلطان وأشعره انه ان قصده سلم البلاد الى السلطان فطلب بهلوان اصلاحه وزوجه ببنت لهم وولاه وأعاد البلاد اليه واعتذر الى رسل السلطان وعادوا من غير زبدة وكان السلطان قد نزل على ميافارقين فحاصرها وقاتلها قتالا عظيما ونصب عليها المجانيق وملكها فى آخر جمادى الاولى قال العماد واستشعر ملوك ديار بكر من حركة السلطان وكان قدمات صاحب ماردين كما تقدم وبقيت الولاية لولده الكبير وله عشر سنين وكان القائم بتدبير ملكه نظام الدين ابن البقش ومات أيضا صاحب آمد نور الدين محمد بن قرا ارسلان رابع عشر ربيع الاول من هذه السنة وتولى ابنه قطب الدين سكمان فاحترزوا من السلطان وخافوا ان يسترد بلاد آمد منهم فنفذ السلطان اليهم شمس الدين بن الفراش ليختبر حالهم فى المحاربة والمسالمة فوجدهم على الطاعة مقيمين واليه راغبين ومنه راهبين ووصل السلطان فى جمادى الاولى الى ميافارقين وكان دخلها من أمراء صاحب ماردين أسد الدين يرتقش واستعصى فيها على السلطان فحاصره وقاتله ثم رأى ان القتال يطول فراسل أميرها الاسد ورغبه فى المواعده ونهاه عن المقاطعه وكان فى المدينة خاتون ابنة قرا ارسلان وهى زوجة قطب الدين صاحب ماردين الذى توفى فحال الاسد الامر على الخاتون فراسلها السلطان ورغبها وضمن لها كل ما تطلبه منه ووعدها ان يصاهر اليها فمازال بها و بالاسد حتى لانا فقرر السلطان لها كل ما كان باسمها واسم خدامها وطلبت حصن الهتاخ ليكون لها عشا للافراخ وزوج السلطان ابنه ممز الدين اسحاق باحدى كرائمها وابرم العهد وأحكم العقد وسارع السلطان الى نداء كل

ما اقترحوه وفتحت ميافارقين وأقبل صاحب آمد قطب الدين سكمان بن نور الدين علي صغر سنه الى خدمة السلطان فاكرمه وأعاده الى منصبه وكان معه وزيره قوام الدين أبو عبد الله محمد بن سماقه وقتل غيلة في رمضان من هذه السنة كما سيأتي ثم سار السلطان لقصد الموصل وولى تلك الديار مملوكه حسام الدين سنقر الحلاطي فنزل السلطان على دجلة بكفرزمار بقرب الموصل في شعبان وعزم على انه يشتي في ذلك المكان فخرجت من الموصل نساء اتين اليه بكتاب متعرضات للشفاعة فاكرمهن السلطان ووعدهن بالاحسان وقال قد قبلت شفاعتكن لكن لا بد من مصلحة تتم ومصالحة تنفعها يعم واستقر الامر على ان يكون عماد الدين زنكي صاحب سنجار أخو صاحب الموصل وسيطا في اصلاح ذات البين وحكما فيما يعود لمصلحة الجانبين فانه كانت شفاعته سابقه ورأى بهذا الرأى قضاء الحقين وتعطف وتلطف لاجلهن واجلالهن وأتى بالكرامة بما يليق بأمثالهن وكن ظن انه لا يقيم لحرمة قصدهن ولا يصدق ظنونهن وانه لا يعرف حقوقهن ويقضي بمكارمه ديونهن ولا يشتغل بأمر لا يؤذن بمرادهن فدخلن البلد مكلومات متذممات ويلطف الله لا تذات معتصمات

(فصل) في انتظام الصلح مع أهل الموصل ومرض السلطان المرضة المشهورة بحران قال العماد وكان السلطان لما دخل شهر رمضان داوم قراءة القرآن وحفظه واشتغل بالصيام والتقليل من الطعام فظهر انزعاجه وتغير مزاجه وتعذر علاجه وطال مرضه وندم على رد السفراء وسير الى عماد الدين صاحب سنجار في انفاذ رسله ليوعز بكل ما يعود بسؤله فوصل رسوله شمس الدين بن الكافي وكان من قبل قد سبق القول في تسليم بلاد شهرزور وقلاعها وحصونها وضياعها وكذلك ما وراء الزابين من البوازيج والرستاق وبلد القرابلية وبني قنجاق فدخل شمس الدين بن الكافي وشمس الدين قاضي العسكر من جانبنا الى الموصل لاخذ العهد على هذا الملتزم ورحل السلطان قبل عيد الفطر بيوم وهو من بحر بحرانه في عوم وخيمنا على نصيبين في شوال ولم تترقب عود الرسول بنجاز الاشغال بل كان الارتحال على الارتحال ثم استمر الصلح وصلح الامر وخطب في جميع بلاد الموصل للسلطان بعد قطع خطبة السلجوقيه وفي ديار بكر أيضا والولايات الارتقيه وضرب باسمه الدينار والدرهم وانحل الاشكال وكشف المبهم وكتب العماد عن السلطان كتابا الى أخيه سيف الاسلام باليمن بشرح الحال وفيه (ونزل لنا صاحب الموصل عن جميع ما وراء الزاب من البلاد والقلاع والحصون والضياع وشهرزور ومعاقلها وأعمالها وولاية بني قنجاق وولاية العرابلي والبوازيج وعانه وقررنا عليه الموصل وأعمالها على انه يكون بحكمنا وينفذ عسكره الى خدمتنا وتكون الخطبة والسكة باسمنا وان يطلق المظالم ولا يرتكب المآثم وقد حصل لنا من صاحب الموصل ومن جميع من بالجزيرة وديار بكر الطاعة والسكة والخطبة وعمت الهيبة والرهبة والعزائم الى الجهاد في سبيل الله نوازع وقد زالت العوائق وارتفعت الموانع) قال ونفذ السلطان الى شهرزور مملوكه مجاهد الدين أيار سربك فتملكها وتملك ونال المقاصد وأدرك وكان التركمان الايوائية مستولية عليها فشتت شملها وندب للنظر في تلك الاعمال القاضي شمس الدين بن القراش وأقطع البوازيج لبعض خواصه المماليك وسير الى البلاد نوابه ورتب فيها الاذانة سنن العدل والاحسان أصحابه ووقف ضيعة في البوازيج تعرف بنافيلا على ورثة شيخ الشيوخ ببغداد وقال القاضي بن شداد لما ايس السلطان من أمر خلاط عاد الى الموصل فنزل بعيدا عنها وهي الدفعة الثالثة بموضع يقال له كفرزمار وكان الحر شديدا فاقام مدة وفي هذه المنزلة أتاه سنجر شاه من الجزيرة واجتمع به وأعاده الى بلده ومرض السلطان بكفرزمار مرضا شديدا خاف من غائلته فرحل طالب حران وهو مريض وكان يتجلد ولم يركب في محفه ووصل حران شديد المرض وبلغ الى غاية الضعف وايس منه وأرجف بموته ووصل اليه أخوه العادل من حلب ومعه الاطبا قال وكان سبب صلحه مع المواصلة ان عز الدين صاحب الموصل سير لي الى الخليفة يستنجده فلم يحصل منه زبدة وسير الى العجم فلم يحصل منهم زبده فلما وصلت من بغداد وأديت جواب الرسالة ايس من نجده فلما بلغهم مرض السلطان رأوا ذلك فرصة وعلموا رقة قلبه وسرعة انقياده في ذلك الوقت فندبوني لذلك الامر وبها الدين الربيب وفوض الي أمر النسخة وقالوا أمض ما يصل جهدكم وطاقتكم اليه فسرنا حتى أتينا العسكر والناس كلهم آيسون من السلطان وكان وصولنا في أوائل ذي الحجة فاحترمنا احتراما عظيما وجلس لنا وكان أول جلوسه من مرضه

وحلف

وحلف فى يوم عرفة وأخذنا منه بين النهرين أخذها من سنجر شاه وأعطاها الواصلة وحلفته يمينا تامة وحلفت أخاه العادل ومات قدس الله روحه وهو على ذلك الصلح لم يتغير عنه وسرنا عنه وهو بحران وقد تماثل ووصله خبر موت ابن أسد الدين صاحب حمص وكانت وفاته يوم عرفة ونحن فى العسكر وجلس العادل فى العزا وفى تلك الايام كانت وقعة التركمان والاكراد وقتل بينهم خلق عظيم وفى هذا الشهر وصل خبر وفاة بهلوان بن ايلدكز وكانت وفاته فى سلخ ذى الحجة قال العماد وأقام السلطان على نصيبين أياما قلائل ثم رحل الى حران فالقينا بها عصى النوى والقلوب بمرض السلطان متخاذلة القوى متواصلة الجوى والفضل خائف من كساده آسف على عتاده مشفق من انخفاض قدره وانقراض عصره والسماح يقول هذا أوان كسوف سمائى ونضوب مائى والدين يندب والملك يصخب والايدى الى الله تعالى مرفوعه والنيات بالاخلاص مشفوعه والكفر فى أراجيف والقدر فى تصاريف والسلطان كلما زاد المه راد فى لطف الله أمله وكلما بان ضعفه قوى على الله توكله وأنا ملازمه ليلا ونهارا سرا وجهارا وهو يملى على فى كل وقت وصاياه ويفرق بقلمى على عفاته عطاياه ومن جملة ذلك انه اشتدت به الحال ليلة ايس بها منه الاطباء وغلب القنوط وعدم الرجاء فلما أصبح اجتمع المعتفون والوافدون الى بابه والقاصدون المرتجون جنى جنابه وضجوا ضجة ارتجت منها الدهما ولانت لسماعها الصخرة الصماء فسأل عن ذلك فقيل هؤلاء وفدك قد اجتمعوا على بابك متأسفين على ما بابك فدعانى وأمرنى بكتب أسمائهم وتفريق ما اجتمع فى خزانته من المال عليهم وأمسينا وما على الباب سائل وكان ظن ان سببه من الالم شغل شاغل فوجد بتلك السماحة راحه واستمر مدة استمرار مرضه على بذل جوهر ماله وعرضه وكان خلقه أحسن ما كان فى حال الصحه يخاطبنا بسجاياه السهلة السمحه ولا يخلو مجلسه من ذوى فضل وأولى نباهه ونبل يتجاذبون بحضرته أطراف الفوائد ويهزون لمكارمه أعطاف المحامد فمارة فى أحكام شرعيه ومسائل فقهيه وأونة فى صناعات شعريه وألفاظ عربيه ومعان أدبيه ومرة فى أحاديث الاجواد وشيم الامجاد ودفعة فى ذكر فضائل الجهاد وفرائض التأهب له والاستعداد وينذر انه ان خلصه الله من نوبة هذه النوبه وأعفاه من كدر هذه المرضة ومرارتها بالعافية الصافية الحلوه استغل بفتح البيت المقدس ولو ببذل نفائس الاموال والانفس وانه لا يصرف بقية عمره الا فى قتال أعداء الله والجهاد فى سبيله وانجاد أهل الاسلام والاقبال على قبيله وانه لا يترك شيمة الجود والسماحة بالموجود والوفاء بالعقود والمحافظة على العهود وانجاز الموعود قال وربما استروح فى بعض ساعات الليل أو النهار الى السماع لاشارة الاطباء به لاجل التفريح والامتاع ولقد كان ذلك المرض محيصا من الله للذنوب وتنزيها وتذكرة موقظة من سنة الغفلة وتنبيها قال ولما سمع العادل فى حلب مرض أخيه السلطان ووصوله الى حران بادر بالوصول وصادف وقت القبول وقام بضبط الامور وسياسة الجمهور والجلوس فى كل يوم فى النوبتية السلطانيه لتولى مصالح الرعيه واقامة وظيفة السماط والعمل فى كل يوم بالاحتياط والتصدى لكشف المظالم وبث المكارم وتنفيذ ما يخرج من المراسم ورفع كل خرق ورتق كل فتق وحفظ المهابه والقيام عن السلطان فى كل مهم بحسن النيابه ولقد نفعنا حضوره ورفعنا تدبيره فقد كنا على خوف من ارجاف يقوى وانتشار خبر سوء لا يطوى لاسيما اذا خرج الاطباء وقالوا ما فيه أمل ولكل عمر اجل فهنالك ترى الناس يستشعرون وبابعاد ما يعز عليهم من اعلاقهم ودوابهم يستظهرون فرال بحضور العادل كل مخافه وسلم الله برأفته من كل آفه وكان الملك العزيز عثمان ولد السلطان مع أبيه مقتديا بمعاليه مقتفيا لمراضيه وكان من جملة وصاياه عند اشفائه وارجاء ترجى شفائه ان ادركنى الاجل المحتوم ودنا اليوم المعلوم فقد خلفت أبا بكر وعمر وعثمان وعليا وكلهم اراه بمرادى فى اقامة الجهاد مليا فعنى بأبى بكر سيف الدين أخاه وبعمر تقى الدين ابن أخيه وبعثمان وعلى ولديه الملكين العزيز والافضل ورأى عليهما بكفالة سيف الدين وتقى الدين فى الشام ومصر المعول وأقام العادل الى ان وضح المزاج وصح المنهاج وطابت القلوب وغابت الكروب ثم وصل مع أخيه الى حلب وتم معه الى حمص ودمشق وهب له نسيم مصر فاستحدا الى نشره النشق وسيأتى ذكر مضيه الى مصر مع الملك العزيز فى سنة اثنتين وثمانين ووصول الملك الافضل من مصر وبعده الملك المظفر تقى الدين قال العماد وكانت صدقاته الراتبة داره وبالابرار باره على ان جوده مستوعب للموجود ولا يترك فضلا للوفود ولما مرض وعرض له

من الالم ماعرض قال لى اكتب الى الولاة والنواب بالديار المصرية والشامية ان يتصدقوا على الفقراء والمساكين من المال المعد للحمل بما نص على قدره فى التعيين فلم يبق فى الممالك الا من وصل اليه نصيب ودعا بالصالحات ومن الله لدعائه مجيب فدفع بالصدقة البلاء ورفع باصدق الولاء ونظر الله الى النيات واسنى سنا منه السنيات ومن جملة تلك الصدقات انه أمرنى ان أكتب الى نائبه بدمشق الصفى بن القابض ان يتصدق بخمسة آلاف دينار صوريه فقلت ماعنده غير دنانير مصريه فقال يتصدق بها مصريه خمسة آلاف لمفوز من الثواب باضعاف قال ولما امتد زمان مرضه أمر ببناء دار عند سرادقه وحمام فبنيت فى أربعة اوخمسة أيام وكان قد استحضر من دمشق ولديه الصغيرين تورانشاه وملكشاه وامهما فأسكنهم فيها مدة مقامه وسماها دار العافية للبرء فيها من سقامه ثم اخلاها لمن ينزل بها ضيفا وجعلها للاوين اليها وقفا وبعدها اتصلت المواصلة بين السلطان والمواصلة فاهدى السلطان لهم هدايا عظيمة لصاحب الموصل ولوالدته ولصاحبته ولابنه نور الدين رحمه الله وقوم ماسيره اليهم بمايربى على عشرة آلاف دينار سوى الخيل والطيب والشئ البديع والغريب وجرى أمر المواصلة على السداد وتجهزوا فى النصرة الناصرية على ماسيأتى شرحه الى الجهاد وأول بركات الانفاق فتح البيت المقدس وسائر البلاد وتجددت الفتوح وانجدت الملائكة والروح وامتحنت باليسر العسرة وصحت بحطين الكسره وخص الله السلطان بفضيلة فتح القدس وقضى حاجاته التى كانت فى النفس وسيأتى ان شاء الله شرح كل فتح فى موضعه وكيف أشرق سناء النصر من مطلعه وكتب الفاضل من دمشق الى تقى الدين بمصر (ان العافية الناصرية قد استفاضت أخبارها وفاضت أنوارها وآثارها وولت العلة والحمد لله واطفئت نارها وانجلى غبارها وخمد شرارها وما كانت الا فلتة وقى الله شرها وعظيمة كفى الاسلام أمرها ونوبة امتحن الله بها نفوسنا فرأى أقل ماعندها صبرها وما كان الله ليضيع الدعاء وقد أخلصته القلوب ولا ليوقف الاجابة وان سدت طريقها الذنوب ولا ليخلف وعد فرج وقد ايس الصاحب والمصحوب

نعى زاد فيه الدهر مما ❊ فأصبح بعد بؤساه نعيما
وماصدق النذير به لانى ❊ رأيت الشمس تطلع والنجوما

وقد استقبل مولانا السلطان الملك الناصر العافية غضة جديده والعزمة ماضية حديده والنشاط الى الجهاد والجنة مبسوط البساط وقد انقضى الحساب وجزنا الصراط وعرضنا نحن على الاهوال التى من خوفها كاد الجمل يلج فى سم الخياط) ومن كتاب آخر (الاحوال بالحضرة مستقيمه والنعمة بالعافية عظيمه والبقية الموهوبة من العمر الناصرى كريمة القيمه عرف وعرف الناس شكرها ولزم ولزموا قدرها فسيوف الجهاد قد كادت تهتز فى اغمادها وخيل الله قد كادت تنادى أهلها اركبى لميعاد طرادها والمسجد الاقصى مبشر تأنيسه بما استوحش منه من القرآن وتطهيره مما استولى عليه من رجس الصلبان)

❊(فصل)❊ فى باقى حوادث هذه السنة ومن توفى بها من الاعيان قال العماد فى هذه السنة توفيت الخاتون العصمية بدمشق فى ذى القعدة وهى عصمة الدين ابنة معين الدين انر وكانت فى عصمة الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى رحمه الله فلما توفى وخلفه السلطان بالشام فى حفظ البلاد ونصرة الاسلام تزوج بها فى سنة اثنتين وسبعين وهى من أعف النساء وأعصمهن وأجلهن فى الصيانة وأحزمهن متمسكة من الدين بالعروة الوثقى ولها أمر نافذ ومعروف وصدقات ورواتب للفقراء وادرارات بنت للفقهاء والصوفية بدمشق مدرسة ورباطا قلت وكلاهما ينسب اليها فالمدرسة داخل دمشق بمحلة حجر الذهب قرب الحمام السركسى والرباط خارج باب النصر راكب على نهر بانياس فى أول الشرف القبلى وأما مسجد خاتون فى اخر الشرف القبلى من الغرب فهو منسوب الى خاتون أخرى قديمة تقدم ذكرها وهى زمرد بنت جاولى أخت الملك دقاق لامه وزوج زنكى والد نور الدين رحمهم الله قال العماد وذلك سوى وقوفها على معتقيها وعوارفها وأياديها وكان السلطان حينئذ بحران فى بحر المرض وبحرانه وعنف الالم وعنفوانه فما أخبرناه بوفاتها خوفا على تزايد علته وتوقد غلته وهو يستدعى فى كل يوم درجا ويكتب اليها كتابا طويلا ويلقى على ضعفه من تعب الكتابة والفكر حملا ثقيلا حتى سمع نعى ناصر

الدين محمد بن شيركوه ابن عمه فنعيت اليه الخاتون وقد تعذت عنه اليهما المنون وكانت وفاة ناصر الدين بحمص في تاسع ذي الحجة فجأة من غير مرض وأجرى السلطان أسد الدين شيركوه ولده على ما كان لوالده ومقابلته بأحسن عوائده قلت وقبر الخاتون المذكورة في التربة المنسوبة اليها بسفح جبل قاسيون قبلي المقبرة السركسية وأما ناصر الدين فنقلته زوجته ابنة عمه ست الشام بنت أيوب فدفنته في مقبرتها بمدرستها بالعونية فهو القبر الاوسط بين قبرها وقبر أخيها رحمهم الله وكانت ست الشام كثيرة المعروف والبر والصدقات وكتب الفاضل الى تقي الدين (ورد الخبر عشية يوم الاربعاء الحادي عشر من ذي الحجة من حمص بأنه لما كان عشية يوم الاحد وقت الوقفة انتقل الى رحمة الله ورضوانه المولى الاجل ناصر الدين محمد بن المولى أسد الدين رحمهما الله بمرض حاد اعجل من لمح البصر ومرد النظر فانا لله وانا اليه راجعون وشاهد الملوك كتابا من ولده أسد الدين شيركوه أحياه الله الى كتاب أبيه رحمه الله يقول فيه وكتبته وأنا بصر في حفرته واستقر في قبره فنسأل الله حسن المرجع والخلاص من هول المطلع والمعونة على ساعة هذا المصرع ونشكر الله ثم نشكره ونذكره بأحسن ما يذكره به من يذكره اذوقى النفس الكريمة العالية الشريفة الناصرية وقدم قبلها من لا يسره التقدم بين يديه وجعل الله أنفسنا فداها فان تلك نعمة علينا كما هي نعمة عليه ولا فرق الله لهذا البيت شملا ولا قضب له حبلا وأعظم الله أجر الملك المظفر في ابن عمه وأمتعه ببقاء عمه وأعاذه من مقابلة مقدور الله بهمه ودهمه فليس الا التسليم لما لا يستطيع الخلق له دفعا وتفويض أمر هذه الانفس اليه تعالى فانا لا نملك لها ضرا ولا نفعا ولخوف الملوك ان يلتبس الخبر في مطالعه ويحرف الكلم عن مواضعه عجل بالانهاء والاشعار وسبق بما لا يسره السبق به من هذه الاخبار) قال العماد وفيها في جمادى الآخرة توفي أخو الخاتون المذكورة سعد الدين مسعود بن انر ونحن قد فتحنا ميافارقين بها ولقد كان من الاكارم الاكابر ومن ذوي المآثر والمفاخر وما رأيت أحسن منه خلقا وأزكى عرفا ولم يزل في الدولتين النورية والصلاحية أميرا مقدما وعظيما مكرما ولفور فضائله ووفور فواضله وجذشهامته وحد صرامته رغب السلطان وهو زوج أخته ان يكون هو أيضا زوج أخته فزوجه بالتي تزوجها مظفر الدين كوكبري بعده قلت وهي ربيعة خاتون بنت أيوب عمرت الى ان توفيت بدمشق بدار أبيها وهي دار العقيقي في شهر رمضان سنة ثلاث وأربعين وستمائة وهي آخر أولاد أيوب لصلبه موتا وكان يحترمها الملوك من أولاد اخوتها وأولادهم ويزورونها في دارها قال وفيها توفي الامير عز الدين جاولي وهو من أكابر الامراء وله مواقف حميدة في الهيجاء يحسن بلاؤه ويصدق غناؤه ولما عدنا بعد فتح ميافارقين الى الموصل طرقه البلاء في طريقه قفز بحصانه على بعض السواقي فعثر به وانكسرت رجله ثم عملت عليه قدمه واشتد ألمه وطال به سقمه وانتقل الى دمشق وتوفي بها في آخر هذه السنة أو في سنة اثنتين وثمانين ولقد فجع الاسلام منه بذمر مسيح لذمار الكفر متيح قال وفيها يوم الاربعاء ثامن رمضان قتل بآمد وزير ابن قرا ارسلان وهو قوام الدين أبو محمد عبد الله بن سماقة قتلته مماليك محمد ومه غيله وتمحلوا له في مباغتته بالقتل حيله وذلك انه كان جالسا في ديوانه وايوانه متصدرا بمكانته في مكانه وعنده الاكابر والاماثل فدخل عليه واحد منهم وقال له الملك يدعوك وحدك فقام فدخل الدهليز وقد أغلق الباب الذي يصل منه لى الامير وأغلق وراءه الباب الآخر وقتلوه ثم أخرجوا الصلاح من حبسه وهو أحد الامراء الاكابر فقتل أولئك القاتلين وكانوا به واثقين قال وفيها توفي الفقيه مهذب الدين عبد الله بن أسعد الموصلي وكان المدرس بها وكان علامة زمانه في علمه ونسيج وحده في نظمه وقد أوردت من شعره في صدر الكتاب ما يستدل به على فضله وانه ممن عقم الدهر بمثله واشتريت كتبه باغلى الاثمان ولكم أخرج بحره قلائد اللؤلؤ والمرجان قال وفي هذه السنة ردّ السلطان قلعتي الرها وحران الى مظفر الدين كوكبري بن زين الدين لتوفره في الخدمة على حفظ القوانين وظهر منه كل ما حقق به الاستظهار وأوجب لامره الامرار ورغب في مصاهرة السلطان وقلده طوق الامتنان قال وكان السلطان قد سكنت نفسه للمقام وأراد ان تكون حركته بعد استكمال السكون وعنده أولاده الاصاغر والملك العزيز والملك الظاهر بدمشق والافضل بمصر فلما ورد نعي الخاتون وناصر الدين وخلا شبله أسد الدين بعده في العرين وخيف على بلاده لصغر اولاده واحتيج أيضا الى الاحتياط على ما في خزائنه واستخراج دفائنه وكذلك الخاتون خلفت املاكا وتراثا وأوقافا وأمتعة وأثاثا لم يكن من الحركة بد وقدم الكتب الى

البلاد بما صمم عليه عزمه وأجرى به حكمه وأمر بالاستعداد لترقب الاستدعاء ووصاهم في سائر المقاصد والانحاء وكتب (الى ولدنا ناصر الدين قد عرفنا المصاب بوالده رحمه الله وعظم أجرنا وأجره فيه وان مضى لسبيله فولدنا أسد الدين أحياه الله نعم الخلف الصالح وان انتقل والده الى دار البقاء فهو في مكانه المستقر من المجد والعلاء والولايات والبلاد والمعاقل باقية عليه مسلمة اليه مقررة في يديه وما مضى من والده رحمه الله الا عينه وولدنا قرة العيون وبه استقرار السكون والحمد لله الذي جبر به كسر المصاب وألبسنا واياه اثواب الثواب فليشرح ولدنا صدره ولا يشغل سره ويعرف خواصه وأصحابه وولاته ونوابه بحمص والرحبة وغيرهما انهم باقون على عادتهم) وكان المندوب اليه القاضي نجم الدين أبو البركات بن الشيخ شرف الدين ابن أبي عصرون ولم يفارق الخدمة السلطانية في هذه السنة قال وفي هذه السنة لما كنا على ميافارقين وقد فتحناها ورد للسلطان مثال شريف امامي ناصري بتفويض ولاية ماردين والحصن وهو حصن كيفا والعلامة الشريفة الناصرية في ثاني سطر بالقلم الشريف (الناصر لدين الله) قلت وفيها في جمادى الاولى توفي الحافظ أبو موسى محمد بن عمر بن أحمد المديني الاصبهاني محدث مشهور له تصانيف كثيرة وفي هذه السنة توفي بمصر في شعبان الشيخ جمال الدين أبو الفتح أبو الثناء أبو محمد محمود بن أحمد بن علي بن أحمد بن علي بن أحمد بن المحمودي المعروف بابن الصابوني ودفن بسارية من العرافة ومولده ببغداد سنة خمسمائة وجد أبيه لامه شيخ الاسلام أبو عثمان اسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني فبه عرف بابن الصابوني وكان جده صحب السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه ونسبته بالمحمودي اليه ودخل ابن الصابوني هذا دمشق زمن الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله واجتمع به ونزل الى زيارته وسأله الاقامة بدمشق فذكر له ان قصده زيارة الامام الشافعي رضي الله عنه بمصر فجهزه وسيره صحبة الامير نجم الدين أيوب والد صلاح الدين سنة سار الى ولده بمصر وصار بينه وبينه صحبة أكيدة ومحبة عظيمة بحيث انه ما كان يصبر عنه ساعة واحدة وأقبل عليه ولما ملك ولده الملك الناصر صلاح الدين رحمه الله مصر لم يمكنه من العود الى الشام ووقف عليه وقفا بالديار المصرية وعلى عقبه وهو باق بأيديهم الى الآن وقرأت بخط صلاح الدين رحمه الله ما كتبه في حقه الى الملك العادل لما كان نائبه بمصر (الاخ الاجل الملك العادل أدام الله دولته غير خاف عنه قضية الوقف الذي أوقفه الوالد نجم الدين تغمده الله برحمته ورضوانه على الشيخ الفقيه ابن الصابوني وانه لما جرى له من المحاصمة مع الشيخ الفقيه نجم الدين (يعني الخبوشاني) ما جرى اقتضت المصلحة لتسكين الفتنة وقطع الكلام انتقاله الى موضع غيره لتنقطع الفتنة والخصومة بينهم فأمرنا اليه مع بقاء الوقف في تصرفه وتصرف من عنده من الفقهاء والاخ الاجل الملك العادل يتقدم بمراعاته وحفظ جانبه وتمكينه من التصرف في الوقف المشار اليه ومنع من يعترضه فيه بوجه من وجوه التأويلات وحسم مادة الشكوى منه ممن يتعدى عليه ان شاء الله تعالى) وقرأت بخط الشيخ عمر الملا الموصلي رحمه الله كتابا كتبه الى ابن الصابوني هذا يسير ا يطلب منه فيه الدعاء ويصف حاله أوله أخوه عمر بن محمد الملا يقول فيه (وبعد فالذي يتطلع اليه من معرفة أحوالي فجملتها خير وسلامة غارق في بحار النعماء ومغمور في هواطل الآلاء غير ان أيدي البلوى بالنعم ترفعني تارة الى مقام الصديقين وتضعني تارة أخرى الى مقامات المتخلفين ومع هذا فطلب النجاة لا يفتر والحركة في طلب الفوز لا تسكن والعمر ينقضي بالعناء والمنى وما أشبه حالي بحال القائل

آمل في يومي ادراك المنى ❊ حتى اذا ولى تمنيت غدا
لا وطرا أقضي من الدنيا ولا ❊ أفعل للاخرى فعال السعدا
والعمر يمضي بين هاتين فلا ❊ ضلالة خالصة ولا هدى

يا أخي ما أخبرتك بأحوالي هذه الا رجاء ان تتحرك همتك لي بالشفقة والرأفة فتدعو الله لي بقلب حاضر منور بنور الشفقة والرحمة ويؤمن على دعائك من حضر من السادة الاخوان وتقول اللهم عبدك الضعيف عمر بن محمد الملا يدعوك ويقول

لا تهني بعدا كرامك لي ❊ فشديد عادة منقطعه

وقد توسل بنا اليك نسألك ان تبلغه آماله وان تحييه حياة السعدا وان تميته موت الشهدا وتحشره في زمرة السعدا وان تجعل خير عمره آخره وخير أعماله خواتيمها وخير أيامه يوما يلقاك فيه)

ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين) قال العماد فرحل السلطان الى الشام وودّع مظفر الدين صاحب حران من الفرات ورحل صوب حلب والعادل صاحبها على المقدمه وقد هيأ أسباب التكرمه فوصل حلب فى العشر الاوسط من المحرم ثم رتب العادل فى حلب نوابه وصحب السلطان فوصلوا حماه وفيها نائب تقى الدين ناصر الدين منكورس بن ناصح الدين خمارتكين وهو صاحب بوقبيس وقد جمع النهضة والامانة ثم وصل السلطان الى حمص وقرر أمر المجاهد أسد الدين أبا الحارث شيركوه بن ناصر الدين وكان عمره اذ ذاك ثلاث عشرة سنة سماه أبوه باسم جدّه ولقبه بلقبه وكتب له منشورا بما قرر عليه من البلاد وذلك بحمص وسلميه وندمر ووادى بنى حصين والرحبة وزلبيا وكتب منشورا آخر باسقاط المكوس بالرحبة وفيه (وهذا أب السلطان فى جميع البلاد اقتصر منها على الرسوم التى يبيحها الشرع وهى الخراج والاجور والزرع) واعتمد على الامير الحاجب بدر الدين ابراهيم بن شروة الهكارى فى ولاية قلعة حمص ثم نقله الى قلعة حلب واليابها ست سنين ورتبه العزيز فى آخر عهد السلطان بقوص ذال ورتب السلطان مع أسد الدين بحمص أميرا من الاسدية يعرف بارسلان بوغا فقدم على أصحابه يتولى مصالحه بابه حتى تمرد الاسد بالامر لسداده وبلغ مدى رشاده ونعت بالملك المجاهد ونهض بحامل المجاهد قال وأقمنا بحمص أياما حتى استعرضنا خزائن ناصر الدين وقسمنا ميراثه وكانت أخت السلطان الحسامية زوجة ناصر الدين وهى مستحفة للثمن والباقى بين البنت والابن وخلف عينا وورقا مجتمعا ومفترقا وبلغ التراب فى الملك والعين والاثاث ما عظم عن ان يقدر بمقدار واباف عن ألف ألف دينار فأعاره السلطان طرفه بل تركه على أهل التركة قال ولما شاع بدمشق خبر دنوّنا احتفل أهلها واجتمع بالمسار شملها وطلعت أعيانها ونبعت عيونها ووافت ابكارها وعونها وظهر مكنونها ومخزونها وترامت الينا بثمراتها ومكرماتها سهولها وحزونها ودخلنا المدينة وزينة الدنيا خارجه وسكينة النعمى فارجه ودمشق كالهدى مزفوفه وبالهدى محفوفه وبالحسن موصوفه وكان الناس قد ساءهم خبر المرض فسرهم عيان السلامه وأسهرهم الهم للاشفاق فراجعوا الشفاء كرى الكرامه وما ألذ الرجاء بعد الابلاس والثرى غب الافلاس والامل عقيب اليأس وانهم ظفروا فى حالة الايحاش بالايناس وأمنوا بمشاهدة الابرار السلطانية حنادس الوسواس واجتمع السلطان فى القلعة بأهله وأقلع المرجف عن جهله وحسنت الاحوال وأمنت الاهوال وشاهدنا الفضل والكرم بالمشاهدة الفاضلية الكريمه وعدنا الى عادة السعادة القديمه واجتمع السلطان به فبثه أسراره واستزال بصفور أيه اكداره ودخل جنته وجنى ثماره وزاره مرة واستزاره وراجعه فى مصالح دولته واستشاره وجلس السلطان فى دار العدل لكشف المظالم وبث المكارم واحياء المعالم واقامة مواسم المراسم وقال القاضى ابن سداد ولما وجد السلطان نساطا من مرضه رحل يطلب جهة حلب وكان وصوله اليها يوم الاحد رابع عشر المحرم وكان يوما مشهودا لشدة فرح الناس بعافيته ولقائه فأقام بها أربعة أيام ثم رحل فى ثامن عشره نحو دمشق فلقيه أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه بتل السلطان ومعه أخته وقد صحبه خدمة عظيمة وقرب زائدة ومن عليه بحمص وأقام أياما يعتبر تركذا بيه ثم سار يطلب جهة دمشق وكان دخوله اليها فى ثانى ربيع الاول وكان يوما لم ر مثله فرحا وسرورا

﴿فصل﴾ فى ذكر ما استأنفه السلطان بمصر والشام من نقل الولايات بين أولاده قال العماد وكان السلطان لملازمة أخيه العادل له قد مال الى رأيه وكان الملك الافضل نور الدين على بمصر وهو ولده الاكبر وقد بدا يظهر وعلى تجويد الخط والادب وسماع الاحاديث النبوية يتوفر وقد مالت اليه بمصر جماعه وله منهم طاعه وربما نقم تقى الدين النائب هنالك من أحد أمرا فوقعت منه فيه شناعه فكتب يشكو من اختلال أمره واشتغال سره وكان فى نفس السلطان ان ينقل ولده الملك العزيز عثمان الى مصر ليكون عزيزها ويحرز مملكتها ويحوزها وهو مفكر فى طريق تدبيره ووجه تقريره حتى بدا له نقل الافضل الى الشام فكتب اليه يتشوقه ويستدعيه بجميع أهله وجماعته ووالدته وحشمه وأصحابه فخرج ووصل دمشق يوم الاثنين الثالث والعشرين من جمادى الاولى وخرج السلطان لاستقباله وأنزله بالقلعة فى دار رضوانه وكتب الى تقى الدين انه قد استقل أمره وزال عذره فابتهج بتفرده وخفى عنه انه كان فى ذمة ولد السلطان وعصمته وان تمام حرمته بحرمته قال ولما وصلنا الى دمشق كان بها من أولاد السلطان الملك الظاهر غازى غياث الدين فزار عمه العادل وهو صهره وقد اشتد بصاهرته ظهره فقال له قد نزلت عن حلب

لك وأنا أقنع من أخي باقطاع أين كان وألزم الخدمة ولا أفارق السلطان فاطلبها من أبيك ان كانت ترضيك وجاء الى السلطان وقال هذه حلب مع رغبتي فيها ومحبتي لتوليها أرى ان أحد أولادك بها أحق وهذا ولدنا الملك الظاهر أحب ان اوثره بها فقال السلطان المهم الآن تدبير وندى الملك العزيز فان مصر لابد ان يكون لي بها ولد اعتمد عليه وأسند ملكها اليه ورحل الى الزرفا ومعه ولداه العزيز والظاهر وأخوه العادل فالتمس العادل عوض حلب بلادا عينها ونواحي بمصر بينها وكان قد مال الملك العزيز اليه لاشفاقه عليه فسأل أباه ان يسير معه العادل فانه نعم الكافي الكافل فأعطاه السلطان بمصر البلاد المعروفة بالشرقية واعتمد عليه في نيابته في سائر الممالك المصرية ولما سمع تقي الدين هذا الخبر تباونفر وذم الغير واستبدل من الصفو الكدر وغار من تغير الرأي فيه واذا تولى أبو بكر فلا عمر فعبر الى الجزيرة مظهرا انه يمضي الى بلاد المغرب ليتملكها وكتب يسأل السلطان ان لا يمنعه من سلوك مسلكها وسمت همته الى مملكة جديده وأقاليم ذات ظلال مديده وبلاد واسعه ومدن شاسعه وقد كان أحد مماليكه المعروف بقراقوش قد جمع من قبل الجيوش وسار الى بلاد برقة فملكها وهزته الامنية للنفائس من بلاد نفوسة فادركها وتجاوز الى افريقية وهو يكتب أبدا الى مالكه الملك المظفر يرغبه في تلك المملكه ويقول ان البلاد سائبة فلما تجدد لتقي الدين ما تجدد وتمهد لعمه العادل ما تمهد عاد له ذكر المغرب فعبر بعسكره ومالت اليه عساكر مصر لبذله وقدم مملوكه يوزبا في المقدمة فلما انتهى الى السلطان خبر عزمه قال لعمري ان فتح المغرب مهم لكن فتح البيت المقدس أهم والفائدة به أتم والمصلحة منه أخص وأعم واذا توجه تقي الدين واستصحب معه رجالنا المعروفه ذهب العمر في اقتناء الرجال واذا فتحنا القدس والساحل طوينا الى تلك الممالك المراحل وعلم نجاح تقي الدين في ركوب تلك اللجة فكتب اليه يأمره بالقدوم عليه وجهز ولده العزيز الى مصر وتسرّاه قوص وأعمالها وسار ومعه عمه العادل فدخلا القاهرة في خامس شهر رمضان وأما الملك الظاهر فسيره السلطان الى حلب وأنعم عليه بها وبسائر قلاعها وأقاليمها وندب معه الحاجب شجاع الدين عيسى بن بلاشو وعاد السلطان ومعه الافضل وقدم تقي الدين في آخر شعبان وتلقاه السلطان وخيم على المصرى فوق قصر أم حكيم فلما قرب ركب الى موكبه ورحب به ودخل دمشق وعاد الى ما كان له من البلاد ومنبج والمعرة وسائر أعمالها ثم أضاف اليه ميافارقين وجميع ما في ذلك الاقليم من المعاقل وكتب الى مصر باستدعاء رجاله واعلامهم بتأخير عزم المغرب بل ابطاله فامتثلوا الامر وفارقوا الى الشام مصر سوى مملوكه رين الدين يوزبا فانه رتب له عسكرا الى المغرب فمضى واستصحبه وغلب على بلاد افريقية ثم قصده صاحب المغرب فاخذه مأسورا ثم أغزاه مع الغز وفي نغر من الثغور فالفاه مشهورا مشكورا فقدمه عليهم قلت وكتب الفاضل الى تقي الدين (سبب هذه الخدمة ما اتصل بالملوك من ترد در سائل مولانا في التماس السفر الى الغرب والدستور اليه (يكفي الزمان فانا نستعجل) يا مولانا ما هذا الواقع الذي وقع وما هذا الغريم من الهم الذي ما اندفع بالامس ما كان لكم من الدنيا الا البلغه واليوم قد وهب الله هذه النعمه وقد كان الشمل مجموعا والهم مقطوعا والمنع ممنوعا افتصبح الآن الدنيا ضيقة علينا وقد وسعت والاسباب بنا مقطوعة ولا والله ما انقطعت يا مولانا الى اين وما الغاية وهل نحن في ضائقة من عيش أو في قلة من عدد او في عدم من بلاد أو في شكوى من عدم كيف نختار على الله وقد اختار لنا وكيف ندبر لانفسنا وهو قد دبر لنا وكيف ننتجع الجدب ونحن في دار الخصب وكيف نعدل الى حرب الاسلام المنهي عنها ونحن في المدعو اليها من حرب أهل الحرب معاشر الخدام والجيش وأرباب العقول والاراء أليس فيكم رجل رشيد

تعقب الرأي وانظر في أواخره ✻ فطالما اتهمت قدما أوائله

لازال مولانا يمضي الاراء صائبه ويلحظها بادية وعاقبه ولا خلت منه دار ان خلت فهيهات ان تعمر ولا عدمته أيام ان لم تطلع فيها شمس وجهه دخلت في عداد الليالي فلم تذكر) وقال القاضي ابن شداد وفي سابع عشر جمادى الاولى سنة اثنتين وثمانين وصل الملك الافضل الى دمشق ولم يكن رأى الشام قبل ذلك وكان السلطان رأى رواح الملك العادل الى مصر فانه كان أنس باحوالها من الملك المظفر فما زال يفاوضه في ذلك وهو على حران مريض وحصل ذلك في نفس العادل فانه كان يحب الديار المصرية فلما عاد السلطان الى دمشق ومن الله بعافيته سير يطلب العادل

الى دمشق فتجهز من حلب جريدة وأقام بدمشق فى خدمة السلطان يجرى بينهما أحاديث ومراجعات فى قواعد تقرر الى جمادى الآخرة فاستقر عود السلطان الى مصر ويسلم بلاد حلب الى الظاهر وسلم السلطان اليه ولده الملك العزيز وجعله أتابكه قال ولقد قال لى الملك العادل لما استقرت هذه القاعدة اجتمعت بخدمة الملك العزيز والملك الظاهر وجلست بينهما وقلت للعزيز اعلم يامولاى ان السلطان قد أمرنى ان أسير فى خدمتك الى مصر وأنا أعلم ان المفسدين كثير وغدا فما نخلو ممن يقول مالا يجوز عنى ويخوفك منى فان كان لك عزم تسمع فقل لى حتى لا أجى فقال لا أسمع وكيف يكون ذلك ثم التفت وقلت للملك الظاهر انا اعرف ان أخاك ربما سمع فى أقوال المفسدين وأنا فما لى الا أنت وقد قنعت منك بمنهج متى ضاق صدرى من جانبه فقال مبارك وذكر كل خير ثم ان السلطان سير ولده الظاهر الى حلب وأعادها اليه وكان رحمه الله يعلم ان حلب هى أصل الملك وجرثومته وقاعدته ولهذا دأب فى طلبها ذلك الدأب ولما حصلت له أعرض عما عداها من بلاد الشرق وتنع منهم بالطاعة والمعونة على الجهاد فسلمها اليه عالما منه بحذاقته وحزمه وحفظه فسار حتى أتى العين المباركة وسير فى خدمته شحنة حسام الدين بشارة ووالى ساجاع الدين عيسى بن بلاشو ونزل يوم الجمعة بالعين المباركة وخرج الناس الى لقائه فى بكرة السبت تاسع جمادى الآخرة وصعد القلعة ضاحى نهاره وفرح الناس به فرحا شديدا ومد على الناس جناح عدله وأفاض عليهم وابل فضله وأما الملك العزيز والعادل فان السلطان قرر حالهما وكتب الى الملك المظفر يخبره بمسيرهما الى مصر ويأمره بالوصول الى الشام فسق ذلك عليه حتى ظهر للناس وعزم على المسير الى ديار الغرب الى برقه فقبح ذلك عليه جماعة من أكابر الدولة وعرفوه ان عمه السلطان يخرج من يده فى الحال والله يعلم ما يكون منه بعد ذلك فرأى الحق بعين البصيرة وأجاب بالسمع والطاعة وسلم البلاد ورحل واصلا الى خدمة السلطان فسار السلطان الى لقائه فلقيه بمرج الصفر وفرح بوصوله فرحا شديدا وذلك فى الثالث والعشرين من شعبان وأعطاه حماه وسار اليها وكان عقد بين الظاهر وبعض بنات العادل عقد نكاح فتم ذلك ودخل بها يوم الاربعا السادس والعشرين من شهر رمضان ودخل الملك الافضل على زوجته بنت ناصر الدين محمد بن شيركوه فى شوال من هذه السنه ومن كتاب فاضلى الى السلطان (الملك العادل والملك المظفر المذكوران ماهما أخ وابن أخ بل هما ولدان لا يعرفان الا المولى والدا ومنعما وكل واحد منهما له عش كثير الفراخ وبيت كرقعة الشطرنج فيه صغار وكبار كالبيادق والرخاخ فلا يقنع كل واحد منهما الا طرف يملكه وأقليم يتفرد به فيدبر مولانا فى ذلك بما يقتضيه صدره الواسع وجوده الذى ما نظر مثله الناظر ولا سمع السامع ولا بئس قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه مروا العرابة ان يتزاوروا ولا يتجاوروا وما على مولانا مجملة فى تدبير يدبره ولا فى أمر يبتدئه (وستبدى لك الايام ما كنت عارفا) وفى غد ما ليس فى اليوم ولله أقدار ولها امد وقد رزق الله مولانا ذرية تود لو قدمت أنفسها بين يديه ولو كحلت اجفانها بغبار قدميه ما فيها من يشكى منه الا التزيد فى الطلب وهو من باب الثقة بكرم المنعم ولهم أولاد والمولى مد الآمال لهم كما قال مولى الامة (تناكحوا تناسلوا اعانى مكاثر بكم الامم) طالما قال لهم المولى لدوا وعلى تجهيز الامات وغنى الذكور وسواء على أفق هذا البيت طلوع الشموس والبدور) قال العماد ومدحت تقى الدين بقصيدة سينية سنيه قطوفها دانية جنيه تشتمل على مائة واربعين بيتا أنشدتها اياها فى ثالث شهر رمضان من هذه السنة بدمشق وأوردت بعضها ومطلعها

عفا الله عنكم عن ذوى الشوق نفسوا ❊ فقد طنت مناقلوب وانفس
ألم تعلموا انى من الشوق موسر ❊ ألم تعلموا انى من الصبر مفلس
ظننتم بعينى انها تألف الكرى ❊ فهلا بعينم طيفكم يتجسس
وليس لقلبى فى السرور تصرف ❊ فقلبى على الاحزان وقف محبس
لفتك محبيه تيقظ طرفه ❊ وتحسبه من سقم عينيه ينعس
له ناظر عند الخلاف مناظر ❊ يقول دليل الدل عندى اقيس
اذا درست ألحاظه السحر أصبحت ❊ رسوم اصطبارى درسا حين تدرس

ولم أنس أنسى بالحمى رعى الحمى ❊ عشية لى مجنى ومجلى ومجلس
لحى الله أبناء الزمان فكلهم ❊ صحيفته أودى بها المتلمس
ولولا ابتسامات المظفر بالندى ❊ لما راق نفسى صبحه المتنفس
جلت شمس لفياه الحنادس بعدما ❊ عرتنا وهل يبقى مع الشمس حندس
وصار به هذا الزمان جميعه ❊ نهارا فما للناس ليل معرس
اذا صال فالمغلول الف مدرع ❊ وان جاد فالمبذول ألف مكيس
وليس بمغبون على فضل رأيه ❊ ويغبن فى الاموال منه ويبخس
اذا أطلق الملك المظفر فى الوغى ❊ اعنته فالشمس بالنقع تحبس
فذاك ملوك لا يلبون داعيا ❊ وكلهم عن دعوة الحق يخنس
تشكى اليك الغرب جور ملوكه ❊ فاشكيته والجور بالعدل يعكس
سيهدى الى المهدية النصر والهدى ❊ بهديكم فيها وتونس تونس
رددت كراديس الفرنج وكلهم ❊ لدى الاسر فى غل الصغار مكردس
وبيضت وجه الدين يوم لقيتهم ❊ وأبيضكم من اسود القصر اسوس
أفاد دم الانجاس طهر سيوفكم ❊ وما يستفاد الطهر لولا التنجس
شموس ظبى تغدو لها الهام سجدا ❊ فلله نصرانية تتمجس
ولم كفى الاسلام سوء ابلائكم ❊ كفيتم على رغم المعادين كل سو
ولا يفتح البيت المقدس غيركم ❊ وبيتكم من كل عاب مقدس
لهم كل يوم فى جهاد مثلث ❊ اذا نصروا التوحيد فى ء مخمس
اذا ماتقى الدين صال تساقطت ❊ لاقدامه من عصبة الشرك أرؤس
وما عز الاشبيه سميه ❊ سديد على الاعداء ثبت عمرس

(فصل) فى باقى حوادث هذه السنة قال العماد كان المنجمون فى جميع البلاد يحكمون بخراب العالم فى هذه السنة فى شعبان عند اجتماع الكواكب الستة فى الميزان بطوفان الريح فى سائر البلدان فوقفوا بذلك من لا وثوق له باليقين ولا إحكام له فى الدين من ملوك الاعاجم والروم وأشعروهم من تأثيرات النجوم فشرعوا فى حفر مغارات فى التخوم وتعميق بيوت فى الاسراب وتوثيقها وسد منافسها على الريح وقطع طريقها ونقلوا اليها الماء والازواد وانتقلوا اليها وانتظروا الميعاد وكلما سمعنا بأخبارهم استغربنا فى الضحك من عقولهم وسلطاننا متمر من أباطيل المنجمين موقن ان قولهم مبنى على الكذب والتحمين فلما كانت الليلة التى عينها المنجمون لمثل ريح عاد وقد شارفنا الميعاد ونحن جلوس عند السلطان فى فضاء واسع وناد للسموع المزهرات جامع ومايتحرك لنا نسيم ولا لسرح الهواء فى رعى منابت الانوار مسيم فما رأينا ليلة مثلها فى ركودها وركونها وهدوها وهدونها قال ابن القادسى وحكم أصحاب النجوم ان فى الشامن والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة تقترن الكواكب السيارة الخمسة والشمس والقمر فى برج الميزان ويؤثر ذلك هواء عظيما وغيما سوميا وفى يوم الثلاثا التاسع والعشرين تهلك البلاد وتحمل الرمل ونسبوا ذلك الى الخارمى (١) وقالوا يكون أشد ذلك من ليلة الثلاثا الى نصف ليلة الاربعاء فاستعد لذلك أقوام فى البلاد وجمعوا الكعك وحفروا السراديب فأهل رجب وما جرى مما قالوا شئ فخزى أهل التنجيم لذلك ولم يهب فى ذلك اليوم هواء البتة وكان الزمان حارا واشتد الحر فى ذلك اليوم وبعده ولم يظهر مما قالوا شئ وعمل الشعراء فى ذلك شعرا يزرون عليهم فى حكمهم منهم نجم الدين أبو الغنائم محمد بن على بن المعلم الهرنى ونجم الدين عيسى بن مودود زدار قلعة تكريت وأبو الفتح سبط ابن التعاويذى قال أبو الغنائم بن المعلم

(١) وعلى هامش الاصل المنقول منه لعله الخوارزمى

قل لابى الفضل قول معترف * مضى جمادى وجاء نا رجب
وما جرت زعزعا كما حكموا * ولا بدا كوكب له ذنب
كلا ولا أظلمت ذكاء ولا * أبدت أذى فى قرانها الشهب
يقضى عليها من ليس يعلم ما * يقضى عليه هذا هو العجب
فارم بتقويمك الفرات والا * صطرلاب خير من سفرة الخشب
قد بان كذب المنجمين وفى * أى مقال قالوا فما كذبوا
مدبر الامر واحد ومتى * للسبع فى كل حادث سبب
لا المشترى سالم ولا زحل * باق ولا زهرة ولا قطب
تبارك الله صحص الحق وانجا * ب التمادى وزالت الريب
فليبطل المدعون ما وضعوا * فى كتبهم ولتحرق الكتب

وقال عيسى بن مودود

مزق التقويم والزيج فقد بان الخفاء * انما التقويم والزيج هواء وهباء
قلت للسبعة ابرا * م ومنع وعطاء * ومتى ينزل فى الميزان يستولى الهواء
وتثير الرمل حتى * يمتلى منه الفضاء * ويعم الارض خسف * وخراب وبلاء
ويصير القاع كالقصـ * ـف وكالطود العراء * وحكمتم فأبى الحا * كم الا ما يشاء
ما أتى الشرع ولا * جاءت بهذا الانبياء * فبقيتم ضحكة تضـ * ـحك منها العلماء
حسبكم خزيا وعارا * ما تقول الشعراء * ثم ما أطمعكم فى الـ * ـحكم الا الامراء
ليت اذ لم يحسنوا فى الديـ * ـن ظنا ما اساءوا * فعلى اصطرلاب بطليموس والزيج العفاء
وعليه الحرب ما * جادت على الارض السماء

ولم يذكر شعر سبط ابن التعاويذى قال وفى السابع والعشرين من شوال توفى محمد أبو عبد الله بن برى بن عبد الجبار النحوى وكان آية فى النحو ثقة عالما صالحا وكان مبلدا فى أمر دنياه حدث عن ابن الخطاب ومرشد بن صادق وغيرهما قال العماد وفى هذه السنة جاء نعى أتابك محمد بن أتابك ايلدكز المعروف بالبهلوان وهو الذى كان نزل على خلاط فى العام الماضى وكانت حياته متصلة الجد والجدى واضطربت من بعده تلك الممالك واختربت اصفهان والى اليوم من سنة أربع وتسعين ما وضعت الحرب أوزارها ولى بعده أخوه قزل ارسلان فازال مهابة الملك السلجوقى وسلك نهج السعيد الشقى الى ان ذهب فاتضع الملك وانقطع السلك واتسع الهلك وطمعت خراسان فى العراق وعدمت الافاقة من الآفاق وأظلمت مطالع الاشراق قال واشتغل السلطان فى بقية سنة اثنتين وثمانين بدمشق بالصيد والقنص والانتهار فيه لبوادر الفرص وكان يركب الى تل راهط للصيد بالبزاة والشواهين مع مماليكه الخواص اليامين وله شاهين يجرى كأنه بحر اذا حلق فشرار وان أحرق فجمر فكم صاد ليوسف يعقوبا وعقر بانجاز وعد صيده عرقوبا فطلبته من السلطان فقال أنت للقلم والدواوين فمالك والبزاة والشواهين فقلت يكون فى ملكى وكل ما يقنصه يأمر لى به المولى وهذا أربح لى وانفع وأولى فقال نعم فلما أصبح سير لى سبع عشرة قطعة من طير وحجل وقال هذا صيد شاهينك فى طلق واحد على عجل فملكت ذلك الشاهين خمس ست سنين والسلطان يصطاد به ولى قنصه وله مطلعه ولى مخلصه فمازال لى على هذا الحق محافظا ولهذه النكتة ملاحظا الى ان أودى الجارح وانقطعت تلك المنائح فيالله دره من سلطان لم ينس ذكر هذه القضية التى أعاد من حها جدا واعتده لى حقا معدا فدون حقه على مثله ان يوسف ومن حقنا بعده ان نتلو (يا أسفى على يوسف) قال ولما دخل شهر رمضان نوع أقسام الانعام واتفق ان بعض التجار كانت بضاعته بياقير رفيعه ومالها نفاق وهى أكثر من مائة قطعة فحملها الى الخزانة السلطانية فى بضاعات وقال خذوها واكتبوا لى بأثمانها فى مصر على بعض الجهات فاشتريت منه بما كان برجوه من الربح وكان من كرم شيم السلطان اذا عرف فى خزانته موجودا انه لا يستطيب تلك الليلة حتى

يفرقه جودا فقال لى قد اجتمعت لنا بياقير وعمائم وقد تقاضتنى نفسى بخلعها على أهل الفضل والمكارم فنبدأ بأهل الدين والتقوى ونجعل لهم أوفر حظ من الجدوى وكان فى الوافدين ومن أهل البلد وعاظ وعلماء وحفاظ فيكون كل يوم بكرة نوبة لمن يتكلم على المنبر ويذكرنا بالحلال والحرام والبعث والمحشر ثم يخلع عليهم وعلى القراء فاشتغل مدة اسبوعين بالمواعظ ووضع المنبر فى ايوان القلعة فقلت بقى احضار الفقهاء فى المدة الباقية من الشهر فقال انهم يمضى بهم الخلاف الى التشاجر والتضاعن فقلت أنا أضمنهم ولا يحضر الا أوقرهم وأرزنهم فاستدل أول يوم برهان الدين مسعود مدرس الحنفيه فى المدرسة المعمورة النوريه واعترض عليه العماد الكاتب وفى اليوم الثانى استدل أكبر مشايخ الحنفية بدر الدين عسكر واعترض عليه قاضى القضاة محيى الدين بن الزكى فكان السلطان يجلس فى كل يوم لطائفة فلما دنا العيد أمر بابتياع العمائم وغيرها وصرفها اليهم قال القاضى بن شداد وفى شهر ربيع الاول من سنة اثنتين وثمانين وقعت وقعات كثيرة بين التركمان والاكراد بأرض نصيبين وغيرها وقتل من الفئتين خلق عظيم وبلغ السلطان ان معين الدين بن معين الدين قد عصى بالراوندان فكتب الى عسكر حلب ان حاصروه وكان نزولهم عليه فى العشر الاول من سنة اثنتين وثمانين وأعطى برج الرصاص لتميرك فى بقية ذلك الشهر وفى ثانى جمادى الاولى وصل معين الدين من الراوندان وقد سلمها الى علم الدين سليمان ثم مضى الى خدمة السلطان قال ابن القادسى وقدم الحاج فى عاشر صفر فأخبروا ان سيف الاسلام أخا صلاح الدين ملك مكة وضرب الدنانير فيها باسم أخيه ومنع من قولهم حى على خير العمل وشرط على العبيدان لا يؤذوا الحاج وأخبر الحاج ان قفل باب الكعبة تعسر حتى فتح ولما فتح مات فى المدوسة أربعة وثلاثون شخصا من بين رجل وامرأة قال ووصل الخبر ان ريحا هبت بالبصرة فكسرت نخيلا كثيرا وماتت بهائم كثيرة ووصل الخبر الى بغداد بقتل البهلوان وان القتال وقع هنالك واحرقت المحال ونهبت الاموال واقتتل أهل المذاهب واحترقت مدارس وبقى الامر على ذلك من سابع محرم الى ربيع الآخر فاحصوا من القتلى أربعة آلاف رجل وسبع عشرة امرأة وعدان احترق اطفال فى المهود بالليل وقام قزل أخو البهلوان فكف الناس وكان قزل قد رتب شحنة فى اصفهان بعد الفتنة التى وقعت بها ومعه ألف فارس فما زال يهذب البلد والرساتيق بالقتل والصلب وصادرهم وأشير على قزل بان يلزم أهل البلد سبعين ألف دينار فقال له الشحنة أهل البلد فقراء فقال بعض المصالحة لقزل ما نأخذ الا من الاغنياء فوثب عيار فقتل المصلحى وكان العيار متعلقا على قاضى البلد فوكل الشحنة بدار القاضى فجاء ابن الخجندى الى دار القاضى فحسن له اخراج الموكلين به وتحالفا على اخراج الشحنة من البلد وان يقطعوا خطبة السلطان الذى نصب قزل ففعل ذلك فى سابع شوال ثم كثر القتل فى البلد فكل من فى قلبه على أحد شر وثب عليه فقتله من رجل أو امرأة وكان القتل الكثير فى أصحاب ابن الخجندى وكان الحريق والنهب واحراق الدور فى أصحاب القاضى وجرى القتال يوم عرفة ويوم العيد ودام وبطل الناس من المعايش وخربت الاسواق ووقع الغلا ومات الناس من الجوع وبقى أهل أصفهان على قدم الخوف وأخذت ثياب الناس فلا يتجاسر أحد ان يلبس ثوبا جديدا والعيارون يأخذون أموال الناس مقاواة وهرب الناس من أصفهان

(فصل) قال العماد مما قدره الله تعالى من أسباب نصرة الاسلام ووهن الكفران قمص طرابلس رغب فى مصافاة السلطان والالتجاء اليه والمساعدة له على أهل ملته بسبب انه كان تزوج بالقمصية صاحبة طبرية وكان أخوها الملك المجذوم لما هلك أوصى بالملك لابن أخته هذه وهو صغير فتزوج القمص أمه ورباه فمات الصغير وانتقل الملك الى أمه ثم انها مدت عينها الى بعض المقدمين من العرب فتزوجته وفوضت الملك اليه فشرع يطلب حساب البلاد من القمص فوقع الاختلاف بينهم لذلك فالتجأ القمص الى ظل السلطان فصار له من جملة الاتباع فقبله السلطان وقواه وشد عضده باطلاق من كان فى الاسر من أصحابه فقويت مناصحته للمسلمين حتى كاد لولا خوف أهل ملته يسلم وصار بدولة السلطان وملكه يقسم ومال اليه من الفرنج جماعه وظهرت له منهم للطاعية طاعه ودخلت الى بلادهم من جانبه السرايا وخرجت بالغنائم والسبايا وأعطى الدنية فى دينه بما استدناه من العطايا فصار الفرنج يدفعون شره ويحذرون مكره فتارة يدارونه وأونة يمارونه وللقمص قوم صدق يساعدونه فى كل حق

وباطل فبلى منهم أهل الساحل بشغل شاغل وهذا الملك المجذوم هو ابن الملك أمارى بن فلك وهو مرى الذى تقدم ذكره وتوفى أمارى فى آخر سنة تسع وستين سنة مات نور الدين رحمه الله تعالى وخلف الملعون هذا الولد المجذوم فبقى بينهم زهاء عشر سنين ملكا مطاعا فلما حضره الموت أوصى لابن أخته بالملك قال وكان ابرنس الكرك ارناط أغدر الفرنجية وأخبثها وأخفرها عن الردى والرداءة وأبحثها وأنقضها للمواثيق المحكمة والايمان المبرمة وأنكثها وأحنثها ومعه شرذمة لهاشر ذمه وهى من شر أمه على طريق الحجاز ومن نهج الحج على الحجاز وكنا فى كل سنة نغزوه وبالبوائق نعروه ويصيبه منا المكروه فاظهر اله على الهدنة وجنح للسلم وأحذ الامان لبلده وأهله وقومه ورحله وبقى الامر له شاملا والقفل من مصر فى طريقى بلده متواصلا وهو يمكن الجائى والذاهب حتى لاحت له فرصة فى العدر فقطع الطريق وأخاف السبيل ووقع فى قافلة ثقيله معها نعم جليله فأخذها بأسرها وكان معها جماعة من الاجناد فأوقعهم فى الشرك وحملهم الى الكرك وأخذ خيلهم والعدة وسامهم التشديد والشدة فأرسلنا اليه وذممنا فعاله وقبحنا احتياله واغياله فأبى الا الاصرار والاضرار فنذر السلطان دمه ووفى فى اراقة دمه بما التزمه وذلك فى السنة الآتية كما سيأتى ان شاء الله تعالى وأقام السلطان بدمشق بقية هذه السنة وهو فى الاستعداد للجهاد وقد أرسل فى طلب العساكر من البلاد المشرقية والمصرية فانتظمت أموره على أحسن قضيه ومن كتاب فاضلى الى بعض اخوانه (كتبت هذه المكاتبة من جسر الخشب ظاهر دمشق وقد ورد السلطان أعز الله أنصاره للغزاة الى بلاد الكفر فى عسكر فيه عساكر وفى جمع البادى فيه كأنه حاضر وفى حشد يتجاوز ان يحصله الناظر الى ان لا يحصله الخاطر وقد نهضت به همة لا يرجى غير الله لانهاضها وبجحت به عزمة الله المسؤل فى حسم عوارض اعتراضها وباع الله نفسا يستمتع أهل الاسلام بصفقتها ويذهب الله الشرك بهيبتها وأرجوان يتمحص عن زبدة وتستريح الايدى بعدها عن المحض وان يكون الله قد بعث سفتجة نصرة الاسلام وسلطانه قد نهض للقبض)

(ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين) وهى سنة كسره حطين وفتح الساحل والارض المقدسة للمسلمين قال العماد فى كتاب البرق وهى السنة الحسنة المحسنة والزمان الذى تقضت على انتظار احسانه الازمنه وطهر فيه المكان المقدس الذى سلمت لسلامته الامكنه وخلصت بنجدة الله من المحنة الارض المقدسة الممتحنه وكفى الله شر الشرك وحكم على دماء الكفر بالسفك ونصرت الدولة الناصرية وخذلت الملة الصرانية وانتقم التوحيد من التثليث وشاع فى الدنيا بمحاسن الايام الصلاحية حديث الاحاديث ثم ذكر فى كتابى الفتح والبرق ما جملته ان قال فبرز السلطان من دمشق يوم السبت أول المحرم فى العسكر العرمرم ومضى بأهل الجنة لجهاد أهل جهنم فلما وصل الى رأس الماء أمر ولده الملك الافضل بالاقامة هناك يستدنى اليه الامراء الواصلين والاملاك ويجمع الاعارب والاعاجم والاتراك وسار السلطان الى بصرى وخيم على قصر السلامه وأقام على ارتقاب اقتراب الحجاج وكان فيهم حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين ووالدته أخت السلطان مع جماعة من الخراص وقد تقدم ذكر غدر ابرنس الكرك وهو على طريق العسكر المصرى والحاج ووصل الحاج فى آخر صفر وخلا سر السلطان من شغلهم ثم سار ونزل على الكرك وأخاف أهله وأخذ ما كان حوله ورعى زرعهم وقطع أشجارهم وكرومهم ثم سار الى الشوبك وفعل به مثل ذلك ووصل عسكر مصر فتلقاه بالقريتين وفرقه على أعمال القلعتين وأقام على هذه الحالة فى ذلك الجانب شهرين والملك الافضل ولده مقيم برأس الماء فى جمع عظيم من العظماء وعنده الجحافل الحافله والحواصل الحاصله والعساكر الكاسره والقساور القاسره وهو ينتظر أمر امر أبيه ويكتب اليه ويقتضيه وانقضى من السنة شهران وطال بهم انتظار السلطان فانهض منهم سرية سريه وأمرها بالغارة على اعمال طبريه ورتب على خيل الجزيرة ومن جاء من الشرق ودیار بكر مظفر الدين كوكبرى صاحب حران وعلى عسكر حلب والبلاد الشامية بدر الدين دلدرم بن يارق وعلى عسكر دمشق وبلادها صارم الدين قايماز النجمى فساروا مدججين وسروا مدلجين وصبحوا صفورية وساء صباح المنذرين فخرج اليهم الفرنج فى حشدهم فاتاهم الله النصر الهنى والظفر السنى وشفوا منهم حنين الحنايا وأدركوا فيهم منى المنايا وفازوا وظفروا وقتلوا وأسروا وهلك مقدم

الاسبتار وحصل جماعة من فرسانهم فى قبضة الاسار وأفلت مقدم الداوية وله حصاص ووقع الباقون ولم يكن لهم من الهلاك خلاص وعادوا سالمين سالبين غانمين غالبين فكانت هذه باكورة البركات ومقدمة ما بعدها من ميامن الحركات وجاءتنا البشرى ونحن فى نواحى الكرك والشوبك فسار السلطان ووصل السير بالسرى وخيم بعشترا والقدر يقول له تعيش وترى وقد غصت بخيل الله الوهاد والذرى وامتدّ العسكر فراسخ عرضا وطولا وملأ بالملأ حزونا وسهولا وما رأيت عسكرا أبرك منه ولا أكبر ولا أكرث للكفر ولا اكثر وكان يوم عرضه مذكرا بيوم العرض وما شاهده الامن تلا (ولله جنود السموات والارض) وعرض العسكر فى اثنى عشر ألف مدجج فى ليل الجحاح مدلج ولما تم العرض حسم الفرض وسالت بأفلاك السماء والارض وتعين الجهاد وتبين الاجتهاد ثم رتب السلطان للعسكر اطلابا وخربه احزابا وسار يوم الجمعة سابع عشر ربيع الآخر زاحفا على دخول الساحل فاناخ ليلة السبت على خسفين ثم سار فى الاردن الى ثغر الاقحوانة وأقام هنالك خمسة أيام وقد عين مواقف الامراء وشعارهم وأحاط بحيرة طبرية بحره المحيط وضاق ببسائط خيامه ذلك البسيط ولما سمع الفرنج باجتماع كلمة الاسلام عليهم وسير ذلك الجيش اليهم علموا انه قد جاءهم سالا عهد لهم بمثله وان الايمان كله قد برز الى الشرك كله فاجتمعوا واصطلحوا وحشدوا وجمعوا وانتخوا ودخل القمص معهم بعد ان دخل عليه الملك ورمى بنفسه عليه وصفوا راياتهم بصفوريه ولووا الالويه وحشدوا الفارس والراجل والراجل والنابل ورفعوا صليب الصلبوت فاجتمع اليه عباد الطاغوت وضلال الناسوت واللاهوت ونادوا فى نوادى أهل أقاليم أهل الاقانيم وصلبوا للصليب الاعظم بالتعظيم وما عصاهم مرله عصى وخرجوا عن العدد والاحصا وكانوا عدد الحصى وصاروا فى زهاء خمسين ألفا او يزيدون ويكيدون ما يكيدون قد نوافوا على صعيد ووافوا من قريب وبعيد وهم هنالك مقيمون لا يريمون والسلطان فى كل صباح يسير اليهم ويشرف عليهم ويراميهم وينكى فيهم ويتعرض لهم ليتعرضوا له ويردّوا عن رقابهم سيوفه وعن شعابهم سيوله فربضوا وما نهضوا وقعدوا وما نهضوا فلو برزوا للصاف لطالت عليهم يد الانتصاف فلما رأى السلطان انهم لا يبرحون ومن قرب صفورية لا يتزحزحون أمر أمراءه ان يقيموا فى مقابلتهم ويديموا على عزم مقاتلتهم ونزل هو فى خواصه العسكيه على مدينة طبريه وعلم انهم اذا علموا بنزوله عليها بادروا للوصول اليها فحينئذ يتمكن من قتالهم ويجهد فى استئصالهم ثم أحضر الجاندرية والقابين والخراسانية والحجارين وأطاف بسورها وشرع فى تخريب معمورها وأخذ النقابون فى النقب فى برج فهدوه وهدموه وتسلقوا فيه وتسلموه ودخل الليل وصباح الفتح مسفر وليل الويل على العدو معتكر وامتنعت القلعة بمن فيها من القمصية وبنيها ولما سمع القمص بفتح طبرية وأخذ بلده سقط فى يده وخرج عن جلد جلده وسمح للفرنج بسبده ولبده وقال لهم لا قعود بعد اليوم ولا بد لنا من لقاء القوم واذا أخذت طبرية أخذت البلاد وذهبت الطراف والتلاد وما بقى لى صبر وما بعد هذا الكسر لى جبر وكان الملك قد طالعه فطالعه ورافقه فما فارقه ورحل بجمعه وأتباعه وشياطينه وأشياعه فمادت الارض بحركته وغامت السماء من غبرته ووصل الخبر بأن الفرنج ركبوا ووثبوا ففرح السلطان وقال جاء ما نريد ونحن أولو بأس شديد واذا حطت كسرتهم فطبرية وجميع الساحل ما دونه مانع ولا عن فتحه وازع واستحار الله تعالى وسار وعدم القرار وذلك يوم الخميس ثالث عشرى ربيع الآخر والفرنج سائرون الى طبرية بقصدهم وقضيضهم وهم كالجبال السائره والبحار الزاخره أمواجها متلاطمة وأفواجها مزدحمة فرتب السلطان فى مقابلتهم اطلابه وحصل بعسكره قدامهم وحجزيتهم وبين الما واليوم قيظ وللقوم غيظ وحجز الليل بين الفريقين وحجب الخيل على الطريقين وهيئت دركاب النيران وهنئت درجات والجنان وانتظر مالك واستبشر رضوان فهى ليلة القدر خير من ألف شهر تنزل فيها الملائكة والروح وفى سحرها نشر الظفر يفوح وفى صباحها الفتوح فما أبهج تلك الليلة الا اخره فقد كنا من قال الله تعالى فيهم فأتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخره وبتنا والجنة معروضه والسنة مفروضه والكوثر واتفة سقاته الخلد قاطفة جناته والسلسبيل واضح سبيله والاقبال ظاهر قبيله والظهور قائم دليله والله ناصر الاسلام ومديله وسهر السلطان تلك الليلة حتى عين الجاليشية من كل طالب وملأ جعابها وكنائنها بالنبال وكان ما فرقه

من النشاب أربعمائة حمل ووقف سبعين جمازة في حومة الوغى يأخذ منها من خلت جعابه وفرغ نشابه حتى اذا أسفر الصباح خرج الجاليشية تحرق بنيران النصال أهل النار ورنت القسى وغنت الاوتار اذذاك واليوم ذاك والجيش شاك والقيظ عليهم فيض ومالغيظ منهم غيض وقد وقد الحر واستشرى الشر ووقع الكر والفر والسراب طافح والظماء لافح والجو محرق والجوى مقلق ولا ولئك الكلاب من اللهث لهث وبالعيث عيث وفى ظنهم انهم يردون الماء فاستقبلتهم جهنم بشرارها واستظهرت عليهم الظهيرة بنارها وذلك فى يوم الجمعه بجموع أهلها المجتمعه ووراء عسكرنا بحيرة طبريه والورد عد وما منه بعد وقد قطعت على الفرنج طريق الورود وبلوا من العطش بالنار ذات الوقود فوقفوا صابرين مصابرين مكابرين مضابرين فكلبوا على ضراوتهم وشربوا ما فى اداوتهم وشفهوا ما حولهم من موارد المصانع واستترفوا حتى ماء المدامع وأشرفوا على المصير الى المصارع ودخل الليل وسكن السيل وباتوا حيارى ومن العطش سكارى وهم على شغف البحيرة بحيره وقووا أنفسهم على الشده واستعدوا بالعزائم المحتده وقالوا غدا نصب عليهم ماء المواضى ونقاضيهم الى القواضب القواضى فأجدوا عزم البلاء وطلبوا البقاء بالتورط فى العناء وأما عساكرنا فانها اجترأت ومن كل ما يعوقها برئت فهذا السنانه شاحذ وهذا العنانه أخذ وهذا سهم مفوق وهذا شهم موفق وهذا مكثر للتكبير ومنتظر للتبكير وهذا تاج للسعاده وهذا راج للشهاده فيالله تلك من ليلة حراسها الملائكه ومن سحر انفاسها الطاف الله المتداركه والسلطان رحمه الله قد وثق بنصر الله فهو يمضى بنفسه على الصفوف ويحضهم ويعدهم من الله بنصر المألوف ويغرى المئين بالالوف وهم بمشاهدته اياهم يجيدون ويجدون ويصدون العدو ويردون وكان للسلطان مملوك اسمه منكورس حمل فى أول الناس وكان حصانه قوى الراس فابعد عن اخوانه ولم يتابعه أحد من أقرانه فانفرد به الفرنج فاثبت فى مستنقع الموت رجله وقاتل الى ان بلغوا قتله فلما أخذوا رأسه ظنوا انه أحد أولاد السلطان وانتقل السهيد الى جوار الرحمن ولما شاهد المسلمون استشهاده وجلده وجلاده حميت حميتهم وخلصت لله نيتهم وأصحح الجيش على تعبيته والنصر على تلبيته وذلك يوم السبت الخامس والعشرين من ربيع الآخر وهو يوم النصره ووقوع الكسره وبرح بالفرنج العطش وأبت عشرتها ان تنعش وكان النسيم من امامها والحشيش تحت أقدامها فرمى بعض مطوعة المجاهدين النار فى الحشيش فتأجج عليهم استعارها وتوهج اوارها فبلوا وهم أهل التليث من نار الدنيا بثلاثة اقسام فى الاصطلا والاصطلام نار الضرام ونار الاوام ونار السهام فرجا الفرنج فرجا وطلب ظلهم المحرج مخرجا فكلما خرجوا جرحوا وبرح بهم حر الحرب فارتحوا وهم ظماءى وما لهم ماء سوى ما بايديهم من ماء الفرند فشوتهم نار السهام واشوتهم وصممت عليهم قلوب القسى القاسية وأصممتهم وأبجزوا وأوزبجوا واحرجوا وأخرجوا وكلما حملوا ردوا وردوا وكلما ساروا اوشدوا وأسروا وشدوا وما دبت منهم نمله ولا ذبت عنهم حمله واضطرموا واضطربوا والتهبوا والتهبوا وماثبهم النشاب فعادت أسودهم قنانذ وضايقتهم السهام فوسعت فيهم الخرق النافذ فآووا الى جبل حطين ليعصمهم من طوفان اندماز فاحاطت بحطين بوارق الزوار ورشقتهم السبى وفرشتهم على الربى ورشقتهم الحنايا وقشرتهم المنايا وقرشتهم البلايا ورقشتهم الرزايا ولما أحس الغمص بالكسره حسر عن ذراع الحسره وأستمال من العزيمه واحتال فى الهزيمه وكان ذلك قبل اضطرام الجمع واضطرام الجر فخرج بطالبه يطلب الخروج واعوج الى الوادى وماوذان يعوج ومضى كومض البرق ووسع خطا خرقه قبس اتساع الخرق وأفلت فى عدة معدوده ولم يلتفت الى مودة مردوده وكان قال لاصحابه انا أسبقكم بالحمله وأفضلكم فى الجمله فاجتمع هو ومؤازروه وجماعة من المقدمين مضافروه وصحبه صاحب صيدا وبالیان بن بارزان وتوامروا على انهم يحملون ويلغون الطعان فحمل القمص ومن معه على الجانب الذى فيه الملك المظفر تقى الدين وهو مؤيد من الله بالتوفيق والتمكين ففتح لهم طريقا ورمى من اتباعهم فريقا فمضوا على رؤسهم ونجوا بنفوسهم ولما عرف الفرنج ان القمص اخذ بالعزيمه ونفذ فى الهزيمه وهنوا وهانوا ثم اشتدوا ومالانوا وثبتوا على ما كانوا واستقبلوا واستقتلوا واستلحموا وحلوا ووقعت عليهم وقوع النار فى الحلفاء وصيب الماء الحديد للاطفاء فزاد فى الاذكاء فحطوا خيامهم على غارب حطين حين رأونا بهم محيطين فأعجلناهم عن ضرب الخيام بضرب الهام ثم استحر الحرب واستمر الطعن والضرب وأحيط بالفرنج من حواليهم ودارت الدوائر عليهم وترجوا خيرا فترجلوا عن الخيل

وجرفهم السيف جرف السيل وملك عليهم الصليب الاعظم وذلك مصابهم الاعظم ولما شاهدوا الصليب سليبا ورقيب الردى قريبا أيقنوا بالهلاك وأثخنوا بالضرب الدراك فما برحوا يؤسرون ويقتلون ويخمدون ويخملون وللوثوب يخفون وبالجراح يثقلون ومن مصارع القتل الى معاصر الاسر ينقلون ووصلنا الى مقدمهم وملكهم وابرنسهم فتم أسر الملك وابرنس الكرك وأخي الملك جفري واولئك صاحب جبيل وهنفري بن هنفري وابن صاحب اسكندرونه وصاحب مرقيه وأسر من نجا من القتل من الداوية ومقدمها ومن الاستبتارية معظمها ومن البارونية من اخطأه البوار فأصابه وساءه الاسار وأسر الشيطان وجنوده وملك الملك وكنوده وجبر الاسلام بكسرهم وقتلوا وأسروا بأسرهم فمن شاهد القتلى قال ما هنالك أسير ومن عاين الاسرى قال ما هنالك قتيل ومذ استولى الفرنج على ساحل الشام ما شفى للمسلمين كيوم حطين غليل فالله عز وجل سلط السلطان وأقدره على ما أعجز عنه الملوك وهداه من التوفيق لامتثال أمره ومن اقامة فرضه للنهج المسلوك ونظم له في حتوف أعدائه والفتوح لاوليائه السلوك وخصه بهذا اليوم الاغر والنصر الابر واليمن الاسر والمجد الادر ولو لم يكن له الا فضيله هذا اليوم لكان متفردا على الملوك السالفة فكيف ملوك العصر في السمو والسوم غير ان هذه النوبة المباركة كانت للفتح القدسي مقدمه ولعقد النصر وقواعده مبرمة محكمه ومن عجائب هذه الوقعه وغرائب هذه الدفعه ان فارسهم مادام فرسه سالما لم يذل للصرعة فانه من لبسه الزردي من قرنه الى قدمه كان كانه قطعة حديد ودراك الضرب اليه غير مفيد لكن فرسه اذا هلك فرس وملك فلم يغنم من خيلهم ودوابهم وكانت الوفا ما هو سالم وما ترجل فارس الا والطعن والرمي لمركوبه كالم وغنمنا ما لا يحصر من بيض مكنون وزغف موضون وبلاد وحصون وسهول وحزون وابتذلنا منهم لهذا الفتح كل اقليم مصون وذلك سوى ما استبيح من مال مخزون واستخرج من كنز مدفون وصحت هذه الكسره وتمت هذه النصره يوم السبت وصربت ذلة أهل السبت على أهل الاحد وكانوا أسودا فعادوا من النقد فما أدلت من تلك الآلاف الاحاد وما نجا من أولئك الاعداء الا أعداد وامتلأ الملأ بالاسرى والقتلى وانجلى الغبار عنهم بالنصر الذي تجلى وقيدت الاسارى في الحبال واجبة القلوب وفرشت القتلى في الوهاد والجبال واجبة الجنوب وحطت حطين تلك الجيف عن متنها وطاب نشر النصر بنتنها وعبرت بها فالفيتها محل الاعتبار وشاهدت ما فعل أهل الاقبال باهل الادبار وعاينت أعيانهم خبرا من الاخبار ورأيت الرؤس طائره والنفوس بائره والعيون غائره والجسوم رسمتها السوافي والرسوم درستها العوافي واملاء المسلولين في الملتقى ملقاة بالعراء عراه ممزقة بالمازق مفصلة المفاصل مفرقة المرافق مفلقة المفارق محدوفة الرقاب مقصرفة الاصلاب مقطعة الهام موزعة الاقدام مجذوعة الانف منزعة الاطراف معقوة العيون مبعوجة البطون منصفة الاجساد مقصفة الاعضاد مقلصة الشفاه مخلصة الجباه سائلة الاحداق مائلة الاعناق عديمة الارواح هشيمة الاشباح كالاحجار بين الاحجار عبرة لاولي الابصار ولما أبصرت خدودهم ملصقة بالتراب وقد قطعوا آرابا تلوت قول الله تعالى (ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا) فما أطيب نفحات الظفر من ذلك الخبث وما ألهب عذبات العذاب في تلك الجثث وما أحسن عمارات القلوب بقبح ذلك الشعث وما أجز أصلواب البشائر بوقوع ذلك الحدث هذا حساب من قتل فقد حصرت السنة الامم عن حصره وعده وأما من أسر فلم تكف اطناب الخيم لقيده وشده ولقد رأيت في الحبل الواحد ثلاثين وأربعين يقودهم فارس وفي بقعة واحدة مائة ومائتين يحميهم حارس وهنالك العناة عناه والعداة عراه وذوو الاسرة أسرى وألوية الاثرة عثرى والقوامص قنائص والفوارس فرائس وغوالي الارواح رخائص ووجود الداوية عوابس والرؤس تحت الاخامص فكم أصيد صيد وفائد قيد وملك مملوك وهاتك مهتوك وحر في الرق ومبطل في يد المحق ولم يؤسر الملك حتى أخذ صليب الصلبوت وأهلك دونه الطاغوت وهو الذي اذا نصب وأقيم ورفع سجد له كل نصراني وركع وهم يزعمون انه من الخشبة التي يزعمون انه صلب عليها معبودهم وقد غلفوه بالذهب الاحمر وكللوه بالدر والجوهر وأعدوه ليوم الروع المشهود وموسم عيدهم الموعود فاذا أخرجته القسوس وحملته الرؤس تبادروا اليه وانثالوا عليه ولا يسع أحدهم عنه التخلف وللمتخلف عن اتباعه في نفسه التصرف وأخذه عندهم أعظم من أسر الملك وهو أشد مصاب لهم في ذلك المعترك فان الصليب السليب ماله عوض ولا لهم في سواه

غرض والتأله له عليهم مفترض فهو آلههم تعفر له جباههم وتسجد له أفواههم يتغاشون عند احضاره ويتعاشون لابصاره ويتلاشون لاظهاره ويتغاضون اذا شاهدوه ويتواجدون اذا وجدوه ويبذلون دونه المهج ويطلبون به الفرج بل صاغوا على مثله صلبانا يعبدونها ويخشعون لها فى بيوتهم ويشهدونها فلما أخذ هذا الصليب عظم مصابهم ووهت اصلابهم وكان الجمع المكسور عظيما والموقف المنصور كريما فكانهم لما عرفوا اخراج هذا الصليب لم يتخلف أحد عن يومهم العصيب فهلكوا قتلا وأسرا وملكوا قهرا وقسرا ولما صح الكسر وقضى الامر وتمكن النصر وسكن البحر ضرب السلطان فى تلك الحومة دهليز السرادق ونوافت اليه حماة الحقائق ونزل السلطان واصلى للشكر وسجد وجدد الاستبشار بما وجد واحضر عنده من الاسارى الملك والبرنس وأجلس الملك بجنبه وقال فى كتاب الفتح وجلس السلطان لعرض أكابر الاسارى وهم يتهادون فى القيود تهادى السكارى فقدم بداية مقدم الداوية وعدة كبير تمنهم ومن الاسبتاريه وأحضر الملك كى وأخوه جفرى وأولئك صاحب جبيل وهنفرى والابرنس ارناط صاحب الكرك وهو أول من وقع فى الشرك وكان السلطان تذرد منه وقال لا مجلس عند وجدانه عدمه فلما حضر بين يديه أجلسه الى جنب الملك والملك بجنبه وقرعه على غدره وذكره بذنبه وقال له كم تحلف وتحنث وتعهد وتنكث وتبرم الميثاق وتنقض وتقبل على الوفاق ثم تعرض فقال الترجمان عنه انه يقول قد جرت بذلك عادة الملوك وما سلكت غير السنن المسلوك وكان الملك يلوث ظمأ ويميل من سكرة الرعب منتشيا فأنسه السلطان وحاوره وقتأ سورة الوجل الذى ساوره وسكن رعبه وامن قلبه وأمر له بماء مثلوج فشربه وأطاب به طبه ثم ناول الملك الابرنس القدح فاستشفه وبرد به لهفه فقال السلطان للملك لم تأخذ فى سقيه منى إذنا فلا يوجب ذلك له منى أمنا ثم ركب وحلاهما وبنار الوهل اصلاهما ولم ينزل الى ان ضرب سرادقه وركزت اعلامه وبيارقه وعادت الى الحمى عن الحومة فيالقه فلما دخل سرادقه استحضر الابرنس فقام اليه وتلقاه بالسيف فحل عاتقه وحين صرع أمر برأسه فقطع وجر برجله قدام الملك حتى أخرج فارتاع الملك وانزعج فعرف السلطان انه خامره الفزع وساوره الهلع وسامره الجزع فاستدعاه واستدناه وأمنه وطمنه ومكنه من قربه وسكنه وقال له ذلك رداءتك أردته وغدرته كما تراه غادرته وقد هلك بغيه وبغيه ثم جمع الاسارى المعروفين وسلمهم الى والى قلعة دمشق الناصح الغيدى فقال لهم أنتم تحت قيدى وسلمهم الى أصحابه فتسلمتهم الايدى وأمرهم ان يأخذوا خط الصفى ابن القابض فى دمشق بوصولهم ويحتاط عليهم فى اغلالهم وكبولهم فتفرق العسكر بمن ضمته أيدى السبى أيدى سبا وهادتهم الوهاد والربى قال ولما أصبح السلطان يوم الاحد استقام على الجدد وخيم على طبريه وراسل القمصية وأخرجها من حصنها بالامان ووفى لها وللفرسان بنيها بشروط الايمان فخرجت بمالها ورحالها ونسائها ورجالها وسارت الى طرابلس بلد زوجها القمص بمالها ورحالها وولى طبرية قايماز النجمى وكانت طبرية فى عهد الفرنج تقاسم على نصف مغل البلاد من الصلت والبلقا وجبل عوف والحيانيه والسواد وتناصف الجولان وما يقربها الى بلد حوران فخلصت المناصفات وصفت الصفات وأمنت الآفات هذا والسلطان نازل ظاهر طبريه وقد طب البريه وعسكره قد طبق البريه فلما أصبح يوم الاثنين بعد الفتح بيومين طلب الاسارى من الداويه والاسبتاريه وقال أنا أطهر الارض من هذين الجنسين النجسين فما جرت عادتهما بالمفاداه ولا يقلعان عن المعاداه ولا يخدمان فى الاسر وهما أخبث أهل الكفر فتقدم باحضار كل أسير داوى واسبتارى ليمضى فيه حكم السيف ورأى البقيا عليه عين الحيف ثم علم ان كل من عنده أسير لا يسمح به وانه يضن بعطيه فجعل لكل من يأتيه بأسير منهما من الدنانير الحمر خمسين فأتوه فى الحال بمئين فأمر باعطابهم وضرب رقابهم ومحو حسابهم وكان بحصرته جماعة من المتطوعة المتورعه والمتصونة المتصوفه والمتعممة المتصرفه ومن تمت له المعرفة بالزهد والمعرفه فسأل كل واحد فى قتل واحد وسل سيفه وحسر عن ساعد والسلطان جالس ووجهه باشر والكفر عابس والعساكر صفوف والامراء فى السماطين وقوف فمنهم من فرى وبرى فشكر ومنهم من أبى ونبا وعذر ومنهم من يضحك منه وينوب سواه عنه وشاهدت هنالك الضحوك القتال ورأيت منه القوال الفعال فكم وعدا أنجزه وحدا أحرزه وأجرا استدامه بدم اجراه وبراعنق اليه بعنق براه

وسير ملك الفرنج وأخاه وهنفرى وصاحب جبيل ومقدم الداوية وجميع أكابرهم المأسورين الى دمشق ليودعوا السجون وتستبدل حركاتهم بالسكون وتفرقت العساكر بما حوت أيديهم من السبي وسبق بهم الى البلاد الناس ولم يقع على عددهم القياس فكتب الى الصفي بن القابض نائبه بدمشق ان يضرب عنق من يجده من الداوية والاسبتاريه فامتثل الامر فى إرهاقهم وضرب أعناقهم فما قتل الا من عرض عليه الاسلام فأبى أن يسلم وما أسلم الا آحاد حسن اسلامهم وتأكد بالدين عزامهم قال العماد ومازلت أبحث عن سبب نذر السلطان اراقة دم الابرنس حتى حدثنى الامير العزيز عبد العزيز بن شداد بن تميم بن المعز بن باديس وهو ذو البيت الكبير والحسب الجليل وكان جده صاحب افريقية والقيروان وكانوا يتوارثون ملكه الى قريب من هذا الزمان ذكر ان الاجل الفاضل حدثه ان السلطان لما عاد الى دمشق من حران بعد المرضة التى صار بها كل قلب عليه حران وذلك فى سنة اثنتين وثمانين وهو من عقابيل سقمه لا يفارق الانين فقلت له ما معناه فداك الله أيقظك الله ومايعيدك من هذا السوء سواه فانذر انك اذا أبللت من هذا المرض تقوم بكل ما لله من المفترض وانك لا تقاتل من المسلمين أحدا أبدا وتكون فى جهاد أعداء الله مجتهدا وانك اذا نصرك الله فى المعترك وظفرت بالقمص وابرنس الكرك تتقرب الى الله باراقة دمهما فما يتم وجود النصر الا بعدهما فأعطاه يده على هذا النذر ونجاه الله ببركة هذا العذر من الدعر وخلصه اخلاصه فى مرضاة الله فأبل من مرضته واستقل بنهضته واستقبل السنة القابلة بسنة الغزو وفريضته ثم جرى من مقدمات الجهاد ونتائجها ما جرى وخيم السلطان فى جموع الاسلام بعشترا وركب يوما فى عسكره وعرم على نشر الفساطل وطى المراحل ودخول الساحل والقذف بالحق على الباطل فبدا بلقاء الطلعة المباركة من الاجل الفاضل فقال له ليكن نذرك على ذكرك واستزد نعمة الله عنده بمزيد شكرك ولا تحط غير قمع أهل الكفر بفكرك فما أنقذك الله من تلك الورطه وانعشك من تلك السقطه الا ليوفر حظك من هذه الغبطه فتوكل على الله عازما وجاز الاردن جازما وارعب حاش الكفر وكسر جيوشه وتل عروشه ووقع فى الشرك أبرنس الكرك فرمى بصرب عنقه نذره وأما القمص فانه أخذ فى الملتقى بالهزيمة حذره ولما وصل الى طرابلس أخافه فى منامه الغدر وجاء فى صفوه الكدر وتسلمه مالك الى سقر

﴿فصل﴾ هذا الذى تقدم من وصف كسره حطين هو عين ما ذكره عماد الدين رحمه الله فى كتابيه الفتح والبرق اختصرته منهما وهو مطول فيهما وقد وقفت على كلام لغيره فى ذلك فاحببت ايراده على وجهه لما فيه من شرح ما تقدم وتقويته وربما اشتمل على زيادات من فوائد تتعلق بذلك لم يتعرض العماد لها أو مخالفة لبعض ما ذكره قال القاضى أبو المحاسن بن شداد لما كان المحرم سنة ثلاث وثمانين عزم السلطان على قصد الكرك فسير الى حلب من يحضر العسكر وبرز من دمشق فى منتصف المحرم فسار حتى نزل بارض الكرك منتظرا لاجتماع العساكر المصرية والشاميه وأمر العساكر المتواصلة اليه بشن الغارة على ما فى طريقهم من البلاد الساحليه ففعلوا ذلك وأقام رحمه الله بارض الكرك حتى وصل الحاج الشامى الى الشام وامنوا غائلة العدو ووصل قفل مصر ومعه بنت الملك المظفر وما كان له بالديار المصريه وتأخرت عنه العساكر الحلبيه بسبب اشتغالها بالفرنج بارض انطاكية وبلاد ابن لاون وذلك انه كان قدمات ووصى لابن أخيه لاون بالملك وكان الملك المظفر بحماه وبلغ الخبر السلطان فامره بالدخول الى بلاد العدو واخماد ثائرته فوصل تقى الدين حلب ونزل فى دار العفيف بن زريق وانتقل الى دار طيان وفى تاسع صفر خرج بعسكر حلب الى حارم ليعلم العدو ان هذا الجانب ليس بمهمل وعاد السلطان فوصل الى السواد ونزل بعشترا سابع عشر ربيع الاول ولقيه ولده الافضل ومظفر الدين وجميع العساكر وكان تقدم الى الملك المظفر بمصالحة الجانب الحلبى مع الفرنج ليتفرغ البال مع العدو فى جانب واحد فصالحهم وتوجه الى حماه يطلب خدمة السلطان للغزاه فسارت العساكر الشرقية فى خدمته وهم عسكر الموصل يقدمهم مسعود بن الزعفرانى وعسكر ماردين الى ان أتوا عشترا فلقيهم السلطان وأكرمهم ثم عرض السلطان العساكر منتصف ربيع الاخر على تل يعرف بتل تسيل ورتبهم واندفع قاصدا بلاد العدو فى وسط نهار الجمعه وكان أبدا يقصد بوقعاته الجمع لاسيما أوقات صلاة الجمعه تبركا بدعاء الخطباء على المنابر فربما كانت أقرب الى الاجابه وبلغه ان الفرنج اجتمعوا فى مرج صفورية بأرض

عكا فقصد نحوهم للمصاف معهم فسار ونزل على بحيرة طبرية عند قرية تسمى الصنبره ورحل من هنالك ونزل غربى طبرية على سطح الجبل لتعبية الحرب منتظرا ان الفرنج اذا بلغهم ذلك قصدوه فلم يتحركوا من منزلتهم فنزل جريدة على طبرية وترك الاطلاب على حالها قبالة وجه العدو ونازل طبرية وزحف عليها فهجمها وأخذها فى ساعة من نهار وامتدت الايدى اليها بالنهب والاسر والحريق والقتل وامتنعت القلعة وحدها فرحل الفرنج وقصدوا طبرية للدفع عنها فاخبرت الطلائع الاسلامية الامراء بحركة الفرنج فسيروا الى السلطان من عرفه ذلك فنزل على طبرية من يحفظ قلعتها ولقى العسكر هو ومن معه فالتقى العسكران على سطح جبل طبرية الغربى منها وحال الليل بين الفئتين فباتتا على مصاف شاكيتين فى السلاح الى صبيحة الجمعة فركب العسكران وتصادما وذلك بارض قرية تسمى اللوبيا ولم تزل الحرب الى ان حال بينهم الظلام وجرى فى ذلك اليوم من الوقائع العظيمه والامور الجسيمه مالم يحك عن من تقدم وبات كل فريق فى سلاحه ينتظر خصمه فى كل ساعة وقد أقعده التعب عن النهوض حتى كان صباح السبت الذى بورك فيه فطلب كل من الفئتين مقامه وعلمت كل طائفة ان المكسورة منهما مدحورة الجنس معدومة النفس وتحقق المسلمون ان من ورائهم الاردن ومن بين أيديهم بلاد القوم ولا ينجيهم الا الله وكان الله قد قدر نصر المسلمين فيسره وأجراه على وفق ماقدره فحملت الاطلاب الاسلامية من الجوانب وحمل القلب وصاحوا صيحة الرجل الواحد فالقى الله الرعب فى قلوب الكافرين (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) وكان القمص ذكى القوم وألمعيهم فرأى امارات الخذلان قد نزلت باهل دينه ولم يشغله ظن مجاسنة جنسه عن يقينه فهرب فى أوائل الامر قبل اشتداده وأخذ طريقه نحو صور وتبعه جماعة من المسلمين فنجا وحده وامن الاسلام كيده واحتاط أهل الاسلام بأهل الكفر والطغيان من كل جانب فانهزمت منهم طائفة فتبعها ابطال المسلمين فلم ينج منها واحد واعتصمت الطائفة الاخرى بتل حطين وهى قرية عنده وعندها قبر النبى شعيب عليه السلام فضايقهم المسلمون على التل وأشعلوا حولهم النيران وقتلهم العطش وضاق بهم الامر حتى كانوا يستسلمون للاسر خوفا من القتل فاسر مقدموهم وقتل الباقون وأسروا وكان الواحد العظيم منهم يخلد الى الاسر خوفا على نفسه ولقد حكى لى من أثق به انه لقى بحوران شخصا واحدا ومعه طنب خيمة فيه نيف وثلاثون أسيرا يجرهم وحده بخذلان وقع عليهم وأما القمص الذى هرب فانه وصل الى طرابلس وأصابه ذات الجنب فاهلكه الله بها وأما مقدموا الاسبتارية والداوية فان السلطان اختار قتلهم فقتلوا عن بكرة أبيهم وأما البرنس ارناط فكان السلطان قد نذر انه ان ظفر به قتله وذلك انه كان عبر به بالشوبك قفل من الديار المصرية فى حالة الصلح فنزلوا عنده بالامان فغدر بهم وقتلهم فناشدوه الله والصلح الذى بينه وبين المسلمين فقال مايتضمن الاستخفاف بالنبى صلى الله عليه وسلم وقال قولوا لمحمد كم يخلصكم وبلغ ذلك السلطان فحمله الدين والحمية على انه نذر ان ظفر به قتله فلما فتح الله عليه بالنصر والظفر جلس فى دهليز الخيمة فانها لم تكن نصبت والناس يتقربون اليه بالاسارى وبمن وجدوه من المقدمين ونصبت الخيمة وجلس فرحا مسرورا شاكرا لما أنعم الله به عليه ثم استحضر الملك جفرى وأخاه والبرنس ارناط وناول الملك شربة من جلاب بثلج فشرب منها وكان على اشد حال من العطش ثم ناول بعضها البرنس ارناط فقال السلطان للترجمان قل للملك انت الذى تسقيه والا أنا ماسقيته وكان على جميل عادة العرب وكريم أخلاقهم ان الاسير اذا أكل أو شرب من مال من أسره أمن فقصد بذلك الجرى على مكارم الاخلاق ثم أمر بمسيرهم الى موضع عين لنزولهم فمضوا وأكلوا شيئا ثم عاد استحضرهم ولم يبق عنده أحد سوى بعض الخدم فاقعد الملك فى الدهليز واستحضر البرنس ارناط واوقفه على ماقال وقال ها أنا انتصر لمحمد صلى الله عليه وسلم ثم عرض عليه الاسلام فلم يفعل ثم سل البيجاه وضربه بها فحل كتفه وتمم عليه من حضر وعجل الله بروحه الى النار فاخذ ورمى على باب الخيمة فلما رآه الملك قد أخرج على تلك الصورة لم يشك فى انه يثنى به فاستحضره وطيب قلبه وقال لم تجر عادة الملوك ان يقتلوا الملوك وأما هذا فانه جاوز حده فجرى ماجرى وبات الناس فى تلك الليلة على أتم سرور وأكمل حبور ترتفع أصواتهم بالحمد لله والشكر له والتكبير والتهليل حتى طلع الصبح فى يوم الاحد فنزل رحمه الله على طبرية وتسلم فى بقية ذلك اليوم قلعتها وأقام بها الى يوم الثلاثا قلت وذكر محمد بن القادسى فى تاريخه انه ورد فى هذه السنة كتب الى بغداد فى وصف هذه الوقعة منها كتاب من عبد الله

ابن أحمد المقدسي يقول فيه (كتبت هذا الكتاب من عسقلان يوم الثلاثا ثالث عشر جمادى الاخرة سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة) وفيه (ولو حمدنا الله عز وجل طول أعمارنا وفينا بعشر معشار نعمته التي أنعم بها علينا من هذا الفتح العظيم فانا خرجنا الى عسكر صلاح الدين وتلاحق الاجناد حتى جاء الناس من الموصل وديار بكر وارمل فجمع صلاح الدين الامراء وقال هذا اليوم الذي كنت أنتظره وقد جمع الله لنا العساكر وأنا رجل قد كبرت وما أدري متى أجلي فاغتنموا هذا اليوم وقاتلوا لله تعالى لا من أجلي فاختلفوا في الجواب وكان رأي أكثرهم لقاء الكفار فعرض جنده ورتبهم وجعل تقي الدين في الميمنة ومظفر الدين في الميسرة وكان هو في القلب وجعل بقية العسكر في الجناحين ثم ساروا على مراتبهم حتى نزلوا الاقحوانة فتركوا بها اثقالهم وساروا حتى نزلوا بكفرسبت فأقاموا يومين ينتظرون ان يبرز لهم الكفار وكان عسكر الكفار على صفورية فلم يبرزوا فعاد صلاح الدين حتى نزل على طبرية فتقدم فرسانه وحماته ورماته والنقابون فدخلوا تحت الحصن فلما تمكن النقب منه انهال من غير وقود نار ودخل المسلمون فانتهبوا يوم الخميس وأصبحوا يوم الجمعة فشرعوا في نقب القلعة فلما كان وقت الصلاة جاء الخبر ان الكفار قد توجهوا الينا فارتحل صلاح الدين على صفوفه فلقيهم ثم لم يزالوا يتقدمون حتى صار المسلمون محيطين بهم وصار قلب المسلمين خلفهم فتراموا ساعة وبات كل فريق على مصافهم ثم أصبحوا فسار الكفار يقصدون طبرية والمسلمون حولهم يلحون عليهم بالرمي فاقتلع المسلمون منهم فوارس وقتلوا خيالة ورجالة فانحاز المشركون الى تل حطين فنزلوا عنده ونصبوا الخيام وأقام الناس حولهم الى ان انتصف النهار وهبت الرياح فهجم المسلمون عليهم فانهزموا لا يلوون على شئ ولم يفلت منهم الا نحو من مائتين وكانوا كما قيل اثنين وثلاثين ألفا وقيل ثلاثة وعشرين ألفا لم يتركوا في بلادهم من يقدر على القتال الا قليلا وكان الذي أسر الملك هو در باس الكردي وغلام الامير ابراهيم المهراني أسر الابرنس وقتل صلاح الدين الابرنس بيده لانه كان قد غدر وأخذ قافلة من طريق مصر ثم عاد صلاح الدين الى طبرية فأخذ قلعتها بالامان ثم ضرب أعناق الاسارى الذين كانوا في العسكر وأرسل الى دمشق فضربت اعناق الذين بها منهم) قال وورد كتاب آخر فيه هذه الفتوح التي ما سمع بها قط هذا ذكر بعضها مختصرا مع انه لا يقدر أحد يصف ذلك لان الامر اكبر من ذلك الذي يبشر به المسلمون ان مدينة طبرية فتحت بالسيف وأخذت قلعتها بالامان واجتمع عسكر الافرنج جميعهم والتقوا بالمسلمين عند قبر شعيب النبي صلى الله عليه وسلم وقتل من الافرنج ثلاثون ألفا وكان عدد الافرنج ثلاثة وستين ألفا بين فارس وراجل وأسر منهم ثلاثون ألفا وبلغ ثمن الاسير بدمشق ثلاثة دنانير واستغنى عسكر الاسلام من الاسرى والاموال والغنائم بحيث لا يقدر أحد يصف ذلك وما سلم من عسكر الفرنج سوى قمص اطرابلس مع أربعة نفر وهو مجروح ثلاث جراحات وأخذ جميع أمراء الفرنج وكم قد سبي من النساء والاطفال يباع الرجل وزوجته وأولاده في المناداة بيعة واحدة ولقد بيع بحضوري رجل وامرأته وخمسة أولاد ثلاث بنين وابنتان بثمانين دينارا وأخذ صليب الصلبوت فعلق على قنطارته منكسا ودخل به القاضي ابن أبي عصرون الى دمشق وكل يوم يرى من رؤس الفرنج مثل البطيخ وأخذ من البقر والغنم والخيل والبغال ما لم يجئ من يشتريها من كثرة السبي والغنائم قال وفي كتاب آخر (وكان الفرنج خمسة وأربعين ألفا فلم يسلم منهم سوى ألف وقتل الباقون واستأسروهم وكذلك الملوك) قلت وبلغني ان بعض فقراء العسكر وقع بيده أسير وكان محتاجا الى نعل فباعه بها فقيل له في ذلك فقال أردت ان يذكر ذلك ويقال بلغ من هوان أسرى الفرنج وكثرتهم ان بيع منهم واحد بنعل ولله الحمد وما أحسن ما قال أبو الحسن ابن الذروي من قصيده

شرحت لمتن الدين بالسمر والظبى ❊ من المجد معنى كان من قبل يغمض
وما كاد جيش الروم يبرم كيده ❊ الى ان سرت منك المهابة تنقض
حميت ثغور المسلمين فأصبحت ❊ ثغورا بأمواه الحديد تمضمض
أسرت ملوك الكفر حتى تركته ❊ وما فيه عرق عن قوى النفس ينبض

وكان القاضي الفاضل غائبا عن هذه الكسرة بدمشق فلما بلغته كتب الى السلطان (ليهن المولى ان الله قد أقام به الدين القيم وانه كما قيل أصبحت مولاى ومولى كل مسلم وانه قد أسبغ عليه النعمتين الباطنة والظاهرة وأورثه

الملكين ملك الدنيا وملك الآخرة كتب المملوك هذه الخادمه والرؤس الى الآن لم ترفع من سجودها والدموع لم تمسح من خدودها وكلما فكر الخادم ان البيع تعود وهى مساجد والمكان الذى كان يقال فيه ان الله ثالث ثلاثة يقال اليوم فيه انه الواحد جدد لله شكرا تارة يفيض من لسانه وتارة يفيض من جفنه وجزاء يوسف خيرا عن اخراجه من سجنه والمماليك ينتظرون أمر المولى فكل من أراد أن يدخل الحمام بدمشق قد عول على دخول حمام طبريه تلك المكارم لا قعبان من لبن وذلك الفتح لا عمان واليمن وذلك السيف لا سيف ابن ذى يزن والالسنة بعد فى هذا الفتح شرح طويل وقول جليل) وللعماد رحمه الله قصائد يذكر فيها وقعة حطين لم يذكر منها شيأ هنا بل ذكر بعضها عند ذكر فتح نابلس وبعضها عند فتح القدس فنقلت الى هذا المكان منها ما يتعلق به والباقى يذكر فى مكانه قال

يا يوم حطين والابطال عابسة ❁ وبالجحاجة وجه الشمس قد عبسا
رأيت فيه عظيم الكفر محتقرا ❁ معفر اخده والانف قد تعسا
يا طهر سيف برى راس البرنس فقد ❁ أصاب أعظم من بالشرك قد نجسا
وغاص اذ طار ذاك الرأس فى دمه ❁ كانه ضفدع فى الماء قد غطسا
ما زال يعطس مزكوما بغدرته ❁ والقتل تسميت من بالغدر قد عطسا
عرى ظباه من الاغماد مهرقة ❁ دما من الشرك ردا هابه وكسا
من سيفه فى دماء القوم منغمس ❁ من كل من لم يزل فى الكفر منغمسا
افناهم قتلهم والاسر فانتكسوا ❁ وبيت كفرهم من خيبتهم كنسا

وقال أيضا يخاطب صلاح الدين رحمه الله

سحبت على الاردن ردنا من القنا ❁ ردينية ملسا وخطية ملسا
حططت على حطين قدر ملوكهم ❁ ولم تبق من أجناس كفرهم جنسا
ونعم مجال الخيل حطين لم تكن ❁ معاركها للجرد ضرسا ولا دهسا
غداة أسود الحرب معتقلوا القنا ❁ أساود تبغى من نحور العدا نهسا
أتواشكس الاخلاق خشنا فلينت ❁ حدود الرفاق الخشن اخلاقها الشكسا
طردتهم فى الملتقى وعكستهم ❁ مجيدا بحكم العزم طردك والعكسا
فكيف مكست المشركين رؤسهم ❁ ودأبك فى الاحسان ان تطلق المكسا
كسرتهم اذ صح عزمك فيهم ❁ ونكستهم اذ صار سهمهم نكسا
بواقعة رجت بها الارض جيشهم ❁ دمارا كما بست جبالهم بسا
بطون ذئاب الارض صارت قبورهم ❁ ولم ترض أرض ان تكون لهم رمسا
وطارت على نار المواضى فراشهم ❁ صلاء فزادت من خودهم قبسا
وقد خشعت أصوات ابطالها فما ❁ يعى السمع الا من صليل الطبى همسا
تقاديد أماء الدماء ملوكهم ❁ أسارى كسفن اليم نطت بها القلسا
سبايا بلاد الله مملوءة بها ❁ وقد شريت بخسا وقد عرضت نخسا
يطاف بها الاسواق لا راغب لها ❁ لكثرتها كم كثرة توجب الوكسا
شكا يسار أس البرنس الذى به ❁ تندى حسام حاسم ذلك اليبسا
حسادمه ماض الغرار لغدره ❁ وما كان لولا غدره دمه يحسى
فلله ما أهدى يدا فتكت به ❁ وأطهر سيفا معدما رجسه النجسا

نسفت به رأس البرنس بضربة ❁ فأشبه رأسي رأسه العهن والبرسا
تبوّغ في أوداجه دم بغيه ❁ فصال عليه السيف يلحسه لحسا
بعثت امام أمة النار نحوها ❁ فزار امام ارناطها ذلك الحبسا
ولله نص النصر جاء لنصله ❁ فلا قونسا ابقى لرأس ولا قنسا
حكى عنق الداوى صليل بضربة ❁ طرير الشباعود المضراب حسا
أيوم وغى تدعوه أم يوم نائل ❁ وأنت وهبت الغانمين به الخمسا
وقد طاب رياناعلى طبرية ❁ فيا طيبها رياو ياحسنها مرسى

وللنهاب فتيان الساغورى من قصيدة سيأتي بعضها في مدح صلاح الدين رحمه الله

جاشت جيوش الشرك يوم لقيتهم ❁ يتدامرون على متون الضمر
أوردت أطراف الرماح صدورهم ❁ فولغن في علق النجيع الاحمر
فهناك لم ير غير نجم مقبل ❁ في أثر عفريت رجيم مدبر
فمن الذى من جيشهم لم يختزم ❁ ومن الذى من جمعهم لم يؤسر
حتى لقد بيعت عقائل أرهقت ❁ بالسبي بالثمن الاخس الاحقر
سقت المماليك الكرام ملوكهم ❁ كأسا به سقت اللئيم الهنفرى
وعجمت عود صليبهم فكسرته ❁ وسواك الفاه صليب المكسر
أغلى الاداهم من أسرت وأرخصت ❁ بيض الصوارم من نهاب العسكر
وجعلت شرق الارض يحسد غربها ❁ بك فهو داع دعوة المستنصر
لا يعدمنك المسلمون فكم يدا ❁ أوليتهم معروفها لم تنكر
آمنت سربهم وصنت حريمهم ❁ ودرأت عنهم فاصمات الاظهر
ما ان رآك الله الا آمرا ❁ فيهم بمعروف ومنكر منكر
متواضعا لله جل جلاله ❁ وبك أضحلت سطوة المتكبر
لم يخل سمع من هناء مهنئ ❁ للمسلمين ومن سماع مبشر
واستعظم الاخبار عنك معاشر ❁ فاستصغروا ما استعظموا بالمخبر
مضت الملوك ولم تنل عشر الذى ❁ أوتيته من منجح أو مفخر

وقال أبو الحسن علي بن الساعاتي في فتح طبريه

جلت عزماتك الفتح المبينا ❁ فقد قرّت عيون المؤمنينا
رددت أخيذة الاسلام لما ❁ غدا صرف القضاء بها ضمينا
وهان بك الصليب وكان قدما ❁ يعز على العوالى ان يهونا
يقاتل كل ذى ملك رياء ❁ وأنت تقاتل الاعداء دينا
غدت في وجنة الايام خالا ❁ وفي جيد العلا عقدا ثمينا
فيا لله كم سرت قلوبا ❁ ويا لله كم أبكيت عيونا
وما طبرية الاهدى ❁ ترفع عن أكف اللامسينا
حصان الذيل لم تقذف بسوء ❁ وسل عنها الليالى والسنينا
فضضت ختامها قسرا ومن ذا ❁ يصد الليث ان يلج العرينا
لقد أنكحتها صم العوالى ❁ فكان نتاجها الحرب الزبونا
هنالك ندى أهل الارض طرا ❁ سواك ومعقل أعيا القرونا
قست حتى رأت كفؤا فلانت ❁ وغاية كل قاس ان يلينا

قضيت فريضة الاسلام منها ❊ وصدقت الامانى والظنونا
تهز معاطف القدس ابتهاجا ❊ وترضى عنك مكة والحجونا
فلوان الجهاد يطيق نطقا ❊ لنادتك ادخلوها آمنينا
جعلت صباح آهلها ظلاما ❊ وأبدلت الزئير بها أنينا
تخال حماة حوزتها نساء ❊ يخوضون الحديد مقنعينا
لبيضك فى جماجمهم غناء ❊ لذيذ علم الطير الحنينا
تميل الى المثقفة العوالى ❊ فهل أمست رماحا أم غصونا
يكاد النقع يذهلها فلولا ❊ بروق القاضبات لما هدينا
فكم حازت قدودقناك منها ❊ قدودا كالقنا لونا ولينا
وغيد كالجآذر آنسات ❊ كغيدنداك ابكارا وعونا
ولما باكرتها منك نعمى ❊ بنان تفضح الغيث الهتونا
أعدت بها الليالى وهى بيض ❊ وقد كانت بها الايام جونا
فليس بعادم مرعى خصيبا ❊ اخوسغب ولاماء معينا
فلا عدم الشآم وساكنوه ❊ طبى تشفى بها الداء الدفينا
سهاد جفونها فى كل فيج ❊ سهاد يمنح الغمض الجفونا
فالمم بالسواحل فهى صور ❊ اليك والحق الهمام المتونا
فقلب القدس مسرور ولولا ❊ سطاك لكان مكتئبا حزينا
أدرت على الفرنج وقد تلاقت ❊ جموعهم عليك رحى طحونا
فمن يبسان ذاقوا منك بؤسا ❊ وفى صفد أتوك مصفدينا
لقد جاءتهم الاحداث جمعا ❊ كان صروفها كانت كمينا
وخانهم الزمان ولا ملام ❊ فلست بمبغض زمنا خؤونا
لقد جردت عزما ناصريا ❊ يحدث عن سناه طور سينا
فكنت كيوسف الصديق حقا ❊ له هوت الكواكب ساجدينا
لقد أتعبت من طلب المعالى ❊ وحاول ان يؤس المسلمينا
وان تك آخرا وخلاك ذم ❊ فان محمدا فى الاخرينا

قال ابن أبى طى حدثنى والدى عن احد التجار قال كنت بالموصل فى سنة خمس وخمسين وخمسمائه فزرت الشيخ عمر الملا فدخل اليه رجل فقال أيها الشيخ رأيت البارحة فى النوم كانى بارض غريبة لا أعرفها وكأنها مملوءة بالخنازير وكأن رجلا فى يده سيف وهو يقتل الخنازير والناس ينظرون اليه فقلت لرجل هذا عيسى بن مريم هذا المهدى قال لا فقلت من هذا قال هذا يوسف مازادنى على ذلك قال فتعجب الجماعة من هذه الرؤيا وقالوا انه سيقتل النصارى رجل يقال له يوسف وحدست الجماعة انه يوسف بن عبد المؤمن صاحب الغرب وكان المستنجد بالله قد ولى الخلافة تلك السنة فحدس بعض الجماعة عليه قال ونسيت انا هذه الوقعة فلما كانت سنة كسرة حطين ذكرتها فكان يوسف الملك الناصر رحمه الله قال وحدثتنى ظئر لى من نساء الحلبيين كانت تداخل أخت السلطان الملك الناصر قالت كانت والدة السلطان تخبر انها اتيت فى نومها وهى حامل بالسلطان فقيل لها ان فى بطنك سيفا من سيوف الله تعالى

❊(فصل)❊ فى فتح عكا وغيرها وهى بالالف الممدوده ويدل على ذلك انه يقال فى النسبة اليها عكاوى وقد وجدت ذلك فى شعر قديم ومنهم من يقول عكه بالهاء ومثل ذلك حصن عرقه وبعضهم يقول عرقا بالالف ونهر تورا وبعضهم يقول نهر توره بالهاء قال القاضى ابن شداد ثم رحل السلطان طالبا عكا وكان نزوله عليها يوم الاربعاء سلخ ربيع الآخر

وقاتلها بكرة الخميس مستهل جمادى الاولى فأخذها واستنقذ من كان فيها من الاسارى وكانوا زهاء اربعة آلاف نفر واستولى على ما فيها من الاموال والذخائر والبضائع والتجائر فانها كانت مظنة التجار وتفرقت العساكر فى بلاد الساحل يأخذون الحصون والقلاع والاماكن المنيعة فأخذوا نابلس وحيفا وقيسارية وصفورية والناصرة وكان ذلك لخلو الرجال بالقتل والاسر قال العماد ورحل السلطان ظهر يوم الثلاثا والتوحيد ظاهر على التثليث والطيب قد امتاز من الخبيث ونزل بأرض لوبية عشيه وأعادها بازهار بنوده وأنوار جنوده روضة موشيه ثم أصبح سائرا الى عكا فاشياسره بارا بأهل الدين بره وكان أمير المدينة النبوية صلوات الله على ساكنها فى موكبه فكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سير الى نصرته من يثرى به من يثربه وهذا الامير عز الدين ابن فليته القاسم ابن المهنا الحسينى قد وفد فى تلك السنة أوان عود الحاج وهو ذو شيبة تقد كالسراج ومابرح مع السلطان مأثور المآثر ميمون الصحبه مأمون المحبه مبارك الطلعه مشارك الوقعه فاتح فتح فى تلك السنين الا بحضوره ولا أشرق مطلع من النصر الا بنوره فرأيته فى ذلك اليوم للسلطان مسائرا ورأيت السلطان له مشاورا محاورا وأنا أسير معهما وقد دنوت منهما ليسمعانى وأسمعهما ولاحت أعلام عكا وكأن بيارق الفرنج المركوزة عليها ألسنة من الخوف تتشكى وكأن عذبات النيران تصاعدت لعذاب أهلها وقد توافرت عساكر الاسلام اليها من وعرها وسهلها ولما أشرفنا عليها مستظهرين أيقنا بفتحها مستبشرين فما كان فيها من يحميها فما صدقنا كيف نملكها ونحويها وظهر على السور أهلها لاجل الممانعه والنبات على المدافعه وخفقان ألويتها يشعر بقلوبها الخافقه وأرواح جلدهم الزاهقه ووقفنا نتأمل طلولها ونؤمل حصولها وخيم السلطان بقربها وراء التل وانبثت عساكره فى الوعر والسهل وبتنا تلك الليلة وقد هزتنا الاطراب نقول متى يجمع الاصباح والاصحاب فما هجدنا ولا غرارا ولا وجدنا من الفرح قرارا والسلطان جالس ونحن عنده وهو يحض جنده ويقدح معهم فى اقتباس الارآء منده ومنا من يستنجز وعده ومنا من يستميح رفده ومنا من يواصله بالدعاء ومنا من يشافهه بالهناء وأصبح يوم الخميس فركب فى خميسه ووقف كالاسد فى عريسه ووقفنا بازاء البلد صفوفا وأطللنا على اطلاله وقوفا فخرج أهل البلد يطلبون الامان ويبذلون الاذعان فأمنهم وخيرهم بين المقام والانتقال ووهب لهم عصمة الانفس والاموال وكان فى ظنهم انه يستبيح دماءهم ويسبى ذريتهم ونساءهم وأمهلهم أياما حتى ينتقل من يختار النقله فاغتنموا تلك المهله وفتح الباب للخاصه واستغنى بالدخول الى البلد جماعة من ذوى الخصاصه فان القوم ما صدقوا من الخوف المزعج والفرق المحرج كيف يتركون دورهم بما فيها ويسلمون وعندهم انهم اذا نجوا بأنفسهم انهم يغنمون فلما دخل الجند ركز كل واحد منهم على دار رمحه واسام فيها سرحه فحصلوا على دور اخلاها اربابها واموال خلاها اصحابها وكالاجل الامان نهابها فطاب لاولئك نهابها وجعل السلطان للفقيه عيسى الهكارى كل ما كان للداوية من منازل وضياع ومواضع ورباع فأخذها بما فيها من غلال ومتاع واستخرجوا الدفائن ووجوا المخازن وداروا الاماكن وكذلك مما لك الملك الافضل وأصحابه وولاته ونوابه نبشوا المحارز وفتشوا المراكز واستباحوا الاهرا واجتاحوا الاشيا وكان السلطان قد فوض عكا وضياعها ومعاقلها وقلاعها الى ولده الاكبر الملك الافضل نور الدين على ثم ذكر العماد أنواع ما استولوا عليه من الاموال ثم قال ومن جملة ذلك انهم احتاطوا بغير علمى على دار باسمى فباعوا منها متاعا بسبعمائة دينار وأخلوها مما كان فيها من آلات وأذخار وقد دونى المنة فى تحصيل تلك الدار فانها كانت من أنفس العقار وسلموها الى غلام صديق لى يصونها ويقوم بحفظها والذب عنها والدفاع دونها فذكر ان الغلام انتفع من آلاتها بعد خلوها بما قيمته سبعون دينارا وان الاولين نقلوا منها من الذخر أوقارا قال وانما وصفت هذا ليعلم ما غنموه والتهبوا على حيازته والتهموه وتصرف الملك المظفر تقى الدين فى دار السكر فافنى قنودها واستوعب موجودها ونقل قدورها وانقاضها وحوى جواهرها واعراضها وقال فى كتاب الفتح وخلى سكان البلد دورهم ومخزونهم ومذخورهم وتركوها لمن أخذها ونبذوا ما حووه لمن حواها وما نبذها وافتقر من الفرنج أغنياء واستغنى من أجنادنا فقراء ولو ذخرت تلك الحواصل وحصلت تلك الذخائر وجمع لبيت المال ذلك المال المجموع الوافر لكان عدة ليوم الشدائد وعمدة

لنجح المقاصد فرتعت فى خضرائها بل فى صفرائها وبيضائها سروح الاطماع وطال لمستحلبها ومستحلبها الامتاع بذلك المتاع قال فى البرق وقرئ على السلطان ليلة من كتاب الفتح ونحن بالقدس يعنى هذا المكان وذلك سنة ثمان وثمانين فقال السلطان هذه رفيعة على ثلاثة اثنان منهم فى جوار الرحمه والآخر باق فى مقر العصمه يعنى بالاثنين الفقيه عيسى وتقى الدين وبالآخر الباقى ولده نور الدين قال ولعمرى هو كما ذكره لكن الافضل ماحصل له ولخواصه بل لذوى اختصاصه واستخلاصه وفتحوا البلد يوم الجمعة مستهل جمادى الاولى فجئنا الى كنيستها العظمى فازحنا عنها البؤسى بالنعمى وحضر الاجل الفاضل فرتب بها المنبر والقبلة وهى اوّل جمعة أقيمت بالساحل بعد يوم الفتح وكان الخطيب والامام فيها الفقيه جمال الدين عبد اللطيف بن الشيخ أبى النجيب الشهرورردى وولاه السلطان مناصب الشريعة بعكا تولى الخطابة والقضاء والحسبة والوقف ومن كتاب فاضلى الى بغداد بعد فتح عكا يصف كسرة حطين (صبيح الخادم طبرية فافتض عذرتها بالسيف وهجم عليها هجوم الطيف وتفرق أهلها بين الاسر والقتل وعاجلهم الامر فلم يقدروا على الخداع والختل وجاء الملك ومن معه من كفاره ولم يشعران ليل الكفر قد آن وقت إسفاره فاصرم الخادم عليهم نارا ذات شرار أذكرت بما أعد الله لهم فى دار القرار فترجل هو ومن معه عن صهوات الجياد وتسنموا هضبة رجاء ان تحميهم من حر السيوف الحداد ونصبوا للملك خيمة حمراء وضعوا على الشرك عمادها وتولت الرجال حفظ اطنابها فكانوا أوتادها فاخذ الملك أسيرا وكان يوما على الكافرين عسيرا وأسر الابرنس لعنه الله فحصد بذره وقتله الخادم بيده ووفى بذلك نذره وأسر جماعة من مقدمى دولته وكبراء ضلالته وكانت القتلى تزيد على أربعين ألفا ولم يبق أحد من الديوية فلله هو من يوم تصاحب فيه الذئب والنسر وتداول فيه القتل والاسر اصدر الخادم هذه الخدمة من ثغر عكا والاسلام قد اتسع مجاله وتصرف انصاره ورجاله والكفر قد ثبتت أوجاله ودنت آجاله) قال العماد ومن جملة البشائر بكسرة حطين (ولما أحيط بالقوم وى ملكهم الى جبل يعصمه من العوم فاسمعه السيف لاعاصم اليوم واستولى الخذلان عليهم بأسرهم وبردت أيدى المؤمنين بحر قتلهم وأسرهم ولم يبق لهم باقيه وغصت بقتلاهم فى الدنيا والآخرة أرض الله الواسعه ونار الله الحاميه فما يظاء من يصل الى مخيمنا الاعلى رمهم الباليه وأسر الملك وأخوه وبارونيته ومقدموه ولم يفلت منهم الا القمص وهو مسلوب ولا بد ان ندركه فهو مطلوب وقد كنا نذرنا ضرب رقبة الابرنس صاحب الكرك الغدار كافر الكفار ونشيدة الثار فلما رأيناه ضربنا عنقه سريعا وسرنا الى عكا وهى بيضة ملكهم وواسطة سلكهم ومركز دائرة كفرهم ومجمع جمع برهم وبحرهم فتسلمناها بالامان والصخرة المقدسة الآن بنا تصرخ وتستغيث وعباد الله الصالحون قد وصلت اليهم بوعد الله الصادق المواريث والبشارة بفتح القدس لا تتأخر والهم بعد هذا الفتح السنى على ذلك تتوفر والحمد لله الذى تتم الصالحات بحمده ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده)

﴿فصل﴾ فى فتح نابلس وجملة من البلاد الساحليه بعد فتح عكا وطبريه وذكر بعض كتب البشائر الشاهدة لذلك قال العماد وأقام السلطان أياما بعد فتح عكا على التل مخيما وعلى سائر بلاد الساحل مصمما وكان قد كتب الى أخيه العادل بمصر بما فتحه الله عليه فوصل بعسكره وفتح فى طريقه حصن مجدل يابا ومدينة يافا عنوة فقصده من عسكرنا القصاد ووفد اليه الوفاد وأمره السلطان بأن يقيم فى ذلك الجانب جامعا للكتائب ليجتمع به الواصلون من مصر الاهلون معه بالنصر قال وتوجه عدة من الامراء والعسكريه الى الناصرة وقيساريه والبلاد المجاورة لعكا وطبريه ومضى كل فريق فى صوب وآبوا بالغنيمة والسبى خير اوب قال فأما الفولة فهى قلعة للداوية حصينه وفيها ذخائرهم وأموالهم فلما خرج الداوية منها وقتلوا لم يبق فيها الا اتباع وغلمان فسلموها وجميع ما يجاورها كدبوريه وجينين وزرعين والطور زاد فى كتاب الفتح واللجون وبيسان والقيمون وجميع ما لعكا وطبرية من الولايات والزيب ومعليا والبعنه واسكندرونه ومنوات قال وتوجه مظفر الدين كوكبرى الى الناصرة فاستباحها وصفرت صفورية من سكانها وتوجه بدر الدين دلدرم وغرس الدين قليج وجماعة من الامراء الى قيسارية فافتتحوها بالسيف وتسلمت بعدها حيفا وارسوف واستولى على تلك الشموس والاقمار الكسوف

والخسوف وحيفا بين عكا وقيسارية على البحر قال وأما نابلس فان أهل ضياعها ومعظم أهلها كانوا مسلمين وفى سلك الرعية مع الفرنج منتظمين وهم يحبون كل عام منهم فرارا ولا يغيرون لهم شرعا ولا شعارا فلما عرفوا كسرهم وانهم لا يرجون جبرهم خافوا من مساكنة المسلمين فتفرقوا وكبسهم أهل الضياع فى الدور والرباع وغنموا ما وجدوه من الذخائر والمتاع وأوقعوا بضعفائهم وضايقوا الحصون على أقوبائهم وطلبها من السلطان ابن أخته حسام الدين عمر بن محمد بن لاجين وهو عزيز عند خاله ملئ بفضله وافضاله فاقطعه السلطان نابلس وأعمالها وضياعها ونواحيها وقلاعها فتوجه اليها بعسكره فأول ما أناخ على سبسطية وفيها مشهد زكريا عليه السلام وقد اتخذه الافسا كنيسة منذ فارقه الاسلام وهو متعبدهم المعظم والمشهد المكرم وقد حجبوه بالاستار وحلوه بالفضة والنضار وعينوا له مواسم الزوار وقومته من الرهابين فيه مقيمه ولا يؤذن فى الزيارة الا لمن معه هدية لها قيمه فدخله وحوى ما فيه وأبقى ما لا يحسن أن يخلو من مثله المسجد وفتح للمسلمين أبوابه وأظهر للمصلين محرابه ثم سار الى نابلس ففتحها بالامان واستمال من سكانها من ضرب عليه الجزية بعد زمان واجراهم على ما لهم من العمارة والبنيان وبقيت بيده الى آخر عهده وعمرت بعدله ورفده قال العماد وأنشدته يوم فتح القدس قصيدة أولها

استوحش القلب مذ غبتم فأنسا ❁ وأظلم اليوم مذ بنتم فاشمسا
ما طبت نفسا ولا استحسنت بعدكم ❁ شيأ نفيسا ولا استعذبت لى نفسا
قلبى وصبرى وغمضى والسباب وما ❁ الفتم من نساطى كله خلسا
وكيف يصبح أو يمسى محبكم ❁ وشوقكم يتولاه صباح مسا
عادت معاهدكم بالجزع دارسة ❁ وان معهدكم فى القلب مادرسا
وكنت أحدس منكم كل داهية ❁ وما دهانا من الهجران ما حدسا
لما هدت نار شوقى ضيف طيفكم ❁ قريته بالكرى اذرار مقتبسا
ورمت تأنيسه حتى وهبت له ❁ انسان عينى أفديه فما أنسا
انا الخيال نحولا فالخيال اذا ❁ ما زار كيف يلقى من به التبسا
لهفى على زمن قضيته طربا ❁ اذ لم أكن من صروف الدهر محترسا
عسى يعود شبابى ناضرا ومتى ❁ أرجو انضارة عود للشباب عسا
وشادن يفرس الآساد ناظره ❁ فديته شادنا للاسد مفترسا
فى العطف لين وفى اخلاقه شوس ❁ يا لين عطفيه جنب خلقه الشوسا

ومنها فى المديح

ان بان لبس مضينا لاجئين الى الـــــفتى الحسام بن لاجين نابلسا
يميت اعـــــداه بأسا نائله ❁ يحيى رجاء الذى مى نجعه أيسا
ممزق المازق المنسوج عشيره ❁ وقد محا اليوم ليل النقع فانطمسا
لازلت مستويا فوق الحصان وفى ❁ حصن الحفاظ ومن عاداك منتكسا

وسيأتى منها أيضا أبيات عند فتح القدس فى مدح السلطان صلاح الدين رحمه الله ومن كتاب عن السلطان الى سيف الاسلام أخيه (كتبنا أخذنا العادل أن يدخل بالعساكر المصرية من ذلك الجانب فلما بشر بكسر الفرنج وفتح عكا وطبرية كان قد وصل الى السواد فجاز العريش وزار الدارم وأجفلت قدامه البلاد ووصل الى يافا ففتحها عنوة ثم حصر مجدل يابا فطلبت منه الامان وقد اشتمل الفتح على البلاد المعينة بعد وهى

طبريه عكا الزيب معليا اسكندرونه تبنين هونين الناصره الطور صفوريه الفوله جينين ارعين دبوريه عفربلا بيسان سبسطيه نابلس اللجون اريحا سنجل البيره يافا ارسوف قيساريه حيفا صرفند صيدا بيروت قلعة أبى الحسن جبيل مجدل يابا جبل الجليل مجدل حباب زلداروم غزه عسقلان تل الصافيه التل الاحمر الاطرون بيت جبريل جبل الخليل بيت لحم

لذ

لذ الرمله قرتيا القدس صوبا هرمز سلع عفرا الشقيف قال ولم يذكر ما تخللها من القرى والضياع والابراج الحصينة الجارية مجرى الحصون والقلاع ولكل واحدة من هذه البلاد التي ذكرناها اعمال وقرى ومزارع واماكن ومواضع قد جاسوا خلالها واستوعبوا ثمارها وغلالها قال العماد ومما انشأته من شرح الفتوح وكتبت به الى الديوان وبدأت بقوله تعالى (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادى الصالحون الحمد لله على ما انجز من هذا الوعد وعلى نصرته لهذا الدين الحنيف من قبل ومن بعد وجعل بعد عسر يسرا وقد أحدث الله بعد ذلك أمرا وهون الامر الذى ما كان الاسلام يستطيع عليه صبرا وخوطب الدين بقوله ولقد منا عليك مرة أخرى فالاولى فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم واصحابه والاخرى هذه التى عتق فيها من رق الكآبه فهو قد أصبح حرا ريان الكبد احرا والزمان كهيئته استدار والحق ببهجته قد استنار والكفر قد رد ما كان عنده من المتاع المستعار فالحمد لله الذى أعاد الاسلام جديدا نوبه بعد ان كان جديدا حبله مبيضا نصره مخضرا نصله متسعا فضله مجتمعا شمله والخادم يشرح من نباء هذا الفتح العظم والنصر الكريم ما يشرح صدور المؤمنين ويبهج الحبور لكافة المسلمين ويوردالبشرى بما أنعم الله به من يوم الخميس الثالث والعشرين من شهر ربيع الآخر الى يوم الخميس منسلخه وتلك سبع ليال وثمانية أيام حسوما سخرها الله على الكفار فترى القوم فيها صرعى كانهم أعجاز نخل خاويه وادار أيت ثم رأيت البلاد على عروشها خاليه ورأيتها الى الاسلام ضاحكة كما كانت من الكفر باكيه فيوم الخميس الاول فتحت طبريه ويوم الجمعه والسبت نزل الفرنج فكسروا الكسرة التى ما لهم بعدها قائمه وأخذ الله أعداءه بأيدى أوليائه أخذ القرى وهى ظالمه وفى يوم الخميس منسلخ الشهر فتحت عكا بالامان ورفعت بها أعلام الايمان وهى أم البلاد وأخت ارم ذات العماد وقد اصدر هذه المطالعة وصليب الصلبوت مأسور وقلب ملك الكفر الاسير بجيشه المكسور ومكسور والحديد الكافر الذى كان فى يد الكفر يضرب وجه الاسلام قد صار حديدا مسلما يعوق خطوات الكفر عن الاقدام وأنصار الصليب وكباره وكل من المعمودية عمدته والدير داره قد أحاطت به يد القبضه وغلق رهنه فلا تقبل فيه القناطير المقنطرة من الذهب والفضه وطبريه قد رفعت أعلام الاسلام عاليها ونكصت من عكا ملة الكفر على عقبيها وعمرت الى أن شهدت يوم الاسلام وهو خير يوميها وقد صارت البيع مساجد يعمرها من آمن بالله واليوم الآخر وصارت المذابح مواقف لخطباء المنابر واهتزت أرضها لموقف المسلم فيها وطالما ارتجت لموقف الكافر فأما القتلى والاسرى فانها تزيد على ثلاثين ألفا وأما فرسان الداوية والاسبتارية فقد أمضى حكم الله فيهم وقطع بهم وق نار الجحيم ورحل الراحل منهم الى الشقاء المقيم وقتل الابرنس كافر الكفار ونشيدة النار من يده فى الاسلام كما كانت يد الكليم والبلاد والمعاقل التى فتحت هى طبريه عكا الناصره صفوريه قيساريه نابلس حيفا معليا انفوله الطور السقيف وقلاع بين هذه كبيرة والملك المظفر تقى الدين ظفر الله مضايق لسور وحصن تبنين والاخ العادل سيف الدين نصره الله قد كوتب بالوصول عن عنده من العساكر ليزل فى طريقه على عزة وعسقلان ويجهز مراكب الاسطول المنصورة الى عكا وما يتأخر النهوض الحاله القدس فهذا هو أوان فتحه ولقد دام عليه ليل الضلال وقد آن ان يسفر فيه الهدى عن صبحه)

﴿فصل﴾ فى فتح تبنين وصيدا وبيروت وجبيل وغيرها ومحى المركيس الى صور قال العماد أرسل السلطان الى تبنين لابن أخيه تقى الدين فضايقها وكتب الى السلطان أن يأتيه بنفسه فوصل اليها فى ثلاث مراحل ونزل عليها يوم الاحد الحادى عشر من جمادى الاولى فراسلوا السلطان وسألوا الامان واستمهلوا خمسة أيام ليستزلوا بأموالهم فامهلوا وبذلوا رهائن من مقدميهم ووفوا بما بذلوا وتقربوا باطلاق الاسارى المسلمين فخرج الاسارى مسرورين فسر بهم السلطان وسربهم وأقرهم وقربهم وكساهم وحباهم وآتاهم بعد ردهم الى مغانيهم غناهم وهذا دأبه فى كل بلد يفتحه وملك يربحه انه يبدأ بالاسارى فيفك قيودها ويعيد بعد عدمها وجودها فخلص تلك السنة من الاسر أكثر من عشرين ألف أسير ووقع فى أسره من الكفار مائة ألف والما خلوا القلعه وأخلوا البقعه سيرهم ومعهم من العسكر المنصور من أوصلهم الى صور وتسلمها يوم الاحد الثامن عشر من جمادى الاولى وكان شرط عليهم تسليم العدد والدواب والخزائن وقال القاضى ابن شداد فتحها السلطان عنوة وكان بها رجال أبطال

شديدون فى دينهم فاحتاجوا الى معاناة شديدة ونصر الله عليهم وأسر من بقى بها بعد القتل ثم رحل منها الى مدينة صيدا فنزل عليها ومن الغد تسلمها وهو يوم الاربعاء الحادى العشرون قال العماد سنحت له صيدا فتصدى لصيدها وكانت همته فى قيدها وبادرها اشد ما قام من مكر العداة وكيدها ووصلنا فى يومين الى صيدا الى منهل نتحها صادين وعن حمى الحق دونها لاهل الباطل صادين ولما نزلنا من الوعر الى السهل سهل ما توعر وصفا من الامر ما ظن انه تكدر فصرفنا الاعنة الى صرفند وهى مدينة لطيفة على الساحل مورود المناهل ذات بساتين وأشجار ورياحين وازهار فأخذناها وخيمنا على صيدا وقد جاءت رسل صاحبها بمفاتيحها وطلعت الراية الصفراء على سورها وأقيمت بها الجمعة والجماعة واستديمت بها بعد العصيان لله الطاعة ثم سار فى يومه على سمت بيروت فنزل عليها يوم الخميس وضايقها وحاصرها ثمانية أيام ثم طلبوا الامان فأمنهم وتسلمها يوم الخميس التاسع والعشرين من جمادى الاولى ومرض العماد فاملى كتاب صلح بيروت ورجع الى دمشق للمداواة ثم وجد الشفاء وعاد الى السلطان يوم فتح القدس كما سيأتى قال وسلمت بيروت بحضورى فكان من سبب ابلالى سرورى بفتحها وحبورى وخروجها ومن قلعتها الفرنج وامتلأ بهم الى صور النهج وعاد الاسلام الغريب فيها الى وطنه وتوطن الدين بها فى مأمنه وسكن فى مسكنه وأما جبيل فان صاحبها أوك كان فى جملة من نقل الى دمشق مع الملك الاسير فضاق ذرعا بسجنه الذى تجمل له فيه عذاب السعير فتحدث مع الصفى بن القابض فى أمره وباح اليه بسره وقال ما لكم فى أسرى فائده ولا غنيمة على فتح جبيل زائده وأنا أسلمها بشرط سلامتى فخذوها ولا تفقدونى فقد دامت قيامتى فانهى الصفى حاله واستصوب ما قاله فأمر باحضاره فى قيده والاحتراز من كيده فوصل به ونحن على بيروت فسلم جبيل وسلم وريح نجاته وغنم ومضى اليها من تولاها وانسل منها صاحبها وسلاها وتبعها فتح بيروت وتلاها فانتظمت هذه البلاد المتناسقة بالساحل فى سلك من الفتوح متسق وأمر من الاستقامة متفق وكان معظم أهل صيدا وبيروت وجبيل مسلمين مساكين لمساكنة الفرنج مستسلمين فذاقوا العزة بعد الدله وفاقوا الكثرة بعد القله وصدقت البشائر وصدحت المنابر وظهر عيب البيع وشهر جمع الجمع وقرئ القرآن واستشاط الشيطان وخرست النواقيس وبطلت النواميس ورفع المسلمون رؤسهم وعرفوا نفوسهم وكان كل من استأمن من الكفار يمضى الى سور مجى الدمار فصارت صور عش غشهم ووكر مكرهم وملجأ طريدهم ومنجأ شريدهم وهى التى فر القمص اليها يوم كسرتهم بل يوم حسرتهم ولما عرف القمص قرب السلطان منها اخلاها وخلاها وآوى الى طرابلس وثواها فما متع بما ملك وكان كما قيل (راح يبغى نجوة من هلاك فهلك) وتعوضت صور عن القمص بالمركيس كما يتعوض عن الشيطان بابليس فأدرك ذمار الكفر بعد ما أشفى وأيقظ روع الروع بعد ما أغفى وضبط صور بمن فيها من مهزومى الفرنج ومنفيها وكان المركيس من أكبرطواغيت الكفر واغول شياطينه واضرى سراحينه وأخبث ذئابه وانجس كلابه وهو الطاغية الداهيه الذى خلفت له ولامثاله الهاويه ولم يكن وصل الى الساحل قبل هذا العام واتفق وصوله الى ميناء عكا وهو بفتحها جاهل وعمن فيها من المسلمين ذاهل فعزم على ارساء الشينى بالمينا ثم تعجب وقال ما نرى أحدا من أهليها ليلتقينا ورأى زى الناس غير الزى الذى يعرفه فارتاب وارتاع وحدث عن الدخول توقفه وبان تندمه وتأخر تقدمه وسأل عن الحال فأخبر بها فتفكر فى النجاة والهواء راكد والقضاء عنه راقد فانه لو خرج اليه مركب لاخذه ولو وقف له فاصد لوقذه فاحتال كيف يخرج بسفينته ولا يدخل مع فقد سكينته فسأل عن متولى البلد وقال خذوا لى منه أمانا حتى أدخل وأرفع ما معى من المتاع وانقل ما عندى من الثقل فجئ اليه من الافضل بالامان فقال ما أثق الا بخط يده ولا أنزل الا بعهده الى بلده وهو ينتظر هبوب الريح الموافقة فما زال يردد الرسل ويدبر الحيل حتى وافته الريح فأقلع وأفلت من الشرك بعد ما وقع وصار فى صور فزم الامور وجراء الكفر بعد خوره وبصر الشيطان بعد عماه وعوره وأرسل رسله الى الجزائر وذوى الجرائر يستعدى ويستدعى ويستودع ملة الصليب عباده ويسترعى ويستثير ويستزير ويستنفر ويستنصر وثبت فى صور ونبت وجمع اليه من الفرنج من تشتت وما فتح بلد بالامان الا سار أهله فى حفظ السلطان حتى يصيروا

بصور ويأمنوا المحذور فاجتمع اليها أهل البلاد المفتوحه بالقلوب المقفله المغلوبة المقروحه فامتلات وكانت خاليه وانتاشت وكانت باليه وتعللت وكانت معتله وتعقدت وكرثت منحله وليحتفل بها فأخر فتحها فاستحدث رمقا بالمهله وتصعبت بعد مقابلتها السهله والهى عن طلبها طلب ماهو أشرف وهو البيت المقدس فان فتحه من كل فتح أنفس والمركيس فى أثناء ذلك يحفر الخندق ويحكمه ويعقد الموثق ويبرمه ويجمع المتفرق وينظامه

(فصل) فى فتح عسقلان وغزة والداروم وغيرها قال العماد لما فرغ السلطان من فتح بيروت وجبيل ثنى عنانه عائدا على صيدا وصرفنده وجاء الى صور وناظرا اليها وعابرا عليها غير مكترث بأمرها ولا متحدث فى حصرها ودلته الفراسة على ان محاولتها تصعب ومزاولتها تتعب وليس بالساحل بلد منها أحصن فعطف الاعنة الى ماهو منها أهون وكان قد استحضر ملك الفرنج ومقدم الداوية فى قيودهما وشرط معهما واستوثق منهما انه يطلقهما من الاسر والبليه متى تمكن باعانتهما من البلاد البقيه وعبر والعيون صورا الى صور وماشك المركيس انه بها محصور محسور فلما أرخى من وثاقه واتسع ضيق خناقه حلق فى مطاراوطاره وحرك لغوائه أوتارا وباره واجتمع السلطان بأخيه العادل واتفقا على طى المراحل ونشر القساطل فنزل على عسقلان يوم الاحد سادس عشر جمادى الآخرة وشديدها قدلان فتجلد من بها على الحصار وتربصوا وتصبروا فنصب السلطان عليها المجانيق ورماهم بها وجسر النقاب فحسر النعاب وباشر الباشورة فرفع الحجاب واشتد القتال واحتد المصال وراسلهم عند ذلك الملك المأسور وقال قد بان عذركم حين نقب السور وجرت حالات وتكررت حوالات وتردد ت رسالات وقال لهم الملك الاسير لاتخالفوا مابه اشير واحفظوا رأسى فهو رأس مالكم ولاتخطروا غيرى بالكم فانى اذا تخلصت خلصت واذا استنقذت استنقذت وخرج المقدمون وشاوروا الملك ونهجوا فى التسليم نهجه الذى سلك وسلموا عسقلان على خروجهم بأموالهم سالمين واستوفوا بذلك الميثاق واليمين وذلك يوم السبت لانسلاخ جمادى الآخرة وخرجوا بنسائهم وأموالهم وممن استشهد على عسقلان من الامراء الاكابر حسام الدين ابراهيم بن حسين الهمرانى وهو أول أمير افتتح بالشهاده واختتم بالعاده وكان السلطان قد أخذ فى طريقه اليها الرملة وتبنين وبيت لحم والخليل وأقام بها حتى تسلم حصون الداوية غزة والنطرون وبيت جبريل وكان قد استصحب معه مقدم الداوية وشرط معه انه متى سلم معاقلهم أطلقه فسلم هذه المواضع الوثيقه كما أخذ مرائيفه كذا قال العماد فى كتاب الفتح وقال فى كتاب البرق وما برح السلطان مقيما بظاهر عسقلان حتى تسلم المعاقل المجاورة لها والبلاد المتخللة بينها فذكر الداروم وغزة والرملة وتبنين وبيت لحم ومشهد الخليل عليه السلام ولد وبيت جبريل والنطرون قال ابن شداد لما فرغ بال السلطان من هذا الجانب يعنى ناحية بيروت رأى قصد عسقلان ولم ير الاشتغال بصور بعد ان نزل عليها ومارسها لان العسكر كان قد تفرق فى الساحل وذهب كل انسان يأخذ لنفسه شيأ وكانوا قد ضرسوا من القتال ومن ملازمة الحرب والنزال وكان قد اجتمع فى صور يسر الله فتحها كل فرنجى بقى فى الساحل فرأى قصد عسقلان لان أمرها كان أيسر وتسلم فى طريقه مواضع كثيرة كالرملة وتبنين والداروم فأقام عليها المجانيقات وقاتلها قتالا شديدا وتسلمها سلخ جمادى الآخره وأقام عليها الى أن تسلم أصحابه غزة وبيت جبريل والنطرون بغير قتال قال وكان بين فتح عسقلان وأخذ الفرنج لها من المسلمين خمس وثلاثون سنة فان العدو ملكها فى السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة وذكر ابن القادسى نسخة كتاب كتبه السلطان الى بعض أهله وفيه (انتقلنا الى الجانب الذى فيه القدس وعسقلان ففتحنا قلاعه كلها وحصونه جميعها ومعاقله بجملتها ومدنه بأسرها وهى حيفا وقيسارية وارسوف ويافا والرملة ولد وتل الصافيه وبيت جبريل والدير والخليل ونازلنا عسقلان وهى المعقل المنيع والحصن الحصين والتل الرفيع وفيهم من القوة والعدة والعدد ماتتقاصر الآمال عن نيل مثله فافتتحناها سلما لتمام اربعة عشر يوما من يوم نزولنا عليها ونصبت أعلام التوحيد على ابراجها واسوارها وعمرت بالمسلمين وخلت من مشركيها وكفارها وكبر المؤذنون فى اقطارها ولم يبق فى الساحل من جبيل الى أوائل حدود مصر سوى القدس وصور والعزم مصمم على قصد القدس فالله يسهله ويعجله فاذا يسر الله تعالى فتح القدس ملنا الى صور والسلام) وفى كتاب آخر تقدم ذكر بعضه قال (وقد تفرق العسكر وتوجه قوم الى القدس وابن زين الدين وتقى الدين نازلان على صور وفتحت هونين بالسيف وتبنين

بالسيف واسكندرونه بالسيف) وفى كتاب آخر (ونزلوا على صور وكاتبهم ملك بيت المقدس يطلب الامان فقال له صلاح الدين أنا أجيء اليكم فقال له المنجمون على نجمك ان تدخل بيت المقدس وتذهب عين واحدة منك فقال قد رضيت بأن أعمى وأخذ البلد) قال (ولم يمنعه من ذلك الا فتح صور وما هى شئ يقف عليه وقد خطب لامير المؤمنين الناصر لدين الله على ثلاثين منبرا من بلاد الفرنج) فال العماد وفوض السلطان القضاء والحكم والخطابة وجميع الامور الدينية بمدينة عسقلان. وأعمالها الى جمال الدين ابى محمد عبد الله بن عمر الدمشقى المعروف بفاضى اليمن قال ووصل الى السلطان من مصر ولده الملك العزيز عثمان واجتمع به على عسقلان فقرت عينه بولده واعتضد بعضده ووضع يده بتأييد الله فى يده وكان قد استدعى بالاساطيل المنصورة فوافت كالقنخ الكواسر بالفلك المواخر وجاءت كأنها أمواج تلاطم أمواجا وأفواج تزاحم أفواجا تدب على البحر عقاربها وتخب كقطع الليل سحائبها لؤلؤ مقدمها ومقدامها وضرغام غابها وهمامها فطفق يكسر ويكسب ويسل ويسلب ويقطع الطريق على سفن العدو ومراكبه ويقف له فى جزائر البحر على مذاهبه وسيأتى ذكر ذلك ان شاء الله تعالى

﴿ فتح البيت المقدس شرفه الله تعالى ﴾

قال القاضى ابن شداد لما تسلم السلطان عسقلان والاماكن المحيطة بالقدس شمر عن ساق الجد والاجتهاد فى قصده واجتمعت اليه العساكر التى كانت متفرقة فى الساحل بعد قضاء لبانتها من النهب والغارة فسار نحوه معتمدا على الله مفوضا أمره الى الله منتهزا فرصة فتح باب الخير الذى حث على انتهازه اذا فتح بقوله عليه السلام (من فتح له باب خير فليتهزه فانه لا يعلم متى يغلق دونه) وكان نزوله عليه قدس الله روحه يوم الاحد الخامس عشر من رجب فنزل بالجانب الغربى وكان مشحونا بالمقاتلة والرجالة ولقد تحاز رأهل الخبرة عدة من كان فيه من المقاتلة بما يزيد على ستين ألفا ما عدا النساء والصبيان ثم انتقل رحمه الله تعالى لمصلحة رآها الى الجانب الشمالى وكان انتقاله يوم الجمعة العشرين من رجب ونصب عليه المنجنيقات وضايقه بالزحف والقتال وكثرة الرماة حتى أخذ النقب فى السور مما يلى وادى جهنم فى فرنة شماليه ولما رأى أعداء الله ما نزل بهم من الامر الذى لا يندفع وظهرت لهم أمارات نصرة الحق على الباطل وكان قد ألقى الله فى قلوبهم مما جرى على أبطالهم ورجالهم من السبى والقتل والاسر وما جرى على حصونهم من الاستيلاء والاخذ علموا انهم الى ما صار واليه صائرون وبالسيف الذى قتل به اخوانهم يقتلون فاستكانوا وأخلدوا الى طلب الامان واستقرت القاعدة بالمراسلة بين الطائفتين وكان تسلمه له يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب وليلته كانت ليلة المعراج المنصوص عليها فى القرآن المجيد فانظر الى هذا الاتفاق العجيب كيف يسر الله عوده الى أيدى المسلمين فى مثل زمان الاسراء بنبيهم صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم وهذه علامة قبول هذه الطاعة من الله تعالى قلت هذا أحد الاقوال فى ليلة المعراج وفى ذلك اختلاف كثير ذكرناه فى مواضع غير هذا والله أعلم ثم قال القاضى وكان فتحا عظيما شهده من أهل العلم خلق عظيم ومن ارباب الخرق والحرف وذلك ان الناس لما بلغهم مامن الله به على يده من فتوح الساحل شاع قصده للقدس فقصده العلماء من مصر والشام بحيث لم يتخلف معروف عن الحضور وارتفعت الاصوات بالصهيل والدعاء والتهليل والتكبير وخطب فيه وصليت فيه الجمعة يوم فتحه وحط الصليب الذى كان على قبة الصخرة وكان شيئا عظيما ونصر الله الاسلام نصرا عزيز مقدر وكانت قاعدة الصلح انهم قطعوا على أنفسهم عن كل رجل عشرة دنانير وعن كل امرأة خمس دنانير وعن كل صغير ذكر أو انثى دينارا واحدا قلت كذا قال وسيأتى فى كلام العماد ان على كل صغير دينارين وكذا قال ان الجمعة صليت ببيت المقدس يوم فتحه وسيأتى فى كلام العماد التصريح بأن يوم الفتح ضاق عن ذلك فصليت فى يوم الجمعة الآتى ثم قال العاضى فمن أحضر الفطيعة سلم بنفسه والا أخذ أسيرا وفرج الله عمن كان فيه من أسرى المسلمين وكانوا خلقا عظيما زهاء ثلاثة آلاف نفس وأقام عليه رحمه الله يجمع الاموال ويفرقها على الامراء والعلماء ويوصل من دفع قطيعته منهم الى مأمنه وهو صور قال ولقد بلغنى انه رحمه الله رحل عنه ولم يبق معه من ذلك المال شئ وكان مائتى ألف دينار وعشرين ألفا وكان رحيله عنه يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان سنة ثلاث وثمانين كما سيأتى

(فصل) هذا الذى ذكره القاضى فى أمر فتح بيت المقدس مختصرا مجموعا وقد بسطه العماد فقال رحل السلطان من عسقلان للقدس طالبا وبالعزم غالبا وللنصر مصاحبا ولذيل العز ساحبا والاسلام يخطب من القدس عروسا ويبذل لها فى المهر نفوسا ويحمل اليها نعى ليحمل عنها بوسى ويهدى بشرى ليذهب عبوسا ويسمع صرخة الصخرة المستدعية المستعدية لاعدائها على أعدائها واجابة دعائها وتلبية ندائها واطلاع زهر المصابيح فى سمائها واعادة الايمان الغريب منها الى وطنه وردّ الى سكونه وسكنه واقصاء أعداء الدين أقصاهم الله تعالى بلعنته من الاقصى وجذب قياد فتحه الذى استعصى واسكات الناقوس منه بانطاق الاذان وكف كما الكفر عنه بايمان الايمان وتطهيره من أنجاس تلك الاجناس وأدناس أدنى الناس وطار الخبر الى القدس فطارت قلوب من به رغبا واطاشت وخفقت أفئدتهم خوفا من جيش الاسلام وجاشت وتمنت الفرنج لما شاعت الاخبار انها ما عاشت وكان به من مقدّمى الفرنج باليان بن بارزان وهو وملكهم فى التسلط شيئان بارزان والبطرك الاعظم وهو النيشانى العظيم الشان والذين أعطتهم حياطة حطين به من الفرسان الداويه والاسبتارية والبارونيه من ذوى الكفر والشنآن وقد حشروا وحشدوا ونشروا ونشدوا وحميت حميتهم واتت الضيم آتيتهم وحارت غيرتهم وغارت حيرتهم وتبلدوا وتلددوا وقاموا وقعدوا وصوّبوا وصعدوا فاشتغل بال باليان واشتعل بالنيران وخمدت نار بطرك البطرك وضاقت باقوم منازلهم فكانت كل دار منها شركا للشرك وقاموا للتدبير فى مقام الادبار وتقسمت افكار الكفار وايس الفرنج من الفرج وأجمعوا على بذل المهج وقالوا هاهنا نطرح الرؤس ونسلو النفوس ونسفك الدما ونهلك الدهما ونصبر على اقتراح القروح واجتراح الجروح ونسمح بالارواح نحامى محل الروح فهذه الاماكن فيها قامتنا ومنها تقوم قيامتنا ونصبح هامتنا وتصبح ندامتنا وتسمح علامتنا وبها غرامنا وعليها غرامتنا وباكرامها كرامتنا وبسلامتها سلامتنا وباستقامتها استقامتنا وفى امتدادها استدامتنا واذا تخاذلنا عنها لزمت لامتنا ووجبت ملامتنا ففيها المصلب والمطلب والمذبح والمقرب والمجمع والمعبد والمهبط والمصعد والمرقى والمرقب والمشرب والملعب والمحق والمذهب والمطلع والمقطع والمرب والمربع والمرخم والمحترم والمحلل والمحرم والصور والاشكال والانظار والامثال والاشباه والاشباح والاعمده والالواح والاجسام والارواح وفيها صور الحواريين فى حوارهم والاحبار فى أخبارهم والراهبين فى صوامعهم والاقساء فى جوامعهم والسحرة وحبالها ومثال السيدة والسيد والهيكل والمولد والمائدة والحوت والماعون والمخوت والملبوذ والمعلم والمهد والصبى المتكلم وصورة الكبش والحمار والجنة والنار والنواقيس والنواميس قالوا وفيها صلب المسيح وقرب الذبيح وتحسد اللاهوت وتأله الناسوت واستقام التركيب وقام الصليب ونزل النور ونزل الديجور واردوجت الطبيعة بالاقنوم وامتزج الموجود بالمعدوم وعمدت معمودية المعبود ومخضت البتول بالمولود واضافوا الى متعبدهم من هذه الضلالات ما صلوا فيه بالشبه عن نهج الدلالات وقالوا دون مقبرة رسنا موت وعلى خوف فوتها منا نفوت وعنها ندافع وعليها نقارع وما لنا لا نقاتل وكيف لا ننازع ولا نناضل ولاى معنى نتركهم حتى يأخذوا وندعهم حتى يستحلسوا ما استحلصناه منهم ويستنقذوا وتأهبوا وتباهوا وما انتهوا بل تناهوا ونصبوا المجانيق على الاسوار وستروا بظلمات الستائر وجوه الانوار واستشاطت شياطينهم وسرحت سراحينهم وطغت طواغيتهم وأعملت مصاليتهم وهاجت هائجهم وماج مائجهم وحضتهم قسوسهم وحرضتهم رؤسهم وحركتهم نفوسهم وجاءتهم نجوى السوء جواسيسهم ونصبوا على كل نيق منجنيقا وحفروا فى الخندق حفرا عميقا وشادوا فى كل جانب ركنا وثيقا وفرقوا على كل برج فريقا وجعلوا الى كل طارق بالردى للردّ طريقا وأعادوا كل نهج واسع بما وعروه وعوروه به مضيقا وتحمل كل منهم ما لم يكن له من قبل مطيقا وخرج جماعة منهم على سبيل الزلك فأدلجوا ليلا واعترضوا عدة من أصحابنا غاره على طريق السلامة ماره وكان قد شدّ من المقدمة المنصورة أمير تقدم وما تحرز ولا تحرم وما ظن ان قدامه من له جراءة الاقدام ومن يعتقد ان ربح كفره خسارة الاسلام وهو الامير جمال الدين شروين بن حسن الزرزارى فوقعوا عليه فى موضع يعرف بالقبيبات فاستشهد رحمه الله ولما بلغ السلطان خبره ساءه وغمه ثم أقبل باقبال سلطانه وأبطال شجعانه واقيال أولاده واخوانه واشبال مماليكه وغلمانه وكرام أمرائه وعظام أوليائه وأصبح يسأل عن الاقصى وطريقه الادنى وفريقه الاسنى ويذكر

مايفتح الله عليه بحسن فتحه من الحسنى وقال ان أسعدنا الله على اخراج أعدائه من بيته المقدس فما أسعدنا وأى يد له عندنا اذا أيدنا وانه مكث فى أيدى الكفر احدى وتسعين سنة لم يتقبل الله فيه من عابد حسنه ودامت هم الملوك دونه متوسنه وخلت القرون عنه متخليه وخلت الفرنج به متوليه فما ادخر الله فضيلة فقده الا لآل أيوب ليجمع الله لهم بالقبول القلوب وكيف لا يهتم بفتح البيت المقدس الاقوى والمسجد الاقصى المؤسس على التقوى وهو مقام الانبياء وموقف الاولياء ومعبد الاتقياء ومزار أبدال الارض وملائكة السماء ومنه المحشر والمنشر وبه توافد اليه من أولياء الله المعشر بعد المعشر وفيه الصخرة التى صينت جدة ابهاجها من الانهاج ومنها منهاج المعراج لها القبة الشماء التى هى على رأسها كالتاج وفيه ومض البارق ومضى البراق واضاءت ليلة الاسراء بحلول السراج المنير فيه الآفاق ومن أبوابه باب الرحمه الذى يستوجب داخله الى الجنه بالدخول الى الخلود وفيه كرسى سليمان ومحراب داود وفيه عين سلوان التى تمثل لواردها من الكوثر الحوض المورود وهو أول القبلتين وثانى البيتين وثالث الحرمين وهو أحد المساجد الثلاثه التى جاء فى الخبر النبوى أنها تشد اليها الرحال وتعقد الرجاء بها الرجال ولعل الله يعيده بنا الى أحسن صوره كما شرفه بذكره مع أشرف خلقه فى أول سوره فقال عز من قائل (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى) وله فضائل ومناقب لا تحصى ومنه كان الاسراء ولارضه فتحت السماء وعنه تؤثر أنباء الانبياء وآلاء الاولياء ومشاهد الشهداء وكرامات الكرماء وعلامات العلماء وفيه مبارك المبار ومسارح المسار وصخرته الطولى والفضيلة الاولى ومنها تعالت القدم النبويه وتوالت البركة العلويه وعنده صلى نبينا بالنبيين وصعد الروح الامين وصعد منها الى اعلى عليين وفيه محراب مريم عليها السلام الذى قال الله فيه كلما دخل عليها زكريا المحراب ولنهاره النعيد وليله المحيا وهو الذى أسسه داود وأوصى ببنائه سليمان ولاجل اجلاله انزل الله سبحانه سبحان وهو الذى افتتحه الفاروق وافتتحت به سورة من الفرقان فما أجله وأعظمه وأشرفه وأفخمه واعلاه وأحلاه واسناه وأكرمه وأيمن بركاته وأبرك ميامنه وأحسن حالاته واحلى محاسنه وأرين مباهجه وأبهج مزاينه وقد أظهر الله طوله وطوله بقوله الذى باركنا حوله وكم فيه من الآيات التى أراها الله نبيه وجعل مسموعاتنا من فضائله مرويه ووصف السلطان من خصائصه ومزاياه ماوثق على استعداد الآيه مواثيقه وآلاه وأقسم لا يبرح حتى يبر قسمه ويرفع باعلاه علمه وتخطر الى زيارة موضع القدم النبوية قدمه وتصغى الى صرخة الصخره اذنه وما رأى أثقا بكمال النصره

﴿فصل﴾ فى نزول السلطان على البيت المقدس وحصره وما كان من أمره قال العماد نزل السلطان على غربى القدس يوم الاحد خامس عشر رجب وكان فى القدس حينئذ من الفرنج ستون ألف مقاتل من فارس وراجل وسائف ونابل فاستهدفوا للسهام واستوقفوا للحمام وقالوا كل واحد منا بعشرين وكل عشرة بمئتين ودون العمامه تقوم القيامه وبحب سلامتها قل السلامه وأقام السلطان خمسة أيام يدور حول البلد ويقسم على حصاره أهل الجلد وأبصر فى شماليه أرصار ضيها للحصار متسعة المجال للاسماع والابصار ممكنة للدنو منه للنقب ان صار من حيز الانصار فانتقل الى المنزل الشمالى يوم الجمعة العشرين من شهر رجب فما أصبح يوم السبت الاعلى منجنيقات قد نصبت بلا نصب قدام القتال والنزال وفرسانهم فى كل يوم يباشرون دون الباشوره امام جموعهم المحصوره المحسورة المحشوره ويبرزون ويبارزون ويطاعنون ويحاجزون والمطيعون لله عليهم يحملون ومن دمائهم ينهلون وينهلون كما قال الله تعالى فيهم (يجاهدون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون) وممن استشهد مبارزا ولم يشهد بينه وبين الجنة حاجزا الامير عز الدين عيسى بن ملك كان أبوه صاحب قلعة جعبر فانه حاز لشهادته فى المحشر المخز وأكثر رود الموت الى ان ورد الكوثر وكان فى كل يوم يفرس فوارس ويلقى بشر وجهه وجوه المنون العوابس فاغتم المسلمون من صرعته وهان عليهم اتلاف المهج بعد تلاف مهجته فركبوا اكتاف الرهج حتى وصلوا الى الخندق فخرقوه وبددوا جمعهم وفرقوه والتصقوا بالسور فنقبوه وعلقوه وحشوه واحرقوه وصدقوا وعد الله فى القتال لاعدائه وصدقوه ولما غصتهم الحرب ووتع السور واتسع النقب فصعب عليهم الهين وهان لنا الصعب عقدوا ما بينهم مشوره وقعدوا ما بينهم ضروره وقالوا ما لنا الا الاستئمان فقد أخذنا بخطة الخذلان والحرمان واخرجوا كبراءهم ليؤخذوا لهم

الامان فأبى السلطان الاقتالهم وتدميرهم واستئصالهم وقال لأخذ القدس الاكما أخذوه من المسلمين منذ احدى وتسعين سنه فانهم استباحوا القتل ولم يتركوا طرفا يستزير سنه فانا افنى رجالهم قتلا واحوى نساءهم سبيا فبرزابن بارزان ليأمن من السلطان بوثقه وطلب الامان لقومه وتمنع السلطان وتسامى فى سومه وقال لا أمن لكم ولا أمان وماهوانا الان نديم لكم الهوان ونأخذ مملككم قسرا ونوسعكم قتلا وأسرا ونسفك من الرجال الدما ونساط على الذرية والنساء السبا وأبى فى تأمينهم الا الابا فتعرّضوا للتضرع وخوّفوه عاقبة التسرع وقالوا اذا أيسنا من أمانكم وخفنا من سلطانكم وخبنا من احسانكم وأيقنا انه لانجاة ولانجاح ولاصلح ولاصلاح ولاسلم ولاسلامه ولا نعمة ولا كرامه فانا نستقل فنقاتل قتال الدم والندم ونقابل الوجود بالعدم ونلقى أنفسنا على النار ولانلقى بأيدينا الى التهلكة والعار ولايجرح منا واحد حتى يجرح عشره وانا نحرق الدور ونخرب القبه ونترك عليكم فى سبينا السبه ونقلع الصخره ونوحدكم عليها الحسره وقبة الصخرة نرميها وعين سلوان نعميها والمصانع نخسفها والمطالع نكسفها وعندنا من المسلمين خمسة آلاف أسير مابين غنى وفقير وكبير وصغير فنبدأ بقتلهم وشت شملهم وأما لاموال فانا نعطيها ولانعطيها وأما الدرارى فانا نسارع الى اعدامها ولانستبطيها فلايحصل لكم سبى ولايقبل لكم سعى ولايسلم عمر ولاعماره ولانضار ولانضاره ولانساء ولاصبيان ولاجماد ولاحيوان فأى فائدة لكم فى هذا السُح وكل خسر لكم فى هذا الربح ورب خيبة جاءت من رجاء النجح ولايصلح السوء سوى الصلح فشاور السلطان أصحابه فقيل له الصواب ان نحسبهم اسارى فتتبعهم نفوسهم ونعم لصغار الجزية رؤسهم ويدخل فى القطيعة مرؤسهم ورئيسهم واستقرّ الحال بعد مراودات ومعاودات ومعاوضات وتفويضات وضراعات من القوم وشفاعات على قطيعة تكمل بها الغبطه ويحصل منها الحوطه اشترابها منا أنفسهم وأموالهم وخلصوا بها رجالهم ونساءهم وأطعمالهم على انه من عجز بعد أربعين يوما عما لزمه أو امتنع منه وماسلمه ضرب عليه الرق ونبت فى تملكه لنا الحق وهو عن كل رجل عشرة دنانير وعن كل امرأة خمسة وكل صغيرة أو صغير دينار ان الذكر والانثى فيهما سيان ودخل ابن بارزان والبطرك ومقدّم الداوية والاسبتار فى هذا الضمان وبذل ابن بارزان ثلاثين ألف دينار عن الفقراء وقام بالاداء ولم يتكل عن الوفاء فمن سلم خرج عن بيته آمنا ولم يعد اليه ساكنا وسلموا الى الديوم الجمعه السابع والعشرين من رجب على هذه القطيعه وردّ ودبالرغم والغصب لا الوديعه وكان فيه أكثر من مائة ألف انسان من رجال ونساء وصبيان فأغلقت دونهم الابواب ورتب لعرضهم واستخراج مايلزمهم النواب ووكل بكل باب أمير ومقدّم كبير يحصر الخارجين ويحسر الواجين فمن استخرج منه خرج ومن لم يقم بما عليه قعد فى الحبس وعدم الفرج ولوحفظ ذلك المال حق حفظه لفاز منه بيت المال بأوفر حفظه لكن تم التفريط وعم التخليط فكل من رشا مشى وتنكب مناهج الرشد بالرشا فمنهم من ادلى من السور بالحبال ومنهم من حمل مخفيا فى الرحال ومنهم من غيرت لبسته فخرج مخفيا بزى الجند ومنهم من وقعت فيه شفاعة مطاعة لم تقابل بالرد والشفاه الاكابر استنابوا أصاغر فأقاموا فى تقصيرهم المعاذر وقنعوا لانفسهم الدخائر وادّعى مظفر الدين كوكبرى ان منهم جماعة من أرمن الرها وعددها ألف نسمة فجعل اليه أمرها وكذلك صاحب البيرة ادّعى ماعدته الكثيرة زهاء خمسمائة أرمنى ذكرانهم من بلده وان الواصل منهم الى القدس لاحل متعبده وكذلك كل من استوهب عدة استطلقها وحصل له مرفقها ثم تولى الملك العادل استخراجهم وقوّم على الاداء منهاجهم وسهل على السلطان لفرط جوده الاستخراج والاخراج وتوفر لعامة الناس وخاصتهم بهجة سماحة الابتهاج ومافينا الامن فاز باو فى نصيب ورعى منه فى مرعى خصيب وكان السلطان قد رتب عدّة دواوين فى كل ديوان منها عدّة من النواب المصريين وفيهم من الشاميين فمن أخذ من أحد الدواوين خطابالاداء انطلق مع الطلقاء بعد عرض خطه على من بالباب من الامناء والوكلاء فذكر لى من لاأشك فى مقاله انه كان يحضر فى الديوان ويطلع على حاله فربما كتبوا خطا لمن نقده فى كيسهم وتلبس أمر تلبيسهم فكانوا شركاء بيت المال لاامناه وخانوه على ماحصل لكل من الغنى والنفع وما اضر غناه ومع ذلك حصل لبيت المال مايقارب ألف دينار وبقى من بقى تحت رق إسار ينتظر بد انقضاء المدة المضروبه والعجز عن الوفاء بالقطيعة المطلوبه وكانت بالقدس ملكة رومية متعبدة

مترهبه فى عبادة الصليب متصلبه وعلى مصابها متلهبه وفى التمسك بلتها متصعبة متعصبه انفاسها متصاعدة للحزن وعبراتها متحدرة تحدر القطرات من المزن ولها حال ومال ومتاع وأشياء وأشياع واتباع فاستعاذت بالسلطان فأعاذها ومن عليها وعلى كل من معها بالافراج وأذن فى اخراج كل مالها فى الاكياس والاخراج وابقى عليها من مصوغات صلبانها الذهبية المجوهرة ونفائسها وكرائم خزائنها فخرجت بجميع مالها وحالها ونسائها ورجالها واسفاطها واعدالها والصناديق باقفالها وتبعها من لم يكن من اتباعها فراحت فرحى وان كانت من سجنها قرحى وكذلك خرجت زوجة الملك الماسور كى وهى ابنة الملك اماورى وكانت مقيمة فى جوار القدس مع مالها من الخول والخدم والجوارى فاستأذنت فى الالمام بزوجها وكان بقيده مقيما فى برج نابلس موكلا به ليوم وعد تسريحه فأذن لها فخلصت هى ومن تبعها وأقامت عند زوجها وكذلك خرجت الابرنسة أم هنفرى وهى ابنة فليب وزوجة الابرنس الذى سفك دمه يوم حطين وهى صاحبة الكرك والشوبك وهى بوّابها محوطه وبرأيها منوطه فجاءت سائلة فى ولدها العانى فوعدت انها ان سمحت بحصنها سمح لها بابنها ثم أعفيت وأطلقت وعصمت على ان تستحصر ابنها هنفرى ابن هنفرى من دمشق اليها وأقر برؤيته عينها وسار معها من الامراء الامناء من يتسلم منهم تلك المعاقل فخرجت نهضت الى حصونها لتسلمها فانعها أهلها ودافعوها وردّوها دليلة خائبة فسكنت صور واستودعت السلطان ابنها المأسور ووعدها باطلاقه اذا تسلم تلك الحصون

(فصل) فى ذكر يوم الفتح وبعض كتب البشائر الى البلاد قال العماد تسلم المسلمون المدينة يوم الجمعة أوان وجوب صلاتها وطلعت الرايات الناصرية على شرفاتها وأغلقت أبوابها لحفظ ناسها فى طلب القطيعة والتماسها وضاق وقت الفريضة وتعذر اداؤها وللجمعة مقدمات وشروط لم يمكن استيفاؤها وكان الاقصى لاسيما محرابه مشغولا بالخنازير والخنا مملوءا بما أحدثوا من البناء مسكونا بمن كفر وغوى وضل وظلم وحنى مغمورا بالنجاسات التى حرم علينا فى تطهيره منا الوبا فوقع الاستغال بالاهم الانفع والالتم الانجح الانجع وهو حفظهم وضبطهم الى أن يوجد شرطهم ويؤخذ قسطهم واتفق فى البيت المقدس فى يوم كان فى مثل ليلته منة المعراج وتم بما وضح من منهاج النصر الابتهاج وجلس السلطان بالمخيم ظاهر القدس للهناء وللقاء الاكابر والامراء والمتصوفة والعلماء وهو جالس على هيئة التواضع وعمية الوقار بين الفقهاء وأهل العلم جلسائه الابرار ووجهه بنور البشر سافر وأهله بعز النجح ظافر وبابه مفتوح ورفده ممنوح وحجابه مرفوع وخطابه مسموع ونشاطه مقبل وبساطه مقبل وصحياه يلوح وريا يفوح فدخلت له حالة الظفر وكأن دسته به هالة القمر والقراء جلوس يقرؤن ويرددون والشعراء وقوف ينشدون ويستنشدون والاعلام تبرز لتنشر والاقلام تبرز لتبشر والعيون من فرط المسرة تدمع والقلوب للفرح بالنصرة تخشع والالسنة بالابتهال الى الله تضرع وبشر المسجد الحرام بخلاص المسجد الاقصى وتلى مشرع لكم من الدين ما وصى وهنئى الحجر الاسود بالصخرة البيضاء ومنزل الوحى بمحل الاسرا ومقر سيد المرسلين وخاتم النبيين بمقر الرسل والانبياء ومقام ابراهيم بموضع قدم المصطفى صلى الله عليه وعليهم أجمعين وأدام أهل الاسلام بشرف بنيته مستمتعين وتسامع الناس بهذا النصر الكريم والفتح العظيم فوفدوا للزيارة من كل فج عميق وسلكوا اليه فى كل طريق واحرموا من البيت المقدس الى البيت العتيق وتنزهوا من رهر كراماته فى الروض الانيق وقد سبق ان العماد كان توجه الى دمشق والسلطان على بيروت للالم الذى ألم به فلما سمع بنزول السلطان على القدس ابل من مرضه وتوجه اليه فوصل يوم السبت ثانى يوم الفتح قال وطلعت عليه صباحا عند طلوع الصبح فاستبشر بقدومى وخلع على البشير قبل رؤيتى وكان اصحابه يطالبونه بكتب البشائر ليغتروا بها ويسرّوا وهو يقول لهم هذه القوس بار ولهذا المأدبة فار قال فكتبت فى ذلك اليوم سبعين كتابا بشاره كل كتاب بمعنى بديع وعباره قنها الكتاب الى الديوان العزيز ببغداد افتتحته بهذه الآية (وعد الله الذين امنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا) الحمد لله الذى أنجز لعباده الصالحين وعد الاستخلاف وقهر بأهل التوحيد أهل الشرك والخلاف وخص سلطان الديوان العزيز بهذه الخلافه ومكن دينه المرتضى وبدّل الامن من المخافه وذخر هذا الفتح الاسنى والنصر الاهنى للعصر

الامامى

الامامي النبوي الناصري على يد الخادم أخلص أوليائه والمختص من اعتزازه باعتزائه اليه وانتمائه وهذا الفتح العظيم والنجح الكريم قد انقرضت الملوك الماضيه والقرون الخاليه على حسرة تمنيه وحيرة ترجيه ووحشة اليأس من تسنيه وتقاصرت عنه طوال الهمم ونخاذلت عن الانتصار له املاك الامم. فالحمد لله الذي أعاد القدس الى القدس وأعاذه من الرجس وحقق من فتحه ما كان في النفس وبدل وحشة الكفر فيه من الاسلام بالانس وجعل عز يومه ما حيا دل أمس وأسكنه الفقهاء والعلماء بعد الجهال والضلال من البطرك والقس وعبدة الصليب ومستقبلي الشمس وقد أظهر الله على المشركين الضالين جنوده المؤمنين العالمين وقطع دابر القوم الظالمين والحمد لله رب العالمين فكأن الله شرف هذه الامة وقال لهم اعزموا على اقتناء هذه الفضيلة التي بها فضلكم وحقق في حقهم امتثال أمره في قوله الكريم (ادخلوا الارض المقدسة التي كتب الله لكم) وهذا الفتح قد اقدره الله على افتضاضه بالحرب العوان وجعل ملائكته المسومة له من أعز الانصار وأظهر الاعوان واخرج من بيته المقدس يوم الجمعة أهل الاحد وقمع من كان يقول ان الله ثالث ثلاثة بمن يقول هو الله أحد وأعان الله بانزال الملائكة والروح وأتى بهذا النصر المنوح الذي هو فتح الفتوح وقد تعالى ان يحيط به وصف البليغ نظما ونثرا وعبد الله في البيت المقدس سرا وجهرا وملكت بلاد الاردن وفلسطين غورا ونجدا وبرا وبحرا وملئت اسلاما وكانت قد ملئت كفرا وتقاضى الخادم دين الدين الذي غلق رهنه دهرا والحمد لله شكرا حمدا يجدد للاسلام كل يوم نصرا ويزيد وجوه أهله بشرى فتتوجه بشرا وأبى الخادم الاستباحة أموالهم وأرواحهم وحسم داء اجتراحهم باجتياحهم وانه لابد من تطهير الارض المقدسة من رجس دمائهم وقتل رجالهم وسبي ذراريهم ونسائهم ولما ايسوا من النجاة وفتحوا أبوابها المرتجة من أسبابها المرتجاة خوفوا بقتل الاسارى المسلمين وهم أكثر من ثلاثة آلاف وانهم يفسدون جميع ما في البلد من مال وبناء بهدم واحراق واتلاف وعرف ان جهلهم يحملهم على كل مكر شنيع وانهم تدعوهم فظاظتهم الى كل أمر فظيع وبدلوا اطلاق الاسرى وشرطوا حمل مال الفدا ومازالوا يبتهلون ويضرعون وينذلون ويخشعون حتى استقر الامر انهم يفادون وأجيبت الصخرة المقدسة عند استصراخها وبركت البركة الناهضة اليها في مناخها وغسلت من أوضارها وأوزارها بعبرات العيون ورجع اضطرابها الى السكون وفديت بنواظر أهل الايمان وصوفت للوفاء بعدها المجدد بالايمان وذكرت في يوم خلاصها من رجب بليلة المعراج وتجلى اظلامها بانارة سناء السراج واعيدت الكنائس مدارس واضحت باحياء رميم التوحيد رسوم الكفر عافية دوارس وزالت ضجرة الصخره ونعشها الله من العثره وبدل بالانس فيها ما كان من الوحشة والحسره والحمد لله على هذه النصره والمنة له على هذه المبره وقد تسلمنا مع بيت المقدس جميع المعاقل من حد الداروم الى حد طرابلس وكل ما كان جاريا في مملكة ملك القدس ونابلس ولم يبق الا صور فانها قد تأخر انتزاعها وتقدم امتناعها والفرنج فيها قد ضربت بأمالها اطماعها وهي بتأييد الله مستفتحه والقلوب بتذليل جامحها منشرحه) ومن كتاب آخر (فتح بيت الله المقدس الذي عجز الملوك عن تمنيه فكيف تسنيه وماتت الاطماع دونه فلم تطمع فيه فمن الله علينا بتذليل صعبه واعذاب شربه وتسهيل وعره وتحصيل نخره وقضى الملوك في ليله وجئنا نحن عليه باسفار فجره وقد كانت الصخرة مستصرخه ومطايا الكفر بكلاكلها عليها منوخه فأجيبت دعوتها وأصيبت خطوتها وتناثرت على صخرتها يواقيت الشفا وقوبلت قبلتها بقبل الافواه ودنا المسجد الاقصى للقاصي والداني وزال رين العائن وقرت عين الراني هذا فتح عظيم قدره جسيم نخره فاضل عصره كامل نصره غير منسي الى يوم الحشر ذكره وقد افتض بنابكره واقتضى بسيفنا وتره وزهر زهره وظهر قهره وهلك الكافر وكفره وجاء من نعم الله ما لزم على الابد شكره أبينا الا احراقهم بنيران الصوارم واغراقهم في امواه الطلى والجماجم وتسلمنا القدس في يوم كانت في مثل ليلته ليلة المعراج وحنت الصخرة حنين جذع المعجزة الاولى في ظلمة ليلها الى ذلك السراج الوهاج والحمد لله على سلوك ما وضح من المنهاج ونضوب ما كان نبع من الاجاج وخلا بيت الله لقصد الحاج وصدق الحاج مبشرة بما فضل الله به عصرنا وعجل به نصرنا ونظم به سلكنا وطرز به ملكنا وهو فتح بيت الله المقدس الذي غلق رهنه دهرا واغتصب من الاسلام قهرا وارتد كفرا وامتدت به الايام عمرا فعمرا

وتقاصرت الهمم عن استفتاحه وأصلد زند الملوك فيه فنجزوا عن اقتداحه ونزلوا بالرغم على التماس الكفر واقتراحه واحتملوا لحفظ مواضعهم نكاية اجترامه واجتراحه فلاجرم أعده الله لايامنا وذخره لمواسم اعتزامنا وفتحه بنا اظهارا لفضل هذه الايام وايثارا لما نحن نؤثره من اعلاء كلمة الاسلام فأصرخنا الصخره وأهدينا اليها النصره ومكنا من قلبها وان كان من الجمر المسره تسلمنا القدس يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب وقضينا من حق هذا البيت ماوجب وجاء الفدس الى الفدس وزال الرجس وذهب وتولى فيه الاسلام وتولى عنه الكفر وعظم الاجر وفخم الفخر وطاب النشر وزاد البشر ومحى الرجس وثبت الطهر وهلك المشرك وذل البطرك وأقصى من المسجد الاقصى الساجد الى الشمس وتجلى الحق بنوره الكاشف للبس عاد بيت الله المقدس الى طهارته ونطق منه لسان التقديس بعبادته وتهلل وجه السعد بنضارته ونضا القدر في اتمام أمره بخطابه واشارته وزادت الوجوه بشرا ببشارته وقد أعاد الله الى الاسلام المسجد الاقصى وملكنا أدناه وأقصاه وأسنى دولتنا بما سناه من فتحه وهناه وعلموا انهم هالكون وأنا لهم بالقهر مالكون وفي سبيل القتل والاسر والسبي سالكون فخرجوا يطلبون الامان ويبذلون الاذعان حتى يسلموا المكان فقيل لهم الآن وقد عصيتم ورضيتم بما فيه هلاككم وأبيتم فروّعوا بقتل أسارى المسلمين رهم ألوف وعرفنا انهم لا يقصرون في الشر فان جهلهم معروف فتضرعوا وتشفعوا وتعفروا في تراب الذل وتوقعوا وتقرر عليهم مال اشتروا به أنفسهم فنزعوا به من الخوف ملبسهم وسلموا القدس فاعدناه الى القدس وطهرناه من الرجس وأجبنا دعوة الصخره وغسلنا عنها وضر الكفر بعبرات العبره فتح بيت الله المقدس الذي غلق رهنه وطال في يد الكفر أسره وسجنه واستهل بغرّ أيامنا من زنه وأنار يمنه وعاد باحساننا احسنه وزال بنا خوفه وزاد أمنه وبقي قريب مائة سنة في يد الكفر مسجونا وبرجس الشرك مشحونا حتى أعاد الله بنار ونقه وأذهب قلقه وأعدم فرقه وهذا فتح لم يكن منذ عصر الصحابة رضي الله عنهم له نظير وافق الدين به منيف منير وشرف أيامنا به كثير وهو امام فتوحنا المذخرة لنا وما لها بتأييد الله تأخير فتح البيت المقدس الذي لم يخطر تمنيه بخاطر الملوك وتوعر على عزائمهم نهج طريقه للملوك وحالت دونه قنطاريات الفرنج وطوارقها وجنت على الاسلام فيه حوادث الليالي وطوارقها حتى دعانا الله لفتحه فاجبناه ووعدنا بالفوز فاصبناه وأوردنا مشرع صفائه فاستعذبناه وعرفنا طيب عرفه فاستطبناه وذخر لعصرنا هذا الفخر فاستقبلناه رأوا أحجار المنجنيقات قد أنزلت الاسواء بالاسوار وغارت الصخور للصخرة المباركة فجدّت في انقاذها من الاسار وهمت ثنايا الابراج وأعضل بها في العلاج داء الاعلاج فعاينوا الحمام وشاهدوا الموت الزؤام أقامت المنجنيقات على عصابته حد الرجم وواقعت ثنايا شرفاته بالهتم وتصايرت الصخور في نصرة الصخرة المباركه وحجرت على حكم السور بسفه الاحجار المتداركه وحسرت الثقوب عن عروس البلد بنقب الاسواة وانكشفت للعيون انكشاف الاسرار نهضت لاصراخ الصخرة المقدسة الصخور وطارت من أوكار المجانيق كأنها الصقور فاسرّ البيت الحرام بمكان أخيه من الاسر واجراء الاسلام فيه لغسل أوضار الكفر وانقاذ الصخر المباركة ممن قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوه والحافها من البهاء والرونق والعز الاسلامي بكسوه ولقد غسلت من أدران الكفر وادناسه وطهرت من ارجاس النجاسه بمياه العيون التي بها تذيت وصقلت بشفاء المؤمنين وطالما بايدي الشرك صديت وأعيد اليها ذكر الله تعالى بعد طول الغربه وتذكر بصحبة الاولياء ما سلف لها في عهد الصحابة رضي الله عنهم من حسن الصحبه ودنا المسجد الاقصى فاقصى منه الساجد للشمس وسكن العلماء والفقهاء في مواطن البطرك والقس وأبدل الناقوس بالاذان بل الكفر بالايمان وصلى محراب الاسلام في المحراب الذي أسلم وقدسني الله تعالى هذا الفتح الاعظم والنجح الافخم وقد ندب فلان في الرسالة القدسيه والبشائر الغرسيه التي تم بها أتم الكفر وعرس الاسلام وعاد بها المسجد الاقصى الى مداناة المسجد الحرام وتجلت عروس الصخرة لعيون الناظرين وفاضت عليها مياه احداق الاولياء فرحضت عنها أوضار الكافرين وكان الاسلام منه غريبا فرجع الى وطنه وسكن منه الى التوطن في مسكنه وزالت مخاوفه وعاد الى مأمنه وعرض العرف من منبعه وأنار التوحيد من مطلعه وعلا سنا السنه وحلا جنة الجنه وخلصت مواضع المخلصين من أولياء الامه وخرج

البطاركة والقسيسون من مساجد الائمه وعادت الكنائس مدارس وآيات التثليث بها دوارس ووجوه الايمان باشرة ووجوه أهل الصليب عوابس ومحت أيامن هذه الايام تلك الليالى الدوامس وقد أقيمت الجمع والجماعات ونظفت بل طهرت تلك الاماحات وصلى فى محراب المحرب ودرس فيه الخلاف والمذهب والحمد لله الذى تسنى بفضله هذا المطلب وتيسر بتأييده الامر الاصعب)

(فصل) قال العماد وكان المولى الاجل الفاضل متأخرا بدمشق يعارض مرض من الله بشفائه فمن جملة ما كتب السلطان اليه (اما الفتح فمن جملة بركات همته وآثار جذبات عزمته فان الله تعالى سهل ما سحل أهل الدهر بانه صعب واهب نسيم النصرا بان يقال ليس له مهب وخصنا بهذا الشرف والحقنا فى هذه الفضيلة بصالحى السلف وقد بدل الكفر بالايمان والناقوس بالاذان وجلس العلماء والفقهاء فى مجالس الرهبان وفتحت بهذا الفتح من بيت الله المقدس أبواب الجنان وتزاحم الخارجون من البلد من الفرنج والنصارى فى دخول أبواب النيران وصلى محارب الدين فى المحراب ورفع الملائكة ما كان تكاثف بانفاس الكفر من الحجاب وغسلت الصخرة المباركة من أوضارها بماء العيون الفائض الفائق غزارة الامواه وقبلت بالشفاه وبوشرت بالافواه وطهرت باهل العلم والحلم من اناس أهل الجهل والسفاه والحمد لله ثم الحمد لله وما كان يعوزنا ويعوزه الا حضور المجلس السامى أسماه الله فما هذا الامر رواء الابرو آئه ولا للانس لقاء الا بانس لقائه وكاد يتصحف الفتح لولا صالح دعائه وحسن آلائه والحمد لله الذى خصنا بهذه الخاصيه ونضلنا بالنصرة القدسيه وذخر لنا هذا البر الذى عجز بل قصر عنه ملوك البريه والحمد لله على هذه النعمة السنيه فما أشوقنا وأشوق القدس الى قدومه وما أظمأنا وأظمأه الى خصوص الرى به وعمومه ويا حظ هذا البيت الذى هو أخو البيت الحرام من زيارته وما آنق روضه وأوفق رضاه اذا عاز بنظره ونضارته ونحن نعرف ان همته العالية تحدوه وان دينه الى اجابة دعوته تدعوه ونسأل الله ان يكمل صحته وينعش قوته ويقوى نهضته وما أقنا بهذا البلد الا لتطهيره وترتيب أمره وتدبيره) ومن كتاب آخر (نصرنا الله بملائكته المسومين وأوليائه المؤمنين واستخلصنا بأيدى البلاد وانتزعناها وافتضضنا بالبيض الذكور من الحرب العوان أبكار الفتوح وافترعناها وهذه موهبة مذهبة ومنقبه لا يبلغ الى وصفها بلاغة موجزة ولا مسهبه ونوبة ما بعدها للاسلام نوبه وحظوة فى مذاق أهل التقوى والمغفرة حلوه وبشرى تجلو الوجوه ببشرها وتضوع مهاب المحاب بنشرها ويعرف أهل الشرق والغرب سجال غربها وتقر عين المؤمنين فى البعد والقرب بانوار قربها عاد التقديس الى الارض التى بها وصفت وأحاطت البركة بالبقعة التى بقوله تعالى باركنا حوله عرفت وظهرت الصخرة المقدسة وطهرت وزهيت أيامن هذه الايام وزهرت وتعت الطائفة الطاغية من أهل التثليث باهل التوحيد وقهرت واستبشر المنبر والمحراب بخطيبه وامامه وافتخر الزمان بعصر مولانا أمير المؤمنين وأيامه وقد تملكنا البلاد الساحلية وتسلمناها حصنا حصنا ونقضنا من الكفر ركنا ركنا واجلينا الكفار منها فاجتلينا بها من الحسنى حسنى فتح شرف الله به هذه الامه وجلا به الغمه وكشف الملمه بل شرفنا بفخره وأعدنا لذخره وخصنا بفضيلته فى عصره وأجرى لنا ما كان قد أبطأ من عادة نصره وقمع بأهل دينه من عساكرنا أهل كفره وقامت بواترنا بوتره وغرق البلاد الساحلية من دم الكفار بحره واصرخت الصخره وحفت بها النصره وزالت عنها المضره وعادت اليها المبره ونعشت منها العثره وفاضت لها من عين المؤمنين العبره وزفت عروسها البكر محصنة لم تفتض منها العذره وحالت الغره ولاحت الغره وظهرت من صدف قبتها الدره وصرفت آثار القدم النبويه بالايمان وجددت بعهدها صفقة الايمان وبطل الناقوس بحق الاذان وفتحت أبواب الجنان لاهلها وأخرج منها أهل النيران والحمد لله على هذا الاحسان حمدا مستمرا على مر الزمان) ومن كتاب الى سيف الاسلام باليمن (فتح بيت الله المقدس الذى غلق نيفا وتسعين سنة مع الكفر رهنه وطال فى أسره حبسه واستحكم وهنه وقوى سكره وضعف ركنه وزاد حزنه وزال حسنه واجدبت من الهدى ارضه وأخلف مزنه وواصله خوفه وفارقه أمنه واشتغل خاطر الاسلام بسببه وساءه حزنه وذكر فيه الواحد الاحد الذى تعالى عن الولد ان المسيح ابنه وربع فيه التثليث فعز صليبه وصلبه وافرد التوحيد فكاد يهى متنه ودرج الملوك المتقدمون على تمنى استنقاذه فابى

الشيطان غير استيلائه واستحواذه وكان فى الغيب الالهى ان معاده فى الآخرة الى معاذه وطنت أوطانه بقراءة القرآن ورواية الحديث وذكر الدروس وجليت الصخرة المقدسة جلوة العروس وزارها شهر رمضان مضيفا لها نهار صومها بالتسبيح وليل فطرها بالتراويح) ومن كتاب آخر (البيت المقدس صار مقدسا وأصبح للاسلام معرسا ورجع اهل التقوى اليه فقد كان بها مؤسسا وخرس الجرس وذهب الدنس وبطل الناقوس وخرج القسوس وزال الاذى بالاذان وصوفحت الصخرة المقدسة بايمان أهل الايمان وماصلت فى محراب البيت المقدس الثقاة حتى صلت فى محاريب رقاب الكفر المسرفيات وماتم الرضى بفتح المسجد الاقصى حتى أقصى منه من أقصاه الله عن رضاه وماتبوأ المسلم المصلى فيه مثواه من الجنة حتى تبوأ الكافر المصلى بالنار مثواه صوفح موضع القدم المبارك ليلة المعراج بالايدى وقال لاولياء الله اهل الاخلاص اهلا بكم فما أحسن الخلاص من ولاية أهل التعدى وعاد المسجد الاقصى للمصلين المقربين جنة ومنارا بعد ان كان للقصين المصلين نارا دارا وتسلم محرب الاسلام محرابه وأصحب لآلافه لما الفى أصحابه وترنح المنبر لترنم الخطيب وانجبر الدين بانكسار صلب عابد الصليب السليب خلا باله من أمر القدس باعادته الى قدسه وأخلائه من رجز الشرك ورجسه واجلاء داويه واستبتاره وبطركه وقسه وتعويضه من وحشة الضلال من الهدى بانسه ورد الاسلام الغريب الى بيته المقدس ونفى الكافر منه كاسف البال راغم المعطس ونصب المنبر للمسجد الاقصى لاقامة الخطبة الاماميه ورفع مارفع قدره من الاعلام العباسيه والافراج عن محرابه بهدم مابنى دونه من مبانى الشرك وكشف استار الكعبة التى حجبت بالهتك والعتك واقامة الجمع فيه والجماعات وادامة أوراد العبادات به ووظائف الطاعات وغسل الصخرة المقدسة بدم الكافر دمع المؤمن ونزع لباس بأس المسىء عنها بافاضة ثوب ثواب المحسن وتنزيه تلك الجنة من دنس أهل النار واعلاء ماكان درس من معالم الابرار ومطالع الانوار وقد رجع الاسلام الغريب منه الى داره وخرج قمر الهدى به من سراره وذهبت ظلم الضلالة بأنواره وعادت الارض المقدسة الى ما كانت موصوفة به من التقديس وأمنت المخاوف فيها وبها فصارت صباح السرى ومناخ التعريس وقد أقصى عن المسجد الاقصى الاقصون من الله الابعدون وتوافد اليه المصطفون الاقربون والملائكة المقربون وخرس الناقوس بزجل المسبحين وخرج المفسدون بدخول المصلحين وقال المحراب لاهله مرحبا واهلا وشمل جماعة المسلمين من اقامة الجمعة والجماعة ماجمع للاسلام فيه شملا ورفعت الاعلام العباسية على منبره فاخذت من بره أوفى نصيب وتلت بالسنة عذرها (نصر من الله وفتح قريب) وغسلت الصخرة المباركة بدموع المتقين من دنس المشركين وبعد أهل الالحاد من قربها بقرب الموحدين فذكر بها ما كاد ينسى من عهد المعراج النبوى وأقامت بدلائلها براهين الاعجاز المحمدى عاد الاسلام باسلام البيت المقدس الى تقديسه ورجع بنيانه من التقوى الى تأسيسه وزال ناموس ناقوسه وبطل بنص النصر قياس قسيسه وفتح باب الرحمة لاهلها ودخلت فيه الصخرة لفضلها وباشرت الجباه بها مواضع سجودها وصافحت أيدى الاولياء آثار القدم النبوية بتجديد عهودها وشهد مقام المعراج وموطئ براقه ورأى نور الاسراء ومطلع إشراقه ودنا المسجد الاقصى للراكع والساجد وامتلأ ذلك الفضاء بالاتقياء الاماجد) ومن كتاب فاضلى الى بغداد (تقلص ظل الكافر المبسوط وصدق الله أهل دينه فلما وقع الشرط وقع المشروط وجاء أمر الله وانوف أهل الشرك راغمه وادلجت السيوف والآجال نائمه واسترد المسلمون تراثا كان عنهم آبقا وظفروا يقظة بما لم يصدقوا انهم يظفرون به طيفا على النائم طارقا) ومنه فى وصف نقب السور (فأخلى السور من السياره والحرب من النظاره وأمكن النقاب ان يسفر للحرب النقاب وان يعيد الحجر الى سيرته من التراب فتقدم الى الصخر فخضع سرده بانياب معوله وحل عقده بصربة الاحراق الدال على لطافة أغله واسمع الصخرة الشريفة حنينه فاستغاثته الى ان كادت ترق لمقتله وتبرأ بعض الحجارة من بعض وأخذ الخراب عليها موثقا فلن تبرح الارض وثم استقرت على الاعلى أقدامهم وخفقت على الاقصى اعلامهم وتلاقت على الصخرة قبلهم وشفيت بها وان كانت صخرة كما يشفى بالماء غلاتهم وملك الاسلام خطة كان عهده بها دمنة سكان فخدمها الكفر الى ان صارت روضة جنان لاجرم ان الله أخرجهم منها وأهبطهم وارضى أهل الحق وأسخطهم وأوعز الخادم برد الاقصى الى عهده المعهود وأقام له من الائمة من يوفيه ورده

المورود وأقيمت الخطبة يوم الجمعة رابع شعبان فكادت السموات للنجوم ينفطرن والكواكب منها للطرب ينتثرن ورفعت الى الله كلمة التوحيد وكانت طريقها مسدوده وظهرت قبور الانبياء وكانت بالنجاسات مكدوده وأقيمت الخمس وكان التثليث يقعدها وجهرت الالسنة بالله أكبر وكان سحر الكفر يعقدها وجهر باسم أمير المؤمنين فى وطنه الاشرف من المنبر فرحب به ترحيب من بر وخفق علماه فى حفافيه فلو طار سرورا لطار بجناحيه وكان الحادم لا يسعى سعيه الا لهذه المنقبة العظمى ولا يقاسى تلك البؤسى الا رجاء هذه النعمى ولا يحارب من يستظلمه الا لتكون الكلمة مجموعة فتكون كلمة الله هى العليا وليفرز بجوهر الآخرة لا بالعرض الادنى من الدنيا وكانت الالسنة ربما سلقته فاصبح قلوبها بالاكتفاء والاقتصار وكانت الخواطر ربما غلت عليه مراجلها فأطفأها بالاحتمال والاصطبار ومن طلب خطيرا خاطر ومن رام صفقة رائجة جاسر ومن سما لان تجلى غمرة غامر) ووصف فيه يوم حطين فقال (وكان اليوم مشهودا وكانت الملائكة له شهودا وكان الضلال صارخا وكان الاسلام مولودا وأسر الملك وبيده أوثق وثائقه وأكد وصله بالدين وعلائقه وهو صليب الصلبوت وقائد أهل الجبروت مادهموا قط بأمر الا وقام بين دهمائهم يحرضهم ببسط لهم باعه وكان مد اليدين فى هذه الدفعة وداعه لاجرم انه يتهافت على ناره فراشهم ويجتمع فى ظل ظلامه خشاشهم ويتهاتارون تحت ذلك الصليب أصلب قتال وأصدقه ويرونه ميثاقا يبنون عليه أشد عقد وأوثقه ويعدونه سورا تحفر حوافر الخيل خندقه ولم يفلت منهم معروف الا القمص وكان لعنه الله جليا يوم الظفر بالقتال ومليئا يوم الخذلان بالاحتيال فجاول لكن كيف وطار خوفا من أن يلحقه منسر الرمح وجناح السيف ثم أخذه الله بعد أيام بيده وأهلكه لموعده وكان لعدتهم فذاك وانتقل من ملك الموت الى مالك وبعد الكسرة مر الخادم على البلاد فطواها بما يسر عليها من الراية السوداء صبغا لبياض صنعائها الخافقة هى وقلوب أعدائها العالية هى وعزائم أوليائها)

(فصل) قال العماد ومن قصائدى التى هنأت بها السلطان بفتح القدس وهو مخيم عليه

أطيب بانفاس تطيب لكم نفسا ❁ وتعتاض من ذكراكم وحشتى أنسا
وأسأل عنكم عافيات دوارس ❁ غدت بلسان الحال ناطقة خرسا
معاهدكم ما بالها كعهودكم ❁ وقد كررت من درس آثارها درسا
وقد كان فى حدسى لكم كل طارق ❁ وما جئتم من هجركم خالف الحدسا
أرى حدثان الدهر ينسى حديثه ❁ وأما حديث الغدر منكم فلا ينسى
تزول الجبال الراسيات وثابت ❁ رسيس غرام فى فؤادى لكم ارسى
حسبت حبيبى قاسى القلب وحده ❁ وقلب الذى يهوى يحل الهوى اقسى
أمالكم يا مالكى الرق رقة ❁ يطيب بها مملوككم منكم نفسا
وان سرورى كنت أسمع حسه ❁ فذسرت عنكم ما سمعت له حسا
وان نهارى صار ليلا لبعدكم ❁ فما أبصرت عينى صباحا ولا شمسا
بكيت على مستودعات تلوبكم ❁ كما قد بكت قدما على صخرها الخنسا
فلا تحبسوا عنى الجميل فانى ❁ جعلت على حبى لكم مهجتى حبسا
رأيت صلاح الدين أفضل من غدا ❁ وأشرف من أضحى وأكرم من أمسى
وقيل لنا فى الارض سبعة أبحر ❁ ولسنا نرى الا اماما له الخمسا
سجيته الحسنى وشيمته الرضى ❁ وبطشته الكبرى وعزمته القعسى
فلا عدمت أيامنا منه مشرفا ❁ ينير بما يولى لياليا الدمسا
جنودك املاك السماء وظنهم ❁ عداتك جن الارض فى الفتك لا الانسا
فلا يستحق القدس غيرك فى الورى ❁ فأنت الذى من دونهم فتح القدسا
ومن قبل فتح القدس كنت مقدسا ❁ فلا عدمت اخلاقك الطهر والقدسا

وطهرته من رجسهم بدمائهم * فأذهبت بالرجس الذى ذهب الرجسا
نزعت لباس الكفر عن قدس أرضها * وألبستها الدين الذى كشف اللبسا
وعادت ببيت الله أحكام دينه * فلا بطركا ابقيت فيها ولا قسا
وقد شاع فى الآفاق عنك بشارة * بان أذان القدس قد بطل النقسا
جرى بالذى تهوى القضاء وظاهرت * ملائكة الرحمن اجنادك الحمسا
وكم لبنى أيوب عيد كعنتر * فان ذكروا باطهاس لا يذكروا عبسا
وقد طاب ريانا على طبرية * فياطيبها مغنى و ياحسنها مرسى
وعكا وماعكا فقد كان فتحها * لاجلائهم عن مدن ساحلهم كنسا
وصيدا و بيروت وتبنين كلها * بسيفك التى أنفه الرغم والتعسا
ويافا وارسوف وتبنى وغزة * تخذت بها بين الطلى والظبى عرسا
وفى عسقلان الكفر ذل بملككم * فحظره بل أمره اربد وارجسا
وصار بصور عصبة يرقبونكم * فلا تبطئوا عنها وحسوهم حسا
توكل على الله الذى لك أصبحت * كلا تنه درعا وعصمته ترسا
ودمر على الباقين واجتث أصلهم * فانك قد سيرت دينارهم فلسا
ولا تنس شرك الشرق غربك مرويا * بماء الطلى من صادیات الظبى الخمسا
وان بلاد الشرق مظلمة فخذ * خراسان والنهرين والترك والفرسا
وبعد الفرنج الكرك فاقصد بلادهم * بعزمك واملا من دمائهم الرمسا
أقامت بغاب الساحلين جنودكم * وقد طردت عنه ذئابهم الدلسا

وهى طويلة وقد تقدم بعضها فى ذكر كسرة حطين وللعماد أيضا من جملة القصيدة التى مدح بها حسام الدين ابن لاچين وقد تقدم بعضها

قل للمليك صلاح الدين أكرم من * يمشى على الارض أو من يركب الفرسا
من بعد فتحك بيت القدس ليس سوى * صور فان فتحت فاقصد طرابلسا
أثر عليها يوم انطرسوس ذا لجب * وابعث الى ليل انطاكية العسسا
وأخل ساحل هذا الشام أجمعه * من العداة ومن فى دينه وكسا
ولا تدع منهم نفسا ولا نفسا * فانهم يأخذون النفس والنفسا
نزلت بالقدس فاستفتحته ومتى * تقصد طرابلسا فانزل على قدسا

ومن قصيدة أخرى له انفذها الى الخليفة الناصر

أبشر بفتح أمير المؤمنين أتى * وصيته فى جميع الارض جواب
ما كان يخطر فى بال تصوره * واستصعب الفتح لما أغلق الباب
وخام عنه الملوك الاقدمون وقد * مضت على الناس من بلواه احقاب
وجاء عصرك والايام مقبلة * فكان فيه لفيض الكفر انضاب
نصرا اعاد صلاح الدين رونقه * ايجازه ببليغ القول اسهاب
قرع الظبى بالظبى فى الحرب بطربه * لاقينه صنع باللحن مطراب
أحيا الهدى وأمات الشرك صارمه * لقد تجلى الهدى والشرك منجاب
بفتحه القدس للاسلام قد فتحت * فى قمع طاغية الاشراك أبواب
ففى موافقة البيت المقدس للـ * ـبيت الحرام لنا تيه واعجاب
والصخرة والحجر الملثوم جانبه * كلاهما لاعتمار الخلق محراب

نفى من القدس صلبانا كما نفيت ❁ من بيت مكة ازلام وانصاب

وكثر مدح الفضلاء للسلطان عند فتح القدس وقد ذكر العماد من ذلك جملة فى أواخر كتاب البرق فرأيت تقديم ما اخترته منها هنا وزدت عليه ما لم يذكره فمن ذلك قصيدة الحكيم أبى الفضل عبد المنعم بن عمر بن حسان الاندلسى الجليانى منها

أبا المظفر أنت المجتبى لهدى ❁ أخرى الزمان على خبر بخبرته
فلو رآك وقد حزت العلى عمر ❁ فى قلة انتسل تضى كنه عبرته
ولو رآك وأهل القدس فى وله ❁ أبو عبيدة فدى من مسرته
غداة جزوا النواصى فى قمامته ❁ وأعولوا بالتباكى حول صخرته
دارت بك الملة الحسنى فنحن على ❁ عهد الصحابة فى استمرار ملته
وأنت كاسمك صديق وصاحبه الـ ـملك المظفر سام فى مبرته
وفى الثلاثة عثمان يؤيده ❁ علا على على ايثار نصرته
وكم لديك ذو وقر بى رقواشرفا ❁ وكم بعيد رأى الزلفى بهجرته
يشبه الفتح ما بين البزاة لقى ❁ ملك الفرنج أخيذا بين عترته
أما رأيت معالى يوسف نسقت ❁ حتى رمت كل ذى ملك بحسرته
أضحى لنشر الهدى فى فتح منهجه ❁ وبات يطوى العدى فى سد ثغرته
واستقبح الرجس ممنوا بمشهده ❁ فاستفتح القدس محشوا بزمرته
لكن بأس صلاح الدين اذهلهم ❁ بوقعة التل واستشراء سورته
يعمى الجوارح والفرسان وهو على ❁ بدء النشاط عشيا مثل بكرته
يا فاتح المسجد الاقصى على بهم ❁ وقانص الجيش لا يحصى بقفزته
ابشر بملك كظهر الشمس مطلع ❁ على البسيطة فتاح بنشرته
حتى يكون لهذا الدين ملحمة ❁ تحكى النبوة فى أيام فترته

قال وانفذ من مصر نجم الدين يوسف بن الحسين بن المجاور الوزير العزيزى قصيدة وعرضتها على السلطان بالقدس وفيها ذكر الانكلتيره وفتح يافا وذكر الهدنة التى يأتى ذكرها فى اخر الكتاب فمنها وسيأتى الباقى المختار أيضا

الوقت أضيق من سماع قصيدة ❁ موسومة لصفات أغيد أهيف
الجد فى هذا الزمان مبين ❁ والهزل فيه مع الغواية مختف
بالناصر المهدى والهادى الى ❁ سبل الجهاد أبى المظفر يوسف
المستعين بربه والواثق الـ ـمنصور والمستظهر البر الوفى
شدت قوى أركان ملة أحمد ❁ وتحملت بجهاده فى الموقف
ملك اذا أم الملوك جنابه ❁ لاذوا باكرم من يؤم وأشرف
واذا أتوا أسرى الى أبوابه ❁ وقفوا باعظم من يصول وأرأف
مولى غداة الدين أكرم والد ❁ حدب على أبنائه متر فرف
عزل الفرنجة ثم ولى جيشه ❁ أعظم به من صارف ومصرف
قد أنصف التوحيد من تثليثهم ❁ وأقام فى الانجيل حد المصحف
مغرى بتجريح الرجال لانه ❁ يروى أحاديث العوالى الرعف
ملك له فى الحرب بحر رتقه ❁ وله غداة السلم زهد تصوف
وعليه أنزل فى الجهاد مفصل ❁ فلذاك يقرأوه بسبعة أحرف
عزم وحلم انسياما كان من ❁ عزم ابن مرداس وحلم الاحنف

يا أيها الملك الذى لطباعه * وسيوفه خلقا رضى وتعسف
لله يوم عروبة اذا عربت * ساعاته عن نصرك المتعرف
سنت سيوفك فى الرؤس ختانة * ذهبت بهجة كل علج أقلف
آفاتهم وافت باخذك منهم * يافا فكم من حسرة وتأسف
أومارأى الاعلاج حين دعوتها * بلسان سيف فى الكريهة ملحف
لم تستطع عصيان أمرك بل أتت * منقادة طوعا ولم تتخلف
فاستدع جارتها وثن باختها * وكذاك حتى الاربعين ونيف
ماللسواحل غير بحرك حافظ * بشباسنان أو بصفحة مرهف
هذا الطراز الاخضر استفتحته * فزهى بثوب من علاك مسجف
أحييت دين محمد وأقمته * وسترته من بعد طول تكشف
وضبطت ديوان الجهاد بعامل * من عامل وبشرف من مشرف
وبجهبذ العزم الذى لاينثنى * وبناظر الرأى الذى لم يطرف
فخذ الخراج من البسيطة كلها * واستأد فرضى جزية وموظف
واقبض على الدنيا بكف زهادة * وابسط لرحمتها جناح تعطف
جاءت جنود الله تطلب ثارها * وصدورها بل عن قليل تشتفى
فانهض بها وتقاض حقك موقنا * ان الاله بما تؤمله حفى
هم فتية الاتراك كل مجفجف * يغشى الكريهة فرق كل مجفجف
قوم يخوضون الحمام شجاعة * لاينظرون اليه من طرف خفى
ان صبحوا الاعداء فى أوطانهم * تركوا دياركم كقاع صفصف
أنت اصطفيتهم لنصرة ديننا * لله در المصطفى والمصطفى

قلت وذكرت بقوله (هذا الطراز الاخضر استفتحته) حكاية حسنة لائقة بالحال حدثنى بها شيخنا أبو الحسن على بن محمد السخاوى قال قرأت بخط شيخنا أبى الفضائل بن رشيق بمصر عقيب موته فى سنة ثلاث وسبعين وخمسمائه قال رأى انسان كأن شخصا دجهامة واقفا على حائط بجامع دمشق يسمى النسر وهو يقول

ملك الصياصى والصواصى ناصر * للدين بعدا ياسه ان ينصرا
وسيفتح البيت المقدس بعدما * يطوى الطراز له ويقتل قيصرا

قلت وهذا قبل ان يفتح صلاح الدين البلاد بعشر سنين وقرأت بخط بعض أصحابنا قال وجدت على حاشية كتاب يروى عن خطيب كان بالرقة انه رأى من ينشده هذا الشعر فى النوم سنة احدى وثلاثين وخمسمائه فذكر البيتين وهذا قبل الفتح باثنتين وخمسين سنة وقبل مولد صلاح الدين بسنة والمعنى بالطراز الاخضر بلاد الساحل المصطفة على بلاد البحر من الداروم وغزة وعسقلان وعكا وصيدا وبيروت وجبيل وغير ذلك ولم يبق من الطراز فى اثناء ذلك سوى صور بين صيدا وعكا وهكذا كان الامر على ماسبق بيانه فتح هذا الطراز أولا ثم فتح البيت المقدس وكنى بقيصر عن الابرنس الذى قتله بيده لانه كان من رؤس الكفر وملوكهم وغلاتهم فى معاداة الاسلام والله أعلم قال العماد وكان فخر الكتاب أبو على الحسن بن على الجوينى المقيم بمصر من أهل بغداد ينفذ الى قصائده لاعرضها فرأيت ان أثبت له هذه القصيدة فى الفتح وهى مشتملة على ذكر ملوك الاسلام واهمالهم له تسعين عاما حتى تجرد له سلطاننا فذكرها منها

جند السماء لهذا الملك أعوان * من شك فيهم فهذا الفتح برهان
متى رأى الناس مانحكيه فى زمن * وقد مضت قبل أزمان وأزمان
هذا الفتوح فتوح الانبياء وما * له سوى الشكر بالافعال اثمان

أضحت ملوك الفرنج الصيد فى يده ❁ صيدا وما ضعفوا يوما وما هانوا
كم من فحول ملوك غودروا وهم ❁ خوف الفرنجة ولدان ونسوان
استصرخت بملكشاه طرابلس ❁ فقام عنها وصمت منه آذان
هذا وكم ملك من بعده نظر الاسـ ـلام يطوى ويحوى وهو سكران
تسعون عاما بلاد الله تصرخ والـ ـاسلام انصاره صم وعميان
فالآن لبى صلاح الدين دعوتهم ❁ بامر من هو للمعوان معوان
للناصر ادخرت هذى الفتوح وما ❁ سمت لها هم الاملاك مذ كانوا
حباه ذو العرش بالنصر العزيز فقا ❁ ل الناس داود هذا أم سليمان
فى نصف شهر غدا للشرك مصطلما ❁ فطهرت منه اقطار وبلدان
فاين مسلمة عنها واخوته ❁ بل أين والدهم بل أين مروان
وعد عما سواه فالفرنجة لم ❁ يبدهم من ملوك الارض انسان
لو ان ذا الفتح فى عصر النبى لقد ❁ تنزلت فيه آيات وقرآن
يا قبح أوجه عباد الصليب وقد ❁ غدا يرقعها شؤم وخذلان
خزنت عند إله العرش سائرها ❁ ملكته وملوك الارض خزان
فالله يبقيك للاسلام تحرسه ❁ من ان يضام ويلفى وهو حيران
وهذه سنة أكرم بها سنة ❁ فالكفر فى سنة والنصر يقظان
يا جامعا كلمة الايمان قامع من ❁ معبوده دون رب العرش صلبان
اذا طوى الله ديوان العباد فما ❁ يطوى لاجر صلاح الدين ديوان

وللشريف النسابة المصرى محمد بن أسعد بن على بن معمر الحلبى المعروف بالجوانى نقيب الاشراف بالديار المصرية من قصيدة

أترى منى ما بعينى أبصر ❁ القدس يفتح والفرنجة تكسر
وقيامة قمت من الرجس الذى ❁ بزواله وزوالها يتطهر
وملوكهم فى القيد مصفود ولم ❁ يرقبل ذاك لهم مليك يؤسر
قد جاء نصر الله والفتح الذى ❁ وعد الرسول فسبحوا واستغفروا
فتح الشآم وطهر القدس الذى ❁ هو فى القيامة للانام المحشر
من كان هذا فتحه لمحمد ❁ مادا يقال له وماذا ذكر
يا يوسف الصديق أنت لفتحها ❁ فاروقها عمر الامام الاطهر
ولانت عثمان الشريعة بعده ❁ ولانت فى نصر النبوة حيدر
ملك غدا الاسلام من عجب به ❁ يختال والدنيا به تتبختر
نثر ونظم طعنه وضرابه ❁ فالرمح ينظم والمهند ينثر
حيث الرقاب خواضع حيث العيو ❁ ن خواشع حيث الجباه تعفر
غاراته جمع فان خطبت له ❁ فيها السيوف فكل هام منبر
اذ لا ترى الاطلى بسـ ـنابك ❁ تحذى نعالا أو دماء تهدر
وصوافنا تختار ان تطأ الثرى ❁ فيصدها عنه طلى وسنور
تمشى على جثث العدا عرجا ولا ❁ عرج بها لكنها تتعثر

وقال أبو الحسين بن جبير الاندلسى

أطلت على أفق الزاهر ❁ سعود من الفلك الدائر

فابشر فان رقاب العدا ❁ تمد الى سيفك الباتر
وكم لك من فتكة فيهم ❁ حكت فتكة الاسد الخادر
كسرت صليبهم عنوة ❁ فلله درك من كاسر
وغيرت آثارهم كلها ❁ فليس لها الدهر من جابر
وأمضيت جدك فى غزوهم ❁ فتعسا لجدهم العاثر
وأدبر ملكهم بالشآ ❁ م وولى كأمسهم الدابر
جنودك بالرعب منصورة ❁ فناجزمتى شئت أوصابر
فكلهم غرقى هالك ❁ بتيار عسكرك الزاخر
ثأرت لدين الهدى فى العدا ❁ فاثرك الله من ثائر
وقمت بنصر إله الورى ❁ فسماك بالملك الناصر
وجاهدت مجتهدا صابرا ❁ فلله أجرك من صابر
نبيت الملوك على فرشهم ❁ وترفل فى الزرد السابر
وتؤثر جاهد عيش الجها ❁ د على طيب عيشهم الناضر
وتسهر ليلك فى حق من ❁ سيرضيك فى جفنك الساهر
فتحت المقدس من أرضه ❁ فعادت الى وصفها الطاهر
وجئت الى قدسه المرتضى ❁ فخلصته من يد الكافر
واعليت فيه منار الهدى ❁ وأحييت من رسمه الدائر
لكم ذخر الله هذا العتو ❁ ح من الزمن الاول الغابر
وخصك من بعد فاروقه ❁ بهالاصطناعك فى الآخر
محبتكم ألقيت فى النفو ❁ س بذكرك كم فى الورى طائر
فكم لهم عند ذكر الملو ❁ ك لمثلك من مثل سائر

وباقى القصيدة تقدم فى أخبار سنة أربع وسبعين وقال أبو الحسن على بن محمد الساعاتى

أعيا وقد عاينتم الآية العظمى ❁ لاية حال تدخر النثر والنظما
وقد ساغ فيح القدس فى كل منطق ❁ وشاع الى ان اسمع الاسل الصما
حبا مكة الحسنى وثنى بيثرب ❁ وأطرب ذيالك الضريح وماضما
فليت فتى الخطاب شاهد فتحها ❁ فيشهد ان السيف من يوسف احمى
وما كان الا الداء أعيا دواؤه ❁ وغير الحسام العضب لا يحسن الحسما
وأصبح ثغر الدين جذلان باسما ❁ والسنة الاغماد توسعه لثما
سلوا الساحل المخشى عن سطواته ❁ فما كان الا ساحلا صادف اليما

وله من قصيدة أخرى فى السلطان

عصفت به ريح الخطوب زعازعا ❁ فلقين طود الاتخف اناته
هو منقذ البيت المقدس بعدما ❁ طالت فما وجد الشفاء شكاته
بيت تأسس بالسكون وانما ❁ عند الزحاف تحركت سكناته
أمشتت الاعداء وهى حجافل ❁ عن شمل دين جمعت اشتاته
أوتيت عزما فى الحروب مسددا ❁ لا زيغه يخشى ولا هفواته
أحسنت بالبيت العتيق ويثرب ❁ ولك الفعال كثيرة حسناته
هذى سيوفك محرمات دونه ❁ لبكائهن تبسمت حجراته

وله من قصيده أخرى

هو الفاتح البيت المقدّس بعدما ❁ تحامته سادات الدنا ومسودها
فضيلة فتح كان ثانى خليفة ❁ من القوم مبديها وأنت معيدها

وله من قصيدة فى بعض أقارب السلطان

الست من القوم الاولى بسيوفهم ❁ ثنوا صخرة البيت المقدّس مسجدا

وللعماد الكاتب من قصيدة يمدح بها الملك الافضل

والقدس اعضل داؤه من قبلكم ❁ فوفيتم بشفاء ذاك المعضل
درج الملوك على تمنى فتحه ❁ زمنا وغلتهم به لم تبلل
وأتى زمانكم فامكن آخرا ❁ ما قد تعذر فى الزمان الاوّل
ما كان قط ولا يكون كفتحكم ❁ للقدس فى الماضى ولا المستقبل
أوجدتم منه الذى عدم الورى ❁ وفعلتم فى الفتح مالم يفعل
أيدى الملوك تقاصرت عن مفخر ❁ طلتم به فبلوا لبعض الاغمل
أحييتم شرع الكرام ولم يزل ❁ نصر الحق بكم وقهر المبطل

وله من قصيدة فى مدح الملك المؤيد

وكم لبنى صلاح الدين فينا ❁ على الاسلام من حق تأكد
وان لهم على الاملاك طرا ❁ بفتح القدس فضلا ليس يجحد

وله من أخرى فى مدح الملك الظاهر غازى

هم الملوك ذوو بأس ومكرمة ❁ ان سالموا امنوا او حاربوا خيفوا
أغناهم القدس عن قول الورى فتحت ❁ عكا وصيدا وبيروت وارسوف
جيش الفرنج اذا لاقى سوابقهم ❁ كأنه جبل بالريح منسوف

وقرأت على شيخنا أبى الحسن على بن محمد السخاوى رحمه الله من جملة قصيدة مدح بها بعض ولد السلطان أظنه الملك المحسن ظهير الدين أحمد بن صلاح الدين رحمهما الله

ملك به وأبيه يفتخر العلا ❁ ويفوق فخرهما السها والفرقدا
ما يوسف ممن يقاس بحاتم ❁ أبى وقد وهب الحصون واصفدا
اوان يقال كأنه يوم الوغى ❁ والروع كالاسد الهصور اذا عدا
أومن يشبه بجوده بغمامة ❁ اومن يقال لمثله عمر الردى
بل مالك الدنيا ومالئ رحبها ❁ خيلا ورجلا ناصر الدين الهدى
ومخلص البيت المقدس بعدما ❁ رفع الصليب على ذراه ومجدا
ومن الملوك الصيد يلقاهم اذا ❁ رفع السرادق راكعين وسجدا
وبه أتى البيت الحرام وفوده ❁ من كل فج آمنين المردا
من بعد ما درست معالم سبله ❁ دهرا وعز لخوفها ان يقصدا

(فصل) فى صفة اقامة الجمعة بالاقصى شرفه الله تعالى فى رابع شعبان ثامن يوم الفتح وقد وهم محمد بن القادسى فى تاريخه فيما قرأته بخطه فانه قال فتح صلاح الدين بيت المقدس وخطب على المنبر فيه بنفسه وصلى فيه ولبس خلعة سوداء ولم يكن السلطان هو الذى باشر الخطبة على ما سنذكره وقد تقدّم ان يوم الفتح وان كان يوم الجمعة الا ان الوقت ضاق عن اقامة فرض صلاة الجمعة فيه قال العماد لما تسلم السلطان القدس أمر باظهار المحراب وكان الداوية قد بنوا فى وجهه جدارا وتركوه للغلة هريا وقيل كانوا اتخذوه مستراحا عدوانا وبغيا وكانوا قد بنوا من غربى القبلة دارا وسيعة وكنيسة رفيعة فأوعز بكشف ذلك الحجاب وكشف النقاب عن عروس المحراب وهدم

ماقدامه من الابنيه وتنظيف ماحوله من الافنيه بحيث يجتمع الناس للجمعه فى العرصة المتسعه ونصب المنبر واظهر المحراب المطهر ونقض ماأحدثوه بين السوارى وفرشوا تلك البسيطة بالبسط الرفيعة عوض الحصر والبوارى وعلقت القناديل وتلى التنزيل فحق الحق وبطلت الاباطيل وتولى الفرقان وعزل الانجيل وصفت السجادات وصفت العبادات وأقيمت الصلوات وأديمت الدعوات وتجلت البركات وانجلت الكربات وانجابت الغيابات وانثابت الهدايات وتليت الآيات وأعليت الرايات ونطق الاذان وخرس الناقوس وحضر المؤذنون وغاب القسوس وزال العبوس والبوس وطابت الانفاس والنفوس وأقبلت السعاداب وأدبرت النحوس وعاد الايمان الغريب منه الى موطنه وطلب الفضل من معدنه وورد القراء وقرأوا الاوراد واجتمع الزهاد والعباد والابدال والاوتاد وعبد الواحد ووحد العابد وتوافد الراكع والساجد والخاشع والواجد والزاهى والزاهد والحاكم والشاهد والجاهد والمجاهد والقائم والقاعد والمتهجد والساهد والزائر والوافد وصدح المنبر وصدع المذكر وانبعث المعشر وذكر البعث والمحشر واملى الحفاظ وابكى الوعاظ وتذاكر العلماء وتناظر الفقهاء وتحدثت الرواه وروى المحدثون وتحنف الهداه وهدى المتحنفون واخلص الداعون ودعا المخلصون وأخذ بالعزيمة المترخصون ولخص المفسرون وفسر الملخصون وانتدى الفضلاء وانتدب الخطباء وكثر المترشحون للخطابه المتوشحون بالاصابه المعروفون بالفصاحه الموصوفون بالحصافه فمافيهم الامن خطب الرتبه ورتب الخطبه وانشأ معنى شائقا ووشى لفظا رائقا وسوى كلاما بالموضع لائقا وروى مبتكرا من البلاغة فائقا وفيهم من عرض على خطبته وطلب منى نصبته وتمنى ان ترجح فضيلته وتنجح وسيلته وتسبق بمنيته فيها أمنيته وكلهم طال الى الانتهاء بها عنقه وسال من الالتهاب عليها عرقه ومامنهم الامن يأهب ويترقب ويتوسل ويتقرب وفيهم من يتعرض ويتضرع ويتشوف ويتشفع وكل قد لبس وقاره وقر لباسه وضرب فى اخماسه اسداسه ورفع لهذه الرياسه راسه والسلطان لايعين ولا يبين ولا يخص ولا ينص ومنهم من يقول ليتنى خطبت فى الجمعة الاولى وفزت باليد الطولى واذا ظفرت بضالع سعدى فما أبالى بمن خطب بعدى فلما دخل يوم الجمعة رابع شعبان أصبح الناس يسألون فى تعيين الخطيب السلطان وامتلأ الجامع واحتفلت المجامع وتوجست الابصار والمسامع وفاضت رقة القلوب المدامع وراعت لجليه تلك الحاله وبهاء تلك البهجة الروائع وغصت بالسابقين اليها المواضع وتوسمت العيون وتقسمت الظنون وقال الناس هذا يوم كريم وفضل عميم وموسم عظيم هذا يوم تجاب فيه الدعوات وتصب البركات وتسال العبرات وتقال العثرات ويتيقظ الغافلون ويتعظ العاملون وطوبى لمن عاش حتى حضر هذا اليوم الذى فيه انتعش الاسلام وانتاش وما أفضل هذه الطائفة الحاضره والعصبة الظاهره والامة الظاهره وما أكرم هذه النصرة الناصريه والاسرة الاماميه والدولة العباسيه والملكة الايوبيه والدولة الصلاحيه وهل فى بلد الاسلام أشرف من هذه الجماعه التى شرفها الله بالتوفيق لهذه الطاعه وتكاموا فيمن يخطب ولمن يكون المنصب وتفاوضوا فى التعويض وتحدثوا بالتصريح والتعريض والاعلام تعلى والمنبر يكسى ويجلى والاصوات ترتفع والجماعات تجتمع والافواج تزدحم والامواج تلتطم وللعارفين من الضجيج مافى عرفات للحجيج حتى حان الزوال وزال الاعتدال وحيعل الداعى واعجل الساعى فنصب السلطان الخطيب بنصه وابان عن اختياره بعد فحصه وأوعز الى القاضى محيى الدين أبى المعالى محمد بن زكى الدين على القرشى بان يرقى ذلك المرقى وترك جباه الباقين بتقديمه عرقى فاعرته من عندى أهبة سوداء من تشريف الخلافة حتى يكمل له شرف الافاضة والاضافه فرقى العود ولقى السعود واهتز أعطاف المنبر واعتزت أطراف المعشر وخطب وانصتوا ونطق وسكتوا واقصح واعرب وابدع واغرب واعجز واعجب وأوجز واسهب ووعظ فى خطبتيه وخطب بموعظتيه وابان عن فضل البيت المقدس وتقديسه والمسجد الاقصى من أول تأسيسه وتطهيره بعد تنجيسه واخراس ناقوسه واخراج قسيسه ودعا للخليفة والسلطان وختم بقوله تعالى ان الله يأمر بالعدل والاحسان ونزل وصلى فى المحراب وافتتح بسم الله الرحمن الرحيم من أم الكتاب فأم بتلك الامه وتم نزول الرحمه وكمل وصول النعمه ولما قضيت الصلاة انتشر الناس واشتهر الايناس وانعقد الاجماع واطرد القياس وكان قد

نصب للوعظ تجاه القبله سرير ليفرعه كبير مجلس عليه زين الدين أبو الحسن على بن نجا فذكر من خاف ومن رجا ومن سعد ومن شقى ومن هلك ومن نجا وخوّف بذى الحجة ذوى الحجا وجلا بنور عظاته من ظلم الشبهات ما دجا وأتى بكل عظة للراقدين موقظه ونظما لمين حفظه ولاولياء الله مرقّة ولاعداء الله مغلظه وضج المتباكون وعج المتشاكون ورقت القلوب وخفت الكروب وتصاعدت النعرات وتحدرت العبرات وتاب المذنبون وناب المتحوبون وصاح النوائحون وناح الاوابون وجرت حالات جلت وجلوات حلت ودعوات علت وضراعات قبلت وفرص من الولايه الالهية انتهزت وحصص من العناية الربانية أحرزت وصلى السلطان فى قبة الصخره والصفوف على سعة الصحن بها متصله والامة الى الله بدوام نصره مبتهله والوجوه الموجهة الى القبلة عليه مقبله والايدى الى الله مرفوعه والدعوات له مسموعه ثم رتب فى المسجد الاقصى خطيبا استمرت خطبته واستقرت نصبته قلت هذه الفاظ العماد فى هذا الفصل من كتاب الفتح وذكره فى كتاب البرق بعبارة أخرى تشمل على فوائد زائده وفى تكرار ما تقدّم أيضا بغير تلك العبارة فائده فانها معان جليلة كلما ذكرت جلت وكلما تكررت حلت

(فصل) قال العماد فى كتاب البرق لما كان يوم الجمعة التالية لجمعة الفتح تقدّم السلطان فى المسجد الاقصى ببسط العراص واخلائها لاهل الاخلاص وتنظيفها من الادناس وكنس ما فى ارجائها من الارجاس وقد كان سبق أمره من مبدأ الامر بهدم ما هنالك من أبنية الكفر وابراز المحراب القديم وأعادة موضعه الى الوضع الكريم فقد كان الداويه بنواغر بيه دارا وادخلوه فيها وخلطوه ببنائيها واتخذوا منه جانبا مستراحا للاعلال وجانبا هريا للغلال فأمر فى العاجل بكشف قناعه ورفع الوضيع من أوضاعه ونقل ما وقع من انقاضه ونقض ما اعتور ذلك الجوهر النفيس من اعراضه حتى ظهر موضع المنبر والمحراب واستظهر بازالة ما قدّامه من الحجاب واجتمع الخلق فى ذلك الاسبوع على تفريق ذلك الهدم المجموع وتعاونوا وتعاونوا حتى كشفوه ونظفوه ورشوه وفرشوه وكان قد أمر باتخاذ منبر فى تلك الايام فحرروه وركبوه ولما أصبحنا يوم الجمعة وجدنا العلل مزاحه والهمم مراحه والخواطر الى وردها مباحه مرتاحه وهنالك فضلاء بلغاء وعلماء أتقياء وكل منهم قد سبق بخطبة الخطبه وامل الفوز بفضيلة تلك الرتبه وأعد لذلك المقام مقالا ونسّط بشقشقة فصاحته من قرم حصافته عقالا حتى اذا حيعل الداعى وتعين الفرض على الساعى حضر السلطان صلاة قبة الصخره بادية على أساريره أسرار سروره بالاسره وامتلأ ان تلك العراص والصحون، واستعبر للفرح بما يسره الله العيون وآن لدين الله ان تقضى له الديون وتفك الرهون ووجلت القلوب وخشعت الاصوات وحسمت الظنون وعين السلطان القاضى محيى الدين أبا المعالى محمد بن على القرشى الزكى بن الزكى للصلاة والخطبه وفرع تلك الرتبه فصعد وسعد وحمد وأحمد وادت المعانى السريفة ألفاظه ونبه الاقاصى والادانى ايقاظه وجلا المسامع وجلب المدامع وأتى بالخطبتين المفروضتين على الوجه المشروع والنهج المتبوع والشرط الموضوع وذكر فى الفتح البكر ما افتض به ايكار الاستعارات بابدع البراعات وابرع العبارات وصدح بالصدق ونطق بالحق وفاز بالسبق وحاز الفضيله على فضلاء الغرب والشرق فهو لنشر المعانى أضم خطيب له بنشر المعالى اضمخ طيب فاين قس فى عكاظه من قياس الفاظه وأين سحبان من سجعاته وأين ابن نباتة من نباته ولوعاش الافتقرا الى فقره واحتقرا اعراضهما عند جوهره ودعا لامير المؤمنين ثم لسلطان المسلمين ونزل وقام اماما أكمل بصلاته الفرض وأرضى بسمت دعواته والطمأنينة فى ركعاته وسجداته أهل السماء والارض وسر السلطان بنصبه ورفعه وامتلأ صدره حبورا منه بجلاء بصره وسمعه فقد أخذت بالابصار اشعة أنوار الخطبه فى سواد الاهبه وعظمت أخطار المهابة فى خواطر المحبه وكرمت سرائر الزلفى الى الله والقربه ثم رتب السلطان بعده خطيبا يستمر اقامته للجمع والجماعات وتستقر ملازمته لاداء الصلوات ولما قضيت الصلاة تلك الجمعه نصب سرير للوعظ ابقى تلك الامة المجتمعه وتقدّم السلطان الى زين الدين الواعظ ليفرع السرير وينفع بعظاته الصغير والكبير وحضر المجلس بمرأى منه ومسمع فكان أنور مجلس ومجلى وأشرف جمع ومجمع فحقق ورقق وأشهد وأشهق وخلب بعباراته الحلوة العبرات وشار العسل بمعسول الاشارات وبشر البشر بشارة البشارات وذكر الفتح وبكارته والقدس وطهارته والدين وحسارته والكفر وخسارته والقدر واعانته والظفر وابانته

والصخرة واصراخها والروعة وافراخها والنار وهراطها والقيامة واشراطها والرحمة وبابها من باب الرحمة والجنة وجناها لهذه الامة وما أعده الله لهذه الطائفة وما أنزله من الامن على القلوب الخائفة ووصف بلاغته مالا يبلغ اليه نطق الالسنة الواصفة ووصف الجهاد وفرائضه وفضائله والخير وذلائله والنجح ووسائله والشرع ومسائله والذنب وغوائله واحسان السلطان وفراصله والبحر وساحله والدين وحقه والكفر وباطله وكان يوما راجحا وسوما رابحا

(فصل) في ايراد ما خطب به القاضي محيي الدين رحمه الله قال العماد وخطب القاضي محيي الدين بن زكي الدين أربع خطب في أربع جمع كلها من انشائه وأودعها سر بلاغة عنيت بافشائه وذكرت الخطبة الاولى وبدا الفصاحة فيها طولى افتتحها بهذه الآيات

«فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين الحمد لله»
«الذي خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا الآية الحمد لله الذي»
«أنزل على عبده الكتاب قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الارض»
«الحمد لله فاطر السموات والارض»

والخطبة هي

«الحمد لله معز الاسلام بنصره ومذل الشرك بقهره ومصرف الامور بامره ومديم النعم بشكره»
«ومستدرج الكافرين بمكره الذي قدر الايام دولا بعدله وجعل العاقبة للمتقين بفضله وافاء»
«على عباده من ظله وأظهر دينه على الدين كله القاهر فوق عباده فلا يمانع والظاهر على خليقته»
«فلا ينازع والآمر بما يشاء فلا يراجع والحاكم ما يريد فلا يدافع أحمده على اظفاره واظهاره»
«واعزازه لاوليائه ونصره لانصاره وتطهيره بيته المقدس من ادناس الشرك وأوصاره حمدا من استشعر الحمد»
«باطن سره وظاهر جهاره وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له الاحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له»
«كفوا أحد شهادة من طهر بالتوحيد قلبه وأرضى به ربه وأشهد أن محمدا صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله»
«رافع الشك وداحض الشرك وراحض الافك الذي أسرى به من المسجد الحرام الى هذا المسجد الاقصى»
«وعرج به منه الى السموات العلى الى سدرة المنتهى عندها جنة المأوى اذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاغ البصر وما»
«طغى صلى الله عليه وعلى خليفته أبي بكر الصديق السابق الى الايمان وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أول»
«من رفع عن هذا البيت شعار الصلبان وعلى أمير المؤمنين عثمان ذي النورين جامع القرآن وعلى أمير المؤمنين»
«علي بن أبي طالب مزلزل الشرك ومكسر الاوثان وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم باحسان أيها الناس»
«ابشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوى والدرجة العليا لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة»
«من الامة الضاله وردها الى مقرها من الاسلام بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريبا من مائة عام وتطهير»
«هذا البيت الذي أذن الله ان يرفع وان يذكر فيه اسمه واماطة الشرك عن طرقه بعد ان امتد عليها رواقه واستمر»
«فيها رسمه ورفع قواعده بالتوحيد فانه بني عليه وبالتقوى فانه أسس على التقوى من خلفه ومن بين يديه فهو»
«موطن أبيكم ابراهيم ومعراج نبيكم محمد عليه السلام وقبلتكم التي كنتم تصلون اليها في ابتداء الاسلام وهو مقر»
«الانبياء ومقصد الاولياء ومقر الرسل ومهبط الوحي ومنزل تنزل الامر والنهي وهو في أرض المحشر وصعيد»
«المنشر وهو في الارض المقدسة التي ذكرها الله في كتابه المبين وهو المسجد الذي صلى فيه رسول الله صلى الله عليه»
«وسلم بالملائكة المقربين وهو البلد الذي بعث الله اليه عبده ورسوله وكلمته التي ألقاها الى مريم وروحه عيسى»
«الذي شرفه الله برسالته وكرمه بنبوته ولم يزحزحه عن رتبة عبوديته فقال تعالى لن يستنكف المسيح ان يكون عبدا»
«لله وقال لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم وهو أول القبلتين وثاني المسجدين وثالث الحرمين لا تشد»
«الرحال بعد المسجدين الا اليه ولا تعتقد الخناصر بعد الموطنين الا عليه ولولا انكم ممن اختاره الله من عباده»
«واصطفاه من سكان بلاده لما خصكم بهذه الفضيلة التي لا يجاريكم فيها مجار ولا يباريكم في شرفها مبار فطوبى لكم»

«من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبويه والوقعات البدريه والعزمات الصديقيه والفتوح العمريه»
«والجيوش العثمانيه والفتكات العلويه جددتم للاسلام أيام القادسيه واليرموكيه والمنازلات الخيبريه»
«والهجمات الخالديه فجازاكم الله عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أفضل الجزاء وشكر لكم ما بذلتموه من مهجكم»
«فى مقارعة الاعداء وتقبل منكم ما تقربتم به اليه من مهراق الدماء وأثابكم الجنة فهى دار السعداء فأقدروا رحمكم»
«الله هذه النعمة حق قدرها وقوموا لله تعالى بواجب شكرها فله النعمة عليكم بتخصيصكم بهذه النعمه وترشيحكم»
«لهذه الخدمه فهذا هو الفتح الذى فتحت له أبواب السماء وتبلجت بانواره وجوه الظلماء وابتهج به الملائكة المقربون»
«وقرت به عينا الانبياء والمرسلون فماذا عليكم من النعمة بان جعلكم الجيش الذى يفتح عليه البيت المقدس فى آخر»
«الزمان والجند الذى تقوم بسيوفهم بعد فترة من النبوة اعلام الايمان فيوشك ان تكون التهانى به بين أهل»
«الخضراء أكثر من التهانى به بين أهل الغبراء ليس هو البيت الذى ذكره الله فى كتابه ونص عليه فى خطابه»
«فقال تعالى سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذى باركنا حوله الآية أليس»
«هو البيت الذى عظمته الملوك وأثنت عليه الرسل وتليت فيه الكتب الاربعة المنزلة من الحكم عز وجل أليس هو»
«البيت الذى أمسك الله عز وجل الشمس على يوشع لاجله ان تغرب وباعد بين خطواتها ليتيسر فتحه ويقرب أليس»
«هو البيت الذى أمر الله موسى ان يأمر قومه باستنقاذه فلم يجبه الارجلان وغضب عليهم لاجله فالقاهم فى التيه»
«عقوبة للعصيان فاحمدوا الله الذى أمضى عزائمكم لما قعدت عنه بنو اسرائيل وقد فضلهم على العالمين ووفقكم لما خذل»
«فيه من كان قبلكم من الامم الماضين وجمع لاجله كلمتكم وكانت شتى وأغناكم بما أمضته كان وقد عن سوف وحتى»
«فليهنكم ان الله قد ذكركم به فيمن عنده وجعلكم بعد ان كنتم جنودا لاهويتكم جنده وشكركم الملائكة المنزلون»
«على ما أهديتم الى هذا البيت من طيب التوحيد ونشر التقديس والتحميد وما أمطتم عن طرقهم فيه من أدى»
«الشرك والتنليث والاعتقاد الفاجر الخبيث فالآن يستغفر لكم املاك السموات وتصلى عليكم الصلوات»
«المباركات فاحفظوا رحمكم الله هذه الموهبة فيكم وأحرسوا هذه النعمة عندكم بتقوى الله التى من تمسك بها سلم»
«ومن اعتصم بعروتها نجا وعصم واحذروا من اتباع الهوى وموافقة الردى ورجوع القهقرى والنكول عن العدا»
«وخذوا فى انتهاز الفرصه وازالة ما بقى من الغصه وجاهدوا فى الله حق جهاده وبيعوا عباد الله أنفسكم فى رضاه»
«اذ جعلكم من خير عباده وايا ان يستزلكم الشيطان وان يتداخلكم الطغيان فيخيل لكم ان هذا النصر»
«بسيوفكم الحداد وبخيولكم الجياد وبجلادكم فى مواطن الجلاد لا والله ما النصر الا من عند الله ان الله عزيز»
«حكيم واحذروا عباد الله بعد ان شرفكم بهذا الفتح الجليل والمنح الجزيل وخصكم بهذا الفتح المبين وأعلق»
«أيديكم بحبله المتين ان تقترفوا كبيرا من مناهيه وان تأتوا عظيما من معاصيه فتكونوا كالتى نقضت غزلها»
«من بعد قوة انكاثا والذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين والجهاد الجهاد فهو من»
«أفضل عباداتكم وأشرف عاداتكم انصروا الله ينصركم اذكروا أيام الله يذكركم اشكروا الله يزدكم»
«ويشكركم جدوا فى حسم الداء وقطع شافة الاعداء وتطهير بقية الارض التى أغضبت الله ورسوله وأقطعوا»
«فروع الكفر واجتثوا أصوله فقد نادت الايام بالبارات الاسلاميه والملة المحمديه الله أكبر فتح الله ونصر غلب»
«الله وقهر أذل الله من كفر واعلموا رحمكم الله ان هذه فرصة فانتهزوها وفريسة فناجزوها ومهمة فأخرجوها لها»
«همكم وأبرزوها وسيروا اليها عزماتكم وجهزوها فالامور بأواخرها والمكاسب بذخائرها فقد أظفركم الله بهذا»
«العدو المخذول وهم مثلكم أو يزيدون فكيف وقد أضحى فى قبالة الواحد منهم منكم عشرون وقد قال الله تعالى»
«ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين اعاننا الله واياكم على اتباع أوامره والازدجار بزواجره وأيدنا معشر»
«المسلمين بنصر من عنده إن ينصركم الله فلا غالب لكم وان يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده»

وتمام الخطبة الثانية قريب مما جرت به العادة وقال بعد الدعاء للخليفة

«اللهم وأدم سلطاننا عبدك الخاضع لهيبتك الشاكر لنعمتك المعترف بموهبتك بسيفك القاطع وشهابك اللامع»
«والمحامى عن دينك المدافع والذاب عن حرمك الممانع السيد الاجل الملك الناصر جامع كلمة الايمان وقامع»

«عبدة الصلبان صلاح الدنيا والدين سلطان الاسلام والمسلمين مطهر البيت المقدس أبا المظفر يوسف بن»
«أيوب محيي دولة أمير المؤمنين اللهم عم بدولته البسيطه واجعل ملائكتك يراياته محيطه وأحسن عن الدين»
«الحنيفي جزاءه واشكر عن الملة المحمدية عزمه ومضاءه اللهم أبق للاسلام مهجته ووق للايمان حوزته وانشر»
«في المغارب والمشارق دعوته اللهم فكما فتحت على يده البيت المقدس بعد ان ظنت الظنون وابتلي المؤمنون»
«فافتح على يده ادانى الارض وأقاصيها وملكه صياصي الكفرة ونواصيها فلا تلقاه منهم كتيبة الا مزقها»
«ولا جماعة الا فرقها ولا طائفة بعد طائفة الا ألحقها بمن سبقها اللهم اشكر عن محمد صلى الله عليه وسلم سعيه»
«وأنفذ في المشارق والمغارب أمره ونهيه اللهم وأصلح به أوساط البلاد واطرافها وارجاء الممالك واكنافها اللهم ذلل»
«به معاطس الكفار وأرغم به أنوف الفجار وانشر ذوائب ملكه على الامصار وأثب سرايا جنوده في سبل الاقطار»
«اللهم ثبت الملك فيه وفي عقبه الى يوم الدين واحفظه في بنيه وبني أيوب الملوك الميامين واشدد عضده ببقائهم»
«واقض باعزاز أوليائه وأوليائهم اللهم كما أجريت على يده في الاسلام هذه الحسنة التي تبقى على الايام وتتخلد»
«على مر الشهور والاعوام فارزقه الملك الابدي الذي لا ينفد في دار المتقين واجب دعاءه في قوله رب أوزعني»
«أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين»
ثم ما جرت العادة به

﴿فصل﴾ في المنبر قال العماد لما فتحنا القدس أمر بتعمير المحراب وترخيمه وتكميل حسنه وتتميمه ووضع منبر رسمي في أول يوم قضي به الفرض، واحتيج بعد ذلك الى منبر حسن رائق بحسنه لائق وبجماله شائق وبكماله فائق فذكر السلطان المنبر الذي أنشاه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله لبيت المقدس قبل فتحه بنيف وعشرين سنه وأودعه له من ذخائره عند الله حسنه فامر ان يكتب الى حلب ويطلب فحمل وعمل على ما أمر به وامتثل فجاء كالروض النضير والوشي الحبير عديم النظير وكان من حديث احداثه ما الهم الله نور الدين رحمه الله لارتياح خاطره اليه وانبعاثه وقد أوقع في روعه من النور الفائض من ينبوع ضلوعه ان البيت المقدس بعده سيفتح وان صدور المسلمين الحرجة لاجله ستشرح وهو من أولياء الله الملهمين وعباده المحدثين المكرمين وكان بحلب نجار يعرف بالاخترين من ضيعة تعرف باخترين لم يلف له في براعته وصنعته قرين فامره نور الدين بعمل منبر لبيت الله المقدس وقال له اجتهد ان تأتي به على النعت المهندم والنحت المهندس فجمع الصناع وأحسن الابداع وأتمه في سنين واستحق بحق احسانه التحسين والناس يقولون هذا أمر مستحيل وحكم ماله دليل وذكر جميل وأجر جزيل لو كان اليه سبيل وهيهات ان يعود القدس الى الاسلام ويقضي الاصباح فيه على الاظلام فان الفرنج عليه مستولون مستعلون وهم يكثرون على الايام ولا يقلون أما ما صفوا على اكثر اعمال حوران وقابلوا بالكفر الايمان وقد أعجزوا ملوك الاسلام الى اليوم فما أصعب واتعب وقم القوم ويقول من له قوة اليقين وعرف ان الله كافل بنصرة الدين اصبروا فلسر هذه الامة نبأ وهو كما قال الله تعالى ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ ولم يزل لنور الدين في قلبه من الدين نور وأثر تقواه للمتقين مأثور أزهد العباد وأعبد الزهاد وهو من الاولياء الابرار والاتقياء الاخيار وقد نظر بنور الفراسة ان الفتح قريب وان الله لدعائه ولو بعد فتحه مجيب. ويزيده قوة عزمه جدا وتمده بحياء الحياة الربانية مدا قد طهره الله من العيب وأطلعه على سر الغيب ونزهه من الريب لنقاء الجيب وشملت الاسلام بعده بركته وختمت باقتتاح ملك صلاح الدين مملكته وهو الذي رباه ولباه وأحبه وحباه وهو الذي سن الفتح وسنى النجح واتفق ان جامع حلب في الايام النورية احترق فاحتيج الى منبر ينصب فنصب ذلك المنبر وحسن المنط وتولى حينئذ النجار عمل المحراب على الرقم وشابه المحراب المنبر في الرسم ومن رأى حلب الآن شاهد منه على مثال المنبر القدسي الاحسان ولما فتح السلطان القدس تقدم بحمله وصح به في محراب الاقصى تفريق شمله وظهر سر الكرامه في فوز الاسلام بالسلامه وتناصرت الالسن بالدعاء لنور الدين بالرحمه ولصلاح الدين بالنصرة والنعمه وقال العماد في موضع آخر من كتاب البرق وكان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله في عهده عرف بنور فراسته فتح البيت المقدس من بعده فامر في حلب باتخاذ منبر للقدس تعب النجارون والصناع والمهندسون فيه سنين وابدعوا

فى تركيبه الاحكام والتزيين واتفق فى ابداع محاسنه وابداء مزاينه ألوفا وكان لترديد النظر فيه على الايام ألوفا وبقى ذلك المنبر بجامع حلب منصوبا سيفا فى صوان الحفظ مقروبا حتى أمر السلطان فى هذا الوقت بالوفاء بالنذر النورى ونقل المنبر الى موضعه القدسى فعرفت بذلك كرامات نور الدين التى أشرق نورها بعده بسنين وكان من المحسنين الذين قال الله تعالى فيهم والله يحب المحسنين قلت وهذا الذى نسبه الى نور الدين رحمه الله من انه كرامة من كراماته لائق بمحله ومنزلته من الدين وليس بالبعيد من مثل ذلك وكان رحمه الله قد بدت له مخايل ذلك بما تسنى له من فتح البلاد الشامية والمصرية وقهر العدو بين يديه مرارا وكان فتح القدس فى همته من أول ملكه فان لم يكن حصل له مباشرة فقد حصل له تسببا فان الفاتحين له رحمهم الله بنوا على ما أسسه لهم من الملك والتدبير وهم أمراؤه واتباعه واجناده واشياعه ثم يحتمل ان يكون رحمه الله وقف على ما ذكره أبو الحكم بن برجان الاندلسى فى تفسيره فانه أخبر عن فتح القدس فى السنة التى فتح فيها وعمر نور الدين اذ ذاك احدى عشرة سنة وقد رأيت اباذلك فى كتابه ذكر فى تفسير أول سورة الروم ان البيت المقدس استولت عليه الروم عام سبع وثمانين وأربعمائة وأشار انه يبقى بايديهم الى تمام خمسمائة وثلاث وثمانين سنة قال ونحن فى عام اثنتين وعشرين وخمسمائة فلم يستبعد نور الدين رحمه الله لما وقف عليه ان يمتد عمره اليه فهيأ أسبابه حتى منبر الخطابة فيه تقربا الى الله تعالى بما يبديه من طاعته ويخفيه وهذا الذى ذكره أبو الحكم الاندلسى فى تفسيره من عجائب ما اتفق لهذه الامة المرحومة وقد تكلم عليه شيخنا أبو الحسن على بن محمد فى تفسيره الاول فقال وقع فى تفسير أبى الحكم الاندلسى فى أول سورة الروم إخبار عن فتح البيت المقدس وانه ينزع من أيدى النصارى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة قال وقال لى بعض الفقهاء انه استخرج ذلك من فاتحة السورة قال فاخذت السورة وكشفت عن ذلك فلم أره أخذ ذلك من الحروف وانما أخذه فيما زعم من قوله تعالى غلبت الروم فى أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين فبنى الامر على التاريخ كما يفعل المنجمون ثم ذكر انهم يغلبون فى سنة كذا ويغلب فى سنة كذا على ما تقتضيه دوائر التقدير قال وهذه نجامة وافقت اصابة ان صح انه قال ذلك قبل وقوعه وكان فى كتابه قبل حدوثه وليس ذلك بمأخوذ من الحروف ولا هو من قبيل الكرامات أيضا فان الكرامة لا تكتسب بحساب ولا تفتقر الى تاريخ ولذلك لم يوافق الصواب لما ادار الحساب على القراءة الاخرى الشاذة التى هى بفتح الغين من غلبت الروم ويوضح ذلك انه قال فى سورة القدر لو علم الوقت الذى أنزل فيه القرآن لعلم الوقت الذى يرفع فيه

(فصل) قال العماد وأما الصخرة المقدسة فان الفرنج كانوا بنوا عليها كنيسة وأعادوا رسومها القديمة دريسة وسترا وها بالابنية وعوجوا أوضاعها بزعم التسوية وكسوها صورا هى أشنع من التعرية وملؤوها بتصاريف التصاوير ونبثوا فى ترخيمها اشباه الخنازير وجعلوا المذبح لها مذبحا ولم يتركوا فيها للايدى المتبركة ولا للعيون المدركة ملمسا ولا مطمحا وقد زينوها بالصور وانتماثيل وعينوا بها مواضع الرهبان ومحط الانجيل وكلوا بها أسباب التعظيم والتبجيل وافردوا فيها لموضع القدم قبة صغيرة مذهبة باعمدة الرخام منصبة وقالوا محل قدم المسيح وهو مقام التقديس والتسبيح وكان فيها صور الانعام منبثة فى الرخام والصخرة المقصودة المزوره بما عليها من الابنية مستوره وبتلك الكنيسة المعمورة مغموره فامر السلطان بكشف نقابها ورفع حجابها وحسر لثامها وقشر رخامها ورحض وضرها ونقض ابنيتها ونقل حجرها وابرازها للزائرين واظهارها للناظرين فبانت من الشين وبانت للعين وحبيت بالقبل وفديت بالمقل فعادت كما كانت فى الزمن القديم وشهدت حين شوهدت بحسبها الكريم وما كان يظهر منها قبل الفتح الا قطعة من تحتها قد أساء الكفر فى بختها فظهرت الآن أحسن ظهور وسفرت أيمن سفور وأشرقت القناديل من فوقها نورا على نور وعملت عليها حظيرة من شبابيك حديد والاعتناء بها الى كل يوم فى مزيد قال وكان الفرنج قد قطعوا من الصخرة قطعا وحملوا منها الى قسطنطينيه ونقلوا منها الى صقليه وقيل باعوها بوزنها ذهبا واتخذوا ذلك مكتسبا ولما ظهرت ظهرت مواضعها وقطعت القلوب لما بانت مقاطعها فهى الآن مبرزة للعيون بحزها باقية على الايام بعزها مصونة للاسلام فى حذرها وحرزها وقال فى البرق ولما ظهرت الصخرة وجدناها وقد أبقت لها النوائب حزوزا وأودعت ضميرها من شر أهل الكفر شرا مرموزا فان

الفرنج نقلوا منها الى بلادهم قطعا وأبدعوا فيها بدعا حتى قيل انها بيعت بوزنها ذهبا وأفضى الامر بها ان يكون حجرها منتهبا فغطاها بعض ملوكهم اشفاقا عليها لئلا تمتد يد ضيم اليها فابقت حزوزها في القلوب حزازات وسار حديث حادثها في الآفاق بروايات واجازات وتولاها بعد ذلك الفقيه ضياء الدين عيسى فصانها بشبابيك من حديد وثبت أركانها بكل تسديد وقال في الفتح ورتب السلطان في قبة الصخرة اماما حسنا ووقف عليها دارا وأرضا وبستانا وحمل اليها والى محراب المسجد الاقصى مصاحف وختمات وربعات مقطعات لا تزال بين أيدي الزائرين على كراسيها مرفوعة وعلى أسرتها موضوعة ورتب لهذه القبة خاصة وللبيت المقدس عامة قومة من العارفين العاكفين القائمين بالعبادة الواقفين فما أبهج ليلها وقد حضرت الجموع وزهرت الشموع وبان الخشوع ودان الخضوع ودرت من المتقين الدموع واقشعرت من العارفين الضلوع فهناك كل ولي يعبد ربه ويأمل بره وكل أشعث أغبر لا يوبه له لو اقسم على الله لابره وهناك كل من يحيي الليل ويقومه ويسموا بالحق ويسومه وهناك كل من يختم القرآن ويرتله ويطرد الشيطان ويبطله ومن عرفته لمعرفته الاسحار ومن الفته لتهجده الاوراد والافكار وما أسعد نهارها حين يستقبل الملائكة زوارها وتلحق الشمس أنوارها وتحمل القلوب اليها أسرارها قال وتنافس ملوك بني أيوب فيما يؤثرونه بها من الآثار الحسنة وفيما يجمع لهم ودّ القلوب وشكر الالسنة فما منهم الا من أجمل وأحسن وفعل ما أمكن وجلى وبين وحلى وزين وأتى العادل أبو بكر بكل صنع بكر وتقي الدين عمر بكل ما عم وعمر ومن جملة أفعاله المشكورة ومكرماته المشهورة انه حضر يوما في قبة الصخرة ومعه من ماء الورد احمال ولاجل الصدقة والرفد مال فانتهز فرصة هذه الفضيلة التي ابتكرها وتولى بيده كنس تلك الساحات والعراص ثم غسلها بالماء مرارا حتى تطهرت ثم اتبع الماء بماء الورد صبا حتى تعطرت وكذلك طهر حيطانها وغسل جدرانها ثم أتى بمجامر الطيب فتبخرت وتضوعت ثم فرق ذلك المال فيها على ذوي الاستحقاق وافتخر ان فاق الكرام بالانفاق وجاء الملك الافضل نور الدين علي بكل نور جلي وكرم ملي وبسط بها الصنيعة وفرش فيها البسط الرفيعة وسيأتي ذكر ما اعتمده من بناء أسوار القدس وحفر خنادقه وأعجب بما أعجب من سوابق معروفه ولواحقه وأما الملك العزيز عثمان فانه لما عاد الى مصر ترك خزانة سلاحه بالقدس كلها ولم ير بعد حصولها بها بقلها وكانت احمالا بأموال واثقالا كجبال وذخائر وافية وعددا واقية وكان من جملة ما شرط على الفرنج أن يتركوا الناخيلهم وعدتهم فتوفرت بذلك عدد البلد واستغنى به عما يصل من المدد قال وأما محراب داود عليه السلام خارج المسجد الاقصى فانه في حصن عند باب المدينة منيع وموضع عال رفيع وهو الحصن الذي يقيم به الوالي فرتب السلطان له اماما ومؤذنين وقوّاما وهو مشابة الصالحين ومزار الغادين والرائحين فأحياه وجدده ونهج لقاصديه جدده وأمر بعمارة جميع المساجد وصون المشاهد وانجاح المقاصد واصفاء الموارد للقاصد والوارد وكان موضع هذه القلعة دار داود وسليمان عليهما السلام وكان ينتابهما فيهما الانام وكان الملك العادل نازلا في كنيسة صهيون واجناده على بابها مخيمون وفاوض السلطان جلساؤه من العلماء والاكابر الابرار والاتقياء الاخيار في أن يبني مدرسة للفقهاء الشافعية ورباطا للصلحاء الصوفية فعين للمدرسة الكنيسة المعروفة بصندحنه عند باب اسباط وعين دار البطرك وهي بقرب كنيسة قمامة للرباط ووقف عليهما وقوفا واسدى بذلك الى الطائفتين معروفا وارتاد أيضا مدارس للطوائف ليضيفها الى ما أولاه من العوارف

(فصل) قال في البرق وشرع الفرنج في اخلاء البيوت وبيع ما ادخروه من الاثاث والقوت وامهلوا حتى باعوا بأرخص الاثمان وكان خروجهم شبيها بالمجان لاسيما ما تعذر لثقله نقله وصعب حمله وكانوا كما قال الله تعالى (كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك واورثناها قوما آخرين) فباعوا ما تهيأ لهم على البيع اخراجه رخيصا وابقوا ما لم يجدوا من تركه محيصا وغلبوا على ما في الدور من الماعون والمذخور أما الصناديق والاخشاب والرخام وما يجري مجراها مما توفرت منه الانواع والاقسام فانها بقيت بحالها متروكه ولمن يسكن تلك الاماكن مملوكه وكانت قائمة وهي كنيستهم العظمى ومتعبدهم الذي يجمعون به الدين والدنيا مفروشة بالبسط الرفاع مكسوّة بالستور النسيج والحرير المنوج من سائر الانواع والذي يذكرون انه قبر عيسى

عليه السلام محلى بصفائح الفضة والعين ومصوغات الذهب واللجين مصفح بالنضار مثقل من نفائس الحلى بالاوقار فأعاده البطرك منه عاطلا وتركه طلالا ماثلا فقلت للسلطان هؤلاء انما أخذوا الامان على أموالهم فما بال هذا المال وهو بألوف يحملونه في أثقالهم فقال هم ما يعرفون هذا التأويل وينسبون الينا ما حرمناه التحليل ويقولون انهم لم يحفظوا العهد ولم يلحظوا العقد ونحن نجريهم على ظاهر الامان ونغريهم بذكر محاسن الايمان وكانت المهلة انه من عجز بعد أربعين يوما عن اداء ما عليه من القطيعه ضرب عليه الرق بحكم الشريطة ووقف الشريعه فتولاهم النواب بعد خروجنا من القدس وبقي منهم ممن ضرب عليه الرق خمسة عشر ألفا في الحبس ففرقهم السلطان وتناهبتهم البلدان وحصل لي منهم سبايا نسوان وصبيان وذلك بعد ان وفى ابن بارزان بالضمان وادى ثلاثين ألف دينار واخرج من ذكرانه فقير بحسب الامكان وكانوا تقدير ثمانية عشر ألفا واعتقد انه لم يبق غير فقير وبقي بعد ادائه على ما ذكرناه كثير وأما النصارى الساكنون بالقدس فانهم بذلوا مع القطيعة الجزية ليسكنوا ولا يزعجوا ويؤمنوا ولا يخرجوا فأقروا بوساطة الفقيه عيسى وأقر من قسوس النصارى أربعة قوام لقمامه فاعفاهم ولم يكلفهم الغرامه وأقام بمدينة القدس وأعمالها منهم الوف فشمروا وعمروا وعرشوا وغرسوا فلهم منها بجنان وقطوف وكانت لامراء الفرنج ومقدميهم مجاورة للصخره وعند باب الرحمة مقبره وقباب معمره فعفينا آثارها ورحضنا أوضارها وقال في الفتح وأمر السلطان باغلاق كنيسة قمامه وحرم على النصارى زيارتها ولا إلمامه وتفاوض الناس عنده فيها فمنهم من أشار بهدم مبانيها وتعفية آثارها وتعمية نهج مزارها وقالوا اذا هدمت ونبشت المقبرة وعفيت وخربت أرضها ودمرطولها وعرضها انقطعت عنها امداد الزوار وانحسمت عن قصدها مواد اطماع أهل النار ومهما استمرت العماره استمرت الزياره وقال أكثر الناس لا فائدة في هدمها وهدها فان متعبدهم موضع الصليب والقبر لا ما يشاهد من البناء ولا يقطع عنها قصد اجناس النصرانية ولو نسفت أرضها في السماء ولما فتح أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه القدس في صدر الاسلام أقرهم على هذا المكان ولم يأمر بهدم البنيان قال وأقام السلطان على القدس حتى تسلم ما يعربها من حصون واستباح كل ما للكفر بها من مصون ثم عمد الى ما جمعه ففرقه واخرجه في ذوي الاستحقاق وانفقه فأكثر وأعد له على بذله واستكثر واما افاضه بفضله فقال كيف امنع الحق مستحقيه وهذا الذي أنفقه هو الذي أتقيه واداقبله مني المستحق فالمنة له علي فيه فانه يخلصني من الامانة ويطلقني من وثاقها فان الذي في يدي وديعة احفظها لذوي استحقاقها وقيل له لو ادخرت هذا المال للمآل فقال املي قوي من الله الكافل بنجح الآمال وجمع الاسراء المطلقين وكانوا الوفا من المسلمين فيكساهم وأساهم وواساهم وادهب أساهم فانطلق كل منهم الى وطنه ووطره ناجيا من ضره وضرره وقال في البرق سمعت الملك العادل يوما في اثناء حديثه في ناديه وهو يجري ذكر افراط السلطان في أياديه يقول اني توليت استيفاء قطيعة القدس فأنفذت له ليلة سبعين ألف دينار فجاءني خازنه بكرة وقال نريد اليوم ما نخرجه في الانفاق فما عندنا مما كان بالامس شيء باق فنفذت له ثلاثين ألف دينار أخرى في الحال ففرقتها على رجال الرجاء يد النوال

﴿فصل﴾ قال العماد وللحكيم أبي الفضل قصائد قدسيات طوال كثيرة الفوائد قلت قد وقفت على بعضها وتقدم قبل ذلك ان قال لم أزل من أول ما ولي الملك الناصر الامر في مصر اعلم انه مؤيد بعناية من الله سبحانه فامتدحته في سنة خمس وستين بقصيدة تنيف على مائة بيت منها في التباشير

لتظفرن بما لم يحوه ملك ❁ أبا المظفر حظا خطه الازل
دليل ذلك آراء لك اقترنت ❁ بالحزم والعزم لم يخصص بها الاول

وفيها

قد ساد اسكندر أهل الزمان معا ❁ في سن عشرين وامتدت له الحيل
وافى الثلاثين والاقطار أجمعها ❁ طوعا له وملوك الارض والملل

قال ومدحته سنة سبع وستين عند قفوله من غزاة غزة بقصيدة منها

أبا المظفر فاهنأ حظ منتخب * أخرى الزمان لدين كاد ينبتر
زهدت فيما سبى الاملاك منكدرا * علما بملك نعيم مابه كدر
وطبت نفسا عن الدنيا وزخرفها * وجئت تقدم حيث الهول والخطر

قال ومدحته سنة ثمان وستين بقصيدة تنيف أيضا على مائة بيت منها في التباشير

أرى الراية الصفراء يرمى اصطفاقها * بني اصفر بالراعفات اللهاذم
فتسبى فلسطينا وتجبى جزائرا * وتملك من يونان ارض الاساحم
وتعنوالها الاملاك شرقا ومغربا * بذا حكمت حذاق أهل الملاحم

قال وبعثت اليه في غزة سنة اثنتين وثمانين وهو على حمص بقصيدة هنأته فيها بالعافية منها

فيا ملكا لم يبق للدين غيره * وهت عمد الاسلام فاشدد لها دعما
فشؤم فريق الشرك في الشام طائر * فقص جناحيه باقصى القوى قصما
خصصت بتمكين فم العدا ردى * فانهم يأجوج افرغ بهاردما
اذا صفرت من آل الاصفر ساحة الـ * ـمقدس ضاهت فيح أم القرى قدما
فذا المسجد الاقصى وهمتك العلى * وعزمتك القصوى ورميتك الصمى
فهاهو الان تهم وقد أتت * فتوح كما فاض الخضم الذي طما
وان أنت لم ترد الفرنج بوقعة * فمن ذا الذي يقوى لبنيانها هدما
وما كل حين تمكن المرء فرصة * ولا كل حال أمكنت تقتضي غنما
وليس كفتح القدس منية فادر * وما ان تلقاها سوى يوسف جزما

قال وأنشأت قصيدة أخرى في سنة اثنتين وثمانين وحضرت بها بين يديه منها

الله أكبر أرض القدس قد صفرت * من آل الاصفر اذ حين به حانوا
أسباط يوسف من مصر أتوا ولهم * من غيرتيه بها سلوى وامنان
لهم فلسطين ان يخرج عداتهم * عنها والاعدت بيض وخرصان
حتى بنيت رتاج القدس منفرجا * ويصعد الصخرة الغراء عثمان
واستقبل الناصر المحراب يعبد من * قد تم من وعده فتح وامكان
وجاز بعض بنيه البحر تجفل من * غارانه الروم والصقلاب واللان
حتى يوحد أهل الشرك فاطبة * ويرهب القول بالنالوث رهبان
ولابن أيوب في الافرنج ملحمة * دلت عليها أساطير وحسبان
ومن أحق بملك بالارض من ملك * كأنه ملك في الحلق حنان

ثم قال وأما القصيدة المتحية الناصرية فأولها

في باطن الغيب مالا تدرك الفكر * فذ والبصيرة في الاحداث يعتبر
ماني أرى ملك الافرنج في قفص * أين القواضب والعسالة السمر
والاسبتار الى الدواية التأموا * كأنهم سد يأجوج اذا استجروا
والنفس مولعة عجبا بسيرتها * وفي المقادير ما تسلى به السير
ياوقعة التل ما أبقيت من عجب * خافل لم يفت من جمعها بشر
وياضحى السبت ما للقوم قد سبتوا * تهودوا أم بكأس الطعن قد سكروا
وياضريح شعيب ما لهم جثموا * كمدين أم لقوا رجفا بما كفروا
حطوا بحطين ملكا كافيا عجبا * في ساعة زال ذال الملك والقدر
أهوى اليهم صلاح الدين مفترسا * وهو الغضنفر اعدى ظفره الظفر

املى عليهم فصار واوسط كفته * كسرب طير حواها القانص الذكر
وأنجز الله للسلطان موعده * ونذره فى كفور دينه البطر
وعاين الملك الابرنس فى ذمه * فات حياوحي وهو يعتذر
رأى مليكا ملوك الارض تتبعه * والنجم يخدمه والشمس والقمر
اذا بدأتبهر الاعيان هيبته * ويختفى وهو فى الاذهان مشتهر
تقدم الجيل فى أخرى الزمان به * على صدور علا من قبلنا صدروا
أما رأيتم فتوح القادسية فى * اكناف لوبية تجلى وذا عمر
والحق يعرس والطغيان منتحب * والكفر يطمس والايمان مزدهر
هذا المليك الذى بشرى النبى به * فى فتنة البغى للاسلام ينتصر
أنسى ملاحم ذى القرنين واعترفت * له الرواة بما لم يأته أثر
أعين اسكندر بالخضر وهوله * عون من الله يستغنى به الخضر
وصنع ذى العرش ابداع بلا سبب * فلا تقل كيف هذا الحادث الخطر
بيناسيا ياه تجلى فى دمشق اذا * ملك الفرنج مع الاتراك محتجر
ازاء زعماء الساحلين معا * مصفدين بحبل القهر قد أسروا
يتلوهم صلبوت سيق منتكسا * وحوله كل قسيس له زبر
ونحن فى ذا وذا طير صحيفته * بفتح عكا التى سدت بها الثغر
تغزوا اساطيلنا منها صقلية * فتذعر الروم والصقلاب والخزر
من ذا يقول لعل القدس منفتح * اليك بل سفر يعقوب له السفر
أبوا لمظفر ينويها فذ سفنا * من باب عكا الى طرطوش تنتشر
يسبى فرنجة من أقطارها وله * مع المجوس حروب قدحها سعر
وبعض أبنائه بالقدس منتدب * وبعضهم رومة الكبرى له وطر
براية تخرق الارض الكبيرة فى * جمع تقول له الاجسام لاوزر
قالوا أطلت مديحا فيه قلت كما * بدأت فالصب للمحبوب مذكر

وأما القصائد القدسيات التى له فنها التائية له وقد تقدم ذكرها ومنها القدسية الكبرى عددها مائة واثنان وخمسون بيتا أولها

تصاريف دهر اعربت لمن اهتدى * وبسطه أمر اغربت من تمردا
لسرعة فتح القدس سر مغيب * وفى صرعة الافرنج معتبر بدا
أتوا كجبال ابرمت لاسارنا * فسقناهم فيها قطينا مجددا
وساموا تجارا تشترينا غواليا * فبعناهم بالرخص جهرا على الندا
وجرواجيوشا كالسيول على الصوا * فأضت غثاء فى البطاح ممددا
وقالوا ملوك الارض طوع قيادنا * اذا الكل منهم فى القيود معبدا
وقد أقطع الكند العراق موقعا * فأودع سجنا وسط جلق مؤصدا
وأقسم أن يسقى بدجلة خيله * فعاد رد الاردن الامصفدا
فكم واثق خجلان قهقه خصمه * وكم سائق عجلان قهقر مقعدا
اتى الكند من اسپان يحمى قيامة * فكان تقضى ملكه قبل يبتدى
فما عقد الرايات الا محلل * ولا حل الرايات الا معقدا
ووقعة يوم التل اذ قبضت به * جبابرة الافرنج حيرى وشردا

عليهم من البلوى سرادق ذلة * ومن ذل ماتت نفسه فتقيدا
ترى المنسر الديوى يلقى سلاحه * وينساق مابين السبايا ملهدا
يباعون اسرا باشرائح احبل * كشلة عصفور من الريش جردا
فتلقى نصارى جلق فى ماءتم * يسرونها الاشجى وتنهدا
ألم تر للسلطان صدق نذره * دم الغادر الابرنس فاقتيد اربدا
وباشره بالقتل وسط جنابه * وعاينه الكند المليك فارعدا
وضاقت بنفس القمص الارض مهربا * فادركه الموت المفاجئ مكمدا
وماطرق الاسماع من عهد آدم * كلحمة التل التى تلت العدا
أتوا واديا مازال ينفى خبائثا * ويصفى بعقبى الدار طائفة الهدى
به جثمت أصحاب ليكة وهى فى * ذراه وذا فيه شعيب تأيدا
أرى الله فيه معجز النصر مخلصا * لامر صلاح الدين فى الناس مخلدا
واعدى جنود الرعب يردى عداته * وسلم جميع المسلمين مجندا
ومن عجب خمسون ألف مقاتل * سبتهم جيوش ليس فيها من ارتدى

وللرشيد بن بدر النابلسى

هذا الذى كانت الآمال تنتظر * فليوف لله أقوام بما نذروا
بمثل ذا الفتح لا والله ما حكيت * فى سالف الدهر أخبار ولا سير
حين به حان هلك المشركين فيا * لله طيب العشايا منه والبكر
الآن قرت جنوب فى مضاجعها * ونام من لم يزل حلفا له السهر
يابهجة القدس اذ أضحى به علم الـ * ـاسلام من بعد طى وهو منتشر
يانور مسجده الاقصى وقد رفعت * بعد الصليب به الايات والسور
شتان مابين ناقوس يدان به * وبين ذى منطق يصغى له الحجر
الله أكبر صوت تقشعر له * شم الذرى وتكاد الارض تنفطر
يامالك الارض مهدها فما أحد * سواك من قائم للهدى ينتظر
ما اخضر هذا الطراز الساحلى ثمرا * الا تعلو به اعلامك الصفر
أضحى بنو الاصفر الانكاس موعظة * فيها الاعدائك الآيات والنذر
صاروا حديثا وكانوا قبل حادثة * على الورى يتقيها البدو والحضر
سلبتهم دولة الدنيا وعيشتها * حتى لقد ضجرت من وفدهم سقر
هذا الذى سلب الافرنج دولتهم * وملكهم ياملوك الارض فاعتبروا
مر أكرما اختطاها الخوف مذ مائة * عاما ولا ربع أهلوها ولا ذعروا
ولا أصرح باسماء البلاد فقد * أسهبت والقائل المنطيق يختصر
يغنيك اجمال قولى عن مفصله * فى لفظة البحر معنى تحته الدرر

وهى طويلة وله من قصيدة أخرى

الم بدار الناصر الملك الذى * فى كفه للجود سبعة أبحر
فاذا مررت بملكه وفتوحه * فاسخر بما يروى عن الاسكندر
واذا بصرت بجاشه وبجيشه * فاحث التراب على ذؤابة سنجر

وللشهاب فتيان الشاغورى من قصيدة

كسرت على كسرى اعدلك دولة * قصرت مهابتها تطاول قيصر

اهدى صلاح الدين للاسلام اذ ❁ أدى قبيل الكفر مالم يكفر
رب الملاحم لم يؤرخ مثلها العلماء قدما فى قديم الاعصر
خلعت عليه خلعة الملك التى ❁ زيدت بهارا بالطراز الاخضر
راياته صفرا تؤود وتنثنى ❁ حمرا تميج بجيع آل الاصفر
لم لم تدن شوس الملوك له وقد ❁ ملك السواحل فى ثلاثة أشهر
واستنقذ البيت المقدس عنوة ❁ من كل ذى نجس بكل مطهر
وأريتهم لما التقى الجمعان بالـ ـبيت المقدس هول يوم المحشر
ورددت دين الله بعد قطوبه ❁ بالمسجد الاقصى بوجه مسفر
واعدت ما أبداه قبلك فاتحا ❁ عمر فانت شريكه فى المفخر
حتى جمعت لعشر الاسلام بين الصخرة العظمى وبين المشعر
فلصخرة البيت المقدس كفؤها الحجر المفضل عند أفضل معشر
فكأنه انسان عين صورة ❁ يلقاك اسوده بمعنى أنور

(فصل) فى حصار صور وفتح هونين وغير ذلك قال العماد ثم ان السلطان مازال مقيما بظاهر القدس يحقق الآمال ويفرق الاموال حتى وردت كتب سيف الدين على بن أحمد المشطوب وكان نائب السلطان بصيدا وبيروت وهما مجاورتان لصور فكتب يحرض السلطان على حصار صور فرحل السلطان عن القدس يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان وأخذ صوب عكا وسبقه اليها الافضل وتقى الدين وودع السلطان ولده العزيز وردده الى مصر فكان آخر عهده به واستصحب السلطان أخاه العادل فوصلا الى عكا مستهل رمضان فاصلح من شأنها ثم رحل فنزل على صور يوم الجمعة تاسع رمضان وخيم بازاء السور بعيدا منه على النهر ومعظم البلد فى البحر وهى مدينة حصينه متوسطة فى البحر كانها سفينه وكان المركيس الذى فى صور قد حفر لها خندقا من البحر الى البحر وبنى بواشيره واحكم فى التعمير تدبيره واستظهر بتكثير العدد والعدد واغتنم اشتغال السلطان بفتح القدس فاقام السلطان بتلك المنزلة على صور ثلاثة عشر يوما حتى تلاحقت الامداد وكثرت العدد والآلات الجهاد ورتبت المنجنيقات ثم حول السلطان مضاربه الى تل قريب من السور بشرف منه ثم حاصرهم وقابل كلا من الملوك بجانب يكفيه منهم الافضل والعادل وتقى الدين بالحصروهم وضايقوهم ووصل فى تلك الايام من حلب الملك الظاهر غازى ولد السلطان بعسكره الحلبى فاستظهر السلطان به واستدعى الاسطول المصرى وكان بعكا فجاء منه عشرة شوانى وكان للفرنج فى البحر مراكب وحراريق وفيها رماة الجروخ والزنبوركات يرمون من دنا من البحر فلما جاء اسطول السلطان استطال عليها وأبعدها فاحاط بهم المسلمون وقاتلوهم برا وبحرا فبينما هم فى أحلى ظفر واهنأ ورد وصدر اذ ملك الفرنج خمسة من شوانى المسلمين وأسروا مقدميها ورئيسها عبد السلام المغربى ومتوليه بدران الفارسى وألقى جماعة أنفسهم فى البحر من ناج وهالك وذلك انهم سهروا تلك الليلة بازاء مينا صور الى السحر ثم غلبهم النوم فما انتبهوا الا والفرنج قد ركبتهم ونكبتهم فاصبح المسلمون وقد انفلوا وأتاهم من الامر مالم يعلموا ونفذ السلطان الى المراكب الباقية ان يسيروا الى بيروت وخاف عليها القلتها ان يستولى عليها عبدة الطاغوت فنجا منها شيني رئيس جبيل والباقون نظروا الى الفرنج ورآءهم فالقوا أنفسهم فى الماء وخرجوا الى البر على وجوههم ثم ان الفرنج بعد هذا طمعت فخرجت يوما وقت العصر مستعدة للقتال فالتقاهم المسلمون فكانت الدائرة على الكافرين وأسر مقدم كبير لهم وظن انه المركيس فسلمه السلطان الى ولده الظاهر ليحفظه فضرب عنقه وكان الليل قد دخل فلما أصبحوا تبين لهم ان المركيس بعد فى الحياة فطال حصاره حتى ضجر كثير من أمراء المسلمين لانهم رأوا مالم يألفوه من تعسر الفتح عليهم فاشاروا على السلطان بالرحيل لئلا تفنى الرجال وتقل الاموال وكان البرد قد اشتد عليهم وكان راى السلطان والاتقياء من الامراء كالفقيه عيسى وحسام الدين طمان وعز الدين جرديك النورى الثابت الجنان الى الفتح لئلا يضيع ما تقدم من الاعمال وانفاق الاموال وقال السلطان قد هدمنا السور وقاربنا الامور فاصبروا تفلحوا وصابروا تفتحوا ولا تجلوا

فاظهروا الموافقة وفى أنفسهم مافيها فلم يصدقوا القتال وتعللوا بان الرجال جرحى والعلوفات قد قلت فلم يسع السلطان بعد ذلك الا الرحيل فامر بنقل الاثقال فحمل بعضها الى صيدا وبيروت وأحرق الباقى لئلا يناله العدو ورحل فى آخر شوال وهو أول يوم من كانون الاول وسار تقى الدين الى دمشق على طريق هونين واستصحب معه عساكر الشرق وديار بكر والموصل والجزيرة وسنجار وماردين ورحل السلطان الى عكا فوصلها فى ثلاث مراحل لانه سلك طريق الناقورة وهى طريق ضيقة مطلة على البحر بها يضرب المثل لا يعبر بها الا جمل جمل فعبرت بها الاثقال والاجمال فى اسبوع وكان عين يوم رحيله من صور أمراء يقيمون عليها الى ان يعرفوا عبور الثقل وخيم السلطان عند التل وسار العادل الى مصر والظاهر الى حلب وبدر الدين دلدرم اليا روقى الى بلاده قال وفى مدة رحيل السلطان عن صور جاءه خبر سيف الدين محمود أخى عز الدين جاولى انه استشهد فى عفر بلا تحت حصن كوكب كبسه الفرنج فيها ليلا وذلك انه كان قد بقى على السلطان بعد ما فتح من بلاد العدو من جملة اعمال طبرية والغور حصنا صفد وكوكب وكان فى صفد جهرة الداويه وفى كوكب جهرة الاسبتاريه فاحتاج السلطان فى فتحهما الى المطاولة فوكل بصفد جماعة يعرفون بالناصرية مقدمهم مسعود الصلتى ووكل بكوكب هذا الامير سيف الدين محمود افاقام فى حصن عفربلا وهو قريب من حصن كوكب ونغص على المقيمين فيه المطعم والمشرب وضيق عليهم المذهب الى ان دخل الشتاء فاختلت الحراسه واعتلت السياسه فلما كانت ليلة آخر شوال وكانت ليلة باردة ماطره حرس أصحاب سيف الدين حتى ضجروا فغلبهم النعاس فاستيقظوا الا وفرنج كوكب عليهم باركه فدافعوا عن أنفسهم حتى استشهدوا وأخذ الفرنج غنيمة المسلمين ودخلوا بها كوكب وكان هذا الامير محمود ذا دين متين ومكان من النسك مكين وهو يسهر أكثر ليله متهجدا وقد جعل منزله مسجدا فجمع بين التهجد والجهاد وكان كثير الاجتهاد فاغتم السلطان بمصابه وزاد تألما الى مابه وتقدم الى صارم الدين قايماز النجمى ان يرابط كوكب فى خمسمائة فارس ففعل ولم يزل بها الى ان فتحت كما سيأتى قال وفتحت هونين والسلطان محاصر صور وكان لما فتح تبنين قد امتنعت عليه هونين فوكل بها من رابطها وضايقها حتى طلبوا الامان وجاء خبرها الى السلطان وهو على صور فنفذ الامير بدر الدين دلدرم ففتحها وخرج الفرنج منها سالمين آمنين وكان قد بقى أيضا من عمل صيدا قلعة أبى الحسن وشقيف ارنون وأقام السلطان بظاهر عكا ناظرا فى أمور رعيته ثم دخلها وسكن بالقلعة الافضل برج الداويه وولى عكا عز الدين جرديك ووقف دار الاسبتار نصفين نصفا على الفقهاء ونصفا على الصوفيه ووقف دار الاسقف بيمارستانا ووقف على كل من ذلك كفايته وأظهر به عنايته وسلم جميع ذلك الى قاضيها جمال الدين ابن الشيخ أبى النجيب وهو فى ذلك مصيب

(فصل) فى ورود رسل التهانى من الآفاق وقدوم الرسول العاتب من العراق قال العماد ووردت رسل الآفاق من الروم وخراسان والعراق وكلهم يهنئ السلطان بما أفرده الله به من الفضيله وأقدره عليه من نجح الوسيله وهو فتح القدس الذى درجت على حسرته القرون الاولى وتقاصرت عنه أيديهم المتطاولة وتمكنت منه يده الطولى فامنهم الامن يعترف بيمنه ويغترف من يمه ويقر بحكم التنزيل له ويتنزل على حكمه ويخطب بصداقته ويتقرب بالوفاء والوفاق ويتباعد عن الشقاء والشقاق فمن جملتهم رسول صاحب الرى ورسول المستولى على ممالك همدان واذربيجان وازان فما من يوم يمضى وشهر ينقضى الا ويصل منهم رسول ويتصل به سول وذكر العماد فى البرق انه وصل الى السلطان وهو بعكا رسول أتابك مظفر الدين قزل ارسلان وهو عثمان بن أتابك ايلدكز المستولى على بلاد العجم بعد أخيه البهلوان ثم ذكر من خرقه فى كرمه شيئا كثيرا ثم قال وهذا كله لا يكون فى بحر سلطاننا جدولا كان السلطان مذهب المذهب ظاهر المحفل والموكب قد خصه الله بالصدر الارحب والنصر الاغلب عزمه الى الجهاد مصروف وخلقه بالمعروف مغروف وهمه بالسماح مشغوف مايفتحه بالسيف فى البلاد يهبه لمن يضرب معه بالسيف فى الجهاد وللخالق تقواه وللمخلوقين جدواه وانما يريد للآخرة دنياه فلاجرم ختم الله بالحسنى عقباه قال ولم يكن فى الملوك السالفة أمضى منه عزما وأجدى فضلا وأعم جدوى واكمل جهدا فى الجهاد واملك جلدا على الجلاد فانه باشر بنفسه الحرب ومارس الصعب وقذف بالحتف حين حققه على

الباطل

الباطل فازهقه ولاحد ولاعد لما في سبيل الله من نفائس النفوس والاموال انفقه ومن أول هذا العام الى منتهاه لم يخف لورده لبد ولم ينضب من ورده عد ولم يقر له جنب بل لقي في فصلي القيض والقر مض الحر وعض البرد بحر وجهه الكريم وقضى حق الدين موفيا بصدق غرامه حق الغريم وكل ماتم من النصر يوم حطين وفتح القدس وتسلم بلاد الساحل انما تسنى بشهر سيفه في فصل الصيف وشهوره واستظهاره بظهور الاسلام وشد ظهوره وأنشد العماد للقاضي الفاضل في وصف اسيافه

ماضيات على الدوام دوامي ❁ هي في النصر نجدة الاسلام
في يمين السلطان ان جردتها ❁ أشبهتها صواعق في غمام
تنثر الهام كالحروف فما أشـ ـبهه هذي السيوف بالاقلام
في محاريب حربه البيض صلت ❁ وركوع الظبي سجود الهام

وذكر من كلامه في التوسط بين الاصدقاء (ما ادخل بينكم الاكدخول المرود في الاجفان يرد اليها ماذهب منها من النور والغمض او كانسجم بين الاغصان يعطف بعضها على بعض)

قال العماد ووصل أخي تاج الدين أبو بكر حامد من دار الخلافة برسالة في العتب على احداث ثقلت وأحاديث نقلت، ووشايات أثرت وسعايات في السلطان شعثت وذلك في شوال ونحن على حصار صور وسبب ذلك انه لما تم الفتح الاكبر وخمص وعم النجح الاظهر وقطع دابر المشركين وحط اقبال المسلمين أوزار الكفر بحطين أمرني السلطان بافشاء كتب البشائر الى الآفاق وتقديم البشرى به الى العراق فقلت هذا فتح كريم ومنح من الله عظيم فلا ينبغي ان يكون مبشر دار الخلافة بما أنزله الله علينا من الرحمة والرافه الا من هو عندنا أجل وأجلى وأعلم وأعلى وأجمع لفنون الفضائل وأعرف باداء الرسائل فلا يرفع العظيم الا بالعظيم الرفيع فان الشريف يتضع شرفه بمقارنة الوضيع فقال هذه نصرة مبتكره وموهبة مبشره بدرت وندرت فنحن نعجل بها بشيرا ونؤخر للاجلال كما ذكرت سفيرا وكان في الخدمة شاب بغدادي من الاجناد قدهاجر للاستفاد وتوجه بعد وصوله وتنبه بعد خموله فسأل في البشارة الى بغداذ وزعم انه يداوم اليها الاغذاذ وشفع له جماعة من الاكابر حتى حظي باشرف البشائر فعلت هذا لايحصل له وقع ولايصل اليه نفع والواجب ان يسير في مثل هذا الخطير خطير ويسفر في هذه النصرة الكبرى كبير ثم سار المندوب وشغلت عن ارسال سواه الفتوح والحروب ولما فتح البيت المقدس أرسل ببشارته نجاب ونفذ بها كتاب ووصل البشير الجندي فحقروه وماوقروه فانه كان عندهم منظورا بعين الاحتقار فنظروه بتلك العين وحبوه بما يليق به من النقد والعين وتقدم على السلطان أرسال مثله وتسمح المندوب بكلام أخذ عليه وبدر منه أحاديث نسبت اليه وقال في سكره وحالة نكره مانعرض عن ذكره تخيل وموه وتنكر وتكره وظن ان لكلامه أصلا وللفظه مناوصلا وانهيت الى العرض الاشرف مقالاته وعلمت جهالاته وتجنى على السلطان بارساله وطرق الى هداه ما انكروه من مقال المذكور وضلاله ووجد الاعداء حينئذ الى السعاية طريقا وطلبوا الشمل استسعادة بالخدمة تفريقا واختلقوا أضاليل ولفقوا أباطيل وقالوا هذا يزعم انه يقلب الدوله ويغلب الصوله وانه يعت بالملك الناصر نعت الامام الناصر ويدل بماله من القوة والعساكر فاشفق الديوان العزيز على السلطان من هذه وبرز الامر المطاع بارسال أخي وانفاذه وقالوا هذا تاج الدين أخو العماد تكمل لنا في كشف سر الامر بالمراد فان أخاه هناك مطلع على الاسرار وهو منتظم في سلك الاولياء الابرار وعول عليه الديوان في السفاره وردمعه جواب البشاره وكتب له يذكره بموجبات مقاصد العتب ومكدرات موارد القرب والمخاطبة فيها وان كانت حسنة خشنه والمعاتبة مع شدتها للعواطف الامامية لينه فسار الاخ الى دمشق وكان قد عاد المندوب نادبا عاديا جاحد النعمة شاكيا وقال أخو العماد قد وصل بكل عتب وغضب ولفظ فظ ومعه الملامات المؤلمات فقلت له اسكت واصمت وقلت للسلطان سمعا وطاعة لامر الديوان فان اظهار سر العتب لك من غاية الاحسان فقال نعم ماقلت ولما قرب أخي أصبحت لقدومه انتحي فأمر السلطان الامراء على مراتبهم باستقباله وتقدم لجلالة قدومه باجلاله وتلقاه الملوك الحاضرون العادل والمظفر والافضل والظاهر

ثم ركب وتلقاه بنفسه وخصه من تقريبه بأنسه ولم يزل حتى أراه مواضع الحصار ومصارع الكفار ثم نزل وأنزله بالقرب ثم أحضره وقد أخلى مجلسه لى وله وحده فأدى الامانة فى مشافهته ووجه مقاصده فى مواجهته وأحضر التذكره وقد جمعت المعرفة والنكره فقرأتها عليه وكانت فى الكتب غلظة عدت من الكاتب غلطه وخيلت سقطه وجلبت سخطه وقال ان الامام أجل من أن يأمر بهذه الالفاظ الفظاظ والاسجاع الغلاظ فقد أمكن ايداع هذه المعانى فى ارق منها لفظا وأرفق وأوفى منها فضلا وأوفق معاذ الله أن يحبط عملى ويهبط أملى وامتعض وارتمض ثم اعرض عما عرض ورجع الى الاستعطاف وانتجع بارق الاستعاف وقال أما ما تحمله الاعداء وعدابه المتحملون فما عرف منى الا الاعتراف بالعارفه وذكر السلطان أياديه السالفه فى الفتوحات واقامة الدعوة العباسيه بمصر واليمن وازالة الادعية وابادة الاعداء وفتح البيت المقدس قال وأما النعت الذى أفكر ونبه على موضع الخطاء فيه وذكر فهذا من عهد الامام المستضئ والآن كل ما يشرفنى به أمير المؤمنين من السمة فانه اسمى لى من الذى هو اسمى وأشرف وأرفع واعرف وما عزمى الا استكمال الفتوح لامير المؤمنين وقطع دابر المنافقين والمشركين ثم ندب مع أخى من سار فى خدمته لزيارة القدس ثم ودعه واودعه من شفاهه كل ما فى النفس وظهرت بعد ذلك بالقبول آثار الرضى ومضى ما مضى وكان جماعة من المملوك والامراء كالعادل ومظفر الدين قد ونحوه لما قيل فى حقه وأرادوا ان يغضبوه فما غضب بل غاض غيظه ونضب وتلقى ذلك بصدر رحيب ولفظ مصيب قلت ووقفت على كتاب كتبه الصاحب قوام الدين ابن زياده من الديوان العزيز ببغداد الى السلطان صلاح الدين وكان قوام الدين يومئذ استاذ الدار العزيزه يقول فيه (لولا مكان صلاح الدين من الخدمة والشبه به والمنافسة فيه لما جوهر بالعتاب ولا رفع دونه الحجاب بل كان يترك معه الامر على اختلاله ويدمل الجرح على اعتلاله وقد ذكرت الاسباب التى أخذها الديوان العزيز عليه واستغرب وقوعها من كماله ليوعيها سمعه الكريم ويستورى فيها رأيه الاصيل وينصف فى استماعها والاجابة عنها غير عارج على الجدل ولا مؤتم بامراء المذمومين عقلا وشرعا بل يحمل قولى هذا على سبيل المناصحة والانتصاح وصدق النية فى رأب التنائى والاصلاح فان ابحار الدواء المقر لا يتهم فيه الطبيب المجتلب للعافيه) ثم ذكر من تلك الامور (ان من انتفى من العراق بسبب من الاسباب لجأ الى صلاح الدين فوجد عنده الاقبال عليه وكان الادب يوجب ابعاد من ابعد عنه وتقريب من قرب اليه) ثم قال (وان مما أضحك بثغر الاستعبار ما انتهى عن العوام واشباه الانعام وطغام الشام من الخوض فى المذاهب والانتهاء فى التشيع الى اختلاف كل كاذب ومنها ما جرى من سيف الاسلام بالحجاز من ازعاج الحجاج وارهاج تلك الفجاج والاقدام على مناسك الله وشعائره وأيقاد سعير الفتنة فيها ونوائره واحتذاء السيرة القاسطه واحياء بدع القرامطه مما نفر منه كل طبع ومجه كل سمع فكيف جاز لصلاح الدين ان يرخى عنان أخيه فيما يقترض سوابقه وأواخيه ومنها ما قضى الناس منه العجب وفورق فيه الحزم والادب وهو ما اوجب التلقب باللقب الذى استأثر به أمير المؤمنين) ثم قال (وقد ساوق زمان الدولة العباسية ثبتها الله خوارج دوّخوا البلاد وأسرفوا فى العناد وجاسوا خلال الديار وأخافوا المسالك واستضاموا الممالك واقتحموا من الشقاق أشق المهالك فما انتهى أحدهم فيما احتقب وارتكب الى المشاركة فى اللقب ومن الحكم الذائعة فى وجيز الكلام الذى يصلح للمولى على العبد حرام ومنها مكاتبة كل طرف يتاخم أعمال الديوان من مواطن التركمان والاكراد ومراسلتهم ومهاداتهم وقرع اسماعهم بما يعود باستزلال أقدامهم وفل عزائمهم وهم لا يعرفون الا انهم رعية للعراق وخول للديوان يرثون الطاعه خالفا عن سالف) ثم قال فى آخر الكتاب (وهذا كله لا أقوله انكارا لجلائل مقامات صلاح الدين ومشاهير مواقف جهاده فى سبيل المؤمنين فانه أدام الله علوه رجل وقته ونسيج وحده والمربى على من سلف من صنائع الدولة وعلى من يأتى من بعده وهو الولى المخلص الذى عهد وفوفا واستكفى فكفا وطب فشفا فكيف يجوز له بسعادته ان يهجن مساعيه الغرّ المحجله ويخرج من مكانته المكرمة المجله ويطل حقوقه الثابتة المسجله) ثم قال (فقد علم كل من نظر فى التواريخ والاثار ونصحته بصيرته فى التبصر والاعتبار ان هذا البيت العظيم ما زال يرفع الاقدار الخاملة فينزون عليه بطرا فيغار الله له منتصرا ويعقبه عليهم اظفارا

وظفرا كدأب آل طولون وآل سامان وآل بويه وآل سلجوق وقرونا بين ذلك كثيره فمن الذى زلزلوه فثبت ومن الذى حصدوه فنبت وأى نار اوقدوها فما خبت) ثم قال فى آخره (اللهم قد بلغت وللرأى الصلاحى ما يزيد علوه ان شاء الله تعالى) وذكر ابن القادسى ان الجندى الذى أرسله صلاح الدين بالبشارة يعرف بالرشيد بن البوشنجى قال وكان صبيا كثير الادبار مشمرا فى دروب بغداد ثم توجه الى الشام هاربا من الفقر فحين وصل الى بغداد رسولا قامت القيامة بمراسلته وكتب الى صلاح الدين بالانكار عليه وقيل له اما كان فى أصحابك أميز من هذا ترسله الى الديوان فاعتذر صلاح الدين ووصلت كتبه بالاعتذار وقبل عذره وأما ابن البوشنجى فانه حين وصوله الى الشام أكثر الكلام عند صلاح الدين فأنكر ذلك عليه فلما مضى الاسبوع جاءته نشابة فذبحته

(فصل) فى باقى حوادث سنة ثلاث وثمانين فيها قتل الامير شمس الدين ابن المقدم وهو محمد بن هبد الملك يوم عرفة بها قال العماد وكان السلطان لما فرغ من فتح القدس ودنا موسم الحج قال الموفقون نحرم من المسجد الاقصى الى المسجد الحرام ونفوز بالحج مع ادراك فضيلة فتح بيت المقدس فى هذا العام فالحج والجهاد كنا الاسلام فاجتمع جمع جم من أهل ديار بكر والجزيرة والشام وسار بهم الامير شمس الدين ابن المقدم شيخ أمراء الاسلام الكرام فودعه السلطان على كره من مفارقته واستمهله ليحج فى السنة الاخرى على مرافقته فقال ما معناه ان العمر قد فرغ والامر قد بلغ والشيب قد أنذر والفرض قد أعذر فاغتنم فرصة الامكان قبل ان يتعذر فمضى والسعادة تقوده والشهادة تروده حتى وصل الى عرفات وما عرف الآفات وشاع وصوله وذاع قفوله وضربت طبوله وسالت سيوله وحالت خيوله وضربت خيامه وخفقت اعلامه فلما أصبحوا نفرت كالعادة بقاراته ونعرت بوقاته فغاظ ذلك أمير الحاج العراقى فركب اليه فى احزابه فأوقع به وبأصحابه وابلاهم بجراحه ونهابه وجرى حكم الله الذى كان الطبل أوكد اسبابه وقتل جماعة من حاج الشام وجرحوا وهتكت أستارهم وافتضحوا ونقل أمير الحاج طاشتكين شمس الدين ابن المقدم الى خيمته وهو مجروح وفيه روح وحمله معه الى منى فقضى ودفن بالمعلى وتم ذلك بقضاء الله وقدره فى تقلب حوادث الدهر وغيره وارتاع أمير الحاج بما اجترمه وكيف لم يراقب الله وأحل حرمه وكيف عدا على الحاج العائذ بالله وسفك دمه فكتب محضرا على ما اقترحه بعذره فيما اجترحه والزم اعيان الحاج من سائر البلاد بوضع خطوطهم على ما عينه من المراد فكتبوا مكرهين غير منتهين وكان عذره انه أنكر عليه ضرب الطبل فأبى فلما انتهت الحالة الى الخليفة أنكرها انكارا شديدا ونسبها الى طيش طاشتكين ولم يجد له رأيا سديدا فلاجرم اتضع عنده قدره واتضح له وزره ووهى أمره وادخرها له حتى نكبه بها بعد سنين وحبسه بها وأطال سجنه ثم عفا عنه بعد مدة مديده وشدة شديده وولاه حرب بلاد خوزستان وخراجها وولى امارة الحاج غيره ولما وصل الى السلطان خبر استشهاد ابن المقدم وجماعته لامه على ترك الحزم واضاعته فاحتسبه عند الله غازيا شهيدا ساعيا الى الجنة بقدمه سعيدا وأقام ابنه عز الدين ابراهيم فى بلاده مقامه وأقر عليه انعامه وقال محمد بن القادسى فى تاريخه ونقلته من خطه أراد أمير الحاج بالشام وهو ابن المقدم أن يرفع علما على الجبل بالموقف فمنعه أمير الحاج طاشتكين وجرت بينهما مراجعات افضت الى الخصومة بين حاج العراق وحاج الشام ونهب البعض البعض وجرت جراحات فجرح ابن المقدم ولم يغير العادة فى ذلك ومات ابن المقدم بمنى فى اليوم الثانى ووصلت النجابة من مكة فأخبروا بما جرى من أصحاب ابن المقدم وقد شهد الشهود بذلك من الحجاج فقرئ ذلك بجامع القصر الشريف قال وفى ثانى شوال من هذه السنة توفى أبو الفتح محمد بن عبيد الله بن عبد الله سبط ابن التعاويذى الشاعر وكان كاتبا بديوان المقاطعات وخدم بيت ابن رئيس الرؤسا وأضر فى آخر عمره ومولده عاشر رجب سنة تسع عشرة وخمسمائة قال وفى خامس رمضان توفى الفقيه الحنبلى أبو الفتح نصر بن فتيان بن مطر المعروف بابن المنى وكان فقيها زاهدا صالحا عالما مولده سنة احدى وخمسمائة وتفقه عليه جماعة من أئمة الحنابلة كالحافظ عبد الغنى بن عبد الواحد بن سرور وأخيه براهيم والشيخ الموفق عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة ومحمد بن خلف بن راجح والناصح عبد الرحمن بن نجم بن عبد الوهاب وعبد الرزاق بن الشيخ عبد القادر الجيلى وغيرهم

(ثم دخلت سنة أربع وثمانين) قال العماد خرج السلطان من عكا فنزل على كوكب فى العشر الاوسط من المحرم فحاصرها وصابرها أياما فلم يتمكن منها لمنعتها وحصانتها وراء تحتاج الى طول مصابرة ومرابطه ولم يكن معه جميع أمرائه وأولياءه وانما كان فى خواصه فوكل بها قايماز النجمى ووكل بصفد طغرل الجاندار كل واحد منهما فى خمسمائه وسيرا الى الكرك والشوبك سعد الدين كمشبه الاسدى وكانت هذه الحصون الاربعة ضيقة المسلك صعبة المدرك قال ثم ان السلطان اشتغل بلقاء الرسل الواصلين من جملتهم رسول صاحب آمد قطب الدين سكمان ابن نور الدين محمد بن قزل ارسلان وكانوا خائفين على آمد أن يسترجعها منهم السلطان لانها كانت لهم من مواهبه كما سبق فاستوثقوا بالوصلة باحدى بنات العادل وكان العادل قد وكل أخاه السلطان فى ذلك لما سار الى مصر وقدم رسولهم فى ذلك فتمت الوصلة بينهما قال وأول من وصل والسلطان بكوكب اختيار الدين حسن بن غفراس مدبر دولة قليج ارسلان بالروم وكان هذا الرسول مغرى بلبس الحلى والديباج والوشى فى يديه زنود وخواتيم مرصعة بزينة ثقيلة بجواهر ويواقيت ثمينة وفى عقود هادرة يتيمة وفى يده عمود من العسجد وكل عدته تبرها مجوهر وكان اذ شاهده السلطان تبسم وعامله بخلقه وقال هذا سافر بضاره لينظر وبدينار ليبصر وقال القاضى ابن شداد لما دخلت سنة أربع وثمانين رأى السلطان الاشتغال بأخذ هذه الحصون الباقية التى لهم مما يضعف قلوب من فى صور ويهيى أمرها فاشتغل بذلك ونزل رحمه الله على كوكب فى أوائل المحرم وكان سبب بداءته بكوكب انه كان قد جعل حولها جماعة يحفظونها من أن يدخل اليهم قوة أو حماة فخرج الفرنج ليلا وأخذوا غرتهم وكبسوهم بعقر بلا وقتلوا مقدمهم وكان من الامراء يعرف بسيف الدين أخى جاولى وأخذوا أسلحتهم فسار رحمه الله من عكا ونزل عليها بمن كان معه من خواصه بعكا فانه كان قد أعطى العساكر دستورا ولقى فى طريقه شدة من الثلج والبرد فحملت السلطان مع ذلك الحمية على النزول عليها وأقام يقاتلها مدة قال وفى تلك المنزلة وصلت الى خدمته فانى كنت قد حججت سنة ثلاث وثمانين وكانت وقعة ابن المقدم وجرح يوم عرفة على عرفة لخلف جرى بينه وبين أمير الحاج طاشتكين على ضرب الطبول والدبدبة فان أمير الحاج نهاه عن ذلك فلم ينته ابن المقدم وكان من أكبر أمراء الشام وكان كثير الخير كثير المغزاة فقدر الله انه جرح بعرفة يوم عرفه ثم حمل الى منى مجروحا فمات بمنى يوم الخميس يوم عيد الله الاكبر وصلى عليه فى مسجد الخيف فى بقية ذلك اليوم ودفن بالمعلى وهذا من أتم السعادات وبلغ ذلك السلطان قدس الله روحه فشق عليه قال ثم اتفق لى العود من الحج على الشام لقصد القدس وزيارته والجمع بين زيارة النبى صلى الله عليه وسلم وزيارة أبيه ابراهيم عليهما الصلاة والسلام فوصلت الى دمشق ثم خرجت الى القدس فبلغه خبر وصولى فظن انى وصلت من جانب الموصل فى حديث فاستحضرنى عنده وبالغ فى الاكرام والاحترام ولما ودعته ذاهبا الى القدس خرج الى بعض خواصه وأبلغنى تقدمه الى بأن أعود أمثل فى خدمته عند العود من القدس فظننت انه يوصينى بهم الى الموصل وانصرفت الى القدس الشريف يوم رحيله عن كوكب ورحل رحمه الله لانه علم ان هذا الحصن لا يؤخذ الا بجمع العساكر عليه وكان حصنا قويا وفيه رجال شداد من يقايا السيف وميرة عظيمة فرحل الى دمشق وكان دخوله اليها فى سادس ربيع الاول وفى ذلك اليوم اتفق دخولى الى دمشق عائدا من القدس فأقام رحمه الله فى دمشق خمسة أيام وكان له غائبا عنها أربعة عشر شهرا قال وفى اليوم الخامس بلغه خبر الفرنج انهم قصدوا جبيل واغتالوها فخرج منزعجا ساعة بلوغ الخبر وكان قد سير الى العساكر ليستدعيها من سائر الجوانب وسار يطلب جبيل فلما عرف الفرنج بخروجه كفوا عن ذلك وكان بلغه وصول عماد الدين وعسكر الموصل ومظفر الدين الى حلب قاصدين الخدمة للغزاة فسار نحو حصن الاكراد فى طلب الساحل الفوقانى ولما كان مستهل ربيع الآخر نزله على تل قبالة حصن الاكراد ثم سير الى الملك الظاهر ولده والملك المظفر بأن يجتمعا وينزلا بتيزين قبالة انطاكية لحفظ ذلك الجانب ففعلا وسارت عساكر الشرق حتى اجتمعت بخدمة السلطان فى هذه المنزلة ووصلت اليه رحمه الله فى هذه المنزلة فانه كان قد سير الى دمشق يقول تلحقنا نحو حمص فخرجت على عزم المسير الى الموصل متجهزا لذلك فوصلت اليه امتثالا لامره فلما حضرت عنده فرح بى وأكرمنى وكنت قد جمعت له كتابا فى الجهاد بدمشق مدة مقامى فيها بجميع آدابه وأحكامه فقدمته بين يديه

فأعجبه وكان يلازم مطالعته ومازلت أطلب دستورا فى كل وقت وهو يدافعنى عن ذلك ويستدعينى للحضور فى خدمته فى كل وقت ويبلغنى على ألسنة الحاضرين ثناؤه علىّ وذكره اياى بالجميل فأقام فى منزلته تلك شهر ربيع الآخر اجمع وصعد فى أثنائه الى حصن الاكراد وحاصره يوما يجسه به فما رأى الوقت يحتمل حصاره واجتمعت العساكر من الجوانب وأغار على بلد طرابلس فى هذا الشهر دفعتين ودخل البلاد مغيرا ومختبرا لمن بها من العساكر وتقوية للعساكر بالغنائم ثم نادى فى الناس فى أواخر الشهر انا داخلون الى الساحل وهو قليل الازواد وهو محيط بنا فى بلاده من سائر الجوانب فاحملوا زاد شهر ثم سير الىّ مع الفقيه عيسى وكشف لى انه ليس فى عزمه أن يمكننى من العود الى بلادى وكان الله تعالى قد أوقع فى قلبى محبته منذ رأيته وحبب الجهاد فاحببته الى ذلك وخدمته من تاريخ مستهل جمادى الاولى وهو يوم دخوله الساحل الاعلى وجميع ما حكيته من قبل انما هو روايتى عمن أثق به ممن شاهدوه ومن هذا التاريخ ما أسطر الا ما شاهدته أو أخبرنى به من أثق به خبرا يقارب العيان والله الموفق

(فصل) قال العماد كان جماعة من أهل الحزم وأولى العزم قد أشاروا على السلطان لما فتح عكا بتخريبها وتعفية آثارها وان يبقى المرابطون المحامون مكانها فلا تأمن عود الفرنج اليها وتملكها وان تبنى قلعة القيمون فكاد يجيب فقيل له هذه مدينة كبيرة وعمارة كثيرة وأشير عليه بتبقيتها وان تعمر وتحصن فولى أمر عمارتها وتدبيرها الامير بهاء الدين قراقوش وهو الذى أدار السور على مصر والقاهرة فاستدعاه من مصر وأمره أن يستنيب فى تلك العمارة فقدم عليه وهو بكوكب ففوض اليه عمارة عكا فشرع فى تجديد سورها وتعلية ابراجها وكان قدم من مصر ومعه اساتيذ العمل وانفاره وآلاته ودوابه وابقاره قال ولما رتب السلطان على كوكب رحل مستهل ربيع الاول ودخل دمشق فى سادسه وكان العسكر الغائب على مواعدة المعاودة فى الربيع وانه يجتمع على حمص بالجمع وكان طريق السلطان على بحيرة طبرية من شرقيها وتجنب عقبه قبق لاستصعاب رقيها ولما قارب السلطان دمشق تلقاه الناس أحسن لقاء فقد كانوا متعطشين الى رؤيته ومتشوقين الى طلعته لانه غاب عنهم سنة وشهرين وخمسة أيام فكسر فيها الكفر ونصر الاسلام وفتح فيها الارض المقدسة واشباهها من البلاد التى كانت باوضار الكفر منجسه فأصبحت بالايمان مؤسسه فلما استقر قراره أمر بانشاء الكتب لاستدعاء الاجناد من الجهات للجهاد من سائر البلاد وابتدأ بالجلوس فى دار العدل وبحضرته القضاة والعلماء من أهل الفضل قال وكان السلطان قد ولى دمشق بدر الدين مودودا المعروف بالشحنه وهو أخو عز الدين فرخشاه لامه وفوض اليه فى هذه الايام ولاية الديوان وكان مع الصفى ابن القابض فبقيت معه الخزانة وحدها وكان الصفى قد بنى للسلطان دارا مطلة على الشرفين بالقلعة وانفق عليها أموالا كثيرة وبالغ فى تحبيرها وتحسينها وظن انها تقع من السلطان بمكان فما أعارها طرفا ولا استحسنها وكانت من جملة ذنوبه عند السلطان التى أوجبت عزله عن الديوان وقال ما يصنع بالدار من يتوقع الموت وما خلقنا الا للعباده والسعى للسعاده وما جئنا دمشق لنقيم وما نروم ان لا نرحم قال ثم هم بالغزاة فبدأ بزيارة القاضى الفاضل وكان مقيما بجوسق أين الفراش بالشرف الاعلى فى بستانه فاستضاء برأيه فيما يريد فعله وكان لا يأتى أمرا الا من بابه فاقام عنده الى الظهر ثم ودعه ورحل قلت وما أحسن ما قال ابن الذروى فى الاراء الفاضلية من قصيدة مدحه بها

لرأيك هذا النصر للدين ينتمى ❁ فلا ينتحله كل عضب ولهذم
وان كان فيه للاسنة والظبى ❁ مساعدة فالفضل للمتقدم
تشير على الاسلام منك فراسة ❁ لها حزم طب واحتراز منجم
وتحميه ألفاظ لديك كأنها ❁ قواطع بتر او نوافذ اسهم
الا حبذا فتح نشرت لواءه ❁ وقلت لخيل الله يا خيل اقدمى
وقمت وقد نام الانام مناجيا ❁ بمولاى نجّ المسلمين وسلم

(فصل) فى دخول السلطان رحمه الله الساحل الآخر وفتح ما يسره الله تعالى من بلاده قال العماد ثم رحل السلطان فسلك فى جبل نبوس الى عين الجر الى الدلهمية على البقاع واتى بعلبك وخيم بمرج عدوسة ثم رحل على

سمت اللبوة ثم أتى الدرّاعه ووصل الخبر بوصول عماد الدين صاحب سنجار في جموعه وجنوده ونزوله على قدس من عمل حمص على نهر العاصي ولما ترا آى موكبه لموكب السلطان تقابل القمران وتقارن النيران واجتمع السعدان وسعدا الجمعان فخيم السلطان عند مخيمه وسأل ان يزوره السلطان بموكبه فاجاب دعوته ثم رتب السلطان يوما لحضوره عنده وتهاديا وتصافيا وكان أيام المشمش وقد وصل من دمشق فافرح قدومه وطلعت في ابراج الاطباق نجومه كأنها كرات من التبر مصوغه وبالورس مصبوغه صفر كأنها ثمر الرايات الناصرية حلا منظرا وذوقا ولو نظم جوهره لكان طوقا كأنما هو خرط من الصندل وخلط بالمندل ومجد من الثلج والعسل وتصاحب هو والسلطان في الركوب والجلوس والتناجي بما في النفوس وتكررت المشاوره في الموضع الذي يبتدأ بقصده واتفقوا على عرقا وعقرها والنزول بعقرها وانها اذا ملكت ملكت طرابلس فاقاموا بقدس الى آخر الشهر حتى اجتمعت الجموع ووصلت قبائل العربان ثم سار السلطان أول ربيع الآخر وخيم بقرب حصن الاكراد على البقيعة ثم شن الاغارة على نواحي الحصن وصافيتا والعريمة وتلك الحصون فاستخرج ما فيها من المخزون وفتح حصن يحمور وسامة الدمور ولم تزل الاغارات والغنائم وهم في تلك المنزلة الى آخر الشهر فوصل قاضي جبلة منصور بن نبيل وجماعة معه فاشار على السلطان بقصدها وتكفل بفتحها وفتح اللاذقية وتلك الحصون والمعاقل الشمالية وكانت تلك البلاد قد سلمها اليه ابرنس انطاكية وعوّل عليه فيها وقال ان الاشتغال بطرابلس مع احتراسها يذهب الزمان ويفوّت الامكان والمسلمون بجبلة مجبولون على التسليم مؤملون ان يتبدل شقاؤهم منك بالنعيم فاصغى السلطان الى قوله وأصغى له ورد طوله وكان قد وصل اليه مقدم وجبل بحرا فوفر لهم رواتبهم وأجرى فندبوا الى أتباعهم وكتبوا الى أشياعهم

(فصل) في فتح انطرطوس قال العماد واجمع السلطان على دخول الساحل بتلك العساكر والجحافل فرحل يوم الجمعة رابع جمادى الاولى فسرنا في أجام مؤتشبه واكام معشبه وحزون وسهول وشعاب وتلول حتى خرجنا الى ساحة الساحل ونزلنا بها وسرنا الساحل الساحل في ثلاث مراحل حتى وصلنا الى انطرطوس سادس الشهر فاحدقنا بها من البحر الى البحر فاخلى الفرنج البلد وما خرجوا الى الحصر واجتمعوا في برجين عظيمين هما لانطرطوس كالقلعتين ونقلوا اليهما من الاموال ما قدروا عليه فحصر مظفر الدين كوكبري أحد البرجين حتى أنزلهم بالامان ثم نقبه من أساسه وألقاه على أم راسه وعجل دماره ورمى في البحر أحجاره وملك جميع ما فيه وامتنع البرج الآخر وفيه الداوية وشوكتهم ومقدمهم الذي أسر يوم حطين وأطلق لما سلم ما اشترط عليه من البلاد ثم اجتمع باصحابه في هذا البرج وقوّاه بآلات الحصر فامتنع فتحه فاشتغل المسلمون بتعفية البلد واخفائه وقال القاضي ابن شداد دخل السلطان الساحل على تعبية لقاء العدو ورتب الاطلاب وسارت الميمنة أولا ومقدمها عماد الدين زنكي والقلب في الوسط والميسرة في الاخر ومقدمها مظفر الدين بن زين الدين وسار على النقل في وسط العسكر حتى أتى المنزل فتهنا تلك الليلة في بلد العدو ثم رحل في صبيحة السبت ونزل على العريمة فلم يقابلها ولم يعرض لها ولكن أقام عليها بقية يومه ورحل يوم الاحد ووصل الى انطرطوس فوقف قبالتها ينظر اليها وكان في عزمه الاجتياز الى جبلة فاستهان بامرها فسير من رد الميمنة وأمرها بالنزول على جانب البحر وأمر الميسرة بالنزول على البحر من الجانب الآخر فما استتم نصب الخيم حتى صعد الناس السور وغنم العسكر جميع من بها وما بها وخرج الناس والاسرى بايديهم وأموالهم وترك الغلمان نصب الخيم واشتغلوا بالكسب والنهب ووفى بقوله رحمه الله فانه كان قد عرض عليه الغدا فقال نتغدى بانطرطوس ان شاء الله تعالى وعاد الى خيمته فرحا مسرورا وحضرنا عنده للهنا بما جرى ومد الطعام وحضر الناس وأكلوا على عادتهم ورتب على البرج بن الباقيين الحصار فسلم أحدهما الى مظفر الدين فما زال يحاصره حتى أخربه وأخذ من كان فيه وأمر السلطان باخراب سور البلد وقسمه على الامراء وكان البرج الآخر حصينا منيعا مبنيا بالحجر النحيت وقد اجتمع من كان فيها من الخيالة والمقاتلة فيه وخندقه فيه الماء وفيه جروخ كثيرة تجرح الناس عن بعد فرأى السلطان تأخير حصره والاشتغال بما هو أهم منه فاشتد في خراب السور حتى أتى عليه وخرب البيعة وهي بيعة عظيمة عندهم محجوج اليها من أقطار بلادهم

وأمر بوضع النار فى البلد فاحرق جميعه والاصوات مرتفعة بالتهليل والتكبير وأقام عليها يخربها الى رابع عشر الشهر وسار يريد جبلة وعرض له ولده الظاهر فى اثناء طريق جبلة ومعه العساكر التى كانت بتيزين

﴿فصل﴾ فى فتح جبلة وغيره قال القاضى ابن شداد وكان وصول السلطان الى جبلة يوم الجمعة ثامن عشر الشهر وما استتم نزول العسكر حتى أخذ البلد وكان فيه مسلمون مقيمون فيه وقاض يحكم بينهم وكان قد عمل على البلد فلم يمتنع وبقيت القلعة ممتنعة ونزل العسكر محدقا بالبلد وقد دخله المسلمون واشتغل بقتال القلعة فقوتلت قتالا يقيم عذرا لمن كان فيها وسلمت بالامان يوم السبت تاسع عشر الشهر وأقام عليها الى الثالث والعشرين وسار عنها يطلب اللاذقية وقال العماد بعد فتح انطرطوس وصل الينا رجال حماة فرحل السلطان يوم الاثنين رابع عشر الشهر ونزل على مرقيه وقد أخلاها سكانها فخيم فيها أهل الاسلام وطاب لهم فيها المقام وكانت الطريق الى جبلة على الساحل ضيقة المسالك صعبة المراحل وهنالك للفرنج الاسبتار حصن يقال له المرقب مأهول معمور ولا طريق له الا تحت تله واتفق ان طاغية صقلية لما اشجاه ماتم على الفرنج فى الساحل جهز اسطولا يشتمل من الشوانى على ستين قطعة يحسب كل واحدة منها قلعة أو تلعة وقدم عليها طاغية يقال له المرعريط فوصل وما ضر ولا نفع فان فرنج الساحل مارفعوا به رأسا وتضجروا منه وكان فى عشرة آلاف رجل يحتاجون الى ميره وكلف كبيره فسار الى صور ثم رجع الى طرابلس وتردد فى البحر وتلدد وابلس واضطرب أشهرا لا يظهر له رأى ولا يرى له مظهرا فلما سمع بعبور عساكر المسلمين على الساحل الى جبلة جاء بالشوانى وصفها على موازاة الطريق ومباراة المضيق وفيها الرماة فامر السلطان بنقل الجفانى الى هنالك وتصفيفها وتكثير ستائرها وأجلس الرماة من ورائها فما زال الامر على ذلك والرماة ترمى وتصمى وعامة المسلمين فى سلوك ذلك المضيق حتى خفت الاثقال وعبرت الاحمال وخلص المسلمون من ذلك الشق بغير مشقة وجاروا على مدينة يقال لها بلنياس وقد انجلى عنها الناس فخيم المسلمون فيها ثم أصبحوا على الرحيل فاعترضهم نهر عريض عميق ما فيه طريق وهو مطرد من الجبل الى البحر وفيه قنطرة واحدة فتنكبها السلطان بالجحفل ومضى يمينا الى الجبل وأبعد حتى عبر فوق رأس العين واختلطت العساكر بالنهر من الجانبين وتزاحمت الاثقال على القنطرة فما خلصوا تلك الليلة الى آخرها ونزل السلطان قبل وصول الاثقال على بلده وهى بلدة كاسمها جلده وهى بليدة من غربى النهر على شاطئ البحر وجانباها الاخران بخندق فيه البحران وقد أخلاها أيضا أهلها وتفرق شملها وأصبح السلطان يوم الجمعة ثامن عشر جمادى الاولى على جبلة فتسلمها المسلمون فى الوقت وذلك ان قاضيها كان قد سبق ودخلها وقرن بالنجح للمسلمين أملها فما وصلوها أعلى الاعلام الناصرية على سورها وخلص المسلمون بها من مساكنة الكفرة وتحصن الفرنج بحصنيها واحتموا بقلعتيها فما زال قاضى جبلة يخوفهم ويرعبهم حتى استنزلهم بشرط ان يسترهنهم الى ان يردوا من انطاكية رهائن جبلة من المسلمين فضبط عنده جماعة من رؤس الفرنج والمقدمين حتى أعاد صاحب انطاكية الرهائن التى عنده فتلك بها رهائنه وتولى قاضى جبلة الامر فاستخرج ذخائر الكفرة ودفائنه واستنظفهم من كل سلاح وعدة وخيل وقوة وجاء مقدموا الجبل سامعين مطيعين وفى الجبل على سمت طريق حماه حصن يعرف ببكسرائيل وكان أهل الجبل استعادوه من الفرنج منذ سنين فتسلمه السلطان أيضا منهم ثم سلم جبلة الى سابق الدين عثمان صاحب شيزر وبجل قاضى جبلة وشرفه وحبس عليه ملكا نفيسا ووقفه وصرفه فى املاك آبائه وحكمه فى ولاية حكمه وقضائه

﴿فصل﴾ فى فتح اللاذقية قال القاضى ابن شداد وهى بلد مليح خفيف على القلب غير مسور وله مينا مشهور وله قلعتان متصلتان على تل يشرف على البلد فنزل السلطان رحمه الله عليه يوم الخميس رابع عشر جمادى الاولى محدقا بالبلد وأخذ العسكر منازلهم مستديرين على القلعتين من جميع نواحيهما الا من ناحية البلد واشتد القتال وعظم الزحف والنزال وارتفعت الاصوات وقوى الضجيج الى آخر النهار وأخذ البلد دون القلعتين وغنم الناس منه غنيمة عظيمة فانه كان بلد التجار وفرق بين الناس الليل وهجومه وأصبح يوم الجمعة مقاتلا مجتهدا فى اخذ النقوب من شمالى القلاع وتمكن منها النقب حتى بلغ طوله على ما حكى لى من ذرعه عشرين ذراعا وعرضه اربع أذرع فاشتد الزحف عليه حتى صعد الناس الجبل وقاربوا السور وتواصل القتال حتى صاروا يتحاذفون بحجارة اليد فلما رأى عدو

الله ماخل به من الصغار والبوار استغاثوا بطلب الامان وطلبوا قاضى جبلة يدخل اليهم ليقرر لهم قاعدة الامان فأجيبوا الى ذلك وكان السلطان رحمه الله متى طلب منه الامان لا يخل به فعاد الناس عنهم الى خيامهم وقد أخذ منهم التعب فباتوا الى صبيحة السبت ودخل قاضى جبلة اليهم واستقر الحال معهم على انهم يطلقون بأنفسهم وذراريهم ونسائهم وأموالهم خلا الغلال والذخائر وآلات السلاح والدواب وأطلق لهم دواب يركبونها الى مأمنهم ورقى عليها العلم الاسلامى المنصور فى بقية يوم السبت وأقمنا عليها يوم الاحد سابع عشر جمادى الاولى وقال العماد رحل السلطان الى اللاذقية يوم الاربعا الثالث والعشرين من جمادى الاولى فبات بالقرب منها وصبحناها يوم الخميس وقد لاذ أهلها بقلاعها وهى ثلاث قلاع متلاصقات على طول التل متناسقات كأنهن على رأس جبل راسخ وذروة اشم شامخ فسهل لنا فرعها وشرعنا نستأصل أصلها وفرعها فطلبوا السنجق الناصرى ونصبوه على السور عشية يوم الجمعة فلما أصبحوا صعد اليهم قاضى جبلة وانزلهم بالامان وتسلمت تلك القلاع بما فيها من عدة وذخيره وأسلحة وميره وخيل ودواب كثيره وامنوا على أنفسهم واموالهم وانصرفوا بنسائهم ورجالهم وذريتهم واطفالهم وخفوا من اثقالهم ودخل جماعة منهم فى عقد الذمه وتمسكوا بحبل العصمه وانتقل الباقون الى انطاكيه ثم ولى السلطان بها مملوكه سنقر الخلاطى وركب السلطان الى البلد وطافه وهز الى احسانه اعطافه وأمنه بعد ما أخافه قال ورأيتها بلدة واسعة الافنيه جامعة الابنيه متناسقة المغانى متناسبة المعانى فى كل دار بستان وفى كل قطر بنيان أمكنتها محترمه وأروقتها مرخمه وعقودها محكمه ومساكنها مهندسة مهندمه وسقوفها عاليه وقطوفها دانيه وأسواقها قصيه وآفاقها مضيه وارجاؤها فسيحه وأهواؤها صحيحه لكن العسكر شعث عمارتها واذهب نضارتها ووقع من عدة من الامراء الزحام على الرخام ونقلوا منه احمالا الى منازلهم بالشام فشوهوا وجوه الاماكن ومحوا سنا المحاسن قال وبظاهر اللاذقية كنيسة عظيمه نفيسة قديمه باجزاء الاجزاع مرصعه وبألوان الرخام مجزعه واجناس تصاويرها متنوعه وأصول تماثيلها متفرعه وهى متوازية الزوايا متوازنة البنايا قد تخيرت بها اشباح الاشباه وصورت فيها أمواج الامواه وزينت لاخوان الشيطان وعينت لعبدة الاوثان والصلبان ولما دخلها الناس اخرجوا رخامها وشوهوا اعلامها وجروا لثامها وكسروا اجرامها وأهدوا الاسى لهد أساسها وأفاضوا عليها لباس ابلاسها وحكموا بعد الغنى بافلاسها فافقرت وأقفرت وخربت وزربت ثم لما طابت النفوس وتجلى عن البلد بفتحه البوس عاد الى هذه الكنيسة بالامان القسوس وهى متشوهة متشعثه متمسكة بأركانها وبقواعدها متشبثه قال ولقد كثر أسفى على تلك العمارات كيف زالت وعلى تلك الحالات الحاليات كيف حالت ولكنما زاد سرورى بأنها عادت للاسلام مرابع ولشموسه مطالع فلو بقيت بحليتها وحالتها بعد ما تبدلت رشدها من ضلالتها لشاقت وراقت وكما أفاقت فاقت ورغب فى أعطاء الجزية سكان البلد من النصارى والارمن حبا للوطن ولما أراد السلطان الرحيل دخل المدينه وردّ الى سكانها السكينه ودار خلال ديارها وخرق أسواقها فى سائر أقطارها ووقف على البحر للنظر الى موانيها وشوانيها وأقاصيها وادانيها وشكر الله على تمكينه من ملكها وتخصيصه بملكها وفى كتاب عمادى الى سيف الاسلام بالميمن عن السلطان قال (وهذه اللاذقية مدينة واسعه وخطة جامعه معاقلها الاثرام واعلاقها الاتستام وهى أحسن بلاد الساحل وأحصنها وأزيدها اعمالا وضياعا وأزينها وما فى البحر مثل ميناها ولا للمراكب الواردة مثل مرساها وهى جنة كان يسكنها أهل الجحيم وطالما مكثت بالكفر دار بؤس فعادت بالاسلام دار نعيم) قال وكانت شوانى صقليه قد قابلت فى البحر اللاذقيه طمعا فى امتناعها فلما خابت خبت نارها وقصدت لجهلها أخذ مركب من يخرج من أهلها حنقا عليهم كيف سلموا البلدة وسمحوا ببذلها فكان ذلك مقتضيا لبقاء ساكنيها بالجزية تؤديها ولما وقف السلطان على شاطئ البحر بعساكره طلب مقدم تلك الشوانى امانه ليصعد ويشاهد سلطانه فأمنه فصعد وعفر وكفر وتروى ساعة وتفكر وقال ما معناه أنت سلطان عظيم وملك رحيم وقد شاع عدلك وذاع فضلك وقهر سلطانك وظهر احسانك فلو منننت على هذه الطائفة الساحلية الخائفه لملكت قيادها اذا أعدت اليها بلادها وصاروا لك عبيدا وأطاعوك قريبا وبعيدا والاجاءك من وراء البحار فى عدد الامواج أفواج

بعد

عد أفواج وسار اليك ملوك ذوى الاقانيم من سائر الاقاليم وهؤلاء أهون منهم فاتركهم واصقع عنهم فقال له السلطان قد أمرنا الله بتمهيد الارض ونحن قائمون فى طاعته بالفرض وعلينا الاجتهاد فى الجهاد وهو الذى يقدرنا على فتح البلاد ولو اجتمع علينا أهل الارض ذات الطول والعرض لوكلنا على الله فى اللقاء ولم نبال باعداد الاعداء فصلب على وجهه وركب بكربه ولم يغن خطابه عن خطبه

﴿فصل﴾ فى فتح صهيون وغيرها قال القاضى ابن شداد رحل السلطان عن اللاذقية ظهيرة الاحد السابع والعشرين من جمادى الاولى طالب صهيون فنزل عليها يوم الثلاثا التاسع والعشرين فاستدار العسكر بها من جميع نواحيها بكرة الاربعاء ونصب عليها ستة مجانيق وهى قلعة حصينة منيعه فى طرف جبل خلف أودية هائلة واسعة عميقه وليس لها خندق محفور الا من جانب واحد مقدار طوله ستون ذراعا ولا يبلغ وهو مقرفى حجر ولها ثلاثة أسوار سوران دون ربضها وسور دون القلعة وسور القلعة وكان على قلعتها علم طويل منصوب فحين أقبل العسكر الاسلامى شاهدته وقد وقع فاستبشر بذلك المسلمون وعلموا ان النصر والفتح المبين واشتد القتال عليها من سائر الجوانب فضربها منجنيق ولده الملك الظاهر وكان نصبه قبالة جهة قريبة من سورها فاطلع الوادى وكان صائب الحجر فلم يزل يضربها حتى هدم من السور قطعة جيدة عظيمة تمكن الصاعد فى السور من الترقى اليه منها ولما كان يوم الجمعة ثانى جمادى الآخرة عزم السلطان على الزحف وركب وتقدم وتواترت المنجنيقات بالضرب وارتفعت الاصوات وعظم الضجيج بالتكبير والتهليل وما كان الا ساعة حتى رقى المسلمون على أسوار الربض واشتد الزحف وعظم الامر وهجم المسلمون الربض ولقد كنت أشاهد الناس وهم يأخذون القدر وقد استوى فيها الطعام فيأكلونها وهم يقاتلون القلعة وانضم من كان فى الربض الى القلعة بما أمكنهم أن يحملوه من أموالهم ونهب الباقى واستدار المقاتلة حول أسوار القلعة فلما عاينوا الهلاك استغاثوا بطلب الامان فامنهم السلطان على أن يسلموا بأنفسهم وأموالهم ويأخذ عن الرجل منهم عشرة دنانير وعن المرأة خمسة دنانير وعن الصغير ديناران فسلمت القلعة وأقام السلطان حتى تسلم عدة قلاع كالعيد وبلاطنس وغيرهما من القلاع والحصون تسلمها النواب فانها كانت تتعلق بصهيون وقال العماد كان الطريق الى صهيون فى أودية وشعاب ومنافذ صعاب وأوعاث وأوعار وانجاد واغوار فقطعنا تلك الطريق فى يومين ووصلنا ليلة الثلاثاء بليلة الاثنين وخيمنا على صهيون يوم الثلاثاء وهى قلعة على ذروة جبل بين واديين عميقين يلتقيان عليها ويدوران حواليها والجانب الجبلى مقطوع منه بخندق عظيم عميق وسور وثيق ما اليه لسوى للقضاء والقدر من طريق والقلعة ذات أسوار خمسة كأنها خمس هضاب ممتلئة بذئاب سغاب وأسد غضاب وأحاط العسكر بها يوم الاربعاء من نواحيها الاربع وهى ممتنعة علينا بالركن الامنع والسمو الامتنع ونقل السلطان خيمته الى جانب الجبل وأقام الظاهر غازى صاحب حلب منجنيقين ونهج بهما من جانب الوادى الى ردّ الاعادى طريقين وكان له بفتح هذه القلعة الجد العالى والجد المتوالى فانه اتصل بنا قبل الوصول الى جبلة من طريق حماه وقد استصحب الكماة الحماه ومعه الرجال الحلبيه والمنجنيقية والجرخيه والجانداريه والخراسانيه واستصحب الحجارين والحدادين والنجارين فأظهر على صهيون اليد البيضاء وأثار فى فضاء الفضائل واضاء وكان نازلا على جانب الوادى مقابل الحصن وشرع الجدار فى الانقضاض وأصبحنا يوم الخميس والجلاميد وقوع وللسور سجود وركوع ومازالت المجانيق من جانبه وجانبنا ترمى والحنايا سهام المنايا تصمى حتى قتل وجرح أكثر مقاتلة الحصن وهان عما دب فيه من الوهن وأصبحنا يوم الجمعة ثانى جمادى الآخره وبحر الحرب فى أمواجه الزاخره وتطرق أصحابنا من قرنة خفيت عليهم من الخندق لم تحكم عمارتها كأن الله أعماهم عنها حتى يسلك الحتف اليهم منها فتعلقوا فى الصخور وتسلقوا السور وملكوا عليهم ثلاثة أسوار واحتووا على كل ما فيها من ذخائر وغلال ودواب وابقار وازدحم الفرنج فى القلعه وتفادوا من الخوف لا من القله وصاحوا الامان وبذلوا الاذعان ونادوا مكنونا من السلامة وتسلموا المكان فاسنوا على المال والنفس حتى قررنا عليهم مثل قطيعة القدس وأغلقت دونهم الابواب وسيرت اليهم النواب وما استقر خروجهم حتى استخرج القرار وجبى الدرهم والدينار وعم الصغار الكبار والصغار وتولى ذلك شجاع الدين طغرل الجاندار ثم سلم حصن صهيون بجميع أعماله وسائر ما حواه من

ذخائره وأمواله الى الامير ناصر الدين منكورس بن خمارتكين صاحب بوقبيس فأحكمه وحصنه وحفظه وحسنه وتسلم يوم السبت قلعة العيد ويوم الاحد قلعة الجماهريين ويوم الاثنين حصن بلاطنس وندب الى كل حصن من تسلمه وسلكه فى سلك الفتوح ونظمه قال وبفتح صهيون حصل الامن على اللاذقية وقوى الامل فى فتح انطاكيه فانه قفل محكم على بابها وسبب قوى من أسبابها ففتح الرتاج ووضح المنهاج

﴿فصل﴾ فى فتح بكاس والشغر والسرمانيه قال القاضى ابن شداد ثم رحل السلطان وسرنا حتى أتينا بكاس وهى قلعة حصينة على جانب العاصى ولها نهر يخرج من تحتها وكان النزول بذلك المنزل على شاطئ العاصى يوم الثلاثاء سادس جمادى الآخره وصعد السلطان جريدة الى القلعة وهى على جبل مطل على العاصى فاحدق بها من كل جانب وقاتلها قتالا شديدا بالمنجنيقات والزحف المضايق الى يوم الجمعة أيضا تاسع جمادى الآخره ويسر الله فتحها عنوة وأسر من فيها بعد قتل من قتل منهم وغنم جميع ما كان فيها وكان لها قليعة تسمى الشغر قريبة منها يعبر اليها منها بجسر وهى فى غاية المنعة ليس اليها طريق فسلطت عليها المنجنيقات من سائر الجوانب ورأوا انهم لا ناصر لهم فطلبوا الامان وذلك فى يوم الثلاثا ثالث عشره وسألوا ان يؤخروا ثلاثة أيام لاستئذان من بانطاكية يسر الله فتحها فأذن فى ذلك وكان تمام فتحها وصعود العلم السلطانى على قلعتها يوم الجمعة سادس عشره ثم عاد السلطان الى الثقل وسير ولده الظاهر الى قلعة تسمى سرمانية يوم السبت سابع عشره فقاتلها قتالا شديدا وضايقها مضايقة عظيمه وتسلمها أيضا يوم الجمعة ثالث عشرى الشهر المذكور قال فاتفق فتوحات الساحل من جبلة الى سرمانية فى أيام الجمع وهو علامة قبول دعاء خطباء المسلمين وسعادة السلطان حيث يسر الله له الفتوح فى اليوم الذى يضاعف فيه ثواب الحسنات قال وهذا من نوادر الفتوحات فى الجمع المتواليه لم يتفق مثلها فى تاريخ وقال العماد سار السلطان ثانى يوم فتح صهيون على سمت القرشية ونزل على العاصى فى طاعة الله على تل كشفهان فتسلم حصن بكاس يوم الجمعة تاسع الشهر وحول خيمة خفيفة الى الجبل لحصار قلعة الشغر وهى قلة شامخة من أعلى القلل مطلة على واد عميق وكان الكفار قد أخلوا بكاس من الرعب واجتمعوا بقلعة الشغر وهى عالية حصينة منيعة لا تصل المجانيق اليها فاستصعب السلطان أخذها وخاف من طول أمرها فبينما هو مفكر فى ذلك والفرنج قد داخلهم الرعب فارسلوا فى طلب الامان واستمهلوا ثلاثة أيام فكبر المسلمون وفرحوا وأصبحوا يوم الجمعة والشغر شاغر والكفر صاغر فتسلمها المسلمون وتصرفوا فيها وفيما تحويه من ذخائر وعدد ودواب وانعام وأنعم السلطان بها وبقلعة بكاس وتلك الاعمال على غرس الدين قليج وكان هذا قليج قد تسلم كمرد بين وهو معقل حصين يسكنه الارمن فى ذلك الصقع وبذل فى استخلاصه غاية الوسع فولاه السلطان تلك الحصون وحاط بايالته أمرها المصون وعاد الى مخيمه يوم السبت وهو حسن السمت كريم النعت قال وكان الملك الظاهر عند اشتغالنا بفتح قلعة الشغر قد نزل على سرمانية مضايقا لها بالحصر فتسلمها يوم الجمعة ثالث عشرى الشهر وذلك بعد قطيعه قررها وقبضها ولما أخرجهم منها دخلها فابطل عمارتها وعطلها وهدم بنيانها وهدّ أركانها ومابرح حتى سواها بالارض وخلط طولها بالعرض قال وهذه ست مدن وقلاع فتحت فى ست جمع تباع جبلة واللاذقيه وصهيون وبكاس والشغر وسرمانيه وأطلق بها الانفس والنفائس العانيه فقد كان فى هذه المعاقل من أسارى المسلمين عدّه لولا فتحها لما زالت عنهم تلك الشدّه وهذا اقليم جبلة واللاذقية هو عين انطاكية التى فقئت ونحرها الذى عنه حدثت ولم يبق لانطاكية من الحصون سوى ثلاثة القصير وبغراس ودربساك وقد أصبحت معدومة الاطراف قد قطعت أيديها وأرجلها من خلاف

﴿فصل﴾ فى فتح حصن برزيه قال القاضى ابن شداد ثم سار السلطان جريدة الى قلعة برزيه وهى قلعة حصينة فى غاية القوة والمنعة على سن جبل شاهق يضرب بها المثل فى جميع بلاد الفرنج والمسلمين يحيط بها أودية من سائر جوانبها وذرع علو قلتها فكان خمسمائة ذراع ونيفا وسبعين ذراعا ثم حز رعزمه على حصارها بعد رؤيتها واستدعى الثقل فنزل تحت جبلها وفى بكرة الاحد الخامس والعشرين من جمادى الآخره صعد السلطان جريدة مع المقاتلة والمنجنيقات وآلات الحصار الى الجبل فاحدق بالقلعة من سائر نواحيها وركب القتال عليها من كل جانب وضرب اسوارها بالمنجنيقات المتواترة الضرب ليلا ونهارا وقاتلها حتى كان يوم الثلاثاء السابع والعشرين فقسم العسكر

ثلاثة أقسام ورتب كل قسم يقاتل شطرا من النهار ثم يستريح ويتسلم القتال الشطر الآخر بحيث لا يفتر القتال عنها أصلا وكان صاحب النوبة الاولى عماد الدين صاحب سنجار فقاتلها قتالا شديدا حتى استوفى نوبته وضرس الناس من القتال وتراجعوا عنه وتسلم النوبة الثانية السلطان بنفسه وركب وتحرك عدة خطوات وصاح فى الناس فحملوا حملة الرجل الواحد وصاحوا صيحة الرجل الواجد وقصدوا السور من كل جانب فلم يكن الا بعض ساعة حتى رقى الناس على الاسوار وهجموا القلعة وأخذت عنوة واستغاثوا الامان وقد ملئت الايدى منهم فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا باسنا ونهب جميع ما كان فيها وأسر جميع من كان بها وكان قد آوى اليها خلق عظيم وكانت من قلاعهم المذكوره وحصونهم المشهوره وكان يوما عظيما وعاد الناس الى خيامهم غانمين وعاد السلطان الى النقل وأحضر بين يديه صاحب القلعة وكان رجلا كبيرا منهم فكان هو ومن أخذ من أهله سبعة عشر نفسا فمن عليهم السلطان ورق لهم وأنفذهم الى صاحب انطاكية استمالة له فانهم كانوا يتعلقون به ومن أهله وقال العماد وصف للسلطان قلعة برزيه وانها لحصن افامية متأخمه وله مناصفة مقاسمه وان المسلمين من جوارها فى جور وفى حور بعد كور ووصفوا علوها فركب السلطان اليها وأشرف عليها فالفاها كما وصفوها وبالغوا فيها وما انصفوها فنصب عليها المجانيق فوقعت أحجارها دونها ولم يتحرك سكونها وكيف تهد الخنساء بصخر والعنقاء بصقر وحجر الجبل بحجر ومدار الفلك بمدر فلما رأى السلطان ذلك قوى رأيه على ان يفرق العسكر ثلاث فرق ويتناوبون على قتالهم زحفا ليتعبوهم ويضجروهم فانهم عدد محصور عما قليل تفنى عدتهم وتقل عدتهم ففعل ذلك وكانت النوبة الاولى لصاحب سنجار والثانية للسلطان وخواصه ثم امتزجت الثالثة بالثانية وعادت رجال النوبة الاولى وتناصرت أنصار الله على النزال لاستنزال النصر واحدوا عاقبة الصبر فى الحصر فطلب العدو الامان وأرسلوا الى السلطان وكان أصحابنا خالطوهم وباسطوهم وأحاطوا بهم وهناك جماعة من دهاة العسكر أشاعوا للناس ان السلطان يؤمنهم فرجع العالم عنهم ولم ينالوا منهم فلما رد السلطان رسولهم ولم يؤمنهم ساقوا أولئك السبايا قدامهم كما يسوقون أغنامهم وخانوا اخوانهم ورامواحرمانهم وتفرقوا بالسبى أيدى سبا وسافروا بها من العسكر الى البلاد وباعوها فى سوق الكساد وتسلم السلطان حصن برزيه ظهر يوم الثلاثاء السابع والعشرين من جمادى الآخرة وولاه الامير عز الدين ابراهيم بن الامير شمس الدين محمد بن المقدم وهو صاحب حصن افاميه مناظر برزيه وهو على الثغر وما بين الاثنين بحيرة تحجز الجانبين وصيادوها المسلمون بافاميه فخلص للاسلام الثغر وسكن الدهر قال وكانت صاحبة حصن برزيه زوجة الابرنس صاحب انطاكية وقد سبيت وخبيت فازال يطلبها حتى أظهروها وأحضروها وزوجها وابنة لها وجماعة من أصحابها وصهرها وكانت امرأة ابرنس انطاكيه تعرف بدام سبيل فى موالاة السلطان عينا له على العدو تهاديه وتناصحه وتطلعه على أسرارهم والسلطان يكرمها لذلك ويهدى اليها أنفس الهدايا فلما فتح حصن برزيه وحصل فى أسره هذه الجماعه وافترقت بهم أيدى المسلمين تتبعهم السلطان وخلصهم من الاسر وأنعم عليهم وجهزهم وسيرهم الى انطاكية لاجل امرأة الابرنس فشكرته على ذلك ودامت مودتها ونفعها للمسلمين وفى بعض كتب البشائر العماديه (آخر ما فتحناه حصن برزيه الذى تضرب بحصانته الامثال ولا ترقى الى ذروة تمنيه الآمال وقد أخذناه بالسيف عنوه وفتحناه ضحوة فيا لها من ضحوة ليوم الثلاثاء أظلمت على أهل التثليث والهى الله المؤمنين عن ذكر الفتوح القديمة بحديث هذا الفتح الحديث ولو وكلنا الله الى اجتهادنا فى الفتح لتعذر ولكنه سبحانه سهل ويسر) ومن كتاب فاضلى الى السلطان (وصلت كتب البشارة بفتح حصن برزيه وهو الذى تضرب به الامثال وتضرب عنه الآمال ويكاد يحزن اذا قادت أيدى السلاسل ازمة الجبال ويكاد يذم ساكنيه من خطرات الاوجال بل من خطوات الآجال وكان للكفر درعا حصينة طالما كانت تهزأ بالنصال فعظمت المنة السلطانية عند أهل الاسلام ودعوا بان يفلج الله حجة سيفه الداحض الصمام وقد كان الناس يعدون مواهبه مما لا تحصى فقد تحققت بها فتوحاته فهى أيضا لا تحصر فرحبا بفتوح يقول غائبها الحمد لله وحاضرها الله أكبر وما بقى الملوك يستبطئ خبر انطاكية فقد ألقت الارض افلاذها وقد ولدت لكرمه ذهبها ولنصره فولاذها ولم نر فى نعم الله مثلها نعمة كريمة وجيهه ولا نعرف بعدها للزمن سيئة ولا كريهه الا انا نرجع فى معرفة قدرها

واخلاص شكرها الى مارضيه الله شكرا من نجاه من أهوال يوم القيامه وأدخله دار المقامه بانهم قالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن الحمد لله الذى صدقنا وعده الحمد لله الذى هدانا لهذا وكان آخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين فرضى بالحمد منهم ورضى عنهم وأثنى عليهم بانهم اختتموا به وافتتحوا وقدسوا به وسبحوا وثقلت به موازين اعمالهم فرجحوا ونجحوا ونحن نقول الحمد لله على بهجة الدنيا بملاناونضرتها وعلى عزة الملة به ونصرتها وعلى بهجة القلوب به ومسرتها وعلى غنى الايدى به وميرتها وعلى روعة قلوب الاعداء به وحسرتها وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها وفتوح مولانا من تلك النعم وان قصرنا فى شكرها فانقصر فى ذكرها وان عجزنا عن حصرها فانعجز عن المعرفة بفضل قدرها وتلك النعم بحمد الله منتظمة العقود مطردة السعود متوافية الرسل عامرة السبل خارقة العوائد قارنة المساعى بالمساعد كادت العيون قبل وقوعها تلحظها وكادت المنابر لما يدرس عليها من كتبها تحفظها فما يشرح صدر من خبرها فيسمعه ذو صدر الا انشرح وما يسأل الناس هل فتح الملك الناصر وانما يقال ما اسم البلد الذى فتح فمن عند مولانا الجنان ومن عندنا اللسان وعليه الجهد وعلينا الحمد فهى فتوح كثمرات الجنه لامقطوعة ولاممنوعه واعمالها المبرورة الى الله مرفوعه ومن قصيدة للشهاب فتيان الشاغورى وقد تقدم بعضها

لما ملكت حصون انطاكية ❊ يئس الصليب وخزيه من مظهر
أرديت كل مثلث متكبر ❊ بموحد متواضع ومكبر
برزت الى برزيه عزمتك التى ❊ مدت يدا عن مطلب لم يقصر
فتناولته بيدها من باذخ ❊ فى الافق ذى مثل يروع مسير
فانهض لصورفهى أحس صورة ❊ فى هيكل الدنيا بدن لمصور
ماسور صورعاصم منه وهل ❊ سور المعاصم عاصم لمسور

(فصل) فى فتح حصن در بساك قال القاضى ابن شداد ثم سار السلطان حتى أتى جسر الحديد وأقام عليه أياما وسار حتى نزل على در بساك يوم الجمعة ثامن شهر رجب وهى قلعة منيعة قريبة من انطاكية يسر الله فتحها فنزل عليها وقاتلها قتالا شديدا بالمنجنيقات وضايقها مضايقة عظيمة وأخذ النقب تحت برج منها وتمكن النقب منه حتى وقع وحموه بالرجال والمقاتلة ووقف فى الثغرة رجال يحمونها عمن يصعد فيها قال ولقد شاهدتهم وكلما قتل منهم رجل قام غيره مقامه وهم قيام عوض الجدار مكشوفين واشتد الامر حتى طلبوا الامان واشترطوا مراجعة انطاكية وكانت القاعدة ان ينزلوا بانفسهم وثياب أبدانهم لاغير ورقى عليها العلم الاسلامى يوم الجمعة أيضا ثانى عشر رجب وأعطاها علم الدين سليمان بن جندر وسار عنها من الغد بكرة السبت وقال العماد ثم عبر نهر العاصى الى شرقيه عند شقيف دركوش وهو ثغر على الفرات للاسلام منيع فجزناه وخيمنا على جسر الحديد أياما حتى استكمل العسكر راحاته وتكامل ونحن نقرب انطاكيه وقد صوبنا اليها عزائمنا الناكيه ثم قلنا قدامها حصون وحماها بحمايتها مصون فاذا ذهبت معاقلها جاءتها غوائلها فنزلنا على در بساك وهو حصن للداوية وقد اعتصموا بعصمته وامتنعوا بمنعته فنصبنا عليه المنجنيقات فما زالوا يجالدون ويتجلدون الى ان ضاق بهم الخناق وتسلق النقابون الى الباشورة وهدوا بالنقب برجا ووسعوا للزحف نهجا فطلبوا الامان وفدوا أنفسهم بالوف فاومنوا على انهم يخرجون بهوانهم وثياب أبدانهم ويدعون كل ما فى الحصن من خيل وعدته وذخيرة وغله واثاث وقماش وذهب وفضه وأمهلوا ثلاثة أيام ثم أخرجوا من ديارهم وتسلم الحصن يوم الجمعة الثانى والعشرين من رجب وفى بعض الكتب العماديه (هذه المكاتبة مبشرة بالفتح الاهنى والنصر الاسنى وهو فتح در بساك الذى لم يكن لانطاكية الابه الامتساك وقد قص الآن جناحها وقل سلاحها وحق قرحها وبطل اقتراحها وخرجت باخراج حصونها من ولايتها ارواحها وقد بقيت عرضا للعسكر وعرضا بلا جوهر وشبحا بغير روح وصدرا غير مشروح والكفر مجموع بالنفس والبلد والامل والولد ونحن لا راحة لنا الا فى هذا التعب ولا أرب لنا فى غير هذا الارب ولا اجتهاد لنا الا فى الجهاد ولا مغزى لنا غير الغزاه ومانرجو من الله الا انجاز العدات فى جميع العداة

أصبحنا يوم الثلاثاء وقد سماء صباح المثلثين وبان صباح الموحدين وأبينا أمانهم الاان يفدوا نفوسهم وينزعوا من الحرب أبوسهم ويخلعوا باسهم ويلبسوا بوسهم وينجوا بثياب أبدانهم وقد أدوا خمسة آلاف دينار من أثمانهم

﴿فصل﴾ فى فتح بغراس قال القاضى ابن شداد وهى أيضا قلعة منيعة أقرب الى انطاكية من دربساك وكانت كثيرة العدة والرجال فنزل العسكر فى مرج لها وأحدق العسكر بها جريدة مع اانا احتجنا فى تلك المنزلة الى يزك يحفظ من جانب انطاكية لئلا يخرج منها من يهجم على العسكر فضرب يزك الاسلام على باب انطاكيه بحيث لا يشذ عنه من يخرج منها قال وأنا ممن كان فى اليزك فى بعض الايام لرؤية البلد وزيارة حبيب النجار المدفون فيه عليه السلام ولم نزل نقاتل بغراس مقاتلة شديدة حتى طلبوا الامان على استئذان انطاكية ورقى العلم السلطانى عليها فى ثانى شعبان وقال العماد ولما فتحت دربساك لم يبق لناهمة الا بغراس وقد شارف رجاء أكثر الناس فى فتحه الياس وهو حصن حصين ومكان مكين هو للداوية وجار ضياعها وغاب سباعها وهو بقرب انطاكية حصارها وحصاره سوا ومالدواء داويته دوا فنزل العسكر بين انطاكية وبينه يتقاضون منهما للدين دينه ويشنون الغارات ويسنون النكايات ولا يبرحون بازاء انطاكية صفا يرمون ولاهلها فتحا وحتفا يتناوبون على سبيل اليزك ويدعون العدا الى المعترك وليس بينهما الا النهر فصعد السلطان جريدة الى الجبل وأمر بنصب المجانيق حولها على تلك التلل ونقل اليها أحواض الماء ورواياه وبث فى النواحى سراياه وفرق على الجميع عطاياه وأقنا عليه اسبوعا نجرى اليه من كل منجنيق من فيض الحجارة بنبوعا ونحن نفكر فيما يكون ومتى تتم الحركة وفيم السكون وهذا بيكار يطول وتعب لا يزول اذ رأينا باب الحصن وقد فتح وخرج من الحصن من أخذ الامان لاهله وسلم الحصن بما فيه من الاموال وقدر ما فيه من الغلة تخمينا باثنى عشر ألف غراره وسلمها السلطان مع دربساك الى صاحب عزاز علم الدين سليمان بن جندر وكتبت عليه جميع ما فى القلعتين من الموجود من المكيل والموزون والمعدود وكانت الغلة بانطاكية غالية السعر فقلت كانى بمن تولى القلعة وقد باع الغله وشفى من فقره بها الغله ثم أشار بتخريبها وهدمها ولم يلتزم بحكمها وقال ابقاؤها غرر وحفظها على المسلمين ضرر وخطر فجاء الامر على ما حسبته بعد سنين وعاد اخلاها بمضرة المؤمنين فانه أظهر ذلك الوقت انه أخلاها وانه للتخريب خلاها فجاء اليها مقدم الارمن ابن لاون فدخلها وأتم غاراته وكملها وذلك فى سنة سبع وثمان وهذان الحصنان دربساك وبغراس كانا لانطاكية جناحين ولطاغية الكمر سلاحين فتم للسلطان فتح هذه الحصون المذكوره مع ابراج ومغارات وشقفان كثيره حتى خلص ذلك الاقليم وتم الفتح العظيم وعادت الكنائس مساجد والبيع معابد والصوامع جوامع والمذابح لعبدة الشيطان مصارع

﴿فصل﴾ فى عهد الهدنة مع صاحب انطاكية وعود السلطان قال العماد كان السلطان قد عزم على قصد انطاكية فرأى هم الاجناد لاسيما الغرباء قد ضعفت نياتهم فى الجهاد قد فترت وتشوقوا الى بلادهم والراحة من جهادهم وكان صاحب انطاكية قد اشرف على الهلاك وعلم انه ان قصد غلب فنفذ أخا زوجته رسولا الى السلطان متذللا يطلب الهدنة على انه يطلق من عنده من أسارى المسلمين وهم جمع كبير فعقدها معهم مدة يسيرة ثمانية أشهر من تشرين الاول الى انقضاء ايار فيكون انقضاء الهدنة قبل ادراك الغلة واوان حصادها فيستريح فيها الاجناد ويعودون بعدها الى فرض الجهاد فتم كتاب الهدنة وتوجه شمس الدولة ابن منقذ لتخليص الاسرى وانقاذهم منه وقال القاضى ابن شداد وفى بقية ذلك اليوم يعنى يوم فتح بغراس وهو ثانى شعبان عاد السلطان الى المخيم الاكبر وراسله أهل انطاكية فى طلب الصلح فصالحهم لشدة ضجر العسكر وقوة قلق عماد الدين صاحب سنجار فى طلب الدستور وعقد الصلح بيننا وبين أهل انطاكية لاغير على ان يطلقوا جميع أسارى المسلمين الذين عندهم وكان الى سبعة أشهر فان جاءهم من ينصرهم والا سلموا البلد الى السلطان ثم رحل عنه يطلب دمشق وسأله ولده الظاهر صاحب حلب ان يجتازبه فاجابه فدخلها حادى عشر شعبان فاقام بقلعتها ثلاثة أيام ثم سار الى دمشق فاعترضه ابن أخيه تقى الدين وأصعده الى قلعة حماه وبات بها ليلة واحدة فاعطاه جبلة واللاذقية وسار الى بعلبك وأقام ببرجها يوما ودخل حمامها ثم أتى دمشق فاقام بها حتى دخل شهر رمضان وما كان يرى تبطيل وقته

عن الجهاد مهما أمكنه وكان قد بقي له من القلاع القريبة من حوران التي يخاف عليها من جانبها صفد وكوكب فرأى ان يشغل الزمان بفتح المكانين في الصوم وقال العماد وودع السلطان عماد الدين صاحب سنجار والعساكر الغريبه واتحفهم بالتحف العجيبه وارتاح الى العبور على ارتاح ووصل الى حلب وقد خرج كل من بها للتلقي مستبشرين بالاقبال المتضاعف المترقى وشاهدنا من النظارة عيونا للمحاسن ناظره ووجوها ناضره وقلوبا حاضره والسنا شاكره وأيديا في بسطها الى الله للابتهال بالدعاء متظاهره فاقام بقلعتها أياما يسيره وألفى ولده الظاهر قد سار فيها أحسن سيره ثم سار منها على طريق المعره وقصد زيارة الشيخ الزاهد أبي زكريا المغربي عند مشهد عمر بن عبد العزيز رحمه الله فتبرك بزيارة الميت والحي ثم وصل الى حماه فنزل بقلعتها ومعه أمير المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام وهو عز الدين أبو فليتة القاسم بن المهنا وكان للسلطان في جميع الغزوات مصاحبا وعلى معاضدته مواظبا وما حضر معنا على بلد او حصن الا فتحناه وكان السلطان يستوحش لغيبته ويأنس بشيبته وكان يجنب السلطان جالسا ولنظره عليه حابسا وكانت قلعة حماه ذات تل منبطح فلما تولاها تقي الدين رفع تلها وعمق خندقها وحصنها فطلع السلطان تلك الليلة الى القلعه وسر بما رأى من الحصانة والرفعه ووقف الملك المظفر امعه وجرى في الخدمة على رسمه وأصبح السلطان راحلا ولم يقم بحمص وجاء الى بعلبك على طريق الدراعة والنبوة ووصل الى دمشق قبل رمضان وأشير على السلطان بان يريح عسكره فقد أجهد في عامه مورده ومصدره وأريح في سبيل الله متجره فقال ان القدر غير مأمون والعمر غير مضمون والفرض أوقات وللدهر آفات وقد بقيت مع الكفر هذه الحصون وان لم نبادرها اختل أمرنا المصون لاسيما صفد وكوكب فانهما للداوية والاسبتارية في وسط البلاد والثغور الاسلامية بهما واهية السداد فنخرج ونشتو عندها ونقصد قصدها فاذا فتحناها خلصت هذه البلاد وصفت الاوراد قال فما لبث السلطان ولا مكث ولا نقض عهد عزمه على الغزاة ولا نكث وقال لا نبطل الغزوه ولا نعطل هذه الشتوه

(فصل) في فتح الكرك وحصونه قال العماد ووردت البشرى بنجح الدرك في تسليم حصن الكرك وذلك انها في مدة غيبتنا في بلاد انطاكية لم تعدم من محاصرتها المضايقة النباكية وكان الملك العادل أخو السلطان مقيما بتبنين في العساكر محترزا على البلاد من غائلة العدو الكافر أقامه السلطان هنالك عند توجهه الى البلاد الشماليه لقصد جبلة واللاذقيه فأقام بتبنين مقويا للامراء المرتبين على الحصون حافظا على الدهماء بحركته في الامور عادة السكون وكان صهره سعد الدين كمشبه بالكرك موكلا وبأهله منكلا قد غلق رهنه وبقي حصاره معضلا وأمره مشكلا حتى فنيت أزوادهم ونفدت موادهم ويئسوا من نجدة تأتيهم وأحملت عليهم مضايقهم ومشاتيهم فتوسلوا بالملك العادل وأبدوا له ضراعة السائل فما زالت الرسالات تتردد والاقتراحات تتجدد والقوم يليينون والعادل يتشدد حتى دخلوا في الحكم وخرجوا على السلم وسلموا الحصن وتخلصوا بالسلامه وخلصوا باقامة عذرهم عند قومهم من الملامه وتسلم سعد الدين بعدها الحصون التي يقربها كالشوبك وهرمز والوعر وسلع وقال القاضي ابن شداد وفي أثناء شهر رمضان سلمت الكرك من جانب نواب صاحبها وخلصوه بها من الاسر وكان أسر في وقعة حطين المباركه وكتب العماد في بعض البشائر (سلم حصن الكرك وهو الحصن الذي كان طاغيته يحدث نفسه بقصد الحجاز وقد نصب اشراكه شركه منه على طرف الاجتياز فأدقناه عام أول كأس الحمام وتملكنا حصنه الذي كان يعتصم به في هذا العام واضطر الكفر في اسلامه الى الاسلام وتم بحل هذا البيت أمن البيت الحرام) وكتب القاضي الفاضل الى السلطان شفاعة (أدام الله سلطان مولانا الملك الناصر وثبته وتقبل عمله بقبول حسن وأنبته وأخذ عدوه قائلا أو بيته وأرغم أنفه بسيفه وكبته خدمة المملوك هذه واردة على يد فلان خطيب عيذاب ولما نابه المنزل منها وقل عليه المرفق فيها وسمع بهذه الفتوحات التي طبق الارض ذكرها ووجب على أهلها شكرها وحصل لمن جرت على يده أجرها هاجر من هجير عيذاب وملحها سار يا في ليلة أمل كلها صباح فلا يسأل عن صبحها وقد رغب في خطابة الكرك وهو خطيب وتوسل بالمملوك في هذا الملتمس وهو قريب

ونزع من مصر الى الشام ومن عيذاب الى الكرك وهو عجيب والفقر سائق عنيف والمذكور عائل ضعيف ولطف الله تعالى بالخلق بوجود مولانا الطيف ورأيه أعلى ان شاء الله تعالى)

﴿فصل﴾ فى فتح صفد قال القاضى ابن شداد ثم سار فى أوائل رمضان من دمشق يريد صفد ولم يلتفت الى مفارقة الاهل والوطن والولد فى هذا الشهر الذى يسافر الانسان أين كان ليجتمع فيه بأهله فأتاها وهى قلعة منيعة قد تقاطعت حولها أودية من سائر جوانبها فأحدق العسكر بها ونصبت عليها المجانيق وكانت الامطار شديده والوحول عظيمه ولم يمنعه ذلك عن جده ولقد كنت ليلة فى خدمته وقد عين مواضع خمسة مجانيق حتى تنصب فقال فى تلك الليلة ما ننام حتى تنصب الخمسة وسلم كل منجنيق الى قوم ورسله تتواتر اليهم يخبرونه ويعرفونهم كيف يصنعون حتى أطلنا الصباح وقد فرغت المنجنيقات ولم يبق الا تركيب خنازيرها فيها فرويت له الحديث المشهور فى الصحاح وبشرته بمقتضاه وهو قوله صلى الله عليه وسلم عينان لا تمسهما النار عين باتت تحرس فى سبيل الله وعين بكت من خشية الله قال المؤلف أخرج الترمذى هذا الحديث وقال هو حديث حسن غريب قال ولم يزل القتال متواصلا بالنوب مع الصوم حتى سلمت بالامان فى رابع عشر شوال وقال العماد لما خرج السلطان من دمشق صحبه الفاضل وجعل طريقه على مرج برغوث وعبر مخاضة الاحزان وجاء الى صفد وقد لان من فيها من الفرنج وزادهم نفد فنزل عليه فى العشر الاوسط من رمضان فضايقها ونصب المجانيق عليها الى أن سلمها مقدمها فى ثامن شوال بالامان وراح الى صور وقد كانوا عدموا القوت ووجدوا الموت الموقوت وعلموا انهم ان لم تخرج صفد من أيديهم دخلت أرجلهم فى الاصفاد فتبرؤوا من الجهاد والجلاد وانها كانت فى عين الاسلام قذى لا يتوقع منها على الايام الا مضرة وأذى فسهل الله صعبها وأوطأ هضبها وكشف عن البلاد كربها وقذف فى قلوب أهلها رعبها فخرجوا مذعنين واستسلموا مسلمين وتبرؤوا من حصنهم ونزلوا بهوانهم ووهنهم وأحضروا رهائنهم للاستهلال فى نقل متاعهم وندموا على ما كان من امتناعهم قال واجتمع الفرنج بصور ونحن نضايق حصن صفد وقالوا متى فتحت صفد فان كوكب لا تمتنع وأملنا عن حفظها ينقطع والرأى ان نجرد لها نجدة لعلها تثبت الى أن توافينا من البحر ملوكنا فسيروا ما أتى رجل فتفرقوا فى تلك الاودية يكمنون فى الشعاب والهضاب واتفق ان أميرا من أصحابنا خرج متقنصا فوقع أحدهم فى قنصه وحصل طائر منهم فى قفصه فاستغرب وجوده فى ذلك المكان فهدده وتوعده وأقامه للعذاب وأقعده حتى دل على مكمن ذئابه فما أحسوا الا بصارم الدين قايماز النجمى وأجناده الا وقد نزلوا عليهم فى آكام ذلك الشعب ووهاده فتلقطوهم من كل غار ووجار ولم يهتد أحد من أولئك الضلال الى نهج فرار فما شعرنا ونحن على صفد للحصار حتى وصل صاحب قايماز بالاسارى مقرنين فى الاصفاد مقودين فى الاقياد وكان فيهما مقدمان من الاسبتار وقد أشفيا على البتار فان السلطان رحمه الله ما كان يبقى على أحد من الاسبتارية والداويه فاحضرا عند السلطان للمنيه فأنطقهما الله بما فيه حياتهما وناجيا بما به نجاتهما وقالا عند دخولهما ما نظن اننا بعد ما شافهنا ك يلحقنا سوء فعرفت ان بقاءهما مرجو فمال الى مقالهما وأمر باعتقالهما فان تلك الكلمة حركت منه الكرم وحقنت منهما الدم وفتح الله علينا صفد ثامن شوال حين فرغنا من صوم ست منه بعد صوم رمضان وجمعنا بين فضيلتى الصوم والجهاد وسلمت قلعة صفد الى شجاع الدين طغرل الجاندار واستبشرنا بانعكاس ما أحكمه الكفار

﴿فصل﴾ فى فتح حصن كوكب قال القاضى ابن شداد ثم سار رحمة الله عليه يريد كوكب فنزل على سطح الجبل وجرد العسكر وأحدق بالقلعة وضايقها بالكلية بحيث اتخذ له موضعا يتجاوزه نشاب العدو ويئس له حائطا من حجر وطين يستتر وراءه والنشاب يتجاوزه ولا يقدر ان يقف أحد على باب خيمته الا أن يكون ملبسا وكانت الامطار متواترة والوحول بحيث تمنع الماشى والراكب الا بمشقة عظيمة وعانى شدائد وأهوالا من شدة الرياح وتراكم الامطار وكون العدو متسلطا عليهم بعلو مكانه وجرح وقتل جماعة ولم يزل راكبا مركبا الجد رحمه الله حتى تمكن النقب من سورها ولما أحس العدو المخذول بالنقب وقد تمكن من السور علم انه مخذول مأخوذ فطلب الامان فأمنهم وتسلمها فى منتصف ذى القعدة ونزل الى الغور الى الثقل وكان قد أنزل الثقل من شدة الوحل والريح

فى سطح الجبل وقال العماد وجئنا الى كوكب فوجدناها فى مناط الكوكب كأنها وكر العنقاء ومنزل العوّاء قد نزلتها كلاب عاويه وتزغت بها ذئاب غاويه وقالوا لو بقى منا واحد لحفظ بيت الاستبتار وخلصه الى الابد من العار ولا بد من عود الفرنج الى هذه الديار فنتشدد للانتظار ثم وصف القتال بالرمى والمنجنيق والنقب والتعليق والحفر والتعميق والحصر والتضييق ثم قال وكان الوقت صعبا والغيث سكبا وتكاثرت السيول وتكاثفت الوحول ودامت الديم لدموعها مريقه وبقيت الخيم فى الطين غريقه وكنا فى شغل شاغل من تقلع الاوتاد وتوتد الاقدام ووهى الاطناب ووقوع الخيام وقد عادت الخيام مناخل الانداء والانوار معدومة لوجود الانواء وماء الشرب مفقود مع سيول الماء والرواحل فى الطين باركه وهى للعلف تاركه والطريق زلقه وهى مع سعتها ضيقه فنقل السلطان خيمته الى قرب المكان لتقريب وجوه الامكان وبنى له من الحجاره ما صار له كالستاره ونزلت الاثقال والخيم الى أسفل التل بالغور وأقام السلطان على محاصرة الحصن ومصابرته ونحن نركب اليه من الخيام بكرة وعشية للسلام وتنفيذ المهام حتى بلغ الرجال أماكن النقوب وتمكن لهم المطلوب فشرع الكفرة فى التذلل وسلموا الحصن بالامان وعرضه على جماعة فلم يقبل ولايته أحد سوى قايماز النجمى على كره منه وذلك فى منتصف ذى القعدة ونزل السلطان الى المخيم بالغور ومن كاب فاضلى الى سيف الاسلام باليمن عن السلطان (مما تجدد بحضرتنا فتح كوكب وهى كرسى الاسبتارية ودار كفرهم ومستقر صاحب أمرهم وموضع سلاحهم وذخرهم وكان يجمع الطرق قاعدا والملتقى السبل راصدا فتغلقت بفتحه بلاد الفتح واستوطنت وملكت طرقها وامنت وعمرت بلادها وسكنت ولم يبق فى هذا الجانب الا صور ولولا ان البحر يجدها والمراكب تردها لكان قيادها قد أمكن وجماحها قد أذعن وماهم بحمد الله فى حصن يحميهم بل فى سجن يحويهم بل هم أسارى وان كانوا طلقاء وأمواتا وان كانوا أحياء قال الله تعالى فلا تعجل عليهم انما نعد لهم عدا وكان نزولنا على كوكب بعد ان فتحنا صفد بلد الداوية المصونه وفتحنا الكرك وحصونه والمجلس السامى اعلم بما كان على الاسلام من مؤنته المثقله وقضيته المشكله وعلته المعضله والله تعالى المشكور على ما طوى من كلمة الكفر ونشر من كلمة الاسلام فان بلاد الشام اليوم لا يسمع فيها الغو ولا تأثيم الا قليلا سلاما سلاما فقد خلوها بسلام وكان نزولنا على كوكب والشتاء فى كوكبه وقد طلع من الانواء فى موكبه والثلوج تنشر على الجبال طيّ ملائها والاودية قد عجت بمائها وفاضت عند امتلائها فشحنت أنوفها سيولا وخرقت الارض وبلغت الجبال طولا والاوحال اعتقلت الطرقات ومشى المطلق فيها مشية الاسير فى الحلقات فتحشمنا العناء نحن ورجال العساكر وكابرنا العدو والزمان وقد تحرز الحظ المكابر وعلم الله النية فأنجدها بفعلها وضمير الامانة فأعان على حملها ونزلنا من رؤس الجبال منازل كان الاستقرار عليها أصعب من ثقلها) ثم قال (والآن فالمجلس السامى يعلم ان الفرنج لا يسلون عما فتحنا ولا يصبرون على ما جرحنا وانهم لعنهم الله أمم لا تحصى وجيوش لا تستقصى ويد الله فوق أيديهم وسيجعل الله بعد عسر يسرا وماهم الا كلاب قد تعاوت وشياطين قد تغاوت وان لم يقذفوا من كل جانب استأسدوا واستكلبوا وكانوا لباطلهم الداحض انصر منا لحقنا الناهض وقد كتب المستخدمون بالاسكندريه وصاحب قسطنطينيه والثغور المغربيه ينذرون بأن العدو قد أجمع أمرا وحاول نكرا وغضبوا زادهم الله غضبا وأوقدوا نارا للحرب جعلها الله عليهم حطبا وسلوا سيوفا للبغى لا يبعد ان يكونوا اغمادها وتواعدت جموع ضلالتهم أخلف الله ميعادها وأما نحن فبالله ندفع ما نطيق وما لا نطيق واليه نرغب فى ان يثبت قلوبنا اذا كادت تزيغ قلوب فريق ونحن الآن نستنجد أخانا وندعوه الى ماله دعينا ونؤمل من الله أن ينصرنا دنيا ودينا ونرجو ان يمدنا بنفسه سريعا وبعسكره جميعا وبذخره الذى كان لمثله مجموعا وان يلبيها دعوة اما ان يطيع بها ربه لانها دعوته واما ان ينصر بها نبيه صلى الله عليه وسلم فانها شريعته واما ان يعين بها أخاه فانها شدّته الاسلام لاشدّته هذا وان كان المجلس قد قعد عنا ولم يعدنا فى مرض الاجسام فلا يقعدنا فى مرض الاسلام فالبدار البدار فان لم يكن الشام له بدار فاليمن له بدار والجنة الجنة فانها لا تنال الا بايقاد الحرب على أهل النار والهمة الهمة فان البحار لا تلقى الا بالبحار والملوك الكبار لا يقف فى وجوهها الا الملوك الكبار وفى هذه السنة تنزل على انطاكيه وينزل ولدنا المظفر تقى الدين على اطرابلس ويستقر

الركاب

الركاب الملكى العادلى بمصر لانها مذكورة عند العدو انها تطرق وان الطلب على مصر والشام منه يفرق ولاغنى عن ان يكون المجلس السيفى بحرافى بلاد الساحل يزخرسلاحا ويجرد سيفا يكون على ما فتحنا قفلا ولما لم يفتح بعد مفتاحا ومايدعى للعظيم الا العظيم ولا يرجى لموقف الصبر الكريم الا الكريم هذا والاقدار جاريه ومشيئة الله ماضيه فان يشأ ينصرنا على العدد المضعف بالعدد الاضعف فانا لانرتاب بأن الله تعالى ما فتح علينا هذه الفتوح ليغلقها ولا جمع علينا هذه الامة ليفرقها وانما يؤثر أن يتساهم آل أيوب فى ميراثهم منه مواقف الصبر ومطالع النصر ولا يسرنا ان ينقضى عمره فى قتال غير الكافر ونزال غير الكفر المناظر فاغاهى سفرة قاصده وزجرة واحده فاذا هو قد بيض الصحيفة والوجه والذكر فليحضر وليشاهد أولاد اخيه يستشعرون لفراقه غما قد عاشوا ما عاشوا ولا يعرفون ان لهم مع عمهم عما) وله اليه من كتاب آخر وكأنه بعد اعتذاره عن الحضور (المولى على حسب اختياره ان سار فمثله من سار وسر وقاد الجيش وجر ونفع الولى وضر العدو الذى اضر وان أقام فالعذر الذى أقعده واشفاق السلطان عن نصره الذى ردّه عن وجهه والرأى الذى ردّده فلا يكن فى صدره من الامرين حرج ولا يخف استقصار عزمه ان ركد أو خرج فكانه مكانه من القلب وودّه وده وله من اللسان حمده وهو سيف الاسلام ان ضرب فبحده أو صين ففى غمده لازال المولى منوّها باسمه ومرفها فى جسمه ومجردا سيف عزمه وسعيدا بحكم التوفيق فلا خرج التوفيق عن حكمه) ومن كتاب عمادى الى الديوان بفتح الكرك والشوبك وظفر وكوكب يقول فيه (والآن فقد خلص لنا جميع مملكة القدس وحدّها فى سمت مصر من العريش وعلى صوب الحجاز من الكرك والشوبك وتشتمل على البلاد الساحلية الى منتهى أعمال بيروت ولم يبق من هذه المملكة الا صور وفتح أيضا جميع اقليم انطاكية ومعاقلها التى للفرنج والارمن وحدّه من أقصى بلاد جبلة واللاذقية الى بلاد ابلاون وبقيت انطاكية بمفردها والقصير من حصونها ولم يبق من البلاد التى لم تفتح أعمالها ولم تخل عما كانت عليه حالها سوى طرابلس فانها لم يفتح منها الا مدينة جبيل وقد سحبت عليها المهلة الديل ومعاقلها باقيه وليس لها من عذاب الله الواقع واقيه والخادم الآن على التوجه اليها وعزم النزول عليها وان قد رتب الجانب القبلى والبلد القدسى وشحن الثغور من حد جبيل الى عسقلان بالرجال والاموال وآلات العدد والعدد المتواصل المدد ورتب فيها ولده الافضل عليا لحمايتها وحفظ ولايتها وقلد ولده العزيز عثمان ولاية مصر ومملكة أعاليها لتهذيب أحوالها وتقويمها

(فصل) فى باقى حوادث هذه السنه قال العماد ولما فرغ السلطان من شغل القلاع ونزل الى الوهاد من التلاع تجدد للاجل الفاضل عزم مصر فركب السلطان معه للوداع ثم تحول الى صحراء بيسان وأقام بها الى مستهل ذى الحجة ثم رحل يوم الجمعة مستهل الشهر ومعه أخوه العادل وسلك طريق الغور الى القدس ووصله يوم الجمعه ثامن الشهر وهو يوم التروية وصلى الجمعة فى قبة الصخرة وعيد بها يوم الاحد عيد الاضحى وسار يوم الاثنين الى عسقلان للنظر فى مهامها ونظم أسباب أحكامها ثم أذن للعادل فى العود الى مصر لمساعدة ولده العزيز ووداعه وأعطاه الكرك وأخذ منه عسقلان قاله ابن شداد ورحل على سمت عكا بعسكره موفقا فى مورده ومصدره فاعتبر ببلد الاقوى عدده وكثر عدده وانفصل العماد عن خدمته الى دمشق عند رحيله من بيسان لعارض مرض سلبه الامكان ومازال منفصلا عنه الى ان وصل السلطان دمشق بعد شهرين مستهل صفر من السنة الجديده وفى هذه السنة فى الثالث والعشرين من رمضان توفى الامير مجد الدين مؤيد الدولة اسامة بن مرشد بن على بن منقذ وكان مولده بشيزر سنة ثمان وثلاثين واربعمائة فبلغ عمره ستا وتسعين سنه وفيها فى الثامن والعشرين من جمادى الاولى توفى الحافظ أبو بكر محمد بن موسى بن عثمان بن حازم الحازمى الهمدانى ببغداد صاحب المصنفات على صغر سنه منها العجالة والناسخ وغيرهما ومولده سنه ثمان أو تسع وأربعين وخمسمائة رحمه الله تعالى قال العماد ووصل كتاب من مصر ونحن على حصار صفد ان اثنى عشر رجلا اعلنوا بشعار أهل القصر ودخلوا من باب زويلة الى قرب الصيارفة مجذوبى السيوف لاداله الدولة الزاهقه ونصرة الدعوة الباطله وهم ينادون يال على وفى زعمهم انهم يقبلون بالصوله ويقلبون بالباس لباس الدوله ويخالون انهم اذا ثاروا أثاروا واذا داروا أداروا فما اكترث بهم مكترث ولا انبعث اليهم منبعث فلما تحققوا انهم لا مجيب لهم ولا داع تفرقوا فى الدروب واضمحلوا وكانوا عقدوا على الوفاء

فانحلوا ثم أخذوا ووقذوا واعتقلوا ولم يستنقذوا ولما علم السلطان بهذا الامر عراه الهم وتضجر بمن على بابه من وفود مصر وقال الى متى نتحمل منهم هذا الوهم فطردهم وردعهم وردهم وكان قد وفد الى الباب السلطانى جماعة من أولاد الوزراء المصريين والامرا بها المقدمين ومن أهل المعروف المعروفين ووافق ذلك دخول الفاضل اليه فأخبره بالخبر فقال له يجب ان تشكر الله على هذه النعمة فقد عرفت بهذا طاعة رعيتك وموافقة نياتهم لنيتك اليس لم يلب دعوتهم أحد ولم يكن من ورائهم مدد فطب نفسا وزد بمنزلتك عند الله أنسا فقال السلطان كان الملوك قبلى تخافهم وتهرب منهم الرعيه وتتوقع منهم البليه والآن فقد تكاثروا علينا وتوافدوا الينا حتى اضجرونا وأملونا ونفرونا فاذا ركبنا او نزلنا تعاورونا بالقصص وساورونا بالغصص فقال له أنت أولى بشكر الله على هذه العارفه كان بمصر من صاحب القصر وأشياعه وخدمه واتباعه وأمرائه وخواصه وذوى استخلاصه وجهاته والزامه كل من كان يرتع الخلق فى رياض انعامه وكان بالشام فى كل بلد وال وصاحب له على أهله نعم ومواهب وملوك يلوذ بهم الاقارب والاجانب واليوم أنت سلطان الجميع وقد ردّ الله الآمال فى تلك الصنائع كلها الى مالك من حسن الصنيع وقد اجتمع أولئك المتفرقون على بابك ووفدوا الى جنابك فلا يجدون بعد الله الا جودك فأكرم وفودك فأغرورقت بالدموع عيناه وبالسماح يداه وأقسم انه ما عاش لا يردّ قاصدا ولا يصدّ وافدا وتقدم فى الحال بقضاء حقوق الوافدين وانجاح آمال القاصدين قلت وكتب الى السلطان فى هذا المعنى أبو الفتح سبط التعاويذى من بغداد

فلا يضجرنك ازدحام الوفو ❊ د عليك وكثرة ما تبذل
فانك فى زمن ليس فيـــــه جواد سواك ولا مفضل
وقد قل فى أهله المنعمو ❊ ن وقد كثر البائس المرمل
وما فيه غيرك من يستما ❊ ح وما فيه الاك من يسأل

وقرأت رقعة بخط الفاضل (المملوك ينهى وصول نفر الكتاب الجوينى وقد كاد يهلك من لهب الحر والمشقة فى السير وكيف يكون حال ابن السبعين مع المرض اللازم والقولنج الدائم ونحافة الاعضاء وضعف القوة واستشعار انقطاع الرزق الذى هو نظير انقطاع العمر وما أظن ان الله أجرى على يد المولى ولا فرح عدوّه له بأن ينقطع رزق مثل هذا البقية الحسنة والضيف الراحل والاديب الفاضل فى أيام مولانا التى هى تاريخ الكرم ومواسم النعم) وفى آخرها (ومما يجب ان يعلم المولى ان ارزاق أرباب العمائم فى دولته اقطاعا وراتبا بحساب وزمائتى ألف دينار بشهادة الله وربما كانت ثلثمائة ألف دينار) وفوق الرقعة بالخط الصلاحى (وقفت على رقعة القاضى الفاضل وما يقطع لاحد رزق ان شاء الله تعالى بل هى علالات نحن مثل الغريم المنكسر نرضى لذا بمال ذا وعلى الجملة ما تقدمت بقطع رزق أحد والورقة قد علمت اكتب فيها الذى لهما ولغيرهما ان شاء الله تعالى) وكان فى آخر الرقعة ذكر الجمال الخيفى وكأنه كان له مثل حاجة الجوينى رحم الله الكل اجمعين

❊ (ثم دخلت سنة خمس وثمانين) ❊ قال العماد والسلطان فى عكا نافذ الامر نافه القدر قد أحكم أمرها وكشف ضرها واستحضر جماعة من مصر يحمى بهم الثغر فما انفصل حتى وصلوا واتبعوا أمره وامتثلوا وتقدم الى بهاء الدين قراقوش باتمام العمارات وولى حسام الدين بشارة وعوّل عليه فى الولايه والحفظ والحمايه وقال القاضى ابن شداد أقام بعكا معظم المحرّم يصلح أحوالها ورتب فيها بهاء الدين قراقوش واليا وأمره بعمارة السور والاطناب فيه ومعه حسام الدين بشاره وسار يريد دمشق فدخلها مستهل صفر قال العماد وولى مملوكه فارس الدين كشتغدى شهرزور وأعمالها وكان قد تزوج بأخت عز الدين حسن بن يعقوب بن قنجاق فولاه ذلك لقرب الولاية القنجاقيه من الشهرزوريه وقصد حصول المناصره بحكم المصاهره قال وحكم السلطان بدر الدين مودود فى ولاية دمشق وجدّد له منشورا بانشائى وفيه (وقد قلدناه أمر دمشق وجهاتها وأعمالها والعشرى والزكوات وكل ما يجرى فى الديوان وما يبتاع للخزانة وولاية المرج والغوطة وما يضاف اليها من الاعمال وولاية الجبل ووادى برد او يبوس وتولى الشحنكيات وحفظ الطرقات) ثم رحل السلطان الى طبريه فالحقها بعدلته العمريه ثم وصل وأقام بدمشق

شهر صفر ووجه الدين به قد سفر وعزم من آمن وذل من كفر وبدأ بحضور دار العدل وحكم بالشرع المطهر ووصل فى ثانى عشر صفر رسول الديوان ضياء الدين عبد الوهاب بن سكينه والوزير يومئذ معز الدين بن حديده يأمر بالخطبه لولى العهد عدة الدين أبى الفضل نصر محمد بن الامام الناصر فاستقبله السلطان وأولاده وأمراؤه واجناده وخطب له بذلك يوم الجمعة ثالث عشر صفر خطيب دمشق ضياء الدين أبو القاسم عبد الملك بن زيد الدولعى فلما انقضت الخطبة وعاد الرسول سير السلطان معه رسوله ضياء الدين القاسم بن يحيى الشهرزورى وسيرت معه الهدايا والتحف السنايا وأسارى الفرنج الفرارس وعددها النفائس وتاج ملكهم السليب والملبوس والطيب والصليب وهو الذى كان فوق القبة بالصخرة المقدسه ليدل على تطهير ما كان هنالك من الاسباب المدنسه وسار الضيا آن رسولهم ورسول السلطان ودخلا بغداد وأسارى الفرنج على هيئتها يوم فراغها راكبة حصنها فى طوارقها وبيارقها وادراعها قد نكست بنودها واتعست أنوفها وهيئت على هيئة فتوحنا حتوفها قلت وقال ابن القادسى قدم ابن الشهرزورى ومعه صليب الصلبوت الذى تعظمه النصارى فدفن تحت عتبة باب النوبى الشريف يتبين منه شئ قليل وكان من نحاس وقد طلى بالذهب فجعل يداس بالارجل ويبصق الناس عليه وذلك فى سادس عشر ربيع الآخر كذا قال صليب الصلبوت وقد نص العماد فى البرق على انه الصليب الذى كان فوق الصخرة وهذا غير ذلك والله أعلم ثم ان الخليفة الناصر اعتقل ابنه هذا بعد مدة فى سنة احدى وستمائة وأراده على خلع نفسه من ولاية العهد ففعل وأشهد على نفسه بذلك ثم قضى الله سبحانه ان عادت اليه ولاية العهد فى أواخر عمره فخطب له بذلك ونقش اسمه على الدينار والدرهم الى ان توفى الناصر سنة اثنتين وعشرين وتولى بعده فاقام نحو تسعة أشهر وكتب بالظاهر ثم توفى وولى ابنه المستنصر المنسوب اليه المدرسة ببغداد ثم توفى سنة أربعين وولى ابنه المستعصم بالله وهو الخليفة الآن والله المستعان

﴿فصل﴾ فى فتح شقيف ارنون قال القاضى ابن شداد وهو موضع حصين قريب من بانياس خرج السلطان من دمشق بعد صلاة الجمعة فى الثالث من ربيع الاول فسار حتى نزل فى مرج فلوس ونزل من الغد يوم السبت فى مرج برغوث فاقام به والعساكر تتابع الى حادى عشرة ورحل الى بانياس ومنها الى مرج عيون فخيم به وهو قريب من شقيف ارنون بحيث يركب كل يوم يشارفه ويعود والعساكر تجتمع وتطلبه من كل صوب فاقنا أياما نشرف كل يوم على الشقيف والعساكر الاسلامية فى كل يوم تصبح متزايدة العدد والعدد وصاحب الشقيف يرى ما يتيقن معه عدم السلامة فرأى ان اصلاح حاله معه قد تعين طريقا الى سلامته فنزل بنفسه وما أحسن ما به الا وهو قائم على باب خيمة السلطان فاذن له فدخل فاحترمه وأكرمه وكان من كبار الفرنجية وعقلائها وكان يعرف بالعربية وعنده اطلاع على شئ من التواريخ والاحاديث قال وبلغنى انه كان عنده مسلم يقرأ له ويفهمه وكان عنده اناة فحضر بين يدى السلطان وأكل معه الطعام ثم خلا به وذكر انه مملوكه وتحت طاعته وانه يسلم اليه من غير تعب واشترط ان يعطى موضعا يسكنه بدمشق فانه لا يقدر بعد ذلك على مساكنة الفرنج واقطاعا بدمشق يقوم به وباهله وانه يمكن من الاقامة بموضعه وهو يتردد الى الخدمة ثلاثة أشهر من تاريخ اليوم الذى كان فيه حتى يتمكن من تخليص أهله وجماعته من صور ويأخذ مغل هذه السنه فاجيب الى ذلك كله وأقام يتردد الى خدمة السلطان فى كل وقت ويناظرنا فى صحة دينه ونناظره فى بطلانه وكان حسن المحاورة متأدبا فى كلامه ثم استفاض بين الناس ان صاحب الشقيف فعل ما فعله من المهلة غيلة لانه صادق فى ذلك وانما قصد به تدفيع الزمان وظهرت لذلك مخايل كثيره من الخوض فى تحصيل الميره واتقان الابواب فرأى السلطان أن يصعد الى سطح الجبل ليقرب من المكان ويمنع من دخول نجدة وميرة اليه وأظهر ان سبب ذلك شدة حر الزمان والفرار من وخم المرج فنزل صاحبه وسأل أن يمهل تمام سنة فاطله السلطان وما آنسه وقال نفكر فى ذلك ونجمع الجماعه ونأخذ رأيهم ثم وكل به من حيث لا يشعر الى أن كان من أمره ما سيذكر قال وفى أثناء ربيع الاول وصل الخبر بتسليم الشوبك وكان قد أقام السلطان عليه جمعا عظيما يحاصرونه مدة سنة حتى فرغت أزوادهم وسلموه بالامان وقال العماد كان الشقيف فى يد صاحب صيدا ارناط وقد أكل فى حفظه الاحتياط فنزل الى خدمة السلطان وسأل أن يمهل ثلاثة أشهر يتمكن فيها من نقل من يصور من أهله وأظهر انه محترز من علم المركيس لعنه الله بحاله فلا يسلم من جهله وحينئذ

يسلم الموضع بما فيه ويدخل فى طاعة السلطان ومراضيه ويخدمه على اقطاع يغنيه وعن حب أهل دينه يسليه فاكرمه وقربه وقضى أربه وأجابه الى ماسأله وقبل منه عزيزا ما بذله بذله واقتنع بقوله ولم يأخذ رهينه ووجد اليه سكونا وسكينه فشرع ارناط فى ازالة حصنه وازالة وهنه وترميم مستهدمه وتوفير غلاله وتدبير أحواله ونحن فى غرة من تحفظه وفى سنة من تيقظه وكان يبتاع من عسكرنا الميره ويكثر فيه الذخيره وقد أثمر الغدر وظن ان له النصر والسلطان حسن الظن به يحمل صدق الواشى به على كذبه وكان انتهاء المدّة يوم الاحد ثامن عشر جمادى الآخرة وأقام السلطان بالمرج ينتظر انسلاخ الهدنة وتسليم الحصن وخاف ان فارقه ان تجئ امداد الفرنج اليه وكان مشفقا أيضا من جانب انطاكية لانتهاء أشهر هدنتها فكتب الى تقى الدين بالمقام فى تلك الخطة وسير بذلك الفقيه عيسى الهكارى ولم نستدع الا صاحب آمد قطب الدين سكمان بن قرا ارسلان فجاء فى امداده واعداده ولازم السلطان فلما قرب انتهاء مدّة صاحب الشقيف أحضره السلطان فتضرع وقال ان قومى الى الآن لم يخلصوا من صور وقد أنعمت فاتمم وسأل أن تكون المهلة سنة فعرف السلطان من فحوى حاله أمارات الارتياب فكلمه بايناس ومارده بياس فأرخى طوله وأرجى أمله وأمر السلطان بتحويل الخيم الى ظاهر الجبل ليقرب من الحصن وقد بقى من الهدنة يومان فتضور صاحب الحصن فقيل له تقيم عندنا فى كنف الامان فبكى وتألم من ضبطه وانكشفت سريرته الغادره فأمر بحمله الى الشقيف حتى يسلمه ووكل به وحفظ من حيث لا يعلم وقيل لعله يحسن ولا يحوج الى المقابحة ويسلم وقيل له قد بقى يومان من المدّة تقيم حتى تنتهى وتسلم فأبدى صروره وضراعه وقال سمعا وطاعه وكان له ملق وملق وفى لسانه دلق وما عنده من كل ما يفرق فرق وقال اما أنفذ الى نوابى فى التسليم وهو قد تقدم اليهم بالوصية والتعليم فأظهروا عصيانه وقالوا يبقى مكانه فقيد وحمل الى قلعة بانياس وبطل الرجاء فيه وبان الياس ثم استحضر فى سادس رجب وهدده وتوعده فلما لم يفد خطابه ولم يجد عذابه سيره الى دمشق وسجنه ورتب عدة من الامراء بملازمة حصر الحصن فى الصيف والشتاء الى أن تسلمه بعد سنة بحكم السلم وأطلق صاحبه وأجرى عليه حكم الحلم

﴿فصل﴾ وفى مدة مقام السلطان على مرج عيون لمحاصرة شقيف ارنون اجتمعت الفرنج وجرت لهم مع المسلمين وقائع قال القاضى ابن شداد كان السلطان قد اشترط على نفسه حين تسلم عسقلان انه ان أمر الملك من بها بتسليمها أطلقه فأمرهم بتسليمها وسلموها فطالبه الملك باطلاقه فأطلقه وفاء بالشرط ونحن على حصن الاكراد أطلقه من انطرسوس واشترط عليه أن لا يشهر فى وجوهه سيفا أبدا وان يكون مملوكه وطليقه فنكث لعنه الله وجمع الجموع وأتى صور يطلب الدخول اليها فخيم على بابها راجع المركيس الذى كان بها فى ذلك الوقت وكان المركيس اللعين رجلا عظيما ذا رأى ورياسة شديد وصرامة عظيمة فقال له انى نائب الملوك الذين وراء البحر وما أذنوا لى فى تسليمها اليك وطالت المراجعة واستقرت القاعدة بينهما على أن يتفقوا جميعا على المسلمين ويجتمع العساكر التى بصور وغيرها من الفرنجية على المسلمين وعسكروا على باب صور ولما كان يوم الاثنين سابع عشر جمادى الاولى بلغ السلطان من جانب البزك ان الفرنج قد قطعوا الجسر الفاصل بين أرض صور وأرض صيدا وهى الارض التى نحن عليها فركب السلطان نحو البزك فوصل وقد انفصلت الوقعة وذلك ان الفرنج عبر منهم جماعة الجسر فنهض اليهم بزك الاسلام وكانوا فى عدة وقوة فقاتلوهم فقتلوا منهم خلقا كثيرا وجرحوا أضعاف ما قتلوا ورموا فى النهر جماعة فغرقوا ولم يقتل من المسلمين الا مملوك للسلطان يعرف بايبك الاخرش وكان شجاعا باسلا مجربا للحرب ممارسا فتقنطر به فرسه فلجأ الى صخرة فقاتل بالدشاب حتى فنى ثم بالسيف حتى قتل جماعة ثم تكاثروا عليه فقتلوه وفى يوم الاربعاء تاسع عشر جمادى الاولى ركب السلطان يشرف على القوم على عادته فتبع العسكر خلق عظيم من الرجالة والغزاة والسوقه وحرص رحمه الله فى ردهم فلم يفعلوا وخاف عليهم فان المكان كان حرجا ليس للراجل فيه ملجأ ثم هجم الرجالة الى الجسر وناوشوا العدو وعبر منهم جماعة اليهم وجرى بينهم قتال شديد واجتمع لهم من الفرنج خلق عظيم وهم لا يشعرون وكشفوهم بحيث علموا ان ليس وراءهم كمين فحملوا عليهم حملة واحدة على غرة من السلطان فانه كان بعيدا منهم ولم يكن معه عسكر فانه لم يخرج للقتال وانما ركب مستشرفا عليهم على العادة فى كل

يوم ولما بان له الوقعة وظهر له غبارها بعث اليهم من كان معه ليردوهم فوجدوا الامر قد فرط والفرنج قد تكاثروا حتى خافت منهم السرية التي بعثها السلطان وظفروا بالرجالة ظفرا عظيما وأسروا جماعة وعدة من قتل من الرجالة في ذلك اليوم فكان عدد الشهداء مائة وثمانين نفرا وقتل من الفرنج أيضا عدة عظيمة وغرق أيضا منهم عدة وكان ممن قتل منهم مقدم الالمانية وكان عندهم عظيما محترما واستشهد في ذلك اليوم من المعروفين من المسلمين الامير غازي بن سعد الدين مسعود بن البيطار وكان شابا حسنا نجيبا واحتسبه والده في سبيل الله ولم يتقطر من عينه عليه دمعة على ما ذكره جماعة لازموه قال وهذه الوقعة لم يتفق للفرنج مثلها في هذه الوقائع التي حضرتها وشاهدتها ولم ينالوا من المسلمين مثل هذه الوقعة في هذه المدة ولما رأى السلطان ما حل بالمسلمين من هذه الوقعة النادرة جمع أصحابه وشاورهم وقرر معهم انه يهجم على الفرنج ويعبر على الجسر ويقاتلهم ويستأصل شافتهم وكان الفرنج قد رحلوا عن صور ونزلوا قريب الجسر وبين الجسر وصور مقدار فرسخ وزائد على فرسخ فلما صمم العزم على ذلك رحل الفرنج عائدين الى صور ملتجئين الى سورها فرأى رحمه الله ان يسير الى عكا ليحفظ ما بنى من سورها ويحث على الباقي فراح على تبنين ولم يرجع على مرج عيون فمضى الى عكا فرتب أحوالها وعاد الى العسكر بمرج عيون منتظرا مهلة صاحب الشقيف ولما كان يوم السبت سادس جمادى الآخرة بلغه ان جماعة من رجالة العدو يتبسطون ويصلون الى جبل تبنين يحتطبون وفي قلبه من رجالة المسلمين وما جرى عليهم أمر عظيم فرأى أن يقرر قاعدة كمين يرتبه لهم وبلغه انهم يخرج وراءهم أيضا خيل تحفظهم فعمل كمينا يصلح للقاء الجميع ثم أنفذ الى عسكر تبنين أن يخرجوا في نفر يسير عابرين على تلك الرجالة وان خيل العدو اذا اتبعتهم ينهزمون الى جهة عينها لهم وان يكون ذلك صبيحة الاثنين ثامن جمادى الآخرة وارسل الى عسكر عكا أن يسير حتى يكون وراء عسكر العدو حتى ان تحركوا في نصرة أصحابهم قصدوا خيمهم وركب هو وجحفله الى الجهة التي عينها لهزيمة عسكر تبنين حتى قطع تبنين ورتب العسكر ثمانية أطلاب واستخرج من كل طلب عشرين فارسا وأمرهم أن يتراؤا للعدو حتى يظهروا اليهم وينادوشوهم وينهزموا بين أيديهم حتى يصلوا الى الكمين ففعلوا ذلك وظهر لهم من الفرنج معظم عسكرهم يقدمهم الملك لعنه الله وجرى بينهم وبين هذه السرية اليسيرة قتال شديد والتزمت السرية القتال وأنفوا من الانهزام بين أيديهم وحملتهم الحمية على مخالفة السلطان واتصل الخبر بالسلطان في أواخر الامر وقد هجم الليل فبعث بعوثا كثيرة فعاد الفرنج ناكصين على أعقابهم وقتل من الفرنج عشرة أنفس ومن المسلمين ستة اثنان من الترك وأربعة من العرب منهم الامير زامل وكان شابا ما حسن الشباب بتقدم عشيرته وكان سبب قتله انه تقنطرت به فرسه ففداه ابن عمه بفرسه فتقنطرت به أيضا وأسر هو وثلاثة من أهله فلما بصر الفرنج بمدد العسكر قتلوهم خشية الاستنقاذ وجرح خلق كثير من الطائفتين وخيل كثيرة قال ومن نوادر هذه الوقعة ان مملوكا من مماليك السلطان يقال له ايبك اثخن بالجراح حتى وقع بين القتلى وجراحاته تشخب دماوبات ليله أجمع على تلك الحال الى صبيحة يوم الثلاثاء فتفقده أصحابه فلم يجدوه فعزوا السلطان فقده وأنفذ من يكشف عن حاله فوجدوه بين القتلى فحملوه الى المخيم وعافاه الله وعاد السلطان الى المخيم يوم الاربعاء عاشر الشهر فرحا مسرورا وقال العماد اجتمع من كان سلم من الفرنج ونجا على ملكهم الذي خلص من الاسر وقالوا نحن في جمع جم خارج عن الحصر وقد تواصلت الينا امداد البحر فسرينا للثار وأعذنا من هذا العار وجاء من كان بطرابلس وخيموا على صور واتفقوا انهم يقصدون بلدا اسلاميا من الساحل ويقيمون عليه والمركيس يمدهم من صور بالمدد والعدد ثم جاء الخبر انهم على قصد صيدا للحصر وقد جسروا على عبور الجسر ووقعت عليهم اليزكية فردوهم ووقع في الاسر من سباعهم سبعة فحملوا الى سجن دمشق ثم ذكر قتلهم للغزاة المطوعة على الجسر وقال لم يصب الكفار من المسلمين مذ أصيبوا غير هذه الكرة واذا تونا بعد ان حللنا جنا الفتوحات مرارة هذه المرة فايقظنا الله من رقدة المغره وأخذ الناس حذرهم وقالوا بهذا وعد الله حيث قال فيقتلون ويقتلون وعباده هم الذين يتبعون أمره ويمتثلون ثم ذكر وقعة الكمين قال وكان مع المسلمين أربعة من أمراء العرب فحملوا كما وصاهم السلطان على عزم الطراد ليقصدوا الكمين وسلكوا أسفل الوادي وانما الطريق أعلاه ولا خبرة لهم بتلك الارض فعرف الفرنج انهم ضائعون فطاردوهم

وردّوهم الى المضيق وانفت العرب من الهزيمة فاستشهدوا قال وكان معهم مملوك للسلطان يقال له ايبك الساقى فاعتزل الى صخرة واحتمى بها ونكب كنانته ورماهم بنشابها وهم لا يقدرون على الاقتحام اليه بالخيل فرموه بالزنبورك حتى كثرت فيه الجراحات وظنوا انه قد مات ووصل الخبر الى المسلمين فادركوهم ووقفوا على الشهداء وقبروهم وجاؤا الى ايبك فوجدوا فيه الروح فنقلوه الى الخيام وهم يظنون انه لا خلاص له من الحمام وكان فى اجله باقيه فمنّ الله عليه بالعافيه

(فصل) فى نزول الفرنج خذلهم الله على عكا قال القاضى ابن شدّاد ثم بلغنا بعد ذلك ان الفرنج بصور ومن كان مع الملك قدسار وانحو النواقير يريدون جهة عكا وان بعضهم نزل باسكندرونه وجرى بينهم وبين رجالة المسلمين مناوشة وقتل منهم المسلمون نفرا يسيرا وأقاموا هناك ولما بلغ السلطان حركتهم الى تلك الجهة عظم عليه ولم ير المسارعة خوفا من ان يكون قصدهم ترحيلهم عن الشقيف لا قصد المكان فاقام مستكشفا للحال الى يوم الاحد ثانى عشر رجب فوصل قاصد اخبران الفرنج فى بقية ذلك اليوم رحلوا ونزلوا عين بصه ووصل أوائلهم الى الزيب فعظم عنده ذلك وكتب الى سائر أرباب الاطراف بالمسير اليه وتقدّم الى الثقل ان سار بالليل وأصبح هو يوم الاثنين ثالث عشر رجب سائرا الى عكا على طريق طبرية اذ لم يكن ثم طريق يسع العسكر الا هو وسير جماعة على طريق تبنين يستشرفون العدوّ ويواصلون باخباره وسرنا حتى أتينا الجولة منتصف النهار فنزل بها ساعة ثم رحل وسار طول الليل حتى أتى موضعا يقال له المنية صبيحة الثلاثا وفيه بلغنا نزول الفرنج على عكا وسير صاحب الشقيف الى دمشق بعد الاهانة الشديدة على سوء صنيعه واشتد حنقه عليه بسبب تضييع ثلاثة أشهر عليه وعلى عسكره لم يعملوا فيها شيئا وسار السلطان جريدة من المنية حتى اجتمع ببقية العسكر الذى كان أنفذه على طريق تبنين بمرج صفورية فانه كان واعدهم اليه وتقدّم الى النقل ان يلحقه الى مرج صفورية ولم يزل حتى شارف العدوّ من الخروبة وبعث بعض العسكر ودخل عكا على غرة من العدوّ وتقوية لمن فيها ولم يزل يبعث اليها بعثا بعد بعث حتى حصل فيها خلق كثير وسار من الخروبة الى تل كيسان فى أوائل مرج عكا فنزل عليه وأمر الناس ان ينزلوا على التعبية فكان آخر الميسرة على طرف النهر الحلو وآخر الميمنة مما يلى تل العياضية واحتاط العسكر الاسلامى بالعدوّ وأخذوا عليهم الطرق من سائر الجوانب وتلاحقت العساكر الاسلامية واجتمعت ورتب البزك الدائم وحصر العدوّ فى خيامه بحيث لا يخرج منها أحد الا يجرح أو يقتل وكان عسكر العدوّ على شطر من عكا وخيمة ملكهم على تل المصلبين قريبا من باب البلد وكان عدد راكبهم ألفى فارس وعدد راجلهم ثلاثين ألفا قال ومارأيت من نقصهم عن ذلك ورأيت من حزرهم بزيادة على ذلك ومددهم من البحر لا ينقطع وجرى بينهم وبين البزك مقاتلات عظيمة متواترة والمسلمون يتهافتون على قتالهم والسلطان يمنعهم من ذلك الى وقته والبعوث من عساكر المسلمين تتواصل والملوك والامراء من الاقطار تتابع ووصل تقى الدين من حماه ومظفر الدين بن زين الدين وفى اثناء هذه الحال توفى الحسام سنقر الحلاطى وفاة بأس شديد وكان شجاعا ديّنا فأسف المسلمون عليه ولما استفحل أمر الفرنج استداروا بعكا بحيث منعوا من الدخول والخروج منها وذلك سلخ رجب فعظم على السلطان وضاق صدره وثارت همته العالية فى فتح الطريق الى عكا لتستمر السابلة اليها بالميرة والنجدة فباكرهم مستهل شعبان وضايقهم مضايقة شديدة فكانت الحملة بعد صلاة الجمعة وانتشر عسكر العدوّ الى ان ملكوا التلول وكانت ميسرة عسكرهم الى البحر الحلو أخذة الى البحر الملح وميمنتهم قبالة القلعة الوسطى التى لعكا واتصلت الحرب الى ان حال بين الفئتين هجوم الليل وبات الناس على حالهم من الجانبين شاكين فى السلاح تحرس كل طائفة نفسها من الاخرى وأصبحوا ثانى شعبان يوم السبت على القتال وأنفذ السلطان طائفة من شجعان المسلمين الى البحر من شمالى عكا ولم يكن هناك للعدوّ خيم لكن عسكره كان قد امتدّ جريدة شمالى عكا الى البحر فحمل شجعان المسلمين على عسكر الفرنج الواقف شمالى عكا فانكسروا بين أيديهم كسرة عظيمة وقتلوا منهم جمعا كبيرا والتفت السالمون منهم الى خيامهم وهجم المسلمون خلفهم الى أوائل خيامهم ووقف البزك الاسلامى مانعا من ان يخرج من عسكرهم خارج أو يدخل اليه داخل وانفتح الطريق الى عكا من باب القلعة المسماة بقلعة الملك الى باب قراقوش الذى جدّده وصار الطريق مهيعا يمر فيه السوقى ومعه الحوائج

ويمر به الرجل الواحد والمرأة واليزك بين الطريق وبين العدو ودخل السلطان فى ذلك اليوم الى عكا ورقى على السور ونظر الى عسكر العدو وتراجع الناس عن القتال بعد صلاة الظهر لسقى الدواب وأخذ الراحة ولم يعودوا الى القتال وأصبحوا يوم الاحد فرأى بعض الامراء تأخير القتال الى ان يدخل الراجل كله الى عكا ويخرجوا مع العسكر المقيم بها من أبواب البلد على العدو من ورائه وتركب العساكر من خارج من سائر الجوانب ويحملوا حملة الرجل الواحد والسلطان رحمه الله تعالى يعانى هذه الامور كلها بنفسه ويصافحها بذاته لا يتخلف عن مقام من هذه المقامات وهو من شدة حرصه ووفور همته كالوالدة الثكلى ولقد أخبرنى بعض أطبائه انه بقى من يوم الجمعة الى يوم الاحد لم يتناول من الغذاء الا شيئا يسيرا لفرط اهتمامه وفعلوا ما كان عزموا عليه واشتدت منعة العدو وحمى نفسه فى خيامه ولم تزل سوق الحرب قائمة تباع فيها النفوس بالنفائس وتمطر سماء حربها الرؤس من كل رئيس ومترائس حتى كان يوم الجمعة ثامن شعبان عزم العدو على الخروج بجموعهم فخرج راجلهم وفارسهم وامتدوا على التلول وساروا الهوينا غير مفرطين فى نفوسهم ولا خارجين من راجلهم والرجالة حولهم كالسور المبنى يتلو بعضهم بعضا حتى قاربوا خيام اليزك فصاح السلطان بالعساكر الاسلامية فركبوا باجمعهم وحملوا حملة الرجل الواحد فعاد العدو ناكصا على عقبيه والسيف يعمل فيهم فالسالم منهم جريح والعاطب طريح يشتدون هزيمة يعثر جريحهم بقتيلهم ولا يلوى الجماعة منهم على قبيلهم حتى لحق بخيامهم من سلم منهم وانكفوا عن القتال أياما وكان قصاراهم ان يحفظوا نفوسهم ويحرسوا رؤوسهم واستمر فتح طريق عكا والمسلمون يترددون اليها قال وكنت ممن دخل ورقى على السور ودام القتال بين الفئتين متصلا الليل مع النهار حتى كان الحادى عشر من شعبان ورأى السلطان رحمه الله توسيع الدائرة عليهم لعلهم يخرجون الى مصارعهم فنقل الثقل الى تل العياضية وهو تل قبالة تل المصلبين مشرف على عكا وخيام العدو وفى هذه المنزلة توفى حسام الدين طمان وكان من شجعان المسلمين ودفن فى سطح هذا التل وصليت عليه مع جماعة من الفقهاء ليلة نصف شعبان وبلغ السلطان ان جمعا من العدو يخرجون للاحتشاش من طرف النهر مما ينبت عليه فكمن لهم جماعة من العرب وقصد العرب لخفتهم على خيلهم فهجموا عليهم وقتلوا منهم خلقا عظيما وأسروا جماعة وأحضروا رؤسا بين يديه وذلك يوم السبت تاسع عشر شعبان وفى عشية ذلك اليوم وقع بين العدو وبين أهل البلد حرب عظيمة قتل فيها جمع عظيم من الطائفتين وطال الامر بين الفئتين وما يخلو يوم عن قتل وجرح وسبى ونهب وأنس البعض بالبعض بحيث ان الطائفتين كانتا تتحدثان وتتركان القتال وربما غنى البعض ورقص البعض لطول المعاشرة ثم يرجعون الى القتال بعد ساعة وسئموا يوما فقالوا الى كم يتقاتل الكبار وليس للصغار حظ نريد ان يصطرع صبيان صبى منا وصبى منكم فاخرج صبيان من البلد الى صبيين من الفرنج فوثب أحد الصبيين المسلمين على أحد الصبيين الكافرين فاحتضنه وضرب به الارض وأخذه أسيرا فاشتراه منه بعض الفرنج بدينارين وقالوا هو أسيرك حقا فاخذ الدينارين وأطلقه قال ووصل مركب فيه خيل فهرب منها فرس ووقع فى البحر ومازال يسبح وهم حوله يردونه حتى دخل مينا عكا وأخذه المسلمون قلت وذكر العماد كل هذه الوقايع والنوادر فى كتابه بألفاظه المسجوعة وقال كان من رأى السلطان ان يسايرهم فى الطريق ويواقعهم عند المضيق ويقطعهم عن الوصول ويدفعهم عن النزول فانهم اذا نزلوا صعب نزالهم وأتعب قتالهم وقالوا يعنى أمراءه بل نمضى على أسهل الطرق فسار الثقل من الليل على طريق الملاحة وسرنا على جب يوسف الى المنيه وجئنا عصر يوم الثلاثا والسلطان نازل بأرض كفركنا ونزل يوم الاربعا على جبل الخروبة ونزل الفرنج على عكا من البحر الى البحر محيطين بها للحصر وضرب الملك العتيق خيمه على تل اصلبه وربطب مراكبهم بشاطئ البحر فكانت كالآجام المؤتشبه ثم عبر السلطان بجيشه ونزل بمرج عكا على تل كيسان وصرنا محاصرين المحاصرين قد أحطنا بالعدو وهو بالبلد محيط واستشطنا منه وهو مستشيط واحدقنا بأولئك الكفرة احاطة النار بأهلها ومنعنا الطرق من ورائهم فى وعرها وسهلها ورتبنا بالزيب والنواقير رجالا يصدونهم عن سبلها ودمنا نصدهم ونصدمهم ونوجدهم فى البحر ونعدمهم واستدارت الفرنج بعكا كالدائرة بالمركز وزادوا من جانبنا فى التحرس والتحرز وذلك فى آخر رجب لانسلاخه والاسلام ينادينا

باستصراخه وأصبح السلطان يوم الجمعة مستهل شعبان وقد اتفقت الاراء على ان يكون اللقاء وقت الصلاة عند ارتفاع الدعوات على المنابر الاسلامية فأحاط العسكر الاسلامي بجوانبهم فكدر عليهم صفوة مشاربهم وقلل مضاء مضاربهم وهم في مواضعهم واقفون وعلى مصارعهم عاكفون وفي مواطنهم ثابتون كالبنيان المرصوص ما فيه خلل وكالحلقة المفرغة ما اليها مدخل وكالسور المحيط ما عليه متسلق وكالجبل الاشم ما فيه متعلق فزحفنا اليهم فلم يبرحوا وقربنا منهم فلم ينزحوا وحملنا عليهم فأخذوا الضربة ولم يعطوها وكلما قتل واحد وقف آخر مقامه حتى دخل الليل وحجز وحملوا من الغد من جانب البحر شمالي عكا فانهزم الفرنج الى تل المصلبين نحو القبة وثبتوا عند الوثبة وانفتح لنا طريق عكا فدخلها الرجال وحملت اليها الغلال والفرنج قد رهبوا ولو قدروا لهربوا وأصحابنا رأوا ان انفتاح باب البلد غنيمة فتوقفوا عن تمام العزيمة ولو انهم استمروا لباد العدو بصرعه فان للصدمة الاولى في الروع روعه فبلغ العدو ريقه ووجد الى الجلد طريقه ووقفوا كالسور من وراء الجنويات والتراس والقنطاريات وضربوا الجروخ وفوقوها وجمعوا العدد وعلى الرجال فرقوها وكانوا في عدد الرمل ومدد النمل وهم في كل يوم في ازدياد والبحر يمدهم بالامداد وشرعوا في حفر الخنادق وسد المضائق ونصب الطوارق والسلطان ساهر للمسلمين في ليلهم قائم بأمرهم في نهارهم ومن كتاب فاضلي في بعض الوقعات (فاستدارت بهم رجال الجاليشية تقذف شياطينهم بشهبها وتهوي الى أوكارا فئدتهم طيور نشابها وتجنيهم من القنا والنشاب ثمر الردا متشابها وقد ارتفع الاسلام الى درجات سيذكر أمرها وانخفض الكفر الى دركات سيمر ذكرها فالنصر خافق علمه وكتاب البشارة قد استمد قلمه وقد وثقنا بلطف الله تعالى فيما يأتي فنأهبت الخواطر لمعالي المسار واعدت الفاظ البشرى المهداة الى كافة البشر من الاستبشار فان الفرنج محصورون والنازل المحصور كالمركب المكسور والنصر قد أعرب لعسكر الاسلام والكفر جار ومجرور)

(فصل) في المصاف الاعظم على عكا وهي الوقعة الكبرى التي بدأت بالسوء وختمت بالحسنى قال القاضي ابن شداد لما كان يوم الاربعا الحادي والعشرين من شعبان تحركت عساكر الفرنج حركة لم يكن لهم مثلها عادة فارسهم وراجلهم وكبيرهم وصغيرهم واصطفوا خارج خيمهم قلبا وميمنة وميسرة وفي القلب الملك وبين يديه الانجيل محمول مستور بثوب أطلس مغطى بمسك أربعة أنفس أربعة اطرافه وهم يسيرون بين يدي الملك وامتدت الميمنة في مقابل ميسرة المسلمين من أولها الى آخرها وامتدت ميسرة العدو في مقابلة ميمنتنا الى آخرها وملكوا رؤس التلال فكان طرف ميمنتهم الى النهر وطرف ميسرتهم الى البحر وأمر السلطان الجاووش ان ينادي في الناس ياللاسلام وعساكر الموحدين فركب الناس وقد باعوا أنفسهم بالجنة وامتدت الميمنة الى البحر كل قوم يركبون ويقفون بين يدي خيامهم والميسرة الى النهر كذلك أيضا وكان السلطان قد أنزل الناس في الخيم ميمنة وميسرة وقلبا على تعبية الحرب حتى اذا وقعت صيحة لا يحتاجون الى تجديد ترتيب وكان هو في القلب وفي ميمنة القلب ولده الافضل ثم ولده الظافر ثم عسكر المواصلة يقدمهم ظهير الدين ابن البلكنكري ثم عسكر دياربكر في خدمة قطب الدين صاحب الحصن ثم حسام الدين عمر بن لاچين صاحب نابلس ثم قايماز النجمي وجموع عظيمة متصلين بطرف الميمنة وكان في طرفها الملك المظفر تقي الدين بجحفله وعسكره وهو مطل على البحر وأما أوائل الميسرة فكان مما يلي القلب سيف الدين علي بن أحمد المشطوب من كبار ملوك الاكراد ومقدميهم والامير مجلي وجماعة المهرانية والهكارية وبجاهد الدين برتقش مقدم عسكر سنجار وجماعة من المماليك ثم مظفر الدين بن زين الدين بجحفله وعسكره وأواخر الميسرة بكبار المماليك الاسدية كسيف الدين يازكوج ورسلان بغا وجماعة الاسدية الذين يضرب بهم المثل وفي مقدمة القلب الفقيه عيسى وجميع هذا والسلطان رحمه الله تعالى يطوف على الاطلاب بنفسه يحثهم على القتال ويدعوهم الى النزال ويرغبهم في نصرة دين الله ولم يزل القوم يتقدمون والمسلمون يقدمون حتى علا النهار ومضى فيه أربع ساعات وعند ذلك تحركت ميسرة العدو على ميمنة المسلمين وأخرج لهم تقي الدين الجاليش وجرى بينهم قلبات كثيرة وتكاثروا على تقي الدين وكان في طرف الميمنة على البحر فتراجع عنهم شيئا طمعا لهم لعلهم يتعدون عن أصحابهم فينال منهم غرضا فما رآه السلطان قد تأخر ظن به ضعفا فامده باطلاب عدة من القلب حتى قوي جانبه وتراجعت

ميسرة العدو واجتمعت على تل مشرف على البحر ولما رأى الذين فى مقابلة القلب ضعف القلب ومن خرج منه من الاطلاب داخلهم الطمع وتحركوا نحو ميمنة القلب وحملوا حملة الرجل الواحد راجلهم وفارسهم قال ولقد رأيت الرجاله تسير سيرا لخياله ولا يسبقونها وهم يسيرون خببا وجاءت الحملة على الديار بكرية كما شاء الله تعالى وكان بهم غرة عن الحرب فتحركوا بين يدى العدو وانكسروا كسرة عظيمة وسرى الامر حتى انكسر معظم الميمنة واتبع العدو المنهزمين الى العياضية فانهم استداروا حول التل وصعدت طائفة من العدو الى خيم السلطان فقتلوا طشت دارا كان هناك وفى ذلك اليوم استشهد اسماعيل المكبس وابن رواحة رحمهما الله تعالى وأما الميسرة فانها ثبتت فان الحملة لم تصادفها وأما السلطان رحمه الله فانه أخذ يطوف على الاطلاب ينهضهم ويعدهم الوعود الجميلة ويحثهم على الجهاد وينادى فيهم يا للاسلام ولم يبق معه الا خمسة أنفس وهو يطوف ويخرق الصفوف وآوى الى تحت التل الذى كان عليه الخيام وأما المنهزمون من العسكر فانهم بلغت هزيمتهم الى الاقحوانة فاطع جسر طبرية وتم منهم قوم الى دمشق وأما المتبعون لهم فانهم أتبعوهم الى العياضية فلما رأوهم قد صعدوا الجبل رجعوا عنهم وجاؤا عائدين الى عسكرهم فلقيهم جماعة من الغلمان والخربندية والساسة منهزمين على فعال الحمل فقتلوا منهم جماعة ثم جاؤا على رأس السوق فقتلوا جماعة وقتل منهم جماعة فان السوق كان فيه خلق عظيم ولهم سلاح وأما الذين صعدوا الخيم السلطانية فانهم لم يلتمسوا شيئا أصلا سوى انهم قتلوا من ذكرناه وهم ثلاثة نفر ثم رأوا ميسرة الاسلام ثابتة فعلموا ان الكسرة لم تتم فعادوا منحدرين من التل يطلبون عسكرهم وأما السلطان فانه كان واقفا تحت التل ومعه نفر يسير وهو يجمع الناس ليعودوا الى الحملة على العدو فلما رأى الفرنج نازلين على التل أراد لقاءهم فأمرهم بالصبر الى أن ولوا ظهورهم واشتدوا يطلبون أصحابهم فصاح فى الناس وحملوا عليهم وطرحوا منهم جماعة واشتد الطمع فيهم وتكاثر الناس ورآهم حتى لحقوا أصحابهم والطردو رآهم فلما رآهم منهزمين والمسلمون ورآهم فى عدد كثير ظنوا ان من حمل منهم قد قتل وانه انما نجا منهم هذا النفر فقط وان الهزيمة قد عادت عليهم فاشتدوا فى الهرب والهزيمة وتحركت الميسرة عليهم وعاد الملك المظفر بجمعه من الميمنة وتحايا الرجال وتداعت وتراجع الناس من كل جانب وكذب الله الشيطان ونصر الايمان وظل الناس فى قتل وطرح وضرب وجرح الى ان اتصل المنهزمون السالمون الى عسكر العدو فهجم المسلمون عليهم فى الخيام فخرج منهم اطلاب كانوا أعدوها خشية من هذا الامر مستريحة فردوا المسلمين وكان التعب قد أخذ من الناس والخوف والعرق قد أجلبهم فتراجع الناس عنهم بعد صلاة العصر يخوضون فى القتلى ودمائهم فرحين مسرورين وعاد السلطان وجلسوا فى خدمته يتذاكرون من فقد منهم فكان مقدار من فقد منهم من الغلمان والمجهولين مائة وخمسين نفرا ومن المعروفين استشهد فى ذلك اليوم ظهير الدين أخو الفقيه عيسى رحمه الله ولقد رأيته وهو جالس يضحك والناس يعزونه وهو ينكر عليهم ويقول هذا يوم الهنا لا يوم العزا وكان قد وقع هو من فرسه رحمه الله واركبه وقتل عليه جماعة من أقاربه وقتل فى ذلك اليوم الامير مجلى يعنى ابن مروان وزاد العماد والحاجب خليل الهكارى ثم قال القاضى هذا الذى قتل من المسلمين وأما العدو المخذول فحزرت قتلاهم بسبعة آلاف نفر ورأيتهم وقد حملوا الى شاطئ النهر ليلقوا فيه فحزرتهم بدون سبعة آلاف ولما تم على المسلمين من الهزيمة ما تم رأى الغلمان خلو الخيام ممن يعترض عليهم فان العسكر انقسم الى منهزمين ومقاتلين فلم يبق فى الخيم أحد ورأوا الكسرة قد وقعت فظنوا انها تمت وان العدو ينهب جميع ما فى الخيم فوضعوا أيديهم فى الخيم ونهبوا جميع ما كان فيها وذهب من الناس أموال عظيمة وكان ذلك أعظم من الكسرة وقعا فلما عاد السلطان الى الخيم ورأى ما قد تم على الناس من نهب الاموال والهزيمة سارع فى الكتب والرسل فى رد المنهزمين وتتبع من شذ من العسكر والرسل تتتابع فى هذا المعنى حتى بلغت عقبة فيق فردوهم واخبروهم بالكرة للمسلمين فعادوا وأمر بجمع الاقشة من أكف الغلمان وجمع الاقشة فى خيمته حتى جلالات الخيل والمخالى وهو جالس ونحن حوله وهو يتقدم الى ان كل من عرف شيئا وحلف عليه يسلم اليه وهو يتلقى هذه الاحوال بقلب صلب وصدر رحب ووجه منبسط ورأى مستقيم واحتساب لله تعالى وقوة عزم فى نصر دينه وأما العدو المخذول فانه عاد الى خيمه وقد قتلت شجعانهم وقعدت ملوكهم وطرحت مقدموهم وأمر السلطان

ان خرج من عكا يعجل يسحبون القتلى الى طرف النهر ليلقوا فيه قال ولقد حكى لى بعض من ولى أمر العجل انه أخذ خيطا وكان كل ما أخذ قتيل عقد عقدة فبلغ عدد قتلى الميسرة أربعة آلاف وسبعمائة وكسرا وبقى قتلى الميمنة وقتلى القلب لم يعدهم فانهم ولى أمرهم غيره وبقى من العدو بعد ذلك من حمى نفسه وأقاموا فى خيمهم لم يكترثوا بحجافل المسلمين وعساكرهم وتشذب من عساكر المسلمين خلق كثير بسبب الهزيمة فانه ما رجع منها الا رجل معروف خاف على نفسه والباقون ذهبوا فى حال سبيلهم وأخذ السلطان فى جمع الاموال المنهوبة واعادتها الى أصحابها وأقام المنادية فى العساكر وقرن النداء بالوعيد والتهديد وهو يتولى تفرقتها بنفسه بين يديه واجتمع من الاقمشة عدد كثير فى خيمته حتى ان الجالس فى أحد الطرفين لا يرى الجالس فى الطرف الآخر وأقام من ينادى على من ضاع منه شئ فحضر الخلق وصار من عرف شيئا وأعطى علامته حلف عليه وأخذه من الحبل والمخلاة الى الهميان والجوهرة ولقى من ذلك مشقة عظيمة ولا يرى ذلك الا نعمة من الله تعالى يشكر عليها ويسابق بيد القبول اليها ولقد حضرت يوم تفرقة الاقمشة على أربابها فرأيت سوقا للعدل فاقمة لم ير فى الدنيا أعظم منها وكان ذلك فى يوم الجمعة الثالث والعشرين من شعبان قال وعند انقضاء هذه الوقعة وسكون نائرتها أمر السلطان بالنقل حتى تراجع الى موضع يقال له الخروبة خشية على العسكر من اراسح القتلى وآثار الوقعة من الوخم وهو موضع قريب من مكان الوقعة الا انه أبعد عنها من المكان الذى كان نازلا فيه بقليل وضربت له خيمة عند الثقل وأمر اليزك ان يكون مقيما فى المكان الذى كان نازلا فيه واستحضر الامراء وأرباب المشورة فى سلخ الشهر ثم أمرهم بالاصغاء الى كلامه وكنت من جملة الحاضرين ثم قال بسم الله والحمد لله والصلاة على رسول الله اعلموا ان هذا عدو الله وعدونا وقد وطئ أرض الاسلام وقد لاحت لوائح النصرة عليه ان شاء الله تعالى وقد بقى من هذا الجمع اليسير ولا بد من الاهتمام بقلعه والله قد أوجب علينا ذلك وأنتم تعلمون ان هذه عساكر ناليس وراءنا نجدة ننتظرها سوى الملك العادل وهو واصل وهذا العدو ان بقى وطال أمره الى أن ينفتح البحر جاءه مدد عظيم والرأى كل الرأى عندى مناجزته فليخبرنا كل منكم بما عنده فى ذلك وكان ذلك فى ثالث عشر تشرين يعنى الثانى من الشهور الشمسية فانفصلت آراؤهم على ان المصلحة تأخر العسكر الى الخروبة وان يبقى العسكر أياما حتى يستجم من حمل السلاح وترجع نفوسهم اليهم فقد أخذ منهم التعب واستولى على نفوسهم الضجر وتكليفهم أمرا على خلاف ما تحمله القوى لا تؤمن غائلته والناس لهم خمسون يوما تحت السلاح وفوق الخيل والخيل قد ضجرت من عرك اللجم وعند أخذ حظ من الراحة ترجع نفوسها اليها ويصل الملك العادل ويشاركنا فى الرأى والعمل ونستعيد من شذ من العساكر وتجمع الرجالة ليقفوا فى مقابلة الرجالة وكان بالسلطان رحمه الله التياث مزاجى قد عراه من كثرة ما حمل على قلبه وعاناه من التعب بحمل السلاح والفكر فى تلك الايام فوقع له ما قالوه ورآه مصلحة فاقام يصلح مزاجه ويجمع العساكر الى العاشر رمضان قال وكان لما بلغه خبر العدو وقصده عكا جمع الامراء وأصحاب الراى بمرج عيون وشاورهم فيما يصنع وكان رأيه رحمه الله ان قال المصلحة مناجزة القوم ومنعهم من النزول على البلد والا ان نزلوا جعلوا الرجالة سورا لهم وحفروا الخنادق وصعب علينا الوصول اليهم وخيف على البلد منهم وكانت اشارة الجماعة انهم اذا رحلوا واجتمعت العساكر قلعناهم فى يوم واحد وكان الامر كما قال والله لقد سمعت منه هذا القول وشاهدت الفعل كما قال وقال العماد عبأ السلطان ميمنته وميسرته وطلب من الله نصرته وهو يمر بالصفوف ويأمر بالوقوف ويحض على حظ الابد ويحث على الجلاد والجلد قال وكنت فى جماعة من أهل الفضل قد ركبنا فى ذلك اليوم ووقفنا على التل نشاهد الوقعة ونحن على بغال بغير أهبة قتال فرأينا العسكر مواليا والمنهزم عساكره من خيامه ورحله متخليا فوصلنا الى طبرية فيمن وصل ووجدنا ساكنها قد أجفل فسقنا الى جسر الصنبرة ونزلنا على شرقيه وكل منا ذاهل عن شيعه وريه ومن المنهزمين من بلغ عقبة فيق وهو غير مفيق ومنهم من وصل الى دمشق وهو غير معرج على طريق ووصل جماعة من الفرنج الى خيمة السلطان وجالوا جولة ثم رأوا انقطاع أشياعهم عنهم فانحدروا عن التل واستقبلهم أصحابنا فركبوا أكتافهم وحكموا فى رقابهم أسيافهم وكان ميسرتنا عسكر شيخار والاسدية فما زلوا ولا زالوا بل وصلوا وصالوا وحملت عليهم ميمنة الفرنج فكانما مرت الرياح بالجبال وعاد من كان من الميمنة مثل

تقى الدين وقايماز النجمى والحسام بن لاجين ومن ثبت من أبطال المجاهدين فلم يفلت من الاعداء الا اعداد ولم ينج من آلافهم الا آحاد وفرس منهم زهاء خمسة آلاف فارس منهم مقدم الداوية الذى كنا أطلقناه وذكرانهم فى مائة ألف وعشرين ألفا حين سألناه ثم ضربنا عنقه وقال فى الفتح وعشرة آلاف قال العماد ومن العجب ان الذين ثبتوا منا لهم لم يبلغوا ألفا فردوا مائة ألف وأتاهم الله قوة من بعد ضعف وكان الواحد يقول قتلت من المثلثين ثلاثين وأربعين وتركتهم مصروعين وكان السلطان من الثابتين فى تلك الجوله والكابتين لاهل الصوله وقديق وحده عند تولى المسلمين ولا شك ان الله أنزل ملائكته المسومين حكى بعضهم قال كنت منهزما من فارس مدجج قد لزق بقربى حصانه وهز لصلبى سنانه فايست من البقاء ثم أبطأ على طعنته فالتفت فاذا هو وحصانه كلاهما ملقى وما بالقرب أحد فعرفت انه نصر الهى وصنع ربانى قال وعاد السلطان الى مضاربه وأمر بمواراة الشهداء ومن جملتهم الفقيه أبو على بن رواحه وكان غزير الفضل قد أكمل الشجاعة والرجاحه وهو شاعر مفلق وفقيه محقق من ولد عبد الله بن رواحة الصحابى الانصارى فى الشهادة والشعر معرق فطرفه الاعلى يوم موته مع جعفر الطيار وطرفه الاقرب يوم عكا فى لقاء الكفار قال فى البرق وكان السلطان قد أنعم علينا فى حلب بمزرعة وكتبت توقيعه واراد الله تعويقه اذ قرب الى الآخرة طريقه وحملت توقيعه الى السلطان تلك الليلة ليعلم فيه فاعلم وراجعته فى معناه فسكت وما تكلم وكان ساعة الوقعة راكبا معنا ثم قال وقوفا يطول فمضى الى خيمته يتودع فلما علم باندفاعنا ساق وراءنا فقطع عمره قبل أن يقطع الوادى وكان قال لنا لما أصبح رأيت رجلا يحلق رأسى فى المنام فقلنا له هذا من أضغاث الاحلام فنقله الله بعد ساعة الى دار السلام قلت وليس هو من أولاد ابن رواحة الصحابى ذاك لم يعقب وانما فى اجداده من اسمه رواحه وقد بيناه فى التاريخ والله أعلم قال ومنهم اسماعيل الصوفى الارموى المكبس وشيخ من الحاشية فى بيت الطشت وغلام فى الخزانة أمين على البيت وآخرون صودفوا عند التل فجاءتهم السعاده وجاءتهم الشهاده وهؤلاء سوى من وقع فى الوقعه وذهب قبل الرجعه وأجمع السلطان وذووا الاراء على انه يصبح القوم فتفقدوا العسكر فاذا هو قد غاب لما بان من الامر ورأب وذلك ان غلمان العسكرية والاوباش ظنوا ان تلك الفورة تزيمه فنهبوا الاثقال وعدوها غنيمه فمن عاد الى رحله وجده منهوبا مسلوبا وكان فى ظنه انه ان فرغ من لقاء خطب يلقى خطوبا وأصبحنا واذا العسكر مفترق والثابت قلق والآمن فرق والغنى معدم والجرئ متندم فهذا خلف ما ذهب من ماله ذاهب وهذا لما طلب الطريق باثقاله طالب فتفتر ذلك العزم وتأخر ذلك الحكم وانتعش الفرنج فى تلك المده وانتشلوا من تلك الشده وجاءتهم فى البحر مراكب أخلفت من عدم وبنت ما هدم وشكونا نتن رائحة تلك الجيف فحملت على الجمل الى النهر ليشرب من صديدها أهل الكفر فحمل أكثر من خمسة آلاف جثه حملت الى النار قبل يوم البعثه وأشير على السلطان بالانتقال الى الخروبه عند خيم الاثقال المضروبه فسار اليها رابع رمضان وأمر أهل عكا باغلاق أبوابها وإحكام أسبابها فوجد الفرنج بذلك الفريج وشرعوا فى حفر خندق على معسكرهم حوالى عكا من البحر الى البحر وأخرجوا ما كان فى مراكبهم من آلات الحصر وفى كل يوم يأتينا البركية بخبرهم وبما ظهر من أثرهم والجد فى تعميق الخندق وتقويم محتفرهم فكان من قضاء الله انا أغفلناهم وأمهلناهم بل أهملناهم حتى عمقوا الحفور ووثقوا من ترابها السور فكانوا يخندقون ويعمقون ويعملون من تراب الحفر حولهم سورا فعاد مخيمهم بلدا مستورا معمورا فملؤوه بالستائر ومنعوه من الطير الطائر وبنوه وأسسوه وستروه وترسوه ورتبوا عليه رجالا ولم يتركوا اليه لواغل مجالا وتركوا فيه أبوابا وفروجا ليظهروا منها اذا أرادوا خروجا ولما فرغوا من هذا الامر اشتغلوا بالحصر وانقطعت الطريق على المسلمين الى عكا وبان ضعف رأى الانتقال فانه بعد ما أضحك أبكى وجاء كتاب من الفاضل الى العماد جوابا عن كتابه المخبر فيه بوقعة مرج عكا يقول فيه (وعرفت ما جرى على قضيته فسبحت الله تعالى فان من عجائب قدرته سلامة سيدنا على ضعف حركته والامر كان عظيما والمدفوع أعظم والسلامة كانت غريبة الا أن نقول ولكن الله سلم والسلطان أعزه الله اذا سلم فكل الناس قد سلموا واذا وجد وقد عدم الناس كلهم فقد وجدوا وما عدموا وكل جوهر بالاضافة اليه عرض وهو جوهر بالحقيقة ما عنده من كل جوهر عوض) ومن كتاب له الى

السلطان أوّله (ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين الآيه وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى ورد الكتاب بخط مولانا من معترك حربه وجلاده وتوفيق جهاده قبل أن تضع الحرب أوزارها وهرع الناس الى المجلس العادلى والعزيزى يستمعون الاخبار ويستوضحون من وجوهها الانوار ويسألون كيف كانت عاقبة أهل الجنة وعاقبة أهل النار ويشكرون الله على سلامة أديانهم وقلوبهم وابدانهم وسلامة سلطانهم وما أدراك ما سلامة سلطانهم ونصرة كلمة ايمانهم ودلائل الخير لا تخفى وقد يقرأ الكتاب وما يلمح قارئه منه حرفا وتصور الناس الامر الذى وقاهم الله شره وكفاهم أمره)

(فصل) فى باقى حوادث هذه السنة بمرج عكا وغيره قال العماد وفى يوم الاثنين ثالث رمضان أخذ أصحابنا بعكا مركبا للفرنج الى صور مقلعا محتويا على ثلاثين رجلا وامرأة واحدة ورزمة من الحرير وجاءت حظوة حلوه وغنيمة صفوه وقد كان انكسر نشاطهم وانقبض انبساطهم فلما عثروا بالمركب انتعشوا وصاروا يخرجون ويقتلون ويجرحون ويمسون على القتال ويصبحون وندم الفرنج على تلك الحركه فانها أفضت بهم الى الهلكه فانهم ماداموا رابضين وعلى بد الصبر قابضين يتعذر الوصول اليهم والدخول عليهم وفى بعض الكتب الى بعض الاطراف (والمرجو من الله سبحانه وتعالى تحريك هم المؤمنين فى تسكين ثائرهم وتخريب عامرهم ومادام البحر يمدهم والبر لا يصدهم فبلاء البلاد بهم دائم ومرض القلوب بأدوائهم ملازم فأين حمية المسلمين ونخوة أهل الدين وغيرة أهل اليقين وما ينقضى عجبنا من تظافر المشركين وقعود المسلمين فلا ملبى منهم لمناد ولا مثقف لمنآد فانظروا الى الفرنج أى مورد وردوا وأى حشد حشدوا وأى ضالة نشدوا وأية نجدة انجدوا وأية أموال غرموها وأنفقوها وجدات جمعوها وتوزعوها فيما بينهم وفرقوها ولم يبق ملك فى بلادهم وجزائرهم ولا عظيم ولا كبير من عظمائهم وأكابرهم الا جارى جاره فى مضمار الانجاد وبارى نظيره فى الجد والاجتهاد واستقلوا فى صون ملتهم بذل المهج والارواح وأمدوا أجناسهم الانجاس بانواع السلاح معا كفاء الكفاح وما فعلوا ما فعلوا ولا بذلوا ما بذلوا الا لمجرد الحمية لمتعبدهم والنخوة لمعتقدهم وليس أحد من الفرنجية يستشعر ان الساحل اذا ملك ورفع فيه حجاب عزهم وهتك يخرج بلد عن يده وتمتد الى بلده والمسلمون بخلاف ذلك قد وهنوا وفشلوا وغفلوا وكسلوا ولزموا الحيره وعدموا الغيره ولو اثنى والعياذ بالله للاسلام عنان أو خبا سنا ونبا سنان لما وجد فى شرق البلاد وغربها وبعد الآفاق وقربها من لدن الله يغار ومن لنصرة الحق على الباطل يختار وهذا أوان رفض التوانى واستدناء أولى الحمية من الاقاصى والادانى على انا بحمد الله لنصره راجون وله باخلاص السر وسر الاخلاص مناجون والمشركون باذن الله هالكون والمؤمنون آمنون ناجون) قال العماد وكان السلطان قد كتب الى مصر يستدعى باخيه العادل فى رجال فقدم عليه منتصف شوّال وكتب أيضا فى طلب الاسطول المصرى فقدمت خمسون قطعة مع حسام الدين لؤلؤ منتصف ذى القعدة فجاءت فجأة على مراكب الفرنج وبغتتها وسحقتها وبددتها وكسبتها وسلبتها وظفر ببطستين كبيرتين بما فيهما من أموالهم ورجالهم وغلالهم قال وهذا لؤلؤ قد اشتهرت بالكفر فتكاته وشكرت فى العدو نكاياته وقد تفرد بغزوات لم يشاركه فيها أحد وهو الذى رد الفرنج عن بحر الخماز ووقف لهم على طرق المجاز ولم يترك منهم عينا تطرف ولم يبق لهم دليلا يعرف وغزواته مشهوره وفتكاته مذكوره وأمواله مبذوله وأكياسه لعقد الانفاق فى سبيل الله محلوله قال ونقل السلطان الى البلد فى المراكب جماعة من الامراء باجنادهم وعددهم وأزوادهم واستظهر البلد أيضا برجال الاسطول وكانوا زهاء عشرة آلاف هذا ورجالة المسلمين يتطرقون اليهم ليلا ويذيقونهم من القتل والاسر والسرقة ويلا حتى كان رجالة يختفون بالحشيش فى اجراف الانهار فاذا صادفوا فارسا ورد الماء فاجؤوه بالقتل والاسار قال ولما عرف صاحب الموصل ما شرع فيه السلطان من تكثير العده وتقوية النجده بكل ما يمكنه من أسباب الباس والشده سير من احمال النفط الابيض مع عزة وجوده ما وجده ومن التراس والرماح من كل جنس احكمه وأقومه وأجوده وكتبنا فى شكره (وصل السلاح وتم للاسلام من قروح الكفر الاقتراح فان الحروب المتطاولة المدد أتت على جميع العدد ومن العجب ان العدة تفنى وما يفنى العداة وتموت على الحصاد كانها النبات فالبحر يمدهم والكفر الى الردى

يردهم) ومن كتاب الى الديوان (قد مضت ثلاثة أشهر شهر بها التثليث على التوحيد سلاحه وبسط الكفر جناحه وقتل من الفرنج وعدم في الوقعات التي روّعت والروعات التي وقعت أكثر من عشرين ألف مقاتل من فارس وراجل ورامح ونابل فما أثر ذلك في نقصهم ولا أرث الاثار حرصهم وليس هذا العدو بواحد فينجع فيه التدبير ويأتي عليه التدمير وانما هو كل من وراء البحر وجميع من في ديار الكفر فانه لم يبق لهم مدينة ولا بلدة ولا جزيرة ولا خطة صغيرة ولا كبيرة الا جهزت مراكبها وانهضت كتائبها وتحرزت ساكنها وبرز كامنها وثار ثائرها وسار سائرها وطار طائرها ونقضت خزائنها وانفضت معادنها وحملت ذخائرها وبذلت أخائرها وتثلثت كتائبها واستخرجت دفائن نفائسها وخرج بصلبانها أساقفتها وبطاركها وغصت بالافواج فجاجها ومسالكها وتصلبت للصليب السليب وتعصبت للصاب المصيب وناد وافي نواديهم بأن البلاد هي بلادهم وان اخوانهم بالقدس أبارهم الاسلام وأبادهم وانه من خرج من بيته مهاجرا لحرب الاسلام وهبت له ذنوبه وذهبت عنه عيوبه ومن عجز عن السفر سفر بعدته وثروته من قدر فجاؤا بالاسين الحديد بعدان كانوا بالاسين الحداد وتواصلت منهم الامداد) قال (ووصلت في مركب ثلثمائة امرأة فرنجية مسنحسنة اجتمعن من الجزائر وانتدبن للجزائر واغتربن لاسعاف الغرباء وقصدن بحر وجهن تسبيل انفسهن للاشقياء وانهن لا يمتنعن من العزبان ورأين انهن لا يتقربن بأفضل من هذا القربان وزعمن ان هذه قربة ما فوقها قربة لاسيما فيمن اجتمعت فيه غربة وعزبة) قال (وابق من عسكرنا من المماليك الاغبياء والمدابير الجهلاء جماعة جذبهم الهوى واتبعوا من غوى فمنهم من رضي للذة بالذلة ومنهم من ندم على الزلة فتحيل في النقلة فان يدمن لا يرتد لا تمتد وأمر الهارب اليهم لاتهامه يشتد وباب الهوى عليه يستد وما عند الفرنج على العزباء اذا أمكنت منها العزب حرج وما أزكاها عند القسوس اذا كان للعزبان المضيقين من فرجها فرج) قال (ووصلت أيضا في البحر امرأة كبيرة القدر وافرة الوقر وفي جملتها خمسمائة فارس بخيولهم واتباعهم وغلمانهم وأشياعهم وهي كافلة لكل ما يحتاجون اليه من المؤنة زائدة بما تنفقه فيهم على المعونة وهم يركبون بركاتها ويحملون بحملاتها ويثبون لوثباتها وفي الفرنج نساء فوارس لهن دروع وقوادس وهن في زي الرجال يبرزن في حومة القتال ويحملن على أرباب الحجى وهن ربات الحجال وكل هذا يعتقدن انه عباده ويخلن انهن يستفدن به سعاده ويجعلنه لهن عاده فسبحان الذي أضلهن وعن نهج الهدى أزلهن وفي يوم الوقعة طلعت منهن نسوه لهن بالفرسان اسوه وفيهن مع لينهن قسوه وليس لهن سوى السوابغ كسوه فما عرفن حتى سلبن وعرين ومنهن عدة سبين واشترين وأما الجزائر فقد امتلأت بهن المراكز وهن يشددن تارة ويرخين ويحرضن ويخين ويقلن ان الصليب لا يرضى الا بالاباء وانه لا بقاء له الا بالفناء وان قبر معبودهم تحت استيلاء الاعداء فانظر الى الاتفاق في الضلال بين الرجال والنساء) قال وفي آخر هذه السنة ندب السلطان الرسل الى الاقطار والامصار للاستنفار والاستنصار وبث الكتب وكتب بالبث وحث الرسل وراسل بالحث وسرح عدنان النجاب الى سيف الاسلام باليمن وشرح في الكتاب اليه ما جرى من حوادث الزمن ووصف له جلية الحال وطلب منه الاعانة بالمال وكوتب مظفر الدين قزل أرسلان بهمدان يبعث ما دنا منه عزمه ودان وحكم على كل ملك بحجة الايمان وهدى الى محجة الاحسان ووصل الى السلطان رسول ابن أخيه لامه ركن الدين طغرل بن أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه وهو آخر السلاطين السلجوقيه يتظلم من عمه قزل أرسلان ويطلب من السلطان اعانته فاعتذر السلطان بما هو عليه من شغل الجهاد مع الكفار وأرسل رسولا في السفارة بينه وبين عمه جمال الدين أبا الفتح اسماعيل بن محمد بن عبد لكونه نسيب العماد وكتب الى صاحب اربل والى حسن بن قنجاق ونائبه بشهرزور بالتوفر على خدمته والارتياد لمصلحته وأشياعه ومعونته قال وفي هذه السنة توفي الامير حسام الدين سنقر الخلاطي أخص مماليك السلطان وأخلصهم وقد قدمه على مماليكه وكانت وفاته ليلة الاثنين والعشرين من رجب قال وفي ثالث عشر شعبان توفي الامير حسام الدين طمان صاحب الرقة وهو من المجاهدين المجتهدين والاتقياء المتهجدين ولما حضرته الوفاة تأسف من موته على فراشه وطلب حصانه ليركبه وينتقل سعيدا شهيدا الى معاده من معاشه قال وفي تاسع عشر شعبان توفي الامير عز الدين موسك بن جكر وهو ابن خال السلطان وهو من أكابر أقاربه ومقدمي كتائبه وكان للقرآن حافظا وعلى الاحسان

محافظا ولقضاء حقوق الناس ملاحظا ولم يزل للسلطان فى هذه الغزوات ملازما وعلى قمع جمع الكفر عازما ولما اشتد به مرضه استأذن فى الدخول الى دمشق ودفن بجبل قاسيون قال وفى حادى عشر رمضان توفى بدمشق القاضى شرف الدين ابن أبى عصرون ومولده فى أوائل سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة فبلغ عمره ثلاثا وتسعين سنة ونصفا وأضر قبل وفاته مدة عشر سنين ودفن بالمدرسة التى أنشأها بدمشق قبالة داره بينهما عرض الطريق وكان شيخ المذهب وتد ختمت به الفتيا وأوحشت غيبته الدين والدنيا قال وفى تاسع ذى القعدة توفى الامير الفقيه ضياء الدين عيسى الهكارى فى العسكر بمنزلة الخروبة وكان صاحب أسد الدين شيركوه ومضى معه الى مصر حين ملكها ثم اختص بالسلطان بعده وتولى حله وعقده ودرت بوساطته وشفاعته للناس ارزاق ونقل الى القدس فدفن بظاهره ولقد كان من الاعيان ومن أهل الجد فى نصرة الايمان فنقله الله الى الجنان قال وفى هذه السنة اقطع السلطان مملوكه مجاهد الدين ايازولاية شهرزور وأعمالها وولى جمال الدين ابن المحسن نقابة الاشراف بدمشق قال وفى عاشر جمادى الاولى منها كان مولد ناصر الدين محمد ابن الملك العزيز بمصر الذى اجتمع عليه أصحابه بعد وفاة أبيه فى محرم سنة خمس وتسعين وورد بذلك الى السلطان جده كتاب كريم فاضلى من مصر نسخته (الملوك يقبل الارض بين يدى مولانا الملك الناصر دام رشاده وارشاده وزاد سعده واسعاده وكثر أولياؤه وعبيده واعداده واشتد باعضاده فيهم اعتضاده وانمى الله عدده حتى يقال هذا آدم الملوك وهذه أولاده وينهى ان الله وله الحمد رزق الملك العزيز عز نصره ولدا مباركا عليا ذكرا سويا برازكيا تقيا نقيا من ذرية كريمة بعضها من بعض ومن نبت شريف كادت ولاتد تكون ولاة فى السماء ومماليكه تكون ملوكا فى الارض وكان مقدمه الميمون فى ليلة الاحد وهى من الجمعة أولى العدد وبه وبآله يعز الله أهل الجمعة ويذل أهل الاحد) ثم ذكر باقى الكتاب

﴿فصل﴾ فى ورود خبر خروج ملك الالمان قال القاضى ابن شداد ولما دخل شهر رمضان من سنة خمس وثمانين وصل من حلب كتب من ولده الظاهر يخبر فيها انه قد صح ان ملك الالمان خرج الى القسطنطينيه فى عدة عظيمة قيل مائتا الف وقيل مائتان وستون ألفا يريد البلاد الاسلاميه فاشتد ذلك على السلطان وعظم عليه ورأى استنفار الناس للجهاد واعلام خليفة الوقت بهذه الحادثة فاستندبنى لذلك وأمرنى بالمسير الى صاحب سنجار وصاحب الموصل وصاحب اربل واستدعائهم الى الجهاد بأنفسهم وعساكرهم وأمرنى بالمسير الى بغداد فسرت حادى عشر رمضان ويسر الله تعالى الوصول فى الجماعة وابلاغ الرسالة اليهم فأجابوا الى ذلك بنفوسهم وسير صاحب الموصل علاء الدين ابنه بمعظم عسكره ووعد الديوان بكل جميل وعدت اليه خامس ربيع الاول سنة ست وثمانين وسبقت العساكر وأخبرته باجابتهم وتأهبهم للمسير فسر بذلك وقال العماد فى كتاب الفتح ونمى الخبر بوصول ملك الالمان الى قسطنطينية فى ثلثمائة ألف مقاتل على قصد العبور الى بلاد الاسلام وقطع بلاد الروم والارمن الى الشام وفيهم ستون ألف فارس مدرع ومعهم ملوك وكنود وكل شيطان لربه كنود وكتب صاحب قلعة الروم مقدم الارمن وهو فى قلعته على الفرات وبين أهل الذمة فى المأمن يبدى تنصحا واشفاقا وتخوفا على البلاد واحتراقا ويقطع ان الواصلين فى كثره وان الناهضين الى طريقهم فى عشره وابرق فى كتابه وارعد وابدع فى خطابه وأبعد ولاشك انه الى جنسه النجس مائل وبملاءة أهل ملته قائل ولما وصل هذا النبأ وقيل انه عظيم وورد هذا الخبر وخيل انه أليم كاد الناس يضطربون على انهم يصدقون ويكذبون ومن طرف كل حبل من الرأى يجذبون وقلنا ان وضح هذا الخطر وصح هذا الخبر فالمسلمون يقومون لنا ولا يقعدون ويغضبون لله ولا يرضون انهم لا يعضدون على ان الله ناصرنا ومؤازرنا ومظاهرنا وحققنا باظهار القوة لمن استوحش التأنيس وبثثنا بالارسال الى بلاد الروم عيوناوجواسيس وندبنا رسل الاستنصار وبعثنا كتب الاستنفار الى جميع الامصار والاقطار وقلنا ماهذه المرة الى مره لا يسيغها الا كل مر ابى وماهذه الكرة مثل كل كره ولا يحضرها الا كل كيش كمى قال وعول السلطان على ارسال القاضى بهاء الدين ابن شداد يوسف بن رافع بن تميم ليكون كتابه الى الديوان العزيز مع رسول كريم وقال له ما أحتاج أوصى وأنت توفى القول وتستقصى وجعل له الى كل طرف فى طريقه رساله وأودعه اليه مقاله فسار ووصل الى حلب والقاضى ضياء

الدين ابن الشهرزورى رسول السلطان ببغداد قد عاد وذكر انه قد بلغ المراد فما هذا الرسول الرائح ووصل وهو مغتاظ وتغير على ونسب انفساد القاضى بهاء الدين الى ثم اجتمع بالسلطان وندمه على ما قدمه واعلمه بما عمله وعلمه وقال له الشغل قد فرغ والقصد قد بلغ وقرر مع السلطان أمرا وعاد على النجب الى بغداد وصادف بها القاضى بهاء الدين ابن شداد فلم يسفر أمر سفارته عن سداد وقيل جواب ما أتيت فيه مع ضياء الدين نسيره ونندبه فيما تخسيره وقال فى كتاب البرق وصل الخبر بخروج ملك الالمان من بلاده فى مائتى ألف دارع وفى راجل فى دبيب رجل الدبا فى عدد رمل اللوا وأقام بحشرهم القيامه واستثارهم لنار كنيستهم بالقدس فقامه وساروا فى شهور حتى وصلوا قسطنطينية وكان ملك الروم يكتب الينا بأخبارهم وبناء خروجهم من ديارهم ويقول أنا لا أمكنهم من العبور فلما جاؤا لم يقدر على منعهم فصد عنهم الازواد وحرمهم الاسعاد وعبروا الخليج وقد كثرت أمدادهم وقلت أزوادهم ولما وصلوا الى حدود بلاد الاسلام وملكوا فى الاودية والآجام والوهاد والآكام تسلمهم تركمان الاوج وتراكم الثلوج وشتاء الكلاب فى تكلب الشتاء واحتاجوا الى أكل الدواب واحراق عددهم لاعوازالاحطاب وعدموا العلف وما وجدوا الخلف ومناهل الزلال جامدة وهم بالبلاد جاهلون ومن البلاء ناهلون لايقطعون فى يومين فرسخا وقد أذهب الله عنهم البركه وصعب عليهم الحركه وخرج الامر عن حسابهم وهم كل يوم فى نقص أنفسهم ودوابهم وكانوا يدفنون من اعلاقهم النفيسه وعددهم الكريمة الرئيسه مايعجزون عن نقله ولايخفون بثقله فاتخذوا لاسرارها من اضلاع تلك الشعاب وصدور تلك الوهاد والهضاب ضمائر لاتبوح بها أبدا ولاتطلع على مكنونها ومدفونها أحدا هذا وبحرهم عباب الموج هباب الفوج فلما خلصوا بعد أشهر كانهم زخروا بموج سبعة أبحر هذا وقد نقص شطرهم وانقطع ظهرهم لكنهم عرضوا فى ستين ألف مدرع مدجج مقنع ذلك وقد باد أكثر راجلهم وترجل معظم ابطال باطلهم وسيأتى باقى أخبارهم قلت ومن قصيدة للحكيم أبى الفضل الجليانى

يامنقذ القدس من أيدى جبابرة ❁ قد أقسموا بذراع الرب تدخله
فاكذبوا كذبهم فى وصف ربهم ❁ وصدق الوعد مأمونا محوله
أما رأيت ابن أيوب استقل بما ❁ يعيى الزمان وأهليه تحمله
هاج الفرنج وقد خار والهتكته ❁ فاستنفروا كل مرهوب تغلغله
لما سبى القدس قالوا كيف نتركها ❁ والرب فى حفرة منها تمثله
فكم مليك لهم شق البحار سرى ❁ لينصروا القبر والاقدار تخذله
وكم ترحل منهم فيلق بفلا ❁ الى الخوامع القاه ترحله
استصرخوا الاهل والعدوى تمزقهم ❁ واستكثروا المال والهيجا تنفله
هم الفراش لهيب الحرب تصرعه ❁ وكلما لج صد ما جل مقتله
سيف امام فلسطين يرى اما ❁ خلف البحار لقد امهاه صيقله
كم فداعدوا وكم قد فل جمعهم ❁ من غير ضرب ولا طعن يزيله
وانما اسم صلاح الدين يذكر فى ❁ جيش العدو فيسبيهم تخيله

﴿ثم دخلت سنة ست وثمانين﴾ قال العماد رحمه الله والسلطان مقيم بعسكره بمنزلة الخروبه فى خيامه المضروبه على الحالة المحبوبه وعنده العادل والافضل والمظفر وعكا محصوره وانقرضت هذه السنة وهو على مرابطة المحاصرين لعكا واتفق فى أوائل هذه السنة وقبلها انصراف العساكر العربية الى بلادها البعيدة والقريبة لهجوم الشتاء وتوالى الانداء والانواء وحالت الوحول عن الركوب والنزول وكانت نوب اليزك مترتبه والاحوال متهذبه وربما ركب السلطان يوما للقنص بالبزاه ثم يعود لانتهاز فرصة الغزاه ثم وقعت وقعة الرمل وذلك انه ركب يوما فى صفر فتصيد وطاب له قرب القنص فابعد والبزكية على الرمل وساحل البحر فخرج الفرنج فى وقت العصر فى عدد لايدخل فى الحصر وتسامع أصحابنا بهم فزحفوا اليهم وحكموا عليهم وطردوا عليهم الى خيامهم وأخذوا عليهم من خلفهم وامامهم ولهم فى كل دفعة من العدو قلائع وللفرنج فى كل كرة على الرمل مصارع حتى فنى النشاب

وبقى الانتشاب وشاع نداء الاصحاب باستدعاء النشاب والفرنج لا يجزهم الا الرما ولا يهتكهم الا الاصما فلما انسوا بخلو الجعاب تجاسروا على الدنو من تلك الشعاب وحملوا حملة واحدة ردوا بها أصحابنا الى النهر وكادت تعبث بهم يد القهر فثبت من العادلية فى وجوه القوم صف مرصوص البنيان واستشهد جماعة من الشجعان وذلك انهم لما ردوا الفرنج قلعوا فرسانا وصرعوا اقرانا فنزلوا بعد فرسهم بسلب لبسهم فترت بهم الحملة فى الدوبه وأعجلتهم عن الركبة والوثبه وأظلم الليل وافترق الجمعان وكثر التأسف على من فقد ومنهم الحاجب ايدغمش المجدى قال ومن عجائب هذه الوقعه ان مملوكا للسلطان يقال له سراسنقر عثر به جواده فقبض من أسره على شعره ليجذبه وسل آخر سيفه ليضربه فضرب يد قابض شعره فسيبه واشتد سراسنقر يعدو وهم خلفه فلم يدركوه وعاد السلطان من الصيد وقد انفصل الامر قال وفى يوم الاحد خامس عشر ربيع الاول تسلم شقيف ارنون بالامان وكان الحصار قد استمر عليه حتى فنى زاده وصاحبه ارناط فى الاسر فسلمه بخلاصه وصار الى صور قال واغتنم السلطان هيجان البحر وحضور مراكب الاسطول من مصر فما زال يقوى عكا بتسيير الغلات والقوات اليها فى المراكب وملأها بالذخائر والاسلحة والكماه فلما سكن البحر عادت مراكب الفرنج الى مراسيها ودبت عقاربها وأفاعيها وشدت مراكبنا فى موانيها وانقطع خبر البلد وامتنع عليه دخول المدد فانتدب العوام بالسباحه وحملهم على ذلك من السلطان السماحه حتى صاروا يحملون نفقات الاجناد على أوساطهم ويخاطرون بانفسهم مع احتياطهم ويحملون كتبا وطيورا ويعودون بكتب وطيور ونكتب اليهم ويكتبون الينا على أجنحة الحمام بالترجمة المصطلح عليها وكان فى العسكر من اتخذ حماما يطوف على خيمته وينزل فى منزلته وعمل لها برجا من خشب وهوادى من قصب ويدربها على الطيران من البعد وكنا نقول ما لهذا الولع بما لا ينفع حتى جاءت نوبة عكا فنفعت وشفت الغليل ونقعت وأتت بالكتب سارحة شارحه وكنا نطلبها منه مع الليل والنهار حتى قل وجودها لكثرة الارسال ولقد عطب عوامون فما ارتدع الباقون ومنهم من سلم مرارا من القوم فاجترأ وأنس بالعوم

﴿فصل﴾ فى قدوم الملوك وحريق الابراج قال العماد ولما انقضى الشتاء وانفتح البحر وحان زمان القتال جاءت العساكر الاسلامية من البلاد فكان أول من وصل الملك المجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص والرحبه وسابق الدين عثمان صاحب شيرز وعز الدين ابراهيم بن المقدم ووفد معهم جموع من الاجناد والاعيان وحشود من العرب والتركمان فرحل السلطان وتقدم وعزم على طلب العدو وصمم ونزل على تل كيسان يوم الاربعاء ثامن عشر ربيع الاول ورتب عسكره فكان تقى الدين فى آخر الميمنه والعادل فى آخر الميسره والافضل فى أول ميمنة القلب وأخوه الظافر فى أول الميسرة على الجنب ثم وصل الظاهر فى عساكر حلب وعماد الدين محمود بن بهرام الارتقى صاحب دارا وغيرهم من الملوك والمقاتلين ووصل رسول الخليفة يوم الاثنين سادس عشر ربيع الاول وهو الشريف فخر الدين نقيب مشهد باب التبن ببغداد ووصل معه حملان من النفط الطيار وحملان من القنا الخطار وتوقيع بعشرين ألف دينار يقترض على الديوان العزيز من التجار وخمسة من الزراقين النفاطين المتقنين صناعة الاحراق بالنار فاعتد السلطان بكل ما أحضره وأخلص الدعاء للديوان العزيز وشكره غير انه أبدى رد التوقيع وقال كل ما معى من نعمة أمير المؤمنين ولو لا صرف أموال هذه البلاد الى الجهاد لكانت محمولة الى الديوان وأركب الرسول معه مرارا وأراه مبارك النزال ومعارك القتال حتى يشهد بما يشاهد ويبين له المجتهد والمجاهد وأقام طويلا ثم استأذن فى العود فرجع وقال القاضى ابن شداد قبل السلطان جميع ما وصل مع الرسول واستعفى من الرقعة والتثقيل بها قال وفى ذلك اليوم بلغ السلطان ان الفرنج قد زحفوا على البلد وضايقوه فركب اليهم ليشغلهم بالقتال عن البلد فقاتلهم قتالا شديدا الى الليل وخاف السلطان ان يهجم العدو البلد فانتقل الى تل الحجل فى خامس عشر ربيع الاول للقرب قال وفى صبيحة هذا اليوم وصل من البلد عوام معه كتب تتضمن انه قد طم العدو بعض الخندق وقد قوى عزم العدو على منازلة البلد ومضايقته فجدد السلطان الكتب الى العساكر بالحث على الوصول وفى سحر ليلة الجمعة سابع عشرى ربيع الاول وصل ولده الظاهر وفى آخر ذلك اليوم وصل مظفر الدين وكان السلطان رحمه الله ما يقدم عليه عسكرا الا ويعرضهم ويسير بهم الى العدو وينزل بهم

فى خيمته ويمدّ لهم الطعام وينعم عليهم بما تطيب به قلوبهم اذا كانوا أجانب ثم تضرب خيامهم حيث يأمر وينزلون بها مكرمين قال وكان العدوّ قد اصطنع ثلاثة ابرجة من خشب وحديد والبسها الجلود للسقاة بالخل على ماذكر بحيث لاتنفذ فيها النيران وكانت هذه الابراج كأنها الجبال نشاهدها من مواضعنا عالية على الاسوار وهى مركبة على عجل يسع الواحد منها من المقاتلة مايزيد على خمسمائة نفر على ماقيل ويتسع سطحه لان ينصب عليه منجنيق وكان ذلك قد عمل فى قلوب المسلمين وأودعها من الخوف على البلد مالا يمكن شرحه وايس الناس من البلد بالكلية وتقطعت قلوب المقاتلة فيه وكان قد فرغ عملها ولم يبق الا جرّها الى قريب السور وكان السلطان رحمه الله قد أعمل فكره فى احراقها واهلاكها وجمع الصناع من الزراقين والنفاطين وباحثهم فى الاجتهاد فى احراقها ووعدهم عليه بالاموال الطائلة والعطايا الجزيلة وضاقت حيلهم عن ذلك وكان من جملة من حضر شاب نحاس دمشقى فذكر ان له صناعة فى احراقها وانه ان أمكن من الدخول الى عكا وحصل له الادوية التى يعرفها أحرقها فحصل له جميع ماطلبه ودخل الى عكا وطبخ تلك الادوية مع النفط فى قدور من النحاس حتى صارا لجميع كأنه جمرة نار ثم ضرب البرج الواحد يوم وصول الملك الظاهر بقدر فاشتعل من ساعته ووقته وصار كالجبل العظيم من النار طالعة ذؤابته نحو السماء فاستغاث المسلمون بالتهليل والتكبير وغلبهم الفرح حتى كادت عقولهم تذهب فبينما الناس ينظرون ويتعجبون اذ رمى البرج الثانى بالقدر الثانى والثالث بالثالث فاحترقا كالاوّل وركب السلطان والعساكر وسار اليهم وانتظر ان يخرجوا فيناجزهم عملا بقوله صلى الله عليه وسلم من فتح له باب خير فلينتهزه فلم يظهر العدوّ من خيامهم وحال بين الطائفتين الليل واستمر ركوب السلطان اليهم فى كل يوم وطلب نزالهم وقتالهم وهم لايخرجون من خيامهم لعلمهم بتباشير النصر والظفر بهم والعساكر الاسلامية تتواتر وتتواصل فوصل فى الثانى والعشرين من ربيع الآخر عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى صاحب سنجار وهو ابن أخى نور الدين رحمه الله وصهره زوج ابنته فلقيه السلطان بالاحترام والتعظيم ورتب له العسكر فى لقائه وسار به حتى اوقفه على العدوّ وعاد معه الى خيمته وأنزله عنده وكان صنع له طعاما لائقا بذلك اليوم فحضره هو وجميع أصحابه وقدّم له من التحف واللطائف مالا يقدر عليه غيره وكان قد أكرمه بحيث طرح له طراحة مستقلة الى جانبه وبسط له ثوبا أطلس عند دخوله وضربت خيمته على طرف الميسرة على جانب النهر وفى سابع جمادى الاولى وصل ابن أخيه صاحب الجزيرة معز الدين سنجرشاه بن سيف الدين غازى بن مودود بن زنكى فلقيه السلطان وأنزله الى جانب عمه عماد الدين وفى تاسع جمادى الاولى وصل ابن صاحب الموصل وهو علاء الدين خرم شاه بن عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى نائبا عن أبيه ففرح السلطان به فرحا شديدا وتلقاه من بعيد هو وأهله واستحسن أدبه واستجبه وأنزله عنده فى الخيمة وكارمه مكارمة عظيمة وقدّم له تحفا حسنة وأمر بضرب خيمته بين ولديه الافضل والظاهر وفى أواخر الشهر وصل صاحب أربل زين الدين يوسف بن زين الدين على فاكرمه السلطان وأنزله عند أخيه مظفر الدين يعنى فى الميسرة وذكر العماد قدوم هؤلاء الملوك بمعنى ماتقدّم قال وكان الفرنج مذ نزلوا على عكا صمموا على الاقامة والحصر فشرعوا فى بناء الابراج العظام العاليه ونقلوا فى البحر آلاتها وأخشابها الجافيه وافطاع الحديد وبنوا ثلاثة أبراج عالية فى ثلاثة مواضع من اقطار البلد فتعبوا فيها سبعة أشهر فلم يفرغوا منها الا فى ربيع الاوّل فعلت كأنها ثلاثة اطواد قد ملئت طبقاتها بعدد واعداد وكل برج لابد له فى اركانه من أربع اسطوانات عاليات غلاظ جافيات طول كل واحدة خمسون ذراعا ليشرف على ارتفاع سور البلد وبسطوها على دوائر العجل ثم كسوها بعد الحديد والوثوق الشديد بجلود البقر والسلوخ وكل يوم يقربونها ولو ذراعا على حسب التيسير فى تسييرها وسقوها بالخل والخمر وكشفوا من جوانبها الثلاثة سور البلد وشرعوا فى طم الخندق وجاء عوّام من عكا فاخبر السلطان فركب بالعسكر ولازمهم من الجمعة الى الجمعة يقاتلهم صباح مساء ليشغلهم فافترقوا قسمين فريق للقتال وفريق آخر مع الابراج فاشفى البلد وبقى له رمق ضعيف ورميت الابراج بكل فارورة نفط فما أثرت ولم نشعر يوم السبت الثامن والعشرين من ربيع الاوّل بالابراج الا وقد اشتعلت والتهبت ووقعت وكانت آية من قدرة الله ظهرت وذلك انه كان بعكا شاب من أهل دمشق يعرف بعلى بن عريف النحاسين وكان أبدا يجمع آلات الزراقين مولعا لتحصيل عقاقيرها متتبعا وكل من

عرفه عذله وانكر عمله وكان قد ألف منها مقادير وقدورا وملأ بالغيظ من أهل تلك الصناعة صدورا ولم يكن النفط من صناعته ولكن الله وفقه لسعادته فلما كان يوم حريقها جاء الى الامير قراقوش وهو مغتاظ واخلاقه فظاظ غلاظ وقال ائتأذن لى فى تصويب المنجنيق لاحرق البرج والله ولي التوفيق فزجره وزبره ونهاه ونهره وقال صناع هذا الشغل قد خاروا وحاروا وبعد ما انجدوا أغاروا فقال الناس دعه وشانه وما يدريك ان الله وفقه وأعانه فرمى ابن العريف الى البرج الاول قدورا نفط خالية من نار حتى عرف انه سقاه ورواه ثم رماه بقدر محرقه وأردفها بأخرى من هقه فتسلطت النار على طبقاتها فاضرم على أهل السعير سعيرا وكان يوما على الكافرين عسيرا ثم أحرق الثانى والثالث فاجتمع عليه الاصحاب يفدونه ومن أولياء الله يعدونه وحملوه بعد ذلك الى السلطان فلم يقبل عطاء وقال عملته لله فما أريد به من سواه جزاء وقيل احترق فى البرج الاول سبعون فارسا بعدتها فخبطت أعمالهم وخابت آمالهم وخرج رجالنا من البلد فنضفوا الخندق وسدوا الثغر وأظهروا القدر بظهور القدر وجاؤا الى مواضع الابراج وأماكنها واستخرجوا الحديد من مكامنها ونبشوا الرماد عن الزردیات التى انسبكت وكشفوا عن الستائر التى تهتكت فأخذوا ما وجدوا وحصلوا على ما نشدوا قال وكان السلطان قد كتب بالاستظهار من شوانى الاسطول والاسراع به فى الوصول فوصل الخبر بوصوله يوم الخميس ثامن الشهر فاستظهر به الاسطول الاول الذى بالثغر فركب السلطان بجميع كتائبه وأحاط بالكفر من جميع جوانبه واشتغل الفرنج عنا بما دهمهم فى البحر فجذوا فى الامر وجهزوا اسطولا بعدد الرجال وعدد القتال وخرجوا للتلقى الاسطول الواصل وقابلوا الحق بالباطل وجاءت شوانى المسلمين فتطحت وطحنت وأخذت مركبا للعدو برجاله وأخذوا الناقطعه ومازالت الحرب قرعة وفزعه وصرعة وصرعه حتى دخل الليل فتحاجز الفريقان وتفرق الاسطولان وكانت المقتلة فى الكفر شديده والسطوة مبيده وقال القاضى ابن شداد لما كان ظهيرة يوم وصول علاء الدين ابن صاحب الموصل ظهرت فى البحر قلوع كثيره وكان رحمه الله فى نظرة الاسطول من مصر فانه كان قد أمر بتعبيره ووصوله فعلم انه هو فركب والناس فى خدمته وتعبأ تعبية القتال وقصد مضايقة العدو ليشغله عن قصد الاسطول ولما علم العدو بالاسطول استعد له وعمر اسطوله لقتاله ومنعه من دخول عكا ولما خرج اسطول العدو واشتد السلطان فى قتالهم من خارج وسار الناس على جانب البحر تقوية للاسطول وايياسا له ولرجاله التقى الاسطولان فى البحر والعسكران فى البر واضطرمت نار الحرب واستعرت وباع كل فريق روحه براحته الاخرويه وجرى قتال شديد أقشع عن نصرة الاسطول الاسلامى وأخذ منه شينى وقتل من به ونهب جميع ما فيه وظفر من العدو بمركب أيضا كان واصلا من قسطنطينيه ودخل الاسطول المنصور الى عكا وكان قد صحبه مراكب من الساحل فيها ميرة وذخائر وطابت قلوب أهل البلد بذلك وانشرحت صدورهم فان الضائقة كانت قد أخذت منهم واتصل القتال بين العسكرين من خارج البلد الى ان فصل بينهم الليل وعاد كل فريق الى خيمه وقد قتل من عدو الله وجرح فى ذلك اليوم خلق عظيم فانهم قاتلوا فى ثلاثة مواضع فان أهل البلد اشتدوا فى قتالهم ليشغلوهم عن الاسطول أيضا والاسطولان مقابلان والعسكر من البر يقاتلهم وكان النصر بحمد الله للمسلمين قال العماد وقتلنا منهم مدة مقامنا على عكا ستين أكثر من ستين ألف ورزأناهم بكل حتف وكلما بادوا فى البر زادوا من البحر وكم جسروا وخسروا وقتلوا وأسروا وهزموا وكسروا وخلفهم خلف ويقوم مقام مائتهم ألف وقد أفنينا أنفسهم وأموالهم وقطعنا أرزاقهم ووصلنا آجالهم

(فصل) فيما كان من أمر ملك الالمان قال القاضى ابن شداد تواصلت الاخبار بوصول ملك الالمان الى بلاد قليج ارسلان وانه انتهض للقائه جمع عظيم من التركمان وقصدوا منعه من عبور النهر وانه أعجزهم لكثرة خلقه وعدم مقدم لهم يجمع كلمتهم وكان قليج أرسلان يظهر اشفاقه وهو فى الباطن قد أضمر وفاقه ثم لما عبر الى البلاد أظهر من الفساد ما كان أضمره ووافقه وأعطاه رهائن معه على انه ينفذ معه من يوصله الى بلاد ابن لاون وأنفذ معه ادلة يدلون به وعراهم فى الطريق جوع عظيم وأعوزهم الزاد وقل بهم الظهر حتى انهم القوا بعض أثقالهم ولقد بلغنا والله اعلم انهم جمعوا عددا كثيرة من زردیات وخود وآلات وسلاح عجزوا عن حملها وجعلوها بيدرا واحدا

وأضرموا فيها النار لتتلف ولا ينتفع بها أحد وانها بقيت بعد ذلك رابية من حديد وساروا على هذه الحال حتى وصلوا الى طرسوس فأقاموا على نهر ليعبروه وان ملكهم الملعون عنّ له ان يسبح فيه وكان ماء شديد البرد وكان ذلك عتيب ما ناله من التعب وانه عرض له بسبب ذلك مرض عظيم اشتدّ به الى ان قتله ولما رأى ما حل به أوصى الى ابنه الذى كان فى صحبته ولما مات أجمعوا رأيهم على انهم سلقوه فى خل وجمعوا عظامه فى كيس حتى يحملوه الى القدس الشريف ويدفنوه فيه وترتب ابنه مكانه على خلف من أصحابه فان ولده الاكبر كان خلفه فى بلاده وكان جماعة من أصحابه يميلون اليه واستقر قدم ولده الحاضر فى تقدمه فى العسكر ولما أحس لافون بما جرى عليهم من الخلل وما حل بهم من الجوع والموت والضعف بسبب موت ملكهم ما رأى أن يلقى نفسه بينهم فانه لا يعلم كيف يكون الامر وهم فرنج وهو أرمنى فاعتصم عنهم فى بعض قلاعه المنيعة ولقد وصل الى السلطان كتاب من الكاغيكوس وهو مقدّم الارمن وهو صاحب قلعة الروم التى على طرف الفرات ومعنى هذا الاسم الخليفة ونسخة الكتاب (كتاب الداعى المخلص الكاغيكوس مما أطالع به علوم مولانا ومالكنا السلطان الملك الناصر جامع كلمة الايمان رافع علم العدل والاحسان صلاح الدنيا والدين سلطان الاسلام والمسلمين من أمر ملك الالمان وما جرى له عند ظهوره وذلك انه أوّل ما خرج من دياره دخل بلاد الهنكر غصبا ثم دخل أرض مقدم الروم وفتح البلاد ونهبها وأحوج ملك الروم الى ان أطاعه وأخذ رهائنه ولده وأخاه وأربعين نفرا من خلصائه وأخذ منه خمسين قنطارا ذهبا وخمسين قنطارا فضة وثياب اطلس مبلغا عظيما واغتصب المراكب وعدى بها الى هذا الجانب وصحبته الرهائن الى ان دخل حدود بلاد الملك قليج ارسلان وردّ الرهائن وبقى ثلاثة أيام سائرا وتركمان الاوج يلقونه بالاغنام والابقار والخيل والبضائع فتداخلهم الطمع وجمعوا من جميع البلاد ووقع القتال بين التركمان وبينهم وضايقوه ثلاثة وثلاثين يوما وهو سائر ولما قرب من قونية جمع قطب الدين ولد قليج أرسلان العساكر وقصده وضرب معه مصافا عظيما فظفر به ملك الالمان وكسره كسرة عظيمة وسار حتى أشرف على قونية فخرج اليه جموع عظيمة من المسلمين فردّهم مكسورين وهجم قونية بالسيف وقتل منها عالما عظيما من المسلمين والفرس وأقام بها خمسة أيام فطلب قليج أرسلان منه الامان فأمنه الملك واستقر بينهم قاعدة أكيدة وأخذ منه الملك رهائن عشرين من أكابر دولته وأشار على الملك أن يجعل طريقه على طرسوس والمصيصة ففعل وقبل وصوله الى هذه البلاد انفذ كتابه ورسوله يشرح حاله وأين قصده وما لقيه فى طريقه وانه لا بدّ يجتاز بهذه الديار اختيارا أو كرها فاقتضى الحال انفاذ المملوك خاتمه وصحبته ما سأل ومعه من الخواص جماعة للقاء الملك فى جواب كتابه وكانت الوصية معهم أن يحرّفوه على بلاد قليج أرسلان ان أمكن فلما اجتمعوا بالملك الكبير وأعادوا عليه الجواب وعرّفوه الاحوال أبى الانحراف ثم كثر عليه العساكر والجوع ونزل على شط بعض الانهر وأكل خبزا ونام ساعة وانتبه فتاقت نفسه الى الاستحمام فى الماء البارد ففعل ذلك وخرج وكان أمر الله انه تحرّك عليه مرض عظيم من الماء البارد فمكث أياما قلائل ومات وأما لافون فكان سائرا يتلقى الملك فلما جرى هذا المجرى هرب الرسل من العسكر وتقدموا اليه وأخبروه بالحال فدخل فى بعض حصونه واحتمى هناك وأما ابن الملك فكان أبوه منذ توجه لقصد هذه الديار نصب ولده الذى معه عوضه وتأكدت قواعده وبلغه هرب رسل لافون فأنفذ واستعطفهم وأحضرهم وقال ان ابى كان شيخا كبيرا وانما قصد هذه الديار لاجل حج بيت المقدس وأنا الذى دبرت الملك وعاينت المشاق فى هذه الطريق مع من أطاعنى والا كنت بدأت بقصد دياره واستعطف لافون واقتضى الحال الاجتماع به ضرورة وفى الجملة هم فى عدد كثير ولقد عرض عسكره فكان فى اثنين وأربعين ألف مجحف وأما الرجالة فلا يحصى عددهم هم اجناس متفاوتة وخلق غريبة وهم على قصد عظيم وجدّ فى أمرهم وسياسة هائلة حتى ان من جنى منهم جناية ليس له جزاء الا ان يذبح مثل الشاة ولقد بلغنا عن بعض أكابرهم انه جنى على غلام له وجاوز الحد فى ضربه فاجتمعت القسوس للحكم عليه فاقتضى الحال والحكم العام ذبحه وشفع الى الملك منهم خلق عظيم فلم يلتفت الى ذلك وذبحه وقد حرّموا الملاذ على أنفسهم حتى ان من بلغهم عنه بلوغ لذة هجروه وعزروه وكل ذلك كان حزنا على بيت المقدس ولقد صح عن جمع منهم انهم هجروا الثياب مدّة طويلة وحرّموها على أنفسهم ولم يلبسوا الا الحديد حتى أنكر عليهم

الاكابر ذلك وهم من الصبر على الذل والشقاء والتعب على حال عظيم) وقال العماد لما قاربوا بلاد عز الدين قليج ارسلان نهض اليهم ابنه قطب الدين ملك شاه فوقع بينهم الحرب ثم اندفع عنهم الى مدينة فونية فساقوا وراءه ودخلوها وحرقوا أسواقها ونزلوها فنفذوا الى السلطان قليج أرسلان أنا لم نصل لاخذ بلادك وانما ثرنا لشاريت المقدس ونفدوا اليه هدايا وطلبوا الهدنة فهادنهم فتقووا من تلك البلاد بما أرادوا من العدد والازواد وانفذ قليج أرسلان وابنه يعتذران الى السلطان من تمكينهم من العبور وانهم غلبوا على ذلك ثم ان الالمانية طلبوا من قليج أرسلان انفاذ جماعة من الامراء معهم يمنعونهم من لصوص التركمان حتى يصلوا الى بلاد الارمن فنفذ معهم خمسة وعشرين ووافق ذلك غرض قطب الدين فانه كان كارها لجماعة من المقدمين فتقدم اليهم بأن يكونوا في صحبة ملك الالمان فحملهم على الخطر وأوقعهم في الغرر ووزطهم في الضرر فانهم ماقدروا في الطريق على دفع كل سارق وقد تبعتهم اللصوص حتى وصلوا الى بلاد الارمن ومقدمهم لافون بن اصطفان بن لاون فأخذوا أولئك الرهائن وقيدوهم وجعلوهم في الاسر وجردوهم فمنهم من خلص بعد حين بمال جزيل ومنهم من بقي مأسورا حتى أتاه اليقين ووصل مقدم الارمن الى خدمته ودخل في طاعته وهداهم لمقصده وقام لهم بالضيافات والعلوفات وذلك في طرسوس فتمكنوا بها لان يحوا النفوس فعن لملك الالمان ان يسبح في النهر لاماطة مابه من الوضر فعرض له مرض سلك به في سقر وقيل لما عبرت جموعه النهر ازدحموا والتطم الموج بهم واقتحموا وطلب هو موضعا يعبر فيه وحده ويتبعه من بعده فنزل على مخاضة ذات مخافه لايخلوص هجمها من آفه فجرى اليها واجترأ عليها فجذبته سورة الماء الى شجرة شجت رأسه وبجت أنفاسه وأخرجوه ونفسه على الخروج وعمد على الدروج فتسلم مالك ملك الالمان بآله واحماله الى جهنم وجلس ابنه مكانه واتبع شانه واستتبع رجاله وفرسانه وقيل عرض عسكره في نيف وأربعين ألف كمي وانقطع عنه ابن لاون واختلف عليه أصحاب أبيه ميلا منهم الى أخيه وساروا على سمت انطاكية في فرق ثلاث كانهم من المرض قد نبشوا من اجداث وأكثرهم حملة عصي وركاب حمير وكل بالارض التي يسلكها غير خبير فتبرم بهم صاحب انطاكيه وثقلت عليه وطأتهم المعاجيه وحبس لهم طريق بلاد حلب فلم يروا لهم في ذلك الصوب من ارب وطلب منه الملك قلعة انطاكية لينقل اليها ماله وخزائنه واثقاله فاخلاها له وسلمها اليه طمعا في ماله وأموال رجاله وكان على ماحدسه فانه لم يعد اليها واستولى الابرنس بانطاكية عليها وجاءت فرقة منهم ليلا الى حصن بغراس وظنوا انه في أيدي أجناسهم الانجاس فنقبوا والى القلعة الباب وأخرج الاصحاب وتسلم تلك الاموال باحمالها والصناديق باقفالها وأسر منهم وقتل كثير وخرج بعد ذلك أهل حلب وجندها الى طرقهم وفرقوا بين فرقهم والتقطوهم من الخمر والغياض وكان الواحد يستأسر منهم ثلاثه ولا يرى من رفقائهم اغاثه فهانت الالمانية بعد تلك المهابة في الانفس وباعوهم في الاسواق بالثمن الابخس ولما تكامل وصول السالمين الى انطاكيه سلكوا الى طريق طرابلس جبلة واللاذقيه فخرج عليهم رجالها فقتلوا منهم وأسروا فباعوا وصلوا الى طرابلس الا في خف ولم يصف ممن جاء مع الملك غير ألف وجاؤا الى النازلين على عكا فغرقوا في لجهم وخمدوا في وهجهم ثم هلكوا على عكا بعد انقضاء مدة واقتضاء شدة بتاريخ ثاني عشر ذي الحجه سنة ست وثمانين وقال في الفتح وحين الملك عن السير على الطريق لما لقيت جموعه في طرقاتهم من التمريق فركب البحر في عدد يسير لا يزيد على الالف برعب قلب وقصور يد ورغم أنف واختلط مع الفرنج على عكا فسقط اسمه وسخط حكمه وهلك بعد قليل ولم يحظ بنقع غليل وقال القاضي ابن شداد مرض ولد ملك الالمان الذي قام مقامه مرضا عظيما وأقام بموضع يسمى التينات من بلاد لافون وأقام معه خمسة وعشرون فارسا وأربعون راجلا وجهز عسكره نحو انطاكية حتى يقطعوا الطريق ورتبهم ثلاث فرق لكثرتهم ثم ان الفرقة الاولى اجتازت تحت قلعة بغراس ومقدمها كند عظيم عندهم وان عسكر بغراس مع قلته أخذ منهم مائتي رجل نهبا وقهرا وكتبوا يخبرون عنهم بالضعف العظيم والمرض الشديد وقلة الخيل والظهر والعدد والآلات ولما اتصل هذا الخبر بالنواب في البلاد الاسلامية انفذوا اليهم عسكرا يكشفون أخبارهم فوقع العسكر على جمع عظيم قد خرجوا لطلب العلوفة فاغاروا عليهم وقتلوا وأسروا زهاء خمسمائة نفس ولقد حضرت من يخبر السلطان عنهم ويقول هم عدد كثير لكنهم ضعفاء قليلو الخيل والعدة وأكثر

ثقلهم على حمير وخيل ضعيفة قال ولقد وقفت على جسر يعبرون عليه لاعتبرهم فعبر منهم جمع عظيم ما وجدت مع واحد منهم طارقة ولا رمحا الا النادر فسألتهم عن ذلك فقالوا أقمنا بمرج وخم أياما وقلت ازوادنا واحطابنا فاوقدنا معظم عددنا ومات منا خلق عظيم واحتجنا الى الخيل فذبحناها وأكلناها ومات الكند الذى وصل الى انطاكيه وطمع لافون فيهم حتى عزم على أخذ مال الملك لمرضه وضعفه وقلة جمعه الذى تأخر معه ولم تزل أخبارهم تتواتر بالضعف والمرض قال ولما تحقق السلطان وصول ملك الالمان الى بلاد لافون وقربه من البلاد الاسلامية جمع أمراء دولته وأرباب الاراء وشاورهم فيما يصنع فاتفق الرأى على ان العسكر يسير بعضه الى البلاد المتأخمة لطريق عسكر العدو الواصل وان يقيم هو رحمه الله على منازلة العدو المقابل بباقى العسكر المنصور فكان أول من سار صاحب منبج ناصر الدين بن تقى الدين ثم عز الدين ابن المقدم صاحب كفرطاب وبارزين وغيرهما ثم مجد الدين صاحب شيزر ثم اليارقية من جملة عسكر حلب وسار الى دمشق ولده الافضل لمرض عرض له وكذا بدر الدين شحنة دمشق ثم سار الملك الظاهر الى حلب لاية الطريق وكشف الاخبار وحفظ ما يليه من البلاد وسار بعده الملك المظفر لحفظ ما يليه من البلاد وتدبير أمر العدو والمجتاز ولما سارت هذه العساكر خفت الميمنة فان معظم من سار منها فامر رحمة الله عليه الملك العادل فانتقل الى منزلة تقى الدين فى طرف الميمنه وكان عماد الدين زنكى فى طرف الميسره ووقع فى العسكر مرض عظيم فمرض مظفر الدين بن زين الدين صاحب حران وشفى ومرض بعده الملك الظافر ولد السلطان وشفى ومرض خلق كثير من الاكابر وغيرهم الا ان المرض كان سليما بحمد الله تعالى وكان المرض عند العدو أكثر وأعظم وكان مقترنا بموتان عظيم وأقام السلطان مصابرا على ذلك مرابطا للعدو قال العماد وتقدم السلطان بهدم سور طبريه وهدم يافا وارسوف وقيساريه وهدم سور صيدا وجبيل ونقل أهلها الى بيروت وفى بعض الكتب السلطانيه (قد عرفنا خبر العدو المشؤم الواصل من جانب الروم وهذا أوان تحرك ذوى الحميه ونهوض أهل الهمم الابية العليه وانهم فى كثره مستنون فى طريق العثرة والسيل اذا وصل الى الجبل الراسى وقف والليل اذا بلغ الى الصبح المسفر انكشف فأين المؤدون فرض الجهاد المتعين وأين المهتدون فى نهج الرشاد المتبين وأين المسلمون وحاشى ان يكونوا للاسلام مسلمين وأين المقدمون فى الدين ومعاذ الله أن لا يكونوا فى نصرته على الموت مقدمين ولولا التقييد بهذا العدو الرابض لاطلقت أعنة النهضة الى العدو الناهض ولابد من لقائه قبل تلفق الجمعين وارآة الملاعين وجوه حتفهم ملء العين) ومن كتاب فاضلى الى بغداد (ومن خبر الفرنج انهم الآن على عكا يمدهم البحر بمراكب أكثر عدة من أمواجه ويخرج منه للمسلمين ما هو أمر من أجاجه وقد تعاضدت ملوك الكفر على ان ينهضوا اليهم من كل فرقة طائفه وبرسلوا اليهم من كل سلاح شوكه فاذا قتل المسلمون واحدا فى البر بعثوا ألفا عوضه فى البحر فالزرع أكثر من الحصاد والثمرة انمى من الجذاذ وهذا العدو المقابل قاتله الله قد زرع عليه من الخنادق دروعا متينه وأستجن من الجنانات بحصون حصينه فصار محصورا ومتمنعا حاسرا ومتدرعا مواصلا ومنقطعا وعددهم الجم قد كاثر القتل ورقابهم الغلب قد قطعت النصل لشدة ما قطعها النصل وأصحابنا قد أثرت فيهم المدة الطويله والكلف الثقيله فى استطاعتهم لا فى طاعتهم وفى أحوالهم لا فى شجاعتهم وكل من يعرفهم يناشد الله فيهم المناشدة النبويه فى الصحبة البدريه اللهم ان تهلك هذه العصابه ويخلص الدعاء ويرجو على يد سيدنا أمير المؤمنين الاجابه وقد حرم بابا هم لعنة الله عليه وعليهم كل مباح واستخرج منهم كل مذخور وأغلق دونهم الكنائس ولبس والبسهم الحداد وحكم عليهم أن لا يزالوا كذلك أو يستخلصوا المقبره فيا عصبة محمد عليه السلام أخلفه فى أمته بما تطمئن به مضاجعه ووفه الحق فينا فانا والمسلمون عندك ودائعه وما مثل الحادم نفسه فى هذا القول الا بحالة عبد لو أمكنه لو وقف بالعتبات ضارعا وقبل ترابها خاشعا وناجاها بالقول صادعا ولو رفعت عنه العوائق لهاجر وشافه طبيب الاسلام بل مسيحه بالداء الذى خامر ولو امن عدو الاسلام أن يقول قولا آخر لسافر ولولا ان فى التصريح ما يعود على العدالة بالتجريح لقال ما يبكى العيون و ينكى القلوب ولكنه صابر محتسب منتظر لنصر الله مرتقب قائم من نفسه بما يجب رب انى لا أملك الا نفسى وها هى فى سبيلك مبذوله واخى وقد هاجر اليك هجرة يرجوها مقبوله وولدى وقد بذلت

لعدوك صفحات وجوههم وهان على محبوبك بكروهى فيهم ومكروههم ونقف عند هذا الحد ولله الامر من قبل ومن بعد

(فصل) فى الوقعة العادلية على عكا ظهر يوم الاربعاء العشرين من جمادى الآخرة قال القاضى ابن شداد علم عدو الله ان العساكر قد تفرقت فى اطراف البلاد وان المخيمة قد خفت لان معظم من سار كان منها بحكم قرب بلادهم من طريق العدو فاجمعوا رأيهم واتفقت كلمتهم على انهم يخرجون بغتة ويهجمون على طرف الميمنة فجأة فخرجوا واستخفوا طرف الميمنة وفيها مخيم العادل فلما بصر الناس بهم صاح صائحهم وخرجوا من خيامهم كالاسود من اجامها وركب السلطان ونادى منادية بالاسلام وكان رحمه الله اول راكب ولقد رأيته وقد ركب من خيمته وحوله نفر يسير من خواصه والناس لم يستتم ركوبهم وهو كالفاقدة لولدها الثاكلة لواحدها ثم ضرب الكوس فاجابته كاسات الامراء من اماكنها وركب الناس وسارع الفرنج فى قصد الميمنة حتى وصلوا الى المخيم العادلى قبل استتمام ركوب العساكر ودخلوا فى وجاقه وامتدت أيديهم فى السوق واطراف المخيم بالنهب والغارة وقيل وصلوا الى خيمة الخاص واخذوا من شرابخاناته شيأ وركب العادل واستركب من يليه من الميمنة كالطواشى قايماز النجمى وعز الدين جرديك النورى ومن يجرى مجراه ووقف وقوف مخادع حتى يوغل بهم طمعهم فى المخيم ويشتغلوا بالنهب وكان كما ظن فانه عاثت أيديهم فى الخيام والاقمشة والفواكه والطعام فلما علم اشتغالهم بذلك صاح بالناس وحمل بنفسه يقدمه ولده الكبير شمس الدين مودود وحمل بحملته من كان يليه من الميمنة واتصل الامر بجميع الميمنة حتى وصل الصائح الى عسكر الموصل وهجموا على العدو هجمة الاسود على فرائسها وامكنهم الله منهم ووقعت الكسرة فعادوا يشتدون نحو خيامهم هاربين وعلى اعقابهم ناكصين وسيف الله يقتل فيهم وصاح صائح السلطان فى الناس يا ابطال الموحدين هذا عدو الله قد أمكن الله منه وقد داخله الطامع حتى غشى خيامكم بنفسه فبادر الى اجابة دعوته اهل حلقته وخاصته ثم عسكر الموصل يقدمهم علاء الدين ولد عز الدين ثم عسكر مصر يقدمهم سنقر الحلبى وتتابعت العساكر وتجاوبت الابطال وقامت سوق الحرب فلم يكن الا ساعة حتى رأينا القوم صرعى كانهم أعجاز نخل خاويه وامتدوا مطروحين من خيام العادل الى خيامهم اولهم فى المخيم الاسلامية وآخرهم فى خيم العدو صرعى على التلول والوهاد وكان مقدار ما امتد فيه القتلى بين المخيمين فرسخا وربما زاد على ذلك ولم ينج من القوم الا النادر قال ولقد خضت فى تلك الدماء بدابتى واجتهدت ان أعدهم فما قدرت على ذلك لكثرتهم وتفرقهم وشاهدت منهم امرأتين مقتولتين وحكى لى من شاهد منهم أربع نسوة يقاتلن واسر منهن اثنتان واسر من الرجال فى ذلك اليوم نفر يسير فان السلطان كان قد أمر الناس ان لا يستبقوا أحدا هذا كله فى الميمنة وبعض القلب واما الميسرة فما اتصل الصائح بهم الا وقد نجز الامر وقضى القضاء على العدو لبعد المسافتين وكانت هذه الوقعة فيما بين الظهر والعصر فان العدو ظهر فى قائم الظهيرة وانفصلت الحرب بعد العصر وانكسر القوم حتى دخلت طائفة من المسلمين ورآهم الى مخيمهم على ما قيل ثم ان السلطان أمر الناس بالتراجع ولم يفقد من المسلمين أحد فى ذلك اليوم سوى عشرة أنفس غير معروفين ولما أحس جند الله بعكا بما جرى بين المسلمين وبين العدو من الوقعة فانهم كانوا يشاهدون الوقعات من أعالى السور خرجوا الى مخيم العدو من البلد وجرى بينهم مقتلة عظيمة وكانت النصرة والحمد لله للمسلمين بحيث هجموا خيام العدو ونهبوا منها جملة من النسوان والاقمشة حتى القدور فيها الطعام ووصل كتاب من عكا يخبر بذلك واختلف الناس فى عدد القتلى منهم فذكر قوم انهم ثمانية آلاف وقال آخرون سبعة آلاف ولم ينقصهم حازر عن خمسة آلاف ولقد شاهدت منهم خمسة صفوف أولها فى خيم العادل وآخرها فى خيم العدو ولقد لقيت انسانا عاقلا جندى يا يسعى بين صفوف القتلى ويعدهم فقلت له كم عددت فقال الى هاهنا أربعة آلاف ونيفا وستين قتيلا وكان قد عد صفين وهو فى الصف الثالث لكن ما مضى من الصفوف أكثر عددا من الباقى قال وجاء من الغد نجاب له عن حلب خمسة أيام بكتاب يتضمن ان جماعة عظيمة من العدو الشمالى خرجوا للنهب باطراف البلاد الاسلامية ونهض العسكر الحلبى اليهم واخذ عليهم الطرق فلم ينج منهم احد الا من شاء الله قال وجاء فى ليلة ذلك اليوم من اليزك من ذكر ان العدو قد سأل من جانب السلطان من يصل اليهم ليسمع منهم حديثا فى سؤال الصلح لضعف حل بهم ولم يزل العدو من حينئذ مكسور

الجناح منهاض الجانب حتى وصلهم كندبقال له كندهرى وسيأتى ذكره وقال العماد لما شاع عند الفرنج خبر وصول الالمانية قالوا اذا وصل ملكهم ونكى فى المسلمين انكسر ناموسنا وتطأطأت عنده رؤسنا فذكر الوقعة بمعنى ماتقدم الى أن قال ووصل السلطان وشاهد من مساءة الفرنج ماسره وعرف لطف الله وبره ونصره وعاين هنالك مصارع الاعداء ومشارع البلاء وكانوا مفروشين فى مدى فرسخ على الارض وهم فى تسعة صفوف من تلال الرمل الى البحر بالعرض وكل صف يزيد على ألف قتيل وشاع القتل فى الفرنج فى كل قبيل وكانت هذه النوبة بلا نائبه وتلك الغزوة بلا شائبه وقتل منهم زهاء عشرة آلاف ولم يبلغ من استشهد من اتباع العسكر عشرة نفر واغتنمها تجارة رابحه وغنيمة ميسره قال ولما عرفت بالواقعه والنصرة الجامعه صدرت ثلاثين او اربعين كتابا بالبشارات بابلغ المعانى وابرع العبارات وقلت اذا نزل السلطان وجد الكتب حاضره ورأى البشارة شائره وركبت أنا والقاضى بهاء الدين ابن شداد لمشاهدة ماهنالك من اشلاء صرعى واجساد فما اعجل ماسلبوا وعروا وفروا وفتروا وقد بقرت بطونهم وفقئت عيونهم ورأينا امرأة مقتولة لكونها مقاتله وسمعناها وهى خامدة بالعبرة قائلة ومازلنا نطوف عليهم ونعبر ونفكر فيهم ونعتبر حتى ارتدى العشا بالظلام فعدنا الى الخيام واطلنا الوقوف على تلك الطلول الدارسه واستبشرت الوجوه بتلك الاوجه العابسه وحزرناهم بعشرة آلاف قتيل لا حزر تكثير بل حزر تقليل وكان الذين حملوا وهزموا وقتلوا اقل من ألف فقتلوا اضعافا مضاعفه وعدموا من وراءهم مساعدة ومساعفه وحكى من نوادر هذه الوقعة ان فرنجيا عقر بخشا للصرعة فعثر به راكب برذون فعرقب الفرنجى فرسه بسيف فى يده فنزل بحده مستنا فى جهده وقتل ذلك الفرنجى وروى من دمه الهندى وحمل من وسطه ثمانين دينارا فانقلب ربحا ماعده خسارا وامتلأت الايدى بالاسلاب والاكساب وحصل من العدد مالم يكن فى الحساب وبعت الزرديات ذوات الاثمان بالرخص قال وشرع الفرنج فى الخداع والمراسلة وسألوا فى الصلح واذن لهم السلطان فى الخروج للنظر الى اولئك الصرعى بتلك المروج وهى قد تورمت وانتنت وجافت وحميت الشمس على جيفها وحافت وضافتها القشاعم والخوامع وعليها اطافت فساءهم ماسرنا ونفرهم ماقربنا

(فصل) قال العماد وكان الرأى بعد هذه النصرة ان نرد عليهم الكره مرة بعد مره الى ان يهلكوا حسره ويبيدوا فلا يبقى لهم جمره فاشتغل السلطان عما جاءه من المكاتبات بظفر التركمان وغيرهم بعسكر الالمان فجاءت للفرنج نجدة من البحر ومدد أضعاف ماتقص منهم من العدد والعدد فاضحوا كان لم ينكبوا وثبتوا مكانهم ولم يثبوا ووصل اليهم المعروف بالكندهرى ففرق الاموال واستخدم الرجال وانفق فى عشرة آلاف راجل وأظهر انه يخرج الى لقاء عسكر الاسلام فتحول السلطان الى منزلة الخروبه ليوسع عليهم الدائره ونصب الكند على عكا منجنيقات كثيره فاحرقها المسلمون وقتل منهم من الفوارس سبعون وأسر عدة معروفون ثم نصب منجنيقين فاحرقا أول شعبان وكان الكند قد انفق على أحدهما ألفا وخمسمائة دينار ومن جملة من وقع فى الاسر فارس كبير فما أمهلوه حين أخذوه حتى قتلوه ونبذوه فطلبه منهم الفرنج بالاموال ولم يعرفوا بالحال فاخرجوه اليهم قتيلا فاكثر الفرنج عليه بعد العويل عويلا وباتوا يندبونه نوحا ويذيعون سر تقدمه فيهم بوحا وحين وقعت أعينهم عليه قتيلا ضربوا بانفوسهم الارض وحثوا على رؤوسهم التراب ووقعت عليهم بسبب ذلك خمدة عظيمه وكتموا أمره ولم يظهر احد اعلى سره واستصغر المسلمون بعد ذلك أمرهم وهجم عليهم العرب من كل جانب يسرقون وينهبون ويقتلون ويأسرون هذا والكتب متواصلة من عكا الينا ومنا اليها على أجنحة الطيور وأيدى السباح والمراكب اللطاف تخرج ليلا وتدخل سارقة من العدو قال العماد ووصل من ملك قسطنطينية كتاب يتضمن استعطافا واستسعافا ويذكر تمكينه من اقامة الجمعة فى جامع المسلمين بقسطنطينية والخطبة فيه وانه مستمر على المودة راغب فى المحبه ويعتذر عن عبور الملك الالمانى وانه قد جفع فى طريقه بالامانى ونال من الشده ونقص العده ما أضعفه وأوهاه وانه لا يصل الى بلادكم فينتفع بنفسه أو ينفع ويكون مصرعه هنالك ولا يرجع ويموت بما به كاده وانه قد بلغ فى اذاه اجتهاده ويطلب رسولا يدرك به من السلطان سولا فاجيب فى ذلك الى مراده ووقع الاعتداد بما ذكره من اعتماده وقال القاضى ابن شداد كان بين السلطان وبين ملك قسطنطينية مراسلة ومكاتبه وكان

وصل منه رسول الى الباب الكريم السلطانى بمرج عيون سنة خمس وثمانين فى رجب فى جواب رسول كان أنفذه السلطان بعد تقرير القواعد واقامة قانون الخطبة فى جامع قسطنطينية فمضى الرسول واقام الخطبة ولقى باحترام عظيم واكرام زائد وكان قد أنفذ معه فى المركب الخطيب والمنبر وجمعا من المؤذنين والقراء وكان يوم دخولهم الى قسطنطينية يوما عظيما من أيام الاسلام شاهده جمع كبير من التجار ورقى الخطيب المنبر واجتمع اليه المسلمون المقيمون بها والتجار وأقام الدعوة الاسلامية العباسية ثم عاد فعاد معه هذا الرسول يخبر بانتظام الحال فى ذلك فاقام مدة ولقد شاهدته يبلغ الرسالة ومعه ترجمان يترجم عنه وهو شيخ من أحسن ما يفرض ان يكون من صور المشايخ وعليه زيهم الذى يختص بهم ومعه كتاب وتذكرة والكتاب مختوم بذهب ولما مات وصل خبر وفاته الى ملك قسطنطينية فانفذ هذا الرسول فى تتمة ذلك ثم وصف القاضى الكتاب وعبر عنه بالفاظه وقد عبر العماد عن معانيه فاغنى عن ذلك ثم قال وكان من حديث ملك الالمان انه بعد ان استقرت قدمه فى انطاكية أخذها من صاحبها وتحكم فيه وكان بين يديه فيها ينفذ أوامره وكان له اموال برفقته فاخذها منه غيلة وخديعة وأودعها فى خزانته وسار عنها خامس عشرى رجب نحو عكا فى جيوشه وجموعه على طريق اللاذقية حتى أتى طرابلس وكان قد سار اليه من معسكر الفرنج يلتقيه المركيس صاحب صور وكان من أعظمهم حيلة وأشدهم بأسا وهو الاصل فى تهييج الجموع وذلك انه صور القدس فى ورقة عظيمة وصور فيه صورة القمامة التى يحجون اليها ويعظمون شأنها وفيها قبر المسيح الذى دفن فيه بعد صلبه بزعمهم وذلك القبر هو أصل حجهم وهو الذى يعتقدون نزول النور عليه فى كل سنة فى عيد من أعيادهم فصور القبر وصور عليه فرسا عليه فارس مسلم راكب وقد وطئ قبر المسيح وقد بال الفرس على القبر وابدى هذه الصورة وراء البحر فى الاسواق والمجامع والقسوس يحملونها ورؤسهم مكشفة وعليهم المسوح وينادون بالويل والثبور ولما صور عمل فى قلوبهم فانها أصل دينهم فهاج بذلك خلائق لا يحصى عددهم الا الله تعالى وكان من جملتهم ملك الالمان وجنوده فلقيهم المركيس لكونه أصلا فى استدعائهم الى هذه الواقعة فلما اتصل به قوى قلبه وبصره بالطرق وسلك به الساحل خوفا من انه اذا أتى على بلاد حلب وحماه نازلهم المسلمون من كل جانب أو مع ذلك لم يسلموا من شن الغارات عليهم واختلف حزر الناس لهم ولقد وقفت على بعض كتب الخبيرين بالحرب قد حزر فارسهم وراجلهم بخمسة آلاف بعد ان كانوا قد خرجوا على ما ذكر بمائتى ألف فانظر الى صنيع الله مع أعدائه ولما سار وا من اللاذقية يريدون جبلة وجدوا فى اعقابهم نيفا وستين فرسا قد عطبت وانتزع لحمها ولم يبق فيها الا العظام من شدة الجوع وضعف الخيل ولم يزالوا سائرين وأيدى المسلمين تتخطفهم من حولهم نهبا وأسرا وقتلا حتى أتوا طرابلس فاقام بها حتى استجم عسكره وأرسل الى النازلين على عكا يخبرهم بقدومه فوجموا من ذلك لان المركيس صاحب مشورته وكان الملك جفرى وهو ملك الساحل بالمعسكر هو الذى يرجع اليه فى الامور فعلم انه مع قدوم الملك الالمانى لا يبقى له حكم وفى أواخر شعبان نزل الملك الالمانى فى المراكب هو وعسكره فثارت عليهم ريح اهلكت منهم ثلاثة مراكب وسار الباقون الى صور ثم وصل الى عكا فى نفر يسير فى سادس رمضان وكان لقدومه وقع عظيم عندهم ووصل خبر وصولهم الى طرابلس ثامن شعبان والسلطان ثابت الجاش راسخ القدم لا يزعزعه ذلك عن حراسة عكا والحماية لها ومراصدة العسكر النازل بها وشن الغارات والهجوم عليهم فى كل وقت مفوضا أمره الى الله تعالى معتمدا عليه منبسط الوجه لقضاء حوائج الناس مواصلا ببره من نفذ اليه من الفقراء والفقهاء والمشايخ والادباء ولقد كنت اذا بلغنى هذا الخبر تأثرت حتى اذا دخلت عليه أجد عنده من قوة النفس وشدة البأس ما يشرح صدرى واتيقن معه نصر الاسلام وأهله

(فصل) فى ادخال البطس الى عكا قال ابن شداد كان رحمه الله قد أعد ببيروت بطسة وعمرها وأودعها أربعمائة غرارة من القمح ووضع فيها من الجبن والبصل والغنم وغير ذلك من الميرة وكان الفرنج قد أداروا مراكبهم حول عكا حراسة لها عن ان يدخلها مركب للمسلمين وكان قد اشتدت حاجة من فيها الى الطعام والميرة فركب فى بطسة بيروت جماعة من المسلمين وتزيوا بزى الفرنج حتى حلقوا لحاهم ووضعوا الخنازير على سطح البطسة بحيث ترى من بعد وعلقوا الصلبان وجاؤا قاصدى البلد من البعد حتى خالطوا مراكب العدو فخرجوا اليهم

واعترضوهم في الخراقات والشواني وقالوا لهم نراكم قاصدين البلد واعتقدوا انهم منهم فقالوا أولم تكونوا أخذتم البلد فقالوا لم نأخذ البلد بعد فقالوا نحن نرد القلوع الى العسكر ووراءنا بطسة أخرى في هوائها فانذروهم حتى لا يدخلوا البلد وكان وراءهم بطسة فرنجية قد اتفقت معهم في البحر قاصدين العسكر فنظروا فرأوها فقصدوها لينذروها فاشتدت البطسة الاسلامية في السير واستقامت لها الريح حتى دخلت مينا البلد وسلمت ولله الحمد وكان فرجا عظيما فان الحاجة كانت قد أخذت من أهل البلد وكان ذلك في العشر الاواخر من رجب قال وفي العشر الاوسط من شعبان كتب بهاء الدين قراقوش وهو والي البلد والمقدم على الاسطول وهو الحاجب لؤلؤ يذكر ان للسلطان انه لم يبق بالبلد ميرة الا قدر ما يكفي البلد الى ليلة النصف من شعبان لا غير فاسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لخاص ولا عام خشية الشيوع والبلوغ الى العدو فتضعف به قلوب المسلمين وكان قد كتب الى مصر يتجهيز ثلاث بطس مشحونة بالاقوات والادام والمير وجميع ما يحتاج اليه في الحصار بحيث يكفيهم ذلك طول الشتاء فاقلعت البطس الثلاث من الديار المصرية ولججت في البحر تتوخى النوتية بها الريح التي تحملها الى عكا فطابت لهم الريح حتى ساروا ووصلوا الى عكا ليلة النصف من شعبان وقد فنيت الازواد ولم يبق عندهم ما يطعمون الناس في ذلك اليوم وخرج عليها اسطول العدو يقاتلها والعساكر الاسلامية تشاهد ذلك من الساحل والناس في تهليل وتكبير وقد كشف المسلمون رؤسهم يبتهلون الى الله تعالى في القضاء بسلامتها الى البلد والسلطان على الساحل كالوالدة الثكلى يشاهد القتال ويدعو الى ربه بنصره وقد علم من شدة القوم ما لم يعلمه غيره وفي قلبه ما في قلبه والله يثبته ولم يزل القتال يعمل حول البطس من كل جانب والله يدفع عنها والريح تشتد والاصوات قد ارتفعت من الطائفتين والدعاء يخرق الحجب حتى وصلوا بحمد الله سالمين الى مينا البلد وتلقاهم أهل عكا تلقي الامطار عن جدب وامتاروا بما فيها وكانت ليلة بليال وكان دخولها في وقت العصر رابع عشر شعبان وقال العماد كان السلطان قد أمر نواب الاسكندرية بتجهيز بطس كبار وتميرها من كل ميرة وغلة وتسييرها الى عكا فابطأت عن الميقات وأضر بالمقيمين بالبلد اعواز الاقوات فافكر فيما يتعجل به الغرض فكتب الى متولي بيروت عز الدين سامة فجهز بطسة كبيرة ملأها ميرة وغلة كثيرة وأركبها جماعة على زي الفرنج ممسوحي اللحى بمسوخي الحلى وأصحبهم صلبانا وخيل بهم رهبانا وكانت هذه البطسة من الفرنج مأخوذة وهي بساحل بيروت منبوذة فامر السلطان بترميمها وتتميمها فملئت بالشحوم واللحوم وأربعمائة غرارة غلة واحمال من القشاب والنفط ورتب فيها رجال مسلمون ونصارى من أهل بيروت وأرادوا ان تشتبه ببطس العدو في البحر فشدوا زنانير واستصحبوا خنازير وساروا بها في البحر بمراكب الفرنج مختلطين والى محاذاتهم ومجاذبتهم منبسطين ولما حاذوا بها عكا صوبوا بها نحوها والريح تسوقها والفرنج من مراكبها تقول ما هذه طريقها وهي كالسهم النافذ قد سدد فوقها فدخلت الثغر واجتراء البلد بها نصف شهر وظهرت رابع عشر شعبان من ثبج البحر ثلاث مراكب كأنها ثلاث هواضب فجاءت فجأة اعلامها كالاعلام طائرة كالسهام ولم تبال بمراكب العدو فخرقتها وقربت من سفينة فغرقتها وعبرت وعين الكفر عبرى وامتلأ الثغر بها وأثرى

﴿فصل﴾ قال العماد ووصل ملك الالمان ورام ان يظهر بمجيئه وقعا ويبدي به نفعا فدبر في اجل تدبر جل الدبا وخيل اغصت الوهاد والربى وقربوا من تل العياضيه وعليه خيم الزكيه والنوبة فيها للحلقة المنصورة الناصريه والعصبة الموصليه فثارت اليهم ودارت عليهم وركب السلطان وتقدم الى تل كيسان ولم يزل الحرب الى ان جن الظلام وكف الكفر وسلم الاسلام وكانت الدائرة على الكفره قال القاضي وقتل منهم وجرح خلق عظيم والسيف يعمل في بقيتهم وهم هاربون حتى وصل المخيم غروب الشمس من ذلك اليوم وهو لا يعتقد سلامة نفسه من شدة خوفه وقتل من المسلمين في ذلك اليوم اثنان وجرح جماعة كثيره ومن كتاب الى بغداد (قد بلى الاسلام منهم بقوم قد استطابوا الموت واستجابوا الصوت وفارقوا المحبوبين الاوطان والاوطار وهجروا المألوفين الاهل والديار وركبوا اللجج ووهبوا المهج كل ذلك طاعة لقسيسهم وامتثالا لامر مركيسهم وغيرة لمتعبدهم وحمية لمعتقدهم وتهالكا على مقبرتهم وتحرقا على قمامتهم لا يطلبون مع شدة الاملاق مالا ولا

يجدون مع كثرة المشاق ملالا بل يتساقطون على نيران الطبي تساقط الفراش ويقتحمون الردى متدرعين الصبر متثبتي الجاش حتى خرجت النساء من بلادهن متبرزات وسرن الى الشام في البحر والبر متجهزات وكانت منهن ملكة استتبعت خمسمائة مقاتل فارس وراجل ورامح ونابل والتزمت بمؤنتهم فصودف مركبها بقرب الاسكندرية فاخذت برجالها وأراح الله من شر احتفالها ومنهن ملكة وصلت مع ملك الالمان وذوات المقانع من الفرنج مقنعات مقارعات يحملن الى الطعان الطوارق والقنطاريات وقد وجد في الوقعات التي جرت عدة منهن بين القتلى وما عرفن حتى سلبن وان البابا الذي برومية قد حرم عليهم مطاعمهم ومشاربهم وقال من لا يتوجه الى القدس مستخلصا فهو عندي محرم لا منكح له ولا مطعم فلاجل هذا يتهافتون على الورود ويتهالكون على يومهم الموعود وقال لهم اني واصل في الربيع جامع على الاستنفار شمل الجميع واذا نهض هذا الملعون فلا يقعد عنه أحد ويصل معه باهله وولده كل من يقول ان لله أهلا وولد فهذا شرح هؤلاء وتعصبهم في ضلالتهم ولجاجتهم في غوايتهم بخلاف أهل الاسلام فانهم يتضجرون ولا يصبرون بل يتفلون ولا يجتمعون ويتسللون ولا يرجعون وانما يقيمون ببذل نفقه واذا حضروا حضروا بقلوب غير متفقه ليعلم ان الاسلام من عند الله منصور وان الكفر بارادة الله محسور ومدحور قال القاضي ولما عرف ملك الالمان ما جرى على أصحابه من الهزيمة الذي هو شرذمة من العسكر رأى ان يرجع الى قتال البلد ويشتغل بمضايقته فاتخذ من الآلات العجيبه والصنايع الغريبه ما هال الناظر اليه وخيف على البلد منه فما أحدثه آلة عظيمة تسمى دبابة يدخل تحتها من المقاتلة خلق عظيم ملبسة بصفائح الحديد ولها من تحتها عجل تحرك بها من داخل وفيها المقاتلة حتى ينطح بها السور ولها رأس عظيم بر قبة شديدة من حديد وهي تسمى كبشا ينطح بها السور بشدة عظيمة لانه يجرها خلق عظيم فتهدمه بتكرار نطحها وآلة أخرى وهي قبو فيه رجال تسحب ذلك الاان رأسها محدد على مثال السكة التي يحرث بها ورأس الكبش مدور هذا يهدم بثقله وتلك تهدم بحدتها وثقلها وهي تسمى سفودا ومن الستائر والسلالم الكبار الهائلة وأعدوا في البحر بطسة غائلة وصنعوا فيها برجا بخرطوم اذا أرادوا قلبه على السور انقلب بالحركات ويبقى طريقا الى المكان الذي ينقلب عليه يمشي عليه المقاتلة وعزموا على تقريبه الى برج الذبان ليأخذوه به) قال (ونصب العدو على البلد منجنيقات هائلة حاكة على السور وتواترت حجارتها حتى أثرت فيه اثرا بينا وخيف من غائلته فاخذ سهمان من الجرخ العظيم واحرق نصلاهما حتى بقيا كالشعلة من النار ثم رميا في المنجنيق الواحد فعلقا فيه واجتهد العدو في اطفاء النار فلم يقدر على ذلك وهبت ريح شديدة فاشتعل اشتعالا عظيما واتصلت لهبته بالآخر فاحرقته واشتدت نارهما بحيث لم يقدر احد ان يقرب من مكانهما ليحتال في اطفائهما وكان يوما عظيما اشتد فيه فرح المسلمين وغم الكافرين) قال (ومن نوادر هذه الوقعة ومحاسنها يعني نوادر ما جرى في القتال على عكا ان عواما مسلما كان يقال له عيسى كان يدخل البلد بالكتب والنفقات على وسطه ليلا على غرة من العدو وكان يغوص ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدو وكان ذات ليلة شد على وسطه ثلاثة أكياس فيها ألف دينار وكتب للعسكر وعام في البحر فجرى عليه أمر أهلكه وابطأ خبره عنا وكانت عادته اذا دخل البلد طار طائر عرفنا بوصوله فابطأ الطائر فاستشعرهلاكه فلما كان بعد أيام بينا الناس على طرف البحر في البلد واذا البحر قد قذف اليهم ميتا غريقا فافتقدوه فوجدوه عيسى العوام ووجدوا على وسطه الذهب ومشمع الكتب وكان الذهب نفقة للمجاهدين فاري من ادى الامانة في حال حياته وقدر الله له اداءها بعد وفاته الا هذا الرجل وكان ذلك في العشر الاواخر من رجب أيضا) وقال العماد فقد يعني عيسى ولم يسمع له خبر ولم يظهر له أثر فظنت به الظنون وما تيقنت المنون وكانت له لاشك عند الله منزله فلم يردان تبقى حاله وهي مجهلة محتمله فوجد في عكا ميتا قد رماه البحر الى ساحلها وبرأه الله مما قالوا فذهب حق اليقين من الظنون ببساطلها

(فصل) في احراق ما حوصر به برج الذبان وتحريق الكبش قال القاضي وفي الثاني والعشرين من شعبان جهز العدو لعنه الله بطسا متعددة لمحاصرة برج الذبان وهو برج في وسط البحر مبني على الصخر على باب مينا عكا تحرس منه المينا ومتى عبره المركب أمن من غائلة العدو فاراد العدو اخذ ليبقى المينا بحكمه ويمنع من

دخول شئ من البطس اليه فتنقطع الميرة عن البلد فجعلوا على صوارى البطس برجا وملؤوه حطبا ونفطا على انهم يسيرون البطس فاذا قاربت برج الذبان ولاصقته احرقوا البرج الذى على الصارى والصقوه ببرج الذبان ليلقوه على سطحه ويقتل من عليه من المقاتلة ويأخذوه وجعلوا فى البطسة وقودا كثيرا حتى يلقى فى البرج اذا اشتعلت النار فيه وعبوا بطسة ثانية وملؤوها حطبا ووقودا على انهم يدفعونها الى ان تدخل بين البطس الاسلامية ثم يلهبونها فتحرق البطس الاسلامية ويهلك ما فيها من الميرة وجعلوا فى بطسة ثالثة مقاتلة تحت قبو بحيث لا يصل اليهم نشاب ولا شئ من آلات السلاح حتى اذا أحرقوا ما ارادوا احراقه دخلوا تحت القبو فامنوا واحرقوا ما ارادوا احراقه وقدموا البطسة نحو البرج المذكور وكان طمعهم مشتدا حيث كان الهواء مساعدا لهم فلما أحرقوا البطسة التى ارادوا يحرقون بها بطس المسلمين والبرج الذى أرادوا يحرقون به من على البرج فاوقدوا النار وضربوا فيها النفط فانعكس الهواء عليهم كما شاء الله تعالى واراد واشتعلت البطسة التى كان فيها البرج باسرها واجتهدوا فى اطفائها فما قدروا وهلك من كان بها من المقاتلة الا من شاء الله تعالى ثم احترقت البطسة التى كانت معدة لاحراق بطسنا ووثب أصحابنا عليها فاخذوها اليهم وأما البطسة التى فيها القبو فانهم انزعجوا وخافوا وهموا بالرجوع واختلفوا واضطربوا اضطرابا عظيما فانقلبت وهلك جميع من بها لانهم كانوا فى قبو لم يستطيعوا الخروج منها وكان ذلك من أعظم آيات الله تعالى واندر العجائب فى نصرة دين الله ولله الحمد وكان يوما مشهودا وقال العماد وعندما عكا فى البحر برج يعرف ببرج الذبان وهو فى حراسة المينا عظيم الشان وهو منفرد عن البلد محمى بالرجال والعدد وقصد الافرنج حصاره قبل مجئ ملك الالمان فى الثانى والعشرين من شعبان ببطس كبار جهزوها ومراكب عظام الآلات ابرزوها ومكر مكروه ودبر دبروه واحدث تلك المراكب قد ركب برج فوق صاريه لا يطاوله طود ولا يباريه وقد حشى حشاه بالنفط والحطب وضيق عطنه بسعة العطب حتى اذا قرب من برج الذبان والتصق بشرافاته اعدى اليه بآفاته ورميت فيه النار فاحترق واحترق من الاخشاب والستائر ما به التصق واستولت النار على مواقف المقاتلة فتباعدوا عنها ولم يقربوا منها واوقدت بطسة الحطب التى من ورائها وعادت على الفرنج فالتهبوا وحمى عليهم الحديد فاضطرموا واضطربوا وانقلبت بهم السفينة فاحترقوا وغرقوا والناجون منهم فارقوا وفرقوا ولم يغرقوا واحتمى برج الذبان فلم يطر عليه من بعدها باب ولم يفتح للعدو فى الكيد له باب ومن كتاب الى سيف الاسلام باليمن (ومن حديث هذا البرج انه يحيط به البحر من جوانبه وهو قفل مينا الثغر على مراكبه وقد رفعناه واعليناه وبالعدد والرجال قويناه فعمدوا الى أكبر بطسة واتخذوا فيها مصقالا كانه سلم وهو فى مقدمها مركب مقدم وقد جعلوها بحيث اذا قرب الى البرج ركب رأس السلم على شراريفه وصعد الرجال اليه فى تجاويفه وتعبوا فى ذلك اياما واشبعوه توثيقا واحكاما حتى اذا التصق بالبرج الصقت به قوارير النفط وتوالت امطار البلايا من الجروخ والمنجنيقات على اولئك الرهط ثم عمل الفرنج برجا عاليا فى أكبر مركب وحشوه بالحطب وعملوا على رأس صاريه مكانا يقعد فيه الزراق وقدموه الى برج الذبان وسلطوا على جوانبه النيران فاهب الله من مهب لطفه نكباء نكبت النار عن البرج المحروس وكبت الفرنج على الوجوه والرؤس) قال القاضى وفى ثالث رمضان زحف العدو على فلبلد فى خلق لا يحصى فاهملهم أهل البلد حتى تشبثت مخاليب اطماعهم فيه وسحبوا آلاتهم المذكورة حتى قاربوا ان يلصقوها بالسور وتحصل منهم فى الخندق جماعة عظيمة فاطلقوا عليهم الجروح والمجانيق والسهام والنيران وصاحوا صيحة الرجل الواحد وفتحوا الابواب وهجموا على العدو من كل جانب وكبسوهم فى الخنادق فهربوا ووقع السيف ايمن بقى فى الخندق منهم ثم هجموا على كبشهم فالقوا فيه النار والنفط وتمكنوا من حريقه لهرب المقاتلة عنه فاحرق حريقا شنيعا وظهرت له لهبة نحو السماء وارتفعت الاصوات بالتكبير والتهليل والشكر وسرت نار الكبش بقوتها الى السفود فاحترق وعلق المسلمون فى الكبش الكلاليب الحديد المصنوعة فى الاسل فسحبوه وهو ليشتعل حتى حصلوه عندهم فى البلد وكان مركبا من آلات هائلة عظيمة والقى الماء عليه حتى برد حديده بعد أيام وبلغنا من البلد انه وزن ما كان عليه من الحديد فكان مائة قنطار بالشامى والقنطار مائة رطل ولقد انفذ رأسه الى السلطان ومثل بين يديه وشاهدته وقلبته وشكله على مثال السفود الذى يكون بحجر المدار قيل انه يقطع به السور فيهدم ما يلاقيه وكان

ذلك من أحسن ايام الاسلام ووقع على العدو خذلان عظيم ورفعوا ما سلم من آلاتهم وسكنت حركاتهم التي ضيقوا فيها نفقاتهم وقال العماد واستأنف الفرنج عمل دبابة هائلة وآلة للغوائل غائلة في راسها شكل عظيم يقال له الكبش وله قرنان في طول رمحين كالعمودين الغليظين وهذه الدبابة في هيئة الخربشت الكبير وقد سقفوها مع كبشها باعمدة الحديد ولبسوا رأس الكبش بعد الحديد بالنحاس فلم يبق للنار اليها سبيل ولا للعطب عليها دليل وملؤوها بالكماة والرماة وسحبوها وقربوها فجاءت صورة مزعجة وبلى البلد منها بالبلاء الافظع وقالوا ما في دفعها حيلة ولا مطمع ونصبوا على صوبها مجانيق ورموا بالحجارة الثقيلة ذلك النيق فابعدت رجالها من حواليها ثم رموها بحزم الحطب حتى ما بين القرنين وقذفوها بالنار فباتوا يطفيؤنها بالخل والخمر وقد تمكنت النار من اضلاعها ثم خسفها المنجنيق وخرج من بالثغر فقطعوا رأس الكبش واستخرجوا ما تحت الرماد من العدد بالنبش وقدر ما نهب من الحديد بمائة قنطار وعلم الفرنج ان اعمالهم حبطت وآمالهم هبطت وكان ذلك في ثالث عشر رمضان وفيه قدم الظاهر صاحب حلب والامجد صاحب بعلبك وسابق الدين عثمان صاحب شيزر وعز الدين ابن المقدم والامير حسام الدين حسين بن باريك وجماعة من الامراء والخواص والمماليك

(فصل) في حوادث أخر متفرقة في هذه السنة قال العماد ووصل الخبر في سادس عشر رمضان من حلب ان صاحب انطاكية اغار على غرة نشره وثمره فرتب أصحابنا له كمينا ثم خرجوا عليه شمالا ويمينا فقتلوا أكثر رجاله وافلت وباله في وباله قال القاضي خرج عليه نواب الملك الظاهر فقتل من عسكره خمسة وسبعون نفرا وأسر منهم خلق عظيم واستعصم بنفسه في موضع يسمى شيح حتى اندفعوا وسار الى بلده قال وفي اثناء العشر الاوسط القت الريح بطستين فيهما رجال وصبيان ونساء وميرة عظيمة وغنم كثيرة قاصدين نحو العدو فغنمها المسلمون وكان العدو قد ظفر لنا ببركوس فيه نفقة ورجال اراد الدخول الى البلد فاخذه فوقع الظفر بهاتين البطستين ما حيا لذلك وجابرا له قال العماد وفي هذا التاريخ القت الريح الى ساحل زئب بطستين خرجتا من عكا بجماعة من الرجال والصبيان والنساء وفيهما امرأة محتشمة غنيمة محترمة فاخذتا وأخذوا واخذت وجد الفرنج في استنقاذها فما استنقذت قال وفي تاسع عشر الشهر رحلنا الى منزلة تعرف بشفرعم وسببه انه كثر المستأمنون من الفرنج واخبروا انهم في عزم الخروج الى المرج هايجين الى الثار ثائرين الى الهيجاء فاستشار السلطان أمراءه فقالوا الصواب ان نفسح لهم عن هذه المروج حتى يكون دخولهم اليها يوم الخروج فنصبحهم في اليوم الآخر ولا يتعذر بهم احداق العساكر فخيمنا هناك ورحبت المنازل وعذبت المناهل وعادت معالم تلك المجاهل وحللنا التلال والآكام وركزنا بتلك الاعلام الاعلام ونزلنا لمقام الشتا مستعدين ولاسباب التوقي من الامطار مستنجدين قال ومرض زين الدين صاحب اربل في شهر رمضان وتوفي في الثامن والعشرين منه قال القاضي وكان استأذن في الرواح فلم يؤذن له فاستأذن في الانتقال الى الناصرة فاذن له فاقام بها أياما يمرض نفسه ثم توفي وعنده أخوه مظفر الدين يشاهده وحزن الناس عليه لمكان شبابه وغربته قال العماد وكان كريما اريحيا جوادا سخيا وبكرنا الى مظفر الدين نعزيه في أخيه وظننا به الحزن فقلنا نعظه ونسليه فاذا هو في شغل شاغل عن العزاء مهتم بالاحتياط على ما خلفه أخوه وتركه من الاشياع والاشياء وهو جالس في مخيم اخيه المتوفى وقد اشرف على حفظه واوفى وقد قبض على جماعة من امرائه واعتقلهم وعجل عليهم وما اغفلهم منهم صارم الدين بن بلدا جي متولي خفنيان كان ليتسلم منه المكان وكذلك كل حاضر له حصن ليحصل له من طاعته امن وخاطب في اسباب ولاية أربل واعمالها وان يستقل ببلادها واموالها ورغب في شهرزور واستضافتها لاستنارة وجاهته بها واستفاضتها وانه ينزل على حران والرها وسميساط والموزر ويجعل كل ما في يده من الاعمال في الموفر ويخدم بخمسين الف دينار يحضرها نقدا ويلتزم بها على الميثاق عقدا فاجيبت رغبته واصيبت طلبته وعقدلواؤه ونجح رجاؤه واراد سرعة الرحيل فاستمهل الى حين وصول الملك المظفر تقي الدين ليترك في منزلته بجنده وصحبه اليامين فوصل يوم الاحد ثالث شوال واضيف اليه ما استعيد من مظفر الدين من الاعمال وكتب منشور اربل وكتاب الى صاحب الموصل فيه (لا شك في احاطة العلم بانتقال زين الدين الى جوار الله ومقر رحمته مجاهدا في سبيله شاكرا لنعمته وهو من السعداء الذين انزل الله تعالى فيهم ومن يخرج من بيته

مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع اجره على الله فما اجمع القلوب بمصابه وما انكى فى النفوس افول شبابه ولقد كانت الهمة متوفرة على تربيته واعلاء درجته ولكن الله تعالى استأثر به قبل ظهور حسن الآثار فى ايثاره وبلى بدره التم بسراره واصبح فى ضمير البلى من اسراره وهذه اربل من انعام البيت الكريم الاتابكى على البيت الزينى مذ سبعين عاما لم يحلوا لعقد انعامهم بها نظاما ولم يزيدوا الاحكاما وابراما ومارأى ان يخرج هذا الموضع منهم وان يصدف به عنهم والامير الاجل مظفر الدين كبير البيت وحاميه والمقدم فى الولاية بمقتضى وصية أبيه وقد أنهض ليسد مسد اخيه) قال وكان الملك المظفر تقى الدين متوليا مذ سنين اعمال ميافارقين فطلب من عمه تفويض كل ماوراء الفرات اليه والاعتماد فيه عليه فأنعم عليه بذلك فاقام عندنا بالمنزلة المظفرية الى ان يؤذن له فى المضى الى تلك الولايه وسير نوابه اليها لابقاء رعاياها على شيمة الرعايه قال ولما أحس العسكر الشرقى بالشتاء أبدوا خلق السآمه وضجروا من الاقامه واما عماد الدين صاحب سنجار فانه عرف كراهية السلطان افراقه فلم يجر الاعلى وفاقه وأما صاحب الجزيرة سنجرشاه فانه استطال المقام واباه ودخل يوم عيد الفطر على السلطان فقبل يده وودعه من غير سابقة الاستيذان فاغضبه انفصاله وساءه ارتحاله وكان تقى الدين واصلا فلقى صاحب الجزيرة عنا فاصلا فردّه عن طريقه وجد فى تعويقه ورجع به الى الرضى وعفا الله عما مضى وقال القاضى ترددت رسله ورقاعه الى السلطان فى طلب الدستور والسلطان يعتذر بان رسل العدو متكررة فى معنى الصلح ولا يجوز ان ينفض العساكر حتى يتبين على ماذا ينفصل الحال من سلم أو حرب فلما كان يوم عيد الفطر دخل على السلطان وهو ملتاث الجسم وقبل يده وخرج وسار من ساعته وتبعه أصحابه فلما بلغ السلطان صنيعه كتب اليه (انك انت قصدت الانتماء الى فى الابتداء وراجعتنى فى ذلك مرارا واظهرت الخيفة على نفسك وبلدك من اهلك فقبلتك واويتك ونصرتك فبسطت يدك فى اموال الناس ودمائهم واعراضهم فنفذت اليك ونهيتك عن ذلك مرارا فلم تنته فاتفق وقوع هذه الواقعة للاسلام فدعوناك فاتيت بعسكر قد عرفته وعرفه الناس واقمت هذه المديدة وقلقت هذا القلق وتحركت بهذه الحركة وانصرفت عن غير طيب نفس وعن غير فصل حال مع العدو فانظر لنفسك وابصر من تنتمى اليه غيرى واحفظ نفسك ممن يقصدك فما بقى لى الى جانبك التفات) وسلم الكتاب الى نجاب فلحقه قريبا من طبرية فقرأ الكتاب ولم يلتفت وسار فلقيه تقى الدين عند عقبة فيق فاخبره بامره وتعتب على السلطان كيف لم يخلع عليه ولم يأذن له فى الرواح ففهم تقى الدين انفصاله عن غير دستور من السلطان فامره بالرجوع وقال أنت صبى ولا تعلم غائلة هذا الامر فقال ما يمكننى الرجوع فقال ترجع من كل بد من غير اختيارك وكان تقى الدين شديد البأس مقداما على الامور ليس فى عينه من أحد شئ فلما علم انه قابضه ان لم يرجع رجع معه وسأل السلطان الصفح عنه ففعل وطلب ان يقيم فى جوار تقى الدين خشية على نفسه فاذن له فاقام فى جواره الى حين ذهابه وقال العماد فى الفتح وطال على الملك عماد الدين صاحب سنجار المقام وجد فى الاستئذان فى الرحيل منه الاهتمام وتقرر ملاله وتكرر سؤاله فكتب اليه السلطان (من صاغ مثلى من يديه ✻ فليت شعرى ما استفادا)

فلما قرأ هذا البيت مارا وح فى الخطاب ولا غادى وقال فى البرق وفى مستهل ذى القعدة أذن لعلاء الدين خرم شاه ابن صاحب الموصل ونعت بالملك السعيد لما تفرس فيه من امارات السعد وأقام بعده عمه عماد الدين وابن عمه معز الدين سنجرشاه وهما صاحب سنجار والجزيرة وحبوا بالحباء الوافر والعطايا الغزيرة وما فارقا الا فى السنة الاخرى فى ثالث صفر قال وغلت الاسعار عند الفرنج حتى بلغت الغرارة أكثر من مائة دينار والسعر من الزيادة لديهم فى استعار وبلو بامور صعبه وهرب الينا منهم عصبة بعد عصبه فاستأمنوا الينا لفرط جوعهم ولما شبعوا عندنا لم يرغبوا فى رجوعهم فمنهم من أسلم فحسن اسلامه ومنهم من خدم فوافق استخدامه ومنهم من حن الى الفه فرجع القهقرى الى خلفه

(فصل) كان القاضى الفاضل رحمه الله تعالى فى هذه الاوقات بالديار المصريه يرتب للسلطان أموره من تجهيز العساكر وتعمير الاسطول وحمل المال ونقل الميرة الى عكا والسلطان يكاتبه فى مهماته وترجع اجوبته باحسن عباراته مشيرا وناصحا ومسليا وباحثا عن مصالح الاسلام متقصيا فمن بعض كتبه (المملوك ينهى ان الله

تعالى لاينال ماعنده الابطاعته ولاتفرج الشدائد الابالرجوع اليه والامتثال لامر شريعته والمعاصى فى كل مكان باديه والمظالم فى كل موضع فاشيه وقد طلع الى الله تعالى منها مالا يتوقع بعدها الا مايستعاذ منه وقد أجرى الله تعالى على يد مولانا من فتح البيت المقدس مايكون بمشيئة الله له حجة فى رضاه ونعوذ بالله ان يكون حجة عليه فى غضبه بلغ المملوك من كل وارد منه مكاتبة ومخاطبة بانه على صفة تقشعر منها الاجساد وتتصدع بذكرها الاكباد والمملوك لايتعرض لتفصيل مابلغه من ظهور المنكرات فى اتباعه وشيوع المظالم فى ضياعه وخراب البلد وعدم القدرة على المرمة لقبة الصخرة والمسجد الاقصى وبالغفلة عن مرمتهما وبفقدهما فى اشتية القدس العظيمة الجليلة المثلجة لايؤمن سقوطهما وافتضاح القدرة فى العجز عن اعادتهما والمرمة أقرب تناولا من الانشاء والتجديد ولا شبهة ان مولانا عز نصره فى اشغال شاغلة وامور متشددة وقضايا غير واحدة ولا متعددة ولكن قد ابتلى الناس فصبروا واضجرتهم الايام فاضجروا وأى عبادة أعظم من عبادته التى قام بها والناس عنها قعود وصبر فى طلب جنتها على نارى الحرب والوقت ذوات الوقود غير ان مولانا اذا ذكر نصيبه من الاقدام فلا ينسى نصيبه من الحزم ولا يعجل فى الامور الخطيرة ولا يقدم بالعدد القليل على العدة الكثيرة فالمولى اذا اقبل كان واحدا واذا ادبر كان مقوما بجميع الخلق ولا يطمع بان يقوم به الالف وليذكر المولى نوبة الرملة التى كان وقوعها من الله سبحانه أدبا لا غضبا وتوفيقا لا اتفاقا ولا يكره المولى ان تطول مدة الابتلاء بهذا العدو فثوابه يطول وحسناته تزيد وأثره فى الاسلام يبقى وفتوحاته بمشيئة الله يعظم موقعها والعاقبة للتقوى ولينصرن الله من ينصره والله تعالى يشكر لمولانا جهاده بيده وبرأيه وبولده وبخاصته وبعامة جنده وباعداد فى اعدائه لجهاده بصاحب صيدا فى الفرنج فهو جهاد قد أربى فيه رأى المولى فرج والحديد بالحديد يفلح واكيد ماقوبل به العدو سلاحه وأسرع جناح طار لقنصه جناحه ودولة مولانا كالبحر كرما وظهورا بعجائب وكالسماء مطرا واسنة كواكب) ومن كتاب آخر (المملوك يقبل الارض بين يدى مولانا الملك الناصر لطف الله بقلبه وحمل عنه وروح سره ووصل الراحة به ونسأل ان يرحمه لنا الذى رحمنا به فقد بلغت منا الحناجر القلوب وقد وقفت فى طرقنا الذنوب وبينما نحن ننتظر من كتب المولى مايستدل به على ان قلب المولى قد طاب وقصد العدو قد خاب اذ ترد كتب يكون الوقوف عليها قاطعا للاكباد مفتتا للقلوب ولو انها جماد) ثم ذكر البطس الذى تقدم ذكرها الواصلة الى عكا ليلة نصف شعبان فقال (وبينا نحن نعتقد ان البطس فى عكا وصل الخبر بانها فى دمياط ويوم وصل الخبر بانها فى دمياط نحن على انتظار خروجها منه وكتب البطائق بالاستحثاث والاستعجال وتحذيرهم من تمادى المقام وماتيقنا اخرجت ام هى باقية كان الريح فى بيت ماخرجت منه من هاتين الجمعتين ولها من تاريخ خروجها من الاسكندرية والى تاريخ تسطير هذه الخدمة خمسة عشر يوما والعيون ممدوده والايدى مرفوعه بان يفرج الله عنا وعنكم بوصولها فمن شبع فى هذه الايام فاواسى المسلمين ومن نام ملء عينه فما هو من أخوة المؤمنين والمملوك شفيق على البطس فى وقت الدخول حذران يعترض العدو طريقها فيحول بينها وبين الوصول فيتكس المراد بها ويحدث من المضرة بحرمانها أضعاف مايحدس من النعمة بالفرج المسير فيها واكد هذه الحال فى نفس المملوك وقوفه على كتب أصحابنا من عكا وقد وقع لهم هذا الواقع الذى وقع للمملوك من خوفهم عليها واستبعادهم دخولها فما المملوك وكل من يعرف الامر الا كاهل الصراط رب سلم رب سلم فنسأل الله سبحانه ان لا يكلنا الى انفسنا فنعجز ولا الى الناس فنضيع وبجهود أهل الارض قد انتهى وبقى مايفعله الله والخير منتظر منه والفرج بالقوت قد سير فى البحر من خمسة عشر يوما والفرج بالنفقة قد سير فى البر من عشرة أيام والله يامولانا ما تعجز شئ من هذه الامور الا بأن تضرب الوجوه بالشوك وتستحلب الحجارة وينبه النوام وتبح الاصوات من التذكار وتخفى الاقلام من الكتابة ويخضع لمن يلزمه الشغل كالخضوع لمن لا يلزمه والله المستعان فليخلص المولى نيته فى الاستعانة والاعوان قليل

وقد كانوا اذا عدوا قليلا * فقد صاروا أقل من القليل

ومن كتاب آخر (وما تجدد للعدو من الشروع فى آلات الحصار لعكا وما ارجف به من النجدتين الفرنجيتين الواصلة والبعيدة وافتراق العساكر فى هذا الوقت للضرورة والتماس العسكر الشرقى الدستور للضجر وحاجة المولى من الانفاق الى مالا يسعه التدبير ويضيق عنه الامكان ومطالبة الغنى بالزيادة مع الغنى والضعيف باكثر مما يحتاج اليه وضياع

فرصة واختلاف رأى بين المتشاورين من الجماعة وجود الالسنة بالاراء وبخل الايدى بالمعونة وانفراد المولى بالتعب واشتراك الناس فى الراحة وما ابتلى به المسلمون من مرض أظهروه ليكون لهم عذرا فى القعود وكتمه المولى على نفسه لئلا يجلب لاصحابنا ضعف النفوس فهذه الامور وان كانت شدائد وزائدات على العوائد فقد الهم الله مولانا فيها سعة الصدر وحسن الصبر ليشعره ان صبره يعقبه النصر وحسبته يعقبها الاجر ولو لم ير الله تعالى ان قوة مولانا اكمل القوى وعروة عزمه اوثق العرى لما أهله لان ينصر ملة لا يعرف المملوك غير الله ينصرها وغير مولانا يباشر النصرة ويحضرها فليس الا التجهز للدعاء والتجلد للقضاء فلا بد من قدر مفعول ودعاء مقبول ومن الامثال المنظومه

نحن الذين اذا علوا لم يبطروا ❁ يوم الهياج وان علوا لم يضجروا

ومعاذ الله أن يفتح علينا البلاد ثم يغلقها وان يسلم على بدينا القدس ثم ينصره ثم معاذ الله ان نغلب على النصر ثم معاذ الله ان نغلب على الصبر واذا كان ما يقدم الله اليه المماليك قبل المولى لا بد منه وهو لقاء الله سبحانه فلأن نلقاه والحجة لنا خير من ان نلقاه والحجة علينا فلا تعظم هذه الفتوق على مولانا فتبهر صبره وتملأ صدره فلا تهونوا وتدعوا الى السلم وانتم الاعلون والله معكم وهذا على دين ما غلب بكثره ولا نصر بثروه انما اختار الله تعالى له أرباب نيات وذوى قلوب معه وحالات فليكن المولى نعم الخلف لذلك السلف لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنه (واشتدى أزمة تنفرجى) والغمرات تذهب ثم لا تجى والله تعالى يسمع الاذن ما يسر القلب ويصرف عن الاسلام وأهله غاشية هذا الكرب ونستغفر الله العظيم فانه ما ابتلى الا بذنب) ومن كتاب آخر (يا مولانا اعلم ان الله تعالى قد فعل لك ما فعله لنفسه ودل على لطفه بك كما دل على قدرته فانه تعالى خلق الخلق من غير مادة واقام السماء بغير عمد وكذلك فعل الله بك خلقك بغير شبيه فى المملوك كرما ودينا وسهل لك من مصر ما لا من غير جهة وحمى منها بلادا بغير جند وسكن فيها رعية بغير ولاة فاشكر الله، ولا تحتقر خدمة من يبيع الانفاس والنوم والراحة اجتهادا فيما يرجك ويخفف عنك ثم لا يريد العوض منك انما يريده من الله عنك لان خدمتك طاعة له والوجوه التى وقعت الاشارة اليها خضنا فيها وفى غيرها فما وجدنا أكثر مما بلغنا اليه يا مولانا ليس لك فى مصر الا الثغور وما عملت فى هذه السنة الا بقدر ثمن حبال ماسير اليك من الاساطيل ان الله آخذ بيد الكريم والمعونة بحسب المؤونة فلهن المولى العافية من الحساب فشتان ما حساب من كنز الذهب والفضة ولم ينفقها فى سبيل الله وحساب من قال بيده هكذا وهكذا فى سبيل الله) ومن كتاب آخر (وما فى نفس المملوك شائبة الا بقية هذا الضعف الذى بجسم مولانا فانه بقلوبنا ونفديه باسماعنا وابصارنا

يا معشر الخدام ما بك من أذى ❁ وان اشفقوا مما اقول فبى وحدى

ومن كتاب آخر (انما أتينا من قبل انفسنا ولو صدقناه لجعل لنا عواقب صدقنا ولو اطعناه لما عاقبنا بعدونا ولو فعلنا ما نقدر عليه من أمره لفعل لنا ما لا نقدر عليه الا به فلا يستخصم أحد الا عمله ولا يلم الا نفسه ولا يرج الا ربه ولا تنتظر العساكر ان تكثر ولا الاموال ان تحصر ولا فلان الذى يعتقد عليه ان يقاتل ولا فلان الذى ينتظر انه يسير فكل هذه مشاغل عن الله ليس النصر بها ولا نأمن ان يكلنا الله اليها والنصر به واللطف منه والعادة الجميلة له ونستغفر الله سبحانه من ذنوبنا فلولا انها مسدطريق دعائنا لكان جواب دعائنا قد نزل وفيض دموع الخاشعين قد غسل ولكن فى الطريق عائق خار الله لمولانا فى القضاء السابق واللاحق (وفى كتاب آخر وصف فيه الملك العزيز عثمان بن السلطان ثم قال (ولو شاهد مولانا اليوم شخصه الكريم وصورته الجميلة ونفسه الطاهرة ونظرته المطرقه وصفحته الحييه وسكون حركاته الموزونه لخلع عليه فؤاده ووهبه عينه ورقاده ولقدير د المولى عرصات القيمة وثواب فراقه له لوجه الله أعظم من ثواب جهاده فى سبيل الله وان ايمانا صبره عن ذلك الولد الكريم لكريم وان ايمانا اسلى عن ذلك الملك العظيم لعظيم) ومن كتاب آخر (وعسكرنا لا يشكو والحمد لله منه خورا وانما يشكو منه ضجرا والقوى البشرية لا بد ان يكون لها حد والاقدار الالهيه لها قصد وكل ذى قصد خادم قصدها وواقف عند حدها وانما ذكر المملوك هذا ليرفع المولى من خاطره مقت المتقاعس من رجاله كما يثبت فيه شكر المسارع من ابطاله قال الله تعالى فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الامر يا مولانا اليس الله تعالى اطلع على قلوب أهل الارض فلم

يؤهل ولم يستصلح ولم يختر ولم يستعمل ولم يستخدم فى اقامة دينه واعلاء كلمته وتمهيد سلطانه وحماية شعاره وحفظ قبلة موحديه الا انت هذا وفى الارض من هو للنبوة قرابه ومن له الملكة وراثه ومن له فى المال كثره ومن له فى لعدد ثروه فاقعدهم واقامك وكسلهم ونشطك وقبضهم وبسطك وحبب الدنيا اليهم وبغضها اليك وصعبها عليهم وهونها عليك وامسك أيديهم واطلق يدك واغمد سيوفهم وجرد سيفك واشقاهم وانعم عليك وثبطهم وسيرك ولو ارادوا الخروج لاعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين نعم وأخرى اهم من الاولى انه لما اجتمعت كلمة الكفر من أقطار الارض واطراف الدنيا ومغرب الشمس ومن خر البحر ما تأخر منهم متأخرا ولا استبعد المسافة بينك وبينهم مستبعد وخرجوا من ذات أنفسهم الخبيثة لأموال تنفق فيهم ولا ملوك تحكم عليهم ولا عصابات سوقهم ولا سيف يزعجهم مهطعين الى الداعى ساعين فى أثر الساعى وهم من كل حدب ينسلون ومن كل بر وبحر يقبلون كنت يا مولانا كما قيل أبقاك الله

ولست بملك هازم لنظيره ✻ ولكنك الاسلام للشرك هازم

هذا وليس لك من المسلمين كافة مساعد الا بدعوة ولا مجاهد معك الا بلسانه ولا خارج معك الا همّ ولا خارج بين يديك الا بالاجرة ولا قانع منك الا بزيادة تشترى منهم الخطوات شبرا بذراع وذراعا بباع تدعوهم الى الله وكأنما تدعوهم الى نفسك وتسألهم الفريضة وكأنك تكافهم النافلة وتعرض عليهم الجنة وكأنك تريد أن تستأثر بها دونهم والاراء تختلف بحضرتك والمشورات تتنوع بمجلسك فقائل لم لا تنباعد عن المنزله وآخر لم لا تميل الى المصالحه ومتندم على فائت ما كان فيه حظ ومشير بمستقبل ما يلوح فيه رشد ومشير بالتخلى عن عكا حتى كأن تركها تغليق المعاملة وما كأنها طليعة الجيش ولا قفل الدار ولا خرزة السلك ان وهت تداعى السلك وأنبت فى بد الملك فالهمك الله قتل الكافر وخلاف المخذل والتجلد وتحت قدمك الجمر وأفرشك الطمأنينة وتحت جنبك الوعر

ولكن مولانا صفيحة وجهه ✻ كضوء شهاب القابس المتنور

قليل التشكى للهموم نصيبه ✻ كثير الهوى شتى النوى والمسالك

لا شبهة ان المملوك قد أطال ولكن قد اتسع المجال وما مراده الا أن يشكر الله على ما اختاره له ويسره عليه وحببه اليه فرب ممتحن بنعمه ورب منعم عليه بمشقه وكم مغبوط بنعمة هى داؤه ومرحوم من بلوى هى دواؤه ويريد المملوك بهذا ان لا يتغير لمولانا أبقاه الله وجه عن بشاشه ولا صدر عن سعة ولا لسان عن حسنه ولا ترى منه ضجره ولا تسمع منه نهره فالشدة تذهب ويبقى ذكرها والازمة تتفرج ويبقى أجرها وكم لم يحدث استمرار النعم لمولانا عز نصره بطرا فلا تحدث له ساعات الامتحان ضجرا والمملوك يستحسن بيتى حاتم ومولانا أبقاه الله وخلد سلطانه وملكه يحفظهما

شربنا بكأس الفقر يوما وبالغنى ✻ ومامنهما الا سقانا به الدهر

فما زادنا بغيا على ذى قرابة ✻ غنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقر

والمملوك يأمن ان مولانا عز نصره على ما يعهده من سعة صدره أسر منه بما يسمعه من بشائر نصره ويا ليتنى كنت معهم وماذا كانت تصنع الايام إما شيبا من مشاهدة الحروب فقد شبنا والله من سماع الاخبار أو غرما يمكن خلفه من الوفر فقد غرمنا فى بعد مولانا ما لا خلف له من العمر أو مرض جسم نخيره ما كان الطبيب حاضره ولقد مرضنا أشد المرض لفراقه الا أن التجلد ساتره) ومن كتاب آخر (المملوك يوصى المولى بالاسلام والاسلام هو قلب المولى فيروّحه ولا يحمله ويشغله بما يثقله ويوصى المولى بقلوب المسلمين وقلوب المسلمين جسم مولانا أبقاه الله من علم انه لا توفية عنده لرواتب الحياة اشتغل قلبه واستطار لبه وضعفت نفسه فبحسب المولى من جهاده تفقد جسمه وآلات مطعمه وترويح خطراته فقد بلغ المملوك من حمله على نفسه ما يخشى على مولانا الاثم فيه وانما تجشم كل مشقة لتسلم منه ونحن فى ضر قد مسنا ولا نرجو لكشفه الا من ابتلى به وفى طوفان فتنه ولا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم ولنا ذنوب قد سدت طريق دعائنا فنحن أولى بأن نلوم أنفسنا والله قدر لا سلاح لنا فى دفعه الا أن نقول لا حول ولا قوة الا بالله وقد أشرفنا على أهوال قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب وقد جمع العدو لنا وقيل لنا

اخشوه فقلنا حسبنا الله ونعم الوكيل منتجزين بذلك موعودا لانقلاب بنعمة من الله وفضل فانرجوا الا ذلك الفضل العظيم وليس لنا الا الاستعانة بالله فادلنا الله في الشدائد الا على الدعاء له وعلى طروق باب كرمه وعلى التضرع اليه فلولا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم ونعوذ بالله من القسوة ومن القنوط من الرحمة ومن اليأس من الفرج فانه لا ييأس منه الا مسلوب الرشد مطرود عن الله مقطوع الحظ منه ولا حيلة الا بترك الحيلة بل قصد من تمضي اقداره بلا حيلة سبحانه وتعالى ان علم الله من جند مولانا انهم قد بذلوا المجهود فقد عذرهم فيعذرهم المولى وان علم انهم قد ذخروا قوة وقصروا في نصرة كلمة الله فيكفيهم مقت الله والمملوك يذكر المولى بصبره ويرحب صدره وبفضل خلقه وبتقواه لربه وبمداراة مزاجه ويبر القلوب الاسلامية ويبر جسمه وان كان كبر عليك اعراضهم الآية الى ولو شاء الله لجمعهم على الهدى والمولى أولى بهذا البيت

لا بطران تتابعت نعم ❊ وصابر في البلاء محتسب

قيل للملهب أيسرك ظفر ليس فيه تعب فقال أكره عادة العجز ولا بد أن تنفذ مشيئة الله في خلقه لا راد لحكمه فلا يتسخط مولانا بشيء من قدره فلأن يجري القضاء وهو راض مأجور خير من أن يجري وهو ساخط موزور فيصطلي نارا لشدة أعاذه الله منها ولا يجد راحة الثواب وفر الله حظه منه من شكا بثه وحزنه الى الله شكا الى مشتكى واستغاث بقادر ومن دعا ربه دعاء خفيا استجاب له استجابة ظاهرة فاتكل سكوى مولانا الى الله خفية عنا ولا يقطع الظهور التي لا تشتد الا به ولا يضيق صدورا لا تنفرج الا منه وما شرد الكرى وأطال على الافكار ليل السرى الا ضائقه القوت بعكا ولم يبق الا ضعف نعم المعين عليه ترويح النفس واعفاؤها من الفكر فقد علم مولانا بالمباشرة انه لا يدبر الدهر الا رب الدهر ولا ينفذ الامر الا بصاحب الامر وانه لا يثقل الهم ان كنز الفكر

قد قلت للرجل المقسم أمره ❊ فوض اليه تنم قرير العين

وكل مقترح يجاب اليه الا ثغرا يصير نصرانيا بعد ان أسلم أو بلدا يخرس فيه المنبر بعد ان تكلم يا مولانا هذه الليالي التي رابطت فيها والناس كارهون وسهرت فيها والعيون هاجعة وهذه الايام التي ينادى فيها يا خيل الله اركبي وهذه الساعات التي تزرع الشيب في الرؤس وهذه الغمرات التي تنقبض فيها الصدور بمائها بل بنارها هي نعمة الله عليك وغراسك في الجنة ومحملات محضرك يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وهي مجوزاتك على الصراط وهي مثقلات الميزان وهي درجات الرضوان فاشكر الله عليها كما تشكره على الفتوحات الجليلة واعلم ان مثوبة الصبر فوق مثوبة الشكر ومن ربط جاش أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله (لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليت أيهما ركبت) وبهذه العزائم سبقونا وتركونا لا نطمع في اللحاق بالغبار وامتدت خطاهم ونعوذ بالله من العثار ما استعمل الله في القيام بالحق الا خير الخلق وقد عرف ما جرى في سير الاولين وفي أنباء النبيين وان الله تعالى حرض نبيه صلى الله عليه وسلم على أن يهتدي بهداهم ويسلك سبيلهم ويقتدي باولي العزم منهم وما تغلو الجنة بثمن وما ابتلى الله سبحانه من عباده الا من يعلم انه يصبر وأمور الدنيا ينسخ بعضها بعضا وكان ما قد كان لم يكن ويذهب النعب ويبقى الاجر وانما يقظات العين كالحلم وأهم الوصايا أن لا يحمل المولى هما يضعف به جسمه ويضر مزاجه والامة بنيان وهو أبقاه الله تعالى قاعدته والله يثبت تلك القاعدة القائمة في نصرة الحق ومما يستحسن من وصايا الفرس ان نزل بك ما فيه حيلة فلا تجزع وان نزل بك ما ليس لك فيه حيلة والعياذ بالله فلا تجزع ورب واقع في أمر لو اشتغل عن حمل الهم به بالتدبير فيه مع مقدور الله لانصرف همه وكفى خطبه وما تشاؤون الا أن يشاء الله هذا سلطان هو بحول الله أوثق منه بسلطانه قاتلت المملوك بطمعها وقاتل هذا بايمانه واذا نظر الله الى قلب مولانا لم يجد فيه ثقة بغيره ولا تعويلا على قوة الا على قوته فهنالك الفرج ميعاده واللطف ميقاته فلا يقنط من روح الله ولا يقل متى نصر الله وليصبر فانما خلق للصبر بل ليشكر فالشكر في موضع الصبر أعلى درجات الشكر وليقل لمن ابتلى أنت المعافى وليرض عن الله سبحانه فان الراضي عن الله هو المسلم الراضي فأما اخبار فتنة بلاد العجم فسبحان من ألحق قلوبهم بالسنتهم قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون) وكتب السلطان الى القاضي الفاضل كتابا من بلاد الفرنج يخبره عما لاح له من امارات النصر ويقول ما أخاف الا من ذنوبنا أن يأخذنا الله بها فكتب اليه الفاضل (فأما قول المولى اننا

نخاف أن نؤخذ بذنوبنا فالذنوب كانت مثبتة قبل هذا المقام وفيه محيت والآثام كانت مكتوبة ثم عفى عنها بهذه الساعات وعفيت فيكفي مستغفرا لسان السيف الاحمر في الجهاد ويكفي قارع الابواب الجنة صوت مقارعة الاضداد ولعين الله موقفك وفي سبيل الله مقامك ومنصرفك وطوبى لقدم سعت في منهاجك وطوبى لوجه تثم بمثار عجاجك وطوبى لنفس بين يديك قتلت وقتلت وان الخواطر تشكر الله فيك وعن شكرها لك قد شغلت)

(فصل) كان بلغني ان السلطان رحمه الله لما اشتد امر الفرنج على عكا أرسل الى ملك المغرب يستنجد به عليهم ليقطع عنهم مادتهم من جهة البحر وكنت أتطلب حقيقة ذلك وأبحث عن شرح الحال فيه فان العماد والقاضي لم يتعرضا له في كتبهما غير ان العماد ذكر كتابا كتبه القاضي الفاضل الى رسولهم بالمغرب يستنجز منه ما كان ارسل لاجله وسيأتي وغرضي كان الاطلاع على نفس كتاب الرسالة ومضمونها ثم ارانيه بعض الشيوخ الصلحاء الثقاة بخطه ما كنت أرومه فنقلته على وجهه قال نسخة كتاب كتبه القاضي الفاضل ونقلته من خطه لابن منقذ يأمره فيه بالسفر الى المغرب بامر الملك الناصر صلاح الدين رحمه الله يستنصر بملك المغرب يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن لما حضر الفرنج خذلهم الله عكا بعد كسرة حطين وفتح بيت المقدس والكتاب الذي سير الى المغرب والهدية التي حملت يأتي ذكر ذلك ان شاء الله

(بسم الله الرحمن الرحيم) (الامير الاجل الاسفهسلار الاصيل العالم المحترم شمس الدين عدة الاسلام جمال الانام تاج الدولة امين الملة صفوة الملوك والسلاطين شرف الامراء مقدم الخواص ادام الله توفيقه ويسر طريقه ونجح مقصده واعذب مورده وحرس مغيبه ومشهده واسعد يومه وغده يستخير الله سبحانه ويتوجه كيفما يسر الله الى الجهة الاسلامية المغربية حرس الله جانبها ونصر كتائبها ومراكبها ويستقري في الطريق وفي البلاد من أخبار القوم في احوالهم وآدابهم واشغالهم وافعالهم وما يحبونه من القول نزره اوجه ومن اللقاء منبسطه اومنقبضه ومن القعود بجالسهم مخففة او مطولة ومن التحيات المتهاداة بينهم ما صيغته وما موقعه وهل هي السنن الدينية اوالعوائد الملوكية ولا يلقه الا بما يحبه ولا يخاطبه الا بما يسره والكتاب قد نفذ اليه ولم يختم ليعلم ما خوطب به والمقصود ان تقص القصص عليه من أول وصولنا الى مصر وما أزلنا من البدع بها وعطلنا من الالحاد فيها ووضعنا من المظالم عنها واقامة الجمعة وعقد الجماعة فيها وغزواتنا التي تواصلت الى بلاد الكفار من مصر فكانت مقدمة لملك الشام الاسلامي باجتماع الكلمة علينا ومقدمة لملك الشام الفرنجي بانقياد المسلمين لنا واتفاق الملوك المجاورين على طاعتنا وتفصيل ما جرى لنا مع الفرنج من الغزوات المتقدمة التي جسنا فيها خلال ديارهم وجعلها الله تعالى مقدمات لما سبق في علمه من أسباب دمارهم وما اعقبها من كسرتنا لهم الكسرة الكبرى وفتح البيت المقدس وتلك على الاسلام منة الله العظمى الى غير ذلك من أخذ الثغور وافتتاح البلاد واثخان القتل فيهم والاسر لهم واستنجاد بقيتهم لفرنج المغرب وخروج نجداتهم وكثرتها وقوتها ومنعتها وغناها وثروتها ومسارعتها ومبادرتها وانه لا يمضي يوم الا عن قوة تتجدد وميرة تصل وأموال واسعة تخرج ومعونات كثيرة تحمل وان ثغرنا حصره العدو وحصرنا نحن العدو فما تمكن من قتال الثغر ولا تمكن من قتالنا وخندق على نفسه عدة خنادق فما تمكنا من قتاله وقدم الى الثغر أبرجة احرقها أهله وخرج مرتين الى عسكرنا فكسر العدو أقله فانه اغتنم أوقاتا لم تكن العساكر فيها مجموعة وارتاد ساعات لم تكن الاهب فيها مؤخوذة وأقدم على غرة استيقظت فيها نصرة الله لنا وخذلانه لهم فقتل الله العدو القتل الذريع وأوقع به الفتك الشنيع وانجلت احدى المعركتين عن عشرين ألف قتيل من الكفار خرجت أنفسها الى مصارعها وهمدت أجسامها في مضاجعها والعدو وان حصر الثغر فانه محصور ولو أبرز صفحته لكان باذن الله هو المثبور والمكسور وتذكر ما دخل الثغر من اساطيلنا ثلاث مرات واحراقها لمراكبهم وهي الاكثر ودخولها بالميرة بحكم السيف الاظهر وان أمر العدو مع ذلك قد تطاول وخطبه قد تمادى ونجدته تتواصل ومنها ملك الالمان في جموع جماهيرها مجهوره وأموال قناطيرها مقنطره وان عساكرنا لو أدركته لما استدرك ولو لا سبقه لها بالدخول الى انطاكية لتلف وهلك وتذكر ان الله قصم طاغية

الالمان وأخذه أخذة فرعونية بالاغراق في نهر الدنيا الذي هو طريقه الى الاحراق في نار الآخره وان هذا العدو لو أرسل الله عليه اسطولا قويا مستعدا يقطع بحره ويمنع ملكه لاخذنا العدو اما بالجوع والحصر أو برزفأخذناه بيد الله تعالى التي بها النصر فان كانت الاساطيل بالجانب المغربي ميسره والعدة منها متوفره والرجال في اللقاء فارهه والمسير غير كارهه فالبدار البدار وأنت أيها الامير فيها أول من استخار الله وسار وان كانت دون الاسطول موانع اما من قلة عده أو من شغل هنالك بهمة أو بمباشرة عدو ما تحصن منه العوره أو قد لاحت منه الفرصه فالمعونة ما طريقها واحده ولا سبيلها مسدوده ولا أنواعها محصوره تكون تارة بالرجال وتارة بالمال وما رأينا أهلا لخطابنا ولا كفؤا لانجادنا ولا محقوقا بدعوتنا ولا ملبيا بنصرتنا الا ذلك الجناب فلم ندعه الا لواجب عليه والى ما هو مستقل به ومطيق له فقد كانت تتوقع منه همة تقد في الغرب نارها ويستطير في الشرق سناها وتغرس في العدوة القصوى شجرتها فينال من في العدوة الدنيا جناها فلا ترضى همته أن يعين الكفر الكفر ولا يعين الاسلام الاسلام وما اختص بالاستعانة الا لأن العدو جاره والجار أقدر على الجار وأهل الجنة أولى بقتال أهل النار ولانه بحر والنجدة بحريه ولا غرو ان يجيش البحار البحار وان سئل عن الملوكين يوزيا وقراقوش وذكر ما فعلا في أطراف المغرب بمن معهما من نفايات الرجال الذين نفتهم مقامات القتال فيعلمهم ان الملوكين ومن معهما ليسوا من وجوه المماليك والامراء ولا من المعدودين في الطواشية والاولياء وانما كسدت سوقهما وتبعتهما الفاق أمثالهما والعادة جارية ان العساكر اذا طالت ذيولها وكثرت جموعها خرج منها وانضاف اليها فلا يظهر مزيدها ولا نقصها ولا كان هذان الملوكان ممن اذا غاب أحضر ولا ممن اذا فقدا افتقد ولا يقدر في مثلهما انه ممن يستطيع نكايه ولا يأتي بما يوجب شكوى من جنايه ومعاذ الله أن نأمر مفسدا بأن يفسد في الارض ان أريد الا الاصلاح ما استطعت وان سئل عن النوبة المصريه وما فعل بجندها فيعلمهم الامير ان القوم راسلوا الكفار واطمعوهم في تسليم الديار فاشفى الاسلام على أمر شديد وكاد يقرب على الكفر كل أمر بعيد فلم يعاقب الجيش بل أعيان المفسدين فقوبلوا بما يجب وكانوا دعاة كفر وضلال ومحاربين لله بما سعوا في الارض من فساد فأما بقية الجيش وان كان منهم من هو تبع للمذكورين في الرضا فانهم اقتصر بهم على أن لا يكونوا جندا ومنهم من أجريت عليه أرزاق تبلغه وشملته آمنة تسكنه وأما الهدية المسيرة على يد الامير فتفصيلها يرد في كتاب الامير الاجل الاسفهسلار العالم الكبير مجد الدين سيف الدوله أدام الله علوه مقرونا بالهدية المذكوره ومع قرب الشتاء فلم يبق الا الاستخارة والتسمية ومبادرة الوقت قبل أن يغلق البحر انفتاح الاشتيه والله سبحانه يوفق الامير ويسهل سبيله ويهدي دليله ويكلأه بعينه ويمده بعونه ويحمل رحله ويبلغه أهله ويشرح له صدره ويسر له أمره ان شاء الله تعالى وكتب ثامن وعشرين شعبان سنة ست وثمانين وخمسمائه)

(فصل) في نسخة الكتاب الى ملك المغرب والهديه العنوان (بلاغ الى محل التقوى الطاهر ومستقة حزب الله الظاهر من المغرب اعلى الله به كلمة الايمان ورفع به منار البر والاحسان)

(بسم الله الرحمن الرحيم) (من الفقير الى رحمة ربه يوسف بن أيوب (أما بعد) فالحمد لله الماضي المشيه الممضي القضيه البر بالبريه الحفي بالحنفيه الذي استعمل عليها من استعمر به الارض واغنى من أهلها من سأله القرض وأجزل أجر من أجرى على يده النافلة والفرض وزان سماء الملة بدراري الذراري التي بعضها من بعض وصلى الله على سيدنا محمد الذي أنزل عليه كتابا فيه الشفاء والتبيان وبنى الاسلام بأمته التي شبهها اصاحبها بالبنيان وعلى آله وصحبه الذين اصطفاهم وطهرهم فنصروه وظاهروا رسوله صلى الله عليه وسلم فنصرهم وأظهرهم ويسر بهم السبيل ثم السبيل يسرهم وان الله بهم لذو افضل على الناس ولكن أكثرهم ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤف رحيم وهذه التحية الطيبه الكريمة الصيبه الواجبة الرد الموجبة للقبول العذبة الورد المتنفسة عن العنبر والورد وقادة على دار الملك ومدار النسك وجل الجلاله واصل الاصاله ورأس الرياسه ونفس النفاسه وحكم الحكم وعلم العلم وقائم الدين وقيمه ومقدم الاسلام ومقدمه ومقتضى دين الله ومثبت المتقين على اليقين ومعلى الموحدين على الملحدين أدام الله له النصره وجهز به تيسير العسره وردله الـ

وبسطه باع القدره وأوثق به حبل الالفه ومهد له درجات الغرفه وعرفه فى كل مايعتزمه صنعا جزيلا جميلا ولطفا حفيا جليلا ويسر عليه فى سبيله كل ماهو أشد وطأ وأقوم قيلا تحية استنير منها الكتاب واستنيب عنها الجواب وقد حفزها حافزان أحدهما شوق قديم كان مطل غريمه ممكنا الى ان تتيسر الاسباب والآخر مرام عظيم ما كره اذا استفتحت به الابواب وكان وقت المواصله وموسم المكاتبه هناءه بفتح البيت المقدس وسكون الاسلام منه الى المقيل والمعرس وما فتح الله للاسلام من الثغور وماشرح لاهله من الصدور وما أنزله عليهم من النور ولم يخل المسلمون فيه من دعوات اسرار ذلك الصدر وملاحظات أنوار ذلك البدر ومطالعات تلك الجهة التى هى وان كانت غربية فان الغرب مستودع الانوار ومنزل ديناز الشمس ومصب أنهار النهار ومن جانبه يأتى سكون الليل ومستروح الاسرار وعنه يقلب الله الليل والنهار ان فى ذلك لعبرة لاولى الابصار ولم تتأخر المكاتبة الا ليتم الله ما بدأ من فضله وليفيح بقية مالم ينقطع بتقطع يد الشرك من حبله والمفتتح بسد الله من الشام مدن وامصار وبلاد كبار وصغار ونعور وقلاع كانت للشرك معاقل وللاسلام معاقر ولبنى الكفر مصانع ولبنى الاسلام مصارع والباقى بيد الكفر منها ثغر اطرابلس وصور ومدينة انطاكية يسر الله أمرها وفك من يد الكفر أسرها واذا امر المؤمن على هذه الدعوة رجى ايحابها ومايتأخر من الله سبحانه جوابها فالدعاء أحد السلاحين ومع النية يطير الى وكره من السماء بجناحين بعد ان كسر العدو الكسرة التى لم يجبر بعدها والجئ الى حصونه التى للحصر أعدها وكان يومها كريما ولطف الله فيها عظيما قضى كل حاجة فى النفس واغنت المسلمين فأما العدو بعد يومها فكأن لم يغن بالامس وكانت على آثر غزوات قبلها فالظن بالمجهزة بعد النكس ولم يؤخر فتح البلاد بعدها الا ان فزع الكفار بالشام استصرخ بأصل الكفار من الغرب فأجابوهم رجالا وفرسانا وشيبا وشبانا وزرافات ووحدانا وبرا وبحرا ومركبا وظهرا وركبوا اليهم سهلا ووعرا وبذلوا ماعوا وذخرا وما احتاجوا ملوكا ترتادهم ولا ارسانا تقتادهم بل خرج كل يلبى دعوة بطركه ولا يحتاج الى عزمة ملكه وخرجت لهم عدة ملوك أقفلت الحجة على أسمائها وأتت العزيمة بحمد الله على آسخاصها عند لقائها ومنهم ملك الالمان خرج فى جموع بريه من الله تعالى بريه ملأت الفجاج وازدحمت فانهزم الحجاج ومنهم من ركب ثبج البحر فركب الاجاج الحجاج وامتطى من البحر مشيه الرجاج لينصر دينا منبه الزجاج يقبل الكسر ولا يسرع اليه الجبر وراكب ذلك الدين كراكب البحر بلا ساحل سلامة والى قاع كفر وجلب الكفار الى المحصورين بالشام كل مجلوب وملؤوا عليهم ثغريهم من كل مطلوب مابين أقوات وأطعمه وآلات وأسلحة وسله وجنه وحديد مضروب وزبره ونقدى ذهب وفضه الى ان شحنوا بلادهم رجالا مقاتله وذخائر للعاجلة من حربهم والآجله لاتشرق شارقة الا طلعت على العدو من البحر طالعه تعوض من الرجال من قتل وتخلف من الزاد ما أكل فهم كل يوم فى حصول زيادة ووفور مادة وقد هان عليهم موقع الحصر وأعطاهم البحر مامنعهم البر وبطروا لما كثروا ونظروا فانهم لايستطيعون أن يلقوا ويصحروا ويستطيعون أن يحصروا على أن يحصروا ونزلوا على عكا بحيث يمدهم البحر بامداده ويصل الى المقاتل مايحتاجه من أسلحته وازواده وبمن يكثر به من مقاتله واجناده فانقطعت مادة عكا من البحر وحصرنا منازلهم من العدو من جهة جانب البر فحدقوا على نفوسهم وحثوا التراب على رؤسهم وعقدت عدتهم مائة ألف أو يزيدون كلما أفناهم القتل أخلفتهم النجدة فكانهم قبل الممات يعودون فاتممنا بعمارة بحرية لقينا عمارتهم بها فنفذت عمارتنا الى الثغر وأوصلت اليه الاقوات التى حمل منها البحر مالا يحمله الظهر والاسلحة التى أمضاها الله عز وجل بيد الاسلام فى صدور الكفر وما لقينا عمارة العدو بأوفر منها عدة فعدد مراكبهم كبير اولكن لقيناهم بأصدق منها عزمه والقليل مع العزم الصادق كثير واستمر مقام العدو محاصر الثغر محصورا منا أشد الحصر لايستطيع قتال الثغر لا من خلفه ولا يستطيع الخروج الينا خوفا من حتفه ولا نستطيع نحن الدخول اليه لانه قد سور وخندق وحاجز من وراء الحجرات وأغلق ولما خرج ملك الالمان بحشده وسمعته التى هى منه أحشد وعاد جيشه الملعون على رسم قديم الى الشام فكان العود لامة أحمد صلى الله عليه وسلم أحمد قويت به نفوسهم وجحت به رؤسهم وظنوا انه يزعجنا من مخيمنا ويخرجنا من خيمنا فبعثنا اليه من يلقاه بعساكر الشمال اليه فسلك ذات الشمال متوعرا فيها محتجزا

عن لقائها مظهرا انه صريع داء ومابه غير دائها وكان أبوه الطاغية ملك الالمان شيبة اللعين اللعين فاند جيشه الى سجن سجين قد هلك في طريقه غرقا وخاض الماء فخاضه الماء شرفا وبقي له ولد هو الآن المقدم المؤخر وقائد الجمع المكسر وربما وصل بهم الى عكا في البحر تهيبا أن يسلك البر ولو سبق أصحابنا الى عساكر الالمان قبل دخولها الى انطاكية لاخذوه أخذا سريعا وسبق بحر سيوفهم الى أن يكون الطاغية فيه لا في النهر صريعا ولكن لله المشيئة في البريه والطاغية انما يمشي الى البليه فانه لولا احتجاز مقيمهم بالخنادق واجتياز واصلهم بالمصائق لكان لنا ولهم شان وكان ليومنا في النصرة الكبرى بحول الله ثان لا يثنيه من العدو ثان ولما كانت حضرة سلطان الاسلام وقائد المجاهدين الى دار السلام أولى من توجه اليه الاسلام بشكواه وبثه واستعان به على حماية نسله وحرثه وكانت مساعيه ومساعي سلفه في الجهاد الغر المحجله المؤمرة الكاشفة لكل معضله الكاسفة لكل مشكله والاخبار بذلك سائره والآثار ظاهره والصحف عنه باسمه والسير به معلمة وعالمه وكل بجهاده قد سكن الا السيوف في اغمادها وقد أمن الاكلمة الكفر في بلادها لا يزال في سبيل الله غاديا ورائحا ومواجها ومكافحا ومماسيا ومصابحا يجوز لجة البحر بالمجاهدين ملوكا على الاسره وغزاة تصافح وجوهها السيوف فلا يخدز رالاسره يدود الفرق الكافرة ولو ترك سبيلها لملأ قراره كل واد وكلما أوقدوا نار الحرب أطفأها الله ولولاه لاخمد شراره كل زياد كان المتوقع من تلك الدولة العاليه والعزمة الغاديه مع القدرة الوافيه والهمة المهدية الهاديه أن يمد غرب الاسلام المسلمين بأكبر مما أمد به غرب الكفار الكافرين فيملأها عليهم جواري كالاعلام ومدنا في اللجج سوائر كأنها الليالي مقلعة بالايام تطلع علينا معشر الاسلام آمالا وتطلع على الكفار آجالا وزردنا الماجله واما ارسالا مسومة تمدها ملائكة مسومة ومعلمه تتقدم حيازيمها أقدام حيزوم تحت أصحابه وانما هي منه عزمه كانت تعين أصحاب الميمنه على أصحاب المشأمه وكلمة كانت تنفخ الروح في الكلمه ولما استبطئت ظن انها توقعت على الاستدعاء فصرخنا به في هذه التحيه فقد تحفل السحاب ولا تمطر الى أن تحركها ايدي الرياح وقد نترك النصرة فلا تظهر الى أن تضرع اليها ألسنة الصفاح وسير لحص مجلسه الاطهر ومحله الانور الامير الاجل المجاهد الامين الاصيل شمس الدين نفير الاسلام والمسلمين سفير الملوك والسلاطين أبو الحزم عبد الرحمن بن منقذ كتب الله سلامته وأحسن صحابته وما اختير للوفادة الامن هو أهلها ولا حمل الوديعة الامن هو محلها ولا بعث لنهج الصلة الامن هو مفتاحها ولاداء الامانة الامن هو قفلها ومهما استوضح منه وسئل عنه فانه على نفسه بصيره وعن البيان ذو خبيره وفي العربية ذو بيت وعشيره والمشاهدة له أوصف على ان تلك الجلالة ربما ذعرت البيان فأخلف وما اجدره بأن يصادف بسطة على بساطه ونظرا يأذن له في القول على اختصاره وتوسطه وافراطه فكل هو به واف وكل هو للفهم الكريم كاف والله تعالى يجعل هذه العزمة منا في استنهاض العزمة منه بالغة مبلغا يسر أهل دينه ويوزعهم بها اقتضاء ديونه من الذين اتخذوا الهامن دونه والسلام الصادر عن القلب السليم والود الصميم والعهد الكريم على حضرة الكرم العليه وسدة السيادة الجليه سلام مودة ما وفد الغرب قبلها مثلها ورسالة ما خطرت الى ان انفذت وراءها المحبة رسلها وليصل السلام رحمة الله وبركاته ورضوانه وتحياته ان شاء الله تعالى وكتب في شعبان سنة ست وثمان وخمسمائه والحمد لله وحده وصلاته على سيدنا محمد نبيه وآله وسلامه) الهدية ختمة كريمة في ربعة مخيسة بمسك ثلثمائة منقال عنبر عشر قلائد عددها ستمائة حبه عود في سمط عشرة أمنا دهان بلسان مائة درهم وواحد قسي بأوتارها مائة وقوسان سروج عشرون نصول سيوف هنديه عشرون نشاب ناسج خاص مريش كبير ومتوسط ضمن صندوق خشب مجلده سبعمائة سهم

وكان اقلاعه من الاسكندرية في ثيني عمارته مائة وعشرون في ثالث عشر رمضان سنة ست وثمانين وخمسمائة ووصل الى اطرابلس أول البلاد في الخامس والعشرين من شوال وأقام بها الى ثامن ذي القعدة وتوجه الى البلاد وكان الاجتماع بالوزير أبي يحيى بن أبي بكر بن محمد بن الشيخ أبي حفص ودفع كتاب السلطان اليه يوم الخميس سابع ذي الحجة وكان الدخول على يعقوب والسلام عليه في العشرين من ذي الحجة وفي هذا النهار حملت هدية السلطان الى خزانته

وكان انفصاله من مراكش عاشر المحرم سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ووصل الى الاسكندريه فى الثامن والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين

﴿فصل﴾ لم يحصل من جهة سلطان الغرب ما التمس منه من النجدة وبلغنى انه عز عليهم كونه لم يخاطب بأمير المؤمنين على جارى عادتهم وقد كان سلطانا عادلا مظهرا للشريعة غازيا توفى سنة خمس وتسعين وفيه يقول شاعره

أهل لان يسعى اليه ويرتجى ❁ ويزار من أقصى البلاد على الوجا
ملك غدا بالمكرمات مقلدا ❁ وسموها ومختما ومتوجا
عمرت مقامات الملوك بذكره ❁ وتعطرت منه الرياح تأرجا
وجد الوجود وقد دجى فأضاءه ❁ وراءه فى الكرب العظام ففرجا

وفيه يقول ابن عمه سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن أبو الربيع من قصيدة أولها

هبت بنصركم الرياح الاربع ❁ وجرت بسعدكم النجوم الطلع
ان قيل من خير الخلائف كلها ❁ فاليك يا يعقوب تومى الاصبع
ان كنت تتلو السابقين فانما ❁ أنت المقدم والخلائف تتبع

وقد مدحه أيضا شمس الدين بن منقذ هذا المرسل اليه من جهة السلطان بقصيدة منها

سأشكر بحرا ذا عباب قطعته ❁ الى بحر جود ما لنعماه ساحل
الى معدن التقوى الى كعبة الهدى ❁ الى من سمت بالذكر منه الاوائل
اليك أمير المسلمين ولم تزل ❁ الى بابك المأمول تزجى الرواحل
قطعت اليك البر والبحر موقنا ❁ بأنى بذاك القطع بالنجح كافل
فما راعنى من وجبة البر رائع ❁ ولا هالنى من زاخر البحر هائل
ومن كان غايات المعالى طلابه ❁ يهون عليه كل أمر يحاول
رجوت بقصديك العلى فبلغتها ❁ وادنا عطاياك العلى والفضائل
فلازلت للعلياء والجود ثانيا ❁ تبلغك الايام ما انت آمل

وابن منقذ هذا من أهل بيت أدب وشعر وله على ما وجدت بخط بعض الثقاه

تصرم عمرى فى التغرب والنوى ❁ وافنى ارتحالى طارفى وتلادى
وأخلقت الايام بردشبيبتى ❁ وأصلدمى وقع الخطوب زنادى
وأشغلنى الحرص الموكل فى الورى ❁ عن العمل المنجى ليوم معادى
فلا راحة الاخرى تيقنت نيلها ❁ ولا أنا فى الدنيا بلغت مرادى

وله على لسان بعض غلمانه

ورب هيوص دعانى الى احتمال الرثاثة منه العدم
أقطب وجهى له كلما ❁ تهلل لى ضاحكا وابتسم

ومن كتاب فاضلى الى بعض اخوانه (وأما الاخبار المغربية واخلال جانبها وضعف مطلوبها وطالبها فاذا تجزرت الظلماء الى الغرب فيحق كما ان الانوار الناصرية قد تناصرت فى الشرق فالله يسعد بلاد الدنيا بالانخراط فى سلك ملكه ويمكن من مؤمنها حكم عدله ومن كافرها سيف فتكه والله يجزيها الخير عن نيتها فى الخير ويكتب سلامة عزمها فى طرق النفع أينما يممت السير) ثم انى وقفت على كتاب فاضلى للسلطان يشعر بأن الرسالة المغربية لم تكن برأى الفاضل ولا هو مختار لها صورته (الملوك يقبل الارض بالمقام العالى المولوى الملكى الناصرى جعل له الله فى الدنيا والآخرة المقام العالى وأبقى دولته التى هى الايام بالحقيقة والايام قبلها هى الليالى وينهى ان لظاهر ان الملوك عند المولى ليس من أهل الاتهام وان له ولله الحمد آثارا فى دولته تشهد بها الايام وآثار السيوف طاحت وبقيت آثار الاقلام والرسالة المغربية ليس الملوك مشيرا بتركها ولا كارها لسفر رسولها ولا مستبعدا

مصلحة قريبة الامر منها لكن على وجهها وقد نجزت الهدية المغربية على ما أمر به وكتب الكتاب على ما مثل ونفم الخطاب والوصف فوق العادة وبما لا يمكن مخاطبة مخلوق بأكثر منه وعند وصول الامير نجم الدين من المخيم المنصور فاوضه المملوك في انه لا يمكن الا التعريض لا التصريح بما وقع له انه لا تنجح الحاجة الا به من لفظة أمير المؤمنين وان الذين أفاضوا في هذا الحديث وأشاروا به ما قالوه نقلا ولا أحاطوا به قياسا ولا عرفوا مكاتبة المصريين قديما وآخرا ما كتب في أيام الصالح بن رزيك فخوطب فيه أكبر أولاد عبد المؤمن وولي عهده بالامير الاصيل النجار الجسيم الفخار وعادت الاجوبة الى ابن رزيك وهو وزير سلطان مصر الذي اتباع مولانا اليوم مائة مثله مترجمة بمعظم أمره وملتزم شكره هذا والصالح يتوقع أن يأخذ ابن عبد المؤمن البلاد من يديه وما هو الا أن يهرب مملوكان طريدان منافيستوليان على أطراف بلاده ويصل المشار اليه بالامر من مراكش الى القيروان في ستة أشهر فيلقاهم فيكسر مرته ويتماسك أخرى واعلم الامير نجم الدين بذلك فامسك مقدار عشرة أيام ثم أنفذ الامير المذكور اليه على يد ابن الجليس بأن الهدية اشير عليه بأن لا يسمحها وان اسمحها تكون هدية برسم من حواليه وان الكتاب لا يأخذه الا بتصريح أمير المؤمنين وان السلطان عز نصره رسم له ذلك والملك العادل دامت قدرته بأن لا يشير الا به وانه اذا التقى القوم خاطبهم بهذه التحية عن السلطان أبقاه الله من لسانه فأجابه المملوك بأن الخطاب يكفي وطريق تجددناله ممكن والكتابة حجة تقيد اللسان عن الانكار ومتى قرئت على منبر من منابر المغرب جعلنا خالعين في مكان الاجماع مبايعين من لا ينصره الله ولا شوكة فيه ولا يحل اتباعه مرخصين الغالي منحطين عن العالي ساقين عصا المسلمين مفرقين كلمة المؤمنين مطيعين لمن لا تحل طاعته متقلدين لمن لا تصح ولايته فيفسد عقود الاسلام وينفتح باب يعجز وارده عن اصدار بل تمضي وتستشف الامور وتكشف الاحوال فان رأيت للقوم شوكة ولنا زبده فعدهم بهذه المخاطبه واجعل كل ما نأخذه ثمنا للوعد بها خاصه فامتنع وقال أنا أقضي اشغالي وأتوجه الى الاسكندرية وانتظر جواب السلطان عز نصره وما يفوت وقت والى ان أنجز أمر المركب وارتاد الركاب فسير المملوك النسخة وان وافقت فينعم المولى على المملوك بترجمة يلصقها على ما كتبه ويأمر نجم الدين بتسلم الكتاب على ان ابن الجليس حدثه عنه انه ممتنع من السفر الا بالمكاتبة بها فأما الذي يترجم به المولى عز نصره فيكون مثل الذي يدعى به على المنبر مولانا وهو الفقير الى الله تعالى يوسف بن أيوب أدام الله غنى مولانا بالفقر الى ربه واذا كتب الصالحين رزيك اليهم من السيد الاجل الملك الصالح قبح ان يكتب اليه مولانا أبقاه الله الخادم وهذا مبلغ رأي المملوك والمؤمن لا يذل نفسه وقاسم الارزاق يوصلها وان رغم من جرت على يده وان كان مولانا أعز الله نصره يقول أنت غافل وغائب وما تعرف ما الاسلام فيه فلو حضرت وعرفت ما شققت الحديث بجواب ما تكتب بعد سنتين فما يتخلى الله عنا ولا تستمر هذه الشدة ولا انسى ء الظن بالله واذا كانت لنا ان شاء الله أخذت خالية ممن نطلب الآن مواساته واذا كان المملوك مستجهلا وغير مستنصح وللضرورة حكمها والاحوال المملوك غائب عنها فالمفهوم من الامر للمملوك ان يتولى من الكتابة ترتيب المقاصد وتحرير الالفاظ وتنضيد الخبر عما أجراه الله تعالى على يد مولانا عز نصره والثاني المطلوب فقد فعل هذا كله في النسخة وبقيت اللفظة التي ليست كتابة المملوك لها شرط فيها والمملوك وعقبه مستجيرون بالله تعالى ثم بالسلطان عز نصره من تعريضهم لكدر الحياة وتوقع الخوف ومعاداة من لا يخفى عنه جبر ولا تقال به عثرة ويكفي ان المولى انعم بخطه في كتابه الى المملوك وفيها ما هو بخط حضرة سيدنا الاجل عماد الدين الكاتب الاصفهاني حرسه الله ما وصى بأن لا يناظر في الخطاب ما صرح باللفظة فهي اما تقية فالمملوك أولى بها واما استهانة فنفس الملك لا تقاس بنفس المملوك فان كان ولا بد فالنسخة بين يديه والمقصود فيها من زيادة هذه اللفظة ما يحتاج الى تعليم والكتاب الذين يستقلون بكتابة النسخة معدومون وقد تاب المملوك عنهم والكتاب الذين يستقلون بالتبييض موجودون فينوبون عن المملوك في التبييض والا فكيف يسير رسول بكتاب من مصر بلا خط سلطان وبغير حضرته كتب ولا بهدية سار وبحضرة من البغادده والمغاربة يعلمون ان الكتاب كتب بمصر ويشهدون بما لم يروه وما لم يقرؤوه من الخطاب ولو وصل من المولى أدام الله أيامه كتاب مختوم وسبر ولم نعلم ما فيه لانقطع فضول كثير وخمدت أراجيف شنيعة ولا يعتقد المولى ان المملوك يعظم القصص

فما للالسنة والاعين شغل الا السلاطين وأفعالهم وأقوالهم ولا للخلق خوض الا فى أوامرهم واحوالهم ولو علم الملوك ان هذا الذى استعفى منه يضرّه بحيث ينفع المولى أبقاه الله لهان عليه ولكنه مضرّة بغير منفعة وتعرّض لما تذم عاقبته أو يبقى على الخوف منه وذلك مما لا يقتضيه حسن عهد المولى وفضل رأفته فتصود المولى أبقاه الله تحصيل تبييضها بين يديه وربما حصل استتاره وأمنت المكاره فيه وغمضت العيون عنه وشحت الايام عليه طالع الملوك بذلك)

(فصل) وللقاضى الفاضل رحمه الله من كتب اخر ما يشرح لنا بعض ما تقدّم وما لم يذكره أحد من أرباب السير منها قوله (كتاب بغداد كتاب بارد غث جامد ما فيه مقصود لقاصد ولا صلة ولا عائد ونحن نطلب الذهب الحمار فيضرب فى حديد بارد) ومنها فيما خرّب من البلاد الفرنجية المغنومة (خراب البلاد فى هذا الوقت الضيق لا شبهة فى تقويته لنفس العدوّ واضعافه لانفس المسلمين وكل من يسمعه يجأه من يده اليأس ما يقع وجاه المولى يعلم ان العدوّ أخذها من المصريين فى تمام ستين سنة وخفضوها بالانحصار مرة وبالهدنة أخرى وبالقتال مرات وبولاة سوء لو كان فيهم خير لما عجزوا عنها ونحن قد حملنا عن العدوّ المؤنة بتخريب البلاد التى كان العدوّ يريد ان يحاصرها وينازلها وينصب المنجنيق والبرج عليها ونخاف النجدة ان تصلها وقوّة الاسلام ان يئوب اليها ويتوقع ان يبدهه المصاف قبل النزول عليها فعرّفناه انه قادم على من لا سلاح له الا أن يأتى السلاح ولا حفظ للبلاد الا أن يخربها فقد تكلمنا عن اللقاء وفررنا قبل المواجهة وزدنا زيادة عجيبة وهو ان المنهزم ينهزم لرجال ونحن ننهزم بالبلاد) ثم قال وثبوته ولا نا على عكاه وحراستها وحفظها وقوّة نفس من بها وأهوى الاعداء ملك الالمان لا يشك مولانا ان جمعه لا يفى بعشر قراذر من سنين قرقورة وصلت الى الفرنج نجدة من بلاد المجوس فى السنة الماضية وانما الزائد سمعه ملك وقد هلك ورأس قد قطع وفائد جيش وقد كا الحمار) ومنها عند ورود كتاب السلطان اليه يبشر بعافيته من مرض عرض له فى شهر رمضان (أسفر بشارته عن ان المولى أتاه الفرج وغذاؤه الفروج واستقل بحمد الله وصح وعالت العافية للمرض فمح وكان ما فى كتابه الاوّلين من تعريق النون من الحمد لله رب العالمين فيه أثر ضعف ينتقده صيارفة الخطوط فأما هذا الكتاب المبارك فقد صحت فيه التعريقة وقويت اليد وطلعت النون أهم الينا من مطلع الهلال الفطرى الذى يشبهه الشعراء بالنون ومنهم من قال

ولاح هلال مثل نون أجادها ❊ بدوب النضار الكاتب ابن هلال

وهذا من أنواع الفراغ الذى ما أوجبه الملوك الا مسرته بعافية المولى أدامها الله وأدام المسرة بها له وللخلق فما يشبهها الملوك الا بنور الشمس الذى له فى كل مكان أثر ولكل عين به نظر فلا أخلى الله الدنيا من آثاره والعيون من أنواره وبعد عافية المولى قد انتظر الاسلام عافيته به من المرض الذى هو العدوّ فيجمع الله تعالى للمولى وللخلق بين العافيتين ويستخدم شكرهم للنعمتين فقد حلى الله بهذا المرض سيف الله الذى هو المولى وما صقله الا لتصدأ به قلوب أعدائه ومن فوائد هذا المرض ان المولى يستأنف العمر جديدا والعزم حديدا ويستقبل التدبير بنشاط قد حضر واعضاء قد عارقها ما كان سبب الضجر) ومنها (وأما تبرم مولانا بكثرة الطلبات منه فلا أخلى الله مولانا من القدرة عليها وهنيئا له ان الله سبحانه يطالبه بحفظ دينه والنبى صلى الله عليه وسلم يطالبه بحسن الخلافة فى أمته والسلف الصالح من هذه الامة يطالبونه بمباشرة ما لو حضروه لما زادوا على ما يفعله المولى وأهل الحرب يطالبونه بازاحة علتهم من الذهب والفضة والحديد وبقية الامة تطالبه بالامن فى سربهم والاستقامة فى كسبهم والخفارة فى سبلهم ونفسه الكريمة تطالبه بالجنة بلغه الله اليها ولعالى الامور أعانه الله عليها واذا عدد ما يراد منه فلا بدّ أن يعدد ما يسر عليه فهل عدم من الله تعالى قط نصره وهل استمرّت به قط عسره وهل تمت لعدوّ قط عليه كره وهل بات قط الا راجيا وهل أصبح الا راضيا ألا يعلم ان الله تعالى ذخر له من الصالحات ما لم يركه وله غيره ألا يحصى من سبقه من الملوك الى الدنيا فعجزوا عما سبق اليه المولى من الآخرة وهل تعرف راية قاتل تحتها فى سبيل الله الا رايته وهل يعرف مال ينفق فى سبيل الله الا ماله وهل يسمع فى مجلسه الا كتاب الله يتلى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم تقرأ أو يرى به الا الخيل تعرض والسلاح يقلب لا اقداح الشاربين ولا أصوات المغنين

المغنسين ولا وقائع الكذابين ولا سعايات النمامين ويحق اذا توفر حظ مولانا أبقاه الله على تشبيه المملوك فاذا كان مجلس ابن عبد المؤمن بالمسجد فان مجلسه أولى بأن يكون مسجدا من كل مجلس ولا غروان تعترف المدائح كما تعترف الضوال وان تتبع كما تتبع الطرائد ولينصرن الله من ينصره ولعل المولى عز نصره قد نفذ الى جانب الشمال جماعة فان صاحب انطاكية خذله الله عاث وشعث وخلا الخيمان بأرض فطلب الطعن وحده لو قرن أهل عكا وكذلك يفعلون بمشيئة الله ولو كان ماهم فيه من جهاد بنية احتساب لماسبقهم الى الجنة سابق ولا لحقهم بعدهم لاحق فليهن مولانا توفر ثوابه على كل حال فله ثواب نفسه وثواب من جاهد بسببه فلا أعدم الله الحلق واحدا به استقام جميعهم ومالكا قام برعاياهم فاقعد ما يروعهم وشفيقا يقيهم بنفسه وولده وباخوته ويتقدم الى الاهوال أمام اليكه وأمراؤه وعسكره وحلته فكأنه منهم مكان بسم الله من الكتاب ومكان الامام من المحراب ومكان النواصى من وجوه الصواهل ومكان الاسنة من وجوه الذوابل وخير ما كان اذا لم تظن نفس بنفس خيرا وأغير ما كان على محارم الله اذا كانت أنفس الملوك غير غيرى وقد اطمأنت القلوب الى ان الله سبحانه قد كشف الغمة وفرجها وأطفأ نار الحرب التى كان العدو أججها فما يتوقع من كتب مولانا أبقاه الله الا ان الاسلام قد رضى بما يسخط الكفر ولا يسمع من قصصه الذى هو أحسن القصص الا أن يقول ما قاله سميه على نبينا وعليه السلام قضى الامر فأما ملك الالمان فقد سلبه الله ما أضيف اليه كما كان الملوك رأى فى منامه على كوكب واعلم به مولانا فى ضمن رسالة فقال أبقاه الله قد قبلت البشرى وصورة الرؤيا ان رسولا جاء من السلطان عز نصره الى الملوك فقال اكتب كتابا ببشارة ملك الالمان فقلت حتى أفكر فقال الرسول اكتب بأن الله قد سلب ملك الالمان ما أضيف اليه والمشهور ان ملك الالمان خرج فى مائتى ألف وانه الآن فى دون خمسة آلاف) ومنها (ورد كتاب من المهدية الى الاسكندرية ثانى رجب بعد ستة عشر يوما من المهدية وذكر من فيه أخبارا وقد طولع بها ولما تكررت علمت صحتها وهو ان عساكر الغرب الاسلامية نازلة على طليطلة وقد افتتحت عدة حصون كافرة وان يوزباشوهد بالمهدية موثقا بالحديد وقد نفذه قراقوش الى صاحب تونس ليسيره الى بلاد الاندلس موضع نزول ابن عبد المؤمن بالعساكر وان أهل صقلية من المسلمين الى الآن فى حرب قائمة بينهم وبين فرنجها ومعتصمون بالجبال فى اعمالها وان عسكر الفرنج قد خرج لانجاد أصحابهم بصقلية والمسلمون بها على توقع ورقبة وحذار وخيفة نصر الله كلمة التوحيد وأهلك كل جبار عنيد وان مراكب فيها أزواد للجنويين دخلت المهدية بأمان من صاحبها فباعت بها وتزودت منها وانها قاصدة الشام خيب الله قصدها) ومنها (وقد سبرا لحال الآن من المجلس العزيزى بحضور فلان وفلان وكلهم مجتهد فى الخدمة ولما عرف الملوك انهم لا يطرقون المعنى الذى يطرقه الملوك من تنبيه مولانا على ان يقتصد فى الانفاق ويقدر الاخراج للعلم ان هذا الحجر قد رمينا بعدمه وسمع بخبر المولى فانهزم فرارا من سطوة كرمه والبلاد ليست الآن كعهدها فى انقطاع أسفارها ووقوف معايشها وكساد اسواقها وانكسار تجارها ولو لم تكن الدارهم سلعة لا تخرج من مصر كما يخرج الدينار لما وجدت كما لا يوجد الدينار وان تصريف الدراهم بعد ان يصير مستخرجا بذهب شغل شاغل واستخراج بان غير الاول وعسى الله ان يأتى بالفتح أو أمر من عنده يحدث للاسلام نصرا عزيزا وللكفر خذلانا سريعا وجيزا ومولانا خلد الله ملكه من وراء ضرورة لا تخفى عن الملوك والمماليك من وراء ضرورة لا تخفى عن المولى وصدر المولى بحمد الله واسع وفرج الله منه قريب وهذه الضائقة مما يريده الله تعالى من حسن موقع الفرج بعدها فقد أنفق المولى مال مصر فى فتح الشام وانفق مال الشام فى فتح الجزيرة وأنفق مال الجميع فى فتح الساحل وينفق ان شاء الله تعالى مال القسنطينية فى فتح رومية والملوك كلهم وكلاؤه وأمناؤه على خزائنهم الى أن يسلموها اليه فيشكره الله على ما أخرجه فى سبيل الله منها ويعقبهم على ما كنزوه من ذهبها وفضتها فلا يكن فى صدر المولى حرج ولا فى خلقه فان الله سبحانه لا يضيق رزقا على يده الكريمة لا سيما وقد أجرى عليها أرزاق خلقه) ومنها (ينهى الملوك وصول رسول ملك الروم بما فى صحبته من هدية وبما على لسانه من رسالة وبما على يده من كتاب وحضر بين يدى الملك العادل وجرى من المفاوضة ما زبدته امتنان الملك بكونه لم يجب رسول ملك الالمان وصاحب صقلية وغيرهم من جيوش الفرنج الى الموافقة على حرب السلطان واطلاق طريقهم وامتنع وسد الدربندات وحفظ عليهم الطرق

ووصى أرباب الحصون بالتيقظ لهم والمنع دونهم وجعل عذره للمتمسى موافقته ان البلاد فى هذه السنة غالية السعر والمصلحة تقتضى ان لا تكون الحركة الا بقوة وعلى تمكن من الميرة وتأخير الحركة الى السنة الاخرى) ثم قال (وهذا الملك الروم خائف من الفرنج على بلده مدافع عن نفسه ان تم له الدفع ادعى انه بسببنا وان لم يتم ادعى انه غائب عن مقصده ومقصدنا وقد جعل ما أورده من ان يقال ان البطاركة فى قامة من قبله وان ينقل من ولاية الفرنج الى ان يوليها الطاغية من أهل عمله سببا يبسط به عذره بزعمه عند أهل جنسه ويدفع به عن نفسه لا سيما مع اقامة الخطبة الاسلامية ونقله المنبر ونسخته فى الصلاة واعزاز الكلمة الاسلامية أرغم الله بها أنفه وعجل بسيفها حتفه ومولانا أبقاه الله يتثبت فى الاجوبة ولا يجيب الى ما على الاسلام فيه غضاضة ولا الى ما للكفر فيه قوة (ان ينصركم الله فلا غالب لكم)

ومن كتاب آخر (وصل الى الملوك كتاب بذكر وصول رسل الملك العتيق من قبرس اليه يخبره بعصيانه على ملك انكلتيرة ومكاشفته بالعداوة والحرب وانه قد كتب السلطان أعز الله نصره يبذل له من نفسه العبودية والطاعة والمظاهرة على ملك انكلتيرة والاخبار متواترة بأن الملك العتيق أحرق موانى قبرس ووعرها وقطع الميرة عن الساحل ولا شبهة ان مولانا يتقبل من المذكور ويقوى نفسه على هذه المباينة فان فى تخاذلهم نصرة الاسلام وشغل بعضهم ببعض وافتراق كلمتهم المجتمعة وقطعا للميرة عن الشام وامداد الجانب كثير من جوانب البحر وهذا الملك العتيق قد صار لمولانا صديقا وما سمى العتيق الا لانه صار لمولانا عتيقا ولا اعتبار بحديثنا مع صاحب القسطنطينيه فى اننا نجدده على قبرس فانا انما وعدناه بأنجدة عليها لما كانت بيد عدو او والله ما أفلح ملك الروم قط ولا نفع أن يكون صديقا ولا ضر أن يكون عدوا وكذلك صاحب الغرب (والله يعصمك من الناس) وقف الملوك على كتاب بغداد والمقصود الذى ندب لاجله الرسول ما ألم بذكره فى الكتاب وهى المعونة على الجهاد وعرف استدعاء المساعدة على تكريت ولو كان لا فراغها كان النظر الصحيح يقتضيها لانهما مهما بقيت فى يد من هو الآن بها كانت فى يد المولى أبقاه الله تعالى ومهما خرجت عنه خرجت عنها وما نقول انه ليس لنا تطلع الى ملكها الا سيما وهى طريق الى غيرها وقد فتح الله للمولى بلادا هى مع سعتها ضيقة عن ربوتها فلا مرمى لى أولاد كثر الله منهم ما منهم الا من هو متطلع الى طرف وله أهل ما منهم الا من هو متطلع الى مملكة وأمراء ما منهم الا من هو متوقع زيادة وما اليك ما منهم الا من يريد أن يوفى الحق عليه فى الخدمة ومن سيرة المولى لهذا الامر عدم من أصحابه منفعة فيما هو أهم مما سار فيه وما يليق أن يسير الا من يريهم ما يعجزون عنه ويكونون عنوانا لما لعلهم فى شك منه من قوة المولى على ما يريد وامساكه مع القدرة ويرى الملوك ان مطالبهم نقد ومدلينا منهم وعد وان كان ولا بد من تسيير فلا يسير الا من يقضى الشغل ويستزيد الجعل وما تضمنه الكتاب البغدادى من عزم الخليفة على الحج فى هذه السنة الملوك يستبعده بالاضافة الى الوقت والى عادة أهله وآخرهم حج الرشيد رحمه الله ويستقربه بالاضافة الى خلقه وان سار صلح أن يهتم بما أشار اليه ابن الشهرزورى ولا شك الله قد أنسى الرسالة التى توجه فيها فانا بعثناه يلتمس لنا نفقة فالتمسها منا) وكتب الفاضل الى السلطان (ينهى الملوك انه عرف تسحب رجل وصبى من العصر الغربى وان المؤيد يعنى ابن السلطان وكان ينوب عن أخيه العزيز بمصر أحضر نائبه الطواشى بهاء الدين واستعلم أمرهما فذكر ان هربهما صحيح وان أحدهما وهو الصبى من جملة ثلاثة وثلاثين ولدا كانوا اطماله الوقت الحوطة عليهم بالقصر الغربى وقد بلغ هذا أكبر وزاحم عشرين سنة والآخر كان معتقلا فى الايوان فحدثت له خناز برفى حلقه وأشفى على الهلاك فأمر الطواشى بنقله الى القصر الغربى من الايوان وفك حديده وحمل ليتداوى فى أوائل سنة ثلاث وثمانين واستمر مرضه واشتد ضعفه وبقى فى القصر الغربى الى أن علم الله تسحب فسأله الملوك عن المستحفظ للقصر الغربى فذكر استاذين كان الطواشى أقامهما ورضى أمانتهما وانهما يذكران ان هذا القصر الغربى قد خرب ودثر وأكثرت التسليقات عليه ويجاوره اصطبلات فيها جماعة من الخربندية والمفسدين والطرق مستمرة الى هذه الاصطبلات الى من فى القصر من النساء وانهم كانا أنهيا مرة بعد أخرى ان المكان غير حريز والاعتقال فيه غير وثيق قال وجمعت أصحاب الارباع وجيرة القصر ورجوت بترك الشناعة الظفر بهما والبحث واقع عنهما) وكتب الفاضل عن السلطان الى العادل وهو بمصر (انتهى الينا بالديار المصريه وبالحضرة العليه ان جماعة من الفقهاء قد اعتضدوا بجماعة من أرباب السيوف وبسطوا ألسنتهم بالمنكر

من القول غير المعروف وانشئوا من العصبيه ما أطاعوا فيه القوى الغضبيه وأحيوا بها ما أماته الله من أهل حميه الجاهليه والله سبحانه يقول وكفى بقوله حجة على من كان سميعا مطيعا (واعتصموا بحبل الله جميعا) ولم يزل التعصب للمذاهب يملأ القلوب بالشحناء ويشحنها وقد نهى الله عن المجادلة لاهل الخلاف فكيف بأهل الوفاق الا أن يقال أحسنها وما علمنا ان فى ذلك نية تنجد ولا مصلحة توجد ولا هداية تعتقد بداية تعقد ونار عداوة توقد وقلما أثمرت المشاجرة الا خلافا فالمجلس أعزه الله يوعز بكف الالسنة الخائضه وعقل الاعنة الراكضه فان أقنع بلطفه المرضى والا كانت همته الرائضه ومن عاد بعد الزجر أبعد عن مستقره وأزعج وليس يسع الخلف ما وسع السلف من الادب وليعلم العبد انه يكتب كتابا الى ربه فليفكر فيما كتب والى من كتب)

(فصل) فى ذكر خروج الفرنج خذلهم الله بعزم اللقاء ووصولهم الى رأس الماء قال العماد وذلك يوم الاثنين حادى عشر شوال بعد ان رتبوا على البلد من لازم القتال مع ملك الالمان وخرج معهم المركيس والكندهرى وأخذوا معهم عليق أربعة أيام وزادها واستصحبوا أنجاب الكريهة وانجادها وكان مخيم اليزك على تل العياضية فركبوا وأشعلوا القوم بنيران النصال وألهبوا فنزل العدو تلك الليلة على آبار كنا قد حفرناها عند نرولنا هناك وباتوا والابراك ترميهم وتشويهم وتصميهم وأصبحوا يوم الثلاثاء سائرين الى اللقاء ورفع السلطان تلك الليلة النقل الى ناحية القيمون وقد امتدت ميمنته الى الجبل صفا وميسرته الى البحر زحفا وعند فى يمين تلبه أولاده الافضل والظاهر وأخوه العادل فى أول الميمنة ويليه حسام الدين بن لاجين ثم صارم الدين قايماز النجمى ثم حسام الدين بشاره ومعه بدر الدين دلدرم اليارقى فهؤلاء عظماء دولته وكبراء مملكته ومعهم أمراء ومقدمون جريؤن مقدمون وكان فى الميمنة أيضا ابن صاحب الموصل وعز الدين جرديك النورى وعلى ميسرته صاحب سنجار وصاحب الجزيرة وتقى الدين وابن المشطوب سيف الدين وخشترين والامراء الهكارية والحميديه والزرزارية والمهرانيه وأمراء القبائل من الاكراد ورجال الحلقة الخاصة واقفون فى القلب وضرب للسلطان خيمة لطيفة بقرب الخروبة على تل مشرف وفى مرج عكا عين غزيرة الماء يجرى منها نهر كبير الى البحر فسار الفرنج ذلك اليوم شرقى النهر حتى وصلوا الى رأس الماء وشاهدوا مواقف الهائجين الى الهيجاء فانحرفوا الى غربى النهر ونزلوا واعتزوا بالاحتراز واعتزلوا فانهض السلطان اليهم الجالشيه وانتظر من الله فى كسرهم المشيه فاستداروا بمركزهم وأنخنوا فيهم باللتوت رضا وبالدبابيس قضا وبالنصال قرضا وبالاسنة وخزا ووحضا وقضوا فيهم من حق الجهاد سنة وفرضا وكان المراد أن يحتموا فيثوروا حتى يلقاهم ويبوروا فساروا مكانهم وأصبحوا يوم الاربعاء راكبين وعن سبيل اللقاء ناكبين ووقفوا على صهوات الخيل الى ضحوة النهار والراجل محدق بهم كالاسوار وأصحابنا قد قربوا منهم حتى كادوا يخالطونهم وأرادوا يباسطونهم والسلطان يمد الرماة بالرماه والكماة بالكماه وهم ثابتون ثابتون ساكنون ساكنون ونحن نقول لعلهم يحملون ويغضبون فيجهلون فنتمكن من تفصيل جملتهم بحملتهم وتفريق جماعتهم وأحس العدو بالضعف وانه متورط فى الحتف فالجئوا العجز هم عن الدفاع الى الاندفاع وساروا عائدين على هيئة الاجتماع والنهر عن يمينهم والبحر عن يسارهم وقد أيقنوا ان صح منهم الثبات بانكسارهم وأصحابنا حوالهم ومن ورائهم يغرقونهم فى دمائهم ويشلونهم ويقلونهم وينهلونهم من ماء الحديد ويعلونهم وهم يتحركون فى سكون ويتظاهرون فى كمون ويتذوبون فى جمود ويتلهبون فى خمود وكلما صرع منهم قتيل حملوه وستروه وطموا مدفنه وطمروه حتى يخفى امرهم ولا يصح لدينا كسرهم ونزلوا ليلة الخميس على جسر دعوق وقطعوا الجسر حتى يمنع عبورنا اليهم ويعوق وأبلى المسلمون فى ذلك اليوم فى الجهاد بلاء حسنا وأتوا كل ما كان فيه مستطاعا ممكنا وبذل ايازالطويل هذا اليوم جهده وفل فى فل جهدهم حده وكذلك سيف الدين يازكوج عام فى بحرهم وقام بأمرهم وأصبحوا يوم الخميس الى نار الوطيس ووصلوا الى مرضهم ولم يحصلوا على غرضهم ونقص منهم خلق وعدنا الى الخيام ظافرين ظفر الكرام فرحين بذل الكفر وعز الاسلام وعرف الفرنج مشاق خزيهم واخفاق سعيهم فاحترزوا من الهلكه وما عادوا الى مثل هذه الحركه قال القاضى وكانوا قد جعلوا راجلهم سورا لهم يضرب الناس بالزبورك والنشاب حتى لا يترك أحدا يصل اليهم الا بالنشاب فانه كان يطير عليهم كالجراد وخيالتهم يسيرون فى وسطهم بحيث لم يظهر

منهم أحد فى ذلك اليوم اصلا وعلم العدو مرتفع على عجلة وهو مغروس فيها وهى تسحب بالبغال وهم يدنون من العلم وهو عال جدا كالمنارة خرقته بياض ملمع بحمرة على شكل الصلبان ولم يزالوا سائرين على هذا الوجه حتى وصلوا وقت الظهيرة الى قبالة جسر دعوق وقد ألجمهم العطش من شدة الحر وأخذ منهم التعب وأثخنتهم الجراح وكان الفعل معظمه للحلقة المنصورة فى ذلك اليوم فانهم أذاقوهم طعم الموت وجرح منهم جماعة كايازالطويل فانه قام فى ذلك اليوم أعظم مقام يحكى عن الاوائل وجرح جراحات متعددة وهو مستمر على القتال وجرح سيف الدين يازكوج جراحات متعددة وهو من فرسان الاسلام وشجعانه وله مقامات متعددة وجرح خلق كثير فى ذلك اليوم وعزم السلطان فى تلك الليلة على كبس بقيتهم فى الخيم وكتب الى البلد يعرفهم ذلك حتى يخرجوا هم من ذلك الجانب ونحن من هذا الجانب فلم يصل من أهل البلد كتاب فرجع عن ذلك العزم بسبب تأخر الكتاب فلما أصبحوا كف السلطان الناس عن القتال خشية أن يغتالوا فان العدو كان قد قرب من خيمه ووقف الاطلاب فى الجانب الشرقى من النهر يسير قبالة العدو حتى وصل الى مخيمه وكان لهم فيها اطلاب مستريحة فخرجت على البزك الاسلامى وحملت عليهم وانتشب القتال بينهم فقتل من العدو وجرح خلق كثير منهم شخص كبير فيهم مقدم عندهم وكان على حصان عظيم ملبس بالزرد الى حافره وكان عليه لبس لم ير مثله وطلبوه من السلطان بعد انفصال الحرب فدفع اليهم جثته وطلب رأسه فلم يوجد وعاد السلطان الى مخيمه واعيد الثقل الى مكانه وعاد كل قوم الى منزلتهم وكان عماد الدين زنكى غائبا بنفسه مع الثقل لمرض كان به وبقى عسكره فعاد وقد أقلعت حماه وبقى التياث مزاج السلطان وهو كان سبب سلامة هذه الطائفة الخارجة لكونه لم يقدر على مباشرة الامر بنفسه ولقد رأيته رحمه الله وهو يبكى فى حال الحرب كيف لم يقدر على مباشرة القوم ورأيته وهو يأمر أولاده واحدا بعد واحد بصافحة الامر ومخاطبة الحرب ولقد سمعت منه وقائلا يقول ان الوخم قد عظم فى مرج عكا بحيث ان الموت قد كثر فى الطائفتين فأنشد متمثلا

أقتلانى ومالكا ❊ واقتلا مالكا معى

يريد بذلك انى قد رضيت بأن اتلف انا اذا اتلف أعداء الله وحدث بذلك قوة عظيمة فى نفوس العساكر الاسلامية وكان مرض السلطان هو أحد الاسباب الحاملة للفرنج على هذه الحركة منضما الى كثرتهم وشدة الغلاء والجدب عليهم

❊(فصل)❊ فى وقعة الكمين وغيرها ودخول البدل الى عكا قال العماد لما كان يوم الجمعة الثانى والعشرون من شوال انتخب السلطان من اجناده عدة وكثرلهم العدة وأمرهم أن يكمنوا فى سفح تل هوشما لى عكا بعيد من عسكر العدو بقرب المنزلة العادلية القديمة عند الساحل فكمنوا تلك الليلة فلما أصبح الصباح ركب منهم عدة يسيرة وساروا نحو الفرنج وصالوا عليهم وأغاروا فاستقبلهم الفرنج فخرج اليهم زهاء أربعمائة فارس هكذا قال العماد فى البرق وقال فى الفتح مائتا قنطارى وكذا قال ابن شداد مائتا فارس وطمعوا فى المسلمين فتأخروا قدامهم قليلا قليلا حتى أوصلوهم الى الكمين فخرج عليهم أسد العرين وقتلوا وأسروا واستولوا عليهم بأسرهم فلم ينج منهم ناج ووقع فى الاسر مقدمون أكابر منهم خازن الملك وجماعة من الافرنسيسية وركب السلطان فرحا بهذه البشارة ووقف على تل كيسان وقد توافت اليه الاسرى والاسلاب فترك الاسلاب والخيول لآخذيها وكانت مقومة بأموال عظيمة فأعارها طرفا ولا تردد أمره فيها وجلس وأحضر الاسرى وباسطهم وأطعمهم وكساهم وأذن لهم فى ان يسيروا غلمانهم لاحضار ما يريدون احضاره ثم نقلهم الى دمشق للاعتقال وحفظهم بالقيود الثقال قال القاضى ابن شداد ولما هجم الشتاء وهاج البحر وأمن العدو من أن يضرب مصاف وان يبالغ فى طلب البلد وحصاره من شدة الامطار وتواترها أذن السلطان للعساكر فى العود الى بلادها ليأخذوا نصيبا من الراحة فسار عماد الدين صاحب سنجار خامس عشرى شوال وعقيبه ابن أخيه صاحب الجزيرة بعد ان أفيض عليهما من التشريف والانعام والتحف ما لم ينعم به على غيرهما وسار علاء الدين ابن صاحب الموصل فى أول ذى القعدة مشرفا مكرما وسار الظاهر فى المحرم سنة سبع وتقى الدين فى صفر منها ولم يبق عند السلطان الا فريسير من الامراء والحلقة الخاصة قال العماد واشتغل السلطان بادخال البدل الى عكا وحمل المير والذخائر وأخرج من كان بها من الامراء لعظم شكايتهم

من طول المقام بها ومعاناة التعب والسهر وملازمة القتال ليلا ونهارا وكان مقدم البدل الداخل من أمراء سيف الدين المشطوب دخل فى سادس عشر المحرم سنة سبع وفى ذلك اليوم خرج المقدم الذى كان بها وهو الامير حسام الدين أبو الهيجاء وأصحابه ومن كان بها من الامراء ودخل مع المشطوب خلق من الامراء واعيان من الخلق وتقدم الى كل واحد أن يصحب معه ميرة سنة كاملة وانتقل العادل بعسكر الى حيفا على شاطئ النهر وهو الموضع الذى تحمل منه المراكب وتدخل الى البلد واذا خرجت تخرج اليه فأقام ثم بحث الناس على الدخول وتحرس الميرة والذخائر لئلا يتطرق اليها من العدو من يتعرضها وكان مما دخل اليها سبع بطس مملوءة ميرة وذخائر ونفقات كانت وصلت من مصر وكان دخولها يوم الاثنين ثانى ذى الحجة فانكسر منها مركب على الصخر الذى هو قريب الميناء فانقلب كل من فى البلد من المقاتلة الى جانب البحر ليلقى البطس وأخذ ما فيها ولما علم العدو انقلاب المقاتلة الى جانب البحر اجتمعوا فى خلق عظيم وزحفوا على البلد من جانب البرز حفة عظيمة وقاربوا الاسوار وصعدوا فى سلم واحد فاندق بهم السلم كما شاء الله تعالى وأدركهم أهل البلد فقتلوا منهم خلقا عظيما وعادوا خائبين خاسرين وأما البطس فان البحر هاج هيجانا عظيما وضرب بعضها ببعض على الصخر فهلكت وهلك جميع ما كان فيها وهلك فيها خلق عظيم قيل كان عددهم ستين نفرا وكان فيها ميرة عظيمة لو سلمت لكفت البلد سنة كاملة ودخل على المسلمين من ذلك وهن عظيم وحرج السلطان لذلك حرجا شديدا وكان ذلك أول علائم أخذ البلد وقال العماد لما دخل الشتاء وعصفت الاهواء ووقع فى سفن الفرنج الكسر أنفذوها الى الجزائر للاحتياط وخافوا عليها من اختباط البحر وقال فى الفتح نقل الفرنج سفنهم خوفا عليها الى صور فربطوها بها فحلا وجه البحر من مراكبهم وحصل الامن فيه من جانبهم وكان أصحابنا فى البلد قد ملوا فشكوا ضررهم وضجرهم وكانوا زهاء عشرين ألف رجل من أمير ومقدم وجندى واسطولى وبحرى ومتعيش وتاجر وبطال وغلمان ونواب وعمال وقد تعذر عليهم الخروج فرأى السلطان أن يفسح لهم فيه رفقا بهم ورأفة وما أفكر ان فى ذلك مخافة وآفه واشير على السلطان بترتيب البدل وتكفل العادل بذلك وانتقل بخيمه الى سفح جبل حيفا فاقطع النهر وتقدم بجمع السفن للنقل واجتمع المنتقلون بالساحل على الرمل فمن نجز أمره انتقل وكان الرأى ازاحة علة المقيمين فانهم قد جربوا وصبروا وخبروا وهم كنفس واحدة وكانوا فى ثروة وكرم ونخوة وفيهم أبو الهيجاء السمين وله اتباع وأشياع وله فى شرع السماحة اقتداء بالسلطان وأوضاع ولعله أنفق من ماله فى تلك السنة خمسين ألف دينار فلما فسح لهم فى الانتقال لاجل الاستبدال انتشر ذلك الضم وانتشر ذلك النظم ودخل الى عكا من لم يجرب حصارها ولم يخبر منافعها ومضارها وما نبت ممن كان مقيما بها الا الامير بهاء الدين قراقوش ودخل عشرون مقدما وأميرا شبه المكرهين عوض ستين واستخدمت الرجال وأنفقت الاموال وتفاوت الداخلون والخارجون فلا جرم وقع الوهن وقضى الامر وتكفل بالداخلين المشطوب وضاع الزمان وتعذر الامكان بعود مراكب العدو فلم يستتم البلد ما كان يحتاج اليه من الرجال والاموال فان كل من عين للدخول كرهه وصار يتوسل فى ان يعفى ويبذل فى نفسه الفداء ثم لما حقت كلمة الدخول على من تعين له استهلوا زمانا يتهيأون فيه للدخول ولانفاذ قضاء الله تعالى أسباب لابد من وقوعها

﴿فصل﴾ فى باقى حوادث هذه السنة قال العماد وفى ليلة سابع ذى الحجة وقعت قطعة عظيمة من سور عكا فانثلم الثغر وبادر الفرنج اليها فجاء أهل البلد وسدوها بصدورهم وقاتلوا عنها الى ان بنوها وعادت أقوى مما كانت وفى ثانى ذى الحجة هلك ابن ملك الالمان وكند كبير يقال له كندبنياط ومرض الكندهرى وصار يموت من الفرنج كل يوم المائة والمائتان وحزن الفرنج على ابن ملك الالمان حزنا عظيما واشعلوا نيرانا هائلة بحيث لم تبق خيمة الا اشتعل فيها النار ان والثلاثة بحيث بقى عسكرهم كله نارا تقد وحصل للمسلمين غنائم أخر كثيرة فى سرايا سريه وأساطيل بحريه ومن جملة ذلك ملوطه مكللة باللؤلؤ ومنوطه وبازرار الجوهر مربوطه قيل انها من ثياب ملك الالمان وكان قد استأمن من الفرنج خلق عظيم أخرجهم الجوع الينا وقالوا للسلطان نحن نخوض البحر فى براكس ونكسب من العدو ويكون الكسب بيننا وبين المسلمين فأذن لهم فى ذلك وأعطاهم بركوسا وهو المركب الصغير فركبوا فيه وظفروا بمراكب لتجار العدو بضائعهم معظمها فضة مصوغة وغير مصوغه فأسروهم

وكبسوهم وأحضروهم بين يدى السلطان فأعطاهم السلطان جميع ما غنموه قال العماد فلما أكرموا بهذه المكرمه اثنوا على اليد المنعمه وأسلم منهم شطرهم وأحضروا مائدة فضة عظيمة وعليها مكبة عاليه ومعها طبق يماثلها فى الوزن ولو وزنت تلك الفضيات لقاربت قنطارا فما أعارها السلطان طرفه احتقارا قال واستشهد فى عكا سبعة من الامراء منهم الامير سوار والتقى فى هذه السنة شوانى المسلمين بشوانى الفرنج فى البحر فأحرقت للكفر شوانى برجالها وكان عند العود تأخر لنا شيني مقدمه الامير جمال الدين محمد بن اركز فأحاطت به مراكب العدو فتواقع ملاحوه الى الماء وسلموه الى البلاء فقاتل وصبر فعرضوا عليه الامان فقال ما أضع يدى الا فى يد مقدمكم الكبير فلا يخاطر الخطير الامع الخطير فجاء اليه المقدم الكبير وظن انه قد حصل له الاسير فعاقره وعانقه وقوى عليه وما فارقه ووقعا فى البحر وغرقا وترافقا فى الحمام واتفقا وعلى طريق الجنة والنار افترقا واستشهد أيضا الامير نصير الحميدى قال وفى تاسع جمادى الاول قتل القاضى المرتضى بن قريش الكاتب فى خيمته قتله شريك له فى دار بنابلس أراده على بيعها وخرج من خيمته فوجد قاضى نابلس فقتله وضربه وما أمهله ومر لينجو فأدرك وضرب بعمود خيمة فأهلك واستكتب السلطان أخا المستشهد مكانه فلم يبلغ فى الاحسان ميدانه قال وفى هذه السنة ورد كتاب سيف الاسلام أخى السلطان من اليمن يذكر استيلاءه على صنعاء واستنابة ولده شمس الملوك فيها قال ووصل القاضى الفاضل من مصر الى المعسكر المنصور فى ذى الحجة وكان السلطان متشوقا لقدومه وطالت مدة البين لغيبته عنه سنتين على ان أمور الممالك بمصر كانت بحضوره مستقبه وقد جمع الملك العزيز بمقامه هيبة ومحبه وكان السلطان شديد الوثوق بمكانه دائم الاعتماد والاستناد على احسانه والى اركانه فان استقدمه خاف على ما وراءه من المهام وان تركه نال وحشة التفرد بالقضايا والاحكام وكان يكاتبه بشرح الاحوال يستشيره والنجابون مترددون بالمكاتبات والمخاطبات والاستشارة فى المهمات فوصل الى القدس واعتاق بتوالى الامطار ثم وصل فى ذى الحجة ورجع الفضل واجتمع الشمل واستأنس الملك بصاحب تدبيره وتأسس ركنه برأى مشيره قلت وفى جمادى الاولى من هذه السنة توفى بالموصل قاضى الفضاة محيى الدين أبو حامد محمد بن قاضى القضاة كمال الدين بن الشهرزورى وقد أثنى العماد الكاتب عليه فى الخريدة ثناء كثيرا وأنشد له اشعارا حسنة منها فى التوحيد

قامت باثبات الصفات أدلة * قصمت ظهور أئمة التعطيل
وطلائع التنزيه لما أقبلت * هزمت ذوى التشبيه والتمثيل
فالحق ما صرنا اليه جميعنا * بادلة الاخبار والتنزيل
من لم يكن بالشرع مقتديا فقد * ألقاه فرط الجهل فى التضليل

وله فى مدح الصحابة رضى الله عنهم

لا تمش فى هوى الصحا * بة ارجع الى سقر * لا بلغت المنى ولا * نلت من رفضك الوطر
كيف تنهى عن حب اقوا * م هم السمع والبصر * وهم سادة الورى * وهم صفوة البشر
فأبو بكر المقدم من بعده عمر * ثم عثمان بعده * وعلى على الاثر
أيها الرافضى حسبك فالحق قد ظهر

﴿ثم دخلت سنة سبع وثمانين﴾ ففيها وصل الى الفرنج ملك افرنسيس وملك انكلتيرة وغيرهما وأخذت عكا يسر الله فتحها قال العماد والغيم فى هطلانه والبحر فى هيجانه والسلطان مقيم بخيمه على شفر عم ولطف الله به قد خص وعم والعادل مخيم قاطع نهر حيفا على الرمل وسفن البذل الى عكا فى البحر متصلة السبل والفرنج مسمرون على الحصار متحرزون من الاصحار ونوب اليزك راتبه ووظائف الجهاد مواظبه ووصل من الديوان العزيز مثال ومعه مكاتبة للملك الافضل وفيها اكرام واجلال وفضل وافضال وفى ثالث صفر رحل تقى الدين لتسلم البلاد التى أضيفت اليه شرقى الفرات وكان له بالشام المعره وحماه وسلميه وجبله واللاذقيه وبالجزيرة ديار بكر وحران والرها والموزر وسميساط وضياعها وميافارقين وحصونها واعمالها وقلاعها وسار على انه يرجع عن قريب فأبطأ وتشوف الى افتتاح ما يجاوره من البلاد وسار الى ميافارقين فكان السلطان ينسب ما جرى من استيلاء الكفار على

عكا بعد قضاء الله تعالى الى غيبته فانه تأخرت عساكر تلك البلاد الشرقية لخوف مضرته وجور مجاورته وسيأتى ذكر وفاته فى آخر السنه ووصل كتاب المجاهد أسد الدين شيركوه انه أغار على جشير للفرنج بطرابلس فاستاقه ولم يطق الكفار لحاقه واقتطع لخاصته منه أربعمائة رأس تلف فى الطريق منها أربعون وغنم ابقارا وغنما وأنفذ للعماد منها بغلة وذلك رابع صفر وفى ليلة هذا اليوم ألقت الريح مركبا للعدو على الزيب فكسرته وكان فيه خلق عظيم منهم فغرق بعضهم وأسر بعض وفيهم امرأتان سبينا وفى ليلة أول ربيع الاول خرج أصحابنا من البلد وهجموا على العدو وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأخذوا منهم من خيمهم جملة عظيما منهم اثنتا عشرة امرأة وفى ثالث ربيع الاول كان الهزك للحلقة السلطانية وخرج اليهم من العدو خلق وجرى بينهم وقعة شنيعة وقتل فيها من العدو جماعة منهم مقدم كبير ولم يفقد من المسلمين الا خادم رومى صغير عثر به فى الحملة فرسه يسمى قراقوش وكان شجاعا له وقعات وفى تاسع ربيع الاول بلغ السلطان ان العدو يخرج منه طائفة للاحتشاش فأمر العادل أن يكمن بالعسكر خلف التل الذى كانت فيه الوقعة المعروفة به وسار هو فكمن وراء تل العياضية ومعه من أولاده الصغار والعاضى الفاضل وابذر الفرنج فلم يخرج منهم احد ووصل فى اثناء ذلك اليوم خمسة وأربعون اسيرا من الفرنج أخذوا فى بيروت فيهم شيخ كبير هرم لم يبق فى فمه ضرس ولم يبق فيه قوة الا مقدار ما يتحرك فسأله عن مجيئه فقال للحج الى قيامة وبينى وبين بلادى مسيرة أشهر فرق له وأطلقه واعاده الى العدو راكبا على فرس وطلب أولاده الصغار ان يأذن لهم فى قتل اسير فلم يأذن وسئل عن ذلك فقال لئلا يعتادوا من الصغر سفك الدم ويهون عليهم وهم الآن لا يفرقون بين المسلم والكافر ثم لما اقبل الربيع توافت العساكر وفاء بموعدها فوصلت فى شهر ربيع الاول فأول من قدم الامير علم الدين سليمان ابن منذر صاحب قلعتى عزاز وبغراس وهو شيخ له رأى وتجربه ومنزلة كبيرة ومرتبه والملك الامجد صاحب بعلبك وبدر الدين مودود والى دمشق فى رجالهم وابطالهم وفى كل يوم يقدم امير بعد امير والله يتولى التدبير وكان قد شاع الخبر بأن ملوك الفرنج واصلون وهم حاشدون حافلون فوصل ملك افرنسيس فليب فى عدة من عبدة الصليب ثانى عشر ربيع الاول فى ست بطس عظام مملوءة بفوارس ذوى اقدام فقلنا ما حمل الماء الا اهل النار وما أجلب للدوابر الا الدبار وكان عظيما عندهم من كبار ملوكهم ينقادون له بحيث اذا حضر حكم على الجميع ومازالوا يتواعدوننا به حتى قدم وصحبه من بلاده باز عظيم عنده هائل الخلق ابيض اللون نادر الجنس وكان يعزه ويحبه حبا عظيما فطار من يده حتى سقط على سور عكا فاصطاده اصحابنا وأنفذوه الى السلطان وبذل الفرنج فيه ألف دينار فلم يجابوا قال القاضى بن شداد ولقد رأيته وهو يضرب الى البياض مشرق اللون ما رأيت بازيا أحسن منه قال العماد وكان مع هذا الملك باز أشهب كأنه عند ارساله بارتتلهب ففارقه يوم وصوله بحيث عجز عن حصوله وكان فى ظن الفرنج انه يقدم فى جمع جم فلما رأوا جمعه قليلا سقط فى أيديهم فوعدهم بالمدد خلفه قال القاضى وقدم بعده كند فريدوكان مقدما عظيما عندهم مذكورا كان حاصر حماه وحارم عام الرملة وفى ثانى عشر ربيع الآخر وصل كتاب من اللاذقية ان جماعة من المستأمنين نزلوا ناحية من جزيرة قبرس فى عيد لهم وقد اجتمع جمع كبير فى بيعة قريبة من البحر وانهم صلوا معهم صلاة العيد فلما فرغوا من الصلاة ضربوا على كل من كان فى البيعة من الرجال والنساء عن آخرهم حتى القسيس وحملوهم الى مراكبهم وساروا بهم الى اللاذقية وكان فيهم سبع وعشرون امرأة وكانوا قد اغلقوا باب الكنيسة عليهم ليأمنوا قلاتهم وأسروهم باسرهم وكنسوا جميع ما فى الكنيسة من الامتعة والاعلاق النفيسة واقتسموها فوصل الى كل واحد على ما قيل أربعة آلاف درهم من الفضة النقرة كذا فى كتاب القاضى وقال العماد فى الفتح وقيل حصل لكل واحد منهم على كثرتهم أربعمائة درهم وهجم جماعة من العسكرية على غنم العدو فأخذوها وكان عددها مائة وعشرين رأسا وركبوا فى طلبها بأسرهم بخيلهم ورجلهم فى أثرهم فلم يظفروا بطائل ولم يرجعوا بحاصل قال العماد كان عز الدين سامة متولى بيروت ولم يكن لمراكب العدو بد من الجواز بها أو بقربها واذا عبرت أخذت وان كانت مستعدة لحربها فغنم هو ورجاله مغانم خلدت له ادخار الغنى وكثرت فى البحر غزواته ووصل ملك الانكليترة الى قبرس فى السادس والعشرين من ربيع الآخر واشتغل بها عن الوصول الى عكا حتى أخذها عنوة من صاحبها وكانت مقدمات سفنه قد وصلت فاستولى سامة على

خمس منها مملوءة رجالا ونساء وأموالا وخيلا وكان فى الزيب وهو شمالى عكا طائفة من المسلمين يجهزون السفن الداخلة الى عكا ويقطعون الطريق على الفرنج قال القاضى وكان للمسلمين لصوص يدخلون الى خيام العدو فيسرقون منهم حتى الرجال ويخرجون فأخذوا ذات ليلة طفلا رضيعا له ثلاثة أشهر فلما افتقدته أمه باتت مستغيثة بالويل والثبور فى طول تلك الليلة حتى وصل خبرها الى ملوكهم فقالوا لها ان السلطان رحيم القلب وقد أذنا لك فى الخروج اليه فاخرجى واطلبيه منه فانه يردّه عليك فخرجت تستغيث الى البرك الاسلامى واخبرتهم بواقعتها فأطلقوها وأنفذوها الى السلطان فأتته وهو راكب على تل الخروبة وأنا فى خدمته وفى خدمته خلق عظيم فبكت بكاء شديدا ومرغت وجهها فى التراب فسأل عن قصتها فأخبروه فرق لها ودمعت عينه وأمر باحضار الرضيع فحضروا ووجدوه قد بيع فى السوق فأمر بدفع ثمنه الى المشترى وأخذه منه ولم يزل واقفا رحمة الله عليه حتى أحضر الطفل وسلم اليها فأخذته وبكت بكاء شديدا وضمته الى صدرها والناس ينظرون اليها ويبكون وانا واقف فى جملتهم فأرضعته ساعة ثم أمر بها فحملت على فرس وألحقت بعسكرهم مع طفلها قال فانظر الى هذه الرحمة الشاملة لجنس الانس اللهم انك خلقته رحيما فارحمه رحمة واسعة آمين قال وفى ذلك اليوم وصل ظهير الدين ابن البكتمرى وكان مقدما من أمراء الموصل وصل مغارفا لهم طالبا خدمة السلطان

(فصل) فى مضايقة العدو خذله الله لعكا يسر الله فتحها واستيلائهم عليها قال العماد لما كان يوم الخميس رابع جمادى الاولى زحف الفرنج الى عكا ونصبوا عليها سبعة مجانيق ووصلت كتب من عكا الى السلطان بالاستنفار العظيم والتماس شغل العدو عنهم فركب السلطان بعسكره وكان هذا دأبه معهم كلما نابوا البلد نابهم فاذا زحف اليهم رجعوا عن الحصر واذا رجع عنهم عاودوه وكان علامة يمين السلطان وأهل البلد انه متى زحف الفرنج عليهم دقوا كؤسهم فتدق كؤس السلطان اجابة لهم واستبعد السلطان منزلته فتحوّل الى تل العياضية تاسع جمادى الاولى ووصل ملك الانكلتيرة فى عشر جمادى الاولى من قبرس ومعه خمس وعشرون قطعة وهو فى جمع شاك وجمر ذاك فبلى الثغر منه بغير البلاء الاوّل هذا ومجانيق الكفر على الوغى مقيمه وللرمى مديمه وتمكن الفرنج بها من الخندق فدنوا منه دنوا لمحنق وشرعوا فى هجمه واسرعوا الى طمه ودأموا يرمون فيه جثث الاموات وجيف الخنازير والدواب النافقات حتى صاروا يلقون فيه قتلاهم ويحملون اليه موتاهم وأصحابنا فى مقابلتهم ومقاتلتهم قد انقسموا فرقتين وافترقوا قسمين ففريق ينقى الخندق وما ألقى فيه وفريق يقارع العدو ويلاقيه قال القاضى ولقد بلغ من مضايقتهم البلد ومبالغتهم فى طم خندقه انهم كانوا يلقون فيه موتى دوابهم وكانوا اذا جرح منهم واحد جراحة مثخنة ميئسة القوه فيه وانقسم أهل البلد اقساما قسم ينزلون الى الخندق ويقطعون الموتى والدواب التى يلقونها فيه قطعا ليسهل نقلها وقسم ينقلون ما يقطعه ذلك القسم لا يلقوه فى البحر وقسم يذبون عنهم ويدافعون حتى يتمكنوا من ذلك وقسم فى المنجنيقات وحراسة الاسوار وأخذ منهم التعب والنصب وتواترت شكايتهم من ذلك قال وهذا ابتلاء لم يبتل به أحد ولا يصبر عليه جلد هذا والسلطان رحمه الله ويقطع الزحف عنهم والمضايقة لهم على خنادقهم بنفسه وخواصه وأولاده ليلا ونهارا حتى يشغلهم عن البلد وصوّبوا منجنيقاتهم الى برج عين البقر وتواترت عليه أحجار المنجنيقات ليلا ونهارا حتى أثرت فيه الاثر البين وكلما ازدادوا فى قتال البلد ازداد السلطان فى قتالهم وكبس خنادقهم والهجوم عليهم ودام ذلك حتى وصل ملك الانكلتيرة قال وفى سادس عشر جمادى وصلت بطسة من بيروت عظيمة هائلة مشحونة بالآلات والمير والرجال والابطال المقاتلة وكان السلطان قد أمر بتعبيتها فى بيروت وتسييرها ووضع فيها من المقاتلة خلقا عظيما حتى تدخل الى البلد مرغمة للعدو وكان عدة رجالها المقاتلة ستمائة وخمسين رجلا فاعترضها ملك الانكلتيرة الملعون فى عدة شوانى قيل انها كانت أربعين قطعة فاحتاطوا بها من جميع جوانبها واشتدوا فى قتالها وجرى القضاء بأن وقف الهواء فقاتلوها قتالا شديدا وقتل من العدو عليها خلق عظيم وأحرفوا على العدو ثانيا كبيرا فيه خلق كثير فهلكوا عن آخرهم وتكاثروا على أهل البطسة وكان مقدّمهم رجلا جيدا شجاعا مجربا فى الحرب اسمه يعقوب من أهل حلب فلما رأى امارات الغلبة عليهم قال والله لا نقتل الا عن عز ولا نسلم اليهم من هذه البطسة شيئا فوقعوا فى البطسة من جوانبها بالمعاول يهدمونها حتى فتحوها من جانب أبوابا فامتلأت ماء وغرق جميع من فيها

وما

وما فيها من الآلات والمير ولم يظفر العدو منها بشئ اصلا وتلقف العدو بعض من كان فيها وأخذوه الى الشوانى من البحر وخلصوه من الغرق ومثلوا به وأنفذوه الى البلد ليخبرهم بالواقعة وحزن الناس لذلك حزنا شديدا والسلطان يتلقى ذلك بيد الاحتساب فى سبيل الله تعالى والصبر على بلائه قال وكان العدو المخذول قد صنع دبابة عظيمة هائلة أربع طبقات الاولى من الخشب والثانية من الرصاص والثالثة من الحديد والرابعة من النحاس وكانت تعلو على السور ويركب فيها المقاتلة وخاف أهل البلد منها خوفا عظيما واحدقت بهم نفوسهم بطلب الامان من العدو وكانوا قد قربوها من السور بحيث لم يبق بينها وبين السور الا مقدار خمس أذرع على ما نشاهد وأخذ أهل البلد فى تواتر ضربها بالنفط ليلا ونهارا حتى قدر الله تعالى حريقها واشتعال النار فيها وظهر لها ذؤابة نار تحو السماء واشتدت الاصوات بالتكبير والتهليل ورأى الناس ذلك جبرا لذلك الوهن ومحوا لذلك الاثر ونعمة بعد نقمة وايناسا بعد باس وكان ذلك فى يوم غرق البطسة قال العماد فكان ذلك تسميتا لتلك العطسة ثم جرى بعد ذلك عدة وقعات فى هذا الشهر وهو جمادى الاولى وهجم المسلمون خيم العدو ونهبوها ووصل رجل كبير من أهل مازندران يريد الغزاة فوصل والحرب قائمة فحمل حملة استشهد فيها فى تلك الساعة ولم تزل الاخبار تواصل من أهل البلد باستحكام أمر العدو والشكوى من ملازمتهم قتالهم ليلا ونهارا وذكر ما يلاقيهم من النصب العظيم من تواتر الاعمال المختلفة عليهم من حين قدوم الانكلتيرى الملعون ثم مرض مرضا شديدا اشفى فيه على الهلاك وجرح الافرنسيس ولا يزيدهم ذلك الا أصرارا وعتوا وهرب الى السلطان خادمان ذكرا انهما الاخت ملك الانكلتيرة وانهما كانا يكتمان ايمانهما وعملهما السلطان وأكرمهما وهرب أيضا الاركيس منهم الى صور وكان قد استشعر منهم أن يخرجوا ملكها عن يده قال العماد فى البرق ولما أعوزت الفرنج الحيل وأعجزتهم تفاصيل تدابيرهم والحيل وذلك ان ابرجتهم الخشبية احرقت وستائرهم ودباباتهم وكباشهم وزعت ومزقت أقاموا قدام خيامهم صوب عكا تلا من التراب مستطيلا ورفعوه كثيبا مهيلا ثم نقلوه وحولوه وكانوا يقفون وراءه ويحولون الى قدامه ترابه ويقربون الى قرب البلد فرأيته فهم من خلفه من النكايات محجوبون يسبون ويذبون ويديرون الحرب الزبون والتل المتحول الى البلد قد أعيا على أهل الجلد لا تعمل فيه النار ولا يصل الى دفعه الاقتدار حتى صار من المدينة على نصف غلوة سهم ورمى بكل جمرة ورجم فما يزيد فى كل يوم الا قربا وما يجر فى كل وقت الا خطبا وحربا وكان الاصحاب يخرجون من البلد اليه ويقاتلون عليه ويطيفون بحول الله حواليه ومن كتاب فاضلى الى الديوان (ما قطع الخادم الخدم الا انه فداضحوا واسأم من المطالعة بخبر هذا العدو الذى قد استحال أمره واستشرى شره فان الناس ما سمعوا ولا رأوا عدوا حاضرا محصورا عامرا مغمورا قد تحصن بخنادق يمنع الجائز من الجواز ويعوق الغرض عن الانتهاز ولا تقصر عدتهم عن خمسة آلاف فارس ومائة ألف راجل وقد أفناهم القتل والاسر واكلتهم الحرب ولقمهم النصر وقد أمدهم البحر بالجحافل وأعان أهل النار واجتمع فى هذه الجموع من الجيوش الغريبة والالسنة الاعجمية من لا يحصر معدوده ولا يصور فى الدنيا وجوده فما أحقهم بقول أبى الطيب

تجمع فيه كل لسن وأمة ❊ فما يفهم التحديث الا التراجم

حتى انه اذا أمر الاسير واستأمن المستأمن احتيج فى فهم لغته الى عدة تراجم ينقل واحد عن آخر ويعول ثان ما يقول أول وثالث ما يقول ثان والاصحاب كارون ملوا وصبروا الى ان ضجروا وتجلدوا الى ان تبلدوا والعساكر التى تصل من المكان البعيد لا تصل الا وقد كل ظهرها وقل وفرها وضاق بالبيكار صدرها ولا تستفتح الا بطلب الدستور ويصير ضجرها مضرا بالسمعة عند العدو المخذول ولهم قاتلهم الله تنوع فى المكائد فانهم قاتلوا مرة بالابرجة وأخرى بالمنجنيقات ورادفة بالدبابات ومابعة بالكباش وآونة باللوالب ويوما بالنقب وليلا بالسرابات وطورا بظم الخنادق وآنا بنصب السلالم ودفعة بالزحوف فى الليل والنهار ومعالقة فى البحر بالمراكب ثم شرعوا فأقاموا فى وسط خيامهم حائطا مستطيلا يشبه السور من التراب ونلا لا تشبه الابرجة مدورة ورفعوها بالاخشاب وعالوها بالحجارة فلما كملت اخذوا التراب من ورائها ورموه قدامها وهم يتقدمون أول أول وترتفع حالا بعد حال حتى صارت منه كنصف غلوة سهم وقد كان الحجر والنار تؤثران فى أبرجة الخشب وهذه ابراج وستائر للرجال والمنجنيقات

من العطب لاتؤثر فيها الحجارة الراميه ولا تعمل فيها النار الحاميه) قال ووصل فى آخر جمادى الاولى من العساكر الاسلامية مجاهد الدين برتقش ومعه عسكر سنجار وفى ثانى جمادى الآخرة ابن صاحب الموصل وجماعة من أمراء مصر والقاهرة كعلم الدين كرجى وسيف الدين سنقر الدووى وغيرهما من الاسدية والناصريه وأما عساكر ديار بكر فانهم تأخروا واعتذروا بالخوف من جوار تقى الدين وكان قد تعرض للسويد اوغيرها وصعب ذلك على السلطان وقال هذا من عمل الشيطان وفى مثل هذا الوقت يتعرض لهذا المقت وانى أخاف عليه فى هذه السنه حيث أساء عند امكان الحسنه واشتد مرض الانكليزى بحيث شغل الافرنج بمرضه عن الزحف وكان ذلك خيرة من الله عظيمة فان البلد كان قد ضعف من فيه ضعفا عظيما وهدمت المنجنيقات من السور مقدار قامة الرجل فكان فى هذه الفترة للبلد بقاء رمق وزوال فرق وانتعاش عثره وانجبار كسره قال القاضى واللصوص يدخلون عليهم الى خيامهم ويسرقون أقمشتهم ونفوسهم و يأخذون الرجال فى عافية بأن يجثوا الى الواحد وهو نائم فيضعوا على حلقه السكين ويوقظونه ويقولون له بالاشارة ان تكلمت ذبحناك ويحملونه ويخرجون به الى عسكر المسلمين وجرى ذلك مرارا كثيرة ثم تكررت الرسائل من الفرنج الى السلطان شغلا للوقت بالاطائل تحته منها ان ملك الانكليزية طلب الاجتماع به ثم فتر بعده أياما ثم جاء رسوله يطلب الاستئذان فى اهداء جوارح جاءت من البحر ويذكر انها قد ضعفت وتغيرت وطلب أن يحمل لها دجاج وطير تأكله لتقوى ثم تهدى ففهم انه يحتاج الى ذلك لنفسه لانه حديث عهد بمرض ثم نفذ أسيرا مغربيا عنده فأطلقه السلطان ثم أرسل فى طلب فاكهة وثلج فأرسل اليه ذلك وكان غرضهم من ذلك تقتير العزمات وتضييع الاوقات على المسلمين وهم مشتغلون بالحصر ومواصلة الرمى والجد فى الزحف حتى تبدلت قوة البلد بالضعف وتخلخل السور وانهك التعب والسهر أهل البلد لقلة عددهم وكثرة الاعمال عليهم حتى ان جماعة منهم بقوا ليالى عدة لا ينامون أصلا ليلا ولا نهارا والعدو عدد كثير يتناوبون على قتالهم واشتد ذلك عليهم سابع جمادى الآخرة فركب السلطان بالعسكر الاسلامى ورغبهم ونخاهم وزحف على خنادق القوم حتى دخل فيها العسكر وجرى قتال عظيم وهو كالوالدة الثكلى يحرك فرسه من طلب الى طلب ويحث الناس على الجهاد وينادى بنفسه يالالاسلام وعيناه قد فارت بالدمع وكلما نظر الى عكا وما حل بها من البلاء وما يجرى على من بها من المصاب العظيم اشتد فى الزحف والحث على القتال ولم يطعم فى ذلك اليوم طعاما البتة وانما شرب شيأ أشار به الطبيب ولما هجم الليل عاد الى الخيم وقد أخذ منه التعب والكآبة والحزن ثم ركب سحرا وصبحوا على ما أمسوا عليه وفى ذلك اليوم وصلت مطالعة من البلد يقولون فيها انا قد بلغنا العجز الى غاية ما بعدها الا التسليم ونحن فى الغد ان لم تعملوا معنا شيأ نطلب الامان ونسلم ونشترى محررقابنا وكان هذا أعظم خبر ورد على المسلمين وأنكاه فى قلوبهم فان عكا كانت قد احتوت على جميع سلاح الساحل والقدس و مشق وحلب ومصر أيضا فرأى السلطان مهاجمة العدو فلم يساعده العسكر فان الرجالة من الفرنج وقفوا كالسور المحكم البناء بالسلاح والزرد والنشاب من وراء أسوارهم وهجم عليهم بعض الناس من بعض اطرافهم فمنعوا وذبوا غاية الذب وحكى بعض من دخل عليهم أسوارهم انه كان هنالك واحد من الفرنج صعد سور خندقهم وجماعة يناولونه الحجارة وهو يرميها على المسلمين ووقع فيه زهاء خمسين سهما وحجرا وهو يتلقاها ولم يمنعه ذلك عما هو بصدده من الدب حتى ضربه زراق بنفط فاحرقه ورؤيت امرأة عليها ملوطة خضراء فما زالت ترمى بقوس من خشب حتى جرحت جماعة ثم قتلت وحملت الى السلطان فعجب من ذلك ولم يزل الحرب الى الليل وضعفت نفوس أهل البلد وتمكن العدو من الخنادق فملؤوها ونقبوا سور البلد وحشوه وأحرقوه فوقعت بدنة من الباشورة ودخل العدو اليها وقتل منهم فيها زهاء مائه وخمسين نفسا وكان منهم ستة أنفس من كبارهم فقال لهم واحد منهم لا تقتلونى حتى أرحل الفرنج عنكم بالكلية فبادر رجل من الاكراد وقتله وقتل الخمسة الباقية وفى الغد بادا هم الفرنج احفظوا الستة فانا نطلقكم كلكم بهم فقالوا انا قد قتلناهم فحزن الفرنج وبطلوا عن الزحف ثلاثة أيام وخرج سيف الدين المشطوب بنفسه بأمان الى ملك الافرنسيس وهو كان مقدم الجماعة فى الرتبة وقال له انا قد أخذنا منكم بلادا عدة وكنا نهدم البلد وندخل فيه ومع هذا اذا سألونا الامان أعطيناهم وحملناهم الى مأمنهم وأكرمناهم ونحن نسلم البلد وتعطيناه الامان على أنفسنا فقال أرى فيكم رأيى فأغلظ له

المشطوب القول وانصرف عنه ولما دخل المشطوب بهذا الخبر خاف جماعة ممن كان فى البلد فأخذوا لهم ركوبا وهو مركب صغير وركبوا فيه ليلا خارجين الى العسكر الاسلامى منهم عز الدين ارسل وحسام الدين تمرتاش بن الجاولى وسنقر الوشاقى وهو من الاسدية الاكابر وذلك فى ليلة الخميس تاسع جمادى الآخرة فلما ارسل وسنقر فتغيبا خوفا من السلطان وأما ابن الجاولى فظفر به ورمى فى الزردخانات وكان شابا أول ما توفى والده فاقطع السلطان اقطاعاتهم وقطعها وحبس عنهم عند الرضا بعد مدة مديدة بشاشة وجهها ومنعها وكان من جملة الهاربين عبد القاهر الحلبى نقيب الجاندارية الناصرية فشفع فيه على انه يضمن على نفسه العودة فعاد من ليلته ووقع بعد ذلك فى الاسار واستفكه السلطان بعد سنة بثمانى مائة دينار ومن كتاب الى صاحب اربل مظفر الدين (لما علمنا أصحابنا بالبلد ما هم عليه من الخطر وانهم قد أشفوا على الغرر فر جماعة من الامراء ممن قل بالله وثوقه وأعمى قلبه فجوره وفسوقه ولقد خانوا المسلمين فى ثغرهم وباؤا بوبال غدرهم وما قوى طمع العدو فى البلد الا هربهم وما أرهب قلوب الباقين من مقاتلتهم الا رهبهم والمقيمين من أصحابنا الكرام قد استحلوا مر الحمام وأجمعوا انهم لا يسلمون حتى يقتلوا من الاعداء أضعاف اعدادهم وانهم يبذلون فى صون ثغرهم غاية اجتهادهم وكانوا تحدثوا مع الفرنج فى التسليم فاشتطوا واشترطوا فصبروا بعد ذلك وصابروا ومدوا أيديهم فى القوم وبسطوا فتارة يخرجونهم من الباشورة وتارة من النقوب والله تعالى يسهل تنفيس ما هم فيه من الكروب) قال القاضى وفى سحرة تلك الليلة ركب السلطان مشعرا انه يريد كبس القوم ومعه المساحى وآلات طم الخنادق فساعده العسكر على ذلك وتخاذلوا وقالوا نخاطر بالاسلام كله وفى ذلك اليوم خرج من عند ملك الانكتيرة رسل ثلاثة طلبوا فاكهة وثلجا وذكروا ان مقدم الاسبتارية يخرج فى الغد يعنى يوم الجمعة يتحدث ويتحدثون معه فى معنى الصلح فأكرمهم السلطان ودخلوا سوق العسكر وتفرجوا فيه وعادوا تلك الليلة الى عسكرهم وفى ذلك اليوم تقدم الى قايماز النجمى حتى يدخل هو وأصحابه الى أسوارهم عليهم وترجل جماعة من أمراء الاكراد كالجناح وأصحابه وهو أخو المشطوب ولعيفهم وزحفوا حتى بلغوا أسوار الفرنج ونصب قايماز علمه بنفسه على سورهم وقاتل عن العلم قطعة من النهار وفى ذلك اليوم وصل عز الدين جرديك النورى وسوق الزحف طائفة فترجل هو وجماعته وقاتل قتالا شديدا واجتهد الناس فى ذلك اليوم اجتهادا عظيما قال العماد وبات العسكر تلك الليلة على الخيل تحت الحديد منتظرا لنجح الامل البعيد ولما عرف السلطان انه لا سلامه وان عكا عدمت الاستقامه نفذ الى جماعة عكاسرا وقال لهم خذوا من العدو حذرا واتفقوا واخرجوا ليلا من البلد يدا واحدة وسيروا الى جانب البحر وصادموا العدو بالقهر وخلوا البلد بما فيه وأتركوه بما يحويه فشرعوا فى ذلك واشتغل كل منهم باستصحاب ما يملكه ولم يعلم ان التهاءه به يهلكه فما تمكنوا من المراد حتى اسفر الصباح ولم يصح ذلك فى الليلة الثانيه لمصير السر الى العلانيه قال ولو صح ذلك لنجح المقصد لكن الفرنج اطلعوا على هذا السر فحرسوا الجوانب والابواب وكان سبب علمهم اثنين من غلمان الهاربين خرجا الى الملاعين وأخبراهم بجلية الحال وعزيمة الرجال قال وخرج يوم الجمعة العاشر من الشهر جماعة من رسل الفرنج ونحن على الحرب ومحاولة الطعن والضرب وفيهم صاحب صيدا فطلب نجيب الدين العدل وكان السلطان يقذف به فى رسالات الفرنج وتردد العدل مرارا فى الخطاب والجواب فلم ينفصل الامر على الصواب وبذلنا لهم عكا على ما فيها دون من فيها وانا نطلق لهم أسرى بعدد العدة التى يحويها فابوا غير الاشتطاط فزدناهم صليب الصلبوت فلم يحصل لهم به كمال الاغتباط هكذا قال فى البرق وقال فى الفتح ان ذلك كان يوم السبت وقال اشترطوا اعادة جميع البلاد واطلاق اسارا هم من الاقياد وضعف البلد وعجز من فيه ضعفا لا يمكن تلافيه ووقف كرام أصحابنا وسدوا الثغر بصدورهم وشرعوا فى بناء سور يقتطع جانبا حتى ينتقلوا اليه اذا شاهدوا العدو غالبا وكذا قال ابن شداد ان ذلك كان يوم السبت الحادى عشر وقال لبست الفرنج بأسرها لباس الحرب وتحركوا حركة عظيمة بحيث اعتقد ان رعما كان مصافا واصطفوا وخرج من الباب الذى تحت القبة زهاء أربعين نفسا واستدعوا جماعة من المماليك وطلبوا منهم العدل الزائدى وذكروا انه يعنى الخارج صاحب صيدا طيق السلطان فذكر نحو ما تقدم قال وتصرم نهار السبت ولم ينفصل أمر قال ولما كان يوم الاحد ثانى عشر الشهر وصل من البلد كتب يقول فيها انا قد تبايعنا على الموت فايا كم ان تخضعوا

لهذا العدو وتليينوا له فأما نحن فقد فات أمرنا وذكر العوام الواصل بهذه الكتب انه وقع في الليل صوت انزعج منه الطائفتان وظن الفرنج ان عسكرا عظيما قد عبر الى عكا وسلم وصار فيها وانه دفع كيد العدو في تلك الايام بعد ان كان قد أشفى البلد على الاخذ ووصل من عساكر الاسلام صاحب شيزر سابق الدين وبدر الدين دلدرم ومعه تركمان كثير كان السلطان انفذ اليهم ذهبا أنفقه فيهم وصاحب حمص واشتد ضعف البلد وكثرت ثغور سوره فبنوا عوض الثلمة سورا من داخلها حتى اذا تم اهدامها قاتلوا عليه وثبت الفرنج على انهم لا يصالحون ولا يعطون الذين في البلد أمانا حتى تطلق جميع الاسرى الذين في أيدي المسلمين وتعاد البلاد الساحلية اليهم وفي يوم الجمعة سابع عشر الشهر خرج العوام وفي كتبه ان أهل البلد ضاق بهم الامر وتيقنوا انه متى أخذ البلد عنوة ضربت رقابهم عن آخرهم وأخذ جميع ما فيه من العدد والاسلحة والمراكب وغير ذلك فصالحوهم على انهم يسلمون اليهم البلد وجميع ما فيه من الآلات والعدد والمراكب ومائتي ألف دينار وألفا وخمسمائة أسير مجاهيل الاحوال ومائة أسير معينين من جانبهم يختارونهم وصليب الصلبوت على انهم يخرجون بأنفسهم سالمين وما معهم من الاموال والاقمشة المختصة بهم وذراريهم ونساؤهم وضمنوا للمركيس الملعون فانه كان قد استرضى وعاد عشرة آلاف دينار لانه كان واسطة ولاصحابه اربعة آلاف دينار واستقرت القاعدة على ذلك بينهم وبين الفرنج ولما وقف السلطان على ذلك أنكره وأعظمه وعزم على ان يكتب اليهم في انكار ذلك عليهم فهو في مثل هذه الحال وقد جمع أمراءه وأصحاب مشورته فما أحس المسلمون الا وقد ارتفعت أعلام الكفر وصلبانه وشعاره وناره على أسوار البلد وذلك ظهيرة نهار الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة وصاح الفرنج صيحة واحدة وعظمت المصيبة على المسلمين واشتد حزن الموحدين وانحصر كلام العقلاء من الناس في انا لله وانا اليه راجعون وغشي الناس بهتة عظيمة وحيرة شديدة ووقع في العسكر الصياح والعويل والبكاء والنحيب وكان لكل قلب حظ في ذلك على قدر ايمانه ولكل انسان نصيب من هذا الحظ على مقدار دينه وتخوته واقشعت الحال على ان المركيس لعنه الله دخل البلد ومعه أربعة أعلام للملوك فنصب علما على القلعة وعلما على مئذنة الجامع في يوم الجمعة وعلما على برج الداوية وعلما على برج القتال عوضا عن علم الاسلام وحيز المسلمون الى بعض أطراف البلد وجرى على أهل الاسلام المشاهدين لتلك الحال ما كنز التعجب من الحياة معه قال ومملت بخدمة السلطان رحمه الله عشية ذلك اليوم وهو أشد حالة من الوالدة الثكلى والوالهة الحيرى فسليته بما تيسر من التسلية واذكرته الفكر فيما قد استقبله من الامر في معنى البلاد الساحلية والقدس الشريف وكيفية الحال في ذلك وأعمال الفكر في خلاص المسلمين المأسورين في البلد وانفصل الحال على ان رأى التأخر عن تلك المنزلة مصلحة فانه لم يبق غرض في المضايقة فتقدم بنقل الاثقال ليلا الى المنزلة التي كان عليها أولا بشفرعم وأقام هو وجريدة مكانه لينظر ماذا يكون من أمر العدو وحال أهل البلد فانتقل الناس في تلك الليلة الى الصباح واشتغل العدو بالاستيلاء على البلد وأقام السلطان الى التاسع عشر ثم انتقل الى النقل ووصل تلا نه نفر ومعهم اقوش حاجب بهاء الدين قراقوش وكان لسانه فانه كان رجلا عاقلا مستجزين ما وقع عليه عقد الصلح من المال والاسرى فأقاموا ليلة مكرمين وساروا الى دمشق يبصرون الاسارى قال العماد وخرج سيف الدين المشطوب وحسام الدين حسن بن باريك وأخذا أمان الفرنج يعني على القطيعة المقدم ذكرها قال ولم تسعر الابالرايات الفرنجية على عكا مركوزة واعطاف أعلامها مهزوزة وعم البلاء وتم العناء وعز العزاء وفقط الرجاء وحضرنا عند السلطان وهو مغتم وبالتدبير للمستقبل مهتم فعزيناه وسليناه وقلنا هذه بلدة مما فتحه الله قد استعادها اعداه وقلت له ان ذهبت مدينة فاذهب الدين ولا ضعف في نصر الله اليقين قال ودخلوا عكا وتسلموها ولم يقفوا على الشرائط التي أحكموها فانهم منعوا أصحابنا من الخروج واحتاطوا عليهم وعلى أموالهم بحبسهم واعتقالهم ثم طلبوا المال لجمعه السلطان وكله وأودعه خزانته بعد ما حصله وأحضر صليبهم المطلوب المسلوب وأتم شرطهم المخطوب فظهرت امارات غدرهم وبدت دلائل مكرهم وفي كتاب كتبه الفاضل عن السلطان الى شمس الدولة بن منقذ وهو بالمغرب في الرسالة (لقد تجاوزت عدة من قتل على عكا يعني من الفرنج الخمسين ألفا قولا لا يطرقه التسمح بل يحرزه التصفح فانبروا في هذه السنة ملكا افرنسيس وانكلتيرة وملوك آخرون في مراكب

بحرية وحماله حملوا فيها الخيول والخياله والمقاتلة والآله ووصلت كل سفينه تحمل كل مدينه وأحدقت بالثغر فمنعت الناقل بالسلاح اليه والداخل بالميرة عليه) ثم قال (وأخذ البلد على سلم كالحرب ودخله العدو ولو لم يدخل من الباب دخل من النقب وماوهنا لما أصابنا فى سبيل الله وما ضعفنا ولا رجعنا وراءنا ولا انصرفنا بل نحن بمكاننا ننتظر ان يبرزوا فنبارزهم ويخرجوا فنناجزهم وينشروا فنطويهم وينبثوا فنزويهم وأقمنا على طرقهم وخيمنا على مخنقهم وأخذنا باطراف خندقهم وأحوج ما كنا الى النجدة البحريه والاساطيل المغربيه فان عاريتنا به ترد وعاديتنا بها تشتد والامير يبلغ ما بلغه من خطب الاسلام وخطوبه ويقوم فى البلاغ يوم الجمعة مقام خطيبه ويجعل العودة وقيلها الاجابه ويستصحب السهم ويسبق بيشرى الاصابه ويشعر ان الراية قد رفعت لنصر تقدم به عرابه فان للاسلام نظرات الى الافق الغربى يقلبها وخطرات من اللطف الخفى يقربها ويكفى من حسن الظن انها نظرة ردت الهواء الشرقى غربا وخطرة أوهمت ان تلك الهمة لو تمت بالسفائن لاخذت كل سفينة غصبا) قال العماد وعزم ملك الافرنسيس على المسير الى بلاده لامر اختل عليه فأخذ قسما من الاسارى وسلمهم الى المركيس ووكله فى قبض نصيبه ورضى بتدبيره وترتيبه وخرج الفرنج يوم الخميس انسلاخ الشهر من جانب البحر وانتشروا بالمرج ووصلوا الى الآبار التى حفرها اليزك وتواقعوا مع اليزك وامدهم السلطان فقلوا العدو وصرع منهم خمسون فارسا قال القاضى وخرج خلق عظيم ولم يزل السيف فيهم حتى دخلوا خنادقهم قال ولم تزل الرسل تتردد بين الطائفتين حتى كان يوم الجمعة تاسع رجب فخرج حسام الدين حسين بن تاريك المهرانى ومعه اثنان من أصحاب الانكتيرى فأخبر ان ملك الافرنسيس صار الى صور وذكروا أشياء من تحرير أمر الاسارى وطلبوا ان يشاهدوا صليب الصلبوت وانه هل هو فى العسكر أو حمل الى بغداد فأحضر صليب الصلبوت وشاهدوه وعظموه ورموا نفوسهم الى الارض ومرغوا وجوههم على التراب وخضعوا خضوعا عظيما لم ير مثله وذكروا ان الملوك قد أجابوا السلطان الى ان يكون ما وقع عليه القرار بدفع فى ترم ثلاثة أى نجوم كل ترم شهر ولم تزل الرسل تتواتر فى تحرير القاعدة وتحبيرها حتى حصل لهم ما التمسوه من الاسارى والمال المختص بذلك الترم وهو الصليب ومائة ألف دينار وستمائة أسير وأنفذوا نقباءهم وشاهدوا الجميع ما عدا الاسارى المعينين من جانبهم فانهم لم يكونوا فرغوا من تعيينهم ولم يكملوهم حتى يحصلوا ولم يزالوا يطاولون ويقصون الزمان حتى انقضى الترم الاول فى ثامن عشر رجب ثم أنفذوا فى ذلك اليوم يطلبون ذلك فقال لهم السلطان اما ان تنفذوا الينا أصحابنا وتتسلموا الذى عين لكم فى هذا الترم ونعطيكم رهائن على الباقى يصل اليكم فى ترومكم الباقيه واما ان تعطونا رهائن على ما نسلمه اليكم حتى تخرجوا الينا أصحابنا فقالوا لا نفعل شيئا من ذلك بل تسلمون ما نقبضه بهذا الترم وتقنعون بأمانتنا حتى نسلم اليكم أصحابكم فأبى السلطان ذلك لعلمه انهم ان تسلموا المال والصليب والاسرى وأصحابنا عندهم لا يؤمن غدرهم فلما رأوه قد امتنع من ذلك اخرجوا خيامهم الى ظاهر خنادقهم مبرزين فى الحادى والعشرين الانكتيرى وجماعة من الخيالة والرجالة والتركيل وركبوا فى وقت العصر السابع والعشرين من رجب وساروا حتى أتوا الى الآبار التى تحت تل العياضية ثم أحضروا من الاسارى المسلمين من كتب الله شهادته وكانوا زهاء ثلاثة آلاف مسلم فى الحبال ووقفوهم وحملوا عليهم حملة الرجل الواحد فقتلوهم صبرا طعنا وضربا بالسيف رحمة الله عليهم واليزك الاسلامى يشاهدهم ولا يعلم ما دا يصنعون لبعده عنهم وكان اليزك قد أنفذ الى السلطان واعلمه بركوب القوم ووقوفهم فأنفذ الى اليزك من قواه وبعد ان فرغوا منهم حمل المسلمون عليهم وجرت بينهم حرب عظيمة جرى فيها قتل وجرح من الجانبين ودام القتال الى ان فصل الليل بين الطائفتين وأصبح المسلمون يكشفون الحال فوجدوا المسلمين الشهداء فى مصارعهم وعرفوا من عرفوا منهم وغشى المسلمين بذلك حزن عظيم ولم يبق وا من المسلمين الا رجلا معروفا مقدما أو قويا أعد للعمل فى عمائرهم قال العماد وطلب السلطان منهم ان يضمنهم الداوية فى قبض المال فقال الداوية ما ندخل فى الضمان فاقنعوا منهم بالقول والامان فظهر من هوى كلامهم الخلف ثم ذكر قتل الاسارى قال فشاهدناهم مستشهدين بالعراء عرايا مجردين ولا شك ان الله كساهم من سندس النعيم ونقلهم الى دار المقامة فى العز المقيم وتصرف السلطان حينئذ فى المال وفرق مجموعه فى رجاء الرجال وأعاد الاسارى الى أربابها واحتوت عليها بدمشق أيدى أصحابها وحفظ الصليب السليب ورده الى مكانه وأعاد

الى صوانه لا لعزه بل لهوانه فانه لا مصاب عندهم أعظم من استيلائنا عليه وامتداد أيدينا اليه وقد بذل فيه الروم ثم الكرج بذولا وأنفذوا بعد رسول رسولا فما وجدوا قبولا ولا صادفوا سولا ومن كتاب عمادى عن السلطان فى ذلك (وللكرام آجال والحرب سجال ولله من المؤمنين رجال والآن فقد ثارت الحميات وهبت النخوات ووجب على كل مسلم ان ينهض لنصرة الاسلام ويتدارك ما حدث من الكسر والوهن بالجبر والاحكام ويعيد ما وهى من عقد الفتوح الى النظام فأين ذوو الانفة والحمية والهمم العلية والنفوس الابية أما يغتمون لمصرع من استشهد من اخوانهم أما يثورون لثارات ايمانهم أما تبكى العيون لمن قتل من أماثلهم وأعيانهم فان مصابهم عظم ومقامهم عند ربهم الكريم كريم وأراد الله بذلك تنبيه الهمم الراقده وآثارة العزائم الراكده)

(فصل) فيما جرى بعد انفصال أمر عكا قال العماد ثم ان الفرنج رحلت صوب عسقلان مستهل شعبان وسار السلطان فى عراضهم والمسلمون يخطفونهم ويقتلون منهم ويأسرون ويجرحون ويسلبون ويسرقون وكل أسير أتى به السلطان أمر بقتله ووصلوا الى حيفا فأقاموا بها ونزل المسلمون بالقيمون وقدم السلطان ثقله الى مجدل يابا وأضحى نازلا على النهر الجارى الى قيسارية وودع الفاضل السلطان وسار الى دمشق لانها مدرج الوافدين من الاكابر والنواب بها ربما جبنوا عن اقامة الوظائف وكان الامر الفاضلى عندهم كالامر السلطانى فاذا استشاروه خلصوا من كل تبعة ودرك وفى تاسع شعبان جاء الخبر بأن الفرنج ركبوا وتألبوا وهم يسيرون فى الساحل بالفارس والراجل وعن يمينهم البحر وعن يسارهم الرمل وكانت الرجالة حولهم كالسور وعليهم الكبورة الثخينة والزرديات السابغة المحكمة بحيث يقع فيهم النشاب ولا يتأثرون وهم يرمون بالزبورك فتجرح خيول المسلمين وغيرهم قال القاضى ولقد شاهدتهم وفى ظهر الواحد منهم النشابة والعشرة مغروزة وهو يسير على هيئته من غير انزعاج وثم قسم آخر من الرجالة مستريح يمشون على جانب البحر ولا قتال عليهم فاذا تعب هؤلاء المقاتلة أو أثخنتهم الجراح قام مقامهم القسم المستريح واستراح القسم العمال هذا والخيالة فى وسطهم لا يخرجون عن الرجاله الا فى وقت الحمله لا غير وقد انقسموا أيضا ثلاثة أقسام الاول الملك العتيق جفرى وجماعة الساحلية معه فى المقدمة والانكبار والفرنسيسية معه فى الوسط وأولاد الست أصحاب طبرية وطائفة أخرى فى الساقة وفى وسط القوم برج على عجلة وعلمهم على ما وصفته من قبل يسير أيضا فى وسطهم على عجلة كالمنارة العظيمة وساروا على هذا المثال وسوق الحرب قائمة بين الطائفتين والمسلمون يرمونهم من جوانبهم بالنشاب ويحركون عزائمهم حتى يخرجوا وهم يحفظون نفوسهم حفظا عظيما ويقطعون الطريق على هذا الوضع ويسيرون سيرا رفيقا ومراكبهم تسير فى مقابلتهم فى البحر الى أن أتوا المنزل فنزلوا وكانت منازلهم قريبة لاجل الرجالة فان المستريحين كانوا يحملون أثقالهم وخيمهم لقلة الظهر عليهم قال فانظر الى صبر هؤلاء القوم على الاعمال الشاقة من غير ديوان ولا نفع وطاف الجيش حولهم من كل جانب ولزوهم بالنشاب وكلما ضعف قسم عاونه الذى يليه وهم يحفظ بعضهم بعضا والمسلمون محدقون بهم من ثلاثة جوانب ورأيت السلطان وهو يسير بنفسه بين الجاليشية ونشاب القوم يتجاوزه وليس معه الا صبيان بحنبيتين لا غير وهو يسير من طلب الى طلب يحثهم على التقدم ويأمرهم بمضايقة القوم والصياح بالتهليل والتكبير برتفع والعدو على اثبات ترتيبهم لا يتغيرون ولا يتزعجون وجرت حملات كثيرة ورجالتهم تجرح المسلمين وخيولهم بالزبورك والنشاب الى ان أتوا الى نهر القصب فنزلوا عليه وقد قام قائم الظهيرة وضربوا خيامهم وتراجع الناس عنهم فانهم كانوا اذا نزلوا آيس الناس من امر يتم معهم وفى ذلك اليوم قتل من فرسان المسلمين وشجعانهم ايازالطويل وهو من مماليك السلطان وكان قد فتك بهم وقتل خلقا من خيالتهم وشجعانهم وكان قد استفاضت شجاعته بين العسكرين بحيث انه جرت له وقعات كثيرة صدقت أخبار الاوائل وصار بحيث انه اذا عرفه الفرنج فى موضع يخافون منه فاتفق ان تقطر به فرسه فاستشهد فى ذلك اليوم ودفن على تل مشرف على البركة وحزن المسلمون عليه حزنا عظيما وقتل عليه مملوك له ونزل السلطان بالثقل على البركة وهو موضع يجتمع فيه مياه كثيره ثم رحل بعد العصر وأتى نهر القصب فنزل عليه أيضا فكان شرب من أعلاه والعدو يشرب من أسفله ليس بيننا الا مسافة يسيرة وبات الفريقان هناك قال العماد وكانت نوبة الملك العزالدين ابراهيم بن المقدم فى الساقه وكانت الفرنج قد أنست بانقضاء الحرب فخرج منها جماعة مسترسلين وتقدموا

على البركة مشرفين فبصر بهم ابن المقدم فعبر اليهم من ورائهم هو ومن معه النهر وهم لم يأخذوا من خلفهم الحذر ففجأهم وقعهم وفرغ من شغلهم قبل ان يدركهم الصريخ وسلبهم وغنمهم ثم نهض الفرنج اليه وحملوا عليه وجرت وقعة شديده لحزب الضلال مبيده جابت لنا غنيمه وعليهم هزيمه وأحضر الاسارى عند السلطان بحزام الذل والهوان فاخبروا انهم جرح منهم بالامس الف وسرى فيهم وهن وضعف ثم رحل السلطان وعبر شعراء ارسوف ونزل على قرية تعرف بدير الراهب وطلب ملك الانكليتيرة الاجتماع بالملك العادل خلوة فاجتمعا فاشار بالصلح وكان حاصل كلامه انه طال بيننا القتال ونحن جئنا فى نصرة افرنج الساحل فاصطلحوا أنتم وهم وكل منا يرجع الى مكانه فقال على ماذا يكون الصلح قال على ان يسلم الى أهل الساحل ما أخذ منهم من البلاد فابى الملك العادل وأخبره ان دون ذلك قتل كل فارس وراجل فرجع مغضبا وفى يوم السبت رابع عشر رمضان كانت وقعة ارسوف تأهب المسلمون للقائهم فازعجوهم وأبلوهم ببلائهم فلما رأى العدو ما هو فيه من الضيقة احتوا وحملوا حملة واحدة فانكشف من كان قدامهم واندفعوا وثبت ذلك اليوم العادل وأصحابه وفايمار النجمى وعسكر الموصل ثم كرت العساكر اليهم وجرت النوائب عليهم فجرت بين الفئتين مقتلة عظيمة فلجأوا الى جدران ارسوف ولولا ذلك لاستوعبت فيهم الحتوف فنزل السلطان على نهر العوجا ورحل العدو الى يافا فنزلوها والمسلمون على العادة فى عراضهم مقيمة على تبديد جموعهم واعتراضهم وقتل يوم ارسوف لهم كند كبير تحت حكمه من الفرنج عدد كثير وكان من عظم شأنه وفخامة مكانه انه يوم صرع قاتل دونه جماعة من المقدمين فما قتل حتى قتلوا ولا بذل روحه حتى بذلوا روحهم قال القاضى ابن شداد رأيتهم وقد اجتمعوا فى وسط الرحالة وأخذوا رماحهم وصاحوا صيحة الرجل الواحد وفرج لهم رجالتهم وحملوا حملة واحدة من الجوانب كلها فاندفع الناس بين أيديهم ولم يبق فى طلب السلطان الا سبعة عشر مقاتلا والاعلام باقية والكؤس تدق لا تفتر فلما رأى السلطان ما نزل بالمسلمين سار حتى أتى طلبه فوقف فيه والناس يفرون من الجوانب وكلما رأى غارا بأمر من يحضره عنده فاجتمع فى الطلب خلق عظيم ووقف العدو قبالتهم على رؤس التلول والروابى وخاف العدو ان يكون فى الشعراء كمين وثابت العساكر كلها فتراجع العدو الى منزلته وجلس السلطان ينتظر الناس من العود من السقى والجرحى يحضرون بين يديه وهو يتقدم بمداواتهم وحملهم وقتل رجالة كثيره وجرح جماعة من الطائفتين وصدم الملك الافضل وانفتح دمل كان فى وجهه وسال منه دم كثير على وجهه وهو صابر محتسب فى ذلك كله وقتل من العدو جماعة وأسروا أحدا وأحضر فأمر بضرب عنقه وفى بعض الكتب السلطانية (سار العدو من عكا على قصد عسقلان وسقنا لمعارضتهم فى كل طريق ومضايقتهم فى كل مضيق ومنازلتهم فى كل منزل ومدافعتهم عن كل منهل وهم يسيرون البحر لا يفارقون ساحله ولا يتجاوزون مراحله والمواضع مضائق وشعراء ورمال ومالا قتال فيها مجال وما وجدنا مسحة الا وضايقناهم فيها وأخذنا عليهم فى نواحيها ومن جملة أيامنا المشهورة المشهوده ومواسمنا المعروفة المحموده يوم الاثنين تاسع شعبان عند رحيلهم من قيسارية) فذكر الوقعة السابقه وفيها (انه نفق من خيلهم ألف راس) ثم ذكر يوم ارسوف وحسن عاقبته للمؤمنين بعد الياس ثم رحل السلطان تاسع عشر شعبان ونزل بالرمله واجتمعت الانقال بها فى تلك الرحله ورحل ليلا وأصبح على تبنا وجاوزها الى نهر امر ان الخيام عليه تبنى قال وزرنا بتبنا قبر أبى هريرة رضوان الله عليه وتبادر الناس بالتيمن به اليه قلت اعتمد العماد فى هذا على ما اشتهر بين العامة من ذلك وأما أهل العلم المصنفون فى أخبار الصحابة رضى الله عنهم كابن سعد وغيره فذكروا ان أبا هريرة توفى بالمدينة ولم يذكروا غيره على ما ذكرناه فى ترجمته فى التاريخ والله أعلم قال العماد ورحل السلطان ونزل بظاهر عسقلان بعد العصر وشرع فيما عزم عليه من الامر وكان لما نزل بالرملة أحضر عنده أخاه العادل وأكابر الامراء وشاورهم فى أمر عسقلان ذوى الاراء فاشار علم الدين بن سليمان بن جندر بخرابها للعجز عن حفظها على ما بها ووافقه الجماعه وقالوا قد ضاق عن صونها الاستطاعه فان هذه يافا قد نزلوا بها وسكنوا فيها وهى مدينة بين القدس وعسقلان متوسطة ولا سبيل الى حفظ المدينتين فاعمد الى اشرف الموضعين فحصنه وحكمه فاقتضت الاراء اقامة العادل

بقرب يافا مع عشرة من الامراء حتى اذا تحرك العدو كانوا منه على علم قال القاضي أشار عليه بتخريب عسقلان خشية ان يستولي عليها الفرنج وهي عامرة فيتلفوا من بها من المسلمين ويأخذوا بها القدس الشريف ويقطعوا طريق مصر وخشي السلطان من ذلك وعلم عجز المسلمين عن حفظها لقرب عهدهم من عكا وما جرى على من كان مقيما بها فسار حتى أتى عسقلان وقد ضربت خيمته شماليها فبات هناك مهموما بسبب خراب عسقلان وما نام تلك الليلة الا قليلا ولقد دعاني الى خدمته سحرا وكنت فارقته بعد مضي نصف الليل فحضرت وبدأ بالحديث في معنى خرابها وأحضر ولده الافضل وشاوره في ذلك وطال الحديث ولقد قال رحمه الله والله لان أفقد أولادي باسرهم أحب الي من ان أهدم منها حجرا واحدا ولكن اذا قضى الله بذلك وعينه لحفظ مصلحة المسلمين طريقا فكيف أصنع قال ثم استخار الله تعالى فاوقع في نفسه ان المصلحة في خرابها فاستحضر الوالي وأمره بذلك في تاسع عشر شعبان ولقد رأيته وقد اجتاز بالسوق والوطاق بنفسه يستنفر الناس للخراب وقسم السور على الناس وجعل لكل أمير وطائفة من العسكر بدنة معلومة وبرجا معلوما يخربونه ودخل الناس الى البلد ووقع فيه الضجيج والبكاء وكان بلدا نضرا حفيفا على القلب محكم الاسوار عظيم البنا مرغوبا في سكناه فلحق الناس عليه حزن عظيم وكان هو بنفسه وولده الافضل يستعملان الناس في الخراب خشية ان يسمع العدو فيحضر ولا يمكن من خرابها وأباح الناس الهدى الذي كان ذخيرة في البلد للعجز عن نقله وضيق الوقت والخوف من هجوم الفرنج وأمر بحريق البلد فاضرمت النار فيه والاخبار تتواتر من جانب العدو بعمارة يافا وخرب من سور عسقلان معظمه وكان عظيم البناء بحيث انه كان في موضع تسع أذرع وفي موضع عشرا وذكر بعض الحجارين للسلطان وأنا حاضر ان عرض البرج الذي ينقبون فيه مقدار رمح فلم يزل الخراب والحريق يعملان في البلد واسواره الى سلخ شعبان وعند ذلك وصل من جريدك كتاب يذكر فيه ان القوم قد تفسحوا وصاروا يخرجون من يافا يغيرون على البلاد القريبة منها فلو تحرك السلطان لعله يبلغ منهم غرضا في غرتهم فعزم على الرحيل وعلى ان يخلف في عسقلان حجارين ومعهم خيل تحميهم يستقصون في الخراب ثم رأى ان يتأخر بحيث يحرق البرج المعروف بالاسبتار وكان برجا عظيما مشرفا على البحر كالقلعة المنيعة ولقد دخلته وطفته فرأيت بناءه أحكم بناء لا تعمل فيه المعاول وانما أحرق ليبقى بالحريق قابلا للخراب وبقيت النار تشعل فيه يومين بليلتيهما قال العماد ونقض منها الاراج التي على ساحل البحر ودخلتها فرأيتها أحسن مدينة منيعة حصينة فطال بكائي على رسومها وفض ختومها وقبض أرواحها من جسومها وحلول الدوائر بدورها ونزول السوء بسورها فبارح السلطان منها حتى رأيناطلولها دوارس ورسومها طوامس والرؤس حياء من معاهدها نواكس قال ولو حفظت لكان حفظها متعينا وصونها ممكنا لكن وجد كلا له متجنبا متجبنا وقد راعتهم نوبة عكا وحفظها ثلاث سنين وعادت بعد ذلك عمرة المسلمين وقال من تعلل واعتذر عن دخولها تدخلها أنت أو أحد أولادك فتدخلها اتباعا لمرادك فحينئذ لم يجد بدا من نقض أسوارها وفض سوارها وسكانها كانوا في رفاهيه فانتقلوا عنها على كراهيه وباعوا أنفس الاعلاق بابخس الاثمان وفجعوا بالاوطار والاوطان

(فصل) فيما جرى بعد خراب عسقلان قال العماد فارقها السلطان يوم الثلاثا ثاني رمضان ونزل على تبنا ونزل بالرملة يوم الاربعا وأمر بتخريب حصنها وتخريب كنيسة لد وركب جريدة الى القدس فاتاه يوم الخميس وأعاد اليه رسوم التأنيس وخرج منه يوم الاثنين ثامن رمضان وبات في بيت نوبة وعاد الى الخيم يوم الثلاثا ووصل معز الدين قيصر شاه صاحب ملطية بن قلج أرسلان وافدا عليه منتصرا به على أبيه واخوته فانهم كانوا يقصدون أخذ بلده من يده فاقام في الخدمة السلطانية مدة وتزوج بابنة العادل على صداق مائة ألف دينار وسار مستهل ذي القعده وفي ثامن الشهر أيضا خرج الكمين على ملك الالمان كلتيرة وكان خرج في فوارسه مخفرا للحطابة والحشاشه وكاد يؤخذ الملك لكن أحد خواصه فداه بنفسه بان أظهر حسن لباسه فظن انه الملك فاسر وقال ابن شداد حال بينه وبينهم فرنجي فقتل الفرنجي وجرح هو وفي ثاني عشرة جرت أيضا وقعة كان النصر فيها للمسلمين وقتل مقدم كبير من المشركين ومازال يقع بينهم وبين اليزك وقعات وتسرق العرب من خيولهم وبغالهم ورجالهم

ومن كتاب الى صاحب سنجار (قد تقدم الاعلام بما جرى عند رحيل العدو على قصد عسقلان وما تم عليه منا في طريقه من النكاية والخذلان وانه قطع في سبعة عشر يوما مسافة يومين لما لابسه وغامره من الحين وما صدق كيف وصل الى يافا فاظهر بها الاستيطان وأقام بها يعمر المكان وهذه مدينة يافا متوسطة بين القدس وعسقلان ومنها الى كل واحدة منهما مسافة نصف نهار وكلناهما من العدو على خوف وحذار وكل واحد من الموضعين يحتاج في تحصينه الى ثلاثين ألف مقاتل وتعذر الجمع بين حفظ الثغرين وتحصين البلدين وتعينت في تخريب عسقلان عمارة القدس وتحصينه وعصمته من العدو وتأمينه) ثم رحل السلطان الى النطرون وخيم على تل عال والنطرون حصن حصين كان للداويه لكن لما لم تشعث اسواره وانهض جداره فامر بهدمه فهدم ثم بعث ملك الانكليز يراغب المصالحة والمسالمة الى العادل وزعم ان له أختا عزيزة عليه كبيرة القدر وانها كانت زوجة ملك كبير من ملوكهم وهو صاحب صقلية توفي عنها ورغب ان يتزوجها العادل ويجعل له الحكم على بلاد الساحل ينفذ فيها أمره وهو يقطع الداوية والاسبتار من البلاد والقرى دون الحصون وتكون أخته مقيمة بالقدس ومعها فيه قسيسون ورهبان حافظه لها من آفة الزمان فرأى العادل في ذلك عين الصواب وشاور السلطان فوافقه فيما أجاب فتمد الرسول الى الانكليز بالاجابة فدخل الفرنج على المرأة وخوفوها وأتموها في دينها وعنفوها وقالوا لها ما معناه هذه فضيحة فظيعة وسبة شنيعة وقطع على النصرانية وقطيعة وأنت عاصية للمسيح لا مطيعة فرجعت عن ذلك وما أجابت فاعتذر الانكليز بعدم موافقتها الا ان يدخل العادل في دينها فعرف انها خديعة كانت من الانكليز قال القاضي وورد رسول من المركيس يذكر انه يصالح الاسلام بشرط ان يعطى صيدا وبيروت على ان يحالف الفرنج بالعداوة ويقصد عكا ويحاصرها ويأخذها منهم فاجيب الى ذلك على ان يطلق من بها وبصور من الاسارى ولما سمع الانكليز ذلك رجع الى عكا لفسخ هذه المصالحة واسترجاع المركيس اليه وجاء الخبر ان ملك الافرنج بقبرص بات بانطاكيه ووصل كتاب من تقي الدين يخبر فيه ان نزل صاحب ديار العجم ابن الدكر قتل وجرى بسببه فتن بلاد العجم حلب عظيم قال العماد وكان محتقرا للغنائم مقترفا للمآثم واصعا للشرب والمصف المواسم وقتل باصفهان عشرة من رؤساء الشافعية المعروفين وكبرائهم الموصوفين ووصل من الديوان كتاب ينكر فيه قصد تقي الدين خلاط ويصور فيه العناية التامة بيكتمر وينفع في حسن بن قفجاق ويتقدم باطلاقه وكان قد قبض عليه مظفر الدين بارمل وتقدم مسير القاضي الفاضل الى الديوان ليبت حال وفصل أمر فاجاب السلطان بانا لم نأمر تقي الدين بشئ من ذلك وانما عبر ليجمع العساكر ويعود الى الجهاد وأما ابن قفجاق فقد تقدم الى مظفر الدين حتى يحضره الى الشام فيقطعه فيه ويكون ملازما للجهاد وأما القاضل فاعتذر عنه بانه كثير الامراض قوته تضعف عن الحركة الى العراق قلت وبلغني ان القاضل رحمه الله كتب في الاعتذار بالحضور الى الايوان وقال في كتابه بهذين البيتين

ما كنت أول سار غره قمر ✻ ورائد خدعته خضرة الدمن
مثل لنفسك شخصي انني رجل ✻ مثل المعيدي فاسمع بي ولا ترني

قال القاضي وأرسل الانكليز الى السلطان ان المسلمين والفرنج قد هلكوا وخربت البلاد وتلفت الاموال والارواح وقد أخذ هذا الامر حقه وليس هناك حديث سوى القدس والصليب والبلاد والقدس متعبدنا ما ننزل عنه ولو لم يبق منا واحد وأما البلاد فيعاد الينا ما هو قاطع الاردن وأما الصليب فهو خشبة عندكم لا مقدار له وهو عندنا عظيم فيمن به السلطان علينا ونستريح من هذا العناء الدائم فأرسل السلطان في جوابه القدس لنا كما هو لكم وهو عندنا أعظم مما هو عندكم فانه مسرى نبينا ومجتمع الملائكة فلا يتصور أن ننزل عنه ولا نقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين وأما البلاد فهي أيضا لنا في الاصل واستيلاؤكم كان طارئا عليها لضعف من كان بها من المسلمين ذلك الوقت وأما الصليب فهلاكه عندنا قربة عظيمة لا يجوز أن نفرط فيه الا لمصلحة راجعة الى الاسلام هي أوفى منها وهرب شيركوه بن باخل الكردي من عكا وكان أسيرا بها وكان ادخر حبلا في مخدته فتدلى به من طاقة في بيت الطهارة واشتد هاربا في قيود الى تل العياضية فكمن في الجبل وقد طلع عليه النهار ثم كسر قيوده

وسار الى المسلمين ثم توازا الخبران الفرنج على عزم النهوض فسار السلطان من المخيم بالنطرون الى الرملة سابع شوّال وأقام بها عشرين يوما فجرت وقعات وتمت دفعات منها وقعة فى ناحية يازور وكان النصر فيها للمسلمين وفقد من المسلمين ثلاثة وذلك ثامن شوّال وفى سادس عشر شوال وقعت وقعة أخرى عظيمة قتل فيها جماعة من الامراء وأسر فارسان من الكفرة معروفان بالبأس سوى غيرهما وقتل منهم زهاء ستين نفرا وفى خامس شوّال وصل الخبر ان الاسطول المصرى استولى على مراكب الفرنج وفيها مركب تعرف بالمسطح قيل انه كان فيه خمسمائة نفر وزائد على ذلك وانه قتل منهم خلق عظيم واستبقى منهم أربعة نفر مذكورون وفى ثامن عشر شوّال اجتمع العادل والانكليترى على طعام ومحادثة وانفصلا عن تواد ومطايبة وطلب منه الاجتماع بخدمة السلطان فامتنع رحمه الله وقال الملوك اذا اجتمعوا تفجع بينهم المخاصمة بعد ذلك واذا انتظم أمر حسن الاجتماع ورحل الفرنج ثالث ذى القعدة الى الرمله وأظهروا قصد القدس بتلك الرحله ودامت الوقعات بين المسلمين وبينهم ورحل السلطان الى القدس بنية المقام فى الثالث والعشرين من ذى القعدة وكان الشتاء قد دخل والغيث قد اتصل فوصل الى القدس وقت العصر ونزل بدار الاقساء المجاورة كنيسة قمامة وفى ثالث ذى الحجة وصل عسكر من مصر بأموال ورجال مع أبى الهيجاء السمين وتحوّل الفرنج الى النطرون فقوى السلطان اليزك فوقعوا على سرية فغنموها وسبق منهم الى القدس نيف وخمسون أسيرا سوى من قتل منهم وواقعهم سابق الدين عثمان صاحب شيزر يوم عيد الاضحى فنحر منهم وضحى واحتوى على عشرة من مقدميهم أسرا وقتلا وتسلق باقى الفرنج فى الجبال وتركوا خيلهم فغنمها المسلمون ولم يزل المسلمون عليهم مستظهرين مدّة مقامهم بالنطرون وجعل المسلمون يقطعون الطريق على تجارهم حتى انهم أخذوا قافلة ثقيلة بما فيها ولم يقدروا على تخليصها فرحلوا عائدين الى الرملة فى الثانى والعشرين من ذى الحجه وفى ذلك اليوم وصل من الموصل خمسون رجلا برسم قطع الصخور من الخندق فان السلطان شرع فى تحصين القدس وعمارة ابراجه واسواره وحفر خندقه وأرسل الى البلاد فى جمع رجال هذه الاعمال وتقبل الامراء فيه العمل وعمل فيه السلطان بنفسه بنقل الحجارة هو وأولاده وأمراؤه وأجناده ومعهم القضاة والعلماء والولاة والامراء قلت وفى قصد الفرنج للسلطان بالقدس يقول الرشيد بن النابلسى من جملة قصيدة له

ويح الفرنجة بل ويل أمهم أوما ❊ فيهم لبيب على العلات يعتبر
فكم نثرتهم ضربا اذا انتظموا ❊ وكم نظمتهم طعنا اذا انتشروا
كم قد سقيتهم ذلا فلا عجب ❊ ان عربدوا سفها فالقوم قد سكروا
ان يمموك فلا بدع لجهلهم ❊ تسعى الى الاسد فى غاباتها الحمر
زاروا عمورا ولا تغبى وفاجئهم ❊ اذا أسودك فى أبطالهم زأروا
فقم عن حوطة البيت المقدس لا ❊ خوف وحاشاك من خوف ولا ضرر
هو الشريف وقد نادالك معتصما ❊ فما على مجده من بعدها حذر
وسوف تستغفر الايام هفوتها ❊ وتحصد الفئة الاوغاد ما بذروا

(فصل) فى باقى بقايا حوادث هذه السنه قال العماد فى ربيع الاول منها تولى القاضى محيى الدين محمد بن الزكى قضاء دمشق وفيها يوم الجمعة تاسع عشر رمضان كانت وفاة تقى الدين عمر بن أخى السلطان وراء الفرات وكان قد امتدت عينه الى بلاد غيره فاستولى على السويداء وعلى مدينة حانى وعزم على قصد خلاط وكسر صاحبها سيف الدين بكتمر وتملك معظم تلك البلاد ثم أناخ على منازكرد يحاصرها ومعه عساكر كثيرة فأناخت بجسده المنية بسبب مرض اعتراه وزاد الى أن بلغ منه المراد واخفى ولده الملك المنصور وفاته ورحل عن البلد المحصور وفاته وعاد به الى البلاد التى فى يده وعجب الناس من حزمه وعزمه وثباته وجلده وجاءت رسله الى السلطان بخبره بأنه قام مقام والده فيما كان له من البلدان وطلب منه شروطا نسبه بسببها الى العصيان وكاد أمره يضطرب وقلبه يكتئب وشأنه ينعكس وينقلب حتى احتمى بالملك العادل فنصره وأظهره الى الوجود وأظهره وقال القاضى

ابن شداد كانت وفاته فى طريق خلاط عائدا الى ميافارقين فحمل ميتا حتى وصل به الى ميافارقين ثم عملت له تربة عليها مدرسة مشهورة بأرض حماه وحمل اليها فدفن بها قال العماد وفيها توفى ابن أخت السلطان حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين بدمشق ليلة الجمعة تاسع عشر رمضان فجمع السلطان بابن آخيه وابن أخته فى تاريخ واحد وكان له من أعظم الاعوان على ما يكابده من الشدائد قلت ودفن بالتربة الحسامية المنسوبة اليه من بناء والدته ست الشام بنت أيوب وهى المدرسة الشامية ظاهر دمشق بالعوينه قال وفيها فى أواخر ذى الحجة توفى الامير علم الدين سليمان بن جندرس أكابر أمراء حلب وكان فى خدمة السلطان بالقدس وهو شيخ الدولة وكبيرها وظهيرها ومشيرها وهو الذى أشار بتخريب عسقلان لتتوفر العناية والاهتمام بالقدس ثم مرض بالقدس وطلب المسير الى الوطن فأدركته المنية بقرية غبا غب على مرحلة من دمشق وفيها فى الثالث والعشرين من رجب كانت وفاة الصفى بن القابض نائب السلطان بدمشق وكان قد خدم السلطان أيام عدمه وهو فى كفالة أبيه وعمه فلما ملك مصر أمر حه فى أموالها وحكمه فى أعمالها حتى نال المنى ووجه ونجح وحصل على الغنى وكتب لمماليكه دوره وأملاكه وجميع أمواله وفيها توفى نسيب العماد وهو جمال الدين أبو الفتح اسماعيل بن محمد بن عبيد ابن كوبه سابع عشر ذى الحجة بدمشق قال العماد وكنت استنبته فى كتابة الانشاء وخرجته وقلبته فى مراتب المعالى ودرجته واعتمد السلطان عليه فى الترسل الى سلاطين العجم وخواص الامراء منهم والخدم وكان نبيلا نبيها كريما وجيها وفيها توفى الحكيم الموفق أسعد بن المطران فى شهر ربيع الاول وكان من أهل النظافه والظرافه ومن ذوى الفصاحة والحصافه وفقه الله فى بدايته لهداية الاسلام ونال أسباب الاحترام وتقدم عند السلطان وماشانه كبير وهو كبير الشان وفى أواخر هذه السنة توفى الشيخ الفقيه نجم الدين الخبوشانى بمصر وهو الذى عمر تربة الشافعى رضوان الله عليها وبنى المدرسة فى جوارها واحيا شعار التوحيد وبنى أمره على التسديد والتشديد وحفظ شمل الشافعية من التبديد وكان السلطان مجيبا له الى كل ما يستدعيه ويقضى له من الحوائج ما يقتضيه ووقف على المدرسة التى بناها وقرفا وأعطاها فى بنائها ألوفا فلما توفى الخبوشانى طلب المدرسة جماعة من العلماء فردوا وشفع العادل فى صدر الدين أبى الحسن محمد بن حمويه شيخ الشيوخ فكتب بها له ورتب بوقفها وتدريسها استقلاله وذلك فى أواخر سنة ثمان وثمانين ثم صرف بعد السلطان عن المدرسه وتبدلت بالوحشة الانسه قلت ثم استمرت عليها يد أولاده واحدا بعد واحد الى الآن قال وفيها توفى الوجيه بن النفيس مستوفى ديوان دمشق بها وكان نبيها مهيبا نزها عارفا مصيبا وفيها توفى القاضى أمين الدين أبو القاسم بحماه فى حادى عشر رمضان وكان كريما سخيا نابها سريا وفيها نقلت تربة القاضى محيى الدين أبى حامد محمد بن محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزورى الى المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام وكان قاضى الموصل وقد بنى رباطا هناك وكانت وفاته بالموصل فى الثامن والعشرين من جمادى الاولى سنة ست وثمانين وقد تقدم ذلك وسأل ابن أخيه القاضى بعده كتابا الى أمير المدينة فكتب له كتاب منه (سبب اصدارها الى الامير مسير نائب القاضى كمال الدين بصريح اذن عمه محيى الدين من الموصل الى المدينة المقدسة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ليدفن فى الرباط الذى أنشاه حيث يبعث مع شفيع الامة يوم البعث والنشور ويأمن ظلام اللحد المحفور فى جوار الضياء والنور ويحشر بما يناله من البركة والحبور منشرح الصدر اذا بعثر ما فى القبور وحصل ما فى الصدور ولقد وفق فى اختياره أيام حياته نقله الى ذلك البيت المعمور فليعن الامير على هذه المكرمه وليعتز بجواراته فى التربة المجاورة للبقعة المعظمه) قال وكان هذا القاضى حرقا جوادا لبذل اللهى معتادا واسع المروه جامع أسباب الفتوه يحب معالى الامور فضائله متجاوزة حد الوفور قال ابن القادسى ووصل الحاج فى صفر بعد ما اعتاقت أخبارهم وأخبروا ان داود أمير مكة أخذ ما فى الكعبة من أموال وأخذ طوقا كان يلزم الحجر الاسود فأوجب ذلك الشعثه وكان قد دخل بعض الباطنية بعد سنة أربعمائة فضربه بدبوس وقال الى كم حجر وفى يدذلك الرجل سيف فما تجاسر أحد يقرب منه فتطوع رجل وبذل نفسه للقتل وتقدم اليه فقتله فأخذ الحجر وجمعت شظاياه والفت وجعل له طوق فأخذ أمير مكة ذلك الطوق فلما وصل أمير الحاج عزم داود وولى أخاه مكثرا ونقض قلعة كان بناها داود على جبل أبى

قبيس وهو داود بن عيسى بن فليته بن قاسم بن محمد بن أبي هاشم الحسني ولما صرف عن مكة أقام بنخلة وتوفي بها في رجب سنة تسع وثمانين وهو أمير ابن أمير الى آخر من ذكرنا من آبائه وهم به ستة نفر قال ابن الاثير وفي ربيع الاول سنة سبع وثمانين سار عز الدين يعني صاحب الموصل الى جزيرة ابن عمر فحصرها وبها ابن أخيه معز الدين سنجرشاه لانه كان سيء السيرة معه فخارجا عن طاعته مساعدا للاعداء عليه فعزم على أخذها منه فخضع وطلب العفو والصفح فأجابه وصالحه على قاعدة استقرت بينهما وعاد عنه الى الموصل فعاد سنجرشاه الى حالته الاولى فتجاوز عنه واطرحه

(ثم دخلت سنة ثمان وثمانين) قال العماد والسلطان مقيم بالقدس وقد قسم سور البلد على أولاده وأخيه وأجناده فشرعوا في انشاء سور جديد محدق به مديد وكان يركب كل يوم وينقل الصخر على قربوس سرجه فيستن الاكابر والامراء في نقل الحجارة بنهجه ولو رأيته وهو يحمل حجرا في حجره لعلمت ان له قلبا قد حمل جبلا في فكره ولقد جد في حماية الصخرة المقدسة حتى حمل لها الصخور وانشرح صدره لانضمامها الى صدره حتى باشر صدورها ليكبه بها الصدور ومانع ازدواريبنيها في الجنة بنقل حجارتها ليكون ملكا في دارها وقرا في دارتها وداوم البكور في الركوب وعرض وجهه الكريم للنحوب قال وفي ثالث المحرم رحل الفرنج على سمت عسقلان وأشاعوا انهم يعيدون بها العمران وهم نازلون بظاهرها جائلون في مواردها ومصادرها فرأى الانكليزي دخانا على بعد فقصده وكان قد جماعة من الاسبتار وسيف الدين يازكوج وعلم الدين قيصر وهم غارون عادهم فوصل اللعين اليهم وقت المغرب فوقع عليهم وكانوا فريقين نازلين في موضعين فلما وقع على أحدهما ركب الفريق الثاني وافعه حتى ركب الفريق الآخر فدافعوهم وواقعوهم وساقوا قدامهم أثقالهم وخلصوا ناجين وسلم الله أنفسهم من أيدي الملاعين ولم يفقد من المسلمين الا أربعة وكانت نزلة عظيمة دفع الله خطرها وهون ضررها وفي حادي عشر المحرم كبس عز الدين جرديك تبنى على من نزل بها من الفرنج فأوقع بهم البلاء وساق منهم اثني عشر أسيرا ومناعا كثيرا وأغارا يضا بالي صفر على ظاهر عسقلان وجاء ببلابين أسيرا وفي ليلة رابع عشر صفر كنت سرية مقدمها فارس الدين ميمون القصري عند دنوها الى ان عبرت قوافل الفرنج فساقها بأحمالها وأثقالها ونسائها ورجالها وفي مستهل ربيع الآخر وصل سيف الدين المشطوب وقد خلص من الاسر وقطعت عليه الفرنج خمسين ألف دينار عجل منها عشرين ألفا وأعطاهم بالباقي رهائن فأحس السلطان لقاءه وأقطعه بابلس بأعمالها فتوفي بها في آخر شوال وفي ثالث عشر ربيع الآخر قتل المركيس لعنه الله بصور وذلك ان رجلين دخلا صور وتنصرا وأظهرا الترهب والتعبد ولزما الكنيسة وسكرهما الافسا والرهبان وأحبهما المركيس ولم يكن يصبر عنهما ففي بعض الايام وثبا عليه وقتلاه وعرف انهما كانا من الحشيشية فجلس مكانه الكندهري بامر الانكليزي وسر الانكليزي بمصاب المركيس فانه كان يضاده ويراسل السلطان في الاعانة عليه فلما قتل سكن روعه وذهب عنه صره وتزوج الكندهري بالملكة زوجة المركيس في ليلته ودخل بها وهي حامل وما الحمل في ملة الفرنج عن النكاح حائل ويكون الولد منسوبا الى الملكة هذه قاعدة هذه الطائفة المشركة وهذا الكندهري ابن أخت ملك افرنسيس من أبيه وملك انكلتيرة من أمه ودخل الفرنج في حكمه وعاش الى آخر سنة أربع وتسعين وتولاهم دون سبع سنين وقال العماد في الفتح اضافه الاسقف بصور فاستوفى رزقه وتعدى وما درى انه يتردى واكل وشرب وشبع وطرب وخرج وركب فوثب عليه رجلان وسكنا حركته بالسكاكين ودكاه عند تلك الدكاكين وهرب أحدهما ودخل الكنيسة وقد أخرج تلك النفس الخسيسة فقال المركيس وهو مجروح وفيه روح أحملوني الى الكنيسة فحملوه فلما أبصره أحد الجارحين وثب اليه وزاده جرحا على جرح وقرحا على قرح فاخذ الفرنج الرفيقين فالفوهما من الفداوية الاسماعيلية مرتدين فسألوهما من وضعهما على تدبير هذا التدمير فقالا ملك الانكلتيرة فقتلا شر قتله فيالله من كافرين سفاكا دم كافر وفاجرين فكابفاجر قال ولم يجبنا قتل المركيس في هذه الحالة وان كان من طواغيت الضلالة لانه كان عدو ملك الانكلتيرة ومنازعه على الملك والسرير ومناقشه على القليل والكثير قال وفي تاسع جمادى الاولى استولى الفرنج على قلعة الداروم ثم خربوها ورحلوا عنها وأسروا من فيها

كان الانكليزي الملعون قد استفسد من نوبة عكا نقابين حلبيين فتمكنوا من نقب المكان وأحرقوا النقب وطلب هل الحصن مهلة يشاورون فيها السلطان فلم يمهلهم وفي رابع عشره خرجت اليزكيه على الفرنج على قلعة تعرف بجدل جناب كذا قال في الفتح وقال في البرق مجدل بابا وكذا قال ابن شداد وقتل كند كبير ثم نزلوا دل الصافيه ثم الى النطرون ثم الى بيت نوبه وهي وطأة بين جبال بينها وبين القدس مرحلة وقد ألهبهم المسلمون بهجم وأضعفوهم بسلبهم يتسلطون عليهم من كل ناحيه ويكمنون لهم تحت كل راسه وقد قويت قلوبهم ببيات السلطان بالقدس وفي انسلاخ الشهر التقى الجمعان وقد وصل العدو الى قلونيه وهي من القدس على فرسخين فلما رأى العدو مالا يدان له به رجع ناكصا على عقبيه والمسلمون في أثرهم يكمنون لهم ويغالون منهم وكان بدر الدين دلدرم في الدرك فبعث من كمن لهم عند طريق يافا فقرب بهم فوارس فاستولى عليهم الكمين وما سلم منهم أحد وفي ثالث جمادى الآخره كبست الكمنا فافلة فكسبت وسلبت وأسرت وفي تاسعه وصل الخبر بان الفرنج رحلوا بأثقالهم ليلا وأدلجوا ولم نعلم قصدهم فعرف السلطان انه الى طريق العسكر المصري فندب الامير فخر الدين الطنبا العادلي وسيف الدين أسلم الناصري حتى يعلما العسكر فالتقيا بهم بالحسى وأخبراهم الخبر فنزلوا وعرسوا وهم يظنون ان لا حس للعدو بارض الحسى فجاءهم وفجأهم فاستولى على بعض الاموال وخلص أكثرها مع الرجال ومن جملة من كان في العسكر فلك الدين أخو العادل لامه فجاء بما قدر عليه من القرافل قال العماد وجرى هذا كله والملكان العادل والافضل غائبان وعساكر الموصل وسنجار وديار بكر متباطئة في الاتيان وسببه ما كان من تقي الدين وموته وتشرط ولده في بقاء بلاد أبيه عليه وان الافضل كان طلب من والده البلاد فاطع الفرات ونزل عن جميع ماله من الولايات وانه اذا عبر الى الرها وحران ملك تلك البلدان ورحل من القدس في ثالث صفر وأطلق له السلطان عشرين ألف دينار سوى ما أصحبه برسم الخلع والتشريفات ووصل الى حلب فاحتفل أخوه الظاهر لقدومه وأقام له بسنن المكارم ورسومه ووقف بخدمته ماثلا وبعطف الابتهاج اليه ماثلا وأحضر له مفاتيح بلده وقدم له كل ما في يده وسمع ناصر الدين بن تقي الدين بما أقلقه ودفع منه الى ما أرهجه وأرهقه ووصل رسوله الى العادل وهو بالقدس لاجئا الى ذله راجيا الفضل له لائذا بجنابه عائذا ببابه فاحتفى له واحتفله وقوى في تمويته أمله وخاطب السلطان في حقه واستعطفه وقال أنا أمضي اليه وأحضره وأمنه مما يحذره وتبقى هذه السنة عليه حران والرها وتعطيه في السنة الاخرى حماه والمعره ثم قرر السلطان مع أخيه العادل ان يأخذ هو تلك البلاد وينزل عن اقطاعاته بمصر ونصف خاصه ففعل واستزاد قلعة جعبر فامتنع الملك الظاهر من تسليمها حتى استظهر فسار العادل في العشر الاول من جمادى الاولى وكتب السلطان الى الافضل بالعود فجاء هذا راجعا وذهب ذلك مسارعا ووصل الى حران والرها وعاد في آخر جمادى الآخرة ومعه ابن تقي الدين فان القاضي ابن شداد عاد الافضل منكسرا متعتبا فوصل دمشق ولم يحضر الى خدمة السلطان فلما اشتد خبر الفرنج سير اليه وطلبه فما وسعه التأخر فسار اليه مع العساكر الواصلة اليه من الشرق فلقيه السلطان وترجل له جبرا لقلبه وتعظيما لامره قال ولما بلغ ابن تقي الدين موجدة السلطان أنفذ الى العادل يستنفع به ليطيب قلب السلطان عليه ويقترح أحد قسمين أما حران والرها وسميساط واما حماه ومنبج وسلميه والمعرة مع كفالة اخوته فراجع العادل السلطان مرارا فلم يفعل ذلك ولم يجب الى شئ منه فكثرت الشفاعة اليه فحلف له على حران والرها وسميساط على انه اذا عبر الفرات أعطى المواضع التي اقترحها وتكفل اخوته وتخلى عن تلك المواضع التي في يده ثم التمس العادل خط السلطان فابى وألح عليه فخرق نسخة اليمين وانقطع الحديث وأخذ من السلطان الغيظ كيف يخاطب بمثل ذلك من بعض أولاد أولاد أخيه ثم أعطاه خطه بما استقر من القاعده ثم ان العادل التمس من السلطان البلاد التي كانت بيد ابن تقي الدين بعد انتقاله وجرت مراجعات كثيرة في العوض عنها فكان آخر ما استقر انه ينزل عن كل ما هو سامي الفرات ما خلا الكرك والشوبك والصلت والبلقا وخاصة بمصر بعد النزول عن خبز وعليه في كل سنة ستة آلاف غرارة غلة تحمل للسلطان من الصلت والبلقا الى القدس

﴿فصل﴾ في عزم الفرنج على قصد القدس وسببه قال القاضي ابن شداد وكان تقدم السلطان الى عسكر مصر بالمسير وأوصلهم بالاحتراز عند مقاربة العدو فاقاموا بنابلس أياما حتى اجتمعت القوافل اليهم واتصل خبرهم بالعدو ثم ساروا طالبي البلاد والعدو يترقب أخبارهم ويتوصل اليهم بالعرب المفسدين ولما تحقق العدو أمر القفل امر عسكره بالانحياز الى سفح الجبل وركب في ألف راكب مردفين ألف راجل فاتى تل الصافية فبات ثم سار حتى أتى ما يقال له الحسى فانفذ السلطان الى القافلة نذره بنهوض العدو وأمرهم ان يبعدوا في البرية وركب الانكلتير الملعون مع العرب بجمع يسير وسار حتى أتى القفل وطاف حوله في صورة عربي ورآهم ساكنين قد غشيهم النعاس فعاد واستركب عسكره وكانت الكبسة قريبة الصباح فبعث الناس ووقع عليهم بخيله ورجله فكان الشجاع الاند القيم الذي ركب فرسه ونجا بنفسه وانقسم القفل ثلاثة أقسام قسم قصدوا الكرك مع جماعة من العرب وقسم أوغلوا في البرية مع جماعة من العرب وقسم استولى العدو عليهم فساقهم بجمالهم واحمالها وجميع ما معهم وكانت وقعة شنعاء لم يصب الاسلام بمثلها من مدة مديدة وتبدد الناس في البرية ورموا اموالهم وكان السعيد منهم من نجا بنفسه وجمع العدو ما أمكنه وجمعه من الخيل والبغال والاثقال وسائر أنواع الاموال وكلف الجمالين خدمة الجمال والخربندية خدمة البغال والسياسة خدمة الخيل وسار في جحفل من غنيمة يطلب عسكره ولقد حكى من كان أسيرا معهم انه في تلك الليلة وقع فيهم الصوت ان العسكر السلطاني قد لحقهم فتركوا الغنيمة وانهزموا وبعدوا عنها زمانا ثم انكشف الامر فعادوا وقد هرب جمع من الاسرى وكان الحاكي منهم واخبران الاسارى خمسمائة والجمال تناهز ثلاثة آلاف جمل ووصل العدو الى مخيمه سادس عشر جمادى الآخرة وكان يوما عظيما عندهم وصح عزمهم على القدس وقويت نفوسهم بما حصلوا عليه من الاموال والجمال التي تنقل الميرة والازواد ورتبوا جماعة على ليحفظون الطريق على من ينقل الميرة وانفذوا الكندهري الى صور واطرابلس وعكا يستحضر من فيها من المقاتلة ليصعدوا الى القدس حرسه الله تعالى ولما عرف السلطان ذلك منهم عمد الى الاسوار فقسمها على الامراء وتقدم اليهم بتهيئة أسباب الحصار وأخذ في افساد المياه ظاهر القدس فخرب الصهاريج والجباب بحيث لم يبق حول القدس ماء يشرب أصلا وأرض القدس لا يطمع في حفر بئر فيها ماء معين في جميعها لانها جبل عظيم وحجر صلب وسير الى العساكر يطلبها من الجوانب والبلاد قال ولما كان ليلة الخميس تاسع عشر جمادى الآخرة أحضر السلطان الامراء عنده فحضر الامير أبو الهيجا السمين بمشقة عظيمة وجلس على كرسي في خدمة السلطان وحضر المشطوب والاسدية باسرهم وجماعة الامراء ثم أمرني ان أكلمهم واحثهم على الجهاد فذكرت ما يسر الله من ذلك وكان مما قلته ان النبي صلى الله عليه وسلم لما استند به الامر بايعه الصحابة رضوان الله عليهم على الموت في لقاء العدو ونحن أولى من تأسى به صلى الله عليه وسلم والمصلحة الاجتماع عند الصخرة والتحالف على الموت فلعل ببركة هذه النية يندفع هذا العدو ما استحسن الجماعة ذلك ووافقوا عليه ثم شرع السلطان بعد ان سكت زمانا في صورة فكر والناس سكوت كان على رؤسهم الطير ثم شرع وقال الحمد لله والصلاة على رسول الله اعلموا انكم جند الاسلام اليوم ومنعته وأنتم تعلمون ان دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم معلقة في ذمتكم وان هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه الا أنتم فان لم يتم أعنتكم والعياذ بالله طوى البلاد كطي السجل للكتاب وكان ذلك في ذمتكم فانكم أنتم الذين تصدتم لهذا كله وأكلتم مال بيت مال المسلمين فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم والسلام فانتدب لجوابه سيف الدين المشطوب وقال يا مولانا نحن مماليكك وعبيدك وأنت الذي أنعمت علينا وكبرتنا وعظمتنا وأعطيتنا وأغنيتنا وليس لنا الا رقابنا وهي بين يديك والله ما يرجع أحد منا عن نصرتك الى ان يموت فقال الجماعة مثل ما قال وانبسطت نفس السلطان بذلك المجلس وطاب قلبه وأطعمهم ثم انصرفوا ثم انقضى يوم الخميس على أشد حال في التأهب والاهتمام حتى اذا كان العشاء الآخرة اجتمعنا في خدمته على العادة وسمرنا حتى مضى هزيع من الليل وهو غير منبسط على عادته ثم صلينا العشاء وكانت الصلاة هي الدستور العام فصلينا وأخذنا في الانصراف فدعاني رحمه الله وقال أعلمت ما الذي تجدد قلت لا قال ان أبا الهيجا السمين انفذ الي اليوم وقال اندا اجتمع عندي جماعة المماليك الامراء وأنكروا علي ما وافقتنا ان على الحصار والتأهب له وقالوا لا مصلحة في ذلك

فانا نخاف ان نحصر ويجرى علينا مثل ما جرى على أهل عكا وعند ذلك تؤخذ بلاد الاسلام جميعا والرأى ان نلقى مصاف فان قدر الله أن نهزمهم ملكنا بقية بلادهم وان تكن الاخرى سلم العسكر ومضى القدس وقد انحفظت بلاد الاسلام بعساكرها مدة تعمير القدس وكان رحمه الله عنده من القدس أمر عظيم لا تحمله الجبال فشق عليه هذه الرسالة وأقمت تلك الليلة فى خدمته حتى الصباح وهى من الليالى التى أحياها فى سبيل الله رحمه الله وكان مما قالوه فى الرسالة انك ان أردتنا نقيم معنا أو بعض أهلك حتى نجتمع عنده والا فالاكراد لا يدينون للاتراك والاتراك لا يدينون للاكراد وانفصل الحال على أن يقيم من أهله مجد الدين بن فرخشاه صاحب بعلبك وكان رحمه الله يحدث نفسه بالمقام ثم منعه رأيه عنه لما فيه من خطر الاسلام فلما قارب الصبح أشفقت عليه وخاطبته فى أن يستريح ساعة لعل العين تأخذ حظها من النوم وانصرفت عنه الى دارى فما وصلت الا والمؤذن قد أذن فأخذت فى أسباب الوضوء فما فرغت الا والصبح قد طلع وكنت أصلى الصبح معه فى غالب الاحوال فعدت الى خدمته وهو يجدد الوضوء فصلينا ثم قلت له قد وقع لى واقع أعرضه فأذن لى فيه فعلمت المولى فى اهتمامه وما قد حمل نفسه من هذا الامر مجتهد فيما هو فيه وقد عجزت أسبابه الارضية فيما ينبغى أن يرجع الى الله تعالى وهذا يوم الجمعة وهو أبرك أيام الاسبوع وفيه دعوة مستجابة فى صحيح الاحاديث ونحن فى أبرك موضع بقدر أن يكون فيه فى يومنا هذا فالسلطان يغتسل للجمعة ويتصدق بشئ خفية بحيث لا يشعر به منك وتصلى بين الاذان والاقامة ركعتين تناجى فيهما ربك وتفوض مقاليد أمورك اليه وتعترف بعجزك عما تصديت له فلعل الله يرحمك ويستجيب دعاءك قال وكان رحمه الله حسن العقيدة تام الايمان يتلقى الامور الشرعية بأكمل انقياد وقبول ثم انفصلنا فلما كان وقت الجمعة صليت الى جانبه فى الاقصى وصلى ركعتين ورأيته ساجدا وهو يذكر كلمات ودموعه تتقاطر على مصلاه رحمه الله ثم انقضت الجمعة بخير لما كان عشيتها ونحن فى خدمته على العادة وصلت رقعة جرديك وكان فى البزك يقول فيها ان القوم ركبوا بأسرهم ووقفوا فى البر على ظهر ثم عادوا الى خيامهم وقد سيرنا جواسيس تكشف أخبارهم ولما كان صبيحة السبت وصلت رقعة أخرى يخبر فيها ان الجواسيس رجعوا وأخبروا ان القوم اختلفوا فى الصعود الى القدس والرحيل الى بلادهم فذهب الفرنسيسية الى الصعود الى القدس وقالوا نحن انما جئنا من بلادنا بسبب القدس ولا نرجع دونه وقال الانكلتيرى ان هذا الموضع قد أفسدت مياهه ولم يبق حوله ماء أصلا فأين نشرب فقالوا له نشرب من نهر نقوع وبينه وبين القدس مقدار فرسخ فقال كيف نذهب الى السقى فقالوا ننقسم قسمين قسم يذهب الى السقى مع الدواب وقسم يبقى على البلد فى البزك ويكون الشرب فى اليوم مرة فقال الانكلتيرى اذا يؤخذ العسكر البرانى الذى يذهب مع الدواب ويخرج عسكر البلد على الباقين ويذهب دين الصرانية فانفصل الحال على انهم حكموا ثلثمائة من أعيانهم وحكم الثلثمائة اثنى عشر من أعيانهم وحكم الاثنا عشر ثلاثة منهم وقد باتوا على حكم الثلاثة فيما يأمرونهم به يفعل فلما أصبحوا حكموا عليهم بالرحيل فلم تمكن المخالفة وأصبحوا فى بكرة الحادى والعشرين من جمادى الآخرة راحلين الى نحو الرملة ناكصين على أعقابهم ولله الحمد ووقف عسكرهم الى ان لم يبق فى المنزله الا الاثار ثم نزلوا بالرملة وتواتر الخبر بذلك فركب السلطان قدس الله روحه وركب الناس وكان سرور وفرح ولكن السلطان خاف على مصر لما حصلوا عليه من الجمال والظهر وكان تحدث الانكلتيرى مثل هذا مرارا

(فصل) فى تردد رسل الانكلتيرى فى معنى الصلح وما جرى فى اثناء ذلك الى أن تم ولله الحمد وقد ساق ذلك القاضى ابن شداد أحسن سياق واستقصى الامر فيه بخلاف العماد فقال ان الانكلتيرى جاء منه رسول يقول قد هلكنا نحن وأنتم والاصلح حقن الدماء ولا ينبغى أن يعتقد ان ذلك عن ضعف منى بل للمصلحة ولا تغتر بتأخرى عن منزلى قال الكبش يتأخر لينطح ثم جاء رسوله يقول لا يجوز لك أن تهلك المسلمين كلهم ولا يجوز لى أن أهلك الفرنج كلهم وهذا ابن أختى الكندهرى قد ملكته هذه الديار وسلمته اليك يكون هو وعسكره بحكمك ولو استدعيتهم الى الشرق سمعوا وأطاعوا وان جماعة من الرهبان والمنقطعين قد طلبوا منك كنائس فما بخلت عليهم بها وأنا أطلب منك كنيسة وتلك الامور التى كانت تضيق صدرك لما كانت تجرى المراسلة مع الملك العادل قد قلت بتركها وأعرضت عنها ولو أعطيتنى مقرعة أو قربة قبلتها وقبلتها فاستشار السلطان الامراء فى جوابه فأشاروا بالمحاسنة وعقد

الصلح لما كان قد أخذ المسلمين من الضجر والتعب وعلاهم من الديون واستقر الحال على هذا الجواب انك اذا
دخلت معنا هذا الدخول فما جزاء الاحسان الا الاحسان ابن أختك يكون عندى كبعض أولادى وسيبلغك ما أفعل
فى حقه من الخير وأنا أعطيك أكبر الكنائس وهى القمامة وبقية البلاد نقسمها والساحلية التى بيدك تكون بيدك
والتى بأيدينا من القلاع الجبلية تكون لنا وما بين العملين يكون مناصفة وعسقلان وما وراءها تكون خرابا لا لنا ولا لكم
وان أردتم قراها كانت لكم والذى كنت أكرهه حديث عسقلان فانفصل الرسول طيب القلب واتصل الخبر انهم بعد
وصول الرسول اليهم راحلون الى جهة عسقلان طالبون جهة مصر ووصل رسول من جانب قطب الدين بن قليج
ارسلان يقول ان البابا قد وصل الى قسطنطينيه فى خلق لا يعلم عددهم الا الله تعالى وقال الرسول انى قتلت فى
الطريق اثنى عشر فرسا ويقول تقدم الى من يتسلم بلادى منى فانى قد عجزت عن حفظها فلم يصدق السلطان هذا
الخبر ولا كثرث به ثم جاء رسول الانكتيرى يطلب أن يكون فى قلعة القدس عشرون نفرا وان من سكن من النصارى
والفرنج فى البلد لا يتعرض لهم وأما بقية البلاد فلنا منها الساحليات والوطأة والبلاد الجبلية لكم وأخبر الرسول
من عند نفسه مناصحة انهم قد نزلوا عن حديث القدس ما عدا الزيارة وانهم يقولون هذا تصنعا وانهم راغبون فى الصلح
وان ملك انكلتيرة لا بد له من الرواح الى بلده فأجيب بأن القدس ليس لكم فيه حديث سوى الزيارة فقال الرسول وليس
على الزوار شئ يؤخذ منهم فعلم من هذا القول الموافقة وأما البلاد فعسقلان وما وراءها لا بد من خرابه فقال الرسول
قد خسر الملك على سورها ما لا جزيلا فسأل المسطوب أن يجعل مزارعها وقراها له فى مقابلة خسارته فأجاب السلطان
وان الداروم وغيره يخرب ويكون بلادها مناصفة وأما باقى البلاد فيكون لهم من يافا الى صور باعمالها ومهما اختلفنا
فى قرية كانت مناصفة ثم جاء الرسول يقول الملك يسألك ويخضع لك فى أن تترك له هذه الاماكن البلاثة عامرة وأى
قدر لها عند ملكك وعظمتك وما سبب اصراره عليها الا أن الفرنج لم يسمحوا بها وهو قد ترك القدس بالكلية
لا بطلب أن يكون فيه لا رهبان ولا قسوس الا فى القمامة وحدها فتترك له أنت هذه البلاد ويكون الصلح عاما فيكون
لهم كل ما فى أيديهم من الداروم الى انطاكية ولكم ما فى أيديكم وينتظم الحال ويروح وان لم ينتظم الصلح فالفرنج
ما يمكنونه من الرواح ولا يمكنه مخالفتهم قال القاضى فانظر الى هذه الصناعة فى استخلاص الغرض بالمين تارة
وبالخشونة أخرى وكان لعنه الله مضطرا الى الرواح وهذا عمله مع اضطراره والله المسؤل فى أن يكفى المسلمين مكره
فما بلوا بأعظم حيلة ولا أشد اقداما منه فأجابه السلطان بأن انطاكية لنا معهم حديث فيها ورسلنا عندهم فان عادوا
بما يريد أدخلناهم فى الصلح والا فلا وأما التى سألها فلا نوافق المسلمون على دفعها اليه والا فلا قدر لها وأما سور
عسقلان فيأخذ فى مقابلة ما خسر عليه لد فى الوطأة ثم عاد الرسول وقال ان الملك قال لا يمكننا أن نخرب من عسقلان
حجرا واحدا ولا يسمع فى البلاد مثل ذلك وأما البلاد فحدودها معروفة لا ماكر فيها وعند ذلك تأهب السلطان
للخروج الى جهة العدو واظهار القوة وشدة العزم على اللقاء وبلغه فى العاشر من رجب ان الفرنج خذلهم الله قد
رحلوا طالبين نحو بيروت فبرز من القدس الى منزلة يقال لها الجيب وجاء العادل من الشرق والظاهر من حلب
ورحل من الجيب الى بيت نوبة ثم رحل الى الرملة فنزل بها على تلال بين الرملة ولد وركب جريدة حتى أتى يازور وبيت
حنن وأشرف على يافا ثم نزل عليها من الغد ورتب عسكره فى الميمنة ولده الظاهر وفى الميسرة أخوه العادل وركب
المنجنيقات وزحف عليها فأرسل العدو رسولين نصرانيا وفرنجيا يطلبان الصلح فطلب منهم قاعدة القدس وقطيعته
فأجابوا الى ذلك واشترطوا أن ينظروا الى يوم السبت تاسع عشر رجب فان جاءتهم نجدة والا تمت القاعدة على
ما استقر فأبى السلطان الانظار وأمر بالنقب فمشى وأحرق فوقع بعض البدنة فوضع العدو أخشابا عظيمة خلف
النقب فالتهب فمنع من الدخول فى النملة وقاتلت خارج الابواب الى الليل فلما أصبحوا وقعت البدنة فعلا غبار مع
الدخان فأظلم الافق وما تجاسر أحد على الولوج خوفا من اقتحام النار فلما انكسفت الغبرة ظهرت أسنة قد نابت
مناب الاسوار ورماح قد سدت النملة حتى عن نفوذ الابصار ورأى الناس هولا عظيما من صبر القوم وثباتهم
ولقد رأيت رجلين على ممشى السور يمنعان المتسلق فيه من جهة الثلمة وقد أتى أحدهما حجر المنجنيق
فأخذه

فأخذه ونزل الى داخل فقام رفيقه فى مقامه متصديا لمثل ما لحقه أسرع من لمح البصر بحيث لم يفرق بينهما الا ناقد بصير ولما رأى العدو ما قد آل الامر اليه سيروا يطلبون الامان فقال رحمه الله الفارس بفارس والتركيلى بمثله والراجل بالراجل والعاجز فعلى قطيعة القدس فنظر الرسول ورأى القتال على الثلمة أشد من اضرام النار فسأل السلطان ان يبطل القتال الى ان يعود فقال ما أقدر على منع المسلمين من هذا الامر ولكن ادخل الى أصحابك فقل لهم ينحازون الى القلعة ويتركون الناس يشتغلون بالبلد فما بقى دونه مانع ففعلوا وانحازوا الى قلعة يافا بعد ان قتل منهم جماعة ودخل الناس البلد عنوة ونهبوا منه أغشة عظيمة وغلالا كثيرة واثاثا وبقايا قماش ما نهب من القافلة المصرية واستقرت القاعدة على الوجه الذى قرره السلطان وكان قايماز النجمى فى طرف الغور لحمايته من عسكر العدو الذى لعكا فوصل منه كتاب يخبر فيه ان الانكلتيرى الملعون لما سمع خبر يافا أعرض عن قصد بيروت وعاد على قصد يافا فاشتد عزم السلطان على تتمة الامر وتسلم القلعة وكنت ممن لم ير الامان لانه قد لاح أخذهم وكان الناس لهم مدة لم يظفروا من العدو بمغنم يوثبهم عليه مكان اخذهم عنوة مما يبعث هم العسكر غير ان الامان وقع واتفق الصلح فمكث بعد ذلك ممن يحث على اخراج العدو من القلعة وتسلمها خوفا من لحوق النجدة وكان السلطان يشتد حرصه على ذلك غير ان الناس قد أقعدهم التعب عن امتثال الامر وأخذ منهم الحديد وشدة الحر ودخان النار بحيث لم يبق لهم استطاعة على الحركة وسمعنا بوق الفرنج فى السحر فعلمنا بوصول النجدة عز الدين جردبك وعلم الدين قيصر ودرباس المهرانى وعدل الخزانة شمس الدين وقال امض الى الملك الظاهر وقل له يقف ظاهر الباب القبلى وتدخل أنت ومن تراه الى القلعة وتخرجون القوم وتستولون على ما فيها من الاموال والاسلحة وتكتبها بخطك الى الظاهر وهو ظاهر البلد وهو يسيرها الينا ففعلنا ودخلنا القلعة وأمرنا الفرنج بالخروج فاجابوا وتهيئوا فقال جردبك لا ينبغى ان يخرج منهم أحد حتى يخرج الناس من البلد خشية ان يتخطفوهم وكان الناس قد داخلهم الطمع فى البلد وأخذ يشتد فى ضرب الناس واخراجهم وهم غير مضبوطين بعدة ولا محصورين فى مكان فكيف يمكن اخراجهم وطال الامر الى ان علا النهار وأنا ألومه وهو لا يرجع عن ذلك والزمان يمضى فلما رأيت الوقت يفوت قلت له ان النجدة قد وصلت والمصلحة المسارعة فى اخراجهم فاجاب وأخرجنا خمسة وأربعين نهرا بخيولهم ونسائهم وسيرناهم ثم اشتدت أنفس الباقين وحدثتهم نفوسهم بالعصيان وكانوا استقلوا المراكب التى جاءتهم وظنوا ان لا نجدة لهم فيها ولم يعلموا ان الانكلتيرى مع القوم ورآهم قد تأخروا عن النزول الى علو النهار فخافوا ان يمتنعوا فيؤخذوا ويقتلوا فخرج من خرج ثم بعد ذلك قويت النجدة حتى صاروا خمسة وثلاثين مركبا فقويت نفوس الباقين فى الحصن فظهرت منهم امارات العصيان ودلائله فقلت لاصحابنا خذوا حذركم فقد تغيرت عزائم القوم فما كان الا ساعة بحيث صرت خارج البلد وقد حمل القوم من القلعة وأخرجوا من كان فى البلد من الاجناد ولقد ازدحم الناس فى الباب حتى كاد يتلف منهم جماعة وبقى فى بعض الكنائس جماعة من رعاع العسكر مشتغلين بما لا يجوز فهجموا عليهم وقتلوا منهم وأسروا ولما عرف السلطان أمر الناس زحف وعاد للحصار كما كان وحشروا العدو فى القلعة واستبطؤا نزول النجدة اليهم وخافوا خوفا عظيما فارسلوا بطركهم والقسطلان الى السلطان يعتذران مما جرى ويسألانه القاعدة الاولى وكان سبب امتناع نزول النجدة انهم رأوا البلد مشحونا بيارق المسلمين ورجالهم فخافوا ان تكون القلعة قد أخذت وكان البحر يمنع من سماع الصوت وكثرة الضجيج والتهليل والتكبير فلما رأى من فى القلعة شدة الزحف عليهم وامتناع النجدة من النزول مع كثرتها فانها بلغت نيفا وخمسين مركبا منها خمسة عشر من الشوانى علموا ان النجدة قد ظنوا ان البلد قد أخذ فوهب رجل منهم نفسه للمسيح وقفز من القلعة الى الميناء وكان رملا فلم يصبه شئ وعدا الى البحر فحدث الانكلتيرى بالحديث فما كان الا ساعة حتى نزل كل من فى الشوانى الى الميناء هذا كله وأنا أشاهد ذلك فحملوا على المسلمين فاخرجوهم من الميناء فقبض السلطان على الرسل وأمر بتأخير الثقل والاسواق الى يازور فرحل الناس وتخلف لهم ثقل عظيم مما كانوا نهبوا من يافا وخرج الانكلتيرى الى موضع السلطان الذى كان فيه لمضايقة البلد وامر من فى القلعة ان يخرجوا اليه لتعظيم سواده ثم اجتمع به جماعة من المماليك طلبهم وحضر الحاجب أبو بكر العادلى وكان قد صادق جماعة من خواص المماليك ودخل معهم دخولا عظيما بحيث كانوا

يجتمعون به فى أوقات متعددة وكان قد صادق من الامراء جماعة كبدر الدين دلدرم وغيره فلما حضروا عنده جدّ وهزل ومن جملة ما قال هذا السلطان عظيم وما فى الارض للاسلام ملك اكبر ولا أعظم منه كيف رحل عن المكان بمجرد وصولى ووالله ما لبست لامة حربى ولا تأهبت لامر وليس فى رجلى الا زربول البحر فكيف تأخر ثم قال والله انه لعظيم والله ما ظننت انه يأخذ يافا فى شهرين فكيف أخذها فى يومين ثم قال لابى بكر الحاجب تسلم على السلطان وتقول له بالله عليك اجب سؤالى فى الصلح فهذا أمر لا بد له من آخر وقد هلكت بلادى وراء البحر وما دام هذا مصلحة لانا ولا لكم فارسل السلطان اليه فى الجواب انك كنت طلبت الصلح أولا على قاعدة وكان الحديث فى يافا وعسقلان والآن فقد خربت هذه يافا فيكون من قيسارية الى صور فارسل الانكلتيرى يقول ان قاعدة الافرنج انه اذا أعطى واحد البلد اصار تبعه وغلامه وانا اطلب منك هذين البلدين يافا وعسقلان وتكون عساكرهما فى خدمتك دائما واذا احتجت الىّ وصلت اليك فى اسرع وقت وخدمتك كما تعلم خدمتى فقال السلطان حيث دخلت هذا المدخل فانا اجيبك على ان تجعل البلدين قسمين أحدهما لك وهو يافا وما وراءها والثانى لى وهو عسقلان وما وراءها ثم رتب السلطان اليزك يسارو وامر بخرابها وخراب بيت حس ورتب النقابين لذلك وسار الى الرملة فعاد رسول الانكلتيرى يشكر على اعطائه يافا ويجدد السؤال فى عسقلان ويقول له ان وقع الصلح فى هذه الايام الستة سار الى بلاده والا احتاج ان يشتى ههنا فاجابه السلطان فى الحال وقال أما النزول عن عسقلان فلا سبيل اليه وأما تشتيته ههنا فلا بد منها لانه قد استولى على هذه البلاد ويعلم انه متى غاب عنها أخذت لضرورة واذا أقام أيضا ان شاء الله تعالى واذا سهل عليه ان يشتى ههنا ويبعد عن أهله ووطنه مسيرة شهرين وهو شاب فى عنفوان شبابه ووقت اقتناص لذاته فما يسهل علىّ ان أشتى واصيف وأنا فى وسط بلادى وعندى أهلى واولادى ويأتى الىّ ما أريده ومن أريده وانا رجل شيخ قد كرهت لذات الدنيا وشبعت منها ورفضتها عنى والعسكر الذى يكون عندى فى الشتاء غير الذى يكون فى الصيف وانا اعتقد انى فى اعظم العبادات ولا أزال كذلك حتى يعطى الله النصر لمن يشاء ثم جاء رسول يقول كم أطرح نفسى على السلطان وهو لا يقبلنى وانا كنت أحرص حتى أعود الى بلادى والآن فقد هجم الشتاء وتغيرت الانواء وعزمت على الاقامة وما بقى بيننا حديث ثم بلغ السلطان ان عسكر العدو قد رحل من عكا قاصدا يافا فسار رحمه الله فنزل على العوجا ووصل من أخبره ان العدو دخل قيسارية ولم يبق فيه طمع وبلغه ان ملك الانكلتيرة نازل خارج يافا فى نفر يسير فوقع له ان يكبسه فاتاه فوجد خيمه نحو عشر خيم فحملوا عليهم فنبتوا ولم يتحركوا من اماكنهم وكشروا عن أنياب الحرب وكانوا على الموت أصبر فارتاع المسلمون منهم ووجوا من ثباتهم وراداوا حولهم حلقة وكانت عدة الخيل سبعة عشر وقيل تسعة والرجالة ثلثمائة أو أكثر فوجد السلطان من ذلك موجدة عظيمة وداره على الاطلاب بنفسه يحثهم على الحملة ويعدهم بالحسنى على ذلك فلم يجب دعاءه أحد سوى ولده الظاهر قال وبلغنى انه قال له الجناح اخوا المشطوب قل لعلمانك الذين ضربوا الناس يوم فتح يافا واخذوا منهم الغنيمة يحملون وكان فى قلوب العسكر من صلح السلطان على يافا شئ حيث فوتهم الغنيمة فلما رأى السلطان ذلك أعرض عن القتال وغضب وسار الى بازور قال ولقد بلغنى ان الانكلتيرى أخذ رمحه ذلك اليوم وحمل من طرف الميمنة الى طرف الميسرة فلم يتعرض له أحد قلت ووصل من الفاضل كتاب من دمشق يقول فيه (كثر الارجاف بهلاك ملك الانكلتيرة فان كان كذلك فجواب كل من قصر فى يافا عن أخذه عن السلطان الا تنصروه فقد نصره الله وجواب السلطان لهم عن ملك الانكلتيرة الا تقتلوه فقد قتله الله ولم يزل لطيفا ولم يزل مولانا يحمل الثقل ثقيلا وخفيفا ومن كان الله عليه لم يكن قويا ومن كان الله معه لم يكن ضعيفا) قال القاضى ثم سار السلطان الى النطرون ثم الى القدس فنظر الى العمائر ورتبها ثم عاد الى النطرون وتوافت اليه فيه العساكر ووصل علاء الدين ابن صاحب الموصل ثم قدم عسكر مصر وفيهم سيف الدين بازكوج وجماعة الاسدية فى خدمة ولده الملك المؤيد مسعود ووصل المنصور ناصر الدين محمد بن تقى الدين فلقيه الظاهر الى بيت نوبه ودخل به على السلطان فنهض واعتنقه وضمه الى صدره وغشيه البكاء فصبر نفسه حتى غلبه الامر فبكى الناس لبكائه ساعة ثم باسطه وسأله عن الطريق وكان معه عسكر جميل فقرت عين السلطان به ثم سار ونزل فى مقدمة العسكر مما يلى الرملة

ولما رأى السلطان العساكر قد اجتمعت جمع أرباب الرأى وقال ان ملك الانكلتيرة قد مرض مرضا شديدا والافرنسيسية قد سار راجعين ليعبروا البحر من غير شك ونفقاتهم قد قلت وارى ان نسير الى يافا فان وجدنا فيها طمعا والا عدنا الى عسقلان فما تلحقها النجدة الا وقد بلغنا منها غرضا فوافقوه على ذلك فارسل عز الدين جرديك وجمال الدين فرج سادس شعبان حتى يكونا قريبا من يافا هذا ورسل الانكلتيرى لا تنقطع فى طلب الهاكهة والثلج وأوقع الله عليه فى مرضه شهوة الكثرى والخوخ وكان السلطان يمده بذلك ويقصد كشف الاخبار بتواتر الرسل والذى انكشف له ان فيها ثلثمائة فارس على قول المكثر ومائتى فارس على قول المقلل وان الكندهرى تردد بينه وبين الفرنسيسية فى مقامهم وهم عازمون على عبور البحر قولا واحدا فسار السلطان الى جهة الرملة وجاء رسول الانكلتيرى مع الحاجب ابى بكر يشكر السلطان على اسعافه بالفاكهة والثلج وذكر أبو بكر انه انفرد به وقال له قل لاخى يعنى الملك العادل يتبصر كيف نتوصل الى السلطان فى معنى الصلح و يستوهب له منه عسقلان وامضى و يبقى هو ههنا مع هذه الشرذمة اليسيرة يأخذ البلاد منهم فليس غرضى الا اقامة جاهى بين الفرنجية وان لم ينزل السلطان عن عسقلان فليأخذ لى منه عوضا عن خسارتى على عمارة سورها فارسل السلطان الى العادل ان نزلوا عن عسقلان قصالحهم فان العسكر قد ضجر من ملازمة البيكار والنفقات قد نفدت ثم ان الانكلتيرى نزل عن عسقلان وعن العوض عنها واستوثق منه على ذلك فاحضر السلطان الديوان يوم السبت نامن عشر شعبان وذكر يافا وعملها واخرج الرملة منها ولد و بجدل باما ثم ذكر قيسرية واعمالها وارسوف وعملها وحيفا وعملها وعكا وعملها واخرج منها الناصرة وصفورية واثبت الجميع فى ورقة وقال للرسول هذه حدود البلاد التى تبقى فى ايديكم فان صالحتم على ذلك فمبارك وقد اعطيتكم بدى فينفذ الملك من يحلف فى بكرة غد والا فنعلم ان هذا بدفع ومماطلة وكان من القاعدة ان تكون عسقلان خرابا وان يتفق أصحابنا وأصحابهم على خرابها واشترط دخول بلاد الاسماعيلية واشترطوا هم دخول صاحب انطاكية وطرابلس فى الصلح وشرط ان تكون الرملة ولد بين المسلمين وبينهم مناصفة واستقرت القاعدة على انهم يحلفون يوم الاربعاء الثانى والعشرين من شعبان ورضى الاسبتارية والداوية وسائر مقدمى الافرنجية بذلك ولم يحلف الانكلتيرى بل أخذ وايده وعاهدوه واعتذر بان الملوك لا يحلفون وقنع من السلطان بمثل ذلك ثم حلف الجماعة فحلف الكندهرى ابن اخته المتخلف عنه فى الساحل وباليان بن بارزان ابن صاحبة طبرية ووصل ابن الهنفرى وابن بازران وجماعة من مقدميهم الى السلطان فاخذ وأيده على الصلح واقترحوا حلف جماعة العادل والافضل والظاهر المنصور وسيف الدين المشطوب ولدرم وابن المقدم وصاحب شيزر وكل مجاور لبلادهم وحلف صاحب انطاكية وطرابلس وعلق اليمين بشرط حلفهم للمسلمين قال ووصل رسول سيف الدين بكتمر صاحب خلاط يبدى الطاعة والموافقة وتسيير العسكر وحضر رسول الكرج وذكر فصلا فى معنى الديارات التى لهم فى القدس وعمارتها وشكوا من انها أخذت من ايديهم و يسأل ردها الى أيدى نوابهم وورد رسول صاحب ارض الروم يبذل الطاعة والعبودية قال العماد وعقدت هدنة عامة فى البر والبحر والسهل والوعر وجعل لهم من يافا الى قيسارية الى عكا الى صور وأدخلوا فى الصلح اطرابلس وانطاكية ووقعت المصالحة مدة ثلاث سنين وثلاثة أشهر اولها مبتدأ ايلول الموافق للحادى والعشرين من شعبان قال وكان الفرنج قد ملؤوا يافا من الرجال والاسلحة والاقوات ليتقووا بها على فتح القدس لتكون لهم ظهرا وعونا لقربها من البيت المقدس قلت ومن الالفاظ الفاضلية (وقد فعلت الاقدار فى رياضة عرائكهم ما كان سببه هذه الحركات المباركة وكيف تشنع ملك انكلتيرة بالغدر وهو لعنه الله قد اتى باقبح الغدر واخسه فى أهل عكا نهارا جهارا وشهد فيها بخزيه وفضيحته المسلمون والنصارى وغدر الفرنج معلوم

اذا غدرت حسناء أوفت بعهدها ❋ ومن عهدها ان لا يدوم لها عهد

القوم هادنوا لما ضعفوا ويفسخون اذا قووا ونحن ننتظر فى ملك انكلتيرة ما تفصح عنه المقادير فى أمره اما الهلاك ولا يأس بها فيلقى الاحبة المركيس والدوك وملك الالمان ويؤنس فى النار غربتهم ويكثر عدتهم واما ان يعافى فهو بين أمرين اما ان يرجع الى لعنة الله والى مروءة البحر فى تغريقه واما ان يقيم فهنالك قد أبدى الشر ناجذيه ونكص

الملعون من الوفاء على عقبيه وانتظر الفرصة لينتهز والعورة ليثب) ومما قيل فى هذه الهدنة أبيات من قصيدة نجم الدين يوسف بن الحسين بن المجاور التى تقدمت فى فتح البيت المقدس وهى

يا صاح قل للانكتير الكلب دع ❁ عنك الجنون وخذه قالة منصف
القدس ما فيه لسرجك مطمع ❁ كلا ولا نور الاله بمنطفئ
والمسجد الاقصى فعنه تقص من ❁ وقع الدبابيس الاليمة تعرف
واستفت نفسك فهى أخبث ناصح ❁ واترك متابعة اللجاج المتلف
واعجب لرمح بالرؤس معمم ❁ واطرب لسيف بالدماء مغلف
قد قلت لما قيل صلح قد جرى ❁ هذا حديث محرّف ومحرّف
سلف تولى السيف عقد شروطه ❁ أحبب به من مسلم ومسلف
ظنوه سلما وهو فى أرواحهم ❁ سلم الى أجل لهم متخلف

وذكر أبو الحسن بن الساعاتى الانكلتيرى هذا فى شعره فى قصيدة مدح بها السلطان رحمهما الله يقول فيها

منعت ظباء المنحنى باسوده ❁ وأشدّ ما أشكوه فتك ظبائه
فعلت بنا وهى الصديق لحاظها ❁ كظبى صلاح الدين فى أعدائه
سل عنه قلب الانكتير فان فى ❁ خفقانه ما شئت من أنبائه
لولاك أم البيت غير مدافع ❁ واسال سيل نداه فى بطحائه
وبكت جفون القدس ثانية دما ❁ لترنم الناقوس فى أفنائه

(فصل) فيما جرى بعد الهدنة قال القاضى أمر السلطان ان ينادى فى الوطاقات والاسواق الان الصلح قد انتظم فمن شاء من بلادهم يدخل بلادنا فليفعل ومن شاء من بلادنا يدخل الى بلادهم فليفعل وأشاع رحمه الله ان طريق الحج قد فتح من انشام ووقع له عزم الحج فى ذلك المجلس وكنت حاضر ذلك جميعه وآمر ان يسير مائة نقاب لتخريب سور عسقلان معهم أمير كبير ولا خراج الفرنج منها ويكون معهم جماعة من الفرنج الى حين وقوع الخراب فى السور خشية من استيفائه عامرا ففعل ذلك وخربت وكان يوم الصلح يوما مشهودا غشى الناس من الطائفتين من الفرح والسرور ما لا يعلمه الا الله تعالى والله العالم ان الصلح لم يكن من ايثاره فانه قال لى فى بعض محاوراته فى الصلح أخاف ان أصالح وما أدرى ايش يكون منى فيقوى هذا العدوّ وقد بقى لهم هذه البلاد فيخرجون لاستعادة بقية بلادهم ونرى كل واحد من هؤلاء الجماعة قد قعد فى رأس قلعه يعنى حصنه وقال لا أنزل ويهلك المسلمون فهذا كلامه وكان كما قال رحمه الله لكنه رأى المصلحة فى الصلح لسأم العسكر ومجاهرتهم بالمخالفة وكان ذلك مصلحة علمها الله تعالى فانه اتفقت وفاته بعيد الصلح ولو كان اتفق ذلك فى أثناء الوقعات لكان الاسلام على خطر فما كان الصلح الا توفيقا وسعادة من الله رحمة الله عليه ورحل السلطان الى النطرون واختلط العسكران وذهب جماعة من المسلمين الى يافا فى طلب التجارة ووصل خلق عظيم من العدوّ الى القدس للحج وفتح لهم السلطان الباب فى ذلك ونفذ معهم الخفر يحفظونهم حتى يردّوهم الى يافا وكان غرض السلطان بذلك ان يقضوا وطرهم من الزيارة ويرجعوا الى بلادهم فيأمن المسلمون شرهم ولما علم الملك كثرة من يزورمنهم صعب عليه ذلك وسير الى السلطان يسأله منع الزوّار واقترح ان لا يأذن لاحد الا بعد حضور علامة من جانبه أو بكتابه وعلمت الفرنجية ذلك فعظم عليها واهتموا فى الحج فكان يرد فى كل يوم منهم جموع كثيرة مقدّمون وأوساط وملوك متنكرون وشرع السلطان فى اكرام من يرد ومدّ الطعام لهم ومباسطتهم ومحادثتهم وعرفهم انكار الملك ذلك وأذن لهم السلطان فى الحج وعرفهم انه لم يلتفت الى منع الملك من ذلك واعتذر الى الملك بان قوما قد وصلوا من ذلك البعد ويسر لهم زيارة هذا المكان الشريف لا استحل منعهم ثم اشتدّ المرض بالملك فرحل ليلة الاربعاء التاسع والعشرين من شعبان وقيل انه مات وسار هو والكندهرى وسائر المقدّمين الى جانب عكا ولم يبق فى يافا الا مريض أو عاجز وتغريسير ثم أعطى السلطان للناس دستورا فسار عسكر أربل والموصل وسنجار والحصن وأشاع رحمه الله أمر الحج وقوى عزمه على براءة الذمة منه

قال القاضي وكان هذا مما وقع لي وبدأت بالاشارة به في يوم تمة الصلح ووقع منه رحمة الله عليه موقعا عظيما وأمر الديوان ان كل من عزم على الحج من العسكر يثبت اسمه حتى يحصى عدة من يدخل معنا الطريق وكتب جرائد بما يحتاج اليه في الطريق من الخلع والازواد وغير ذلك وسيرها الى البلاد ليعدوها ورحل من النطرون رابع شهر رمضان وسار حتى أتى مارى صمويل يفتقد أخاه العادل وكان مريضا بها فوجده قد سار الى القدس وكان قد انقطع عن أخيه مدة بسبب المرض وكان قد تماثل فعرف بمجئ السلطان الى مارى صمويل لعيادته فحمل على نفسه وسار حتى لقيه بذلك المكان وهو أول وصوله ولم ينزل بعد ونزل وقبل الارض وعاد ركب فاستدناه وسأله عن مزاجه وسار اجميعا حتى أتيا القدس بقية ذلك اليوم وقال العماد عاد السلطان بعد السلم الى القدس لتفقد أحواله وعرض رجاله واشتغل بتشييد اسواره وتحصينها وتخليد آثاره وتحسينها وتعميق خنادقه وتوثيق طرائقه وزاد في وقف المدرسة سوقا بدكاكينها وأرضا ببساتينها وكذلك رتب أحوال الصوفية في رعايتها والوقف الكافل بكفايتها وغير الكنيسة التي في شارع قمامة بالبيمارستان ونقل اليه العقاقير والادوية من جميع الانواع والالوان وأدار سور القدس على قبة صهيون وأضافها الى المدينة وأمر بادارة الخنادق على الجميع وصمم العزم على الحج فلم يوافقه القدر وتأسف على فواته بعد ان قدم مقدماته وأقام شهر رمضان وأعاض الاحسان وفوض ولاية القدس واعمالها الى عز الدين جرديك حين استعفى منها حسام الدين سيار وخ وولى مملوكه علم الدين قيصر ما دون القدس لعمل الخليل وغزة والداروم وعسقلان قلت ولما بلغ القاضي الفاضل من قبل السلطان انه عازم على الحج كتب اليه مشيرا بتبطيله (ان الفرنج لم يخرجوا بعد من الشام ولا سلموا عن القدس ولا وثق بعهدهم في الصلح فلا يؤمن مع بقاء الفرنج على حالهم وافتراق عسكرنا وسفر سلاطيننا سفرا مقدرا معلوما مدة الغيبة فيه ان يسر واليلة فيه يصبحوا القدس على غفله فيدخلوا اليه والعياذ بالله ويفرط من يد الاسلام ويصير الحج كبيرة من الكبائر التي لا تغفر ومن العثرات التي لا تقال) ثم قال (وحاج العراق وخراسان أليس هم مائتي ألف وثلثمائة ألف أو أكثر هل يؤمن ان يقال قد سار السلطان لاعب ثار وسفك دم وتشويش موسم فاقعدوا والا فيكون تاريخ سوء أعوذ بالله منه ماهذه الشناعة ممتنعة الوقوع ولا مستبعدة من العقول السخيفة فينعم المولى بتأمل ما أنهاه المملوك مستورا فانه يسأل مولانا ان لا يشارك أحدا فيما يكتبه لا من مهم ولا من غير مهم يا مولانا مظالم الخلق كشفها أهم من كل ما يتقرب به الى الله وماهي بواحدة في اعمال دمشق من المظالم من الفلاحين ما يستغرب معه وقوع القطر ومن تسلط المقطعين على المنقطعين ما لا ينادى وليده وفي وادي بردى والزبداني من الفتنة القائمة والسيف الذي يقطر دما ما لا زاجر له وللمسلمين ثغور تريد التحصين والذخيرة ومن المهمات اقامة وجوه الدخل وتقدير الخرج بحسبها فمن المستحيل نفقة من غير حاصل وفرع من غير أصل وهذا أمر قد تقدم فيه حديث كثير وعرضت للمولى شواغل دونه ومشت الاحوال مشيا على ظلع فلما خلت النوب أعاذ الله من عودها كان خلو بيت المال أشد ما في الشدة وليس المملوك مطالبا بذخيرة تحصل انما يطلب تمشية من حيث يستقر) قلت ولم يزل البيت المقدس شرفه الله تعالى ملحوظا بالعمارة والتحصين من عهد السلطان رحمه الله الى سنة ست عشرة وستمائة فانه خرب في المحرم منها بسبب خروج الفرنج لعنهم الله وانتشارهم في البلاد لخيف من استيلائهم عليه وفي السنة التي قبلها توفي الملك العادل أبو بكر ابن أيوب اخو السلطان وتشتت الناس بعد خرابه ورغبوا عن السكنى به ورثاه الرئيس الفاضل شهاب الدين أبو يوسف يعقوب بن محمد المجاور بقصيدة منها

أعيني لا ترقى من العبرات ❊ صلى في البكا الآصال بالبكرات
لعل سيول الدمع يطفئ فيضها ❊ توقدما في القلب من جمرات
و ياقلب اسعر نار وجدك كلما ❊ خبت بادكار يبعث الحسرات
ويافم بح بالشجو منك لعله ❊ يروح ما ألقى من الكربات
على المسجد الاقصى الذي جل قدره ❊ على موطن الاخبات والصلوات
على منزل الاملاك والوحي والهدى ❊ على مشهد الابدال والبدلات

على سلم المعراج والصخرة التى ❁ أنافت بما فى الارض من صخرات
على القبلة الاولى التى اتجهت لها ❁ صلاة البرايا فى اختلاف جهات
على خير معمور واكرم عامر ❁ واشرف مبنى لخير بناة
ومازال فيه للنبيين معبد ❁ يوالون فى ارجائه السجدات
عفا المسجد الاقصى المبارك حوله الـ ❁ ـرفيع العماد العالى الشرفات
عفا بعدما قد كان للبر موسما ❁ وللبر والاحسان والقربات
يوافى اليه كل أشعث فانت ❁ لمولاه بر دائم الخلوات
خلا من صلاة لايمل مقيمها ❁ توشح بالآيات والسورات
خلا من حنين التائبين وحزنهم ❁ فمن بين نواح وبين بكاة
لتبك على القدس البلاد باسرها ❁ وتعلن بالاحزان والسترحات
لتبك عليها مكة فهى أختها ❁ وتشكو الذى لاقت الى عرفات
لتبك على ماحل بالقدس طيبة ❁ وتشرحه فى أكرم الحجرات
لقد أشمتوا عكا وصور بهدمها ❁ و ياطالما غادتهما بشمات
لقد شتتوا عنها جماعة أهلها ❁ وكل اجتماع مؤذن بشتات
وقد هدموا مجد الصلاح بهدمها ❁ وقد كان مجدا باذخ الغرفات
وقد أخمدوا صوتا وصيتا أثاره ❁ لهم عظم ماوالوا من الغزوات
أما علمت أبناء أيوب انهم ❁ بمسعاه عدوا من السروات
وان افتتاح القدس زهرة ملكهم ❁ وهل ثمر الا من الزهرات
فمن لى بنواح يحن على الذى ❁ شجانى باصوات لهن شجاة
يرددن بيتا للخزاعى قاله ❁ يؤبن فيه خيرة الخيرات
مدارس آيات خلت من تلاوة ❁ ومنزل وحى مقفر العرصات

قلت هذا البيت الاخير لدعبل بن على الخزاعى فى أول قصيدة يرثى بها أهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم وهذه السنة التى توفى فيها العادل قبل التى خرب فيها القدس هى السنة التى نزل فيها الفرنج خذلهم الله على ثغر دمياط حرسه الله تعالى وهى المرة الاولى فى زماننا وأقاموا عليه الى ان استولوا بعد ان جرى لهم نحو مما جرى لهم على عكا ثم أخذه المسلمون منهم وقتلوا وأسروا ثم ان الفرنج استولوا عليه صلحا فى سنة خمس وعشرين وستمائة وشرعوا فى بناء طائفة منه ثم أخرجوا منه عنوة مرتين أخرجهم فى احدى المرتين الملك الناصر صلاح الدين داود بن المعظم شرف الدين عيسى بن العادل أبى بكر بن أيوب وقال فيه حينئذ بعض شعراء العصر (هذا الشاعر هو الصاحب جمال الدين يحيى بن مطروح رحمه الله تعالى)

المسجد الاقصى له عادة ❁ سارت فصارت مثلا سائرا
اذا غدا للكفر مستوطنا ❁ ان يبعث الله له ناصرا
فناصر طهره أولا ❁ وناصر طهره آخرا

ثم استولى الفرنج أيضا على طبرية وعسقلان ثم أخذ تامنهم عنوة فى شهور سنة خمس وأربعين وستمائة فى دولة الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل ناصر الدين محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب وقد استولوا أيضا على الشقيف وصفد والله يسهل عودهما الى أهل الاسلام ويؤيد الدين الحنيفى على ممر الايام

(فصل) فى مسير السلطان رحمه الله من القدس الى دمشق قال العماد ولما استتم السلطان النظر فى أحوال القدس وعمارته وفوض القضاء والنظر فى الوقوف الى القاضى بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم وعول منه على أمين كريم آثر ان يعود الى دمشق على الثغور عابرا وفى أحوالها ناظرا وكان عزم على الحج وصمم وكتب الى مصر

واليمن بما عليه عزم وأمر أن يحمل له فى المراكب كل ما يحتاج اليه من الازواد والنفقات والثياب والكسوات. فقيل له لو كتبت الى أمير المؤمنين وأعلمته بحالك وعرفته بنهجك حتى لا يظن بك أمر أنت منه برى ويعلم ان قصدك فى المضى مضى والوقت قد ضاق ويبلغ الخبر الآفاق ثم هذه البلاد اذا سافرت تركتها على ما بها من الشعث وهذه المعاقل التى فى الثغور حفظها من أهم الامور ولا تغتر بعقد الهدنه فان القوم على ترقب المكنه والغدر دأبهم فما زال به الجماعة حتى حلوا عقد عزمه على الحج فشرع فى ترتيب قاعدة القدس فى ولايته وعمارته ثم خرج من القدس يوم الخميس خامس شوّال وجاوز ناحية البيرة وبات على بركة الداوية ونزل يوم الجمعة بظاهر نابلس وأقام بها الى ظهر يوم السبت حتى كشف مظالم ووظف مكارم وكان بها سيف الدين المشطوب وشكا أهلها نوائب من جهته تنوب فأزال الشكوى وأزاح البلوى ورحل بعد ظهر السبت وبات عند عقبة ظهر حماه وضع يعرف بالفريديس ورتعناك مروجها الانيسه وأصبحنا راحلين ونزلنا ضحوة على جينين وهناك ودعنا المشطوب وداع الابد فانه انقلب بعد أيام الى رحمة الواحد الصمد وجئنا ضحوة الاثنين الى بيسان وصعد الى قلعتها المهجورة الخاليه فأبصر قللها العاليه وقال الصواب بناء هذه وتخريب كوكب ثم رحل ظهرا وبات بقلعة كوكب وصعد نظر رأيه فيها وصوّب ورحل ضحوة الثلاثاء ونزل بطبرية وقت العشا وهناك لقينا بهاء الدين قراقوش وقد خرج من الاسر فلقيناه بالبشر والبر ووصل مع السلطان الى دمشق وأقام الى ان خلص أصحابه من الاسر وتوجه الى مصر وقد ضاق نفسه ببذل ماله وخرج من ثروته ودخل فى اقلاله قال وتوالت تلك الليله الامطار وواصلها النهار فأقمنا يوم الاربعاء وسرنا بكرة الخميس ونزلنا بسفح الجبل الذى عليه قلعة صفد وصعد اليها وكمل فيها الرجال والعدد ثم سار يوم الجمعة على طريق جبل عامله الى قلعة تبنين وجاز يوم الاحد على هونين وخيمنا على عين الذهب عند نزولنا من الجبل واجتمعنا تلك الليلة بالثقل ثم سرنا الى مرج عيون مرحله والى جسر حامد منزله وطريقنا بين عمل صيدا ووادى التيم وطلعنا من تلك الاردة والشعاب طلوع الانوار من الغيم وقال فى الفتح على صيدا يسره وعمل وادى التيم يمنه وعرسنا على مرج تلغيانا مقابل مرج القنعبه ودفعنا الى سلوك المسالك الصعبه ورحلنا يوم السلاثاء الى البقاع فخيمنا على جسر حامد ويوم الاربعاء بناحية قب الياس ودخل يوم الخميس بيروت وبها واليها عز الدين سامه فاهتم له بالكرامه ولما أراد عن بيروت الانفصال فى الحادى والعشرين من شوّال قيل له ان الابرنس الانطاكى بيمند مع عصابة من الوفد قد وصل الى الخدمه مستمسكا بحبل العصمه فثنى عنانه ونزل وأقام وما ارتحل واذن للابرنس فى الدخول وشرفه فى حضرته بالمثول وقربه وأنسه ورفع مجلسه وكان معه من مقدمى فرسانه أربعة عشر بارونيا فوهب كلا منهم تشريفا سريا وأجزل له ولهم العطاء وأبدى بهم الاعتناء وكتب له من مناصفات انطاكيه معيشة بمبلغ عشرين ألف دينار وخص أصحابه بمبار وأعجبه استرساله اليه ودخوله بغير أمان عليه فلاجرم تلقاه بالاحسان ووافاه ووعده يوم الاحد وفارقه وكانت الانقال قد انتقلت من قب الياس الى مرج قليطيه من البقاع فبات فى المخيم وعبر يوم الاثنين عين الجر الى مرج تبوس وقد زال البوس وهناك توافد أعيان دمشق وأماثلها وأفاضلها وفواضلها ونزلنا يوم الثلاثاء بالعراده وجرى الملتقون بالطرف والتحف على العاده وأصبحنا يوم الاربعاء الى جنة دمشق داخلين بسلام آمنين لولا اننا غير خالدين وكانت غيبة السلطان عنها طالت أربع سنين فأخرجت دمشق أثقالها وأبرزت نساءها ورجالها فكانت يوم الزينه وخرج كل من فى المدينه وحشر الناس ضحى ولشاعوا استبشارا وفرحا وكانت غيبة السلطان فى الجهاد طالت فاهتزت بقدومه واختالت وقرت بفضائله الاعين وأقرت بفواضله الالسن وأبدوا وجوه الاستبشار والسن الاستغفار وأعين الاستعبار ورفعوا أيدى الابتهال بصالح الدعاء عن خالص الولاء وجاء ربيع الفضل فى فصل الخريف واتصل تليد الجد بالطريف واتسع فضاء الفضائل وارتدع جاه الجاعل وحل فى القلعة حلول الشمس فى برجها وأخذت بحار سماحه فى موجها وجلس فى دار العدل فأجاب وأجار وانال وأنار وخرجت السنة والسلطان فى اسنى سنائه وأبهى جلاله وأجلى بهائه والناس راتعون فى رياض نعمائه ورسل الممالك الغربية الشرقية يخطبونه ويطلبونه وينتظرون عزمه ويرقبونه وهو يعدهم بانحسار الشتاء وانكساره وابتسام ثغر الربيع

وافتراره وأقمنا على هذا العزم الى آخر السنة والسلطان مشتغل بالصيد والقنص منتهز من العمر للفرص وقرب العلماء وأكرم الفضلاء وفضل الكرماء وما كان أحسن الى الحق اصغاه وأشرع للباطن الغاه وقال القاضي أبو المحاسن أقام السلطان بالقدس يقطع الناس ويعطيهم دستورا ويتأهب للمسير الى الديار المصرية وانقطع تشوفه الى الحج ولم يزل كذلك حتى صح عنده اقلاع مركب ملك الانكتيرة المخذول متوجها الى بلاده فى مستهل شوال فعند ذلك حرر السلطان عزمه على ان يدخل الساحل جريدة ويتفقد القلاع البحرية الى بانياس ويدخل دمشق يقيم بها أياما قلائل ويعود الى القدس الشريف سائرا الى الديار المصرية لتفقد أحوالها وتقرير قواعدها والنظر فى مصالحها قال وأمرنى بالمقام بالقدس الى حين عوده لعمارة بيمارستان انشاه فيه وادارة المدرسة التى أنشاها فيه الى حين عوده وخرج من القدس وودعته الى البيرة ونزل بها ثم ذكر ازالته للمظالم عن بلد نابلس ثم رحل ونزل بسبسطيه فتفقد أحوالها ثم أتى فى طريقه الى كوكب فى عاشر شوال وانفك بهاء الدين قراقوش من الاسر حادى عشر شوال ومثل بالخدمة السلطانية ففرح به فرحا شديدا وكان له حقوق كثيرة على السلطان والاسلام واستأذن السلطان رحمه الله فى المسير الى دمشق لتحصيل القطيعة فأذن له فى ذلك وكانت القطيعة على ما بلغنى ثمانين ألفا قال ولما وصل السلطان الى بيروت وصل الى خدمته البرنس صاحب انطاكية مسترفدا فبالغ فى اكرامه واحترامه ومباسطته وأنعم عليه بالعمق وارزغان ومزارع تعمل خمسة عشر ألف دينار ثم سار السلطان الى دمشق بعد الفراغ من تصفح أحوال القلاع الساحلية بأسرها والتقدم بسد خللها واصلاح اجنادها وانحائها بالرجال فدخل دمشق بكرة الاربعاء سادس عشرى شوال وفيها أولاده الافضل والظاهر والظافر وأولاده الصغار وكان يحب البلد ويؤثر فيه الاقامة على سائر البلاد وجلس للناس فى بكرة الخميس وحضر عنده الناس وبلوا شوقهم من رؤيته وأنشده الشعراء وعم ذلك المجلس الخاص والعام وأقام ينشر جناح عدله ويبطل سحاب انعامه وفضله ويكشف مظالم الرعايا فى الاوقات المعتادة واتخذ الافضل يوم الاثنين مستهل ذى القعدة دعوة لاخيه الظاهر وكان الظاهر لما وصل دمشق بلغه حركة السلطان اليها فأقام بها حتى يتملى بالنظر اليه ثانيا وكأن نفسه الشريفة كانت قد أحست بدنو أجل السلطان فودعه فى تلك الدفعة مرارا متعددة وهو يعود اليه ولما اتخذ الافضل له الدعوة أظهر فيها من بديع التحمل وغريبه ما يليق بهمته وكأنه أراد مجازاته عما خدمه به حين وصل الى حلب المحروسة وحضرها أرباب الدنيا وابناء الآخرة وسأل السلطان رحمه الله الحضور فحضر جبر القلب قال وكان العادل قد استأذن السلطان فى أواخر رمضان فى القدس بالمضى الى الكرك لتفقدها فمضى وأمر باصلاح ما قصد اصلاحه وعاد طالبا المضى الى البلاد الفراتية التى أعطاه السلطان اياها فوصل دمشق سابع عشرى ذى القعدة وخرج السلطان الى لقائه وأقام يتصيد حول غباغب الى الكسوة حتى لقيه وسار اجميعا يتصيدان وكان دخولهما الى دمشق فى الحادى والعشرين منه وأقام السلطان بدمشق يتصيد هو وأخوه وأولاده ويتفرجون فى أراضى دمشق ومواطن الصبى وكأنه وجد به راحة مما كان فيه من ملازمة التعب والنصب وسهر الليل ونصب النهار وما كان ذلك الا كالوداع لاولاده ومرابع نزهه وهو لا يشعر رحمة الله عليه ونمى عزمه المصرى وعرض له أمور أخر وعزمات غير تلك ووصلنى كتابه الى القدس يستدعينى الى خدمته وكان شتاء شديدا ووحلا عظيما قلت وفى عيد الاضحى من هذه السنة أنشده الرشيد النابلسى قصيدة حسنة على وزن قصيدة التهامى التى مطلعها (حازك البين حين أصبحت بدرا) يقول فيها يعنى قصيدته

وأبيها الولا تغزل عينيها * لما قلت فى التغزل شعرا
ولكانت مدائح الملك النا * صر أولى ما فيه أعمل فكرا
ملك طبق الممالك عدلا * منل ما أوسع البرية برا

ثم قال فى آخرها

نلت ما تبتغى من الدين والدنـ * ـيا فقيها على الملوك وفخرا
فمثل الاعياد صوما وفطرا * وتلاقى الهناء فطرا ونحرا

يا مسير

يامسر الطاعات لله ان اضـــحى مليك على الهنا مصرا
قد جمعت المجدين أصلا وفرعا * وملكت الدارين دنيا واخرى

(فصـــل) فى ذكر أمور أخر جرت فى هذه السنة من وفيات وغيرها قال العماد فى شهر ربيع الآخر توفى القاضى شمس الدين محمد بن محمد بن موسى المعروف بابن الفراش من أهل دمشق قاضى العسكر وكانت وفاته بملطية وهو عائد من الرسالة الى أولاد قليج ارسلان بالروم وكان هذا القاضى لى من أصدق الاصدقاء وأكرم الكرماء ومافارقنى من أيام الملك العادل نور الدين رحمه الله فى السراء والضراء وكنت باحواله شديد الاعتناء وتوصلت له عند السلطان فى تخصيصه بالمواصلة الموصليه والمراسلة فى المهام الخفية والجليه ثم تولى نيابة عن السلطان فى الولاية الشهرزوريه والحكم على المقطعين بها وانصاف الرعيه فلما فوضت الى مظفر الدين صاحب أربل رجع شمس الدين ودامت غيبته عن الحضرة مدة سبع سنين وكان تولى قضاء العسكر موضعه بهاء الدين بن شداد وكان خطب أولاد السلطان قليج ارسلان مهما عند السلطان فاعتمد على القاضى شمس الدين فى الوصول اليهم والحكم بتأليف ذات بينهم عليهم فمضى وعاد وأدركته المنيه بمدينة ملطيه قال وفى يوم الخميس السادس والعشرين من شوّال توفى الامير سيف الدين على بن أحمد الهكارى المعروف بالمشطوب بنابلس وقد سبق ذكر هذا الامير وبأسه وبسالته واصابته واصالته واقدامه فى الحروب وتقدّمه فى الخطوب وقد حضر مع أسد الدين شيركوه النوب الثلاث التى فتح فى آخرها مصر ولازم صلاح الدين الى منتهى العمر ولما احتيج الى البدل فى عكا اذ ضجر من أقام به وتشكى أجاب الى دخوله وقابل الامر بقبوله وحصل بقضاء الله فى الاسر واحتوت عليه قبضة الكفر وفدى نفسه بخمسين ألف دينار ونجا وأتاه الله من نعمة خلاصه مارجا وأنعم السلطان عليه بنابلس واعمالها وخص بأموالها وحين جزنا ودّعنا عند جينين وداع الابد الى جنة عليين واغناسمى مشطو بالشطبة فى وجهه من أثر طعنة فى غزاة حضرها وله مواقف فى الجهاد كثيرة معهوده ومقامات مشهورة مشهوده ووقف السلطان بعده ثلث نابلس واعمالها على مصالح القدس وأقطع ولده وأمير ين معه النلثين محافظة على حقه الذى التزمه التزام الدين وقال القاضى ابن شداد وكان السلطان خلف المشطوب بالقدس من جمله العسكر المقيمين به ولم يكن واليه انما كان واليه عز الدين جرديك وتوفى المشطوب رحمه الله بالقدس يوم الاحد الثالث والعشرين من شوّال ودفن فى داره بعد ان صلى عليه فى المسجد الاقصى قال العماد وفى منتصف شعبان توفى سلطان بلاد الروم عز الدين قليج ارسلان بن مسعود بن قليج ارسلان بقونيه وكان أولاده لما كبروا تجبروا وتفرد كل منهم باقليم فضعف بقوّتهم وعجز بقدرتهم وانخفض برفعتهم فانه فرق بلاده على جماعتهم طمعا فى طاعتهم واختار لتدبير ملكه اختيار الدين حسن بن عفراس فخالفه عليه من أولاده قطب الدين ملك شاه صاحب سيواس فجاء وغلب على والده وأخذ عليه الانفاس وقال له أنا بين يديك عوض الاختيار ثم أخلى منه الديار ثم أبعد عن خدمة والده خواصه وأولياءه وأفنى بالقتل والاغتيال أمراءه وكبراءه واستخلصه لنفسه وأجلسه على ملكه وهو فى حبسه ثم جاء به الى قيصرية ليأخذها من أخيه وأظهر انه بأمر أبيه فوجد قليج ارسلان فرصة فى خلاصه فساق وحده ودخل البلد ونجا من الولد الى الولد فعاد ملكشاه الى قونيه واقصرا دار ملك ابيه فتملكهما ولم يزل قليج ارسلان يتحوّل من ولد الى ولد ومن بلد الى بلد يتردد فى بلاده فى ضيافة أولاده وكلهم يضجر منه ويعرض عنه حتى حصل عند ولده غياث الدين كيخسرو صاحب ترغلو فلما حضره وأبصره أوادونصره وجاء به الى قونيه فدخلها وحلى عطلها ومات بها فجلس مكان والده وقوى على أخيه قال وجاء الربيع فى شهر ربيع الاوّل فكتب الى نشو الدولة أحمد بن نفاذه أبياتا يدعونى الى دمشق فى خامس جمادى الاولى وقد دخل أوان المشمش المعهود وهو موسم دمشق المشهود أوّلها

دعا الناس للذات مشمش جلق * فقد أسرعوا من كل غرب ومشرق
فقم ياعماد الدين تحظ بأكله * ولا تثن عنه عزمة السير تسبق
وقل حين يبدو اصفر اللون مشرقا * وياحسنه من أصفر اللون مشرق
(لاكلك مايلقى الفؤاد ومالقى * وللتوت مالم يبـــق منى ومابقى)

فليس سوى الحلواء فى القدس مأكل * وما جلبوه من زبيب وفستق

قال فعرضت أبياته على السلطان فقال ما قلت فى جوابه فأنشدته

هلموا نسابق نحو مشمش جلق * وثم كما نهوى على الاكل نلتقى
تصفر شوقا لانتظار قدومنا * ومن يتعشق ذا الفضائل يشتق
اذا حضرت اطباقه غاب رشدنا * لما يتلاقى من مشوق وشيق
حكى جمرات بالفضا قد تعلقت * فيا عجبى من جمره المتعلق
كأن نجوم الارض فوق غصونه * فيا حيرتى من نجمه المتألق
وجناتها محمرة وجناتها * فمن يرها مثلى يحب ويعشق
بدت بين أوراق الغصون كأنها * كرات نضار فى لجين مطرق

قال فلما أنشدت السلطان هذا البيت قال تشبيه الورق باللجين غير موافق فان الورق أخضر فقلت

كرات نضار بالزمرد محدق

تساقطها أشجارها فكأنها * دنانير فى أيدى الصيارف ترتقى
ومشمش بستان الزكى بشهده * شهادته تقضى فزك وصدق
بقول رفيقى فى دمشق تعجبا * أمالك بستان مقالة مشفق
فقلت الى باب البريد وسوقه * لامثالنا تجنى بساتين جلق
ولو كان لى سهم سهم وجدت لى * منالى با يام الثمار ومرفقى
اذا كنت مبتاعا من السوق مشمشى * فمالى الا لذة المتسوق
ومالى بارباب البساتين خلطة * فيصبح فى حيطانها متسلقى
كرام وثوقى فى الشتاء بودهم * ولكنهم فى الصيف ينسون موثقى
وما ثم من يحدى ويقرى ويقتنى * ثنائى سوى المحيى الكريم الموفق
وذلك يوم واحد ليس غيره * فمن اجل يوم واحد قلت لى اسبق
على اننى لو قيل بالصين دعوة * أثرت اليها لوعة المتحرق
فان جئت قبلى جلقا فارم منعما * حديثى بنادى المنعمين وحلق
لعل كريما يتخنى لضيافتى * بمشمشة عند القدوم وينتقى
فلا تنس نشوالدين نشوة خاطرى * وقل عن صبوحى كيف شئت ورقق
وهات وساعدنى وخذ من قريحتى * لطيمة دارى من الحمد واعبق

قال فقال لى السلطان عن صبوح ترقق كأنك تريد تمضى الى دمشق وتسبق فقلت الاهل والولد وقد عيل عنهم الجلد ولكن مغيبى عن الخدمة لا يدور به الخلد وظلك وهو السكن والبلد قال وكتبت أيضا فى جوابه وصفة المشمش وذكر تشبيهاته وقد أذن لى السلطان لهم له ايضا اتفق

قد صح عزمى على المسير فلا * أبغى مقامى والقلب قد رحلا
امضى الى دميسة مقبلها * ارشف منه المدام والعسلا
مصور بل مدور عجب * ترى به وهو جامد شعلا
ففى قلوب الاشجار منه جذى * وفى ظهور الغصون منه كلا
طلوا بما النضار ظاهره * لباطن فى حشاه نار طلا
تخفى اذا ما بدا لعينك فى * فيك وفيه النوى اذا وصلا
حلى تبر على عرائس أغصا * ن تشكت من قبلها عطلا
حمر حسان الوجوه قد لبست * من خضر أوراقها الحا حللا

عرائس من خدورها برزت ❁ تحسب أشجارها لها كللا
حلاوة لايمل اكلها ❁ اذا الحلاوات أحدثت ملل
زهر كشهب السماء راجمة ❁ جن جناة بقطفها كفلا
عيونها الرمد فى ترقبنا ❁ جاحظة ابرزت لنا مقلا
ماذا التوانى وذا التأخر والا ❁ بطاء قدم مسيرنا عجلا
تغدو خفافا الى مواسمها ❁ من قبل نبلى بصحبة النقلا
قد انتظرنا من الخزانة ما ❁ نعطى فاكدى ثوابها البخلا
فان عدمنا من عندهم ذهبا ❁ فاعدمنا عنه به بدلا
وكلنا فى عوارف الملك النا ❁ صر نرعى ونسلك السبلا

قال وقلت فيه رباعية

الشمس لانتظارنا مصفر ❁ والروض الى لقائنا مفتر
قم نغتنم الوقت فهذا العمر ❁ لالبث له فمن به يغتر

قال وفى هذه السنة نصرت الاساطيل فى البحر مرارا ونفذ السلطان فى استدعائها استظهارا قال محمد بن القادسى وفى مستهل رجب وكل بأمير الحاج طاشتكين يعنى الذى قتل أمير حاج الشام شمس الدين ابن المقدم بعرفات سنة ثلاث وثمانين ثم قبض عليه وسببه انه اتهم بمكاتبة السلطان صلاح الدين رحمه الله فيما يتعلق بقلب الدولة وأظهر عليه أستاذ الدار أبو المظفر بن يونس كتابا قيل انه خطه وفيه (المصلحة مهادنة الفرنج والمجئ الى البلاد فما يقف بين أيديكم احد والبلاد لكم اذا ملكتم العراق وهذا وقتكم ان كان لكم نيه وأنا مشدود الوسط فى الخدمه) ثم ذكر ابن القادسى ان ذلك مستبعد فى حق طاشتكين وزوروبهتان ونسب ذلك الى افتعال ابن يونس عليه وكان طاشتكين أمير الحاج عشرين سنة يخطب له بمكة بعد الخطبة لامير المؤمنين وله اقطاع بمائه ألف دينار قال وفيها فى ربيع الآخر توفى أبو المرهف نصر بن منصور النميرى الشاعر الاديب الزاهد سمع قاضى البيمارستان وروى عن ابن نباه وكان قدم الى الشام وخالط أهل الادب واضر بالجدرى وله أربع عشرة سنة وكان يبصر الاشياء القريبة منه ولا يحتاج الى قائد اذا مشى ثم قدم العراق لمداواة عينه فأيأسه الاطباء من ذلك فاشتغل بالقرآن وحفظه وصاحب المتدينين والزهاد من أهل الفقه والحديث واللغة وله ديوان شعر كبير وسئل عن مذهبه فاملى

أحب عليا والبتول وولدها ❁ ولا أجد الشيخين فضل التقدم
وابرأ ممن نال عثمان بالاذى ❁ كما أتبرا من ولاء ابن ملجم
ويعجبنى أهل الحديث لصدقهم ❁ فلست الى قوم سواهم بمنتم

وله أيضا فى غير ذلك

وزهدنى فى جميع الانا ❁ م قلة انصاف من تصحب
هم الناس ما لم تجربهم ❁ وطلس الذئاب اذا جربوا
وليتك تسلم عند البعا ❁ د منهم فكيف اذا تقرب

(ثم دخلت سنة تسع وثمانين) قال العماد والسلطان مقيم بدمشق فى داره وممالك الآفاق فى انتظاره والانام مشرقة بمطالع أنواره ورسل الامصار مجتمعون على بابه منتظرون لجوابه والضيوف فى فيوض انعامه غانمون والفقراء فى رياض صدقته راتعون ويجلس فى كل يوم وليلة لاسداء الجود وابداء السعود وبث المكارم وكشف المظالم وبرز الى الصيد شرقى دمشق بزاد خمسة عشر يوما واستصحب معه أخاه وأبعد فى البريه وظهر عن ضمير ضمير الى الجهة الشرقيه وطابت له الفرص ووافق مراده القنص ثم عاد يوم الاثنين حادى عشر صفر ووافق ذلك عود الحاج الشامى فخرج للتلقى وسعادته فى الترقى ولما لقى الحجاج استعبرت عيناه كيف فاته من الحج ما تمناه وسألهم عن أحوال مكة وأميرها وأهلها وخصبها ومحلها وكم وصلهم من غلات مصر وصدقاتها والفقراء والمجاورين

ورواتبها وادراراتها وسر بسلامة الحاج ووضوح ذلك المنهاج ووصل من اليمن ولد أخيه سيف الاسلام فتلقاه بالاكرام قال القاضي ابن شداد وخرجت من القدس الشريف يوم الجمعة الثالث والعشرين من المحرم وكان الوصول الى دمشق ثاني عشر صفر وكان الافضل حاضرا في الايوان الشمالي وفي خدمته خلق من الامراء وأرباب المناصب ينتظرون جلوس السلطان فلما شعر بحضوري استحضرني وهو وحده قبل ان يدخل اليه أحد فدخلت عليه رحمه الله فقام ولقيني ملقى ما رأيت أشد من بشره فيه ولقد ضمني اليه ودمعت عينه وفي ثالث عشر صفر طلبني فحضرت فسألني عمن في الايوان فاخبرته ان الملك الافضل جالس في الخدمة والامراء والناس في خدمته فاعتذر اليهم على لسان جمال الدولة اقبال ثم استحضرني بكرة الخميس رابع صفر وهو في صفة البستان وعنده أولاده الصغار فسأل عن الحاضرين فقيل رسل الفرنج وجماعة الامراء والاكابر فاستحضر رسل الفرنج الى ذلك المكان فحضروا وكان له ولد صغير وكان كثير الميل اليه يسمى الامير أبا بكر وكان حاضرا وكان رحمة الله عليه يداعبه فلما وقع بصره على الفرنج ورأى أشكالهم خاف منهم وبكى فاعتذر اليهم وصرفهم بعد ان حضروا ولم يسمع كلامهم وقال لي اكلت اليوم شيأ وكانت عادته رحمه الله هذه المباسطة ثم قال أحضروا الناماتيسر فاحضروا أرزا بلبن وما يشبه ذلك من الاطعمة الخفيفة فاكل رحمه الله وكنت أظن ان ما عنده شهوة وكان في هذه الايام يعتذر الى الناس لثقل الحركة عليه وكان بدنه ممتلئا وعنده تكسل فلما فرغنا من الطعام قال ما الذي عندك من خبر الحاج فقلت قد اجتمعت جماعة منهم في الطريق ولولا كثرة الرحل لدخلوا اليوم ولكنهم في غد يدخلون فقال نخرج ان شاء الله الى لقائهم وتقدم بتنظيف طرقاتهم من المياه فانها كانت سنة كثيرة الانداء والامطار وقد سالت المياه في الطرق كالانهار وانفصلت عن خدمته ولم أجد عنده من النشاط ما أعهده منه ثم بكر في يوم الجمعة فركب ثم لحقته وقد لقي الحاج ولم أجد عليه كزا غنده وما كان له عادة ركب بدونه وكان يوما عظيما قد اجتمع فيه للقاء الحاج والتفرج على السلطان معظم من في البلد فاذكرته ذلك فكأنه استيقظ فطلب الكزاغند فلم يوجد واوقع الله في قلبي تطيرا بذلك ثم سار رحمه الله بين البساتين يطلب جهة المنيبع حتى أتى القلعة فعبر على الجسر اليها وهو طريقه المعتاد وكانت آخر ركباته رحمه الله

(فصل) في مرض السلطان ووفاته أحله الله بحبوحة جناته قال القاضي لما كانت ليلة السبت وجد كسلا عظيما فما انتصف الليل حتى غشيته حمى صفراوية كانت في باطنه أكثر منها في ظاهره وأصبح يوم السبت سادس عشر صفر عليه أثر الحمى ولم يظهر ذلك للناس لكن حضرت عنده أنا والقاضي الفاضل ودخل ولده الافضل وطال جلوسنا عنده وأخذ يشكو من قلقه بالليل وطاب له الحديث الى قريب الظهر ثم انصرفنا والقلوب عنده فتقدم الينا بالحضور على الطعام في خدمة ولده الافضل ولم يكن للقاضي عادة بذلك فانصرف ودخلت الى الايوان القبلي وقد مد الطعام وولده الافضل قد جلس في موضعه فانصرفت وما كان لي قوة للجلوس استحياشا وبكى في ذلك اليوم جماعة تفاؤلا بجلوس ولده موضعه ثم أخذ المرض في تزايد من حينئذ ونحن نلازم التردد في طرفي النهار وأدخل اليه أنا والقاضي الفاضل في النهار مرارا وبعطى الطريق في بعض الايام التي يجد فيها خفة وكان مرضه في رأسه وكان من امارات انتهاء العمر غيبة طبيبه الذي كان قد ألف مزاجه سفرا وحضرا ورأى الاطباء قصده فقصدوه في الرابع فاشتد مرضه وقلت رطوبات بدنه وكان يغلبه النفس غلبة عظيمة ولم يزل المرض في تزايد حتى انتهى الى غاية الضعف ولقد أجلسناه في السادس من مرضه وأسندنا ظهره الى مخدة وأحضر ماء فاتر ليشربه عقيب شراب يلين الطبع فشربه فوجده شديد الحرارة فشكا من شدة حره فغيره وعرض عليه ثانيا فشكا من برده ولم يغضب ولم يصخب رحمه الله ولم يقل سوى هذه الكلمات سبحان الله لا يمكن أحدا تعديل الماء فخرجت أنا والقاضي من عنده وقد اشتد منا البكاء والقاضي الفاضل يقول لي انظر هذه الاخلاق التي قد أشرف المسلمون على مفارقتها والله لوان هذا بعض الناس كان قد ضرب بالقدح رأس من احضره واشتد مرضه في السادس والسابع والثامن ولم يزل متزايدا وتغيب ذهنه ولما كان التاسع حدثت به رعشة وامتنع من تناول المشروب واشتد الارجاف في البلد وخاف الناس ونقلوا الاقمشة من الاسواق وغشي الناس من الكآبة ما لا يمكن حكايته ولقد كنت أنا والقاضي الفاضل نقعد كل ليلة الى ان يمضي من الليل ثلثه أو قريب منه ثم نحضر في باب الدار فان وجدنا طريقا

دخلنا وشاهدناه وانصرفنا والا تعرفنا أحواله وانصرفنا وكانجد الناس يرتقبون خروجنا الى بيوتنا حتى يقرؤوا أحواله من صفحات وجوهنا ولما كان العاشر من يوم مرضه حقن دفعتين وحصل من الحقنة راحة وحصل بعض الخفة وتناول من ماء الشعير مقدارا صالحا وفرح الناس فرحا شديدا فاقتنا على العادة الى ان مضى من الليل هزيع ثم أتينا باب الدار فوجدنا جمال الدولة اقبالا فالتمسنا منه تعريف الحال المتجدد فدخل ثم أنفذ الينا مع الملك المعظم تورانشاه يقول ان العرق قد أخذ فى ساقيه فشكرنا الله على ذلك وانصرفنا طيبة قلوبنا ثم أصبحنا فاخبرنا ان العرق أفرط حتى نفذ فى الفرش وتأثرت به الارض وان اليبس قد تزايد به تزايدا عظيما وخارت القوة واستشعر الاطباء ولما رأى الملك الافضل ما حل بوالده وتحقق اليأس منه شرع فى تحليف الناس وجلس فى دار رضوان المعروفة بسكنه واستحضر القضاة وعمل له نسخة يمين مختصرة محصلة للمقاصد تتضمن الحلف للسلطان مدة حياته وله من بعد وفاته واعتذر الى الناس بان المرض قد اشتد وما نعلم ما يكون وما نفعل هذا الا احتياطا على جارى عادة الملوك ثم سمى القاضى ممن حلف له جماعة منهم سعد الدين مسعود أخو بدر الدين مودود الشحنه وناصر الدين صاحب صهيون وسابق الدين صاحب شيزر وخشترين الهكارى ونوشروان الزرزارى وعلكان ومنكلان ثم مد الخوان واكلوا ولما كان العصر أعيد مجلس التحليف وأحضر ميمون القصرى وشمس الدين سنقر الكبير وأسامة وسنقر المشطوب والبكى الفارس وأيبك الافطس وأخوالا مير سيار وخ وحسام الدين بشارة وبعضهم اشترط فى يمينه وبعضهم لم يشترط ولم يحضر أحدا من الامراء المصريين ولم يتعرض لهم ولما كانت ليلة الاربعاء السابع والعشرين من صفر وهى ليلة الثانى عشر من مرضه اشتد مرضه وضعفت قوته ووقع فى أوائل الامر من أوائل الليل وحال بيننا وبينه النساء واستحضرت أنا والقاضى الفاضل فى تلك الليلة وابن الزكى ولم تكن عادته الحضور فى ذلك الوقت وعرض علينا الملك الافضل ان نبيت عنده فلم ير الفاضل ذلك رأيا فان الناس كانوا فى كل ليلة ينتظرون نزولنا من القلعة فخاف ان لا ننزل فيقع الصوت فى البلد ور بما نهب الناس بعضهم بعضا فرأى المصلحة فى نزولنا واستحضار الشيخ أبى جعفر امام الكلاسة وهو رجل صالح ببيت بالقلعة حتى ان احتضر بالليل حضر عنده وحال بينه وبين النساء وذكره بالشهادة وذكر الله تعالى ففعل ذلك فنزلنا وكل منا يؤدل لوفداه بنفسه وبات فى تلك الله على حال المنتقلين الى الله تعالى والشيخ أبو جعفر يقرأ عنده القرآن ويذكره بالله تعالى وكان ذهنه غائبا من ليلة التاسع لا يكاد يفيق الا فى بعض الاحيان وذكر الشيخ أبو جعفر انه لما انتهى الى قوله تعالى هو الله الذى لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة سمعه وهو يقول صحيح وهذه يقظة فى وقت الحاجة وعناية من الله تعالى به فلله الحمد على ذلك وكانت وفاته رحمة الله عليه بعد صلاة الصبح من يوم الاربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة وبادر القاضى الفاضل بعد طلوع الصبح فحضر وفاته ووصلت أنا وقدمات وانتقل الى رضوان الله ومحل كرامته ولقد حكى لى انه لما بلغ الشيخ ابو جعفر الى قوله تعالى لا اله الا هو عليه توكلت وتهلل وجهه وسلمها الى ربه وكان يوما لم يصب الاسلام والمسلمون بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدون وغشى القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ما لا يعلمه الا الله تعالى وتالله لقد كنت أسمع من بعض الناس انهم يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم فكنت أحمل ذلك على ضرب من التجوز والترخص الى ذلك اليوم فانى علمت من نفسى ومن غيرى انه لو قبل الفداء لفداه بالنفس ثم جلس ولده الافضل للعزاء فى الايوان الشمالى وحفظ باب القلعة الاعزاء الخواص من الامراء والمحمين وكان يوما عظيما قد شغل كل انسان ما عنده من الحزن والاسف والبكاء والاستغاثة عن ان ينظر الى غيره وحفظ المجلس عن ان ينشد فيه شاعر او يتكلم فيه قصاص أو وعاظ فكان أولاده يخرجون مستغيثين بين الناس فتكاد النفوس تزهق لهول منظرهم ودام الحال على ذلك الى بعد صلاة الظهر ثم اشتغل بتغسيله وتكفينه فما مكنا أن ندخل فى تجهيزه ما قيمته حبة واحدة الا بالقرض حتى فى ثمن التبن الذى يلت به الطين وغسله الدولعى الفقيه وندبت الى الوقوف على غسله فلم يكن لى قوة تحمل ذلك المنظر واخرج بعد صلاة الظهر فى تابوت مسجى بثوب فوط وكان ذلك وجميع ما احتاج اليه من الثياب فى تكفينه قد أحضره الفاضل من وجه حل عرفه وارتفعت الاصوات عند مشاهدته وعظم الضجيج حتى ان العاقل يتخيل ان الدنيا كلها تصيح صوتا واحدا وغشى الناس من البكاء والعويل

ماشغلهم عن الصلاة وصلى عليه الناس ارسالا وكان أول من أم بالناس القاضى محيي الدين بن الزكى ثم أعيد رحمة الله عليه الى الدار التى فى البستان الذى كان متمرضا بها ودفن فى الصفة الغربية منها وكان نزوله فى حفرته قريبا من صلاة العصر ثم نزل فى أثناء النهار ولده الظافر وعزى الناس فيه وسكن قلوب الناس وكان الناس قد شغلهم الحزن والبكاء عن الاشتغال بالنهب والفساد فما يوجد قلب الا حزينا ولا عين الا باكية الا من شاء الله ثم رجع الناس الى بيوتهم أقبح رجوع ولم يعد منا أحد فى تلك الليلة الا انا حضرنا وقرأنا وجددنا حالا من الحزن واشتغل ذلك اليوم الملك الافضل بكتب الكتب الى اخوته وعمه يخبرهم بهذا الحادث وفى اليوم الثانى جلس للعزاء جلوسا عاما وأطلق باب القلعة للفقهاء والعلماء وتكلم المتكلمون ولم ينشد شاعر ثم انفض المجلس فى ظهيرة ذلك اليوم واستمر الحال فى حضور الناس بكرة وعشية لقراءة القرآن والدعاء له رحمة الله عليه وقال العماد جلس السلطان ليلة السبت سادس عشر صفر ونحن عنده حتى مضى من الليل ثلثه وهو يحدثنا ونحن نحدثه ثم صلى به وبنا امامه وحان قيامه وانفصلنا باحسانه مغتبطين وبامتنانه مرتبطين وأصبحنا يوم السبت وجلسنا فى ايوانه ننتظر خروجه لوضع الخوان ووجدناه قد أغلق باغلاق بابه رهنه ولم نشعر بما قضاه القدر واجنه وخرج من خدمه من أخبر بسقمه ودخول الخوف الى حرمه وأمر الملك الافضل بأن يجلس فى الايوان لبسط الخوان فجلس فى مكان والده متربعا وكان من شرط الادب أن يخلى له موضعا فتطيرنا من تلك الحاله وتكرهنا منها سوء الدلاله فتلاعبت فيه العيون وتراجمت الظنون ودخلنا اليه ليلة الاحد للعياده ومرضه فى الزياده وفى كل يوم تضعف القلوب وتتضاعف الكروب وانتقل من دار الفناء الى دار البقاء فى سحر يوم الاربعاء ونابت الظلماء عن الضياء ودخل قبره ليلة السابع والعشرين فى السرار ودجت مطالع الانوار ومات بموته رجاء الرجال وأظلم بغروب شمسه فضاء الافضال وغاصت الايادى وفاضت الاعادى ودفن بقلعة دمشق فى مسكنه ودفن جماع الكرم والفضل والدين بمدفنه ثم بنى الملك الافضل قبة شمالى الجامع فى جواره بشباك الى الجامع لزواره ونقله اليها يوم عاشوراء سنة اثنتين وتسعين واسترجعنا وقلنا ما لنا الا أن نستعيذ بالله ونستعين قال ومما قلت رباعية فى المرثيه

قال الملك الناصر من كلفنى ❊ فى الجود بغير شيمتى فأنصفنى
ما يعلم ان ذلك الملك فنى ❊ لم يبق من الجود الا كفنى

وقال العماد أيضا فى رسالته الموسومة بعتبى الزمان وكان السلطان رحمه الله لما توفى بالقلعة فى منزله ومازال الافضل يتروى فى موضع ينقله اليه واستشار فى ذلك فأشير عليه فى سنة تسعين بان يبنى تربته عند مسجد القدم ويبنى عندها مدرسة للشافعيه وقالوا اذا وصل الملك العزيز استغنى بزيارتها عن الدخول الى دمشق لاجلها وقالوا ان السلطان رحمه الله لما مرض سنة احدى وثمانين بحران كان قد اوصى أن يدفن بدمشق قبلى ميدان الحصا ويكون قبره على النهج السائل وطريق القوافل ليدعو له الوارد والصادر والبادى والحاضر وتجوز عليه فى الغزوات العساكر قالوا وان تنأت هذه الارض عن مكان الوصية فهى منه قريبه فأمر الافضل ببناء التربة عند مسجد القدم وتولى عمارتها بدر الدين مودود والى دمشق فاتفق وصول العزيز تلك السنة للحصار وهم قد شرعوا فى عمارتها فخرب ما كان قد ارتفع من البناء ثم استقر الافضل حدود الجامع ليجعل التربة فيها فوفق لدار كانت لبعض الصالحين وهى فى حد المكان الذى زاده الاجل الفاضل فى المسجد فاشتراها منه وأمر بعمارتها قبة فعمرت ونقل اليها السلطان يوم عاشوراء من سنة اثنتين وتسعين بكرة الخميس ومشى الافضل بين يدى تابوته وأراد العلماء والفقهاء حمله على أعناقهم التى فيها منته فقال الافضل كفتكم أدعيتكم الصالحة التى هى فى المعاد جنته وحمله مماليكه وخدمه وأولياؤه وحشمه وأخرج من باب القلعة فى البلد على دار الحديث الى باب البريد وأدخل منه الى الجامع ووضع قدام باب النسر وصلى عليه القاضى محيي الدين محمد بن القرشى باذن الافضل ثم حمل منه على الرؤس الى بطن ملحده ثم جاء الافضل وحده ودخل لحده وأودعه وخرج وسد الباب على أبيه وجلس هنالك فى الجامع ثلاثة أيام للعزاء وانفقت ست الشام أخت السلطان فى هذه النوبة أموالا كثيره قال محمد بن القادسى وفى يوم السبت ثالث عشر ربيع الاول شاعت الاخبار يعنى ببغداد بوفاة صلاح الدين يوسف بن أيوب وذكر انه دفن

معه سيفه الذى كان معه فى الجهاد وكان ذلك برأى الفاضل وقيل عنه هذا يتوكأ عليه الى الجنة وان الفاضل كفنه من ماله وتولى غسله الفاضل وخطيب دمشق قلت وحكى له انه رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى جماعة من الصحابة رضى الله عنهم زاروا قبر صلاح الدين رحمه الله وانهم لما صاروا عند الشباك سجدوا ووجدت فى بعض الكتب الفاضلية (ان رجلا رأى ليلة وفاة السلطان كأن قائلا يقول له قد خرج الليلة يوسف من السجن وهو من الاثر النبوى (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر) قال وما كان يوسف نار رحمة الله عليه فى الدنيا بالاضافة الى ما صار اليه فى الآخرة الا فى سجن رضى الله عن تلك الروح وفتح له باب الجنه فهو آخر ما كان يرجوه من الفتوح) ومن كلام غيره فى وفاة السلطان رحمه الله تعالى (أفلت الشمس عند الصباح وذهبت روح الدنيا الذى ذهب بذهابها كثير من الأرواح وتلك ساعة ظلت لها الالباب حائره وتمثلت فيها السماء مائره والجبال سائره وأغمد سيف الله الذى كان على أعدائه دائم التجريد وخفت الارض من جبلها الذى كان يمنعها ان تميد وأصبح الاسلام وقد فقد ناصره ثاكلا لوحيد فهو أعظم فاقد لاعظم فقيد وليس أحد من الناس الا وقد صم عن الخبر وأصيب فى سواد القلب والبصر) قال (وقد توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول عمر) وختم العماد كتابه البرق الشامى بقصيدة رثى بها السلطان رحمه الله عدد ها فى ديوانه مائتان واثنان وثلاثون بيتا أولها

شمل الهدى والملك عم شتاته * والدهر ساء واقلعت حسناته
أين الذى مذ لم يزل مخشية * مرجوة رهباته وهباته
أين الذى كانت له طاعاتنا * مبذولة ولربه طاعاته
بالله أين الناصر الملك الذى * لله خالصة صفت نياته
أين الذى مازال سلطانا لنا * يرجى نداه وتتقى سطواته
أين الذى شرف الزمان بفضله * وسمت على الفضلاء تشريفاته
اين الذى عنت الفرنج لبأسه * ذلا ومنها أدركت ثاراته
اغلال أعناق العدا أسيافه * أطواق أجياد الورى مناته
لم يجد تدبير الطبيب وكم وكم * أجدت لطب الدهر تدبيراته
من فى الجهاد صفاحه ما أغمدت * بالنصر حتى أغمدت صفحاته
من فى صدور الكفر صدر قناته * حتى توارت بالصياح قناته
لذا المتاعب فى الجهاد ولم تكن * مذ عاش قط لذاته لذاته
مسعودة غدواته محمودة * روحاته ميمونة ضحواته
فى نصرة الاسلام يسهر دائما * ليطول فى روض الجنان سناته
لا تحسبوه مات شخص واحد * فمات كل العالمين مماته
ملك عن الاسلام كان محاميا * أبدا اذا ما أسلمته حماته
قد أظلمت مذ غاب عنها دوره * لما خلت من بدره داراته
دفن السماح فليس ينبش بعدما * أودى الى يوم النشور رفاته
الدين بعد أبى المظفر يوسف * أفوت قواه وأقفرت ساحاته
جبل تضعضع من تضعضع ركنه * أركاننا وتهدنا هدّاته
ما كنت أعلم ان طودا شامخا * يهوى ولا تهوى بنا مهواته
ما كنت أعلم ان بحرا طاميا * فينا يطم وتنتهى زخراته
بحر خلا من وارديه ولم تزل * محفوفة بوفوده حفاته
من لليتامى والارامل راحم * متعطف مفضوضة صدقاته
لو كان فى عصر النبى لانزلت * فى ذكره من ذكره آياته

فعلى صلاح الدين يوسف دائما ❁ رضوان رب العرش بل صلواته
لضريحه سقيا السحاب فان يغب ❁ تحضر لرحمة ربه سقياته
وكعادة البيت المقدس يحزن الـ ـبيت الحرام عليه بل عرفاته
من للثغور وقد عداها حفظه ❁ من للجهاد ولم تعد عاداته
بكت الصوارم والصواهل أذخلت ❁ من سبلها وركوبها غزواته
وبسيفه صداء لحزن مصابه ❁ اذليس يشفى بعده صدياته
ياوحشتا للبيض فى اغمادها ❁ لا تنتضيها للوغى عزماته
ياوحشة الاسلام يوم تمكنت ❁ فى كل قلب مؤمن روعاته
ياحسرتا من يأس راحته الذى ❁ يقضى الزمان وما انقضت حسراته
ملأت مهابته البلاد فانه ❁ أسد وان بلاده غاباته
ما كان أسرع عصره لما انقضى ❁ فكانما سنواته ساعاته
لم أنس يوم السبت وهو لما به ❁ يبدى السبات وقد بدت غشياته
والبشر منه تبلجت أنواره ❁ والوجه منه تلألأت سجاته
ويقول لله المهيمن حكمة ❁ فى مرضة حصلت بها مرضاته
وقف الملوك على انتظار ركوبه ❁ لهم ففيم تأخرت ركباته
كانوا وقوفا أمس تحت ركابه ❁ واليوم هم حول السرير مشاته
وممالك الآفاق ساعية له ❁ فمتى تجئ يفتحهن سعاته
هذى مناشير الممالك تقتضى ❁ توقيعه فيها فأين دواته
قد كان وعدك فى الربيع بجمعها ❁ هذا الربيع وقد دنا ميقاته
والجند فى الديوان جدد عرضه ❁ واذا أمرت تجددت نفقاته
والقدس طامحة اليك عيونه ❁ عجل فقد طمحت اليه عداته
والغرب منتظر طلوعك نحوه ❁ حتى تفئ الى هداك بغاته
والشرق يرجو غرب عزمك ماضيا ❁ فى ملكه حتى تطيع عصاته
مغرى بأسداء الجميل كأنما ❁ فرضت عليه كالصلاة صلاته
هل للملوك مضاؤه فى موقف ❁ شدت على أعدائه شداته
واذا الملوك سعوا وقصر سعيهم ❁ رجحت وقد نجحت به مسعاته
كم جاء التوفيق فى وقعاته ❁ من كان بالتوفيق توقيعاته

قال ووجد بخط العماد فى حاشية ديوانه كانت علامته (الحمد لله وبه توفيق)

ياراعيا للدين حين تمكنت ❁ منه الذئاب وأسلمته رعاته
ما كان ضرك لو أقمت مراعيا ❁ دينا تولى مذ رحلت ولاته
أضجرت منا أم أنفت فلم نكن ❁ ممن تصاب لشدة ضجراته
أرضيت تحت الارض يامن لم يزل ❁ فوق السماء عليه درجاته
فارقت ملكا غير باق متعبا ❁ ووصلت ملكا باقيا راحاته
اعزز على عينى برؤية بهجة الـ ـدنيا ووجهك لا ترى بهجاته
ابنى صلاح الدين ان اباكم ❁ ما زال يأبى ما الكرام أباته
لا تقتدوا الا بسنة فضله ❁ لتطيب فى مهد النعيم سناته
ورد امواردعدله وسماحه ❁ لترد عن نهج الشمات شماته

ولئن هوى جبل لقد بنيت لنا ❁ يبنيه من هضباته ذرواته
وبفضل أفضله وعزعزيزه ❁ وظهور ظاهره لنا سرواته
الافضل الملك الذى ظهرت على الـ ـدنيا بزهر جلاله جلواته
والدين بالملك العزيز عماده ❁ عثمان حاليـ ـة لنا حالاته
والملك غازى الظاهر العالى الذى ❁ صحت لاظهار العلى مغزاته
ولنا بسيف الدين أظهر نصرة ❁ بالعادل الملك المطهر ذاته

وللعماد فيه من قصيدة أخرى

من للعلا من للذرى من للهدى ❁ يحميه من للبأس من للنائل
طلب البقاء لملكه فى آجل ❁ اذلم يثق ببقاء ملك العاجل
بحر أعاد البر بحـ ـرا بره ❁ وبسيفه فتحت بلاد الساحل
من كان أهل الحق فى أيامه ❁ وبعزه يردون أهل الباطل
وفتوحه والقدس من ابكارها ❁ أبقت له فضلا بغير مساجل
ما كنت أستسقى بغيرك وابلا ❁ ورأيت جودك مخجلا لاوابل
فسقاك رضوان الاله لانني ❁ لاأرتضى سقيا الغمام الهاطل

﴿فصل﴾ فى تركة السلطان ووصف اخلاقه رحمه الله ذكر القاضى ابن شداد انه لما مات لم يخلف فى خزانته من الذهب والفضة الا سبعة وأربعين درهما ناصرية ودينارا واحدا ذهبا صوريا ولم يخلف ملكا ولا دارا ولا عقارا ولا بستانا ولا مزرعة يعنى فى البلد ولا مسقفا ولا ظاهرا مستغلا من أنواع الاملاك وقال العماد فى كتاب الفتح خلف السلطان رحمه الله سبعة عشر ولدا ذكرا وابنة صغيرة وأبقى له ما آثر أثيره ومحاسن كثيره ولم يخلف فى خزانته سوى دينار واحد وستة وثلاثين درهما فانه كان باخراج ما يدخل من الاموال فى المكرمات والغرامات مغرما وما كان يجود بالمال قبل الحصول ويقطعه عن خزانته بالحوالات عن الوصول واذا عرف بوصول حمل وقع عليه باضعافه وخص الآحاد من ذوى الغنا فى الجهاد بآلافه ولا جبه أحدا بالرد اذا سأله بل تلطف له كأنه استمهله فانه يقول ما عندنا شئ الساعة ومفهومه انه يعطى وان كان يبطى وانه يصيبه بالنوال ولا يخطى وكان مشغوفا فى سبيل الله بالانفاق موقوفا عزمه فى الاعداء بادناء الآجال وفى الاولياء باجراء الارزاق وما عقر فى سبيل الله فرس أوجرح الا وعوض مالكه مثله وزاده من فضله فضله وحسب ما وهبه من الخيل العراب والاكاديش الجياد للحاضرين معه فى صف الجهاد مدة ثلاث سنين وشهر منذ نزل الفرنج على عكا فى رجب سنة خمس وثمانين الى يوم انفصالهم بالسلم فى شعبان سنة ثمان وثمانين فكان تقديره اثنى عشر ألف رأس من حصان وحجرة واكديش وذلك غير ما أطلقه من المال فى اثمان الخيل المصابة فى القتال ولم يكن له فرس يركبه الا وهو موهوب أو موعود به وصاحبه ملازم فى طلبه وما حضر اللقاء الا استعار فرسا فركبه وهجر جياده فاذا نزل جاء صاحبه واستعاده فكلهم يركب خيله ويطلب خيره وهو يستعير جوادا ويستعر فى الجهاد اجتهادا قال فى البرق وحضرت بعده عند بعض الملوك وقد قيدت اليه عراب فقيل له كان السلطان يضيع هذه وما عنده لها حساب ونسبوا جوده بها الى السرف وعدوه من معايبه واعرضوا عن ذكره مفاخره ومناقبه وبمثل ذلك استنبت له الفتوح وخلصت له طاعة كاتبه قال فى الفتح لا يلبس الا ما يحل لبسه وتطيب به نفسه كل كتان والقطن والصوف وكسوته يخرجها فى اسداء المعروف وكانت محاضره مصونة من الحظر وخلواته مقدسة بالطهر ومجالسه منزهة عن الهزء والهزل ومحافله حافلة آهلة بأهل الفضل وما سمعت له قط كلمة تسقط ولا لفظة فظة تسخط ويغلظ على الكافرين الفاجرين ويلين للمؤمنين المتقين ويؤثر سماع الاحاديث بالاسانيد ويكلم العلماء عند فى العلم الشرعى المفيد وكان لمداومة الكلام مع الفقهاء ومشاركة القضاة فى القضاء اعلم منهم بالاحكام الشرعيه والاسباب المرضية والادلة المرعيه وكان من جالسه لا يعلم انه مجالس السلطان بل يعتقد انه مجالس أخ من الاخوان وكان

حليما مقيلا للعثرات متجاوزا عن الهفوات تقيا نقيا وفيا صفيا يغضي ولا يغضب ويبشر ولا يقطب ماردا سائلا ولا صدنا ثلا ولا أخجل قائلا ولا خيب آملا قال ومن جملة مناقبه انه تأخر عنه في بعض سفراته الامير أيوب بن كنان فلما وصل سأله عن سبب تخلفه فذكر دينا فاحضر غرماه وتقبل بالدين وكان اثني عشر ألف دينار مصرية وكسرا قال ولما كنا بالقدس في سنة ثمان وثمانين كتب اليه سيف الدولة بن منقذ نائبه بمصر ان واحدا ضمن معاملة بمبلغ فاستنض منها الفي دينار وتسحب وربما وصل الى الباب فتحيل وتمحل وكذب فجاء من أخبر السلطان ان الرجل بالباب فقال قل له ان ابن منقذ يطلبك فاجهد ان لا تقع في عينه فعجبنا من حلمه وكرمه بعد ان قلنا قدم الرجل الى حينه بقدمه قال ومما أذكره له في أول سفرتي معه الى مصر سنة اثنتين وسبعين انه حوسب صاحب ديوانه عما تولاه في زمانه فكانت سياقة الحساب عليه سبعين ألف دينار باقية عليه فطالبها ولا ذكرها وأراه انه ما عرفها على ان صاحب الديوان ما أنكرها وكان يرضى من الاعمال بما تحمل صفوا عفوا وتحصل حلوا وكله يخرج في الجود والجهاد ثم لم يرض له بالعطالة فولاه ديوان جيشه قال ولما كنا بظاهر حران عم بصدقاته الفقراء والمساكين وكتب الى نوابه في الولايات باخراج الصدقات وقال لي اكتب الى الصفي بن القابض بدمشق ان يتصدق بخمسة آلاف دينار صورية فقلت انما الذهب الذي عنده مصري فقال فيتصدق بخمسة آلاف دينار مصرية وأشفق من صرف المصري بالصوري فيكون حراما ويرتكب في كسب الاجر آثاما فسمح ومنح وتاجر الله وربح ولما عزم على الرحيل من حران أفاض بها الفضل وبث الاحسان وقال لي يوم الرحيل انظر كم بقي بالباب من الوافدين أبناء السبيل وهذه ثلثمائة دينار أقسمها عليهم بالقلم على اقدارهم وكانوا عدة يسيرة لم تبلغ عشرة فعينت لكل اسم قسما فبلغ أربعمائة دينار فاعلمته وقلت له انقص من كل اسم ربعا فقال اجر ما جرى به القلم قال وكان رحمه الله اذا أطلق لعاف عارفه وقلت له هذه ما تكفيه ردها مضاعفة قال وكان يغضب للكبائر ولا يغضي عن الصغائر ويرشد الى الهدى ويهدي الى الرشاد ويسدد الامر ويأمر بالسداد فكل مماليكه وخواصه بل أمراؤه وأجناده أعف من الزهاد والعباد قال ورأى لي يوما دواة محلاة بالفضة فأنكرها فقلت له ان الشيخ أبا محمد والدأبي المعالي قد ذكر وجهها في جوارها ثم لم أكتب بها عنده بعدها وكان محافظا على الصلوات الخمس في أوائل أوقاتها مواظبا على اداء مفروضاتها ومسنوناتها فما رأيته صلى الا في جماعة ولم يؤخر له صلاة من ساعة الى ساعة وكان له امام راتب ملازم مواظب فان غاب يوما صلى به من حضره من أهل العلم اذا عرفه متقيا متجنبا للاثم وكان يأخذ بالشرع ويعطي به ولم يكن الى المنجم مصغيا ولم يزل لقوله ملغيا ولا يتعيف ولا يتطير ولا يتعين ولا يتحير بل اذا عزم توكل على الله فلا يفضل يوما على يوم ولا زمانا على زمان الا بتفضيل الشرع ومازال ناصرا للتوحيد وقامعا جميع أهل البدع بالتبديد شافعي المذهب أصولا وفروعا معتقلا له معقولا ومسموعا يدني أهل التنزيه ويقصي أهل التشبيه ويديم استفادة فقه الفقيه واستزادة نباهة النبيه ووجاهة الوجيه فالعالمون في عدله والعالمون في فضله والبلاد في امنه والعباد في منه

﴿فصل﴾ قال القاضي ابن شداد كان مولد السلطان رحمه الله في شهور سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة بقلعة تكريت وكان والده أيوب بن شادي واليا بها وكان كريما أريحيا حليما حسن الاخلاق مولده ببدوين ثم اتفق له الانتقال من تكريت الى الموصل وانتقل ولده المذكور معه وأقام بها الى أن ترعرع وكان والده محترما مقدما وهو وأخوه أسد الدين شيركوه عند أتابك زنكي واتفق لوالده الانتقال الى الشام وأعطي بعلبك وأقام بها مدة ومعه ولده المذكور فأقام في خدمة والده يتربى تحت حجره ويرتضع ثدي محاسن اخلاقه حتى بدت منه امارات السعادة ولاحت عليه لوائح التقدم والسيادة وقدمه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله وعول عليه ونظر اليه وقربه وخصصه ولم يزل كلما تقدم قدما يبد ومنه أسباب تقتضي تقديمه الى ما هو أعلى منه حتى اتفق لعمه أسد الدين شيركوه الحركة الى مصر والنهوض اليها وقد مضى ذلك ثم قال ذكر ما شاهدناه من مواظبته على القواعد الدينية وملاحظته للامور الشرعية مما ورد في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال بني الاسلام على خمس شهادة أن لا اله الا الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة وصوم رمضان والحج الى بيت الله الحرام فكان رحمه الله حسن

لعقيدة كثير الذكر لله تعالى قد أخذ عقيدته عن الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء ويتفهم من ذلك ما يحتاج الى تفهمه بحيث كان اذا جرى الكلام بين يديه يقول فيه قولا حسنا وان لم يكن بعبارة الفقهاء تحصل من ذلك سلامة عقيدته عن كدر التشبيه والتعطيل جارية على نمط الاستقامة وكان قد جمع له الشيخ الامام قطب الدين النيسابورى رحمه الله عقيدة تجمع جميع ما يحتاج اليه فى هذا الباب وكان من شدة حرصه عليها يعلمها الصغار من أولاده حتى ترسخ فى اذهانهم من الصغر ورأيته وهو يأخذها عليهم وهم يقرؤونها من حفظهم عليه وأما الصلاة فانه كان شديد المواظبة عليها بالجماعة حتى انه ذكر رحمه الله ان له سنين ما صلى الا جماعة وكان اذا مرض يستدعى الامام وحده ويكلف نفسه القيام ويصلى جماعة وكان يواظب على السنن الرواتب وكان له ركعات يصليها ان استيقظ بوقت من الليل والا أتى بها قبل صلاة الصبح وما كان يترك الصلاة مادام عقله عليه ولقد رأيته يصلى فى مرضه الذى مات فيه قائما وما ترك الصلاة الا فى الايام الثلاثة التى تغيب فيها ذهنه وكان اذا أدركته الصلاة وهو سائر نزل وصلى وأما الزكاة فانه مات رضى الله عنه ولم يحفظ ما وجبت عليه به الزكاة وأما صدقة النفل فانها استنفدت جميع ما ملكه من الاموال وأما صوم رمضان فانه كان عليه فيه فوائت بسبب أمراض تواترت عليه فى رمضانات متعددة وكان القاضى الفاضل قد تولى ثبت تلك الايام وشرع رحمه الله فى قضاء فوائت ذلك فى القدس الشريف فى السنة التى توفى فيها واظب على الصوم مقدارا زائدا على شهر فانه كان عليه فوائت رمضانين شغلته الامراض وملازمة الجهاد عن قضائها وكان الصوم لا يوافق مزاجه فالهمه الله الصوم لقضاء الفوائت فكان يصوم وأنا أثبت الايام التى يصومها فان القاضى كان غائبا والطبيب يلومه وهو لا يسمع ويقول ما أعلم ما يكون فكأنه كان ملهما براءة ذمته ولم يزل حتى قضى ما عليه رحمه الله وأما الحج فانه لم يزل عازما عليه وما زاله لاسيما فى العام الذى توفى فيه فانه صمم العزم عليه وأمر بالتأهب وعملت الزوادة ولم يبق الا المسير فاعتاق عن ذلك بسبب ضيق الوقت وفراغ اليد عما يليق بأمثاله فأخره الى العام المستقبل فقضى الله ما قضى قال وهذا شئ اشترك فى العلم به الخاص والعام وكان رحمه الله يحب سماع القرآن العظيم حتى انه كان يستخير امامه ويشترط عليه أن يكون عالما بعلوم القرآن العظيم متقنا لحفظه وكان يستقرئ من يحضره فى الليل وهو فى برجه الحزبين والثلاثة والاربعة وهو يسمع وكان يستقرئ فى مجلسه العام من جرت عادته بذلك الآية والعشرين والزائد على ذلك ولقد اجتاز على صغير بين يدى أبيه وهو يقرأ القرآن فاستحسن قراءته فقربه وجعل له حظا من خاص طعامه ووقف عليه وعلى أبيه جزأ من مزرعة وكان رحمه الله خاشع القلب رقيق الدمعة اذا سمع القرآن العزيز يخشع قلبه وتدمع عينه فى معظم أوقاته وكان شديد الرغبة فى سماع الحديث ومتى سمع عن شيخ ذى رواية عالية وسماع كثير فان كان ممن يحضر عنده استحضره وسمع عليه واسمع من يحضره فى ذلك المكان من أولاده ومماليكه والمختصين به وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث اجلالا له وان كان الشيخ ممن لا يطرق أبواب السلاطين ويتحامى عن الحضور فى مجالسهم سعى اليه وسمع عليه تردد الى الحافظ السلفى بالاسكندرية وروى عنه أحاديث كثيرة وكان يحب أن يقرأ الحديث بنفسه فكان يستحضرنى فى خلوته ويحضر شيئا من كتب الحديث ويقرأ هو فاذا مر بحديث فيه عبرة رق قلبه ودمعت عينه وكان كثير التعظيم لشعائر الدين قائلا ببعث الاجسام ونشورها ومجازاة المحسن بالجنة والمسئ بالنار مصدقا بجميع ما ورد به الشرائع منشرحا بذلك صدره مبغضا للفلاسفة والمعطلة والدهرية ومن يعاند الشريعة المطهرة ولقد أمر ولده الظاهر صاحب حلب بقتل شاب كان نشأ يقال له الشهرورى قيل عنه انه كان معاندا للشرائع مبطلا وكان قد قبض عليه ولده المذكور لما بلغه من خبره وعرف السلطان به فأمر بقتله وصلبه أياما فقتله وكان حسن الظن بالله كثير الاعتماد عليه عظيم الانابة اليه ولقد شاهدت من آثار ذلك ما أحكيه فحكى التجاءه الى الله تعالى عند خوفه من قصد الفرنج بيت المقدس وامتناع أصحابه من دخوله للحصر فصلى ودعا فكفى ذلك وقد تقدم ذكره ثم قال وكان رحمه الله عادلا رؤفا رحيما ناصرا للضعيف على القوى وكان يجلس للعدل فى كل يوم اثنين وخميس فى مجلس عام بحضرة الفقهاء والقضاة والعلماء ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل اليه كل أحد من كبير وصغير وعجوز هرمة وشيخ كبير وكان يفعل ذلك سفرا

وحضرا على انه كان فى جميع زمانه قابلا لما يعرض عليه من القصص كاشفا لما ينهى اليه من المظالم وكان يجمع القصص فى كل يوم ثم يجلس مع الكاتب ساعة فى الليل أو فى النهار ويوقع على كل قصة بما يطلق الله على قلبه وما استغاث اليه أحد الا وقف وسمع ظلامته وأخذ قصته وكشف قضيته ولقد رأيته وقد استغاث اليه انسان من أهل دمشق يقال له ابن زهير على تقى الدين ابن أخيه وأنفذ اليه ليحضره فى مجلس الحكم فما خلصه الا ان اشهد عليه شاهدين انه وكل القاضى أمين الدين أبا القاسم قاضى حماه فى المخاصمة فأقاما الشهادة عندى فى مجلسه فأمرت أبا القاسم بمساواة الخصم فساواه وكان من خواص جلساء السلطان ثم جرت المحاكمة بينهما واتجهت اليمين على تقى الدين وكان تقى الدين من أعز الناس عليه واعظمهم عنده ولم يحابه فى الحق قال وكنت يوما فى مجلس الحكم بالقدس الشريف اذ دخل على شيخ حسن تاجر معروف يسمى عمر الخلاطى ومعه كتاب حكمى صار فتحه وقال خصمى السلطان وهذا بساط الشرع وقد سمعنا انك لا تحابى فقلت وفى أى قضية هو خصمك فقال ان سنقر الخلاطى كان مملوكى ولم يزل على ملكى الى أن مات وكان فى يده أموال عظيمة كلها الى ومات عنها واستولى عليها السلطان وأنا مطالبه فقلت ياشيخ وما الذى أقعدك الى هذه الغاية فقال الحقوق لا تبطل بالتأخير وهذا الكتاب الحكمى ينطق بأنه لم يزل فى ملكى الى أن مات فأخذت الكتاب منه وتصفحت مضمونه فوجدته يتضمن حلية سنقر الخلاطى وانه قد اشتراه من فلان التاجر بارجيش فى اليوم الفلانى من شهر كذا من سنة كذا وانه لم يزل فى ملكه الى أن شذ عن يده فى سنة كذا وما عرف شهود هذا الكتاب خروجه عن ملكه بوجه وتمم الشرط الى آخره فعجبت من هذه القصة وأعجبت السلطان بذلك فأحضره واستدناه حتى جلس بين يدى وكنت الى جانبه ثم انفرك من طرا حته حتى ساواه رحمه الله تعالى ثم ادعى الرجل وفتح كتابه وقرئ تاريخه فقال السلطان ان لى من يشهد ان سنقر هذا كان فى ملكى وفى يدى بمصر والى اشتريته مع ثمانية أنفس فى تاريخ متقدم على هذا التاريخ بسنة وانه لم يزل فى يدى وملكى الى ان أعتقته ثم استحضر جماعة من اعيان الامراء المجاهدين فشهدوا بذلك وحكوا القضية كما ذكرها وذكروا التاريخ كما ادعاه فابلس الرجل فقلت له يا مولانا هذا الرجل ما فعل ذلك الا طلبا لمراحم السلطان وقد حضر بين يدى المولى وما يحسن ان يرجع خائب القصد فقال هذا باب آخر وتقدم له بخلعة ونفقة بالغة قال فانظر الى ما فى طى هذه القضية من المعانى الغريبة العجيبة من التواضع والانقياد الى الحق وارغام النفس والكرم فى موضع المؤاخذة مع القدرة التامة رحمة الله عليه قال وكرمه كان أظهر من أن يسطر كان رحمه الله يهب الاقاليم وفتح آمد فطلبها منه ابن قراأرسلان فأعطاه اياها ورأيته وقد اجتمع عنده وفود بالقدس ولم يكن فى الخزانة ما نعطيهم فباع قرية من بيت المال وخصصنا ثمنها عليهم ولم يفضل منه درهم واحد وكان يعطى فى وقت الضائقة كما يعطى فى حال السعة وكان نواب خزانته يخفون عنه شيئا من المال حذرا ان ينجأهم مهم لعلمهم انه متى علم به أخرجه وسمعته يوما يقول يمكن فى الناس من ينظر الى المال كما ينظر الى التراب فكأنه أراد بذلك نفسه وكان يعطى فوق ما يؤمل الطالب وما سمعته يقول أعطينا الفلان وكان يعطى الكثير ويبسط وجهه للمعطى بسط من لم يعطه شيئا وكان الناس يستزيدونه فى كل وقت وما سمعته قط يقول قد زدت مرارا فكم أزيد وأكثر الرسائل فى ذلك كان يكون على لسانى ويدى وكنت أخجل من كثرة ما يطلبون ولا أخجل منه لعلمى بعدم مؤاخذته بذلك وما خدمه قط أحد الا وأغناه عن سؤال غيره وأما تعدد عطاياه فقال حضرنا عدد ما وهب من الخيل بمرج عكا لا غير فكان عشرة آلاف رأس ومن شاهد مواهبه يستقل هذا القدر اللهم انك الهمته الكرم وأنت أكرم الاكرمين فتكرم عليه برحمتك ورضوانك يا أرحم الراحمين قال وكان رحمه الله من عظماء الشجعان قوى النفس شديد البأس عظيم الثبات لا يهوله أمر ولقد رأيته مرابطا فى مقابلة عدة عظيمة من الفرنج ونجدهم تتواصل وعساكرهم تتواتر وهو لا يزداد الا قوة نفس وصبرا ولقد وصل فى ليلة واحدة منهم نيف وسبعون مركبا على عكا وأنا أعدها من بعد صلاة العصر الى غروب الشمس وهو لا يزداد الا قوة نفس ولقد كان يعطى دستورا فى أوائل الشتاء ويبقى فى شرذمة يسيرة فى مقابلة عدتهم الكثيرة ولقد سألت باليان بن بارزان وهو من كبار ملوا الساحل وهو جالس بين يديه يوم انعقاد الصلح عن عدتهم فقال الترجمان عنه انه يقول كنت أنا وصاحبى

صيدا وكان أيضا من ملوكهم وعقلائهم قاصدين عسكرنا من صور قلما أشرفنا عليه تحاوزناه فخبره هو بخمسمائة ألف وحزرته أنا بستمائة ألف أو قال عكس ذلك فقلت فكم هلك منهم فقال أما بالقتل فقريب من مائة ألف وأما بالموت والغرق فلا يعلم وما رجع من هذا العالم الا الاقل قال وكان لابد له من أن يطوف حول العدو كل يوم مرة أو مرتين اذا كنا قريبا منهم وكان اذا اشتد الحرب يطوف بين الصفين ومعه صبي واحد وعلى يده حنيب ويخرق العساكر من الميمنة الى الميسرة يرتب الاطلاب ويأمرهم بالتقدم والوقوف فى مواضع يراها وكان يشارف العدو ويجاوره ولقد قرئ عليه جزء من الحديث بين الصفين وذلك انى قلت له قد سمع الحديث فى جميع المواطن الشريفة وما نقل انه سمع بين الصفين فان رأى المولى أن يؤثر عنه ذلك كان حسنا فأذن فى ذلك فاحضر جزءا هناك من له به سماع فقرئ عليه ونحن على ظهور الدواب بين الصفين يمشي تارة ويقف أخرى وما رأيته استكثر العدو أصلا ولا استعظم أمرهم قط وكان مع ذلك فى حال الفكر والتدبير يذكر بين يديه الاقسام كلها ويرتب على كل قسم مقتضاه من غير حدة ولا غضب يعتريه ولقد انهزم المسلمون فى يوم المصاف الاكبر بمرج عكا حتى القلب ورجاله ووقع الكؤس والعلم وهو ثابت القدم فى نفر يسير وقد انحاز الى الجبل يجمع الناس ويردهم ويخلهم حتى يرجعوا ولم يزل كذلك حتى عكس المسلمون على العدو فى ذلك اليوم وقتل منهم زهاء سبعة آلاف ما بين راجل وفارس ولم يزل مصابرا لهم وهم فى العدة الوافرة الى أن ظهر له ضعف المسلمين فصالح وهو مسؤول من جانبهم فان الضعف والهلاك كان فيهم أكثر ولكنهم كانوا يتوقعون النجدة ونحن لا نتوقعها وكانت المصلحة فى الصلح وكان رحمه الله يمرض ويصح ويعتريه أحوال مهولة وهو مصابر مرابط وتترى النيران ويسمع منهم صوت الناقوس ويسمعون منا صوت الاذان الى ان قضى الامر قال وكان رحمه الله شديد المواظبة على الجهاد عظيم الاهتمام به ولو حلف حالف انه ما أنفق بعد خروجه الى الجهاد دينارا ولا درهما الا فى الجهاد وفى الارفاد لصدق ويرفى يمينه ولقد كان الجهاد وحبه فى الشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيما بحيث ما كان له حديث الا فيه ولا نظر الا فى آلته ولا اهتمام الا برجاله ولا ميل الا الى من يذكره ويحث عليه ولقد هجر فى محبة الجهاد فى سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر ملاذه وقنع من الدنيا بالسكون فى ظل خيمة تهب بها الرياح يمنة ويسرة ولقد وقعت عليه الخيمة فى ليلة ريحه على مرج عكا فلو لم يكن فى البرج لقتلته ولا يزيده ذلك الا رغبة ومصابرة واهتماما قلت وشواهد ما ذكر القاضى من ذلك كثيرة وقد سبقت مفرقة فى رقعته رحمه الله منها ما قاساه على حصار كوكب من الامطار والاوحال وقال الرشيد بن النابلسي من قصيدة له

ما أبهج الدين والدنيا بمالكها الصديق يوسف لا لاذت به الغير
ملك تساوى جمادى فى الجهاد وتمـ ـوز لديه وضاهى ناجرا صفر
فليس يثنيه حران توقد عن * رضى الاله ولا ان اغدق المطر
ولا يهنهنه عما يكابده * ضج أعيد معاليه ولا ضجر
ولا يرى الروح الا ظهر سلهبة * فى بطن معركة مركوبها وعر
صبر جميل كطعم الشهد فى فمه * وعند كل مليك طعمه الصبر

قال القاضى وكان الرجل اذا أراد أن يتقرب اليه يحثه على الجهاد أو يذكر شيئا من أخبار الجهاد ولقد ألف له كتب عدة فى الجهاد وأنا ممن جمع له فيه كتابا جمعت فيه آدابه وكل آية وردت فيه وكل حديث روى فيه وشرحت غريبها وكان رحمه الله كثير مايطالعه حتى أخذه منه ولده الافضل قال ولا حكين عنه ما سمعت منه فى ذلك وذلك انه كان قد أخذ كوكب فى ذى القعدة سنة أربع وثمانين وأعطى العساكر دستورا وأخذ عسكره صرفى العود الى مصر وكان مقدمه أخاه العادل فسار معه ليودعه ويحظى بصلاة العيد فى القدس ففعل ووقع له انه يمضي معهم الى عسقلان ويودعهم ثم يعود على طريق الساحل ويتفقد البلاد الساحلية الى عكا ويرتب أحوالها فاشاروا عليه ان لا يفعل فان العساكر اذا فارقتنا بقى فى عدة يسيرة والفرنج كلهم بصور وهذه مخاطرة عظيمة فالتفت وودع أخاه والعسكر بعسقلان ثم سرنا على الساحل طالبى عكا وكان الزمان شتاء عظيما والبحر هائجا

نيا وموجه كالجبال كما قال الله تعالى وكنت حديث عهد برؤية البحر فعظم أمر البحر عندى حتى خيل لى لو قال لى قادر لو جزت فى البحر ميلا واحدا ملكتك الدنيا لما كنت أفعل واستخففت رأى من يركب البحر رجاء كسب دينار أو درهم واستحسنت رأى من لا يقبل شهادة راكب البحر هذا كله خطر لى لعظم الهول الذى شاهدته من حركة البحر وتموجه فبينا انا فى ذلك اذ التفت الى وقال فى نفسه انه متى يسر الله تعالى فتح بقية ساحل قسمت البلاد وأوصيت وودعت وركبت هذا البحر الى جزائرهم اتبعهم فيها حتى لا أبقى على وجه الارض ن يكفر بالله أو أموت فعظم وقع هذا الكلام عندى حيث ناقض ما كان يخطر لى وقلت له ليس فى الارض أشجع سا من المولى ولا أقوى نية منه فى نصرة دين الله وحكيت له ما خطر لى ثم قلت ما هذه الانية جميلة ولكن المولى يسير البحر العساكر وهو سور الاسلام ولا ينبغى ان يخاطر بنفسه فقال أنا أستفتيك ما أشرف الميتات فقلت الموت سبيل الله فقال غاية ما فى الباب ان أموت أشرف الميتات قال فانظر الى هذه الطوية ما أطهرها والى هذه نفس ما أشجعها وأجسرها اللهم انك تعلم انه بذل جهده فى نصرة دينك رجاء رحمتك فارحمه قال وأما صبره فلقد أيته بترجع عكاوهو على غاية من مرض اعتراه بسبب كثرة دمامل كانت ظهرت عليه من وسطه الى ركبته بحيث يستطيع الجلوس وانما يكون متكئا على جانبه اذا كان فى الخيمة وامتنع من مد الطعام بين يديه لعجزه عن الجلوس كان يأمر ان يفرق على الناس وكان مع ذلك كله يركب من بكرة النهار الى صلاة الظهر يطوف على الاطلاب من العصر الى صلاة المغرب وهو صابر على شدة الالم وقوة ضربان الدمامل وكان يعجب من ذلك فيقول رحمه الله اذا ركبت يزول عنى المها حتى أنزل وهذه عناية ربانية ولقد مرض ونحن على الخروبة وكان قد تأخر عن تل الحجل بسبب مرضه فبلغ الفرنج ذلك فخرجوا طمعا فى ان ينالوا من المسلمين شيأ بسبب مرضه وهى نوبة النهر فخرجوا فى مرحلة الى الآبار التى تحت التل ثم رحل العدو فى اليوم الثانى يطلبنا فركب رحمه الله على مضض ورتب العساكر للحرب وجعل أولاده فى القلب ونزل هو وراء القوم بطلبه وكلما سار الى العدو يطلب رأس النهر سار هو ويستدير الى ورائهم حتى يقطع بينهم وبين خيامهم وهو رحمه الله يسير ساعة ثم ينزل يستريح ويتظلل بمنديل على رأسه من شدة وقع الشمس ولا ينصب له خيمة حتى لا يرى العدو ضعفا ولم يزل كذلك حتى نزل العدو برأس النهر ونزل هو على تل قبالتهم مطل عليهم الى ان دخل الليل ثم أمر العساكر ان تعود الى محل المصابرة وان يبيتوا تحت السلاح وتأخر هو الى قمة الجبل وضربت له خيمة لطيفة وبات تلك الليلة أجمع انا والطبيب نمرضه ونشاغله وهو ينام تارة ويستيقظ أخرى حتى لاح الصباح ثم ضرب البوق وركب رحمه الله وركبت العساكر وأحدقت بالعدو ورحل العدو عائدا الى خيمه من الجانب الغربى للنهر وضايقه المسلمون مضايقة شديده وفى ذلك اليوم قدم أولاده بين يديه احتسابا الافضل والظاهر والظافر وجميع من حضره منهم ولم يزل يبعث من عنده حتى لم يبق عنده الا أنا وطبيب وعارض الجيش والغلمان بايديهم الاعلام والبارق لا غير فيظن الرائى لها عن بعد ان تحتها خلقا كثيرا وليس تحتها الا واحد بعد بخلق عظيم رحمه الله وبقى فى موضعه والعساكر على ظهور الخيل قبالة العدو الى آخر النهار ثم أمرهم ان يبيتوا على مثل ما باتوا عليه بارحتهم وبتنا على ما بتنا عليه الى الصباح وعاد العسكر الى ما كان عليه بالامس من مضايقة العدو قال ولقد رأيته ليلة على صفد وهو يحاصرها وقال لا تنام الليلة حتى ينصب لنا خمسة مجانيق ورتب لكل منجنيق قوما يتولون نصبه وكان طول الليل فى خدمته فى ألذ فكاهة وأرغد عيشة والرسل تتواصل مخبرة بانه نصب من المنجنيق الفلانى كذا ومن الآخر كذا حتى أتى الصباح وقد فرغ منها وكانت من أطول الليالى وأشدها بردا ومطرا. قال ولقد رأيته وقد جاءه خبر وفاة ولده بالغ أو مراهق يسمى اسماعيل فوقف على الكتاب ولم يعرف أحدا ولم نعرف حتى سمعناه من غيره ولم يظهر عليه شئ من ذلك سوى انه لما قرأ الكتاب دمعت عينه رحمه الله قال ولقد رأيته وقد وصله خبر وفاة تقى الدين ونحن فى مقابلة الفرنج جريدة على الرملة وفى كل ليلة تقع الصيحة فتقلع الخيام ويقف الناس على ظهر الى الصباح والغد ونيازر بيننا نوبته شوط فرس لا غير فاحضر العادل وابن جندر وابن المقدم وابن الداية سابق الدين وأمر بالناس فابعدوا عن الخيمة بحيث لم يبق حولها أحد عن غلوة سهم ثم أظهر الكتاب ووقف عليه وبكا بكاء شديدا حتى أبكا من غير ان نعلم السبب ثم قال رحمه الله والعبرة تخنقه توفى تقى الدين فاشتد بكاؤه وبكاء الجماعة ثم عدت الى نفسى

فقلت أستغفروا الله من هذه الحالة وانظروا أين أنتم واعرضوا عما سواه فقال رحمه الله نعم استغفر الله وأخذ يكررها ثم قال لا يعلم هذا أحد قال وكان رحمه الله شديد الشوق والشغف باولاده الصغار وهو صابر على مفارقتهم راض ببعدهم عنه وكان صابرا على مر العيش وخشونته مع القدرة التامة على غير ذلك احتسابا لله تعالى اللهم انه ترك ذلك كله ابتغاء مرضاتك فارض عنه قال ولقد كان رحمه الله حليما متجاوزا قليل الغضب ولقد كنت بخدمته بمرج عيون قبل خروج الفرنج الى عكا يسر الله فتحها وكان من عادته انه يركب في وقت الركوب ثم ينزل فيمد الطعام ويأكل معها الناس ثم ينهض الى خيمة خاصة له ينام فيها ثم يستيقظ من منامه ويصلي ويجلس خلوة وأنا في خدمته يقرأ شيأ من الحديث أو شيأ من الفقه ولقد قرأ على كتابا مختصرا لسليم الرازي يشتمل على الارباع الاربعة من الفقه فنزل يوما على عادته ومد الطعام بين يديه ثم عزم على النهوض فقيل له ان وقت الصلاة قد قرب فعاد الى الجلوس وقال نصلي وننام ثم جلس يتحدث حديث متضجر وقد أخلي المكان الاعمن لزم فتقدم اليه مملوك كبير محترم عنده وعرض عليه قصة لبعض المجاهدين فقال له أنا الآن ضجر أخرها ساعة فلم يفعل وتقدمها الى قريب من وجهه الكريم بيده وفتحها بحيث يقرؤها فوقف على الاسم المكتوب في رأسها فعرفه وقال رجل مستحق فقال يوقع له المولى فقال ليست الدواة حاضرة الآن وكان رحمه الله جالسا في باب الخركاه بحيث لا يستطيع أحد الدخول اليها والدواة في صدر الخركاه الخركاة كبيرة فقال له المخاطب ها هي الدواة في صدر الخركاه قال القاضي فليس لهذا معنى الا أمرك اياه باحضار الدواة لاغير فالتفت رحمه الله فرأى الدواة فقال والله صدق ثم استند على يده اليسرى ومد يده اليمنى وأحضرها ووقع له فقلت قال الله تعالى في حق نبيه صلى الله عليه وسلم وانك لعلى خلق عظيم وما أرى المولى الا قد شاركه في هذا الخلق فقال ما ضرنا شئ قضينا حاجته وحصل الثواب قال القاضي ولو وقعت هذه الواقعة لآحاد الناس لقام وقعد ومن الذي يقدر ان يخاطب أحدا هو تحت حكمه بمثل ذلك وهذا غاية الاحسان والحلم والله لا يضيع أجر المحسنين قال ولقد كانت طراحته تداس عند التزاحم عليه لعرض القصص وهو لا يتأثر لذلك ولقد نفرت يوما بغلتي من الجمال وأنا راكب في خدمته فرجت وركضت حتى ألمته وهو يتبسم ولقد دخلت بين يديه في يوم ريح مطير الى القدس كثير الوحل فتضمخت البغلة عليه من الطين حتى أهلكت جميع ما كان عليه وهو يتبسم وأردت التأخر عنه بسبب ذلك فما تركني ولقد كان يسمع من المستغيثين اليه والمتظلمين أغلظ ما يمكن ان يسمع ويلقى ذلك بالبشر والقبول ثم قال القاضي وهذه حكاية يندر ان يسطر مثلها فذكر ما تقدم من امتناع عسكره من الهجوم على ملك الانكليزة وهو في جمع يسير من أصحابه بعد ان اطاف بهم وواجه الجناح السلطان بذلك الكلام الخشن فرجع السلطان مغضبا وظن انه ربما صلب وقتل في ذلك اليوم فنزل ببازور وقد وصله من دمشق فاكهة كثيرة فطلب الامراء ليأكلوا الخضر وافرأوا من بشره وانبساطه ما أحدث لهم الطمأنينة والامر والسرور قال وكان رحمه الله كثير المروءة ندي الوجه كثير الحياء منبسط لمن يرد عليه من الضيوف يكرم الوافد عليه وان كان كافرا ولقد وفد عليه البرنس صاحب انطاكية فما أحس به الا وهو واقف على باب خيمته بعد وقوع الصلح في شوال عند منصرفه من القدس الى دمشق وقد تقدم ذلك وعرض له في الطريق وطلب منه شيأ فاعطاه العمق وهي بلاد كان أخذها منه عام فتح الساحل سنة أربع وثمانين ولقد رأيته وقد دخل اليه صاحب صيدا فاحترمه وأكرمه وأكل معه وعرض عليه الاسلام وذكر له طرفا من محاسنه وحثه عليه وكان يكرم من يرد عليه من المشايخ وأرباب العلم والفضل وذوي الاقدار وكان يوصينا لئلا نغفل عن يجتاز بالخيم من المشايخ المعروفين حتى نحضرهم عنده ونبالغ من احسانه وتقدم بنا سنة أربع وثمانين رجل جمع بين العلم والتصوف وكان من ذوي الاقدار وكان أبوه صاحب توريز فاعرض هو عن فن أبيه واشتغل بالعلم والعمل وحج ووصل زائرا لبيت الله المقدس ولما قضى لبانته منه ورأى آثار السلطان فيه وقع له زيارته فوصل الينا الى العسكر فلقيته ورحبت به وعرفت السلطان وصوله فاستحضره وشكره عن الاسلام وحثه على الخير وانصرف وبات عندي في الخيمة فلما صلينا الصبح أخذ يودعني فقبحت له المسير بدون وداع السلطان فلم يلتفت ولم يلو على ذلك وقال قضيت حاجتي منه ولا غرض لي فيما عدا رؤيته وزيارته ثم انصرف من ساعته ومضى على ذلك ليال فسأل السلطان عنه فاخبرته بفعله فظهر عليه آثار العتب كيف لم

يخبره برواحه وقال كيف يطرقنا مثل هذا الرجل وينصرف عنا من غير احسان يمسه منا وشدد النكير على في ذلك فما وجدت بدا من ان كتبت كتابا الى محيي الدين قاضي دمشق كلفته فيه السؤال عن حال الرجل وايصال رقعة كتبتها اليه طي كتابي أخبرته فيها بانكار السلطان رواحه من غير اجتماع به وحسنت له فيها العود وكان بيني وبينه صداقة تقتضي مثل ذلك فعاد واجتمع بالسلطان فرحب به وانبسط معه واستوحش له وأمسكه أياما ثم خلع عليه خلعة حسنة وأعطاه مركوبا بالاقا وثيابا كثيرة ليحملها الى أهل بيته وأتباعه وجيرانه ونفقة يرتفق بها وانصرف عنه وهو أشكر الناس له وأخلصهم دعاء لايامه قال ولقد رأيته رحمه الله وقد مثل بين يديه أسير فرنجي وقد هابه بحيث ظهر عليه امارات الخوف والجزع فقال له الترجمان من أي شئ تخاف فاجرى الله على لسانه ان قال كنت أخاف قبل ان أرى هذا الوجه فبعد رؤيتي له وحضوري بين يديه أيقنت اني ما أرى الا الخير فمن عليه وأطلقه ورق له قال وكنت را كبا في خدمته في بعض الايام قبالة الفرنج ووصل بعض اليزكية ومعه امرأة شديدة التحرق كثيرة البكا منواترة الدق على صدرها فذكرت قصة أم الرضيع الذي سرق وقد مضت قال وكان رحمه الله لا يرى الاساءة الى من صحبه وان أفرط في الجناية ولقد بدل في خزانته كيسان من الذهب المصري بكيسين من الفلوس فما عل بالثواب شيأ سوى انه صرفهم من عملهم لا غير وكان رحمه الله حسن العشرة لطيف الاخلاق طيب الفكاهة حافظا لانساب العرب ووقايعهم عارفا بسيرهم وأحوالهم حافظا لانساب خيلهم عالما بعجائب الدنيا ونوادرها بحيث كنا نستفيد محاضرة منه مالا نسمعه من غيره وكان يسأل الواحد منا عن مرضه ومداواته ومطعمه ومشربه وتقلبات أحواله وكان ظاهر المجلس لا يذكر بين يديه أحد الا بالخير وظاهر السمع فلا يحب ان يسمع عن أحد الا بالخير وظاهر اللسان فما رأيته أولع بشتم قط وظاهر القلم فما كتب بقلمه الدل لمسلم قط وكان حسن العهد والوفاء فما أحضر بين يديه يقبل الارض ترحم على مخلفه وجبر قلبه وأعطاه خبز مخلفه ان كان له من أهله كبير يعتمد عليه وسلمه اليه والا أبقى له من الخبز ما يكفي حاجته وسلمه الى من يكفله ويعتني بتربيته وكان ما يرى شيخا الا ويرق له ويعطيه ويحسن اليه ولم يزل على هذه الاخلاق الى ان توفاه الله عز وجل الى مقر رحمته ومحل رضوانه قلت ولجعفر بن شمس الخلافة من قصيدة رثاه بها

ألست ترى كيف انبرى الخطب ثائرا ❊ ومد يده منه الى دافع الخطب
الى الناصر الملك الذي ملئت به ❊ قلوب البرايا من رجاء ومن رعب
كريم أتاه الموت ضيفا فلم يكن ❊ لينزله الا على السهل والرحب
ولو خاب منه قبل ذلك سائل ❊ لخاب وليس البخل من شيم السحب
قضى فقضى المعروف وانقرض الندى ❊ وحطت رحال الوفد في الشرق والغرب
أفاض على الدنيا سجال نواله ❊ فغاضت عليه أعين العجم والعرب
ولو انه يبكى على قدر حقه ❊ اسال دموع المزن من أعين الشهب
جزاء عن الاسلام خيرا الهه ❊ فامل عنه من دفاع ومن ذب
تداركه بعدا بتذال فقد غدا ❊ وكان شديد الخوف في أمنع الحجب
وأصبح للبيت المقدس منقذا ❊ باصلب عزم من مقارنة الصلب
أذل له الله العدا مذ أطاعه ❊ وسهل منهم كل ممتنع صعب
سقى الخلد عند الله دار مقره ❊ يمتع منه بالجوار وبالقرب

(فصل) في انقسام ممالكه بين أولاده واخوته وبعض ما جرى بعد وفاته قال العماد في كتاب البرق خلف السلطان سبعة عشر ولدا أكبرهم الملك الافضل نور الدين أبو الحسن علي ومولده بمصر يوم عيد الفطر سنة خمس وستين وخمسمائة وتولى بعده دمشق الى ان خرج منها الى صرخد وتولاها عمه العادل في شعبان سنة اثنتين وتسعين مضافة الى ممالكه بالبلاد الشرقية والجزيرة وديار بكر ثم الملك العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان ومولده

بمصر

بمصر ثامن جمادى الاولى سنة سبع وستين وتوفى بها فى ملكه ليلة الاحد العشرين من محرم سنة خمس وتسعين وتولى بعده أحد أولاده الصغار ثم الملك الظاهر غياث الدين غازى ومولده بمصر منتصف شهر رمضان سنة ثمان وستين وتولى حلب واعمالها قال ولقد أنشأت الرسالة الموسومة بالعتبى والعقبى فيما طرأ بعد السلطان الى آخر سنة اثنتين وتسعين وقال فى كتاب الفتح تولى الملك الافضل دمشق والساحل وما يجرى مع ذلك من البلاد وهو الذى حضر وفاة والده وقام بسنة العزاء وفرض الاقتداء بابيه فى ايلاء الالاء وادناء الاولياء وخلع على الاماثل والامراء والافاضل والعلماء وآوى اليه اخوته وضم جماعته وجهز أخاه الظافر خضر امظفر الدين وأنهضه لانجاد عمه العادل كما سنذكره وكانت حمص والمناطر والرحبة وبعلبك وما يجرى معها فى المملكة الافضلية داخله وقدم عليه سلطاناها الملكان المجاهد والامجد الى دمشق فتأكدت بينهم القرابة والالفه ولما استقر الافضل بدمشق فى مقام والده قدم الى الديوان العزيز نجابين بانهاء الحال ثم ندب ضياء الدين ابن الشهرزورى فى الرسالة وأصحبه عدة والده فى الغزاة وسيفه ودرعه وحصانه وأضاف الى ذلك من الهدايا والتحف والخيل العراب ما استنفد وسعه وامكانه فما تهيأ مسير الرسول الا فى أواخر جمادى الآخره حتى حصل كل ما أراد من الهدايا الفاخره وحتى كاتب مصر وحلب وأعلم بمسير رسوله حتى لا يظن انه انفرد بسوله وقصد مداراة اخوته وفضل بفضل نخوته وذلك بعد ان جدد نقش الدينار والدرهم باسمى أمير المؤمنين وولى العهد عدة الدين وقال ابن القادسى وفى يوم الثلاثاء مستهل رمضان حمل ابن الشهرزورى ما كان أصحبه الافضل من حمل الشام الى الديوان العزيز وهو صليب الصلبوت الذى كان قد أخذه والده وذكر انه ذهب يزيد على العشرين رطلا مرصعا بالجواهر ومعه خادم مختص بخدمته وحمل فرس أبيه وزرديته وخوذته وكانت صفراء مذهبة ودبوس حديد وسيف وأربع زرديات وقالوا هذه تركته وبها كان يقاتل وتحفا جمة من الثياب وحمل فى جملة التحف أربع جوار من بنات ملوك الروم فيهن ابنة بارزان وبنت صاحب جبله قال العماد وأمرنى بانشاء الكتب وتحريرها وتقريب المقاصد وتقريرها منها (أصدر العبد هذه الخدمة وصدره مشروح بالولاء وقلبه معمور بالصفاء ويده مرفوعة الى السماء للابتهال بالدعاء ولسانه ناطق بشكر النعماء وجنانه ثابت من المهابة والمحبة على الخوف والرجاء وطرفه مغض من الحياء وهو للارض مقبل وللفرض متقبل وهو يمت بما قدمه وأسلفه من الخدمات ويخر ذخر الاقوات لهذه الاوقات وقد أحاطت العلوم الشريفة بان الوالد السعيد الشهيد الشديد السديد المبير للشرك المبيد لم يزل أيام حياته والى ساعة وفاته مستقيما على جدد الجد مستليما فى صون فريضة الجهاد الى بذل الجهد ومصر بل الامصار باجتهاده فى الجهاد شاهده والانجاد والاغوار فى نظر عزمه واحده والبيت المقدس من فتوحاته والملك العقيم من نتائج عزماته وهو الذى ملك ملوك الشرق وغل أعناقها وأسر طواغيت الكفر وشد خناقها وقمع عبدة الصلبان وقطع أصلابها وجمع كلمة الايمان وعصم جنابها ونظم أسبابها وسد الثغور وسدد الامور وقبض وعدله مبسوط وأمره محوط ووزره محطوط وعمله بالصلاح منوط وما خرج من الدنيا الا وهو فى حكم الطاعة الامامية داخل وبمحرها الرابح الى دار المقامة راحل ولم تكن له وصية الا بالاستمرار على جادتها والاستكثار من مادتها وان مضى الوالد على طاعة امامه فالممالك أولاده وأخواه فى مقامه) قال وتولى ولده الملك العزيز أبو الفتح عثمان مصر وجميع أعمالها وأبقاها على اعتدالها ونقاها من شوائب اختلالها واعتلالها واحيى سنتى الجود والباس وثبت القواعد من حسن السياسة على الاساس وأطلق كل ما كان يؤخذ من التجار وغيرهم باسم الزكاه وضاعف ما كان يطلق برسم العفاه وقدم أمر بيت الله المقدس وبجعل له عشرة آلاف دينار مصريه لتصرف فى وجوه ضروريه ثم أمده بالحمل وأفاض عليه من الفضل وقرر واليه عز الدين جرديك على ولايته وقوى يده برعايته ووالى حمل الغلات من مصر الى القدس وأبدل وحشته بوفاة السلطان من وفائه بالانس ثم أشفق من غدر الفرنج فى فسخ الهدنه فأتى من تجهيز العساكر الى البيت المقدس بكل ما فى الممكنه ثم سمع بحركة المواصلة ومن تابعهم وبايعهم وشايعهم وقد خرجوا فى ايمانهم حانثين ولعقد أيمانهم ناكثين فخيم ببركة الجب واستشار أمراءه أهل الرأى واللب وجهز جيشا فوصلوا الى دمشق وقد فرغ العادل من حرب القوم وسلمهم وهزمهم اعطاف الاستكانة له بعد هزمهم فرأى ان آن الحمد أعود والعود أحمد قال وتولى حلب وأعمالها وحصونها

ومعاقلها وكرائم البلاد وعقائلها الملك الظاهر غازى وهو برجاحته وسماحته الطود والجود الموازن الموازى وملك مملكة أقطارها واسعه وأمصارها شاسعه فحماها وحواها وبماء العدل رواها وقواها وأقر البيرة وأعمالها وما يجرى معها على أخيه الملك الزاهر مجير الدين داود ودخل فى أمره صاحب حماه ابن تقى الدين فأعزه وحماه قلت وهو مأوى ذرية والده وبقى الملك منهم فى عقبه وانحاز كل من اخوته وأولادهم اليه وعولوا فى تمشية أمورهم عليه والامر مستمر على ذلك فى عقبه الى الان والله تعالى ولى الاحسان ثم زال ملك هذا البيت فى صفر سنة ثمان وخمسين وستمائة بسبب غلبة التتار الكفرة على البلاد والله بصير بالعباد ومن كلام القاضى الفاضل فى جواب ورد عليه منه بعد موت السلطان (متى رأى المملوك خط مولانا طالعا فى كتاب وطلبعة على خطاب تمثل ذلك الشخص الكريم وذلك السلطان العظيم وذلك الخلق الكريم وذلك العهد القديم فحيى بعد موته وسبح من يحيى العظام وهى رميم ورفع يده بما الله رافعه ودعا بصالح الله سامعه) قال العماد وكان الملك العادل مع السلطان فى الصيد قبل وفاته وكان موافقه ومرافقه فى مقتضياته فلما عاد السلطان الى دمشق ودّعه ومضى الى حصنه بالكرك فناب النائب ولم يحضر وقت احتضاره الاخ الغائب فلما عرف وصل الى دمشق بعد أيام ولم يطل المقام ورحل طالبا بلاده بالجزيره حذرا عليها من أهل الجزيره وكان السلطان جعل له كل ما هو شرقى الفرات من البلاد والولايات فلما وصل الى الفرات وجد مما خافه دلائل العثرات فأقام بقلعة جعبر وسير الى الولايات الولاه ووصى برعاية الرعاه واستناب فى ميافارقين وحانى وسميساط وحران والرها وشحنها بالشحن وعلم العدا انه فى خف فخفوا وعرضوا وصفوا وكان سيف الدين يكتمر صاحب خلاط قد استبشر بموت السلطان وتلقب بالملك الناصر وحدث أمله بجر العساكر وراسل صاحبى الموصل وسنجار وطير اليهم كتب الاستنفار وضم اليه من ماردين ماردين وطار وطاش وارتاش وانتاش فبينما هو فى اثناء ذلك قتلته الاسماعيلية بخلاط رابع عشر جمادى الاول سنة تسع وثمانين وأول من بدا أمره بالخروج على بلاد السلطان متولى ماردين ونزل على حصن النوزر وهذا الحصن كان السلطان اقتطعه عن أعمال ماردين حين صالح أهلها وأضافه الى نائبه بالرها ثم تحرك عز الدين أتابك صاحب الموصل وأخوه عماد الدين زنكى صاحب نصيبين وارسلوا الى العادل تخرج من بلادنا اودخل فى مرادنا فكتب الى بنى أخيه يستنجدهم ويستنفرهم فأنجدوه وكان اجناد حلب أقرب وتقدم ذكر نجدة الافضل مع أخيه الظاهر ونجدة العزيز الواصلة الى دمشق بعد نجاز الامر ووصلت للمواصلة الى رأس عين والعادل بحران وتقارب العسكران حتى ان الطلائع تتواجه وتتجابه فمرض صاحب الموصل ولم يطق الاقامة فعاد ورجع عماد الدين أخوه وتضرع صاحب ماردين وتشفع بالامراء الاكابر فرضى العادل عنه وبلغه قدوم ابن أخيه الظافر الى الفرات فكتب اليه بمنازلة سروج وهى من أعمال ماردين وأمده بابن تقى الدين وابن المقدم فنزلوا عليها من رجب وفتحوها تاسعه ورحل العادل منتصف رجب الى الرقة وتسلمها ثم تملك بلد الحابور جميعه وجاء الى نصيبين فنزل بظاهرها وشرع فى ضم ذخائرها فجاءت الرسل العمادية فى طلب الصلح فرحل ونزل دارا وأتاه خبر وفاة صاحب الموصل وتسليم بلده الى ولده نور الدين أرسلان شاه وجرى بينهم وبينه صلح ثم كتبه أهل خلاط فرحل اليها فرأى ان البرد يشتد وامد الحصار يمتد فعاد الى حران والرها وأعرض عن مخالطة خلاط وتأخر الى الربيع أمرها قال واقليم اليمن مستقر للملك ظهير الدين سيف الاسلام طغتكين بن أيوب أخى السلطان وهو هناك سلطان عظيم الشان مستول على جميع البلدان وكان قد وصل ولده مع الحاج قبل وفاة السلطان بأيام فلما استقر الملك الافضل على سرير أبيه كاتب عمه سيف الاسلام

﴿فصل﴾ فى وفاة صاحب الموصل وتتمة أخبار هذه الفتنة ببلاد الشرق قال عز الدين أبو الحسن على بن الاثير لما وصل خبر وفاة صلاح الدين الى صاحب الموصل عز الدين استشار فى الذى يفعله فأشار عليه أخى مجد الدين أبو السعادات بالاسراع فى الحركة وقصد البلاد الجزرية فانها الامانع لها منه وقال مجاهد الدين قايماز ليس هذا برأى فانا نترك وراءنا مثل المولى عماد الدين صاحب سنجار ومعز الدين صاحب الجزيرة ومظفر الدين صاحب اربل ونسير انما الرأى انا نراسلهم ونستميلهم ونأخذ رأيهم وننظر ما يقولون فقال أخى ان كنتم تفعلون ما يشيرون به ويرونه

فاقعدوا فانهم لا يرون الا هذا لانهم لا يؤثرون حرتكم ولا قوتكم انما الرأى ان يبرز هذا السلطان ويكاتبهم ويراسلهم ويستميلهم ويبذل لهم اليمين على ما بأيديهم ويعلمهم انه على الحركة فليس فيهم من يمكنه ان يخالف خوفا من قصد ولايته لاسيما اذا راؤا جنده وخلو البلاد الجزرية من مانع وحام فهم لا يشكون انه يملكها سريعا فيحملهم ذلك على موافقته ومتى أراد الانسان ان يفعل فعلا لا يتطرق اليه الاحتمالات بطلت أفعاله انما اذا كانت المصلحة أكثر من المضرة أقدم وان كان العكس أحجم فظهرت أمارات الغيظ على مجاهد الدين فسكت أخى لانه هو كان مخدوم الجميع على الحقيقة والحاكم فيهم واتبع المرحوم يعنى صاحب الموصل قول مجاهد الدين وأقام بالموصل عدة شهور يراسل المذكورين فلم ينتظم بينه وبين أحد منهم حال غير أخيه عماد الدين فانهما اتفقا على قواعد استقرت بينهما فالى ان انفصل الحال وصل الملك العادل أبو بكر بن أيوب من الشام الى حران وأقام هناك وجاءته العساكر من دمشق وحمص وحماه وحلب وامتنعت البلاد به وسار عز الدين عن الموصل الى نصيبين وقد ابتدأ به اسهال بنزيف واجتمع فيها بأخيه عماد الدين وسارا فى عساكرهما الى تل موزن من شبختان لقصد الرها فأرسل العادل حينئذ يطلب الصلح وان تكون البلاد الجزرية الرها وحران والرقه وما معها بيده على سبيل الاقطاع من عز الدين فلم يجبه الى ذلك وقوى المرض به واشتد الى أن عجز عن الحركة فعاد الى الموصل فى طائفة يسيرة من العسكر فلما وصل دنيسر رأى ضعفا شديدا فاحضر أخى وكتب وصية ثم سار الى الموصل فوصلها مريضا بالاسهال وبقى كذلك الى ان توفى فى السابع والعشرين من شعبان سنة تسع وثمانين وخمسمائه قال ولم أسمع عن احد من الناس يمثل حاله فى مرضه فانه كان لا يزال ذاكرا لله تعالى حتى انه كان اذا تحدث مع انسان يقطع حديثه مرارا ويقول أشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حى لا يموت بيده الخير وهو على كل شئ قدير وأشهد أن محمدا صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله وأشهد ان الموت حق وعذاب القبر حق وسؤال منكر ونكير حق والصراط حق والميزان حق وان الساعة آتية لا ريب فيها وان الله يبعث من فى القبور ويقول لمن عنده يخاطبه اشهد لى بهذا عند الله تعالى ثم يعود الى حديثه وأحضر عنده من يقرأ القرآن فلم يزل كذلك الى ان توفى رحمه الله ودفن بالمدرسة التى أنشاها بباطن الموصل مقابل دار المملكة وهى للفريقين الشافعية والحنفية وكانت مملكته نحو ثلاث عشرة سنة وستة أشهر وكان أسمر مليح الوجه حسن اللحية خفيف العارضين وحكى لى والدى قال هو أشبه الناس بجده الشهيد قدس الله روحه قال وكان رحمه الله دينا خيرا قد ابتنى فى داره مسجدا يخرج اليه فى الليل ويصلى فيه أوراده كانت له ويلبس فرجية كان قد أخذها من الشيخ عمر النسائى الصوفى ويصلى فيها وكان قد حج ولبس بمكة حرسها الله خرقة التصوف من الشيخ عمر النسائى المذكور وكان من الصالحين وأوصى بالملك لابنه نور الدين ارسلان شاه وأراد أخوه شرف الدين بن مودود بن زنكى ان يوليه فلم يفعل وبقى نور الدين الى سنة سبع وستمائه فتوفى فى شهر رجب منها ودفن بالمدرسة التى أنشأها بباطن الموصل حذاء دار السلطنة وكان عهد بالملك لابنه القاهر عز الدين مسعود وجعل الامير بدر الدين لؤلؤا القائم بأمر دولته وولاه امارة الجيوش والعساكر وسياسة القبائل والعشائر ثم توفى الملك القاهر فى ربيع الاول من سنة خمس عشر وستمائة فجأة وخلف ثلاثة بنين صغارا قال وأما عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى صهر نور الدين رحمه الله وهو صاحب سنجار فانه توفى فى المحرم سنة أربع وتسعين وكانت ولايته ثلاثين سنة وكان عدله قد عم البلاد وغمر العباد وأريقت الخمور وحدث شاربها وكانت صدقاته تصل الى أقاصى البلاد وتولى بعده ولده الاكبر قطب الدين محمد بن زنكى وكان متولى أمره مجاهد الدين برتقش العمادى قال وحاصر الملك العادل أبو بكر بن أيوب ماردين فى سنة خمس وتسعين فبقى محاصرا لها احد عشر شهرا ولم يبق الا الاستيلاء عليها فبينما العادل يحاصرها اذ توفى ابن أخيه الملك العزيز صاحب مصر وكان عسكره مع عمه العادل على ماردين فلما توفى ملك أخوه الافضل مصر وكان بينه وبين عمه العادل نفرة فلما ملك مصر أرسل الى العسكر المصرى الذى مع عمه يأمرهم بمفارقته ففارقوه وعادوا الى مصر فقل جمعه وعسكره ثم خرج الافضل عن مصر عازما على حصر دمشق واستعادتها من عمه فسار العادل عن ماردين جريدة الى دمشق ليحفظها بعد ما كان قد طلع سنجقه الى قلعة ماردين وترك ولده الملك الكامل محمدا محاصرا لها الى ان اجتمع

صاحب سنجار وصاحب الموصل على ترحيله عنها فرحل قال وفى سنة ست وستمائة سار الملك العادل ابن أيوب من الشام الى سنجار فى العساكر الشامية والمصرية والجزرية والديار بكرية فحصرها ونزل عليها من كل جانب ونصب أحد عشر منجنيقا ثلاثة أشهر وانتحى صاحب الموصل وصاحب أربل لصاحب سنجار وأنفذ الخليفة رسله فاصلح الامر وانتظم الصلح ولله الحمد

(فصل) وأما رسالة العماد الكاتب المعروفة بالعتبى والعقبى التى أشار اليها فى آخر كتاب البرق فيما جرى بعد وفاة السلطان الى سنة اثنتين وتسعين فقد وقفت عليها وحاصل ما فيها ان قال لما توفى السلطان رحمه الله وملكت أولاده كان العزيز بمصر يقرب أصحاب أبيه ويكرمهم والافضل بدمشق يفعل ضد ذلك يقرب الاجانب ويبعد الاقارب وأشار عليه بذلك جماعة داروا حوله كالوزير الجزرى الذى استوزره قلت هو الضياء ابن الاثير اخو عز الدين المؤرخ ومجد الدين وفيه يقول الشهاب فتيان الشاغورى

متى أرى وزيركم وماله من وزر * يقلعه الله فذا أوان قلع الجزر

قال العماد فلما طلب من الامراء ان يحلفوا له أظهروا له ايمانا وهم قد أضمروا الحنث فيها ولم يخف ذلك عليه ولما رأى الفاضل أمور الافضل مختلة تركه وسار الى مصر وشرع الوزير الجزرى فى تفريق العصبة الناصرية وما منهم الا من فارق الى الديار المصرية وكان قد أشير على الافضل باخلاء البيت المقدس لنواب العزيز باعمانه حذرا من تكاليفه وأثقاله فاجاب الى ذلك وقد كانت نابلس واعمالها قد وقف السلطان ثلثها على مصالح القدس وباقيها على ابن الامير على بن أحمد المنطوب فشاركه أحد الامراء الاكراد فيه فمدوا أيديهم الى الوقف وساءت سيرتهم وتخوفوا من انكار الملك العزيز عليهم فلجأوا الى الافضل فأفضل عليهم وسكن اليهم فتأثر الملك العزيز بذلك وأقوى الاسباب فيما حدث من النفار نفار الامراء الناصرية الكبار ومفارقتهم دمشق الى مصر على سبيل الاضطراب والاضطرار فاعزهم العزيز ورفعهم فاتفقوا على ان تكون كلمة الاسلام مجتمعة على الملك العزيز لاحياء سنة والده فى الجود والبأس والكرم ومن جملة الاسباب الباعثة تسلم الفرنج ثغر جبيل من بعض مستحفظيه وضعف الافضل عن استخلاصه فقيل للعزيز ان توانيت استولت الفرنج على البلاد فخرج العزيز بعساكره وبلغ الافضل فضاق صدره واجتمع بمن فى خدمته من الامراء برأس الماء وأراد ان يستعطف فايماز النجمى وكان فى اقطاعه بالسواد وكان بينه وبين الافضل شقاق وعناد فارسل اليه فلم يقبل ورحل الى عسكر العزيز ورأى الافضل ان يكتب الى أخيه بكل ما يحب من إعلاء كلمته والاجتماع عليه ويكون الافضل من بعض القائمين بين يديه طلبا لتسكين الفتن ورغبة فى ذهاب الاحن فاشير عليه بغير الصواب وقيل أنت الكبير واليك التدبير فجد واجتهد ولا يعلم أصحابك بهذا الخبر الذى داخلك والجبن الذى نازلك ونحن بين يديك وكلنا عاقدون بالخناصر عليك ووصل رسول الملك الظاهر والكتب من الملوك الاكابر بالانجاد المتظاهر للافضل وسير الافضل الى عمه العادل وهو بحران والرها كتبا ورسلا فلما أبطأ عليه سير عز الدين عثمان الزنجيلى على نجيب ليسرع ويأتى به عن قريب وكتبه واصلة بعزمه على نصره ونجدته وذلك فى أوائل جمادى الآخرة من شهور سنة تسعين ولم يشعر الافضل الا والعزيز بعساكره قد وصل الى الفوار فعجل الرحيل وقد خالطت عساكر العزيز عساكره جيش الافضل فاسرع ودخل دمشق يوم الجمعة خامس جمادى ونزل العزيز يوم السبت بالكسوة ونزل على دمشق يوم الاحد فلم يزل الافضل يمانع ويدافع حتى وصل عمه العادل فكتب الى العزيز يسأله الاجتماع فتواعدا واجتمعا راكبين بصحراء المزة فعذله فى أخيه واستنزله عما كان فيه فقال على رضاك واتباع هواك وقال نفس عن البلد الخناق وكان قد بلى البلد منهم بما لا يطاق من قطع الانهار وقطف الثمار فتأخر العزيز الى صوب داريا والاعوج وكان قد اجتمع عند الافضل من الملوك عمه العادل والمجاهد أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن شيركوه صاحب حمص والامجد مجد الدين بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك والمنصور ناصر الدين محمد بن تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب صاحب حماه ثم وصل الملك الظاهر غياث الدين غازى ابن السلطان فاتفقوا على عقد يؤكد وعهد يعهد ورحل العزيز الى مرج الصفر ليكون المقام به أرفق فمرض حتى أيس منه ثم أفاق وأرسل من جانبه

لامير فخر الدين ايازجركس واعتمد عليه فى هذه النوبة فوصل الى العادل فى تعديل الامور فتقرر بينهم الصلح وتزوج العزيز ابنة عمه العادل وخرج الملوك لتوديع الملك العزيز فى أوّل شعبان واحدا بعد واحد فخرج الظاهر أوّلا والتقيا ونزلا ببرج الصفر وبات عنده ليلة ثم رجع وخرج العادل ثم الافضل فلما اجتمع باخيه فارقه وماثوى ورجع كل الى بلده ولما استقر الافضل بدمشق قضى حقوق الجماعة وشكرهم ورحل الظاهر صوب حلب رابع عشر شعبان وأقام العادل الى تاسع شهر رمضان ورحل الى بلده الرها وحران ثم ان الافضل نظم أبياتا يكتبها الى أخيه العزيز فى استعطافه واستمالته وقال كنت فارقت اخى مذ تسع سنين وما التقينا الا فى هذه السنه فقلت

فظرتك نظرة من بعد تسع ❁ تقضت بالتفرق من سنين
وغض الدهر عنها طرف غدر ❁ مسافة قرب عين من جبين
وعاد الى سجيته فاجرى ❁ بفرقتنا العيون من العيون
فويح الدهر لم يسمح بوصل ❁ يعود به الهجوع الى الجفون
فراقا ثم يعقبه بين ❁ يعيد الى الحشا عدم السكون
ولا يبدى جيوش القرب حتى ❁ يرتب جيش بعد فى الكمين
ولا يدنى محلى منك الا ❁ اذا دارت رحى الحرب الزبون
فليت الدهر يسمح لى باخرى ❁ ولو أمضى بها حكم المنون

قال ثم كثر الشر ممن حول الافضل فى حق الامراء الكبار ذوى الاقدار فانفوا من ذلك وأزمعوا على الانفصال لسوء تلك الحال فممن سار الى مصر عز الدين سامة وحرض العزيز على القيام لنصرة الدولة الناصرية وعرفه ان أخاه الافضل مسلوب الاختيار مع من حوله من الاشرار وممن سار الى مصر القاضى محيى الدين محمد بن أبى عصرون وتولى بعد أشهر قضاء القضاة بمصر وأعمالها وذلك سنة احدى وتسعين فاستمرت ولايته الى ان عاد العزيز من الشام وتبعه العادل فصرفه وأعاد القضاء الى زين الدين على بن شرف الدين يوسف الدمشقى وكان نائبا لصدر الدين عبد الملك بن عيسى بن درباس ثم استقل ثم عزل بابن أبى عصرون ثم أعيد اليه وكان الافضل قد اشتغل بعد انصراف أخيه باللذات وتشاغل عن أمور الناس بادمان الشراب مع من حوله من الاصحاب ثم أقلع عن ذلك وتاب وجدّ فى الذكر والزهد وأناب وشرع فى كتب مصحف بخطه وحسنت طريقته وظهرت حقيقته وذلك فى أوائل سنة احدى وتسعين وفى هذه السنة فى ربيع الآخر وصل الخبر بان العزيز قادم يحصر دمشق مرة ثانية فاشتد غم الافضل فاشير عليه بان يرحل الى عمه العادل ويأتى به لدفع هذا القضاء النازل فرحل رابع عشر جمادى الاولى والتقى بعمه بصفين وطلب منه الرجوع معه الى دمشق ففعل ووصل العادل اليها تاسع جمادى الآخرة وتخلف عنه الافضل وقصد حلب للاستظهار باخيه الظاهر فوثق معه الايمان على ما كان عليه من الصفا وكذلك فعل بابن تقى الدين بحماه ووصل الى دمشق واجتمع مع عمه العادل وكان العادل أبدا يشير بصرف الوزير الجزرى وكان قد استولى على الافضل فلم يقبل فكان العادل أبدا مغتما لذلك فبالغ الافضل فى اكرام عمه وازالة غمه حتى ترك له سنجقه وصار يركب فى خدمة عمه وضاق أخوه الظافر من هذه الحال وكان الظاهر قد نفر عليه جماعة من الملوك والامراء ممن هم فى طاعته من جملتهم صاحب حماه وعز الدين ابن المقدم صاحب بارين فراسلا العادل فى الاعتصام به وكان من جملتهم بدر الدين دلدرم بن بهاء الدولة بن ياروق صاحب تل باسر فاعتقله الظاهر وبنى عمه وطلب منه تسليم حصنه فشفع العادل فيهم وكفل انه يكفهم ويكفيهم واستصحبهم الى دمشق فطلب منه الظاهر الوفاء بضمانه فتعذر عليه رتمهم وتيسر له ودّهم فغضب الظاهر لذلك وراسل العزيز يحثه على الاسراع فى القدوم فاقبل العزيز وخيم بالفوار وشرع العادل فى تدبير أمور الافضل فكاتب الامراء الاسدية من أصحاب العزيز يحثهم على تركه والانقطاع الى حزب الافضل وسلكه وكانت الاسدية أبدا فى عناء من تقدّم الناصرية عليها وراسل العادل أيضا العزيز يخوفه من قبل الاسدية ويعرفه ما انطوت عليه قلوبهم من الغل فكانوا اذا القيهم عرفوا فى وجهه التغير عليهم فرغبوا عنه وحسنوا للاكراد مرافقتهم فى الانصراف عنه ففعلوا وكان أمير أمراء الاكراد

أبو الهيجاء السمين فدارت الاكراد حوله وقالوا لا نأمن عليك من الناصرية فابرموا أمرهم وعجلوا رحيلهم فرحل أبو الهيجاء والمهرانية والاسدية عشية الاثنين رابع شوال وكانوا أكثر العسكر واعلم العزيز بهم فمالى بانصرافهم وقال صفونا من اكدارهم ولم يأمر أصحابه باتباعهم وردّهم وبقى فى خواصه مقيما تلك الليلة ثم رحل عائدا الى مصر فجاء رسول أبى الهيجاء السمين الى العادل يعلمه برحيل العزيز خائفا ويأمره بالقدوم ليلحقوه ويأخذوه ويتسلموا ملك الديار المصرية فتحالف العادل والافضل على ملك مصر ان يكون للعادل الثلث وللافضل الثلثان وخرجا يوم الاربعاء فى الجيوش واستناب الافضل بدمشق أخاه الاصغر قطب الدين موسى وأما العزيز فانه سار وأخذ طريق البحر والرملة وفرق من الاسدية الذين بالقاهرة ان يفعلوا فعل اخوانهم فيمنعوه من دخول البلد وكان مقدمهم الامير بهاء الدين قراقوش وهو أكبر امراء الاسديد قد استنابه العزيز بالديار المصرية فهو مقيم على الصفاء والمودّة والاخاء فلما وصل العزيز تلقوه والى ذروة سلطنته رقوه وأما العادل والافضل فاجتمعا بالمتخلفين عن العزيز وحرصت الاسديدان يسبقوا العزيز فلم يقدروا واجتهدوا ان يدركوه ويتقدموا فتأخروا فامرهم العادل بالثبات وتسلم القدس واعماله وما يجاوره من اعمال الساحل أبو الهيجاء السمين بامر الافضل والعادل فرتب فيها نوابه وأسكنها أصحابه وصحبهم الى الديار المصرية لمخالفة الاسدية ومخالفة الناصرية فنزل بهم العادل على بلبيس وكان أوان أخذ زيادة النيل فى الانتهاء والسعر غال وظهرت ندامة الاسدية وضعفت معونتهم وضوعفت مؤونتهم فخاف من مكرهم والعدول الى مستقرهم فارسل الى القاضى الفاضل يستوفده للاستزاره ويسترشده بالاستشاره فالزمه العزيز باجابة سؤاله فخرج اليه واستبشر الناس بخروجه رجاء الصلح وركب العادل وتلقاه على فراسخ واجتمعا وأصلحا الامور على ما يحب الفريقان وعفا العزيز عن الاسدية وأقام العادل عند العزيز وأما الافضل فان العزيز خرج اليه وودّعه فانصرف ومعه أبو الهيجاء السمين وتولى القدس ووصل الافضل الى دمشق غرة المحرم سنة اثنتين وتسعين ثم ان الافضل لازم صيامه وقيامه وقلل شرابه وطعامه وحسن شعاره واستوى ليله ونهاره ووزيره الجزرى قد بلى الناس منه ببلايا وهو فى غفلة عن تلك القضايا وكان يدخل اليه ويوهمه من قبل أقوام انهم عليه وانهم يميلون الى أخيه فيصدّقه الافضل فيما يدعيه فصار يبلغ العادل عنه أحوال ما تجيبه بل تغضبه وصار يتصل به كل من هاجر من الشام الى مصر وما منهم الا من يشكو من الوزير الجزرى وكان فايماز النجمى تدلصق بالعادل وكذلك عز الدين سامة وصاهر العادل وظاهره وكان العادل بمصر مستوطنا للقصر فوعد الجماعة بازالة الوزير الجزرى وردّه الى بلاده وقرر مع العزيز تسيير عسكره معه الى الشام ليمهد له قاعدة الملك فى سائر بلاد الاسلام فاخرج العساكر الى بركة الجب وخرج العزيز لتشييعه وذلك مستهل ربيع الاوّل ووصل الملك الزاهر مجير الدين داود من حلب الى أخيه العزيز من جانب الصاهر لتسكين هذا الرهج الثائر ومعه سابق الدين عثمان صاحب شيزر والقاضى بهاء الدين ابن شدّاد ثم ان العادل أشار على العزيز بان يوافقه على المسير ويرافقه فيه فرآه عين التدبير فسارا بالعساكر نحو الشام ولما انصرفت رسل الظاهر من مصر بما طلبوا مروا بدمشق فاعلموا الملك الافضل بما أبرم من الامر فضاق صدره وطال فكره واستشار أصحابه فاشار عليه شيوخ الدولة بان يستقبل أخاه وعمه ويسلم لهما حكمه وأشار الجزرى وأصحابه بالتصميم على المخالفه وترك المجاملة والملاطفه ثم دخل عليه أخوه الملك الظافر خضر فشجعه وصبره وتولى أسباب التحصير وحلفوا الامراء والمقدّمين وقطعوا ما فوق المصلى عند مسجد فلوس بفصيل وربض رجالا حوالى البلد يتناوبون لحفظه فى البكرة والاصيل وتفرق الامراء على الاسوار والابراج وجاءت الرسل الظاهرية لاظهار المظاهرة وندب الافضل ملك الدين أخا العادل اليه منه رسولا فوصل الى العسكر العزيزى بالداروم وغزه ولقى عند العزيز من قوله العزه فبقى ملك الدين هنالك أياما فى اصلاح ذات البين ولا شك انهم اشترطوا على الافضل شروطا وردّوه بها وأقاموا ينتظرون الجواب فنفذ من ذكر ان الافضل أبى ذلك فلما رأى الاكابر وشيوخ الدولة ان الافضل لا يسمع من رأيهم وانه عازم على المحاربة ولا يعدل عن رأى وزيره مع ما قد عرفه من شؤم تدبيره شرعوا فى اصلاح أمورهم فى الباطن فراسلوا العزيز والعادل واستظهر كل لنفسه وأقام العسكر مذ عاشر رجب على البلد مستظهرا بالعدد والعدد لا يحدث حدثا ولا يعبث بالبلد الا عبثا فكتب الاولياء من البلد الى العزيز والعادل

بانتهاز الفرصة فركبوا وتأهبوا يوم الاربعاء السادس والعشرين من رجب فصادهم عن قصد البلد أحد وما كان فى طريقهم الا الملك الظافر ومعه عسكر حلب فقاتل على ظهر قتال الجماعة وما عنده علم بما دبروه من المخامرة فحادوا ولم يكترثوا ووصل العزيز الى الميدان الاخضر ووصل العادل الى باب توما وكان الامير الامين به قد استنهضه اليه بكتبه ففتحه له فدخل العادل وأصحابه من باب توما والباب الشرقى وبات العادل فى الدار الاسدية ودخل العزيز من باب الفرج وبات فى دار عمته الحسامية وخرج اليه الافضل ولقيه وتجرع من هم زوال ملكه ما سقيه فلما ملك العزيز دمشق أقام أياما بالميدان الاخضر الكبير الى ان انتقل الافضل من القلعة باهله وأصحابه وأخرج وزيره الجزرى مختفيا فى صناديقه اشفاقا عليه من قتله وتحريقه وتحول الافضل تلك الايام الى مسجد خاتون وما يجاوره ومعه وزيره فوهب ليلا الى بلاده وقد ادخر فيها أموال دمشق وأعمالها ثلاث سنين قال وكان العزيز قرر مع العادل ان يقيم العزيز بدمشق ويستنيب العادل بمصر فلما ملك دمشق ندم على ما قرره ورجع عما دبره ونفذ الى أخيه الافضل فى السر يعتذر اليه ويشير بما كان اشترط عليه فأظهر الافضل هذا السر لصحبه والمخصوصين لقربه فقالوا لا تنخدع بهذا القول فربما كانت خديعة وأطلع عمك العادل على هذا السر فانه يرى ذلك عين البر فأرسل الى العادل من أعلمه بذلك فعزت عليه مراسلة العزيز الافضل واجتمع بالعزيز وعتبه وقرعه بما انبئ به وأنبه وقال له ابنى وتهدم وأوجد مصالحك وتعدم فأنكر الحال واحالها وانتقض الامر قبل ابرامه ووجه الى الافضل من أزعجه والى صرخد أخرجه وسد طريق الاستنصار على أخيه الظافر حتى أسلم فى تسليم بصرى للظفر بسلامته وبذلها ولم يتبعها بندامته ورحل الى حلب وأظهر الظاهر الاحتفال به وأما الافضل فانه سار الى قلعة صرخد وسكنها وحول أهله وأخاه قطب الدين اليها وتوطنها وعند خروج الافضل من قلعة دمشق دخل العزيز اليها يوم الاربعاء رابع شعبان وجلس يوم الجمعة فى دار العدل واعتقد الناس انه يطول مقامه عندهم فلم يشعروا به الا وقد برز للرحيل وتقدم الى العادل بأن يتولى البلاد وفارق دمشق عشية الاثنين تاسع الشهر ونزل بالمخيم فوق مسجد القدم ثم تحول الى الكسوة وودعه بها يوم السبت رابع عشر الشهر فلما عاد العادل من وداع العزيز قرئ بالجامع منشوره العزيزى بالبلاد والاعمال والنظر فى جميع الاحوال وأشاع انه نائب العزيز وهو سلطانه وأبقى الخطبة باسم العزيز خالية من اسمه حالية برسمه وضرب الدينار والدرهم على سكته وأظهر انه قوى بشوكته وسكته وجلس يومى الاثنين والخميس للعدل وبسط يده لجمع الاموال وخزنها لوقت عموم الحاجة الى صرفها

﴿فصل﴾ هذا آخر ما انطوت عليه رسالة العتبى من أخبار ما جرى بعد موت السلطان رحمه الله وللعماد أيضا كتاب آخر سماه بنحله الرحلة ذكر فيه أيضا نحوا من ذلك وهو ان الاحوال اختلت وتغيرت بعد موت السلطان وأراد العماد الرحلة الى مصر فاصحبه الافضل رسالة الى أخيه العزيز فمضى اليه وعنده عمه العادل فلم يتمكن من الرجوع الا معهما لما خرجا بالعساكر فذكر الحديث فى أخذ البلد قال وخرج الملك الافضل واجتمع بالعزيز فى الميدان ودخلا من باب الفرج متصاحبين الى الضريح الناصرى وصعد العزيز القلعة يوم الاربعاء وصلى هذه الجمعة عند ضريح والده فى هيئة المودع وأظهر البكاء والنحيب عنده سر القلب الموجع ودخل دار الامير سامة فى جوار تلك القبة وأمر القاضى محيى الدين ابن الزكى بأن يبنيها مدرسة للتربة قلت هى المدرسة المعروفة بالعزيزية ووقفها قرية عظيمة تعرف بحجه فهذا قدر ما فى كتاب النحلة مما يتعلق بما نحن فيه ولم يكن ذكر مثل هذا من شرط كتابنا هذا لانه موضوع للدولتين النيرتين الا انه لا بد من ذكر ما يتعلق بهما مما وقع فيهما وعقبيهما وتبعنا العماد فيما ذكر فى العتبى لكونه أشار اليها فى كتاب البرق واستوفينا ما فى كتاب البرق والفتح القدسى والتاريخ الاتابكى وكتاب القاضى أبى المحاسن وأتينا على ما فيها من المحاسن وانضاف الى ذلك قطعة كبيرة من مواضع متفرقة كثيرة من عدة مصنفات ودواوين ومراسلات والله تعالى يوفق ملوكنا للاقتداء بسيرة سلفنا فى اقامة فرض الجهاد وتخليص البلاد من أيدى الكفرة والنظر فى مصالح العباد ومن كتاب فاضلى (أما هذا البيت فان الآباء منه اتفقوا فملكوا وان الابناء منهم اختلفوا فهلكوا واذا غرب نجم فما الحيلة فى تشريقه واذا

بد التخريق ثوب فما يليه الا تمزيقه وهيهات ان يسد على قدر طريقه وقد قدر طروقه واذا كان الله مع خصم على خصم فمن كان الله معه فمن يطيقه

(فصل) بعد انتهاء هذا الكتاب واسماعه مرة وقفت على ما حسن لى الحاقه بهذا الكتاب من ذلك ان القاضى الفاضل كتب فى (سنة ثلاث وتسعين) الى القاضى محيي الدين ابن الزكى كتابا قال فيه (ومما جرى فى هذه المدة من المثلات الجارية والمعضلات العادية بأس من الله طرق بياتا ونحن نيام وظن الناس ان اليوم الموعود قد طرق فى الليل الممدود فاذا هم قيام ان الله تعالى أتى بساعة كالساعه كادت تكون للدنيا كساعه فى الثلث الاول من ليلة الجمعة ثامن عشر جمادى الآخرة وذلك انه أتى عارض فيه ظلمات متكاثفه وبروق خاطفه ورياح عاصفه قوى هوبها واشتد هبوبها وارتفعت لها صعقات وتدافعت لها اعنة مطلقات فرجعت لها الجدران واصطفقت وتلاقت على بعدها واعتنقت وثار من السماء والارض عجاج فقيل لعل هذه على هذه قد انطبقت وتوالت البروق من جهة المقطم على نظام وتبع الواحدة الاخرى وتقفى الثانية على أثر الاولى وترى البروق واقفة وهى تتعاقب وقائمة وهى تتجاذب ولا تحسب الا ان جهنم قد سال منها واد وعدا منها عاد وزاد عصف الريح الى ان انطفأت سرج النجوم ومزقت ادم السماء ومحت ما كان فوقه من الرقوم ولا تزال هذه الريح تسكن سكونا خفيفا ثم تعاود عودا عنيفا فكنا كما قال الله تعالى يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق وكما قلنا ويردون ايديهم على أعينهم من البوارق لا عاصم من الخطف للابصار ولا ملجأ من الخطب الا معاقل الاستغفار وفر الناس رجالا ونساء واطفالا ونهضوا من دورهم خفافا وثقالا لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا اذ يستغيثون ربهم ويذكرون ذنبهم لا يستغربون العذاب لانهم على موجباته مصرون وفى وقت وقوع واقعاته باستحقاقه مقرون معتصمين بالمساجد الجامعه ومتلقين الآية النازلة من السماء بالاعناق الخاضعه بوجوه عانيه ونفوس عن الاموال والاهل سالبه ينظرون من طرف خفى ويتوقعون أى خطب جلى قد انقطعت من الحياة علقهم وعميت عن النجاة طرقهم ووقعت الفكرة فيما هم عليه فادمون وندموا ونحمد الله ان نفعهم بأنهم نادمون وقاموا الى صلواتهم وودوا أن لو كانوا من الذين عليها دائمون ولم يزل ذلك دأبهم كلما سكنت الرياح تحركت وكلما قيل استقلت بركت وكلما أخذت قيل ما تركت حتى الثلث الاخير من الليلة المذكورة والقلوب الى الحناجر بالغه والابصار عن سننها زائغه الى ان أذن الله فى الركود واسعف الهاجدين بالامر لها بالهجود وأصبح كل يسلم على رفيقه ويهنيه بسلامة طريقه ويرى انه قد بعث بعد النفخه وأفاق بعد الصيحة والصرخه وان الله قد رد له الكره وأدبه بعد ان كاد يأخذ على الغره وورد من الخبران المراكب كسرها ما كان معترضا فى التحرز للعارض والاصول العادية من الشجر عدت عليها الريح بجماها الناقض وان فى الطرق من المسافرين من كان نائما فدفنته الرياح حيا وركب فما أغنى الفرار مما هو امامه شيا ولا يحسب المجلس انى أرسلت القلم محرفا والقول مجزفا فالامر أعظم ولكن الله سلم والخطب اشق وما بلغت ولا قضيت بهذا التكثير بعض الحق ونرجو ان الله سبحانه قد أيقظنا بما وعظنا ونبهنا بما ولهنا فما من عباده من رأى القيامة عيانا ولم يلتمس عليها من بعده برهانا الا أهل بلادنا فانا اقتص الاولون مثلها فى المثلات ولا سبقت لها سابقة فى المعضلات والحمد لله الذى من فضله ان جعلنا نخبر عنها ولا تخبر عنا ونسأل الله أن يصرف عنا عارض الحرض والغرور اذا عنا وشغلت خدمته بهذا المهم وجعلته على علم من هذا العلم فالسعيد من وعظ بغيره وقد كنت لنا وفينا الموعظه وللذكرى حدود ونعوذ بالله من اقامة حدوده المغلظه) ومن كتاب له آخرا العادل فى سنة ثلاث وتسعين أيضا (وقد تجدد من وصول العدو اللعين وحركته الى جانب بيروت وخطر البلاد ما أخل كل مرضعه وأوقع فى ضائقة تنفق الافكار فيها من سعه وللاسلام اليوم قدم ان زلت زل وهمة ان ملت فان النصر منه مل وتلك اقدم القدم العادليه وتلك الهمة الهمة المسابقة السيفيه فالله الله ثبتوا ذلك الفؤاد ودمثوا ذلك المهاد واسهروا فى الله فليست بليلة رقاد ولا ينظر فى حديث زيد ولا عمرو ولا ان فلانا نفع ولا ضر ولا ان من الجماعة من جاء ولا ان فيهم من مر انظروا الى انكم الاسلام كله قد برز الى الشرك كله وانكم ظل الله فان صحت تلك النسبة فان الله لا ناصح لظله واصبروا ان الله مع الصابرين ولا تهنوا ولا تهونوا ان ذهب الناصر فان الله خير الناصرين

فما هى الا غمرة وتنجلى وهيعة وتنقضى وليلة وتصبح وتجارة وتربح) ومن كتاب له آخر الى الملك العادل (أدام الله ذلك الاسم تاجا على مفارق المنابر والطروس وحياة للدنيا وما فيها من الاجساد والنفوس وعرف المملوك ما عرفه من الامر الذى اقتضته المشاهدة وحرست به العاقبة فى بيروت ولا مزيد على تشبيه الحال بقوله

ألم تران المرء تدوى يمينه * فيقطعها عمدا ليسلم سائره

ولو كان فيها تدبير لكان مولانا فد سبق اليه ومن قلم من الاصبع ظفرا فقد جلب الى الجسد بفعله نفعا ودفع عنه ضرا

وتجشم المكروه ليس بضائر * ما خلته سببا الى المحمود

وأخر كل شقوه أول كل غزوه فلا يسأم مولانا نية الرباط وفعلها وتجشم الكلف وحملها فهو اذا صرف وجهه الى وجه واحد وهو وجه الله صرف الله اليه الوجوه كلها والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين) ومن كتاب له آخر (هذه الاوقات التى أنتم فيها عرائس الاعمار وهذه النفقات التى تجرى على أيديكم مهور الحور فى دار القرار وما أسعد من أودع يد الله ما فى يديه فتلك نعم الله عليه وتوفيقه الذى ما كل من طلبه وصل اليه وسواد الحجاج فى هذه المواقف بياض ما سودته الذنوب من الصحائف فما أسعد تلك الوقعات وما أعود بالطمأنينة تلك الرجفات)

(فصل) وللعماد الكاتب رحمه الله كتاب آخر سماه خطفة البارق وعطفة الشارق ذكر فيه أشياء من حوادث سنة ثلاث وتسعين الى أن توفى هو رحمه الله فى سنة سبع وتسعين وخمسمائة واشتمل ذلك على فوائد تتعلق بما تقدم فأحببت الحاقها به من ذلك وفاة سيف الاسلام طغتكين بن أيوب بالأيمن فى شوال سنة ثلاث وتسعين وتولى ابنه شمس الملوك اسمعيل هذا والملك العادل بدمشق وقد انتقل الملك الظافر الى حلب بعد أخذ عمه منه بصرى وعزم على قصد بغداد فصرفه أخوه الظاهر عن ذلك وذهب الامير أبو الهيجا السمين الى بغداد بأصحابه فأكرم ثم سير فى جيش الى همذان ثم بعد رجوعه مات بدقوقا وانقضت مدة هدنة الفرنج التى عقدوها مع الملك الناصر رحمه الله فخرجوا والتقوا مع الملك العادل برأس الماء بمرج عكا فكسرهم وفتح يافا عنوة وكانوا كاتبوا ملك الالمان وكان قد ملك صقليه فانهوا اليه تلك البليه وقالوا ان عظام أبيه الى الآن فى صور فى تابوت مكلل بالديباج وكأنه فى الاسر منتظر الافراج فانه لا يقبر الا بالبيت المقدس اذا استخلص والآن ما كان غلا منه استرخص فان المسلمين قد اشتغل بعضهم ببعض ولهوا عن كل سنة وفرض فتدافعت الى عكا سفنهم وتدفق مزنهم وامتلأت بهم فى الساحل مدنهم وقصدوا بيروت وبها الامير عز الدين سامة فلما سمع بوصولهم الى صيدا خرج بجماعته منها وسار بأهله ومال عن وعر الامر الى سهله ودخلها الفرنج بعد يوم من غير مطاولة سوم ولا مماطلة روم وكثر فيه الحديث وذكر الطيب والخبيث فمن قائل تجبن وتجنب ومن قبل أن يتكب تنكب ومن قائل رجاله هابوا فغابوا ولو انه دعاهم ما أجابوا واتسع القول ووقع الهول حتى نظم بعضهم والفرنج على تبنين

سلم الحصن ما عليك ملامه * ما يلام الذى يروم السلامه

فعطاء الحصون من غير حرب * سنة سنها ببيروت سامه

وتصرفت الفرنج فى بيروت واعمالها الساحليه وبقى لسامة جميع الولاية الجبليه ثم توجه الى مصر

(ودخلت سنة أربع وتسعين) فنزل الفرنج سادس عشر المحرم على تبنين وأرسل العادل القاضى محيى الدين محمد بن على القرشى الى الملك العزيز بمصر فخرج بجيوشه ووصل فى الثالث والعشرين من ربيع الاول فغفلت الفرنج بعد ان كانوا ضايقوا الحصن ورحلوا وجاءهم الخبر بهلاك ملك الالمان ثم انتقل عسكر المسلمين الى جانب الطور ومع العزيز اخوته الظافر والمعز والمؤيد وكان الافضل قد جاء الى عمه قبلهم وكان معهم على تبنين المجاهد صاحب حمص والامجد صاحب بعلبك وعز الدين ابن المقدم وبدر الدين دلدرم وغيرهم من الاعيان ثم راجعوا الى بلادهم بعد عقد الهدنة ورجع العزيز الى مصر بعد ان خلع على ابن عمه الملك المعظم عيسى بن العادل وخصه بالسنجق واللواء المنشور لطى اللواء وعاد المعظم الى دمشق وقد قرت به العيون وحسنت فيه الظنون فكان أعز أولاد

العادل عنده وأعلقهم بقلبه وأخصهم بحبه قد ولاه سلطنة دمشق وأطاب فيها بنشر كرمه النشق واقام العادل حتى استقرت الهدنه وظهرت فى عمارة تبنين المكنه ثم عاد الى دمشق وأقام قليلا ثم شرق ورقع بها من الامر ما تخرق ورتق ما تفتق وردبلادا ولاد عماد الدين زنكى اليهم لانه توفى فى هذه السنة واستولى عليها ابن عمتهم صاحب الموصل فأنجدهم عليه السلطان الملك العادل وتوفى جماعة من أمراء الموصل منهم الامير عزالدين جرديك وكان فارس الاسلام ومقدامه وشجاعه وهمامه ومابرح من أيام نورالدين الى آخر أيام صلاح الدين رحمهما الله ليث العرين أشم العرنين وهوالذى أعان صلاح الدين على القبض على شاور وولاه صلاح الدين القدس فى آخر عهده فقام بمصالحه من بعده ثم تسلمه منه الملك الافضل وسلمه الى أبى الهيجا السمين فلما خرج الافضل من دمشق وصل الى الموصل وانتقل من حوض الكوثر الى أعذب منهل قال ونزل السلطان العادل على قلعة ماردين فى شهر رمضان وملك ربضها ومدنها وولاياتها واصاف عليها وشتا وصبر وصابر ولم يقل كيف ومتى وماشك أحد ان ماردين فى ملكه مضافة الى ملكه وقد هنأه بها الشعراء منهم ابراهيم بن مرذان من أهل رأس عين له من قصيدة

فان تلك مصر أم ملك فارد ❁ اذا ذكر البلدان اعلى الممالك
تقاعس عنها سنجر وابن عمه ❁ وقصر عنها عزم زنكى الاتابكى
فان تلك قد شوركت فى صيح غيرها ❁ فمالك فى أمثالها من مشارك

(ودخلت سنة خمس وتسعين) والملك العادل نازل على ماردين وقد وصل اليه أصحاب الاطراف مساعدين وقد أصلح بين صاحب الموصل وبنى عمه عماد الدين وردهم الى سنجار والخابور ونصيبين وقد أذعن له الجماعه بالطاعه ونائبه فى تلك البلاد ودياربكر ولده الملك الكامل محمد قال وفيها ليلة الاحد العشرين من المحرم توفى الملك العزيز بداره بالقاهرة وكان على عزم الصيد فى اعمال الفيوم فخيم تلك الليلة عند الاهرام فقيل انه أصيح وركض خلف صيد فكبا به الفرس مرة بعد أخرى فمتت له سقطه عمت بها على الزمان سخطه فتفاقم ألمه وأقام يومين أو ثلاثه لايستطيع له مخلوق اعانة ولا اغاثه ثم حم حامه وأظلمت بنجيعته أيامه وقبر فى داره ليتقل منها الى دار قراره ثم حول منها فى الايام الافضليه الى التربة المقدسة الشافعيه وورد كتاب القاضى الفاضل تعزية به للملك العادل (أدام الله سلطان مولانا الملك العادل وبارك فى عمره وأعلى أمره بأمره وأعز نصر الاسلام بنصره وفدته الانفس الكريمه وأصغر الله العظائم بنعمته فيه العظيمه وأحياه الله حياة طيبة يقف هو فيها والاسلام فى مواقف الفتوح الجسيمه وينقلب عنها بالامور المسلمة والعواقب السليمه ولانقص له رجالا ولاعددا ولاأعدمه نفسا ولاولدا ولاقصر له ذيلا ولايدا ولاأسخن له قلبا ولاكبدا ولاكدر له خاطرا ولاموردا ولما قدر الله ماقدر فى الملك العزيز رحمة الله عليه وتحياته مكررة اليه من انقضاء مهله وحضور أجله كانت بديهة المصاب عظيمه وطالعة المكروه أليمه فرحم الله ذلك الوجه ونضره ثم السبيل الى الجنة يسره

واذا محاسن أوجه بليت ❁ فعفا الثرى عن وجهه الحسن

فاعز زعلى الملوك وعلى الاولياء بل على قلب مولانا الا سلبه الله ثوب العز ابسرعة مصرعه وانقلابه الى مضجعه ولباسه ثوب البلا قبل أن يبلى ثوب الشباب وزفه الى التراب وسريره محفوف باللذات والاتراب وكانت مدة المرض بعد العود من الفيوم أسبوعين وكانت فى الساعة السابعة من ليلة الاحد العشرين من المحرم والملوك فى حال تسطيرها مجموع له بين مرض قلب وجسد ووجع أطراف وغليل كبد وقد فجع بهذا المولى والعهد بوالده رحمه الله غير بعيد والاسى فى كل يوم عليه جديد) ووصل قبل هذا الى العماد كتاب من الفاضل فيه (وأنا على مايعلمه المولى من العزلة الا أنها بلا سكون وفى الزاوية المسنونة لاهل العافية الا أنى على مثل خد المنون وكيف يعيش العاقل فى الزمان المجنون ونحن على انتظار البرق الشامى أن يمطر وحاشى ذمة الوعد به أن تخفر واشتغال سيدنا فى هذا الوقت بالدرس والتدريس والتصوير والتكييف والتصانيف التى تصرف فيها بالبلاغة أحسن التصاريف نعمة تتعين شكرها على العلماء ويختص باللذة بها سادتهم من الفقهاء) قال العماد ولما توفى الملك العزيز خلف بنين ولده الاكبر ناصر الدين محمد قد أناف سنوه على عشر وكان الى أبيه أحب أولاده يشيم

من شيمه مخيله سداده وقد اختص لديه ونص عليه فاجتمع الامراء الصلاحية وكبيرهم ومقدمهم فخر الدين ايباز سركس ومنهم أسد الدين سراسنقر وزين الدين قراجه وعقدوا الامر لولده ناصر الدين ونعتوه بالملك المنصور وأخذوا له ايمان الجمهور قال وكانت الاسدية فى الايام العزيزية الناصرية مغمورين وبالاستيلاء عليهم مقهورين وكبيرهم سيف الدين يازكوج وكان عند وفاة العزيز غائبا باسوان فلما بلغه ذلك حضر وجمع الاسدية واجتمعوا هم والصلاحية ظاهر القاهره فقال لهم نعم ما رأيتموه من حفظ العزيز فى ولده لكنه صغير السن لا يحتمل ثقل هذا الفن ولا بد من كبير من أهل البيت يربيه ويدبر الدواوين ويرتب القوانين وما هاهنا الا الملك العادل وهو الآن فى بلاد الشرق مشغول وها هنا من هو أقرب منه وهو الملك الافضل فقال الاسدية هذا هو الرأى الراجح ولم يسع الصلاحية مخالفته فاتفقوا على استدعاء الافضل من صرخد فخرج منها ليلة الاربعاء التاسع والعشرين من صفر وسلك البرية فوصل الى القدس يوم الخميس وخرج اليه عسكره وساروا معه الى بيت جبريل ثم أغذ السير فلما قرب منهم فى تاسع ربيع الاول تلقوه والى أعلى مراقى العلا رقوه وسروا بقدومه وجروا المرسوم قال وكان الناصرية كتبوا الى رفقائهم بالشام انا أحوجنا الى الوفاق وتأكيد الميثاق وقد كتب الى نور الدين بالحضور وضبط الامور وهو عندكم فى صرخد وان وصل الينا انتظم أمره وتمهد فاجتهدوا فى حصره وهو فى حصنه ولا تسمحوا بفك رهنه ووصل الى دمشق بعض الكتب يوم الاثنين السابع والعشرين من صفر فخرج عسكرها الى صرخد فوصلوا الى بصرى يوم الاربعاء فقيل لهم ان الافضل أدلج ليلا واستصحب نجبا وخيلا فرجعوا الى دمشق وقيل لما عبر الافضل بالبيت المقدس وجد فى طريقه نجابا مسرعا فاستحضره واستكشف ورده وصدره فقال أنا نجاب فخر الدين ايباز سركس وهى كتبه الى من يأنس به ويحبه فتسلم منه الكتب وعاد النجاب فى خدمته فلما وصل الى القاهرة احتفل سركس له وأضاف وقدم وغرم أموالا ثم أبصر نجابه واقفا ببابه فأخبره الخبر فاستشعر من ذلك وتضور غضبى وتبعه عسكره وزين الدين قراجه فوصلا الى القدس وسكنا به وعرف الناصرية جلية الحال فاخذوا فى الانتقال وتوهم الافضل من الباقين فقبضهم وحوى جوهرهم وعرضهم فتفرقت الكلمة المجتمعه وتوقفت الهمم المسرعه وأمر الافضل بالخطبة لابن العزيز على جميع المنابر ثم الدعاء له فى الآخر ونقشت السكة أيضا باسم الولد فى البلد وغير البلد فلما استقر الافضل بمصر حملوه على قصد دمشق وحصرها وقالوا له اطلب بلدك الذى منه أخرجت وعن المقام فيه أزعجت ومالك فى مصر ما يكفيك ودمشق لك بوصية أبيك وجاءته رسل أخيه الظاهر من حلب وهداياه وقال له انتهز الفرصة فعمنا عنا مشغول والى أن يتم من ماردين مراده وينضم الى بياضه سواده تخرج دمشق عن يده ويحله اليوم فيها عن غده وأنا أصل اليك وأقدم عليك بالبنود والجنود والاساود والاسود فجاز الوابه حتى خرج بالعسكر واستناب سيف الدين يازكوج مكانه قال ووصل الى الملك العادل الامير سراسنقر أحد الامراء الناصرية المفارقين فاستحثه على مفارقة ماردين وتواصل من الناصرية جماعة بعده وعندهم من الاستحثاث ما عنده فحركه القول وتجرد عن العسكر واستصحب معه الاميرين عز الدين ابن المقدم وبدر الدين دلدرم وسرى ليلا الخمس بقين من رجب وأوصى ولده الكامل أن يسير فى مضايقة حصن ماردين بسيرته ويقتدى بعزمته ووصل الى دمشق يوم الاثنين حادى عشر شعبان وأخذ فى تحصين البلد ووصلت العساكر المصرية يوم الخميس وأحاطت بدمشق ودخلها جماعة منهم من باب السلامة بلغوا الى السوق الكبير وأعلنوا الفتح بالتكبير ولم يتبعهم أحد على هذا التدبير فخرجوا من باب الفراديس وكروا على أعقابهم لمن وقف لهم من الكراديس واما الافضل فانه وصل الى الميدان الاخضر وضرب فيه دهليز سرادقه وأقدم برواعده وبوارقه فأشار عليه أمراؤه بالتأخر عن تلك المنزله وكانت منهم زله فنزلوا عند ميدان الحصا ثم تأخروا الى مسجد القدم وامتلأ ذلك الفضاء بضارب الخيم ففترت الصدمة الاولى وقصرت الصدعة الطولى وخمد الجمر فصار رمادا واستحالت تلك الامواج المتلاطمة ثمادا ولزموا منازلهم أكثر من ستة أشهر هنالك وتمت فوارط عدمت الاستدراك وامتدت خيامهم من اقصى داريا الى الغوطه وظنوا انهم آخذون بمخنق دمشق المضغوطه وكاتب الملك العادل جماعة من أمراء العسكر المصرى ففارقوه ودخلوا دمشق فاكرمهم واحترمهم منهم طغرل المهرانى وايازالبانياسى وابن كهدان ومنقال الخادم وابن أخت السلطان ابن سعد الدين

كمشبه وكثر الواصلون القاطعون لمن وراءهم واحسن العادل جزاءهم فتكاثرت الاطماع وتتابعت الرؤس والاتباع ووصل الملك الظاهر ومعه أخواه الظافر والمعز وجاءهم الملك المجاهد صاحب حمص وعسكر حماه دون سلطانها وحسام الدين بشاره صاحب بانياس وهو شيخ الدولة وكبيرها وامينها واميرها وفي حمايته حصنا تبنين وهونين وما يزال أسرى من كبراء الفرنج بدين الله عنده مرهونين فرغبهم في السلامة والسلم والاحتمال والحلم وأشار على كل من الجانبين بتجنب المجانبه والتقرب بالمقاربة والمراقبه وجاءهم أيضا سعد الدين مسعود صاحب صفد وأخو نور الدين مودود قال ولما جنبوا عن مضايقة الحصار واصلوا قطع الاشجار وكسر الانهار ومنع كل ما يدخل البلد من نعمة ونعم وغنيمة وغنم حتى ربوا القوافل وصدوا الفروض والنوافل قال وكان الناصرية المقيمون بالقدس قد استولوا عليه ونظفوا من ارتابوا به حواليه وأخرجوا منه المغاربه ورجاله وأجناده الراتبه ومعهم الامير فارس الدين ميمون صاحب نابلس وعز الدين سامة صاحب كوكب وبيسان ثم وصل الخبر بان سركس ومن معه واصلون الى دمشق فتجرد من المحاصرين عسكر الى طريقهم وكانوا قد وصلوا الى طبرية وعبروا منها الى البقاع وتمكنوا خلال تلك الضياع وسيروا الى بعلبك ما صحبهم من الاثقال والاحمال وكان صاحبها الامجد في جانب الملك العادل وتجردوا حيلا وقطعوها ليلا وتوقلوا الجبال حتى أشرفوا على دمشق من عقبة دمر وقد فانوا العسكر فتقوى عسكر البلد فصاروا يبكرون ويركبون ويقربون من العسكر المصري ولا يرقبون وحفر المحاصرون حولهم خندقا عميقا فصارلهم بدعى الحصار شغل شاغل قال وعلى الجملة فما ظهر منهم صنع الا في قطع الماء ومنع الميره والمضايقة الكبيره واحراق البساتين وتخريب الطواحين حتى اذا انحسمت المواد وفنيت في البلد الازواد واضطروا الى التسليم واضطربوا على التأخير والتقديم فتسلط الرعية على الملك العادل وحملوه على التسليم والاستسلام فتباينت أراء الملوك المحاصرين بما دبره العادل سيف الدين ولا بد للكبار من الاحتيال اذا صمم الصغار على الاغتيال وليس في ذلك بدعه فان الحرب خدعه فنفذ الى الظاهر في الباطن وقال له أنت السلطان وحكمك على جميع الاماكن والمواطن وأنا أسلم اليك دمشق على انها تكون لك لا لغيرك فقال الظاهر لاخيه الافضل قد لذني في الانعام بدمشق منة المتفضل فقال له هذه لا تخلو من أقسام جالبات لاسقام أجلك ان لا تتولاها نوابه النائب وان أخذتها دوني فمن النوائب وان أعطيتني عنها عوضا مما أعرف لك فيه غرضا فما لك ما يصلح ان تقايض به دمشق وأنت لا تدعى لها العشق فتغير بهذا رأى الظاهر والله المطلع على الضمائر وقيل أرسل العادل وقال أسلم اليكم دمشق بعد سبعة أشهر وتربص وتصبر فخذوا يميني وكلوني الى ديني وظن انهم لا يوافقون وفي الحصر يضايقون فلما أجابوه الى هذا الملتمس وقعقعوا في الاستضاءة بهذا القبس عرف انهم نادمون فيما هم عليه من الحصر قادمون فعاد عن هذا البذل وردهم الى سنن العدل وقيل كان يكتب الى الافضل ان الامر انفصل مع الظاهر وانه يعاملك معاملة المسر لا المجاهر فخذ لنفسك وابدل معي وحشتك بانسك ويكتب أيضا الى الظاهر ان الافضل قد صالحني وعلى الرضى صالحني وانك تحصل على المضاغنه وستفضي بك المباينة الى المغابنه وقيل انه كان يكتب في كل يوم أجوبة كتب قوم لم يكاتبوه ويجيبهم عما فيه لم يخاطبوه وخبرت تلك الملطفات في عجين لم تفترق على من يقصد العسكر من المساكين فاذا فتشوا عثر على تلك الملطفات فنعت من كتب اليه ولا علم له بالآفات وعدوا من المخامرين فصار أكثر العسكر من المتهمين

﴿ثم دخلت سنة ست وتسعين﴾ وهم على ذلك والشتاء قد هجم وكل بأمره مهتم ودهمهم أيضا خبر وصول الملك الكامل من الشرق وخرج من دمشق جماعة يظهرون انهم من الناصحين وتردد وا اليهم ومنهم غادين ورائحين وأبرقوا وأرعدوا وقالوا غدا يكون قدوم الملك الكامل في الجحفل الحافل ومعه من المال الصامت الى أبيه العادل فيستظهر بولده والمال والرجال فلا يقعد عن النهوض الى القتال والصواب ان نتأخر قليلا فرحلوا الى سفح جبل العقبه وبقيت أسواقهم مملوءه وباتوا تلك الليلة وهم لكل ما يحتاج اليه عادمون وعلى ما فرط منهم نادمون وفقدوا حتى الماء للشرب وكانت تلك الحالة كسرة قبل الحرب فاضطربوا المحل المحيل واضطروا الى راحة الرحيل ووصل الكامل تاسع عشر صفر وقد جمع التركمان واستصحب جند الرها وحران ونزل في جوسق أبيه فاستبشر

السلطان برحيلهم وقدوم ابنه وقضت خشية الله بأمنه وأقام الكامل حتى توجه أبوه الى مصر فخرج معه أياما ثم عاد ولم يؤثر مقاما وانتقل الى حران والرها واستقام به أمرها وذلك حادى عشر ربيع الاول وأما المحاصرون فانهم انتقلوا من الكسوة الى مرج الصفر وسير الملكان الظاهر والمجاهد بعض الاثقال الى بانياس وأصحبا بقية الاحمال الملك الافضل الى مصر وودّعاه وكلاهما سار جريدة الى مقره واستمر بعد ذلك على امرار أمره وكلما رحل القوم عن منزل أحرقوا ما لم يظفروا به بجمل وانتقلوا من مرج الصفر ولم يلووا على أحد ولم يعرجوا الى بلد وأخذوا فى السير والسرى وذهبت آسادهم تروم معاودة الشرى وتبعهم الصلاحية ينزلون بعدهم فى منازلهم ويخلفونهم فى مناهلهم وكان القوم ظنوا انهم يقدرون بمرج الصفر على الاقامه فلقوا من البرد ما حضهم على النجاة والسلامه وهذا المرج بقرب جبل الثلج فى تموز لا يقيم به الا لابس فروة فكيف فى كانون وقد عرفوا انهم الجانون حيث لم يلزموا القانون وأرسلت الصلاحية الى الملك العادل يستعجلونه ويحثونه ولا يمهلونه فخرج يوم الخميس تاسع ربيع الاول وودّع أعيان البلد وساروتلا من تقدّمه الى تل العجول وأقام حتى اجتمع اتباعه وأرسل الى الافضل العدل النجيب أبا محمد وكان صلاح الدين رحمه الله يعتقد فى صلاح دينه ويمكنه من خواص حاجاته ويرسله فى مهام الرسائل وكان مدلول الرسالة أرفق فى السير ووافق على الخير فما عندك اليوم من يصدقك وأما لك كالوالد وأبلغك مقصودك وأحالفك ولا أخالفك وأوافقك ولا أفارقك فاشار على الافضل جماعته بان يرد جواب الرسالة ان مقاربتى لك بما عدتك للصلاحية منوطه وموافقتى بمخالفتهم مشروطه فلما سمع ذلك الصلاحية استشاطوا وانفروا واستدلوا به على ان ظفروا وجدّجدّهم واحتدّحدّهم فطووا المراحل الى السائح وكان الافضل على بلبيس وقد تفرّق معظم أصحابه الى أخبارهم وجماعة منهم مع العادل فى الباطن كاتبوه وعلى الابطاء عاتبوه فسار الجمعان بعضهم الى بعض والتقوا فانكسر أصحاب الافضل وانهزموا فدخلوا القاهره وأغلقوا الابواب للمحاصره وانتهى الى الافضل ان جماعة منهم أرسلوا الى العادل فى اصلاح أحوالهم وانجاح آمالهم فقال سيف الدين يازكوج للافضل لكل زمان عمل ولكل أوان أمل فاصلح الامر كيفما تهيا فلا ملام على اللبيب باى زى تزيا فشرع الافضل فى اصلاح الامر مع عمه وراسله على ان يكون بحكمه ثم سلم الامر ومرسالما وحصل له من التجربة ما عاد به بالعواقب عالما فمال وخيم العادل بالبركه واستبد بملك مصر آمنا من الشركه ونفذ المقطعين الى اقطاعهم ونظر للصلاحية فى صلاح ضياعهم وأرسل الى الافضل ان وافقتنى على ما أعطيك وقبلت سعدت فهؤلاء الذين عندك ما منهم الا من كتب الىّ وتقرّب وانتظر يومى هذا وترقب وهذه إضبارة كتبهم فتأملها وان لم تصدّقنى فتسلمها واعلم انهم غرّوك وضرّوك وساؤوك بما سرّوك وقيل لم يبق من الامراء ممن لم يكتب اليه ولم يخامر الا أربعة أخلصهم سيف الدين يازكوج فلما عرف الافضل صدق عمه سلم المسئله وسأل المعدله فقرر للافضل فى ديار بكر ميافارقين واعمالها وجبل جوروحانى وجلين والمعاقل والحصون المحسوبة من ميافارقين فرضى بها مكرها وخرج الى الشام متوجها ليلة السبت سابع عشر ربيع الآخر فى الليلة التى دخل العادل فى بكرتها القاهرة فاستقر بدار السلطنة وقدّم سيف الدين يازكوج وحكمه واستبقى رضى الناصرية بابقاء الخطبة لابن العزيز ولم ينافسهم مع حصول المعنى له فى التفضيل والتميز وأقام وهو كل يوم فى ارتفاع وسياده وقوته فى نموّ وزياده قال ورد القضاء الى القاضى صدر الدين عبد الملك بن درباس الكردى ولم يزل قاضى القضاة بالديار المصريه من الايام الناصريه وكان نائبه القاضى زين الدين على بن يوسف الدمشقى وتعصب الامراء المتغلبون على الملك العزيز فى مراتبه بصرف صدر الدين وتولية نائبه ولم يزل صدر الدين مصروفا تارة بمحيى الدين ابن أبى عصرون وتارة بزين الدين حتى تعصب العادل له وبعث العزيز على ودّه فلما انقضت أيام العزيز وجاء الافضل كان أوّل ما حمل عليه ان صدر الدين يعزل وتولى زين الدين القضاء فلما جاءت نوبة العادل فى هذه السنة ردّ صدر الدين الى منصبه وردّ التدريس بالمدرسة الشافعية فى التربة المقدسه وبالمشهد الشريف الحسينى الذى أجرى عليه حكم المدرسه الى شيخ الشيوخ صدر الدين ابن حمويه وكتب اليه وهو بدمشق فاستدعاه وقد كان ذلك ولاه فى ممالكه الجزريه أمور المناصب الشرعيه والاموز الدينيه ومدارس الشافعيه وربط الصوفيه وهو قاضى قضاتها ووالى هداتها وهادى ولاتها واه

فى مناصبه نواب وفى مراتبه أصحاب قال ولما دخل العادل القاهره استشعر أصحاب الدواوين مهابة الوزير صفى الدين ابن شكر الظاهره ونزل فى الدار السلطانيه فى الحجرة الفاضليه وتصدر فى مكان مكانته وشهر من قلمه غضب شهامته وسيف صرامته وقمع المتجبرين ووضع المتكبرين وأخذ قوس الوزارة باريها وأجرى الله الامور أحسن مجاريها قال وندب العادل من الاسدية والصلاحية أميرين كبيرين الى الشام لاصلاح ذات البين بحمص وحماه وحلب وغيرها وهما سراسنقر وكرجى قال ولما ودع الافضل عمه بالبركة سار الى صرخد وأقام بها وندب الى البلاد التى بديار بكر من يتسلمها ولما انفصل عن مصر وجد المواصلين له لصحبته مفارقين وكذا الدنيا ما تقبل على أحد ولا تمده بمدد الا تواردت على حياضه الجموع وتزاحم فى رياضه الرتوع فاذا صرفت عنه وجوهها صرف أهلها عنه الوجوه وأحلوا به فيها مكروه المكروه قال وأما الظافر فان عمه أحسن اليه ووعده بعطاء جزيل وودعه بثناء جميل وأقطعه باعمال دمشق حزرما وضياع السواد وشق عليه انه لا يجد ما يجود به وهو من الاجواد ووصل الى دمشق رابع جمادى الآخرة وسكن فى جوسق بستانه بالنيرب وسلك طريقة الاحتراز والاحتراس واختار البعد عن مقاربة الناس ولزم السكينه ولم يدخل المدينه وطلب من القاضى بجامع النيرب خطيبا شافعيا ليكون بالصلاة فيه عن حضور الجامع بالبلد غنيا واحتاط غاية الاحتياط وطوى بساط النشاط

(فصل) قال العماد واستدعى العادل ابنه الكامل الى مصر ليستنيبه فيها وكان بحران وهو فى تلك البلاد نائب السلطان فسلم تلك الولاية الى أخيه الفائز ووصل الى دمشق سادس عشر شعبان ونزل بجوسق أبيه فى بستانه ومعه شمس الدين المعروف بقاضى داراو هو وزيره ومستحثه على المكارم ومشيره قال وخدمته بكلمة اولها

أنتم تحبون بالاعراض تعذيبى ❁ وتقصدون بخلق الصد تهذيبى
ساروا فيا صحتى من مهجتى ارتحلى ❁ غابوا فيا سنتى عن مقلتى غيبى
قد كان يضمنى دهرى فادركنى ❁ محمد بن أبى بكر بن أيوب
الكامل المالك الاملاك حيث له ❁ رق الاعاجم منهم والاعاريب
معطر عرفه عرفا ومكرمة ❁ مخرطينه بالطهر والطيب
لا يدعى جوده البحر الخضم ولا ❁ يلفى تأبيه فى الشم الشناخيب
دعتك مصر الى سلطانها فاجب ❁ دعاءها فهو حق غير مكذوب

قال وعزمت على صحبته فى هذه السفرة الى مصر فخرج فى الثالث والعشرين من شعبان الى الكسوة وخرج سلطان دمشق الملك المعظم ليودع سلطان مصر أخاه الكامل وصحبه الى رأس الماء مع عدة من الامراء ثم ودعه وانصرف وتشوش مزاج الكامل بعده وانحرف ووصل الى العباسة فى الحادى والعشرين من رمضان والتقاه والده العادل وانزله بالقصر ثم ركب اليه بعد يومين واستصحبه الى الدار ورتب أحواله على الايثار وكان قد عقد له على ابنة عمه الملك الناصر رحمه الله فادخله اليها ليبنى عليها قال وأصبح العادل يوم الاثنين سابع عشر شوال وركب بالسنجق السلطانى والمركب الخسروانى والسيوف المسلوله والعقود المحلوله وأمر الخطيبين بجامعى مصر والقاهرة بالخطبة له ولولده الكامل من بعده ليس بعد دعاء الخليفة الا الدعاء لهما وانقطعت الخطبة لابن العزيز وكان أحضر جماعة من الفقهاء والقضاه والكبراء والولاه وقال لهم قول المستفتى المستشير هل تصح ولاية الصغير فقالوا هذا مولى عليه فلا يلى وغيابات الحوادث بنظره لا تنجاب ولا تنجلى فقال فهل يجوز للمولى الكبير ان ينوب عنه الى أن يكبر ويرتب الامور بحكم النيابة ويدبر فقالوا اذا كانت الولاية غير صحيحة فلا تصح النيابه ومن رآه صوابا أخطأ به الاصابه لا سيما فى السلطنة التى هى خلافة الخليفه فلا حق فيه الا للكبير الذى يعين على الحقيقه وجرى منهم فى هذا المعنى الامعان فلما عرف الشرع أحضر الامراء والتمس منهم الطاعة والسمع وخاطبهم فى اليمين له والميثاق والزمهم بالوفا والوفاق فأبوا وخاطبهم بما راعهم وملأ بالتقريع اسماعهم ثم قال قد علمتم ما هو الواجب من التظافر على حفظ ثغور الاسلام وتدبير الممالك بمصر والشام وما هذا أمر يناط بالصبيان أو يحاط بغير

ذى القدرة والسلطان فاذعنوا وأطاعوا وحصل الائتلاف ورفع الخلاف قال ولما أصبحنا يوم السبت شاهدنا الملك الكامل قد ركب مثل والده معقودا سنجقه بعاقده والمناصل مجذوبه والصواهل مجنوبه والاعين ناظره والالسن ذاكره ومشى فى ركابه من اليه تحبب والى السلطان تقرّب قال وركب يوم الخميس السابع والعشرين من شوّال الى برج المقسم والمقسم موضع على شاطئ النيل يزار وهناك مسجد يتبرك به الابرار وهو المكان الذى قسمت فيه الغنيمة عند استيلاء الصحابة رضى الله عنهم على مصر ولما أمر صلاح الدين رحمه الله بادارة السور على مصر والقاهرة وتولاها الامير قراقوش جعل نهايته التى تلى القاهرة عند المقسم وبنى فيه برجا هو مشرف على النيل ذو شرفات ومعقل ذو طبقات وثيق البناء رفيع الفناء وبنى مسجدا جامعا واتصلت العمارة منه الى البلد متتابعة المدد وهو منتزه عن الاكدار والاقذار منزه وبالجنات مشبه والى البحر والبر بمناظرة الشبابيك موجه فاختار الكامل أن يجلس فيه يوما للتفرج فجلس فى الطبقة العليا واجتمع الامراء والاعيان فى الطبقة الدنيا ثم مدّ السماط فى الجامع ثم ذكر العماد انه مدحه ثم بكلمة أوّلها

مغرم القلب مدنف * وجده ليس يوصف ❊ وعدونا واخلفوا * ووفينا ولم يفوا

قال وفى الحادى والعشرين من شوّال قدم فلك الدين أخو العادل من دمشق قلت هو أخوه لامه واسمه أبو منصور سليمان ابن شروه بن جلدك واليه تنسب المدرسة الفلكيه بنواحى باب الفراديس بدمشق وبها قبره قال العماد وفى هذا اليوم خطب للعادل وابنه الكامل والعادل فى مهامه يستشيره ويستدعيه والمرء كثير بأخيه ثم عاد الى دمشق بعد شهور قال وفى العشرين من الشهر خرج حاج مصر الى البركة وأمر عليهم نصير الدين الخضر ابن بهرام وكان والى المحله وهو مستمر الولاية من الايام الصلاحيه وحج معه من معروفى الاجناد وأمرائها عدّة وكذلك حج فى هذه السنة حاج دمشق وصحبهم الامير عز الدين سامه وكانت السنة مباركه والنعم متداركه والخير عام والخصب تام قال وانتظر نا زيادة بحر النيل فى أوقاتها فبلغ الى احدى وعشرين أصبعا من ثلاث عشرة ذراعا فعاد بذلك كل قلب مرتاعا ثم أخذ فى النقص وهو مرجو الزياده مأمول الوفاء على العاده فقنط الناس ووقع الياس واشتدّ المحل وغلا السعر ويئس الفلاحون من الفلاح واجفلوا من البلاد للانتزاح وطاروا بأجنحة النجاة فى طلب النجاح وقيل ان هذا النقص لم يعهد من عهد الصحابه وشرعنا فى الاستغفار والانابه وصام الناس ثلاثة أيام قبل يوم الترويه وكانما أصابهم مصيبة فهم فى التعزيه ثم استسقوا ثلاثة أيام الى العيد وأفاض الخطيب فى ذكر الوعيد وغصت بالخلائق الامكنه وضجت بالادعية والضراعات الالسنه قال وفى السنة التى قبلها وهى سنة خمس وتسعين استدعى القاضى ضياء الدين أبو الفضائل القسم بن يحيى بن عبد الله الشهرزورى الى بغداد وولى قضاء القضاة وكان متولى القضاء بالموصل فخرج فى أواخر شعبان فلما وصل بغداد بجل وعظم وكان قد تردّد الى بغداد دفعات فى الايام الصلاحية بسبب الرسالة فهو كان المعين لها كما تقدّم ذكره

(فصل) فى وفاة جماعة من الاعيان فى هذه السنة أعنى سنة ست وتسعين قال العماد وفيها ثالث عشر جمادى الاولى توفى فى داره بدمشق الامير صارم الدين قايماز النجمى وكان متولى أسباب صلاح الدين رحمه الله فى مخيمه وبيوته يعمل عمل أستاذ الدار واذا فتح بلدا سلمه اليه واستأمنه عليه فيكون أوّل من افتض عذرته وشام ديمته وحصل له من بلد آمد عند فتحه ومن ديار مصر عند موت عاضدها أموال عظيمة وتصدّق فى يوم واحد بسبعة آلاف دينار مصرية عينا وأظهر انه قضى من حقوق الله فى ذمته دينا وهو بالعرف معروف وبالخير موصوف يحب اقتناء المفاخر ببناء الربط والقناطر ومن جملتها رباط خسقين ورباط نوى وله مدرسة مجاورة داره ولما كفى الله دمشق الحصر نهض وراء العادل الى مصر فردّه الى دمشق ليلازم خدمة الملك ولد المعظم ويكون من أقوى عدده وأوفى عدده وكان فى خلقه زعاره وكانت حصافته مستعاره قال ولما دفن نبشت أمواله وفتشت رحاله وحضر أمناء القاضى وضمناء الوالى واخرجوا خبايا الزوايا وسموط النقود وخطوط النسايا وغيروا رسوم المنزل ومعالمه واستنبطوا دنانيره ودراهمه وحفروا أماكن فى الدار وبركة الحمام فى الجوار فحملوا أوقارا من النضار وظهروا على الكنوز المخفيه والدفائن الالفيه فقيل زادت على مائة ألف دينار وهو قليل فى جنب ما يحرز به من كذا وكذا قنطار

واستقل ماطواه الحزن وأخفاه الدفن وقيل كان يكنز فى صحارى ضياعه ومغارات اقطاعه قلت وانهم بعده جماعة بأن له عندهم ودائع وتأذى بذلك المتأبى منهم والطائع وداره بدمشق هى التى بناها الملك الاشرف أبو الفتح موسى بن العادل دار الحديث فى سنة ثلاثين وستمائة وأخرب الحمام الذى كان مجاورا لها وادخله فى ربعها وذلك فى جوار قلعة دمشق بينهما الخندق والطريق وثم مدرسته المعروفة بالقيمازيه قال العماد وفى جمادى الآخرة من هذه السنة توفى يعنى بمصر الحاجب لؤلؤ وكان فى الايام الصلاحية أشجع الشجعان وأفرس الفرسان وله مقامات فى الغزاه ومواقف مع العداه وهو الذى نهض وراء مراكب الفرنج الناهضة فى بحر ايلة الى برالحجاز وأتى فى كسرهم وأسرهم بالاعجاب والاعجاز وكانوا قطعوا الطريق فى بحر عيذاب على التجار وحصلت أموالهم تحت الاستيلاء بعد حصولهم تحت الاسار فأنقذ واستنقذ ومانزل حتى أخذ وساق الى القاهرة أولئك الكفار مقهورين واعتقلهم بها مأسورين قلت وفيه يقول الرضى بن أبى حصينة المصرى يخاطب الفرنج

عدوكم لؤلؤ والبحر مسكنه * والدر فى البحر لايخشى من الغير
فأمر حسامك أن يحظى بنحرهم * فالدر مذ كان منسوب الى النحر

وقد قيل فيه أشعار كثيرة تقدم بعضها فى أخبار سنة ثمان وسبعين قال العماد ومن دلائل سماحه ماشاهدته بالقاهره فى سنة احدى وتسعين من مبراته الظاهره انه لما حط القحط رحله ووصل المحل محله وتم الغلا وعم البلا ابتكر هذا الحاجب الكبير مكرمة لم يسبق اليها وذلك انه كان يخبز كل ليلة اثنى عشر ألف رغيف فاذا أصبح جلس على باب الموضع الذى فيه حشر الفقراء ثم يفتح من الباب مقدارما يخرج منه واحد بعد واحد ويعلم انه غير عائد فيتناول كل منهم قرصه ويرى ذلك من خيراته فرصه فمايزال قاعدا حتى يفرق الالوف على الالوف وكان هذا دأبه فى هذا الغلاء حتى هب رخاء الرخاء فحينئذ تنوعت صدقاته واستغرقت بالصلاة أوقاته وكان بهى الشيب نقى الجيب قد جعل الله البركة فى عمره وخصه مدة حياته بامرار أمره فأنجده فى اوان ضعفه بتضعيف بره ولاشك انه من الاولياء الابدال والصالحين الصالحى الاعمال قال وفى يوم السبت الحادى والعشرين من ذى القعدة وأنا بالديار المصرية توفى الفقيه الكبير شهاب الدين الطوسى وهو أكبر الائمة الشافعية ورئيسها واليه فتياها وتدريسها وهو من أصحاب محمد بن يحيى وكم واجه الملوك بالحق المر وأنكر عليهم ماينكرونه من العرف ويعرفونه من النكر ولما وصل الى مصر كان تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب متوليها فأعجبه سمت المذكور فولاه مدرسته بمصر وهى المعروفة بمنازل العز فوليها وأقام فيها مفيدا حتى فاز فى جنة النعيم بفوزه وخلت منازل العز من منازل عزه وأصبح الناس حول سريره مزدحمين وعليه متوجعين فوصلوا به الى القرافه معان الرحمة والرأفة وهناك الاصاغر والاكابر من الملوك والامراء مشاه وجنازته بما فيه من لباس التقوى مغشاه ولما انفضوا أيديهم من ترابه انفضوا من أيادى بركته متربين وبنار اللهف والتلهب عليه مضطرمين ونمى الخبر الى حماه وعرف بن تقى الدين فولى قاضى دمشق محيى الدين بن الزكى بمصر وقوف أبيه وسير نائبه لتسلم ذلك وتوليه وكان اتفق حضوره عنده فى الرساله فاهتدى برشده الى الضلاله قال وفى العشرين من جمادى الآخرة توفى الفقيه العالم بدر الدين بن عسكر رئيس الحنفية بدمشق قلت وقيل كانت وفاته فى تاسع عشر جمادى الاولى ويعرف بابن العقاده * قال وفى سابع عشر شعبان توفى بحلب الفقيه الكبير ظهير الدين عبد السلام الفارمى وكان أبرع فقيه وأفقه بارع ورد الى اصفهان سنة تسع وأربعين ولقى بها العلماء المبرزين وخالط صدورها بنى الجندى وكان تفقه بكرمان وقرأ على فخر الدين الرازى من أكبر تلامذة محمد بن يحيى وتنقل فى بلاد خراسان والعراق ولقيته بمصر سنة اثنتين وسبعين فى العهد الصلاحى وسامه السلطان المقام بها ليفوض اليه التدريس بقبر الشافعى رضى الله عنه فعبر وماصبر وعاد الى البلاد ثم وفد الى دمشق فى جمادى الاولى سنة خمس وتسعين ثم سار الى حلب فى ثانى شعبان فكان من وفاته بها ما كان قال وفى هذه السنة توفى بنيسابور الفقيه الكبير محيى الدين ابن محيى الدين محمد بن يحيى وفيها توفى صاحب آمد قطب الدين سكمان ابن نور الدين قرا أرسلان وفيها مات بدمشق فى العشر الاوسط من شعبان الهمام العبدى الشاعر البغدادى وهو أبو الحسن على بن نصر بن عقيل بن أحمد بن على بن عبد القيس من ربيعة

وقدم دمشق سنة خمس وتسعين وهو أشعر من رأيته في هذا الزمان وسمعته ينشد الملك العادل ودمشق محصوره كلمة شاعره وصادفته ذا سمت حسن وفصاحة وحصافة ولسن ومعه ديوان شعره يحوي قلائد دره وفرائد سحره وتوفر على مدح الامجد صاحب بعلبك ومن شعره

وما الناس الا كامل الحظ ناقص ❁ وآخر منهم ناقص الحظ كامل
واني لمستثر من حياء وعفة ❁ وان لم يكن عندي من المال طائل

قال وتوفي في هذه السنة قبل الفاضل بثلاثة أيام الاثير بن بنان وكان مشمولا في الدولتين بكل قبول واحترام واحسان وكان السلطان لما تصرف في القصر ولا بيع موجوده وبذل في نصرته غاية مجهوده ولما فرغ من شغله أبقاه على رسم انعامه كله واستمر امراره واستقر قراره وجلس في بيته يسمع عليه رواياته العالية حتى أدرك أيام الملك العزيز ولم يدرك في العز املا ولم يملك عملا حتى تغير خلقه وتقلل رزقه وتبطل حقه وآل أمره الى اعتقاله بالديون واحتياسه في الرهون وممن غاظه وزير العزيز وكان مؤدبه في الصغر واستوزره في الكبر واسمعه ما كرهه وقال له ما أحسن ما أدبت مخدومك وخرجته وعلى مراتب اخلاقك درجته وقال للفاضل أنا خلصتك في أيام شاور مرتين ودافعت عنك دفعتين وهذه قصائدك في مدحي ومقاصدك لمحي وكان يعرف لتقادم عهده وانتقاله في الحالات مبادي أرباب المناصب الى الغايات فكرهه النواب ودحضوه ولمعارض النوائب عرضوه وكان بالقاهرة جاري وباب داره مقابل باب داري وأنا أعينه في الايام الصالحيه باصلح اعانه واصونه بأرجح صيانه

(فصل) في وفاة القاضي الفاضل رحمه الله قال العماد وفي هذه السنة تمت الرزية الكبرى والبلية العظمى وجميعة أهل الفضل بالدين والدنيا وذلك بانتقال القاضي الفاضل من دار الفنا الى دار البقاء في داره بالقاهرة سادس ربيع الآخر يوم الثلاثاء وكان يعني ذلك اليوم بمصاف الافضل يوم الكسره وبمصاب الفاضل يوم الحسره وذكر انه ليلة الثلاثاء في مدرسته صلى العشاء وجلس مع الفقيه ابن سلامة مدرسها وتحدث معه ما شاء وشوهد من كل ليلة ابش وأبسم وأهش وقد طابت المحاضره وطالت المسامره وانفصل الى منزله صحيح البدن فصيح اللسن وقال لغلامه رتب حوائج الحمام وعرفني حين أقضي مني المنام فوافاه سحر للاعلام فما اكترث بصوت الغلام ولم يدر ان كلم الحمام حمى من الكلام وان وثوقه بطهارته من الكوثر أغناه عن الحمام فبادر اليه ولده فالفاه وهو ساكت باهت فعرف ان القدر له باغت فلبث يومه لا يسمع له الا أنين خفي علم منه انه بعهد الله وفى ثم قضى سعيدا ومضى شهيدا حميدا فوقاه الله تعالى الوصية فكانت له بسيد الاولين والآخرين اسوه وان تردى عن رداء العمر فله من حلل البقاء في عليين كسوه ولانه لم يبق في مدة حياته عملا صالحا الا وقدمه ولا عهدا في الجنة الا أحكمه ولا عقدا في البر الا أبرمه فان صنائعه في الرقاب وأوقافه على سبل الخيرات متجاوزة عن الخراب لاسيما أوقافه لفكاك أسرى المسلمين الى يوم الحساب وأعان طلبة الشافعية والمالكية عمدداره بالمدرسة والايتام بالكتاب والخيرات الدارة على الايام فكانت حياة ثانية الى يوم البعث واعادة حياة الانام وكان رحمه الله للحقوق قاضيا وفي الحقائق ماضيا سلطانه مطاع والسلطان له مطيع وفضله جامع وشمل الفضل به جميع وهو واحد الزمان وصاحب القران قد خصه الله بالمكانة والامكان والسلطان رحمه الله من مفتتحات فتوحه ومختتماتها ومبادي أموره دولته وغاياتها ما افتتح الاقاليم الا باقاليد آرائه ومقاليد غنائه وغنائه وكنت من حسناته محسوبا والى مناسب الآيه منسوبا أعرف صناعته ويعرف صناعتي وأعارض بضاعته الثمينة ببزجاة بضاعتي ولم يزل يجذب بضبعي ويجلب نفعي وما أوسع درعه للخطاب في شغلي اذا ضاق بالخطب الشاغل ذرعي وكانت كاتبه كتائب النصر وبراعته رائعة الدهر وبراعته بارية للبرية وعبارته نافثة في عقد السحر وكانت بلاغته للدولة بجمله وللملكة مكمله وللعصر الصلاحي على سائر الاعصار مفضله ومفتتحاته في الفتوحات البديعة بديعه ومخترعاته في الصنائع المخترعة صنيعه وانما نسجت على منواله ومزجت من جريال وريت بزلاله وهو الذي

نسخ أساليب القدماء بما أقدمه من الاساليب وأغربه من الابداع وابدعه من الغريب وما الفيته كردعاء ذكره في مكاتبته ولا ردد لفظا في مخاطبته بل تأتى فصوله مبتكره مبتدعة مبتدهة لا مفتكره بالعرف والعرفان معرفة لانكره وكانت الدولة باد التـه تدال والزلفة بازالتـه تزال والكرام في ظله يقيلون ومن عثرات النوائب بفضـله يستقيلون وبعزجى حمايته يعزون ولهز عطف عطفه يهتزون فالى من الوفادة بعده ومن الافاده وفيمن السيادة ولمن السعاده والحمد لله الذى له الغيب والشهاده وانا لله وانا اليه راجعون ولامره منقادون وقد وصفه العماد أيضا في كتاب الخريدة في القسم الرابع في ذكر محاسن فضـلاء مصر واعمالها فقال وقبل شروعي في ذكر أعيان مصر وأحاسنها ومزايا فضلائها ومزاينها اقدم ذكر من جميع أفاضل الدهر وأماثل العصر كالقطرة في تيار بحره بل كالزرة في أنوار بحره وهو المولى القاضي الاجـل الفاضل الاسعد أبو على عبد الرحيم بن القاضي الاشرف أبي المجد على بن الحسن بن البيسانى صاحب القران العديم الاقران وواحد الزمان العظيم الشان رب القلم والبيان واللسن واللسان والقريحة الوقاده والبصيرة النقاده والبديهـة المعجزه والبديعة المطرزه والفضـل الذى ما سمع له بمماثل في الاوائل ممن لو عاش في زمانه لتعلق بغبـاره أو جرى في مضماره فهو كالشريعة المحمدية التى نسخت الشرائع ورسخت بهـا الصنائع يخترع الافكار ويقترع الابكار ويطلع الانوار ويبدع الازهـار وهو ضابط الملك بارائه ورابط السلك بآلائه ان شاء أنشأ في يوم واحد بل في ساعه مالو دون لكان لاهل الصناعة خير بضاعه أين قس في مقام حصافته ومن حاتم وعمرو في سماحته وحماسته فضله بالافضال حال ونجم قبوله في أفق الاقبال عال لامن في فعـله ولامين في قوله ولا خلف في وعـده ولا بطء في رفده الصادق الشيم السابق بالكرم ذو الوفاء والمروه والصفاء والفتوه والتقى والصلاح والندى والسماح منشر رفات العلم وناشر راياته وجالى غيابات الفضل وتالى آياته وهو من أولياء الله الذين خصوا بكرامته وأخلصوا لولايته قد وفقه الله للخير كله وفضـل هـذا العصر على الاعصار السالفة بفضله ونبله فهو مع مايته ولاده من اشغال المملكة الشاغله ومهماته المستغرقة في العاجلة لا يغفل عن الآجـله ولا يفتر عن المواظبة عـلى نوافل صـلاته ونوافل صـلاته وحفظ أوراده ووظائفه وبث أصفاده وعوارفه ويختم كل يوم من القرآن المجيد ويضيف اليـه ماشاء الله من المزيد وانا أوثر ان أفـرد لنظمه ونثره كتابا فانني أغار من ذكره مع الذين هم كالسها في فلك شمسـه وذكائه وكالثرى عنـد ثريا علمه وذكائه فانما تبدو النجوم اذا لم تبرز الشمس حاجبها وتحجب نور الغزالة عند اشراقها كواكبها وانه لا يؤثر أيضا اثبات ذلك فانا ممتثل لامره المطاع ملتزم له قانون الاتباع واضع أذني لاذنه قابض يميني عـلى يمنه راكن باملي الى ركنه قاطن برجائي في ظـل أمنـه افترض رضاه ولا اعترض عـلى مايحكم به ويراه ولا أقوم الا حيث يقيمني ولا أسوم الا مايسومني ولا أعرف يد المكتني غـير يده ولا أتصدى الا لما جعلني بصـدده وأسأل الله التوفيق للثبات على هـذا السنن وابتهاج جـدده وهو أحق ممدوح بمدحي وأقضاهم بحقه وأسماهم في أفقه واولاهم بصـدقه وأهداهم الى طرقه ولي فيه مدائح منظومة ومنثوره ومقاصد معاهدها معموره وقصائد قلائدها على مجده موفوره ثم ذكر منها بعض ماتقدم ذكره في مواضع من هذا الكتاب وله فيه من قصيدة أولها

بحياتكم ما عندكم بعدى * فسوى الاسى مابعـدكم عندى
ما للاحبـة لاعـدمتهم * رغبوا عن الاسـعاد في الزهد
ان لم يفوا فلقـد وفى كرما * عبـد الرحيم بذمة المجـد
ذو الرتبـة الشماء والشرف الـعالى السنا والسوده العـد
الناس كلهم له تبـع * في فضله والدهر كالعبـد
كم غاص بحر بنانه فغدا * درّ البيان يساق في العـقد
ان سود البيضاء بيـض مس * ثوب الليالى كل مسودّ
قـلم أقال البـلاد به * وثغورها للضبط والسـدّ

ملك كتيبته كتابته * فرد بجيش النصر فى جند
الاسمر الخطى تابعه * فى حكمه والابيض الهندى
والنائبات بحده ابدا * مثلومة مغلولة الحد

وهى طويلة ثم قال ولو أوردت من كلامه طرفا لظهر عجز الافاضل واعترفت بالقصور ذوو الفضائل فلا يحسن ذكر البحر فى الجداول ولا العرش فى المنازل فأنا أؤثران افرده بقسم لا يمتزج بسواه ولا يتبهرج به من فى جملته اوردناه ولعله يأذن لى فى ذلك فلا سبيل اليه الا باذنه ولا نفاذ للتصرف الا بعد الفكاك من رهنه تلت وقد قالت الشعراء فيه فاكثروا وقد تقدم لابى الحسن بن الذروى فيه أبيات حسنة عامى حجه وللتاج ابى الفتح البلطى فيه

لله عبد رحيم * يدعى بعبد الرحيم
على صراط سوى * من الهدى مستقيم
يمشى الى شرف فى * ذرى المعالى صميم
مهذب حاز ما شئـ * ـت من تقى وعلوم
نسك ابن مريم عيسى * وهدى موسى الكليم
يرى التهجد انسا * فى جنح ليل بهيم
مسهد الطرف يتلو * أى القرآن العظيم

وللقاضى السعيد هبة الله بن سناء الملك فيه من قصيده

عبد الرحيم على البرية رحمة * امنت بصحبتها حلول عقابها
ياسائلا عنه وعن أسبابه * نال السماء فسله عن أسبابها
والدهر يعلم ان فيصل خطبه * بخطى براعته وفصل خطابها
ولقد علت رتب الاجل على الورى * بسمو منصبها وطيب نصابها
واتته خاطبة اليه وزارة * ولطالما اعيت على خطابها
ما نقبوه بها لان بعلها * اسماءه أغنته عن القابها
مال الزمان لغيره اذرامها * تربت يمينك لست من أترابها
اذهب طريقك لست من آرابها * وارجع وراءك لست من أربابها
وبعز سيدنا وسيد غيرنا * ذلت من الايام شمس صعابها
واتت سعادته الى أبوابه * لا كالذى يسعى الى ابوابها
تعنو الملوك لوجهه بوجوهها * لا بل تساق لبابه برقابها
شغل الملوك بما يقول ونفسه * مشغولة بالذكر فى محرابها
فى الصوم والصلوات اتعب نفسه * وضمان راحته على اتعابها
وتجمل الاقلاع عن لذاته * ثقة بحسن مآلها ومآبها
فلتفخر الدنيا بسائس ملكها * منه ودارس علمها وكتابها
صوامها قوامها علامها * عمالها بذالها وهابها

وله فيه أيضا من أخرى

وسألت من أى المعادن ثغرها * فوجدت من عبد الرحيم المعدنا
ابصرت جوهر ثغرها وكلامه * فعلمت حقا ان هذا من هنا
ذاك الكلام من الكمال بمنزل * لا يدرك الساعى اليه سوى العنا
يدنو من الافهام الا انه * تلقاه ابعد ما يكون اذا دنا

قلت كان والده تولى القضاء بعسقلان وانفذ ولده الفاضل الى مصر فاتصل بكتاب الدولة المصرية ابى الفتح ابن قادوس وغيره وفتح الله عليه فى سنة الصناعة ففاق فيها أهل عصره مضافا الى ما منحه الله تعالى من علو قدره وقد سبق من ترسلاته ما يشهد لعظيم أمره وقرأت من نظمه

وسيف عتيق للعلاء فان يقل * رأيت ابا بكر فقل وعتيق
فزر بابه فهو الطريق الى الندى * ودع كل باب ما اليه طريق

وله ايضا

سبقتم باسداء الجميل تكرما * وما مثلكم فيمن تحدث أو حكى
وقد كان ظنى ان اسابقكم به * ولكن بكت قبلى فهيج الى البكا

ودفن رحمه الله بمقبرته بالقرافة وقرأت فى تاريخ ابى على حسن بن محمد بن اسماعيل القليوبى الذى ذيله على تاريخ ابى القاسم السمناني قال حدثنى الملك المحسن أحمد بن السلطان صلاح الدين ان يوم موت الفاضل اتفق دخول الملك العادل الى مصر وأخذها من ابن أخيه الافضل قال دخل العادل من باب وخرجنا نسرع بالجنازة من باب آخر قال وأكثر أهل مصر يذكرون ان كتبه التى جمعها مقدارمائة الف مجلد وكان يجمعها من سائر البلاد قال وسمعت قاضى القضاة ضياء الدين القاسم بن يحيى الشهرزورى ببغداد أيام ولايته يحدث ان القاضى الفاضل لما سمع ان العادل أخذ الديار المصرية دعا على نفسه بالموت خشية ان يستدعيه وزيره صفى الدين ابن شكر اليه او يجرى فى حقه اهانة وكان بينهما مقارصة فاصبح ميتا وكانت له معاملة حسنة مع الله تعالى وصلاة بالليل كما ذكروا عنه رحمه الله قلت واخبرنى القاضى الشهيد ضياء الدين بن ابى الحجاج صاحب ديوان الجيش رحمه الله ان القاضى الفاضل بعد صلاح الدين لم يخدم أحدا من اولاده وكانت الدولة بأسرها تأتى الى خدمته الى ان توفى قال ولما قدم العادل مصر وملكها بات واصبح فزار قبر الشافعى رضى الله عنه وجاء الى قبر الفاضل فزاره قال ابن ابى الحجاج وانا حاضر ذلك

﴿ثم دخلت سنة سبع وتسعين﴾ قال العماد فيها توفى الامير عز الدين ابراهيم بن شمس الدين بن محمد بن المقدم فى حصن افاميه وفيها او فى سنة ست قبلها توفى السلطان خوارزم شاه بن تكش بن ايل ارسلان بن انشز بن محمد وهو الذى زالت دولة السلجوقيه بملكه واجتمع له مع خوارزم خراسان والعراق ولما مات قام ولده علاء الدين مقامه قال وفيها كتب السلطان العادل للامير فخر الدين ايازشركس باعمال تبنين وهونين وبانياس والحوله وما يجرى معها وكانت مع الامير حسام الدين بشاره فحاصره وانجده الملك المعظم عيسى ابن السلطان من دمشق فسلم البلاد وخرج قال وفيها توفى الامير بهاء الدين قراقوش وهو من القدماء الكرماء وشيوخ الدولة الكبراء أمير الاسدية ومقدمها وكربها ومكرمها ولم ار غيره خصيا لم تقاومه الفحول ولم يؤثر فى محال مآثراته المحول وله فى الغزوات والفتوحات مواقف معروفه ومقامات موصوفه وهو الذى احتاط على القصر حين استتبت على متوليه أسباب النصر وذلك قبل موت العاضد بمدة ولما خطب لبنى العباس بالديار المصرية تسلم القصر بما فيه واستظهر على أقارب العاضد وبنيه وتولى عمارة الاسوار المحيطة بمصر والقاهره وابى فيها بالعجائب الظاهره وكان معاذ الالتجاء وملاذ الارتجاء غير انه نسب الى اللجاج لشدة ثباته وفرط جوده ولا يكاد يجم لصلابة عوده ولما توفى تسلم العادل داره بما حوته من الذخائر وصارت اقطاعاته للملك الكامل قال وفيها نقل الى العادل عن غلام الامير ايبك الفطيس ان جماعة قد عزموا على الفتك بالعادل حال ركوبه وأسند اصل ذلك الى الملكين المعز اسحق والمؤيد مسعود ولدى صلاح الدين رحمه الله فاحضر الغلام وعصره فمات ولم يقروا عتقل المعز والمؤيد ونزع من اتهمه فى ذلك من الامراء الصلاحيه وتكلم الناس باحاديث فى هذه القضيه قال وفى هذه السنة اشتد الغلا وامتد البلا وتحققت المجاعة وهلك القوى فكيف الضعيف ونهك السمين فكيف النحيف وخرج الناس حذر الموت من الديار وتفرق فرق بمصر فى الامصار ورأيت الارامل على تلك الرمال والجمال باركة تحت الاحمال ومراكب الفرنج على ساحل البحر على اللقم تسترق الجياع باللقم فقل من الى الشام خلص الا بعد ان قل عدد أهله ونقص قلت ثم زالت تلك الشده بعد مده وتوفى العماد

الكاتب رحمه الله مصنف هذه الكتب الفتح والبرق وهذه الرسائل الثلاث العتبي والنحلة والخطفة بدمشق في أول شهر رمضان من هذه السنه وهي سنة سبع وتسعين وخمسمائه ودفن بمقابر الصوفية بالشرف القبلي وفي هذه السنة توفي الشيخ أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي الواعظ وغيره رحمهم الله وتوفي الملك الافضل بسميساط في سنة اثنتين وعشرين وستمائة وحمل الى حلب فدفن بها وتوفي الملك الظاهر بحلب في سنة ثلاث عشرة وستمائة وفيها توفي بدمشق الشيخ تاج الدين أبو اليمن زيد بن الحسن الكندي ودفن بالجبل وغيره رحمهم الله وتوفي الملك العادل أبو بكر بن أيوب بدمشق في سنة خمس عشرة وستمائة وابنه المعظم في أواخر سنة أربع وعشرين وستمائة واخواه الاشرف والكامل في سنة خمس وثلاثين وستمائة رحمهم الله ووفق من بقي من أهل بيتهم وأصلح ذات بينهم آمين

ثم الجزء الثاني من الروضتين وبتمامه تم جميع الكتاب والحمد لله وصلاته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه وحسبنا الله ونعم الوكيل وافق الفراغ من نسخه في يوم الاربعاء رابع شهر المحرم الحرام افتتاح سنة ثلاث وعشرين ومائة والف غفر الله لكاتبه وقارئه ولمن رأى عيبا واصلحه وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ووالدينا ولمن يقول آمين

قال الفقير الى مولاه المعيد المبدى المدعو بابي السعود أفندى المترجم بقلم الترجمة بديوان عموم المدارس المصريه والقائم بوظيفة تحرير صحيفة وادى النيل العصريه تم بحمد الله طبع هذا الاثر الجليل والسفر المفيد الجميل بمطبعة وادى النيل المملوكة له الكائنة الآن في داره بعطفة درب المذبح بشارع باب الشعريه من الحاضرة القاهريه وقد كان هذا الكتاب طللا من تحريف النساخ عافيا فباعانة الله سبحانه أحييناه وكان رسما من تصحيف الكتاب واهيا فبقدرة الله جل شانه رفعنا مناره واعلياه وكان جدارا يريد أن ينقض بمرور الزمن فبتوفيق الله الحسن أقناه رجاء احياء الشعائر الاسلاميه وابقاء المآثر التاريخية العليه عسى أن يطلع على أحوال من ذكر فيه بعض من يوفقه الله للاطلاع عليه من أرباب الجاه والسطوه فيكون له فيه ان شاء الله تعالى أجل عبرة وأحسن اسوه وكان ختام طبعه وتمام تعميم نفعه من نسخة أصل باليد فريدة ظفرنا بها في الكتبخانة المصرية الخديويه في أواخر شهر رجب الفرد سنة ١٢٨٨ من الهجرة النبويه على صاحبها أفضل الصلاة والتحيه ولا ملام ولا عتاب

اذا كان قد فات علينا بعض غلط في تصحيح هذا الكتاب
فان سير الطبع لا يتحمل المهل والعمل صعب والنقد
اسهل وهل سلم كتاب مطبوع من فهرست
خطأ وصواب وآخر دعوانا من
فضل الاصحاب وغاية
رجانا من محبة
الاحباب
وان تجد عيبا فسد الخللا * فجل من لا عيب فيه وعلا

(ترجمة المؤلف)

وهذه هي ترجمة مؤلف الكتاب المسمى بالروضتين في اخبار الدولتين

وجدت على نسخة الاصل منقولة من كتاب فوات الوفيات لابن شاكر فأوردناها هنا احياء لذكر صاحب التصنيف وتعريفا لقيمة هذا التأليف الشريف

وهو عبد الرحمن بن اسماعيل بن عثمان الامام العلامة ذو الفنون شهاب الدين أبو شامة المقدسي الاصل الدمشقي الشافعي الفقيه المقرى النحوى ولد سنة ست وتسعين وخمسمائة بدمشق وكانت وفاته سنة خمس وستين وسبعمائه ودفن بمقابر باب كيسان قرأ القرآن العظيم وله دون العشر وجمع القراآت كلها سنة ست عشرة على الشيخ علم الدين السخاوى وسمع بالاسكندرية من الشيخ أبي القاسم عيسى بن عبد العزيز وغيره وحصل له سنة تسع وثلاثين عناية بالحديث وسمع أولاده وقرأ بنفسه وكتب الكثير من العلوم وأتقن الفقه ودرس وأفتى وبرع في العربية وصنف شرحا نفيسا للشاطبية واختصر تاريخ دمشق مرتين الاول في عشرين مجلدا والثاني في عشر وشرح القصائد النبوية للسخاوى في مجلد وله كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النوريه والصلاحيه وكتاب الذيل عليها وكتاب شرح الحديث المقتفى في مبعث المصطفى صلى الله عليه وسلم وكتاب ضوء القمر السارى الى معرفة البارى والمحقق في علم الاصول فيما يتعلق بافعال الرسول وكتاب البسملة الاكبر في مجلد وكتاب البسملة الاصغر وكتاب الباعث على انكار البدع والحوادث وكتاب السوالك وكشف حال بني عبيد والاصول في الاصول ومفردات القرا ومقدمة نحو ونظم المفاصل للزمخشري وشيوخ البيهقي وغير ذلك وذكر انه حصل له الشيب وعمره خمس وعشرون سنة وولى مشيخة الاقراء بقرية الاشرفية ومشيخة دار الحديث الاشرفيه وكان متواضعا مطرحا للكلف أخذ عنه القراآت الشيخ شهاب الدين الكفرى والشهاب أحمد اللبان وزين الدين أبو بكر بن يوسف المرى وجماعة وقرأ عليه الشاطبية الشيخ شرف الدين الفزارى الخطيب ودخل عليه اثنان جليلان الى بيته الذى بآخر المعمور في طواحين الاشنان ومعهم فتوى فضرباه ضربا مبرحا كاد يتلف منه ولم يدر به أحد ولا أغاثه وتوفي رحمه الله في تاسع عشر رمضان ودفن بباب الفراديس وقيل بباب كيسان قال رحمه الله تعالى جرت لى محنة بداري بطواحين الاشنان فألهم الله الصبر ولطف وقيل لى اجتمع بولاة الامر فقلت أنا قد فوضت أمرى الى الله تعالى وهو يكفينا وقلت في ذلك شعرا

قلت لمن قال أما تشتكى * ما قد جرى فهو عظيم جليل
يقيض الله لنا عاجلا * من يأخذ الحق ويشفي الغليل
اذا توكلنا عليه كفى * وحسبنا الله ونعم الوكيل

ومن نظمه في السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل الا ظله قوله شعر

امام محب ناشئ متصدق * وبالك مصل خائف سطوة الباس
يظلهم الله الجليل بظله * اذا كان يوم العرض لا ظل للناس

أشرت بألفاظ تدل عليهم * فذكرهم بالنظم في بعضهم قاسى

وقال في المعنى أيضا

وقال النبي المصطفى ان سبعة * يظلهم الله العظيم بظله
محب عفيف ناشئ متصدق * وبالك مصل والامام بعدله

(اه من كتاب فوات الوفيات لابن شاكر)

﴿فهرست﴾

مالابد من التنبيه عليه من الخطأ والصواب في الجزء الثاني من هذا الكتاب

صفحه	سطر	خطا	صواب
٢	١٢	لتثقيل	التثقيل
٩	٧	بطشة	ببطسة
٩	٢٤	قليج	قليج ارسلان (وهكذا)
١٧	١٩	فلاد	بلاد
٢٠	٠٥	المجبورين	المجيرين
٢٢	٣٦	أوعذنا	أوعزنا
٤٠	٣٣	نقوة	بقوه
٤٤	٢١	سحق	سنجق
٤٧	٣٤	ببطشة	ببطسة
٤٨	٧	ببطشة	ببطسة
٥٣	١٥	عزيز المروة	غزير المروة
٥٤	٣٦	تقراص لبرد	تقرص البرد
٩٤	٣٢	بن ملك	بن فلك
١٤٠	٣٢	فتقنطر	فتقطر
١٤١	٢٣	تقنطرت	تقطرت
١٤١	٢٤	فتقنطرت	فتقطرت
١٧٤	٢١	وادنا عطاياك	وادنى عطاياك
٢٠١	٢٩	ويسألناه	ويسألانه
٢٠٨	٢١	بديع التحمل	بديع التجمل

هذا ولم يزل يوجد في طبع هذا السفر الشريف بعض تحريف وتصحيف كنقص بعض نقط او عدم ضبط في طبع بعض الحروف لاتخفى على فهم القارئ البصير والله سبحانه وحده هو المنزه عن الغلط والسقط وهو العليم الخبير